
رائدة المرأة الحديثة
مذكرات
هدى شعراوي
www.kotobarabia.com

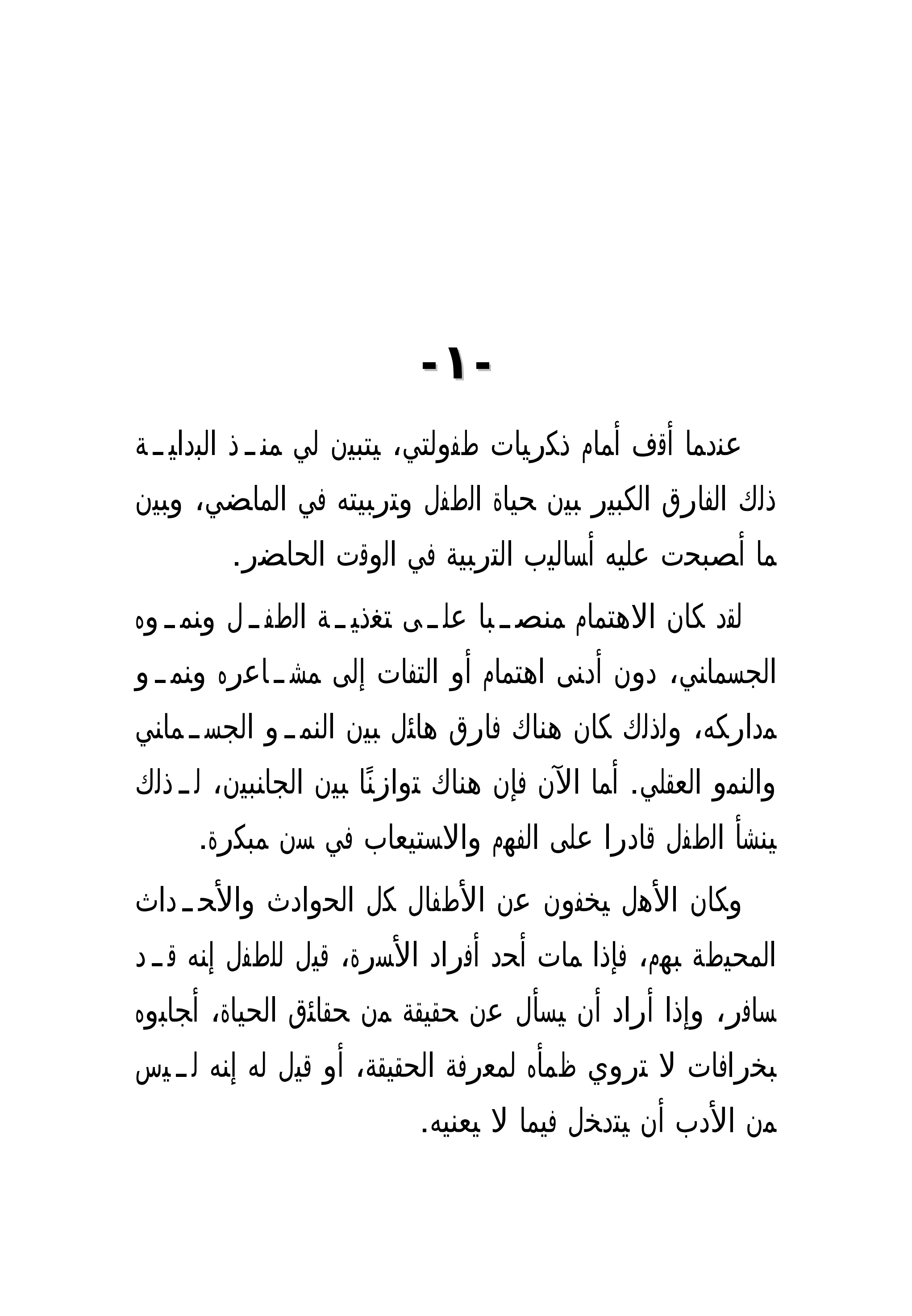
مذكرات

هدى شعراوي

رائدة المرأة الحديثة




أهم جروبات علي تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية



-١-

عندما أقف أمام ذكريات طفولتي، يتبين لي منـذ البدايـة ذلك الفارق الكبير بين حياة الطفل وتربيته في الماضي، وبين ما أصبحت عليه أساليب التربية في الوقت الحاضر.

لقد كان الاهتمام منصـبا علـى تغذيـة الطفـل ونمـوه الجسماني، دون أدنى اهتمام أو التفات إلى مشـاعره ونمـو مداركه، ولذلك كان هناك فارق هائل بين النمـو الجسـماني والنمو العقلي. أما الآن فإن هناك توازنًا بين الجانبين، لـذلك ينشأ الطفل قادرا على الفهم والاستيعاب في سن مبكرة.

وكان الأهل يخفون عن الأطفال كل الحوادث والأحـداث المحيطة بهم، فإذا مات أحد أفراد الأسرة، قيل للطفل إنه قـد سافر، وإذا أراد أن يسأل عن حقيقة من حقائق الحياة، أجابوه بخرافات لا تروي ظمأه لمعرفة الحقيقة، أو قيل له إنه لـيس من الأدب أن يتدخل فيما لا يعنيه.

ولقد كنت واحدة من هؤلاء الأطفال، وكان يعني بنا خدم جهلاء يخفون عنا ما كان يجـب أن نعرفـه مـن حقـائق، ويحيطوننا بسياج من الخرافات التـي تـؤثر فـي العقـول الصغيرة الساذجة.

ولأنني كنت قليلة الالتصاق بوالدي، فإنني لا أذكـر مـن حياتنا العائلية في طفولتي إلا القليل، ومن ذلك أننـي كنـت أذهب إلى غرفة والدي كل صباح لأقبل يده، وكان يصحبني في هذه الرحلة الصـباحية أخ لـي مـن أم ثانيـة اسـمه "إسماعيل"، وكنا نجد أبي متربعا على سجادة الصلاة يسـبح بمسبحته، فنقبل يده ويقبلنا، ثم ينهض ويفتح خزانـة كتبـه ويخرج لكل واحد منا قطعة من الشيكولاته، فنأخذها ونخرج متهللين.

ثم جاء ذلك اليوم الذي لا يمكن أن أنساه أبدا.. كنت ألعب مع شقيقي "عمر" عندما تناهى إلينا فجأة صراخ عـال يمـلأ أرجاء البيت وملأ الخوف قلبي، وتعلقت أنا وأخي بمربيتنـا، وفي ذلك الوقت أقبلت مرضـعتي مهرولـة، وهـي تتشـح بالسواد، وتصيح قائلة: لقد تحقق خبر الباشا.. فـاعطني يـا

"سياج" الطفلين لأذهب بهما إلى منزل مسعود باشا.. حتى لا يزعجهما الصراخ والعويل.

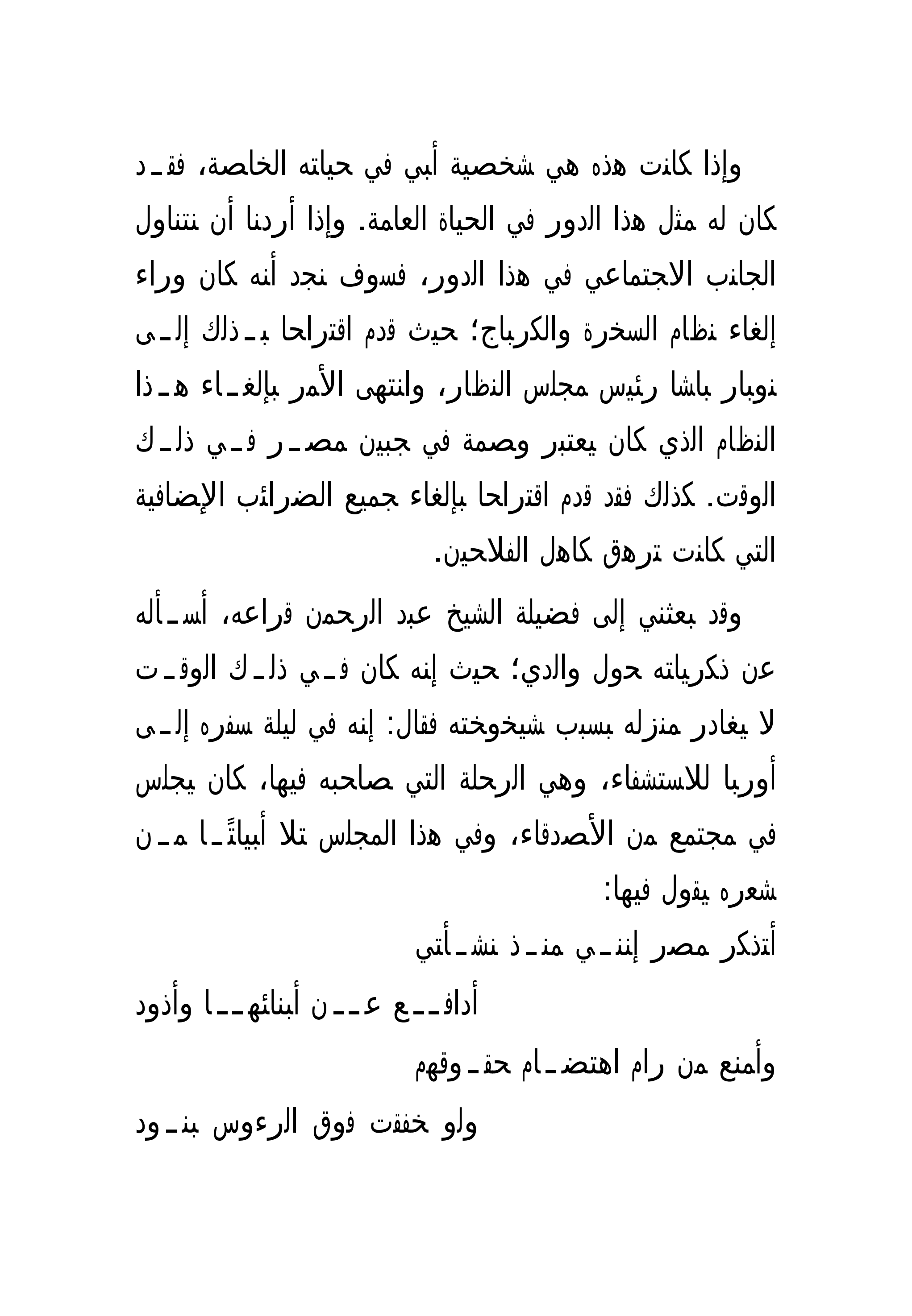
إن هذه الجملة لا تزال ترن فـي أذنـي حتـى اليـوم، ولا تزال تحدث صداها في أعماقي.. ولا تزال حرارتها في قلبي ونفسي..

كنت في الخامسة من عمري عندما وقـع هـذا الحـدث الجسيم، فقد توفي والدي المرحوم محمد سلطان باشا يوم ١٤ أغسطس ١٨٨٤ في مدينة جراتس بالنمسا، كان قد سافر إلى سويسرا للاستشفاء، ثم ذهب إلى جراتس بعد ذلـك، وكـان يعاني من صدمتين عنيفتين أثرتا في حالته الصحية إلى حـد بعيد؛ لدرجة أن الأطباء لم يجدوا دواء لدائـه إلا أن يسـافر بحثًا عن العلاج، وكانت الصدمة الأولى هـي وفـاة أخـي إسماعيل الذي كان يعقد عليه أبي كل آماله في المستقبل، فقد كان ذكيا يبدو أكبر من عمره في كل شيء، في الوقت الذي كان فيه شقيقي "عمر" ضعيف البنية والأمل في حياته ضئيل جدا.. أما الصدمة الثانية فكانت تلـك المأسـاة التـي أودت باستقلال البلاد إثر الحوادث العرابية، وما ظهر من سوء نية

الإنجليز بعد دخولهم مصر؛ حيث بدا واضحا أنهم لن يفكروا في الجلاء عنها!..

ولقد كان بودي أن أتحدث طويلاً وتفصيليا عن حياة أبي وأعماله، ولكن للأسف عندما فكرت في كتابة مذكراتي، كان كثيرون من الذين عاشوا هذا التاريخ وعرفوا أبي عن قرب قد فارقوا الحياة، ولم يكن أمامي إلا فهمي باشا الـذي لازم أبي خلال سنواته الأخيرة.

ولقد عرف عن أبي أنه كان يميل إلـى مجـالس الأدب والعلم، وقد تغنى كثير من الأدباء والشعراء بصفاته الطيبـة وأخلاقه الحميدة، وكان من أبرز شـيمه: الكـرم والوفـاء والترفع والتمسك بشعائر الدين، وتميز بالإخلاص والصراحة والشجاعة في إبداء الرأي والنزاهة والتجرد عـن الغايـات. كذلك فقد كان بارا بأهله في حياته وبعد مماته؛ حيث أوقـف عليهم جانبا كبيرا من ممتلكاته، كما فعل الشيء نفسه بالنسبة للفقراء، حتى لا يجد واحد من الذين كان يعولهم مشقة فـي الحياة من بعده، وقد أوقف على الحرمين الشريفين والأزهر الشريف والمساجد والمدارس جانبا من أوقافه.



وإذا كانت هذه هي شخصية أبي في حياته الخاصة، فقد كان له مثل هذا الدور في الحياة العامة. وإذا أردنا أن نتناول الجانب الاجتماعي في هذا الدور، فسوف نجد أنه كان وراء إلغاء نظام السخرة والكرباج؛ حيث قدم اقتراحا بذلك إلى نوبار باشا رئيس مجلس النظار، وانتهى الأمر بإلغاء هذا النظام الذي كان يعتبر وصمة في جبين مصر في ذلك الوقت. كذلك فقد قدم اقتراحا بإلغاء جميع الضرائب الإضافية التي كانت ترهق كاهل الفلاحين.

وقد بعثني إلى فضيلة الشيخ عبد الرحمن قراعه، أسأله عن ذكرياته حول والدي؛ حيث إنه كان في ذلك الوقت لا يغادر منزله بسبب شيخوخته فقال: إنه في ليلة سفره إلى أوربا للاستشفاء، وهي الرحلة التي صاحبه فيها، كان يجلس في مجتمع من الأصدقاء، وفي هذا المجلس تلا أبياتًا من شعره يقول فيها:

أتذكر مصر إنني منذ نشأتي

أدافع عن أبنائها وأذود

وأمنع من رام اهتضام حقوقهم

ولو خفقت فوق الرءوس بنود

وفي تلك الليلة، تحدث عن ابنه الراحل "إسماعيل"، وتلا أبياتًا من قصيدة كان قد كتبها في رثائه. وفيها يقول:

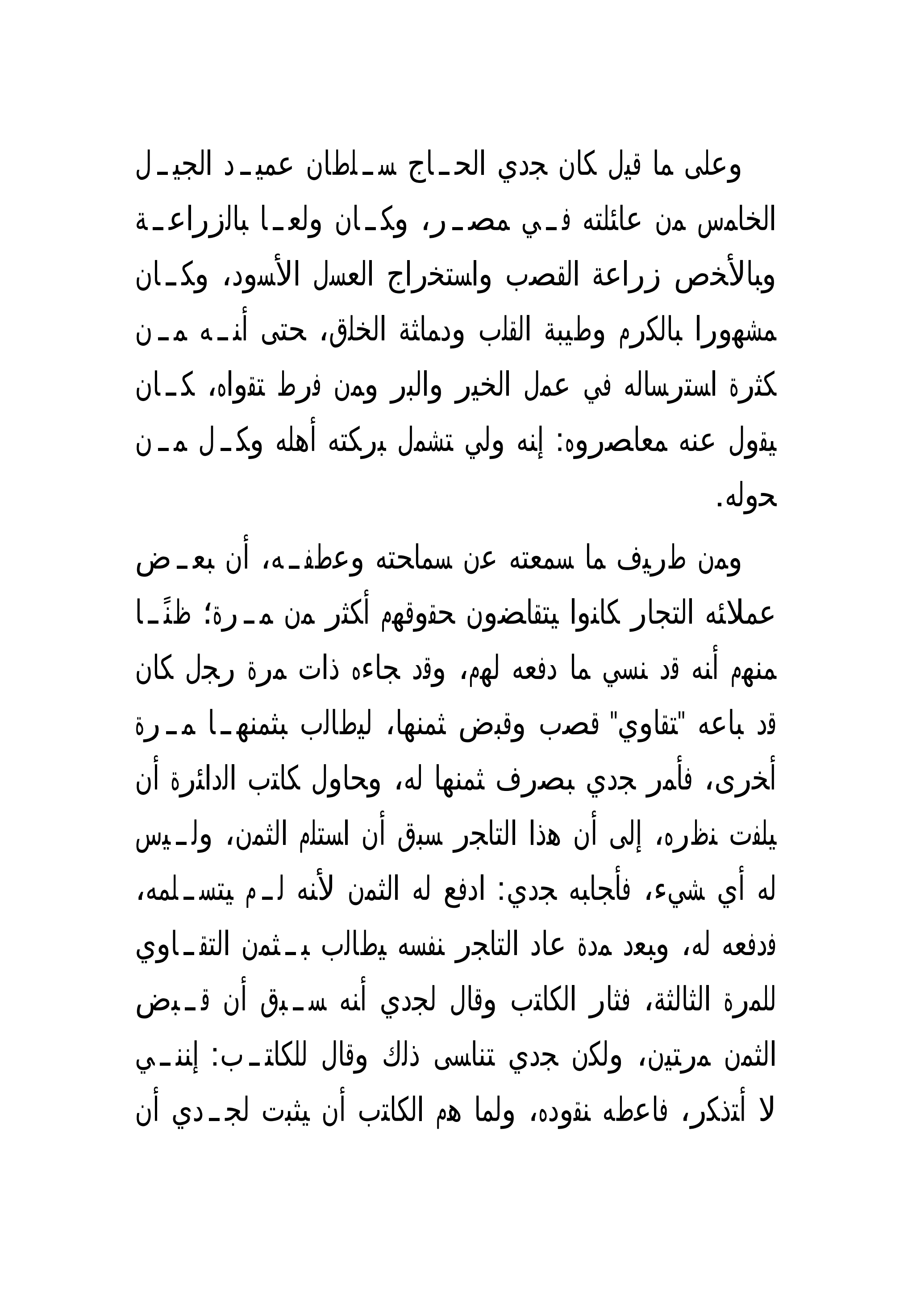
دعوني فـي اكتئـابي وابتئاسـي
أقاسي من زماني مـا أقاسـي

دعوني أسكب العبـرات وحـدي
فما لجـراح قلبـي قـط آسـي

ولقد عاش أبي صدر حياته بعيدا عن المناصب الحكومية، فقد كان عليه أن يرعى إخوته وأسرته، ثم اختيـر مـأمورا لقسـم قلوصـنا، وحـاول أن يعتـذر عنـه، فلـم يجـد إلا الإصرار.

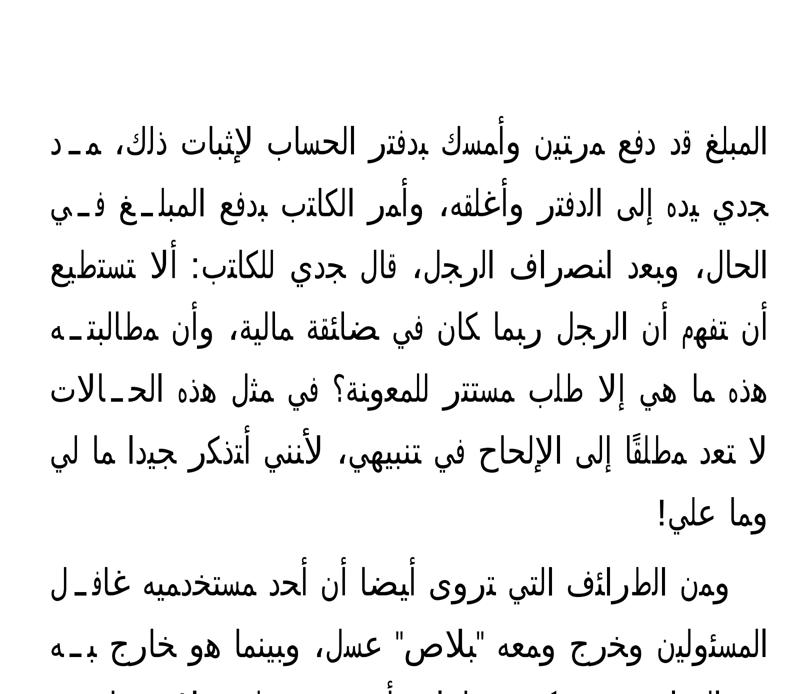
وتدرج بعد ذلك ليصبح وكيلاً لمديرية بني سـويف، ثـم مديرا لها، ثم مديرا للفيوم، ثم مديرا لأسـيوط، ثـم مـديرا للغربية، ثم مفتشًا عاما للوجه القبلي، ثم رئيسا لمجلس النواب ومجلس شورى القوانين ثم قائم مقام الخديوي.

وقد سمعت من بعض أقاربنا نقلاً عن آبائهم وأجدادهم أن والدي من أصل عربي، وقد استوطن أجداده أرض الحجاز، وهاجر نفر منهم إلى مصر قبل عهد علي باشـا واتخـذوها موطنًا لهم، وتزوجوا من مصريات.



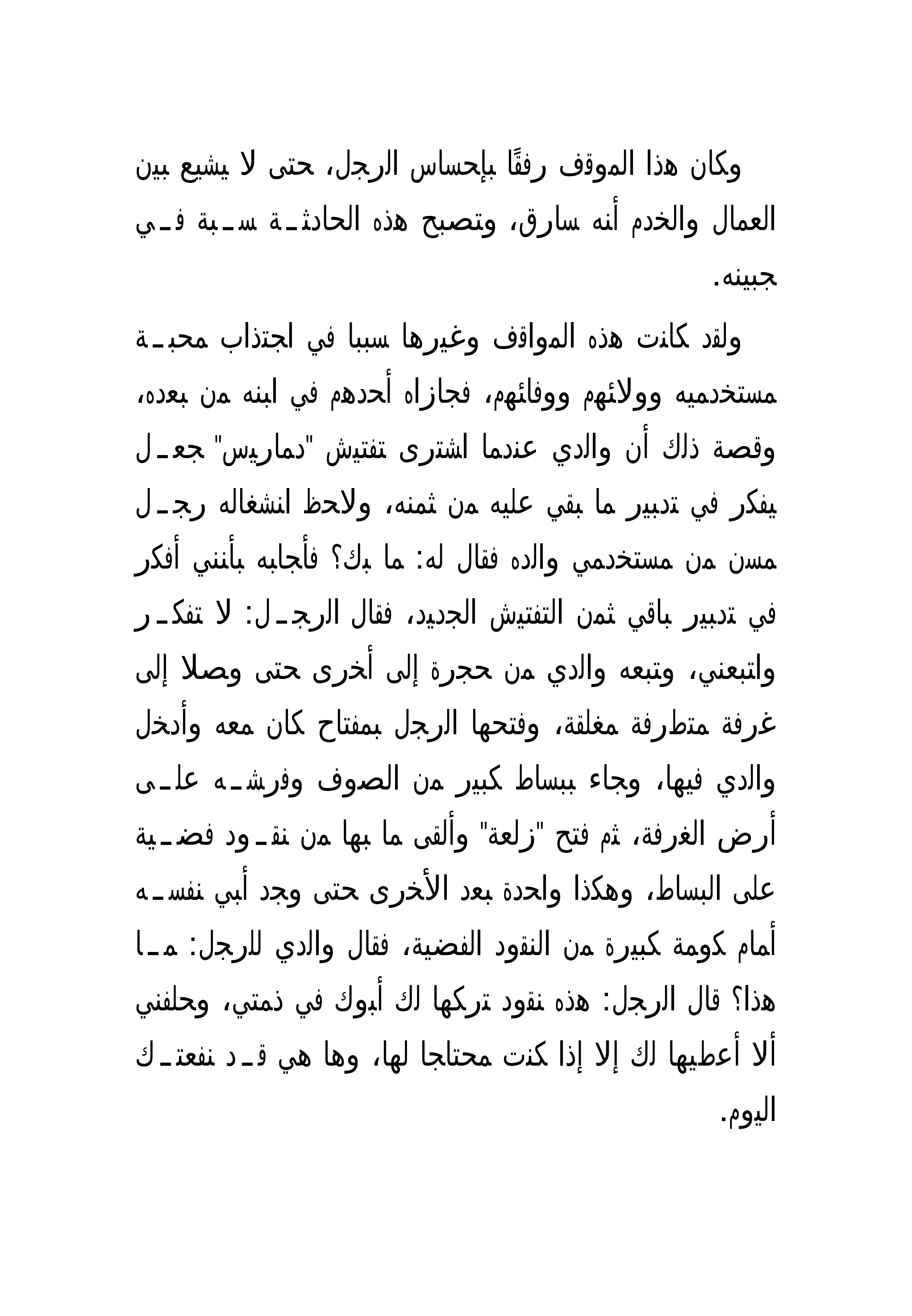
وعلى ما قيل كان جدي الحاج سلطان عميد الجيل الخامس من عائلته في مصر، وكان ولعا بالزراعة وبالأخص زراعة القصب واستخراج العسل الأسود، وكان مشهورا بالكرم وطيبة القلب ودماثة الخلق، حتى أنه من كثرة استرساله في عمل الخير والبر ومن فرط تقواه، كان يقول عنه معاصروه: إنه ولي تشمل بركته أهله وكل من حوله.

ومن طريف ما سمعته عن سماحته وعطفه، أن بعض عملائه التجار كانوا يتقاضون حقوقهم أكثر من مرة؛ ظنًا منهم أنه قد نسي ما دفعه لهم، وقد جاءه ذات مرة رجل كان قد باعه "تقاوي" قصب وقبض ثمنها، ليطالب بثمنها مرة أخرى، فأمر جدي بصرف ثمنها له، وحاول كاتب الدائرة أن يلفت نظره، إلى أن هذا التاجر سبق أن استلم الثمن، وليس له أي شيء، فأجابه جدي: ادفع له الثمن لأنه لم يتسلمه، فدفعه له، وبعد مدة عاد التاجر نفسه يطالب بثمن التقاوي للمرة الثالثة، فثار الكاتب وقال لجدي أنه سبق أن قبض الثمن مرتين، ولكن جدي تناسى ذلك وقال للكاتب: إنني لا أتذكر، فاعطه نقوده، ولما هم الكاتب أن يثبت لجدي أن



المبلغ قد دفع مرتين وأمسك بدفتر الحساب لإثبات ذلك، مد جدي يده إلى الدفتر وأغلقه، وأمر الكاتب بدفع المبلغ في الحال، وبعد انصراف الرجل، قال جدي للكاتب: ألا تستطيع أن تفهم أن الرجل ربما كان في ضائقة مالية، وأن مطالبته هذه ما هي إلا طلب مستتر للمعونة؟ في مثل هذه الحالات لا تعد مطلقًا إلى الإلحاح في تنبيهي، لأنني أتذكر جيدا ما لي وما علي!

ومن الطرائف التي تروى أيضا أن أحد مستخدميه غافل المسئولين وخرج ومعه "بلاص" عسل، وبينما هو خارج به من الدوار، وقد ركب حمارا، رأى جدي على خلاف عادته في الظهيرة جالسا أمام باب الدوار، فأسقط في يد الخادم واضطرب؛ لأنه كان يريد الترجل لتحية مخدومه، وأدرك جدي ما كان يعتمل في سريرة الخادم، فأسرع إليه وأمسك طرف عباءته وهو راكب، وغطى به البلاص وقال له: إذا لم يكن هذا الذي أمرت لك به كافيا لعيالك، فتعال إلي غدا لآمر لك بواحد آخر.



وكان هذا الموقف رفقًا بإحساس الرجل، حتى لا يشيع بين العمال والخدم أنه سارق، وتصبح هذه الحادثة سبة في جبينه.

ولقد كانت هذه المواقف وغيرها سببا في اجتذاب محبة مستخدميه وولائهم ووفائهم، فجازاه أحدهم في ابنه من بعده، وقصة ذلك أن والدي عندما اشترى تفتيش "دماريس" جعل يفكر في تدبير ما بقي عليه من ثمنه، ولاحظ انشغاله رجل مسن من مستخدمي والده فقال له: ما بك؟ فأجابه بأنني أفكر في تدبير باقي ثمن التفتيش الجديد، فقال الرجل: لا تفكر واتبعني، وتبعه والدي من حجرة إلى أخرى حتى وصلا إلى غرفة متطرفة مغلقة، وفتحها الرجل بمفتاح كان معه وأدخل والدي فيها، وجاء ببساط كبير من الصوف وفرشه على أرض الغرفة، ثم فتح "زلعة" وألقى ما بها من نقود فضية على البساط، وهكذا واحدة بعد الأخرى حتى وجد أبي نفسه أمام كومة كبيرة من النقود الفضية، فقال والدي للرجل: ما هذا؟ قال الرجل: هذه نقود تركها لك أبوك في ذمتي، وحلفني ألا أعطيها لك إلا إذا كنت محتاجا لها، وها هي قد نفعتك اليوم.

وقيل لي إن هذه النقود قد عبئت فـي جـوالات كثيـرة، وحملت على الدواب إلى المراكب حيث أرسلت للبنك.

وخلال الفترة التي كان فيها أبي في قلب الحياة العامـة، وقعت الحوادث العرابية، وقد تكون هذه فرصة لكـي أذكـر بعض ما أعرفه عن بعض مدعي الوطنية الذين اتهموا والدي بأنه ساعد على دخول الإنجليز نزولاً على إرادة الخـديوي توفيق.

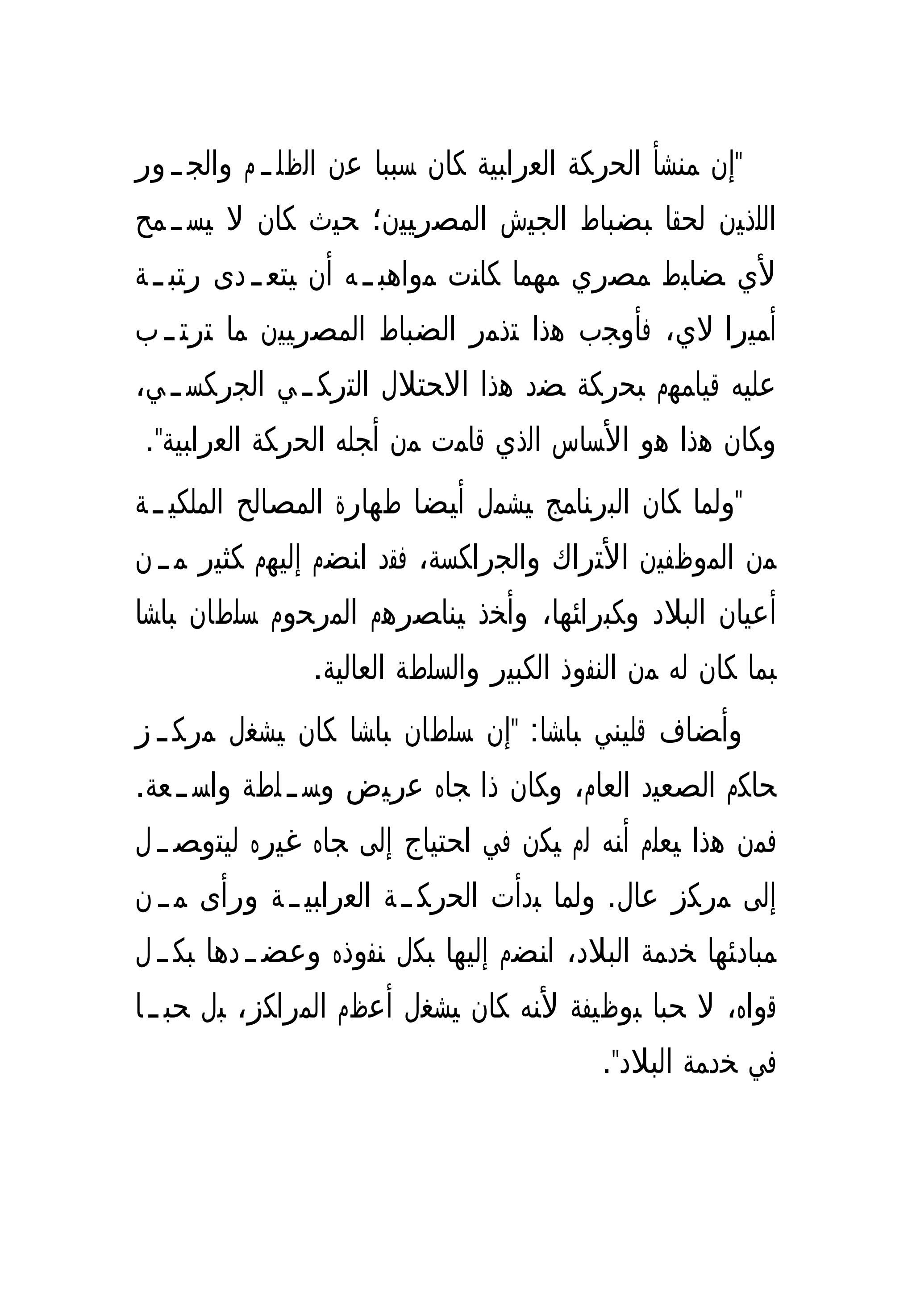
وليس أدل على أن ما ذكر كان مجافيا للحقيقـة، مـن أن الصحف كانت قد نشرت مذكرات منسوبة إلى عرابي باشـا بعد وفاته، وكان ما نشر يصادف هوى لدى أولي الأمر فـي ذلك الوقت. فلما تركوا زمام الحكم، جاء إلى عبـد السـميع أفندي عرابي يطلب مني المساهمة في طبع مذكرات أبيـه، فلما أبديت له دهشتي من أن يطلب طبع هذه المذكرات على نفقتي وفيها طعن في وطنية والدي كـذبا وبهتانًـا، أبـدى استعداده لحذف هذا الجزء من المذكرات، وكانت دهشتي هذه المرة أشد من سابقتها، وقد رفضت ذلك مقتنعة بأنه كما أراد حذف هذا الجزء بشرط المساعدة، فإنه لابد قد وضعه بشرط مثله خدمة لغرض آخر، وأسـفت أن هـذا حـدث شـفويا،

وإلا لكنت قد أدليت بالبرهان على كذب ما جاء في هذه المذكرات لعرابي باشا، ومع ذلك فسوف يأتي الحديث فيما بعد عن خطابين أرسلهما إلي عبد العزيز وعبد السميع عرابي ابنا عرابي باشا.

وكان عبد السميع قد كتب مقالات في جريدة المحروسة، ذكر فيها أن سلطان باشا كان من رؤساء الحركة الوطنية، وكان يظن أنه يستطيع بمواهب عرابي وقوة الجيش الحصول على رئاسة البرلمان، فأيد عرابي في جميع الأحوال إلى أن فازت الأمة بالمجلس النيابي. ولكنه لما رأى الأمة تتحدث باسم عرابي بكل إعجاب وثناء تسرب الحسد إلى نفسه. ولما تشكلت وزارة محمود باشا سامي كان يطمع أن يكون فيها وزيرا فلم يتحقق أمله.

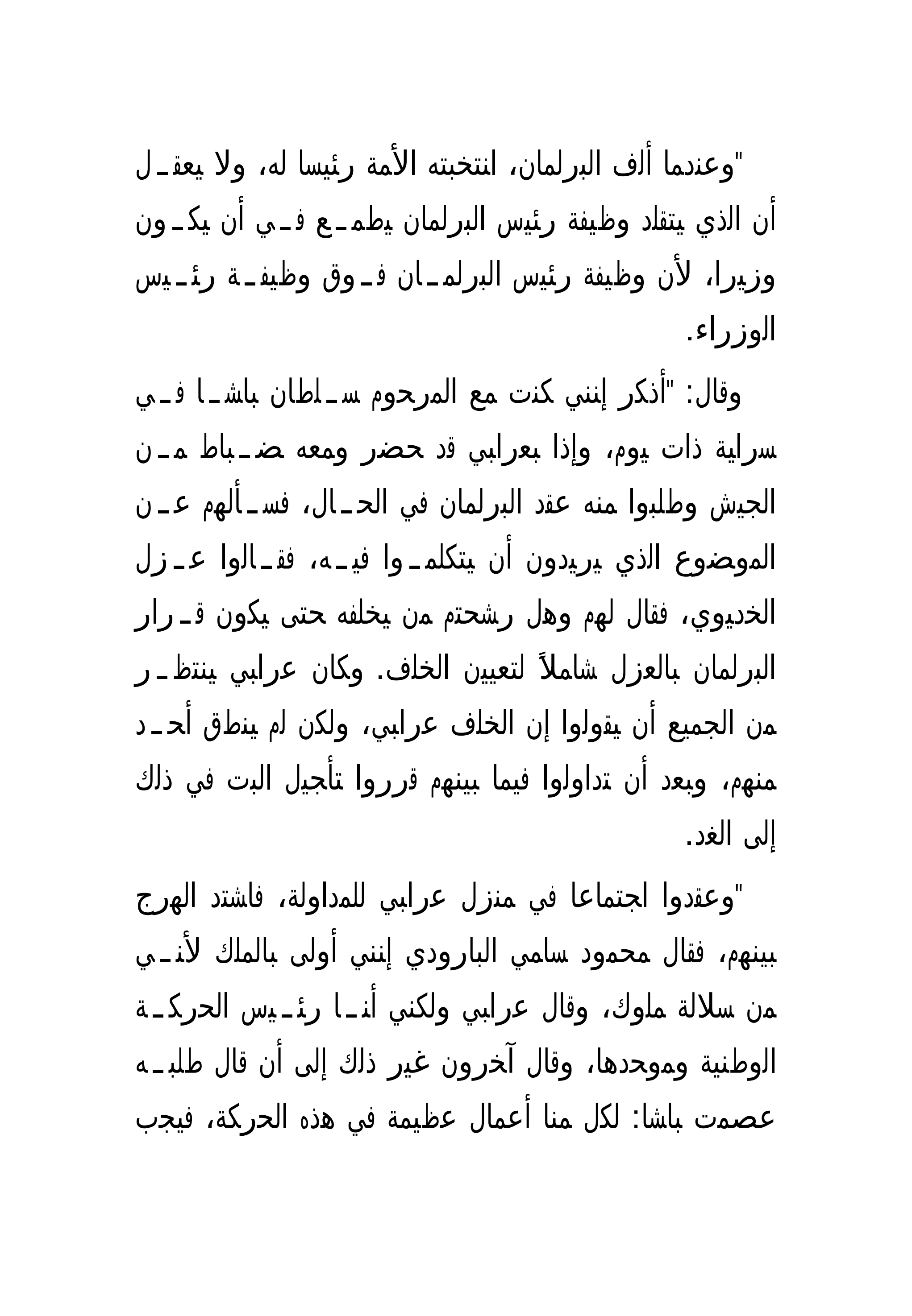
وعلى ذلك أخذ يضلل أعضاء مجلس النواب وغيرهم وينفرهم من عرابي ويغريهم بالتخلي عنه. ولكنه لم يفز لأن الأمة بكل طبقاتها كانت في جانب عرابي إلى النهاية.

وقد تصدى له قليني باشا فهمي؛ حيث نشر مقالاً في جريدة المقطم يوم الأربعاء نوفمبر ١٩٢٣ قال فيه:


"إن منشأ الحركة العرابية كان سببا عن الظلم والجور الذين لحقا بضباط الجيش المصريين؛ حيث كان لا يسمح لأي ضابط مصري مهما كانت مواهبه أن يتعدى رتبة أميرا لاي، فأوجب هذا تذمر الضباط المصريين ما ترتب عليه قيامهم بحركة ضد هذا الاحتلال التركي الجركسي، وكان هذا هو الأساس الذي قامت من أجله الحركة العرابية".

"ولما كان البرنامج يشمل أيضا طهارة المصالح الملكية من الموظفين الأتراك والجراكسة، فقد انضم إليهم كثير من أعيان البلاد وكبرائها، وأخذ يناصرهم المرحوم سلطان باشا بما كان له من النفوذ الكبير والسلطة العالية.

وأضاف قليني باشا: "إن سلطان باشا كان يشغل مركز حاكم الصعيد العام، وكان ذا جاه عريض وسلطة واسعة. فمن هذا يعلم أنه لم يكن في احتياج إلى جاه غيره ليتوصل إلى مركز عال. ولما بدأت الحركة العرابية ورأى من مبادئها خدمة البلاد، انضم إليها بكل نفوذه وعضدها بكل قواه، لا حبا بوظيفة لأنه كان يشغل أعظم المراكز، بل حبا في خدمة البلاد".



"وعندما ألف البرلمان، انتخبته الأمة رئيسا له، ولا يعقل أن الذي يتقلد وظيفة رئيس البرلمان يطمع في أن يكون وزيرا، لأن وظيفة رئيس البرلمان فوق وظيفة رئيس الوزراء.

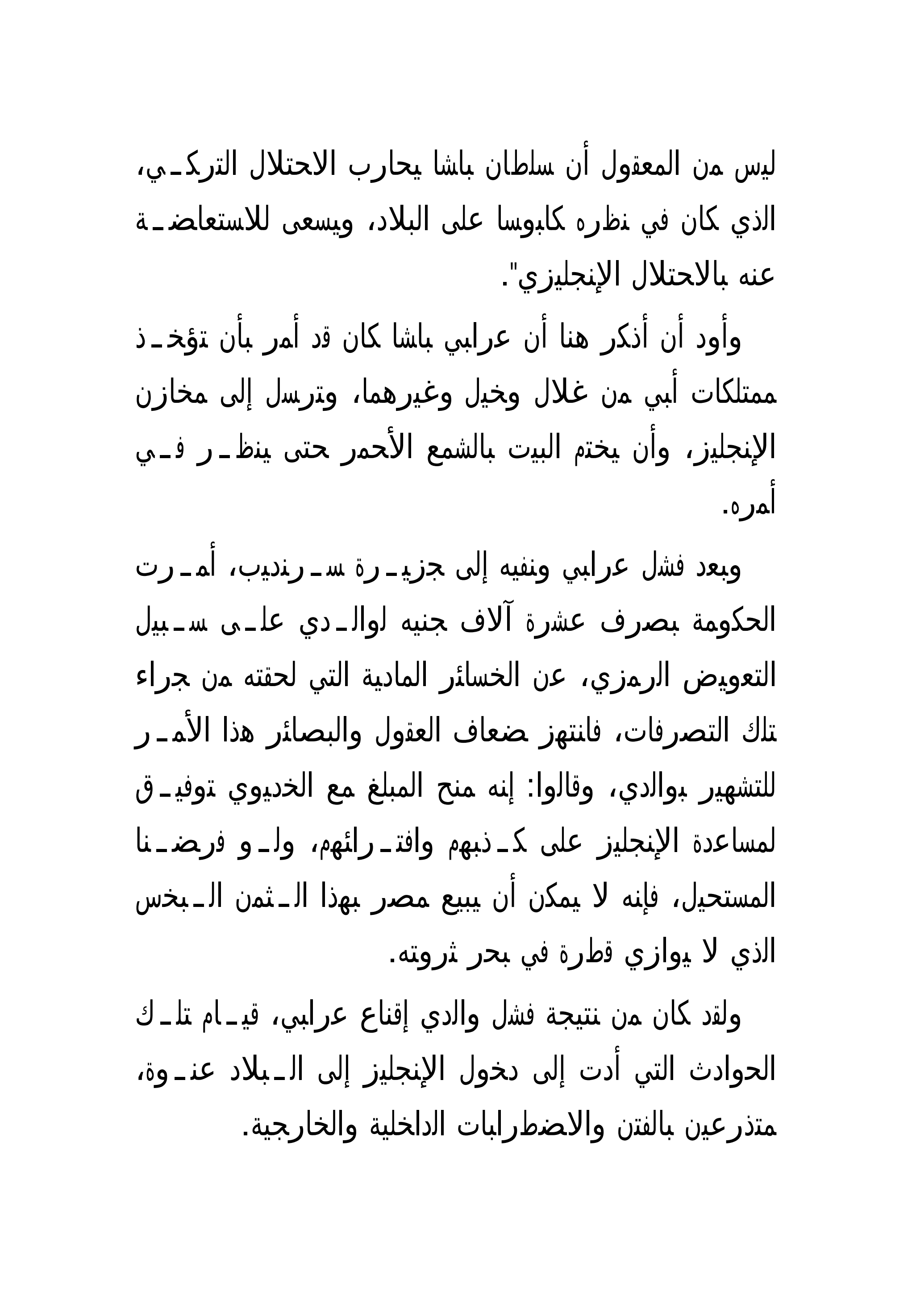
وقال: "أذكر إنني كنت مع المرحوم سلطان باشا في سراية ذات يوم، وإذا بعرابي قد حضر ومعه ضباط من الجيش وطلبوا منه عقد البرلمان في الحال، فسألهم عن الموضوع الذي يريدون أن يتكلموا فيه، فقالوا عزل الخديوي، فقال لهم وهل رشحتم من يخلفه حتى يكون قرار البرلمان بالعزل شاملاً لتعيين الخلف. وكان عرابي ينتظر من الجميع أن يقولوا إن الخلف عرابي، ولكن لم ينطق أحد منهم، وبعد أن تداولوا فيما بينهم قرروا تأجيل البت في ذلك إلى الغد.

"وعقدوا اجتماعا في منزل عرابي للمداولة، فاشتد الهرج بينهم، فقال محمود سامي البارودي إنني أولى بالملك لأنني من سلالة ملوك، وقال عرابي ولكني أنا رئيس الحركة الوطنية وموحدها، وقال آخرون غير ذلك إلى أن قال طلبه عصمت باشا: لكل منا أعمال عظيمة في هذه الحركة، فيجب

أن نعامل كلنا بالسواء بلا تمييز واحد على الآخر، فيحسن أن نجعل كل مديرية خديوية قائمة بنفسها، وكل منا يكون خديوا لها. وحينئذ يئس عرابي، واستحسن مع البعض أن تبقى الحالة كما هي عليه. وبعد ذلك توجه عرابي إلى سراي سلطان باشا، وشكره على نظره البعيد.

"نظر سلطان باشا إلى كل هذه الأحوال، وقال للعرابيين إنه يحسن بالجيش المصري أن يقف عند هذا الحد، لأن الأجانب قلقون جدا من العسكرية الدائمة، فلم يرق هذا القول للعرابيين وعدوه خيانة من سلطان باشا، ولم يعبئوا بنصيحته، بل ظلوا على تهديد العرش مما استوجب مخاوف الخديوي، فاستغاث بأوربا لتساعده على خلاص عرشه من التهديد.

"وعند دخول الإنجليز إلى مصر، أراد سلطان باشا أن يتحقق إلى أي حد ترمي المقاصد الإنجليزية. فأكد الجنرال دلسلي قائد الحملة أن مهمتهم هي إخماد الفتنة العرابية وحفظ العرش من التهديد. وبانتهاء ذلك تكون مهمتهم قد انتهت وينصرفون إلى بلادهم.. أكدوا هذا لسلطان باشا الذي كان مشغوفًا بحب وطنه وخائفًا من سيطرة الإنجليز عليه، لأنه



ليس من المعقول أن سلطان باشا يحارب الاحتلال التركي، الذي كان في نظره كابوسا على البلاد، ويسعى للاستعاضة عنه بالاحتلال الإنجليزي".

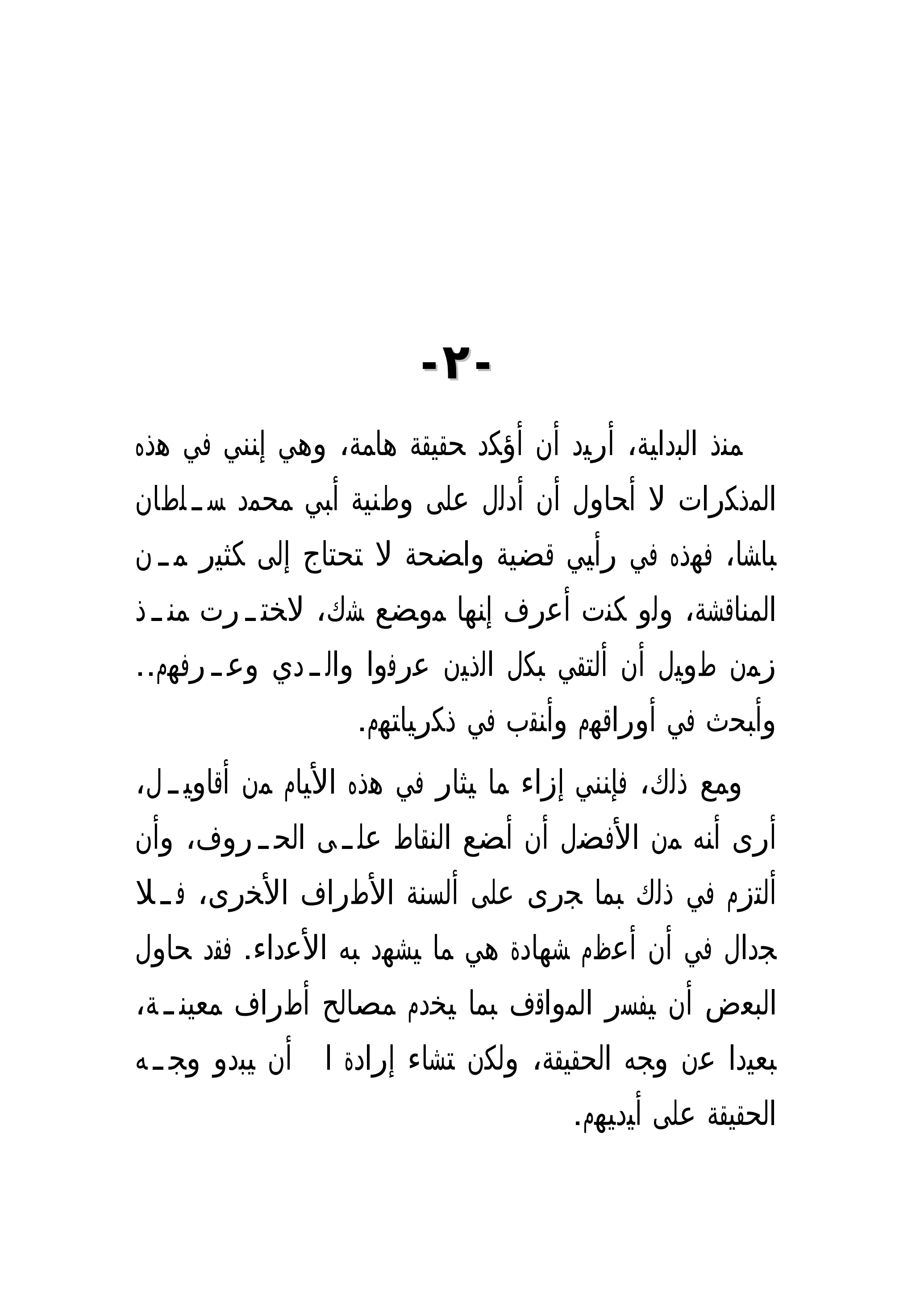
وأود أن أذكر هنا أن عرابي باشا كان قد أمر بأن تؤخذ ممتلكات أبي من غلال وخيل وغيرهما، وترسل إلى مخازن الإنجليز، وأن يختم البيت بالشمع الأحمر حتى ينظر في أمره.

وبعد فشل عرابي ونفيه إلى جزيرة سرنديب، أمرت الحكومة بصرف عشرة آلاف جنيه لوالدي على سبيل التعويض الرمزي، عن الخسائر المادية التي لحقته من جراء تلك التصرفات، فانتهز ضعاف العقول والبصائر هذا الأمر للتشهير بوالدي، وقالوا: إنه منح المبلغ مع الخديوي توفيق لمساعدة الإنجليز على كذبهم وافترائهم، ولو فرضنا المستحيل، فإنه لا يمكن أن يبيع مصر بهذا الثمن البخس الذي لا يوازي قطرة في بحر ثروته.

ولقد كان من نتيجة فشل والدي إقناع عرابي، قيام تلك الحوادث التي أدت إلى دخول الإنجليز إلى البلاد عنوة، متذرعين بالفتن والاضطرابات الداخلية والخارجية.

وما الذي كان يستطيع والدي أن يفعله إزاء الجيوش التي هزمت جيش عرابي؟

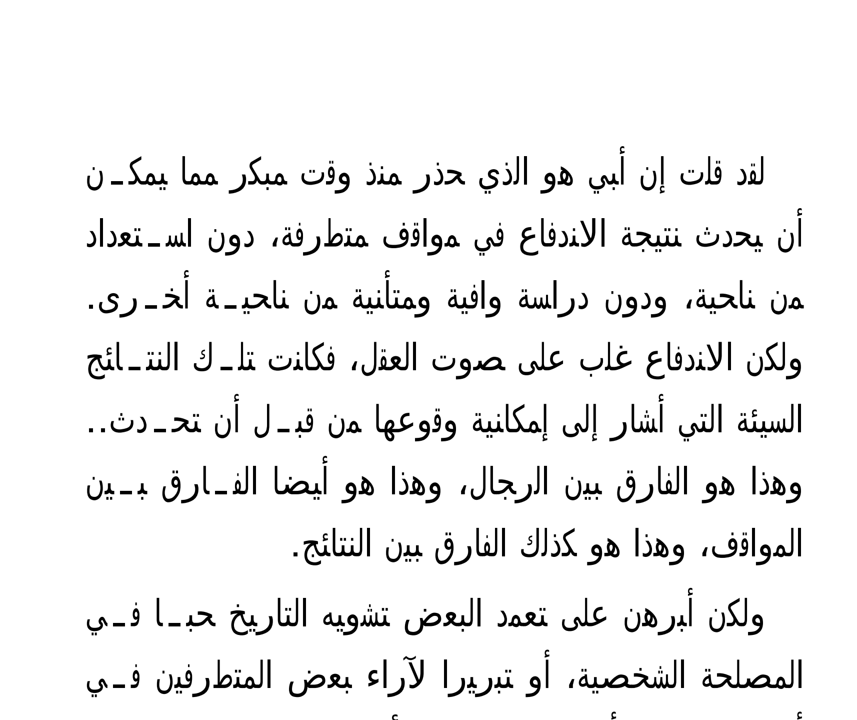
هل كان في إمكانه محاربتها والتغلب عليها، أو تصـديق ما كان يقال من إنهم مدافعون عن العرش واستتباب الأمـن وحماية الأجانب، بدلاً من أن يدخلوا فاتحين بحد السيف؟



-٢-

منذ البداية، أريد أن أؤكد حقيقة هامة، وهي إنني في هذه المذكرات لا أحاول أن أدلل على وطنية أبي محمد ســلطان باشا، فهذه في رأيي قضية واضحة لا تحتاج إلى كثير مـن المناقشة، ولو كنت أعرف إنها موضع شك، لاختـرت منـذ زمن طويل أن ألتقي بكل الذين عرفوا والـدي وعـرفهم.. وأبحث في أوراقهم وأنقب في ذكرياتهم.

ومع ذلك، فإنني إزاء ما يثار في هذه الأيام من أقاويـل، أرى أنه من الأفضل أن أضع النقاط علـى الحـروف، وأن ألتزم في ذلك بما جرى على ألسنة الأطراف الأخرى، فـلا جدال في أن أعظم شهادة هي ما يشهد به الأعداء. فقد حاول البعض أن يفسر المواقف بما يخدم مصالح أطراف معينـة، بعيدا عن وجه الحقيقة، ولكن تشاء إرادة ا أن يبدو وجـه الحقيقة على أيديهم.



لقد قلت إن أبي هو الذي حذر منذ وقت مبكر مما يمكن أن يحدث نتيجة الاندفاع في مواقف متطرفة، دون استعداد من ناحية، ودون دراسة وافية ومتأنية من ناحية أخرى. ولكن الاندفاع غلب على صوت العقل، فكانت تلك النتائج السيئة التي أشار إلى إمكانية وقوعها من قبل أن تحدث.. وهذا هو الفارق بين الرجال، وهذا هو أيضا الفارق بين المواقف، وهذا هو كذلك الفارق بين النتائج.

ولكن أبرهن على تعمد البعض تشويه التاريخ حبا في المصلحة الشخصية، أو تبريرا لآراء بعض المتطرفين في أفكارهم، فإنني أسجل هنا كلمة الأستاذ حسن القاياتي التي نشرت بجريدة الأهرام الغراء بتاريخ ٢٢ سبتمبر ١٩٢٠ بعنوان "حول عرابي". وفيها يقول:

"كتب عبد السميع عرابي في "المنبر" الكلمة الآتية فيما يدافع به عن أبيه زعيم الثورة. قال: في يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ كان عرابي يصلي الفجر، فسمع ضرب المدافع بشدة، ولما تفقد الأمر وجد الضرب على طول خط الاستحكام، وأن الاستحكامات تضرب المركز العمومي الذي يبعد عنها نحو أربعة آلاف متر، ولما لم يكن هناك غير

الأهالي المتطوعين مع (المدعو) الشيخ محمد عبـد الجـواد وأخيه وجابر بك من بندر ببا، وكانوا جميعا نحـو الألفـين، دعاهم للهجوم على بطارية الأعداء فامتنعوا. وما زال بهـم يذكرهم بالوطن وواجب الجهاد إلى آخر عبارات الاسـتفزاز المشتعلة في مثل هذا المقام حتى يئس مـن نفعهـم وحتـى تفرقوا جميعا فرارا من هول الموقف".

"تلك كلمة عبد السميع بك عرابي فيما يفصح به عن أبيه ويؤيد به فعلته في ذلك الموقف. أما أنا فلم تتقدم بي العـين إلى شهود تلك الموقعة، وأنا أؤيد بأن أباه كان رجلاً مخلصا بر الطوية نبيل النزعة في ثورته، ولكني على ذلك ناقل هذه الحقيقة عمن شاهدها، فأدى ما سمع وأبلغ مـا رأى؛ قضـاء لحق التاريخ والعلم".

"حدثني رجل خصيص بالشيخ محمد عبد الجواد القايـاتي (والد كاتب هذه الكلمة) حضر معه الموقعة. قـال: بعـد أن وقعت الهزيمة على الجيش المصري العرابي، وحقت كلمـة الفشل والخزي، لم يرعني إلا عرابي باشا على فرس ضامر ينهب به الأرض نهبا ويطير به في كـل مطـار، حتـى إذا اجتاز السرادق الذي كان فيه الشيخ محمد عبد الجواد وأخوه

الشيخ أحمد عبد الجواد، جعل ينادي ويهتـف: "يـا سـيدنا الشيخ.. لقد ضاعت البلد.. دافعوا عن المسلمين" في أمثـال هذه الكلمات الجوفاء، فأجابه الشيخ محمد عبد الجواد بكلمات فيها شتم وتحقير ورمي بالخيانة.. ثم مر عرابـي لا يلـوي على شيء، وكيف تستطيع المتطوعة القتـال بعـد هزيمـة الجيش؟؟".

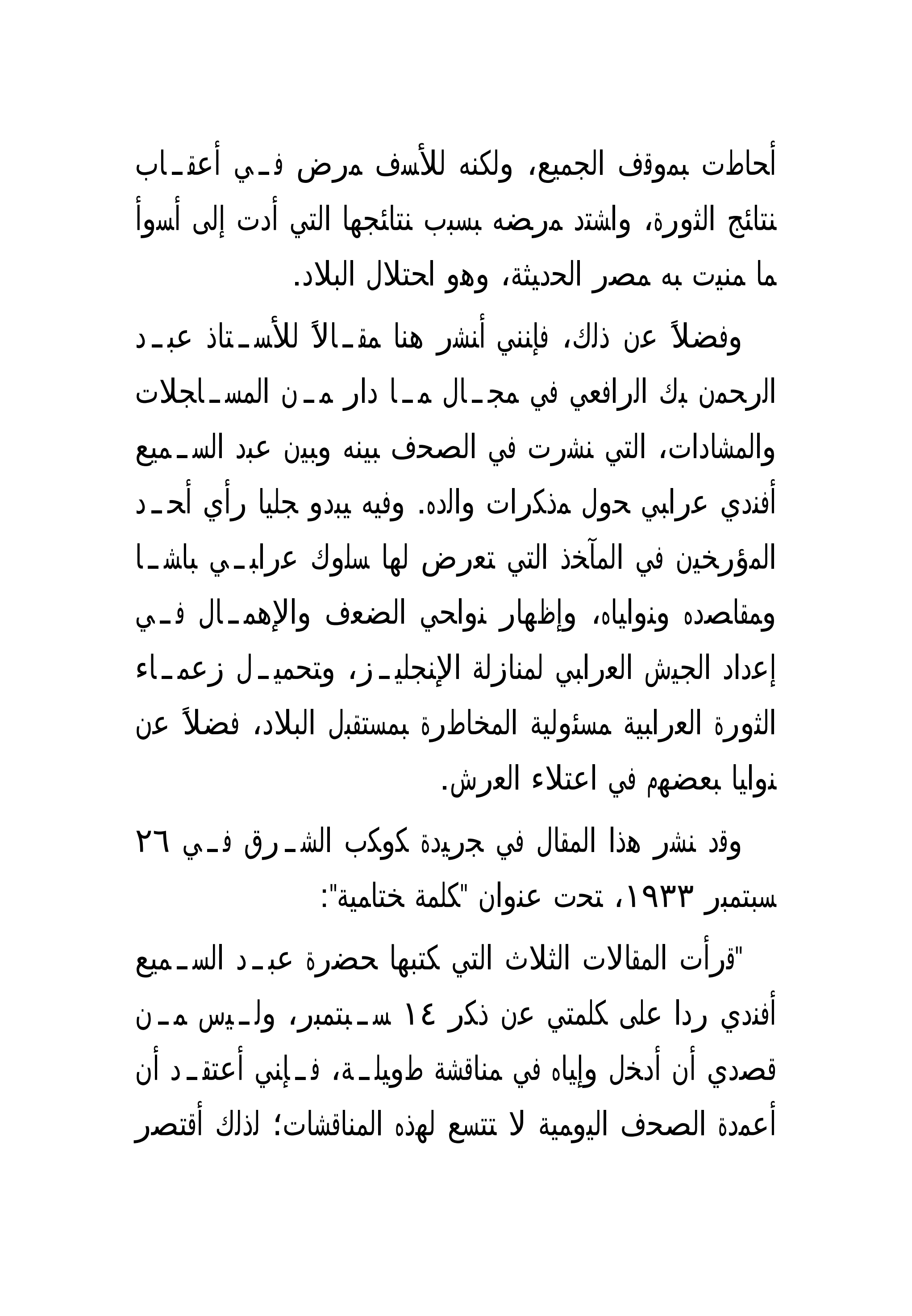
ومن ناحية أخرى، فقد وصلني خطاب من الأستاذ عبـد السميع أفندي عرابي بتاريخ ١٥ فبراير ١٩٢٦، وفي هـذا الخطاب يسترعي الالتفات عبارة يقول فيها: "هذه المجهودات الوطنية وما لبيتكم من الآثار الجليلة فيهـا". وأعتقـد تمـام الاعتقاد أن هذا الوضع هو المطابق تمام المطابقة لما جـاء في المذكرات الأصلية لعرابي باشا، لأنه ما كـان يسـتطيع تدوين غير الحقيقة هو وغيره من المعاصرين له على قيـد الحياة. ولو كان الموقف بالنسبة لوالدي غير ذلك، لما أقـر واعترف عبد السميع أفندي كتابة بما بيننا من الآثار الجليلـة في هذه المجهودات الوطنية، وإلا لكان مخالفًا لواقع وحقيقـة مذكرات والده، ولكن المحير في الأمـر أن يعتـرف عبـد السميع أفندي بالآثار الجليلة لبيتنـا فـي هـذه المجهـودات

الوطنية قبل طبعها، ثم يرمي والدي بضد هذه الآثـار بعـد الطبع؟!

ومما يحقق اعتقادي بعدم صحة كل ما أثاره المغرضـون حول والدي، خطاب آخر وصلني من عبد العزيـز أفنـدي عرابي مع نسخة مهداة إلي من الجـزء الأول مـن تـاريخ والده، وفيه يسجل قراره بخطه أن والدي قد اشترك في تلك الثورة؛ إذ قال: هذه نسخة من الجزء الأول من تاريخ والدي رحمه ا   عن الثورة العرابية التي اشترك فيها ساكن الجنان سلطان باشا، وكان فيها من المبرزين. ويقول أيضا: فحسبي أن أتقدم بهذه الهدية وفاء لوالدك الذي له حقه علينا.

ولعل مثار دهشتي من الخطابين اتفاقهما قبل الطبع علـى ذكر أفضال والدي، والإشادة بمواقفه ومجهوداته والرغبة في خدمة الحقيقة والتاريخ، ثم ظهور بعض الشوائب التي أحيط بها والدي، الذي كان بـالأمس محـل التقـدير لمجهوداتـه الوطنية، والذي كان من المبرزين في تلك الثورة!..

ومن هذا الاستشهاد وغيره من مجريات الحوادث يستطيع القارئ أن يتبين أين الحقيقة، ولو عاش والدي بضع سـنين أخر، لاستطاع أن يكشف النقاب عن كثير من الأسرار التي

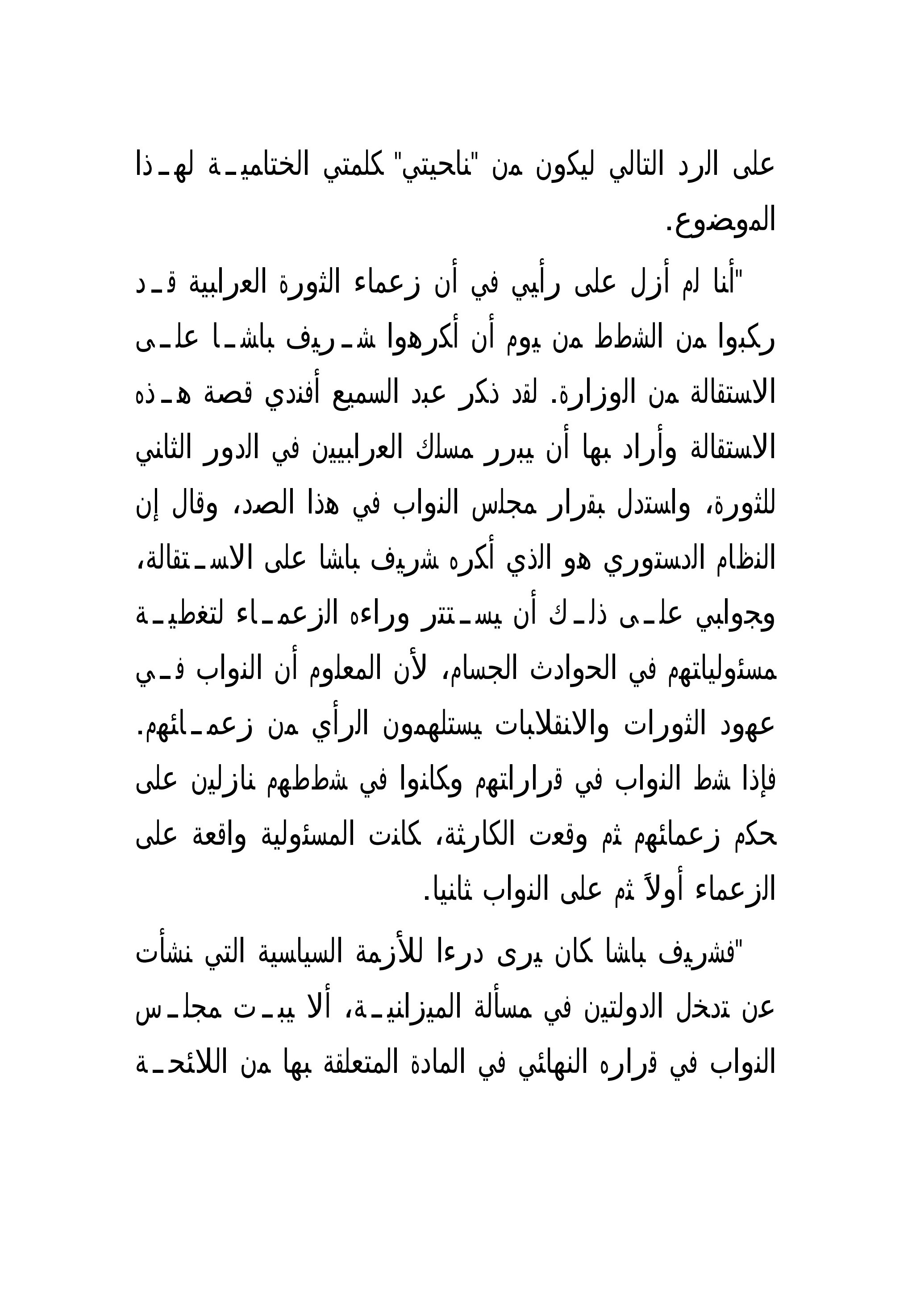


أحاطت بموقف الجميع، ولكنه للأسف مرض في أعقاب نتائج الثورة، واشتد مرضه بسبب نتائجها التي أدت إلى أسوأ ما منيت به مصر الحديثة، وهو احتلال البلاد.

وفضلاً عن ذلك، فإنني أنشر هنا مقالاً للأستاذ عبد الرحمن بك الرافعي في مجال ما دار من المساجلات والمشادات، التي نشرت في الصحف بينه وبين عبد السميع أفندي عرابي حول مذكرات والده. وفيه يبدو جليا رأي أحد المؤرخين في المآخذ التي تعرض لها سلوك عرابي باشا ومقاصده ونواياه، وإظهار نواحي الضعف والإهمال في إعداد الجيش العرابي لمنازلة الإنجليز، وتحميل زعماء الثورة العرابية مسئولية المخاطرة بمستقبل البلاد، فضلاً عن نوايا بعضهم في اعتلاء العرش.

وقد نشر هذا المقال في جريدة كوكب الشرق في ٢٦ سبتمبر ١٩٣٣، تحت عنوان "كلمة ختامية":

"قرأت المقالات الثلاث التي كتبها حضرة عبد السميع أفندي ردا على كلمتي عن ذكر ١٤ سبتمبر، وليس من قصدي أن أدخل وإياه في مناقشة طويلة، فإني أعتقد أن أعمدة الصحف اليومية لا تتسع لهذه المناقشات؛ لذلك أقتصر



على الرد التالي ليكون من "ناحيتي" كلمتي الختاميـة لهـذا الموضوع.

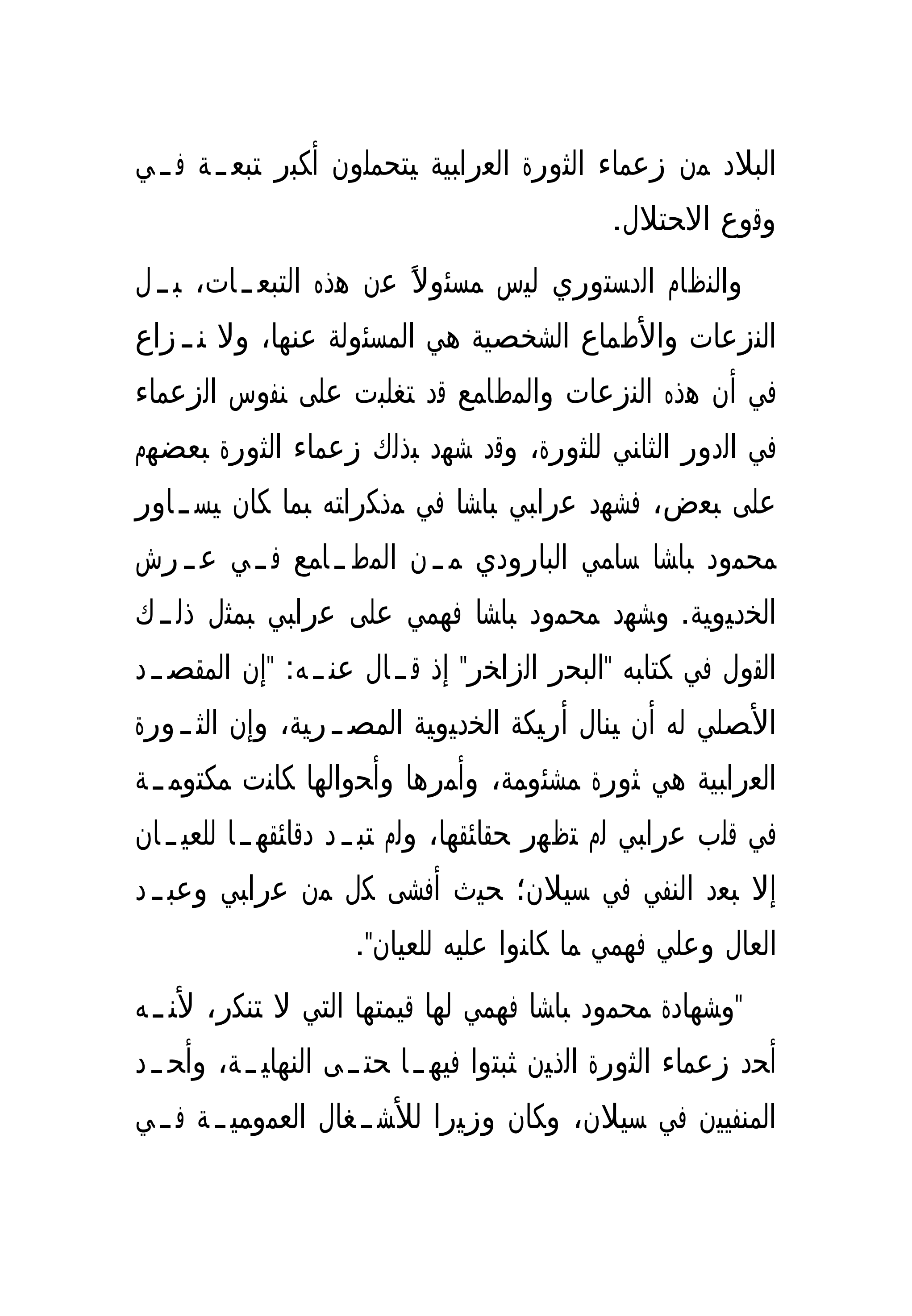
"أنا لم أزل على رأيي في أن زعماء الثورة العرابية قـد ركبوا من الشطط من يوم أن أكرهوا شـريف باشـا علـى الاستقالة من الوزارة. لقد ذكر عبد السميع أفندي قصة هـذه الاستقالة وأراد بها أن يبرر مسلك العرابيين في الدور الثاني للثورة، واستدل بقرار مجلس النواب في هذا الصدد، وقال إن النظام الدستوري هو الذي أكره شريف باشا على الاسـتقالة، وجوابي علـى ذلـك أن يسـتتر وراءه الزعمـاء لتغطيـة مسئولياتهم في الحوادث الجسام، لأن المعلوم أن النواب فـي عهود الثورات والانقلابات يستلهمون الرأي من زعمـائهم. فإذا شط النواب في قراراتهم وكانوا في شططهم نازلين على حكم زعمائهم ثم وقعت الكارثة، كانت المسئولية واقعة على الزعماء أولاً ثم على النواب ثانيا.

"فشريف باشا كان يرى درءا للأزمة السياسية التي نشأت عن تدخل الدولتين في مسألة الميزانيـة، ألا يبـت مجلـس النواب في قراره النهائي في المادة المتعلقة بها من اللائحـة

الأساسية ويرجئها إلى حين تنتهي الغمـة؛ وبـذلك يتفـادى التدخل المسلح من جانب إنجلترا وفرنسا.

والتأجيل في ذاته لم يكن مضـيعا لحقـوق الأمـة؛ لأن وضع الدستور قد يستغرق زمنًا يطول أو يقصر على حسب الظروف والملابسات، والتأجيل كثيرا ما يكون وسيلة لحـل بعض الأزمات السياسية، ولكن العرابيين رفضوا الأخذ برأي شريف باشا؛ لأنهم رأوا في هذه الأزمة فرصـة للاسـتئثار بالحكم وتولية أحد زعمائهم رئاسة الـوزارة بعـد إقصـاء شريف باشا عنها. وقد تم لهم ما دبروه واستقال شريف باشا، وتولى الرئاسة محمود باشا سامي البارودي. ومـن يومئـذ تلاحقت الأحداث والخطوب حتى انتهت بالاحتلال.

"فالعرابيون قد عرضوا البلاد للتدخل المسلح من جانـب إنجلترا.. ويا ليتهم عرضوها لهذا التدخل بعـد أن أحسـنوا الاستعداد للحرب والقتال، فإن الحكمة والسياسة تقضي على أقوى الدول الحربية أن تأخذ عدتها للحرب قبـل أن تغـامر فيها. ولكن العرابيين غامروا بمستقبل البلاد في وقت كانـت عوامل الضعف والارتباك قد نالت من قوة الجيش ومكانتـه. فكان ما كان من هزائم سنة ١٨٨٢. فالذين خاطروا بمستقبل



البلاد من زعماء الثورة العرابية يتحملون أكبر تبعة في وقوع الاحتلال.

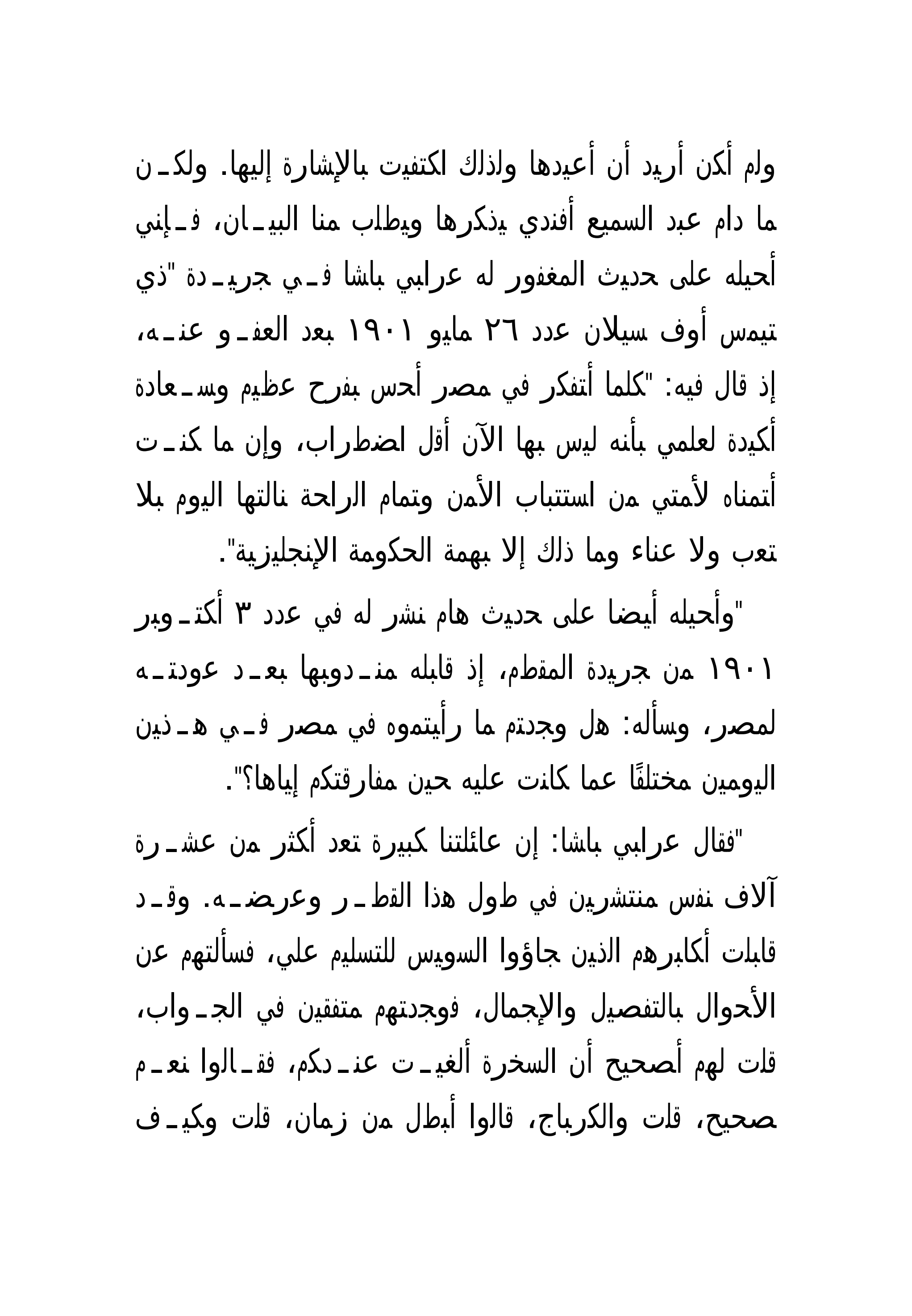
والنظام الدستوري ليس مسئولاً عن هذه التبعات، بل النزعات والأطماع الشخصية هي المسئولة عنها، ولا نزاع في أن هذه النزعات والمطامع قد تغلبت على نفوس الزعماء في الدور الثاني للثورة، وقد شهد بذلك زعماء الثورة بعضهم على بعض، فشهد عرابي باشا في مذكراته بما كان يساور محمود باشا سامي البارودي من المطامع في عرش الخديوية. وشهد محمود باشا فهمي على عرابي بمثل ذلك القول في كتابه "البحر الزاخر" إذ قال عنه: "إن المقصد الأصلي له أن ينال أريكة الخديوية المصرية، وإن الثورة العرابية هي ثورة مشئومة، وأمرها وأحوالها كانت مكتومة في قلب عرابي لم تظهر حقائقها، ولم تبد دقائقها للعيان إلا بعد النفي في سيلان؛ حيث أفشى كل من عرابي وعبد العال وعلي فهمي ما كانوا عليه للعيان".

"وشهادة محمود باشا فهمي لها قيمتها التي لا تنكر، لأنه أحد زعماء الثورة الذين ثبتوا فيها حتى النهاية، وأحد المنفيين في سيلان، وكان وزيرا للأشغال العمومية في

"وزارة الثورة" التي كان يرأسها البارودي، وفيها كان عرابي وزيرا للحربية، وكان فوق ذلك رئيسا لأركان حرب الجيش العرابي في وقائع سنة ١٨٨٢ فأقواله حجة، وثمـة شـهادة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فإنه كان يتوقع الشـر مـن الثورة العرابية، ويقول "إنها قد تجر إلى البلاد احتلالاً أجنبيا يستدعي تسجيل اللعنة علـى مسـببه إلـى يـوم القيامـة". وقد تحقق مع الأسف ما كان يتوقعه، وأنهت الثورة باحتلال الإنجليزي الذي تعانيه البلاد إلى اليوم.

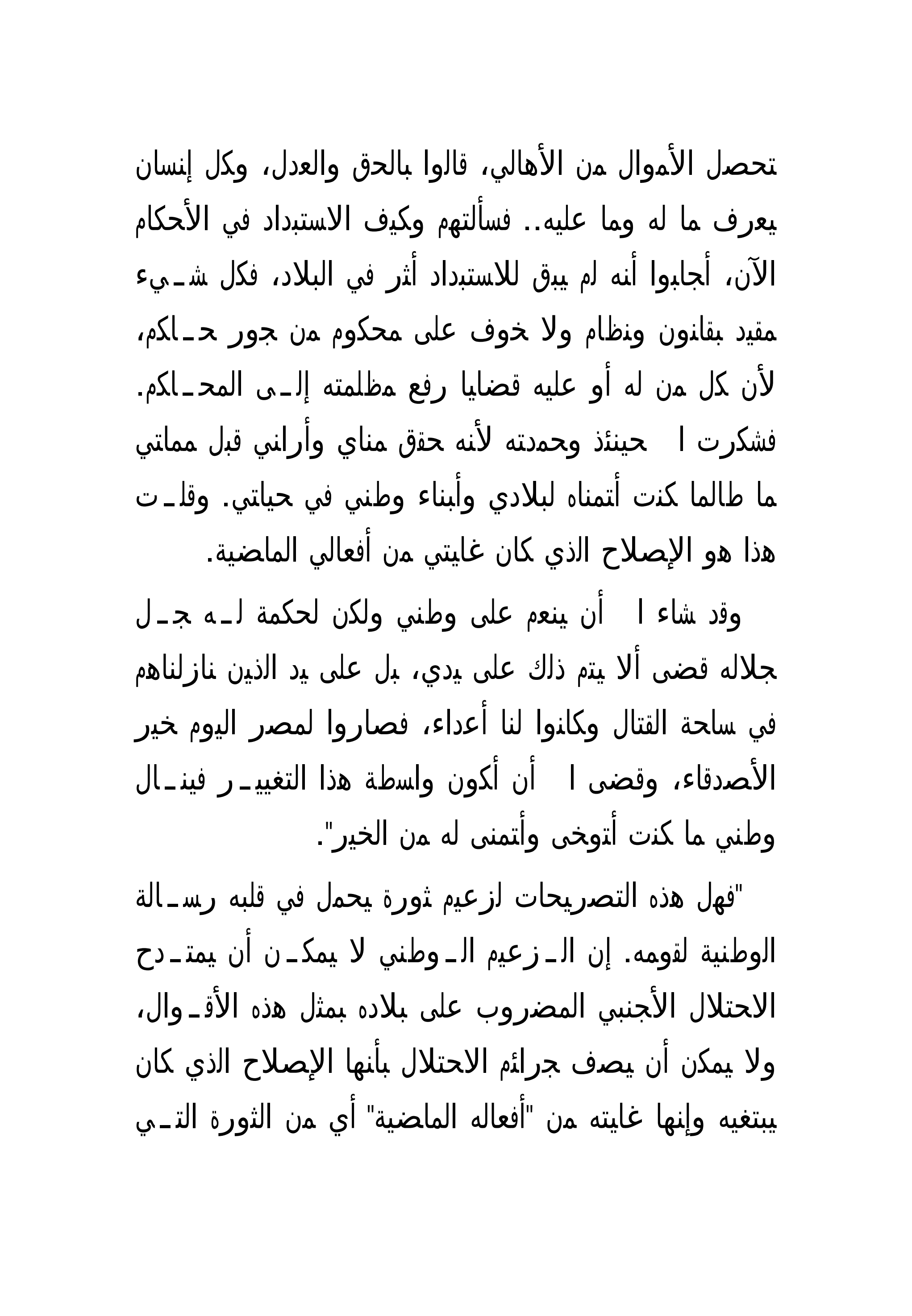
"أما طعن عبد السميع أفندي في أمثال الشيخ محمد عبـده ومحمد باشا فهمي، فنحسب أنه لا ينقص من قيمة آرائهمـا شيئًا، وثمة كلمة أخرى أرد بها على عبد السميع أفندي، فإنه يسألني: "ما هي تلك الآراء والتصريحات التـي أدلـى بهـا عرابي حين عودته إلى مصر وكـان فيهـا تأييـد مطلـق للاحتلال الإنجليزي؟ هذه تهمة خطيرة يحسن ألا يقذف بهـا هكذا جزافًا من غير أن تقترن بالبينة"؟

"ويلوح لي أن هذا السؤال هو من قبيل تجاهل العـارف، فإن عبد السميع أفندي وهو أحرص الناس على كل مـا لـه علاقة بتاريخ عرابي باشا، لا يمكن أن تفوته تلك الأحاديث.


ولم أكن أريد أن أعيدها ولذلك اكتفيت بالإشارة إليها. ولكن ما دام عبد السميع أفندي يذكرها ويطلب منا البيان، فإني أحيله على حديث المغفور له عرابي باشا في جريدة "ذي تيمس أوف سيلان عدد ٢٦ مايو ١٩٠١ بعد العفو عنه، إذ قال فيه: "كلما أتفكر في مصر أحس بفرح عظيم وسعادة أكيدة لعلمي بأنه ليس بها الآن أقل اضطراب، وإن ما كنت أتمناه لأمتي من استتباب الأمن وتمام الراحة نالتها اليوم بلا تعب ولا عناء وما ذلك إلا بهمة الحكومة الإنجليزية".

"وأحيله أيضا على حديث هام نشر له في عدد ٣ أكتوبر ١٩٠١ من جريدة المقطم، إذ قابله مندوبها بعد عودته لمصر، وسأله: هل وجدتم ما رأيتموه في مصر في هذين اليومين مختلفًا عما كانت عليه حين مفارقتكم إياها؟".

"فقال عرابي باشا: إن عائلتنا كبيرة تعد أكثر من عشرة آلاف نفس منتشرين في طول هذا القطر وعرضه. وقد قابلت أكابرهم الذين جاؤوا السويس للتسليم علي، فسألتهم عن الأحوال بالتفصيل والإجمال، فوجدتهم متفقين في الجواب، قلت لهم أصحيح أن السخرة ألغيت عندكم، فقالوا نعم صحيح، قلت والكرباج، قالوا أبطل من زمان، قلت وكيف



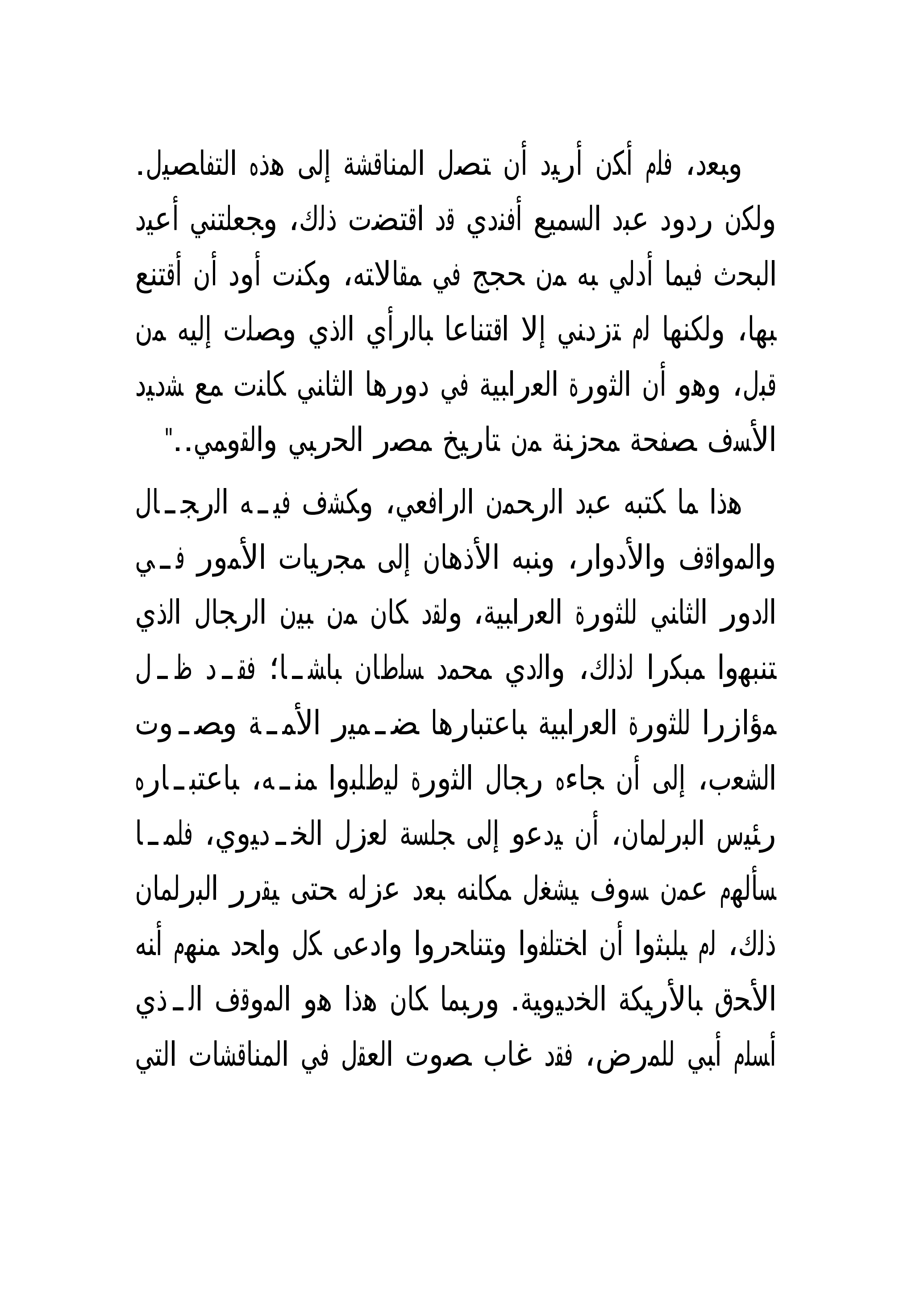
تحصل الأموال من الأهالي، قالوا بالحق والعدل، وكل إنسان يعرف ما له وما عليه.. فسألتهم وكيف الاستبداد في الأحكام الآن، أجابوا أنه لم يبق للاستبداد أثر في البلاد، فكل شـيء مقيد بقانون ونظام ولا خوف على محكوم من جور حـاكم، لأن كل من له أو عليه قضايا رفع مظلمته إلـى المحـاكم. فشكرت ا حينئذ وحمدته لأنه حقق مناي وأراني قبل مماتي ما طالما كنت أتمناه لبلادي وأبناء وطني في حياتي. وقلـت هذا هو الإصلاح الذي كان غايتي من أفعالي الماضية.

وقد شاء ا أن ينعم على وطني ولكن لحكمة لـه جـل جلاله قضى ألا يتم ذلك على يدي، بل على يد الذين نازلناهم في ساحة القتال وكانوا لنا أعداء، فصاروا لمصر اليوم خير الأصدقاء، وقضى ا أن أكون واسطة هذا التغييـر فينـال وطني ما كنت أتوخى وأتمنى له من الخير".

"فهل هذه التصريحات لزعيم ثورة يحمل في قلبه رسـالة الوطنية لقومه. إن الـزعيم الـوطني لا يمكـن أن يمتـدح الاحتلال الأجنبي المضروب على بلاده بمثل هذه الأقـوال، ولا يمكن أن يصف جرائم الاحتلال بأنها الإصلاح الذي كان يبتغيه وإنها غايته من "أفعاله الماضية" أي من الثورة التـي

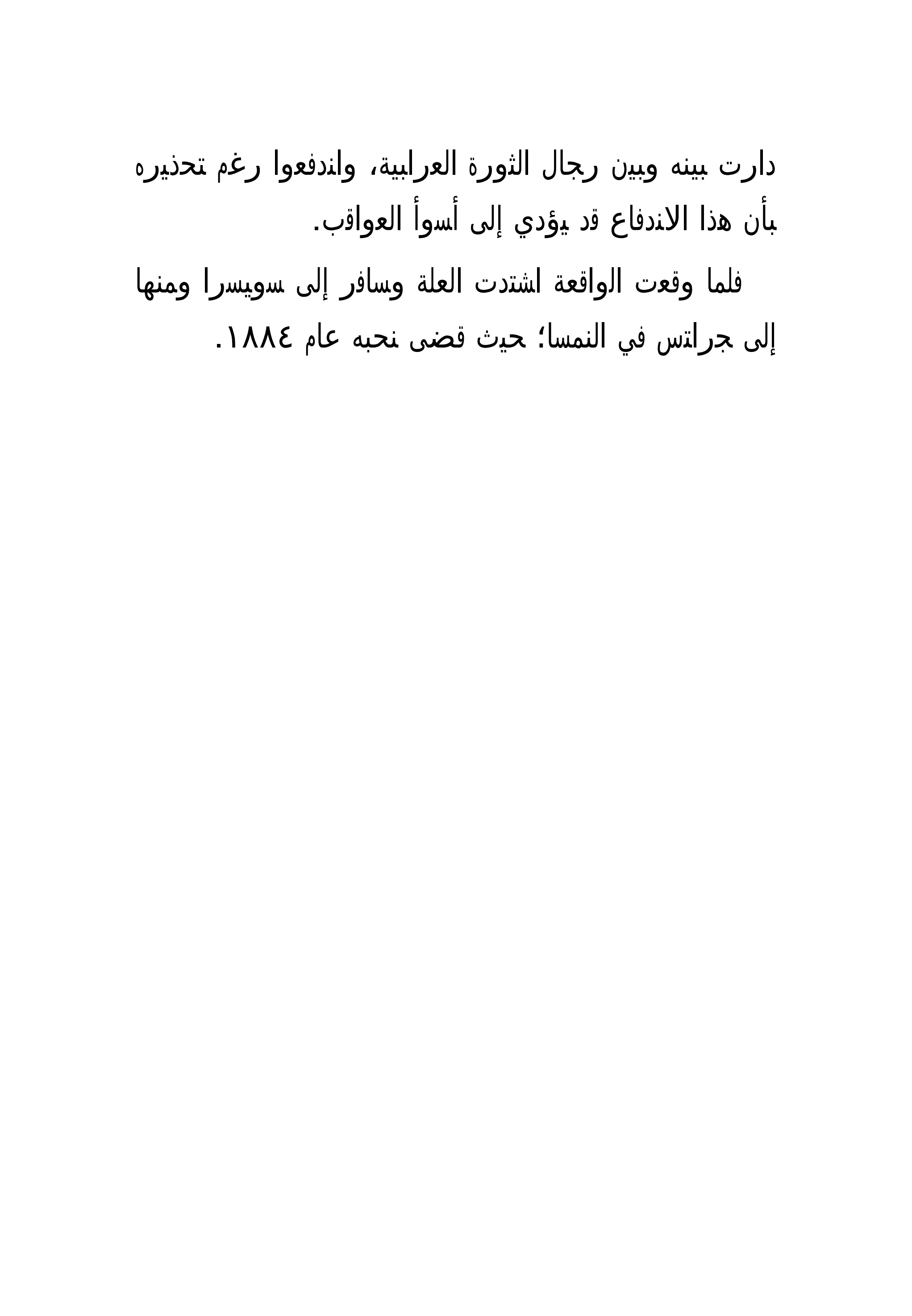
حمل لواءها وتولى زعامتها. هذا إلى أن عرابي باشا يمـن على بلاده في هذا الحديث بأن الإنجليز قد أبطلـوا السـخرة والكرباج ونظموا المحاكم وأقاموا منار العدل فيهـا، وهـو لعمري قد ظلم مصر بقوله هذا ولم ينصف الحقيقة والتاريخ، فإن السخرة والكرباج قد أبطلا في عهد وزارة رياض باشـا الأولى سنة ١٨٨٠ قبل الاحتلال، ونظام المحاكم الحالي قـد تقرر بادئ ذي بدء في عهد وزارة شـريف باشـا الثانيـة بمقتضى المرسوم الصادر فـي ١٧ سـبتمبر ١٨٨١ قبـل الاحتلال أيضا.

"ومن تهكم الأقدار ومن المؤلم حقًا أن زعيم الحركة التي قامت في الأصل لتخليص الجيش من سيطرة شـرذمة مـن الشراكسة، يغتبط بوقوع مصر تحت سيطرة الإنجليز. وكانوا يوم أن أدلى بهذا الحديث قد مضى عليهم عشـرون عامـا قضوا فيها على استقلال البلاد وحريتها، وسلخوا السـودان عنها، وجعلوا أملاكها ومرافقها نهبا مقسما بينهم وبين الدول الاستعمارية، واغتصبوا سـلطة الحكـم وأفسـدوا الجـيش والإدارة والتعليم والأخلاق في البلاد.



وبعد، فلم أكن أريد أن تصل المناقشة إلى هذه التفاصيل. ولكن ردود عبد السميع أفندي قد اقتضت ذلك، وجعلتني أعيد البحث فيما أدلي به من حجج في مقالاته، وكنت أود أن أقتنع بها، ولكنها لم تزدني إلا اقتناعا بالرأي الذي وصلت إليه من قبل، وهو أن الثورة العرابية في دورها الثاني كانت مع شديد الأسف صفحة محزنة من تاريخ مصر الحربي والقومي.."

هذا ما كتبه عبد الرحمن الرافعي، وكشف فيـه الرجـال والمواقف والأدوار، ونبه الأذهان إلى مجريات الأمور فـي الدور الثاني للثورة العرابية، ولقد كان من بين الرجال الذي تنبهوا مبكرا لذلك، والدي محمد سلطان باشـا؛ فقـد ظـل مؤازرا للثورة العرابية باعتبارها ضـمير الأمـة وصـوت الشعب، إلى أن جاءه رجال الثورة ليطلبوا منـه، باعتبـاره رئيس البرلمان، أن يدعو إلى جلسة لعزل الخـديوي، فلمـا سألهم عمن سوف يشغل مكانه بعد عزله حتى يقرر البرلمان ذلك، لم يلبثوا أن اختلفوا وتناحروا وادعى كل واحد منهم أنه الأحق بالأريكة الخديوية. وربما كان هذا هو الموقف الـذي أسلم أبي للمرض، فقد غاب صوت العقل في المناقشات التي



دارت بينه وبين رجال الثورة العرابية، واندفعوا رغم تحذيره بأن هذا الاندفاع قد يؤدي إلى أسوأ العواقب.

فلما وقعت الواقعة اشتدت العلة وسافر إلى سويسرا ومنها إلى جراتس في النمسا؛ حيث قضى نحبه عام ١٨٨٤.

-٣-

كانت والدتي لم تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها بعـد عندما مات والدي في مدينة جراتس بالنمسا.

إنني ما زالت حتى الآن أتذكر يوم وصل إلينا نعي والدي الحبيب. ثم أيام الحزن العميق التـي اجتزناهـا، والسـنين المدلهمة الطويلة التي جال فيها السواد كـل أثـاث المنـزل ورياشه.

لقد وقع الخبـر مثـل الصـاعقة علـى رأس والـدتي، وما زلت أذكر صورتها وهي طريحـة الفـراش يعودهـا الأطباء من آن لآخر، وكانوا يأخذونني أنـا وأخـي فنقـف بجانب فراشها، وإذ ذاك تنظر إلينا بحزن ثم تخنقها العبرات وتدس رأسها تحت الغطاء، وهي تقـول: أبعـدوا الطفلـين عني!..

وعندما كنا نذهب إلى الغرفة المجاورة.. عند والدة أخـي إسماعيل.. التي كنا نناديها باسم "ماما الكبيرة".. كنا نشـاهد منظرا أقسى لشابة أخرى فقدت ابنها قبل وفاة زوجها، ففقدت كل أمل في الحياة، ومرضت مرضا ألزمها الفراش طـوال السنوات الثماني التي عاشتها بعد ولدها، وعندما كـان يلـح عليها من حولها لترك الفراش وترييض جسمها، كانت تذعن في النهاية تحت إلحاحهم، فتتمشى من غرفة إلى أخرى، وكنا نفرح لذلك كثيرا ونجري أمامها مهللين مصـفقين، فتعلـوا شفتيها القرمزيتين – بفعل الحمى- ابتسـامة باهتـة واهنـة ممزوجة بالأحزان التي تنبع من أعماق قلبها. كنت أحب هذه السيدة حبا عظيما، وكانت تبادلني الحـب وتعطـف علـي، وكانت هي الوحيدة التي تجاذبني الحـديث بصـراحة فـي مختلف الأمور والشئون، وقد لاحظت ما كنـت أحـاول أن أخفيه من آلام نفسية؛ بسبب تفضيل أخي علي سـواء مـن جانب والدتي أو أهل البيت جميعا، فكانت تحاول أن تقنعنـي بأن هذا ليس تفضيلاً، ولكن لأن الولد هو الذي يحمل اسـم الأسرة وهو الذي يحمل مسئوليتها.

وكان بيتنا مفتوحا لكل زائرة ولكل قاصد، ذلك أن والتي كانت خيرة وديمقراطية، ولذلك كان منزلها لا يكاد يخلو من الضيوف يوما واحدا، وكثيرا ما كانت تطول تلك الضـيافة نظرا لما يجده الضيوف من حسن الوفاء وكـرم المعاملـة، وكثيرا ما وفد الزائرون فجأة، في الأوقات المناسبة وغيـر المناسبة. ولذلك كانت مائـدتنا مسـتعدة دائمـا لاسـتقبال الضيوف، وكانت الغرفة معدة لإقامة النازلين، وكثيـرا مـا كنت أثور على هذا التطفل الذي يضطرني إلى ترك غرفتي لإحدى الضيفات أو قبولها شريكة لي فيهـا، وكنـت دائمـا أفضل الحالة الأولى، لأنني أتألم من بعض الروائح ومن عدم تجدد هواء غرفتي.

وكان "السلاملك" هو مهبط الأقارب والموظفين، وكنـت أحتفي بمن أصطفيهم من هؤلاء، وفي مقدمتهم زوج أختـي الكبيرة إسماعيل بك لأنه كان يبالغ في ملاطفتي وكان مـع كبر سنه لطيفًا، واسع الصدر، يدلعني ويقربني منه، كـذلك كنت أؤثر من أقاربي أحمد حجازي ابن عم والدي الذي كان كثير الاهتمام بأمري، وكان يحدثني عن أبي ويقـص علـي بعض صفاته وتاريخه، كذلك كنت أفرح لمجيء أحمـد بـك

مرزوق لأنه كان مرحا خفيف الروح، وكان يمـلأ البيـت سرورا بفكاهاته وصوته العالي.

وعندما كان يحضر علي بك شـعراوي الوصـي علينـا وناظر أوقاف والدي، وكان يأخذونني أنا وأخي للسلام عليه، وبعد ذلك كنت أتحاشى الذهاب إلى السلاملك لأنه لـم يكـن يلتفت إلي على الإطلاق، وكان يوجه كل حديثه واهتمامه إلى شقيقي الذي كان يحبه حبا جما. وكان منزلنا يتخذ شكلاً غير مألوف طوال مدة إقامته بسبب الخوف الذي كـان يسـتولي على الخدم وعلى الأقارب والزائرين.

ومن الزائرين الذين كنا ننتظر قدومهم بلهفة وشوق جدتي وأخوالي، وكانوا يأتون من تركيا كل سنة أو سنتين تقريبـا لزيارتنا، ويغمروننا بهداياهم الكثيرة التي كانت تزيد علـى حاجتنا فنهدي منها للجيران والأصدقاء.

كانت جدتي على خلاف والدتي، قصيرة القامـة ليسـت بالبدينة أو النحيفة، ناصعة البياض، زرقاء العينين، ترتـدي الثياب البيضاء، وتضع على رأسها طرحة بيضـاء تتخللهـا ضفيرتان من شعرها الأبيض تكادان تعادلان جسمها طـولاً،

وكانت تبدو في هذا البياض الشامل كالقديسة وكانت السماحة تشيع في محياها فتكسبها إشراقًا وطيبة.

ولقد أحببت جدتي كثيرا، وإن كنت لم أستطع التفاهم معها إلا بالإشارة لجهل كل واحدة منا بلغة الأخرى، ولكن هذا ما كان ليمنعنا من تبادل العواطف وكانت تدللني ببعض كلمات وأغان شركسية ما زلت حتى الآن أحفظ الكثير منها.

وكان خالي الكبير يوسف شديد الشبه بوالدته في طولـه وسماحة وجهه ودماثة خلقه، أما خالي إدريس – والد حـواء وحورية - فكان شديد الشبه بوالدتي فـي رشـاقته وجمـال قسمات وجهه، وكان طويل القامة، نحيف القوام، رقيقًا فـي حركاته ومعاملاته، وكان يحبنا الحب كله ويقضـي معظـم أوقاته معنا لدرجة أنه كان لا يغادر المنزل إلا قليلاً.

كان هؤلاء الأهل يقضون معنا فصل الشـتاء، حتـى إذا أقبل الصيف بدأت جدتي تتأثر بحر بلادنا، فتلتهب أجفانهـا وتدمع عيناها ويحمر وجهها، فتطلب العودة إلى تركيا، ولكن خالي إدريس كان يبقى معنا لميله الشديد إلـى تعلـم اللغـة العربية، فكان يتتلمذ معنا على أيدي مدرسينا.

ولما توفيت جدتي، وكان خالي الكبير قد تزوج، جـاءت معه زوجته، فقلت له يوما: لماذا لا تبقون معنا هنا ولم يبـق لكم في الآستانة أحد بعد وفاة جدتي؟ فابتسم وقال: لقد عرض علي المرحوم والدك ذلك، ولكنني اعتذرت لأن في ذلك هدما لبيتنا ومحوا لاسم عائلتنا.

قلت: وهل بندرته التي تقطنونهـا كانـت بـلاد آبـائكم وأجدادكم؟ ألستم من القوقاز لا من الأناضول؟

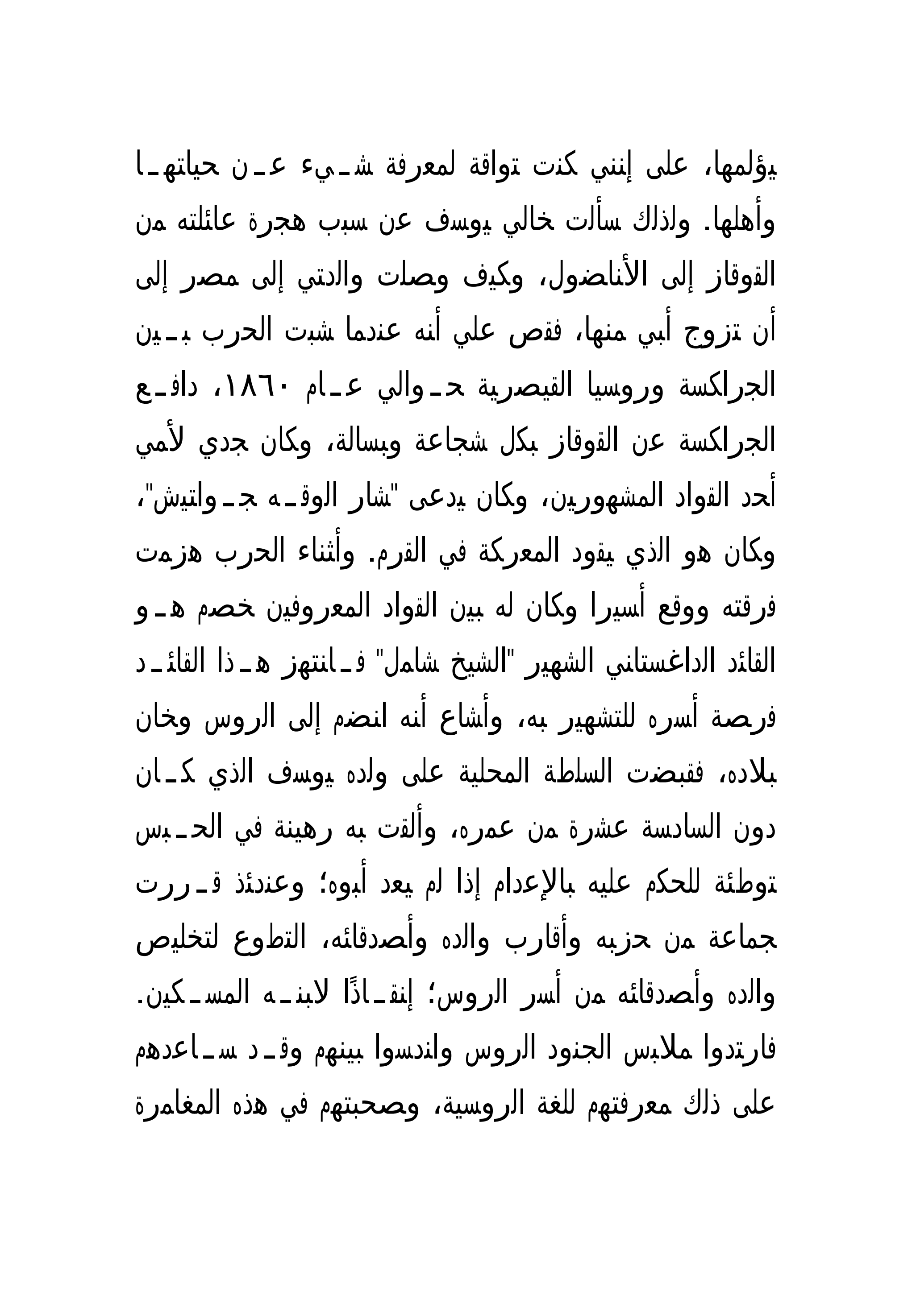
فابتسم مرة ثانية وهز رأسه قائلاً: هذه الألفاظ نفسها قـد سمعتها من والدك عندما ألح علينا للبقاء في مصر، ولترغيبنا وعدني بأن يكل إلي إدارة أعماله الزراعية ويـدخل أخـي المدارس ليتم تعليمه، ولكنني لم أقبل حفاظًا على اسمنا فـي بلادنا، كما اعتذرت عن عدم استبقاء أخي، لأن كل من أتـم تعليمه من أفراد عائلتنا مات ميتة غير طبيعية.

وبعد ذلك بمدة، تخلف خالي إدريس وبقى بيننا يتعلم، ولما ألحت عليه والدتي في الزواج، أراد أن يتزوج مـن مصـر ويبقى بجوارنا، فخطبت له إحدى فتيات البيـوت العريقـة، وعندما تحـدد موعـد القـران اشـترط أهـل العـروس ألا تفارقهم ابنتهم، وألا تسافر معه إذا سافر، ورفض هو هذا

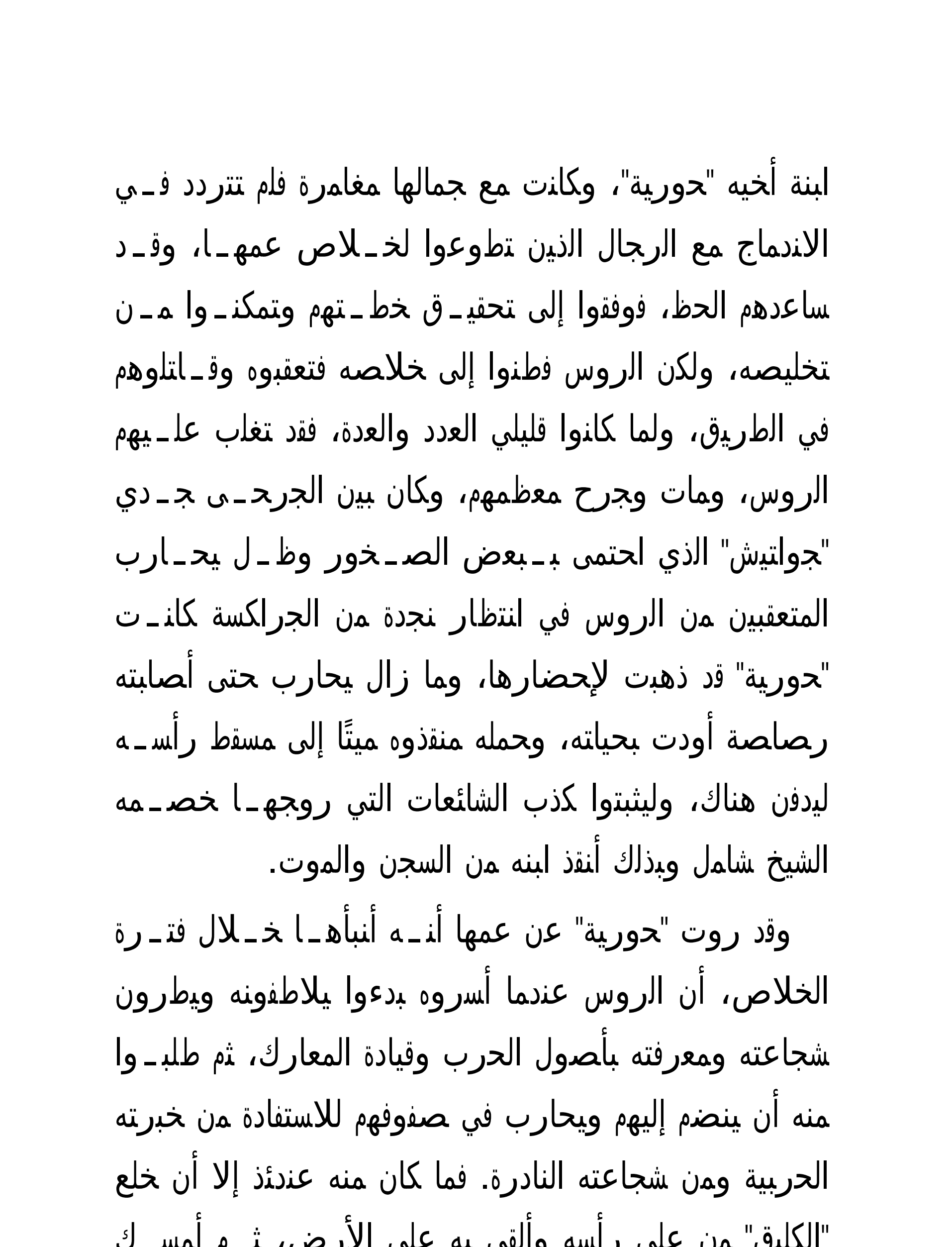
الشرط قائلاً إن الزوجة لابد أن تتبع زوجهـا فـي حياتـه وتنقلاته، وسافر إلى بلاده وتزوج هناك، وأنجب ابنتيه حواء وحرية.

وذات يوم دعي هو وأخوه مع أهل القرية لحضور فـرح في قرية مجاورة، وكانت العادة هناك أن يركب المـدعوون عربات تجرها الثيران، وطلب خالي الكبير مـن أخيـه أن يصحبه في هذه العربات، ولكنه اعتذر لوجود ضيوف عنده، ووعد بأن يلحق به على ظهر جواده الجديد السريع، وكـان الجواد قويا فجمح به أثناء الطريق وصدمه مقدم السرج فـي صدره؛ فسقط من فوق الجواد ميتًا، وانقلبت الأفراح أتراحا، وتحقق بذلك اعتقاد خالي الخبير بأن من يتم تعليمه من أفراد الأسرة يموت ميتة غير طبيعية، وهكذا قضى خالي المسكين تاركًا طفلتيه الصغيرتين حواء وحورية، وكبراهما لم تبلـغ الثانية بينما الصغرى ما زالت رضيعا.

والحقيقة إنني لم أجرؤ في يوم من الأيـام علـى سـؤال والدتي عن أصلها وسبب نزولها في مصر، فقد كانت رحمها ا زاهدة في الكلام عن نفسها، قليلـة الشـكوى والجهـر بآلامها، تتحكم في عواطفها وتخفي في قرارة نفسها كل مـا

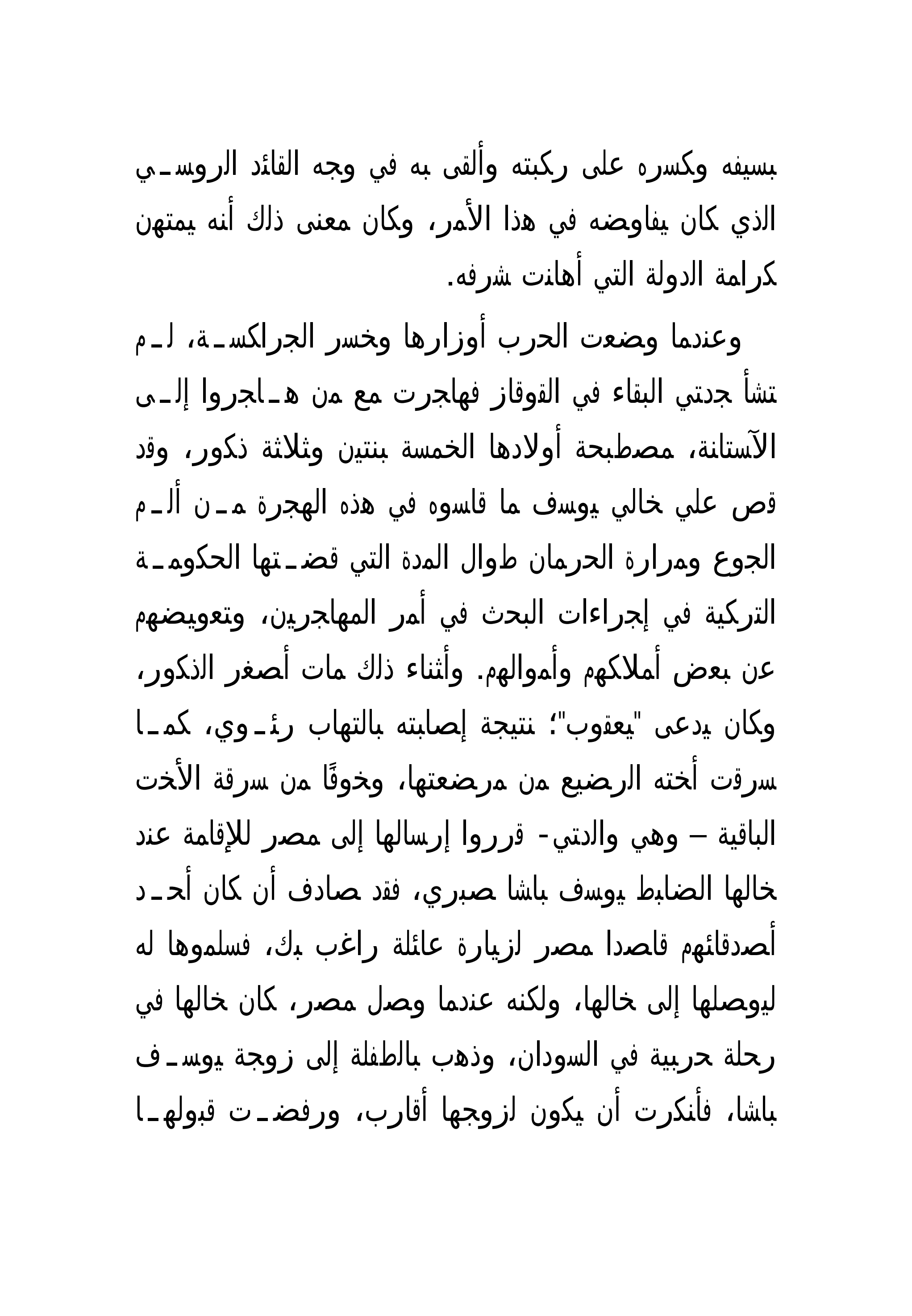


يؤلمها، على إنني كنت تواقة لمعرفة شيء عن حياتها وأهلها. ولذلك سألت خالي يوسف عن سبب هجرة عائلته من القوقاز إلى الأناضول، وكيف وصلت والدتي إلى مصر إلى أن تزوج أبي منها، فقص علي أنه عندما شبت الحرب بين الجراكسة وروسيا القيصرية حوالي عام ١٨٦٠، دافع الجراكسة عن القوقاز بكل شجاعة وبسالة، وكان جدي لأمي أحد القواد المشهورين، وكان يدعى "شار الوقه جواتيش"، وكان هو الذي يقود المعركة في القرم. وأثناء الحرب هزمت فرقته ووقع أسيرا وكان له بين القواد المعروفين خصم هو القائد الداغستاني الشهير "الشيخ شامل" فانتهز هذا القائد فرصة أسره للتشهير به، وأشاع أنه انضم إلى الروس وخان بلاده، فقبضت السلطة المحلية على ولده يوسف الذي كان دون السادسة عشرة من عمره، وألقت به رهينة في الحبس توطئة للحكم عليه بالإعدام إذا لم يعد أبوه؛ وعندئذ قررت جماعة من حزبه وأقارب والده وأصدقائه، التطوع لتخليص والده وأصدقائه من أسر الروس؛ إنقاذًا لابنه المسكين. فارتدوا ملابس الجنود الروس واندسوا بينهم وقد ساعدهم على ذلك معرفتهم للغة الروسية، وصحبتهم في هذه المغامرة



ابنة أخيه "حورية"، وكانت مع جمالها مغامرة فلم تتردد في الاندماج مع الرجال الذين تطوعوا لخلاص عمها، وقد ساعدهم الحظ، فوفقوا إلى تحقيق خطتهم وتمكنوا من تخليصه، ولكن الروس فطنوا إلى خلاصه فتعقبوه وقاتلوهم في الطريق، ولما كانوا قليلي العدد والعدة، فقد تغلب عليهم الروس، ومات وجرح معظمهم، وكان بين الجرحى جدي "جواتيش" الذي احتمى ببعض الصخور وظل يحارب المتعقبين من الروس في انتظار نجدة من الجراكسة كانت "حورية" قد ذهبت لإحضارها، وما زال يحارب حتى أصابته رصاصة أودت بحياته، وحمله منقذوه ميتًا إلى مسقط رأسه ليدفن هناك، وليثبتوا كذب الشائعات التي روجها خصمه الشيخ شامل وبذلك أنقذ ابنه من السجن والموت.

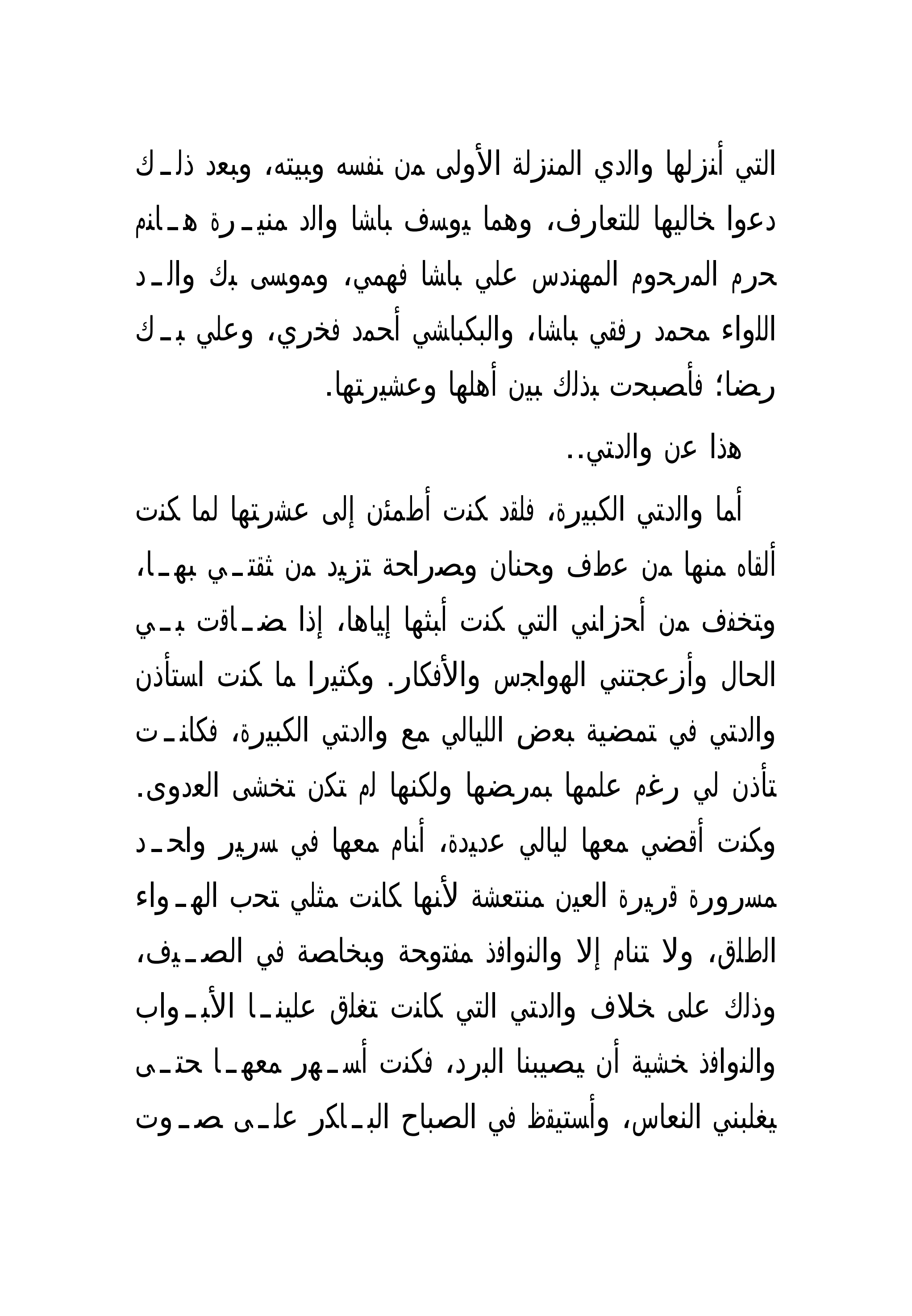
وقد روت "حورية" عن عمها أنه أنبأها خلال فترة الخلاص، أن الروس عندما أسروه بدءوا يلاطفونه ويطرون شجاعته ومعرفته بأصول الحرب وقيادة المعارك، ثم طلبوا منه أن ينضم إليهم ويحارب في صفوفهم للاستفادة من خبرته الحربية ومن شجاعته النادرة. فما كان منه عندئذ إلا أن خلع "الكلبق" من على رأسه وألقى به على الأرض، ثم أمسك


بسيفه وكسره على ركبته وألقى به في وجه القائد الروسي الذي كان يفاوضه في هذا الأمر، وكان معنى ذلك أنه يمتهن كرامة الدولة التي أهانت شرفه.

وعندما وضعت الحرب أوزارها وخسر الجراكسة، لم تشأ جدتي البقاء في القوقاز فهاجرت مع من هاجروا إلى الآستانة، مصطحبة أولادها الخمسة بنتين وثلاثة ذكور، وقد قص علي خالي يوسف ما قاسوه في هذه الهجرة من ألم الجوع ومرارة الحرمان طوال المدة التي قضتها الحكومة التركية في إجراءات البحث في أمر المهاجرين، وتعويضهم عن بعض أملاكهم وأموالهم. وأثناء ذلك مات أصغر الذكور، وكان يدعى "يعقوب"؛ نتيجة إصابته بالتهاب رئوي، كما سرقت أخته الرضيع من مرضعتها، وخوفًا من سرقة الأخت الباقية – وهي والدتي- قرروا إرسالها إلى مصر للإقامة عند خالها الضابط يوسف باشا صبري، فقد صادف أن كان أحد أصدقائهم قاصدا مصر لزيارة عائلة راغب بك، فسلموها له ليوصلها إلى خالها، ولكنه عندما وصل مصر، كان خالها في رحلة حربية في السودان، وذهب بالطفلة إلى زوجة يوسف باشا، فأنكرت أن يكون لزوجها أقارب، ورفضت قبولها

وهكذا بقيت والدتي في بيت راغب بك على أمـل أن يعـود خالها ويطلبها، ولكن يبدو أن زوجته أخفت عنه هذا الخبـر، وكان أن استمرت والدتي في رعاية ابنة راغب بـك التـي أحبتها كثيرا وعنيت بأمرها ولكن بعـد أن تزوجـت هـذه السيدة، دبت الغيرة في قلبها من والدتي التي كانـت علـى جانب كبير من الجمال، وأرادت التخلص منها، وكـان مـن حسن حظها أن اختارها والدي زوجة له.

وذات يوم، كانت تساعد والدي علـى ارتـداء ملابسـه، وتصادف أن كانت قريبة من النافذة المطلة علـى الحديقـة، فدمعت عيناها، وهنا سألها والدي عن سبب بكائها، فقالت له إنها لمحت بين الزائرين الوافدين إلى السلاملك شـابا يشـبه أخاها يوسف، فلم تتمالك نفسها من البكاء، فسألها والدي عن أهلها وعشيرتها، ولما قصت عليه قصتها، أرسل على الفور إلى منزل علي بك راغب من يستفسر عن عنـوان أهلهـا، ولحسن الصدف كان قريبهم الذي أحضر والدتي موجودا في مصر، فحضر عند والدي الذي كلفه بإحضار العائلة بعد أن سلمه تكاليف السفر، وبالفعل سافر إلى بندرته وأحضـرهم؛ فكان لهذا اللقاء فرحة عظيمة وتأثير كبير في حياة والـدتي



التي أنزلها والدي المنزلة الأولى من نفسه وبيته، وبعد ذلك دعوا خاليها للتعارف، وهما يوسف باشا والد منيرة هانم حرم المرحوم المهندس علي باشا فهمي، وموسى بك والد اللواء محمد رفقي باشا، والبكباشي أحمد فخري، وعلي بك رضا؛ فأصبحت بذلك بين أهلها وعشيرتها.

هذا عن والدتي..

أما والدتي الكبيرة، فلقد كنت أطمئن إلى عشرتها لما كنت ألقاه منها من عطف وحنان وصراحة تزيد من ثقتي بها، وتخفف من أحزاني التي كنت أبثها إياها، إذا ضاقت بي الحال وأزعجتني الهواجس والأفكار. وكثيرا ما كنت استأذن والدتي في تمضية بعض الليالي مع والدتي الكبيرة، فكانت تأذن لي رغم علمها بمرضها ولكنها لم تكن تخشى العدوى. وكنت أقضي معها ليالي عديدة، أنام معها في سرير واحد مسرورة قريرة العين منتعشة لأنها كانت مثلي تحب الهواء الطلق، ولا تنام إلا والنوافذ مفتوحة وبخاصة في الصيف، وذلك على خلاف والدتي التي كانت تغلق علينا الأبواب والنوافذ خشية أن يصيبنا البرد، فكنت أسهر معها حتى يغلبني النعاس، وأستيقظ في الصباح الباكر على صوت

الأطيار وتغريدها، وكانت الطبيعة بما فيها من جمال وجلال تأخذني فأسبح في جمالها إلى ما لا نهاية، وأشعر بالسعادة والهناء لما ألقاه من عطف وما أسبح فيه من خيال.

وكان يلذ لي أن أشارك هذه السيدة البارة الرحيمة أفكارها لتشابه أذواقنا في كل شيء، كانت تحب اللبن البارد المغلي في المساء والمغطى بالقشدة، فكنا نغمس فيه الخبز اليابس ثم ننتهي بالفاكهة. وفي ليالي الشتاء كنت أجلس القرفصاء بجانب الموقد للتدفئة وأضع الكستناء على الفحم المتوهج واحدة بعد الأخرى، وكلما فرقعت إحداها، قفزت من مكاني ضاحكة، فتضحك هي الأخرى وهي ترنو لي بعين الشفقة والحنان.

وأتذكر إنني طلبت منها ذات يوم أن تفسر لي حكمة تفضيل شقيقي علي، فأجابتني في ابتسامتها الحلوة: ألم تشعري الآن بالفارق الذي بينك وبينه، قلت: نعم ولكني أنا الأكبر وأنا الأولى، ويجب أن يكون نصيبي أوفر منه ومركزي أعلى من مركزه. قالت: ولكنك فتاة وهو غلام. وليس هذا فحسب، بل أنت لست الفتاة الوحيدة وهو الولد الوحيد الذي عليه عمار الدار، أنت عندما تتزوجين ستذهبين

إلى منزل الزوجية وتحملين اسم زوجك، أما هو فسيحيي اسم أبيه ويفتح بيته.

هذا الجواب الصريح المعقول، رد إلى رشدي، ولم أتـألم من سماعه بل نزل على قلبي بردا وسلاما، وزادنـي حبـا لأخي الذي سيخلد اسم أبي الحبيب ويحل محله في العائلة.

وقد فهمت والدتي الكبيرة ما أقاسيه من هـذا الشـعور، فأضافت: إن أخاك ضعيف البنية، لذلك يخافون على صحته ويعطفون عليه، أما أنت فقوية سليمة الصحة.

وقد تمنيت بعد ذلك أن أمرض لأتساوى معه فـي حـب والدتي، وتصادف أن تفشت حمى الدنج في البلد، وكنت أول من أصيب بها في المنزل، ففرحت بهذا الاختبار ولازمـت الفراش، وكم تأثرت من اهتمام والدتي بمرضي وانزعاجهـا منه لأنها لم تتعود أن تراني مريضة، وأمرت فـي الحـال بإحضار طبيب العائلة "علوي باشا"، وبعد يومين أو ثلاثـة، أصيب أخي بالمرض نفسه، فقام أهل المنـزل علـى قـدم وساق، ورأيت الأطباء يدخلون غرفتنا قاصدين فراش أخي، ثم يقومون بفحصه ويغادرون الغرفة دون أن يلتفتـوا إلـي، رغم أن فراشه كان بالقرب من فراشي، وقد أثر فـي ذلـك

كثيرا، وارتفعت الحمى من فرط تأثري، ولكن أحدا لم يهتم بأمري إلا بعد أن ازدادت حالتي سوءا.

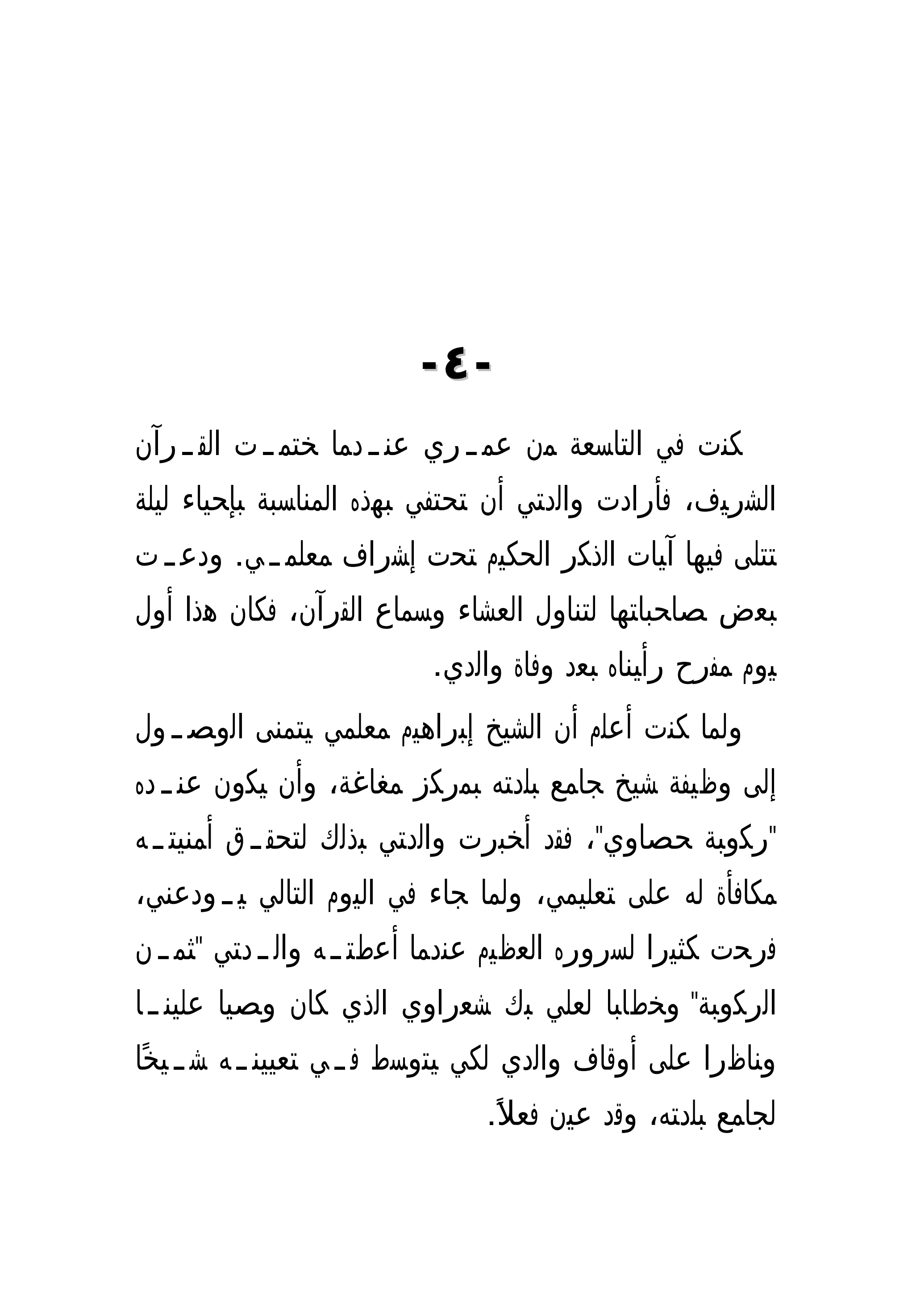
ولقد زادتني هذه التجربة المريرة انكماشًا وحقدا على من حولي، فصرت أقضي معظم أوقات الفراغ بعد الدرس في حديقتنا التي كانت أشبه بغابة صغيرة، وكنت أحب الحيوانات، وكان يخيل إلي إنها تفهمني وترثي لحالي، كما كنت أرى في الأشجار مرتعا للألعاب الرياضية التي كنت مشغوفة بها.

وكنت أجد تسلية كبرى في أوقات الدرس، إذ كنا نمضي كل صباح في تلقي مختلف العلوم من المدرسين باللغات العربية والتركية والفرنسية، وكنت مغرمة جدا، باللغة العربية. وكان يحضر الدرس معنا مربينا "سعيد آغا" الذي كان يلازمنا في كل مكان. وكان صاحب الأمر والنهي على الخدم وعلى معلمينا. وبهذه المناسبة أذكر أنه لتعطشي للغة العربية، سألت أستاذي يوما عن السبب في عدم إمكاني قراءة القرآن مثله دون خطأ، فقال لأنك لم تتعلمي قواعد النحو.

ولما سألته إن كان في إمكاني أن أقرأ مثله بلا لحن ولا خطأ بعد تعلمي القواعد، أجابني بالإيجاب، فرجوته أن

يعلمني القواعد، ففرح وقال لي: بكل سرور، وفـي اليـوم التالي أتى يحمل تحت إبطه كتاب النحو، فسأله سـعيد آغـا بعظمة وكبرياء: ما هذا الكتاب؟ قال: كتاب النحـو، طلبتـه الآنسة نور الهدى لتتعلم القواعد، فقهقه الآغا وقال له: خـذ كتابك.. لا لزوم للنحو، لأنها لن تكون محاميـة يومـا مـن الأيام!

وقد أثرت هذه الصدمة الجديدة في نفسي تـأثيرا شـديدا، وبدأ اليأس يتسرب إلى قلبي ويتولاني الملل حتـى أهملـت دروسي، وصرت أكره أنوثتي لأنها حرمتني متعـة التعلـيم وممارسة الحياة الرياضية التي كنت أحبها، كما كانت تحول بعد ذلك بيني وبين الحرية التي كنت أعشقها..



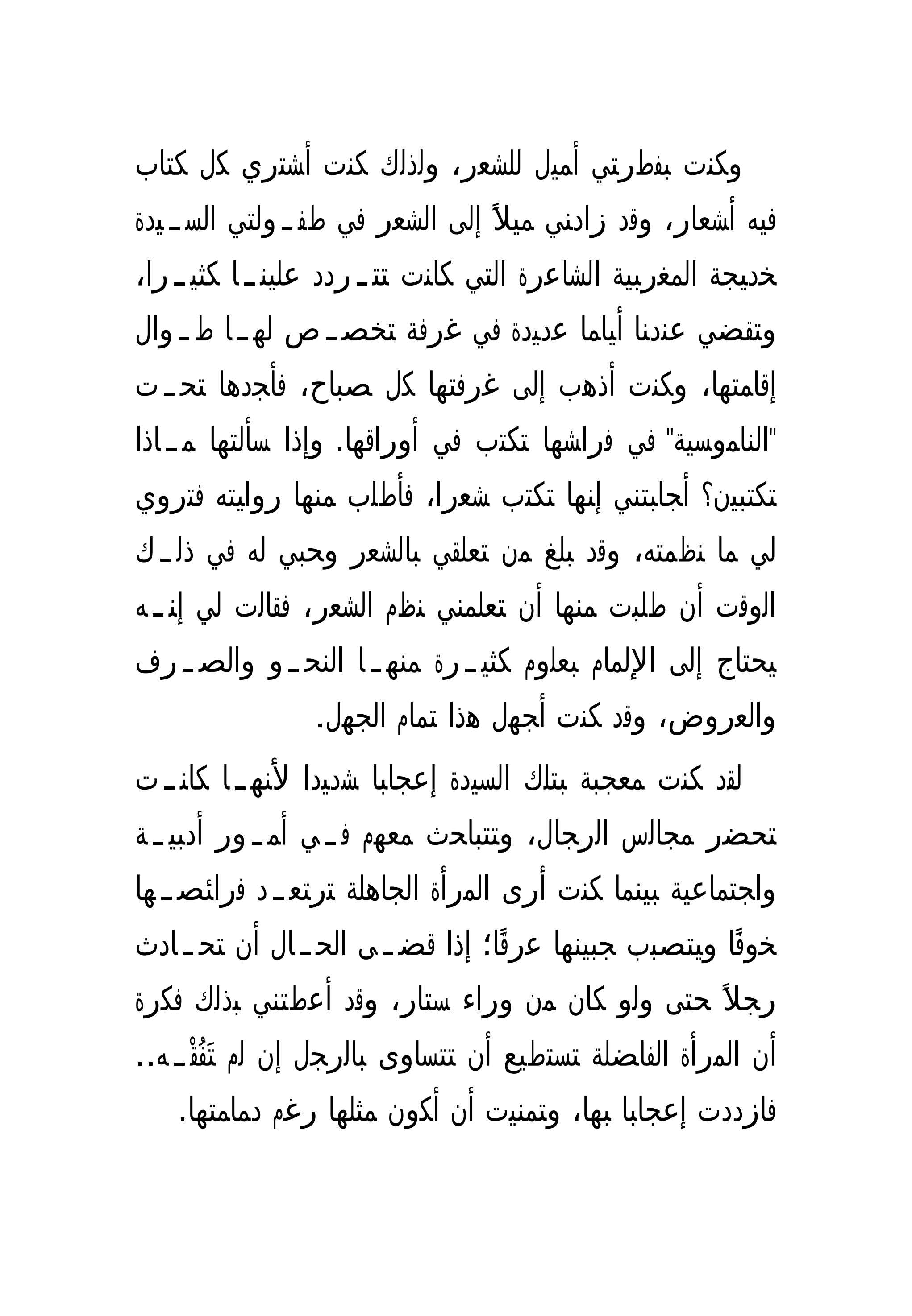
- ٤ -

كنت في التاسعة من عمـري عنـدما ختمـت القـرآن الشريف، فأرادت والدتي أن تحتفي بهذه المناسبة بإحياء ليلة تتلى فيها آيات الذكر الحكيم تحت إشراف معلمـي. ودعـت بعض صاحباتها لتناول العشاء وسماع القرآن، فكان هذا أول يوم مفرح رأيناه بعد وفاة والدي.

ولما كنت أعلم أن الشيخ إبراهيم معلمي يتمنى الوصـول إلى وظيفة شيخ جامع بلدته بمركز مغاغة، وأن يكون عنـده "ركوبة حصاوي"، فقد أخبرت والدتي بذلك لتحقـق أمنيتـه مكافأة له على تعليمي، ولما جاء في اليوم التالي يـودعني، فرحت كثيرا لسروره العظيم عندما أعطتـه والـدتي "ثمـن الركوبة" وخطابا لعلي بك شعراوي الذي كان وصيا علينـا وناظرا على أوقاف والدي لكي يتوسط فـي تعيينـه شـيخًا لجامع بلدته، وقد عين فعلاً.

ختمت القرآن، فظن من حولي إنني ملكت ناصية اللغـة العربية والديانة. ولكني في الحقيقة لم أكن أسـتطيع قـراءة شيء غير القرآن لأنه مشكل، ولا أعرف من علوم الديانـة إلا كيفية الوضوء والصلاة والصوم ومع ذلك فقد سـاعدني على فك الخط والكتابة دراسة اللغة التركية التي تلقيتها على أيدي معلمين أكفاء مثل أنور أفندي وحسن أفنـدي الخطـاط المشهور وحافظ أفندي.. وكان الأخير رصينًا فـي الإلقـاء ومجيدا في ترتيل الشعر التركي والفارسي، وقد نهجوا فـي تعليمي للغة التركية الطريقة الصحيحة، فتعلمـت قواعـدها والخط الرقعة والنسخ، وقد أفادني ذلك بالنسبة للغة العربيـة نظرا لتماثل حروف اللغتين.

وكنت أشتري من أمام الباب خلسة الكتب العربيـة مـن الباعة المتجولين، وكان ذلك محظورا علينا، ولم أكن أميز ما أشتريه، ولكن الكتاب الذي كان يسهل علي فهمه، كنت أفرح به وأقرظه وأقول أنه كتاب جيد، أما الكتـاب الـذي كنـت لا أفهمه، فقد كنت أحكم عليه بأنه كتاب رديء وأهمله فـي دولاب صغير عندي.



وكنت بفطرتي أميل للشعر، ولذلك كنت أشتري كل كتاب فيه أشعار، وقد زادني ميلاً إلى الشعر في طفولتي السيدة خديجة المغربية الشاعرة التي كانت تتردد علينا كثيرا، وتقضي عندنا أياما عديدة في غرفة تخصص لها طوال إقامتها، وكنت أذهب إلى غرفتها كل صباح، فأجدها تحت "الناموسية" في فراشها تكتب في أوراقها. وإذا سألتها ماذا تكتبين؟ أجابتني إنها تكتب شعرا، فأطلب منها روايته فتروي لي ما نظمته، وقد بلغ من تعلقي بالشعر وحبي له في ذلك الوقت أن طلبت منها أن تعلمني نظم الشعر، فقالت لي إنه يحتاج إلى الإلمام بعلوم كثيرة منها النحو والصرف والعروض، وقد كنت أجهل هذا تمام الجهل.

لقد كنت معجبة بتلك السيدة إعجابا شديدا لأنها كانت تحضر مجالس الرجال، وتتباحث معهم في أمور أدبية واجتماعية بينما كنت أرى المرأة الجاهلة ترتعد فرائصها خوفًا ويتصبب جبينها عرقًا؛ إذا قضى الحال أن تحادث رجلاً حتى ولو كان من وراء ستار، وقد أعطتني بذلك فكرة أن المرأة الفاضلة تستطيع أن تتساوى بالرجل إن لم تَفُقْه.. فازددت إعجابا بها، وتمنيت أن أكون مثلها رغم دمامتها.

ولم يعد يكفيني ما اشتريه من الكتب بين الحين والآخـر، وإنما أصبحت في مطالعة كتب والدي، لعلمي أنه كان رحمه ا يحب الأدب والشعر، وكان دائمـا محوطًـا بالشـعراء والأدباء، ولذلك كنت أتحين الفرص لأتمكن من فتح مكتبـه بتجربة المفاتيح التي كانت تحت يدي، وكانت معي فتاتان في سني تربيتا معي، إحداهما شركسية والأخرى مصرية، فكنت أعهد إليهما بمراقبة الدهليز في الوقت الذي أحاول فيه فـتح خزانة الكتب، وكانت موجودة في غرفة التدريس. وأخيـرا تمكنت من فتحها. وكم تألمت لما فوجئت بمنظر الشـيكولاته التي كان يحتفظ بها والدي لنا، وقد أذابتها السنون، فسـالت على الأوراق وتركت بها أثرا، ولكن حب الاستطلاع تغلـب على عاطفتي، ودفعني إلى مد يدي المرتجفة إلى تلك الكتب، فآخذ منها كتابين دون معرفة ما بهما، وكان أحدهما الجـزء الثاني من "العقد الفريد"، والثاني "ديوان أبو النصـر" أحـد شعراء ذلك العصر، وما زالا عندي حتى الآن. وأذكـر أن أول قصة قرأتها هي قصة "المملوك الشارد" تأليف جورجي زيدان، وقد حببت إلي قراءة القصص التاريخية.

أما اللغة الفرنسية، فقد بدأت أتعلمها وأنا في سن التاسـعة بعد ما ختمت القرآن. وكانت معلمتي إيطالية الجنسية تحسن تعليم الموسيقى أكثر من تعليم الفرنسية. وبهذه المناسبة أذكر كيف بدأت دراسة البيانو في تلك السن.

أشار الطبيب الذي كان يعالج أخي أن يشتروا لـه مهـرا صغيرا "سيسي" ليتعلم ركوب الخيـل – وهـو إذ ذاك فـي السابعة من عمره - لأن الركوب رياضة سامية تقوي الجسم وتنشط حركة الأمعاء وفي الوقت نفسه لا تتطلـب مجهـودا كبيرا، فطلبت أنا أيضا أن يشتروا لي مهرا لأركـب مثلـه، وحاولوا إقناعي بأن ركوب الخيل لا يليق بالبنـات، ولكنـي دحضت زعمهم هذا بحجة دامغة، فضربت لهم مثلاً بجارتنا ابنة الضابط لمعي بك التي تركب الخيـل وتقـود عربتهـا الصغيرة بنفسها، ولما عجزت والدتي عن إقناعي، خيرتنـي بين الحصان والبيانو، وكانت تعرف ميلي الشديد للموسـيقى فنجحت إذ فضلت البيانو على الحصان، قائلة فـي نفسـي: أكسب البيانو وأتمتع بركوب حصان أخي كلما أردت..

ويمكن هنا أن أروي ما أتذكره من برنامج حياتنا اليومية، فقد كنا ننتهي أنا وشقيقي وفتاتان تربيتا معـي مـن تلقـي

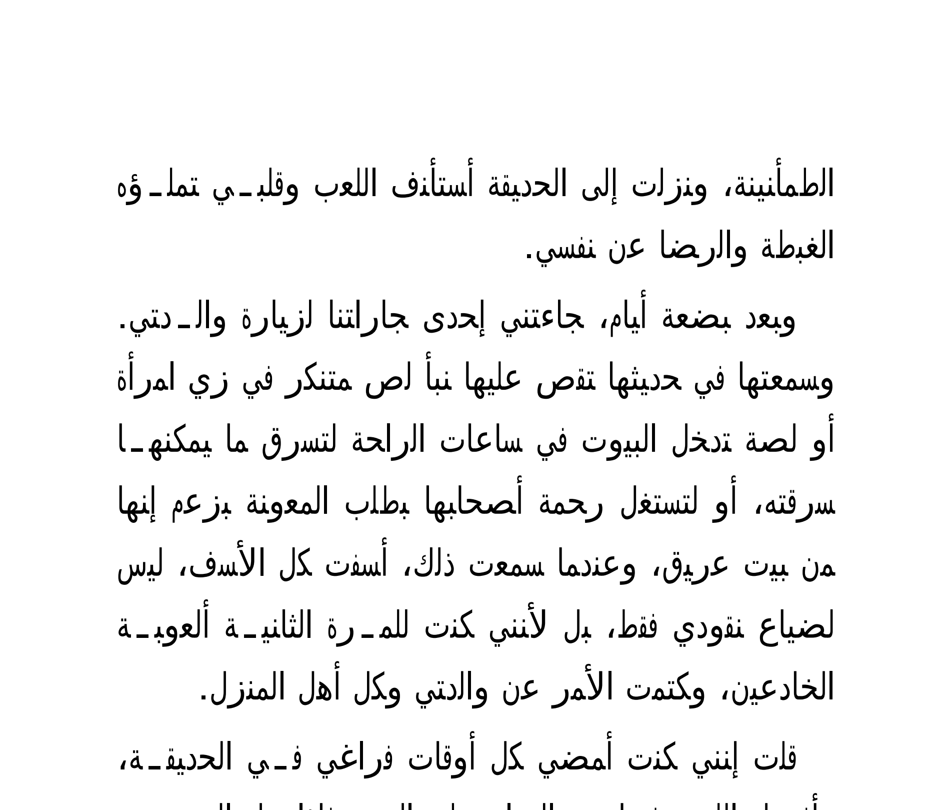
الدروس في الظهر، وبعد تناول الغداء، كانوا يأخذون أخـي إلى غرفة النوم للراحة. أما أنا فكنت أنزل إلى الحديقة لألعب على الأرجوحة أو أقوم بتجاربي في تسلق الأشجار والأسوار أو تنسيق حديقتي الصغيرة؛ إذ كان لكل منا قطعة صـغيرة في وسط الحديقة يزرعها كيف يشاء. وأذكر إنني بينما كنت أشتغل بزراعة حديقتي، كان يساعدني أحيانًا فـي تنظيمهـا وإرشادي إلى فن الزراعة بستاني يدعى "متى" وكذلك الساقي الذي كان يخدم والدي، وهو عبد حبشي اسمه "عنبـر" كـان كثير المزاح والضحك، وقد أوهمني يوما بأن الدراهم تزرع وتؤتي ثمرها فأبديت رغبتي في زراعتها، فصار يأخذ منـي قروشًا ويدفنها أمامي في الأرض، ثم يوصيني بـألا أخبـر بمكانها أحدا حتى لا تسرق، وقال إنها إذا سرقت لا نجنـي من وراء زرعنا ثمرا، واستمر الحال هكذا مدة طويلة وكنت كلما سألته على انفراد: لماذا تأخر ظهور شـجر الـدراهم؟ أجاب إن هذه الأشجار ليست كغيرها في سرعة نباتها، ولذلك فإن الدراهم غالية ولا يملكها كل إنسـان. فـانتظرت ولمـا أعياني الانتظار ولم أجد الأرض قد أنبتت ذهبا ولا فضـة، سألت "متى" البستاني قائلة: هل الأغنياء يجنون كثيـرا مـن

النقود من زراعتهم الواسعة؟ فقال لي: نعم، فقلت له: لمـاذا إذًا لم تثمر نقودي؟ فقصصت عليه القصة، فقهقه طويلاً وقال لي: هل يعقل أن تزرع المعادن وتنبت؟ فكان ذلك درسا في إساءة الظن بالناس وعدم التسليم بما يقال؛ ليدون تحكيم عقلي أو الاسترشاد بمن حولي فيما لا أعرفه قبل القيام بمثل هـذه المشروعات.

وقد زادني يقظة وحرصا، اختبار آخر أودى بما كنت قد ادخرته منذ عام من المصروف اليومي الذي كانت تعطيه لي والدتي ووالدتي الكبيرة.

كنت ألعب بعد ظهر أحد أيام رمضان في الحديقة كعادتي عندما رأيت سيدة ملثمة تهرول نحـو المنـزل، ولـم أكـن أعرفها، وقد عجبت لمجيئها في مثل هذه الساعة على خلاف العادة في رمضان؛ حيث تجري الزيارات ليلاً بعد الإفطار، فتبعتها وصعدت السلم خلفها ثم رجوتها أن تنتظر في البهـو حتى أخبر والدتي لمقابلتها. ولما دخلت غرفة والدتي وجدتها مستغرقة في النوم، فقصدت إلى غرفـة والـدتي الكبيـرة، وكانت مستيقظة، فأخبرتها بوجود زائرة، فرفضت مقابلتهـا وأشارت إلى الخادم بإغلاق باب غرفتها، فرجعت إلى السيدة

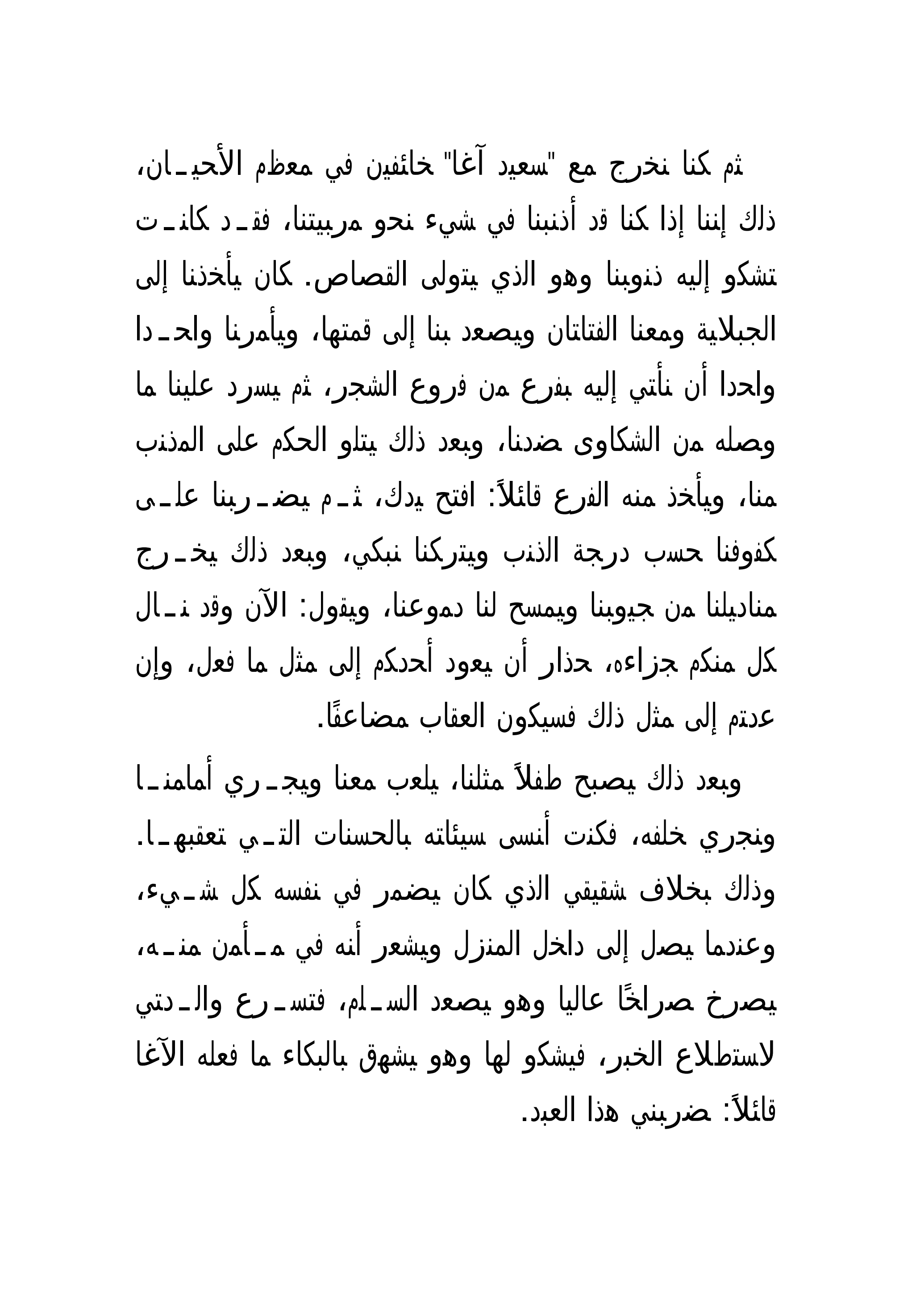
التي بقيت متسترة في برقعها الكثيف لأعتذر لها وأنا في شدة الخجل بأن كل من في البيت نائمون الآن. وسألتها عن حاجتها، فقالت إنها زوجة أحد الباشوات من جيراننا، توفي زوجها الثري بعد أن فقد كل أمواله في أخريات حياته وتركها هي وأولادها في حالة سيئة من الفقر والبؤس حتى أنهم كثيرا ما ينامون جياعا. وكانت قد أتت لتطلب المعونة من والدتي، فتأثرت بما سمعت وعدت إلى غرفة والدتي لأوقظها ولكني لم أجرؤ على ذلك، وتذكرت المبلغ الذي وفرته من مصروفي لشراء بعض اللعب واللوازم، وكان داخل دولاب في غرفة والدتي، فمشيت على أطراف أصابعي وفتحته برفق واحتراس كي لا أوقظها، وأخذت المبلغ كله – وكان سبعة جنيهات - وأعطيته لها في خجل نظرا لضآلته، وكدت أصعق عندما اختطفت مني النقود وتركتني مهرولة نحو السلم دون أن تشكرني، فبقيت في مكاني لا أبدي حراكًا، ولكني تغلبت على ذلك ورجعت إلى حسن ظني قائلة في نفسي لابد إنها من فرحها واستعجالها لشراء الطعام لأطفالها نسيت واجب الشكر. وبذلك عاودتني



الطمأنينة، ونزلت إلى الحديقة أستأنف اللعب وقلبي تملؤه الغبطة والرضا عن نفسي.

وبعد بضعة أيام، جاءتني إحدى جاراتنا لزيارة والدتي. وسمعتها في حديثها تقص عليها نبأ لص متنكر في زي امرأة أو لصة تدخل البيوت في ساعات الراحة لتسرق ما يمكنها سرقته، أو لتستغل رحمة أصحابها بطلب المعونة بزعم إنها من بيت عريق، وعندما سمعت ذلك، أسفت كل الأسف، ليس لضياع نقودي فقط، بل لأنني كنت للمرة الثانية ألعوبة الخادعين، وكتمت الأمر عن والدتي وكل أهل المنزل.

قلت إنني كنت أمضي كل أوقات فراغي في الحديقة، وأفضل اللعب فيها بعد الغداء على النوم، فإذا حل العصر، خرج "سعيد آغا" من غرفته، وأمرني في عبوس أن أصعد لتغيير ملابسي استعدادا للخروج للنزهة مع شقيقي الذي كان يقول لي بتهكم: أما تستحين من بقائك طول الوقت في الحديقة، وأنا مع كوني ولدا أمضي أكثر أوقاتي داخل المنزل؟ فكنت أرد عليه بحسرة قائلة: غدا ستنعكس الآية، وأنا التي سأبقى في البيت وتكون أنت خارجه.



ثم كنا نخرج مع "سعيد آغا" خائفين في معظم الأحيـان، ذلك إننا إذا كنا قد أذنبنا في شيء نحو مربيتنا، فقـد كانـت تشكو إليه ذنوبنا وهو الذي يتولى القصاص. كان يأخذنا إلى الجبلاية ومعنا الفتاتان ويصعد بنا إلى قمتها، ويأمرنا واحـدا واحدا أن نأتي إليه بفرع من فروع الشجر، ثم يسرد علينا ما وصله من الشكاوى ضدنا، وبعد ذلك يتلو الحكم على المذنب منا، ويأخذ منه الفرع قائلاً: افتح يدك، ثـم يضـربنا علـى كفوفنا حسب درجة الذنب ويتركنا نبكي، وبعد ذلك يخـرج مناديلنا من جيوبنا ويمسح لنا دموعنا، ويقول: الآن وقد نـال كل منكم جزاءه، حذار أن يعود أحدكم إلى مثل ما فعل، وإن عدتم إلى مثل ذلك فسيكون العقاب مضاعفًا.

وبعد ذلك يصبح طفلاً مثلنا، يلعب معنا ويجـري أمامنـا ونجري خلفه، فكنت أنسى سيئاته بالحسنات التـي تعقبهـا. وذلك بخلاف شقيقي الذي كان يضمر في نفسه كل شـيء، وعندما يصل إلى داخل المنزل ويشعر أنه في مـأمن منـه، يصرخ صراخًا عاليا وهو يصعد السـلم، فتسـرع والـدتي لاستطلاع الخبر، فيشكو لها وهو يشهق بالبكاء ما فعله الآغا قائلاً: ضربني هذا العبد.

وكنت أحدق فيه ببصري ليسكت، ولكن عبثًا كنت أحاول إسكاته، ولما كانت والدتي تحقق في سبب عقابنا، كان يخبرها الآغا بأننا كنا نستحق هذا العقاب، ويقص عليها الأسباب، فكانت تهدئ من ثورة أخي قائلة: هذا مربيك ولم يفعل ذلك إلا لصالحك..

كنت أحب "لا لا سعيد آغا" لأني كنت أشعر بحبه وإخلاصه لنا رغم ما يظهره من القسوة أحيانًا، ولا أنسى مدى الحياة ساعة خطر رأيته فيها يضمنا إلى صدره ناسيا نفسه، وكان ذلك ذات يوم توجهنا فيه إلى الجزيرة للنزهة في عربتنا، وكان يرجها جوادان روسيان كبيران في غاية القوة، وكانا لم يخرجا منذ بضعة أيام، وما كدنا نجتاز كوبري قصر النيل حتى جمحا على جسر الجزيرة متجهين إلى منحدر نحو النيل. فذعر "سعيد آغا" وأخذنا بين ذراعيه وصرخ بأعلى صوته: آه يا أولاد سيدي..

وكأن ا قد أراد أن يكافئ إخلاصه هذا بنجاتنا؛ حيث شكم السائق الجوادين بقوة، فوقفا تماما، ونزلنا من العربة حتى هدأت ثورتهما، ثم استأنفنا نزهتنا.

كان "لا لا سعيد" أبيا، معتدا بنفسه، مفاخرا بانتسابه لبيتنا، وكانت والدتي تعزه كثيرا وتعطف عليه لأن والدي اشـتراه صغيرا وعني بتربيته، وتعليمه في المدارس، وكـان يحـب والدي إلى درجة العبادة، ولما كبر، وجه حبه إلينا، وكانـت والدتي تقدر فيه الحب لوالدي ولنا من بعده، وقد شببت وأنـا أقدره وأعرف له فضل تربيتنا، وكان تأثير ذلك علي كبيرا.

كانت الأعياد والمواسم من أكثر عوامل بشرنا وسرورنا.. وكنا ننتظرها بفارغ الصبر ونستعد لها من قبل حلولها بمـدة طويلة، وكنا نهتم بإعداد ثيابنا لهذه المناسبات، ولكن كثيرا ما كانت هذه الثياب تنغص علي وتعكر صفوي وتسلبني بهجـة العيد وفرحته إذا ما حيكت على خلاف ما كنت أود. وكـان يزيدنا حزنًا وألما إنني لا أستطيع أن أجهر بذلك، فقد كـان علي دائما أن أتسلمها صاغرة شاكرة دون إبداء أية ملاحظة أو اعتراض.

وكلما فكرت أنه كان من السهل تحاشي ما ينغص علـي من جراء ذلك أو غيره من الأسباب، وددت لو أن العـادات وقتئذ كانت تسمح للصغار بإبداء ما يجول بأنفسهم في شيء من الصراحة.. فالصراحة هي أساس حسـن التفـاهم بـين

الناس.. وقد حرمتني تلك العادات والتقاليد القديمة من التمتع بمزاياها وفوائدها، بحجة أنه لا يليق بالصغير أن يعـارض أو يبدي رأيا، وإنما يجب عليه أن يأخذ كل ما يقال قضـية مسلما بها، وأن يتقبل كل ما يعـرض عليـه دون مناقشـة أو معارضة.

ولقد كانت والـدتي – رحمهـا ا - محافظـة متمسـكة بالتقاليد.. وكانت ميالة إلى الخير والإحسان، ولـذلك كـان للفقراء في كل أعيادنا نصيب كبير من برهـا.. ففـي ليلـة السابع والعشرين من رجب، تحتشد جمـوع السـائلين فـي الشارع على جانبي الطريق دون سابق دعوة إليهم، بل بحكم عادتهم في مثل هذا اليوم. وكانت والدتي تنزل إلى صـحن الدار الفسيح لتشارك بنفسها في إعداد الفت واللحم والأرز.. وكانت الأبواب تفتح لأفواج السائلين فوجا بعد فـوج، حتـى يشبع الجميع ويحمل كل منهم في وعائـه عشـاء زوجتـه وأولاده وأهل بيته.

كان هذا المنظر يؤلمنا ويؤثر فينا، إذ كنا نرى بين هؤلاء المتسولين الضرير والأعرج والمقعد والمريض والعجـوز..

فكنا نطلب من والدتنا أن تأمر بإعطاء من كان يستدر عطفنا بسوء حالته نقودا أكثر من غيره.

وكان لكل منا متسول أو أكثر يتردد بعد ذلك يوميا تقريبا. وكان متسولي رجلاً مبتور الساق، وكان ينبهني إلى وجـوده بقوله "يا رب".. وكان هناك أيضا مداح يدعى "عبد الـرحيم" وكان خفيف الروح، يرتجل المدائح والمواويل وقد ظل يتردد على منزلنا إلى أن تقدمت به السن، فخصصـنا لـه مرتبـا شهريا، ويطول استمرار هذا الحال حوالي أربعين عاما، كان يعتبر نفسه كأحد المستحقين فيطالبنا بكل ما يلزمه، وقد توفي إلى رحمة ا عام ١٩٣٨.

وكذلك كانت تفعل والدتي في ليلة النصف مـن شـعبان وبعد انتهائنا من إطعام الفقراء، كنا نجتمع في غرفة واسعة، وتأتي "الشيخة جلسن" لتجلس في وسط الغرفة وتقرأ علينـا دعاء نصف شعبان، ونحن نردد بصوت عال، وكـان لهـذا الدعاء في نفوسنا رهبة وروعة.

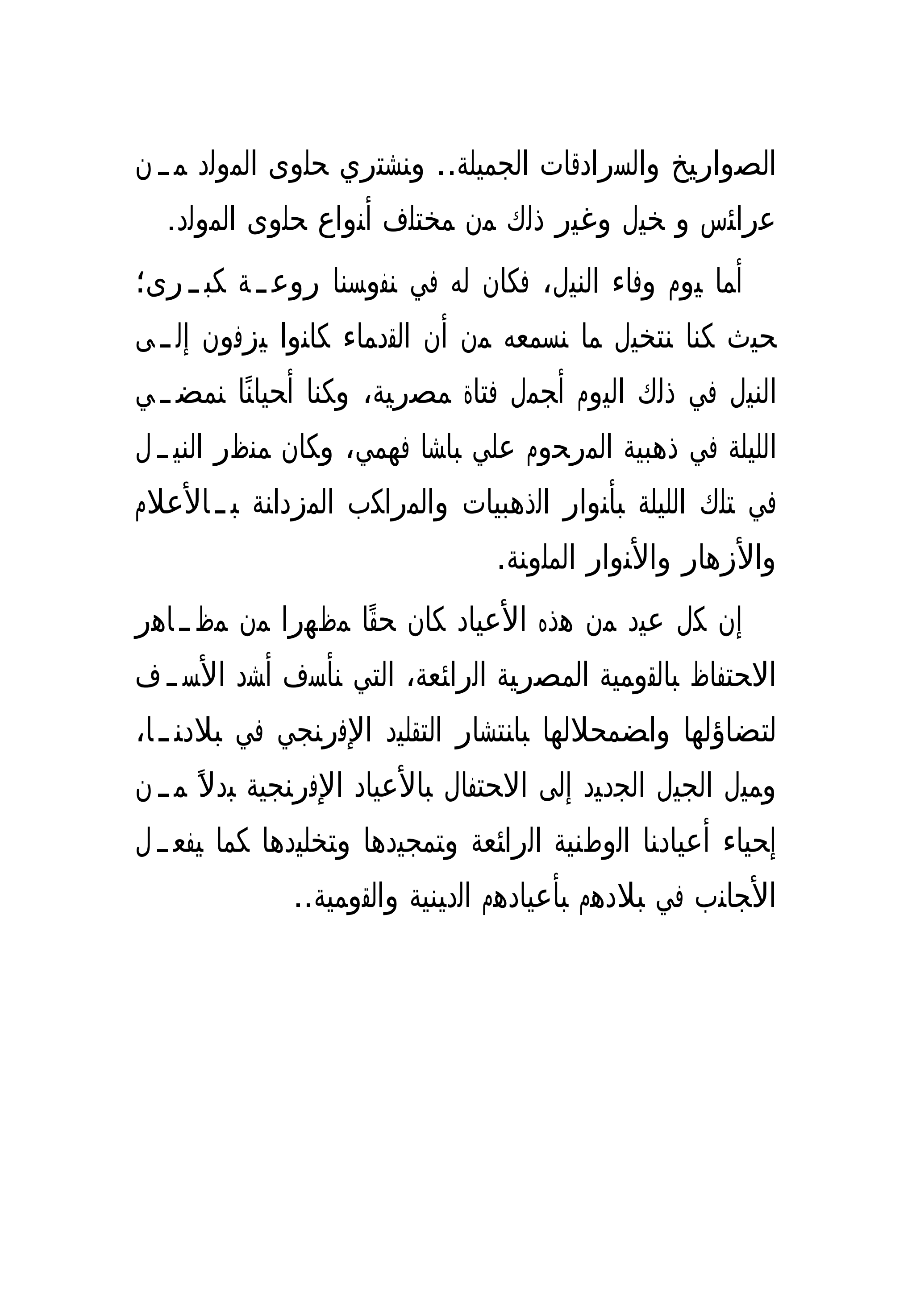
أما في ليلة القدر، فقد كنا نتوضأ قبل النوم ونصلي، ثـم يترقب كل منا ظهور "طاقة النور" التي يستجاب الدعاء عند ظهورها، حتى يغلبنا النعاس.

وعندما كان يحل عيد الفطر.. كنا نستيقظ في الصباح الباكر، ونرتدي ثيابنا الجديدة.. ثم نخرج لزيارة أصدقائنا، وكنا نمضي باقي النهار في منزل ثابت باشا نلعب في حديقته، أو كان أولاده يأتون عندنا، وكانوا أقرب جيراننا.

وكنا نترقب عيد الأضحى الذي تنحر فيه الذبائح، فنستيقظ مبكرين لنرى توزيع اللحوم على المستخدمين والفقراء. وكانت "دادتي" تعد لنا الكبد المحمرة للإفطار قائلة إن السنة تقضي بأن نذوق لحم ذبائح العيد.

وكانت الاستعدادات لعاشوراء تبدأ قبل موعدها بيومين أو ثلاثة أيام، وكنا نحن الصغار نشترك في نقش الصحون والأواني بالزبيب والصنوبر والجوز والفستق، وكانت الأسر الكبيرة تتبادل إهداء العاشوراء، وكم كان منظر الشوارع جميلاً وهي مزدحمة بحاملي هدايا العاشوراء ما بين رائح وغاد، وجميعهم في ملابسهم الشاهية أو الحرير يتمنطقون بأحزمة جميلة ويحملون على رءوسهم الصواني ذات الغطاءات الزاهية.

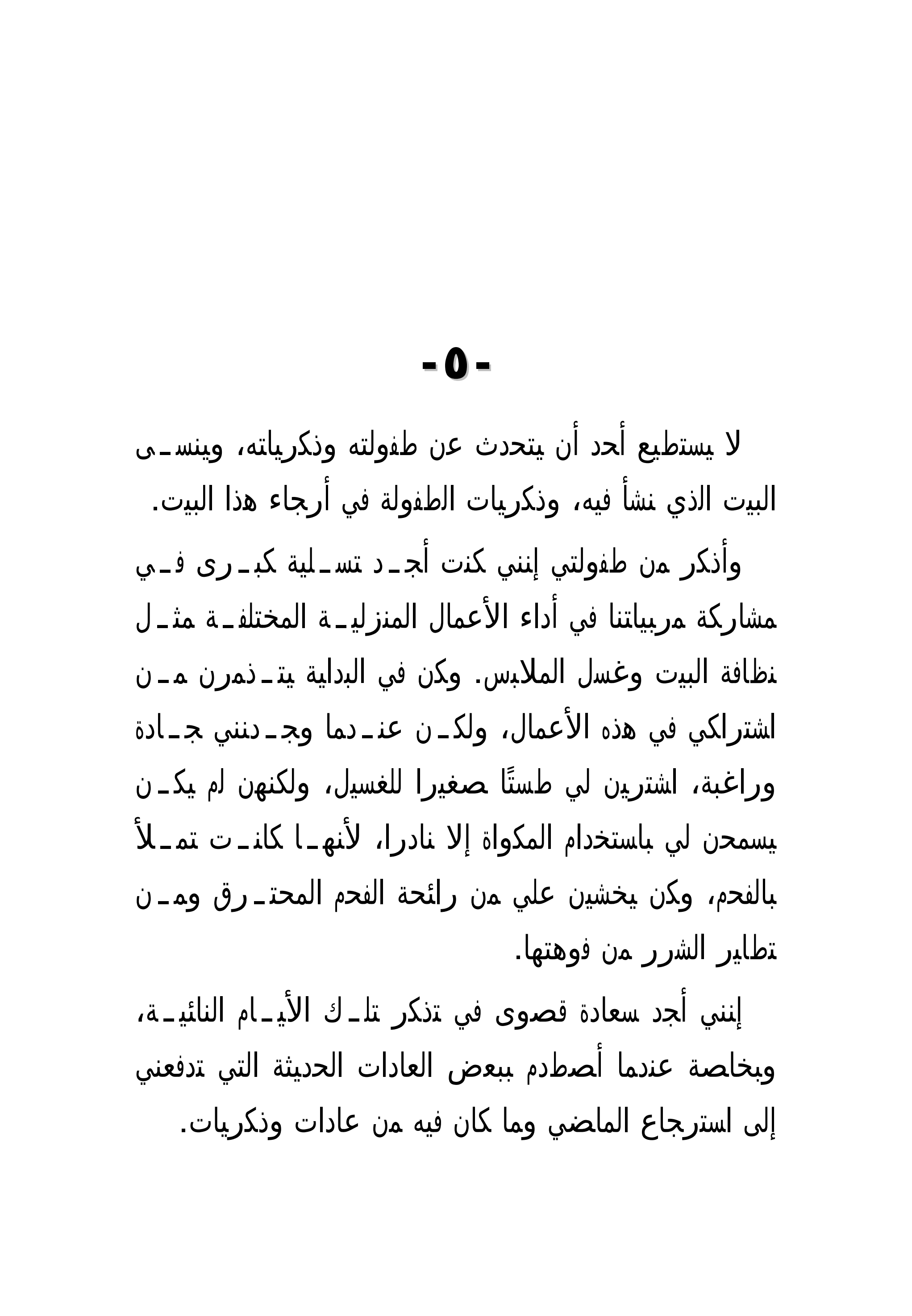
ومن الأعياد التي كانت تدخل السرور علينا، مولد النبي صلى ا عليه وسلم؛ حيث كنا نخرج في المساء لنشاهد



الصواريخ والسرادقات الجميلة.. ونشتري حلوى المولد من عرائس و خيل وغير ذلك من مختلف أنواع حلوى المولد.

أما يوم وفاء النيل، فكان له في نفوسنا روعة كبرى؛ حيث كنا نتخيل ما نسمعه من أن القدماء كانوا يزفون إلى النيل في ذلك اليوم أجمل فتاة مصرية، وكنا أحيانًا نمضي الليلة في ذهبية المرحوم علي باشا فهمي، وكان منظر النيل في تلك الليلة بأنوار الذهبيات والمراكب المزدانة بالأعلام والأزهار والأنوار الملونة.

إن كل عيد من هذه الأعياد كان حقًا مظهرا من مظاهر الاحتفاظ بالقومية المصرية الرائعة، التي نأسف أشد الأسف لتضاؤلها واضمحلالها بانتشار التقليد الإفرنجي في بلادنا، وميل الجيل الجديد إلى الاحتفال بالأعياد الإفرنجية بدلاً من إحياء أعيادنا الوطنية الرائعة وتمجيدها وتخليدها كما يفعل الأجانب في بلادهم بأعيادهم الدينية والقومية..



- ٥ -

لا يستطيع أحد أن يتحدث عن طفولته وذكرياته، وينسى البيت الذي نشأ فيه، وذكريات الطفولة في أرجاء هذا البيت.

وأذكر من طفولتي إنني كنت أجد تسلية كبرى في مشاركة مربياتنا في أداء الأعمال المنزلية المختلفة مثل نظافة البيت وغسل الملابس. وكن في البداية يتذمرن من اشتراكي في هذه الأعمال، ولكن عندما وجدنني جادة وراغبة، اشترين لي طستًا صغيرا للغسيل، ولكنهن لم يكن يسمحن لي باستخدام المكواة إلا نادرا، لأنها كانت تملأ بالفحم، وكن يخشين علي من رائحة الفحم المحترق ومن تطاير الشرر من فوهتها.

إنني أجد سعادة قصوى في تذكر تلك الأيام النائية، وبخاصة عندما أصطدم ببعض العادات الحديثة التي تدفعني إلى استرجاع الماضي وما كان فيه من عادات وذكريات.

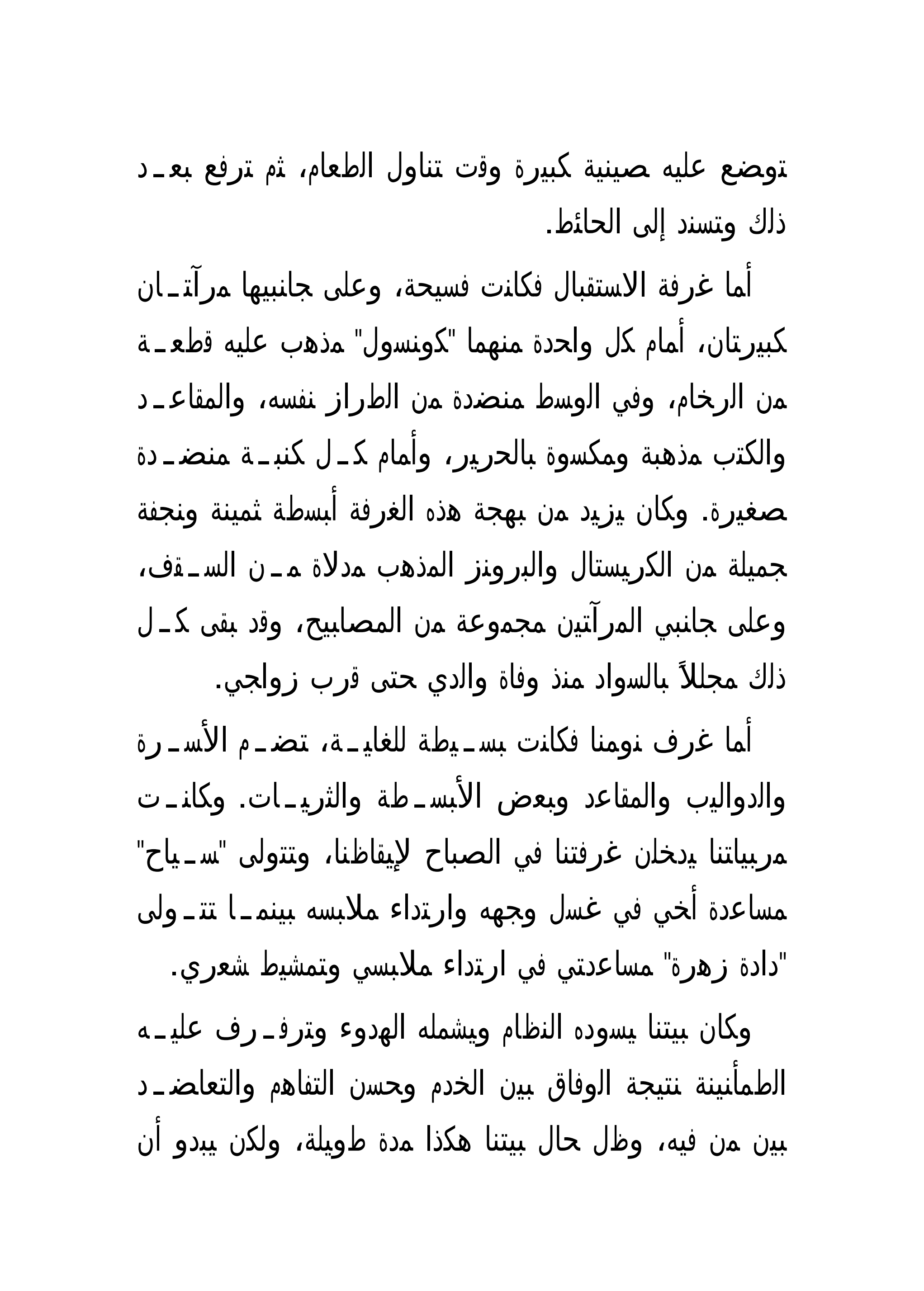
أذكر مثلاً بيتنا الكبيـر ذا الحجـرات الفسـيحة والبهـو الواسع، والذي كان يغص بالجواري والمماليك. كانوا مدربين على العمل، مخلصين في أداء واجباتهم، شاعرين بالمسئولية الملقاة على عواتقهم، محترمين مخدوميهم، محافظين على ما بين أيديهم من الأشياء، محبين لصغار مخدوميهم الذين ولدوا بين أيديهم، كل واحد يقوم بعمله خير قيام، ويشـاركنا فـي السراء والضراء، ولا تمتد يده إلى شيء مهما كانت قيمتـه، ولا يطمع إلا في رضاء أولياء أمره. وكنا نبادلهم هذا الحب، ونقدر لهم هذا الإخلاص.

واليوم، أغمض عيني وأستعيد ذكريات الغـرف الخاليـة واحدة بعد الأخرى، فأرى والدتي جاثية على ركبتيها تفصل ثيابنا فوق ملاءة بيضاء مفروشة على البسـاط فـي وسـط غرفتها، أو جالسة على الشلتة وأمامها ماكينة اليد التي تحيك بها ثيابنا، أو تلعب الطاولة أو الورق مع صديقاتها مبتسـمة متهللة إذا كانت هي الغالبة، أو تناقش بعض الأمور فيرتفـع منها الصوت الذي تعودناه هادئًا، وهي تـدافع عـن وجهـة نظرها.

ثم أتحول إلى غرفة والدتي الكبيرة، فأراها مستلقية علـى سريرها وبيدها المصحف ترتـل آيـات القـرآن الحكـيم، أو تذكار الدرس اليومي الذي فرضته على نفسها حبـا فـي تعلم اللغة العربية وتعلقًا بها. وأراها مرة أخرى جالسة فـي فراشها ومن خلفها خادمتها الصغيرة تدلك ظهرهـا بيـديها الصغيرتين، فإذا رأيتها على هذه الحال، دنوت منها ورجوتها أن تسمح لي أيضا بتخفيف آلامها، فتضحك وتصرف الفتـاة وتقول لي: قومي بدورك، فأصعد إلى السرير، وأتفـنن فـي تدليكها بكل ما عندي من قوة.

وأتجول في أنحاء البيت، فأرى الجواري كالنحل يصعدن في الصباح الباكر إلى الدور العلوي، وتتوجه كـل واحـدة منهن إلى موقعها لتقوم بأداء ما هو مطلوب منهـا، بعـد أن يشتركن جميعا في تنظيف البهو الفسيح.

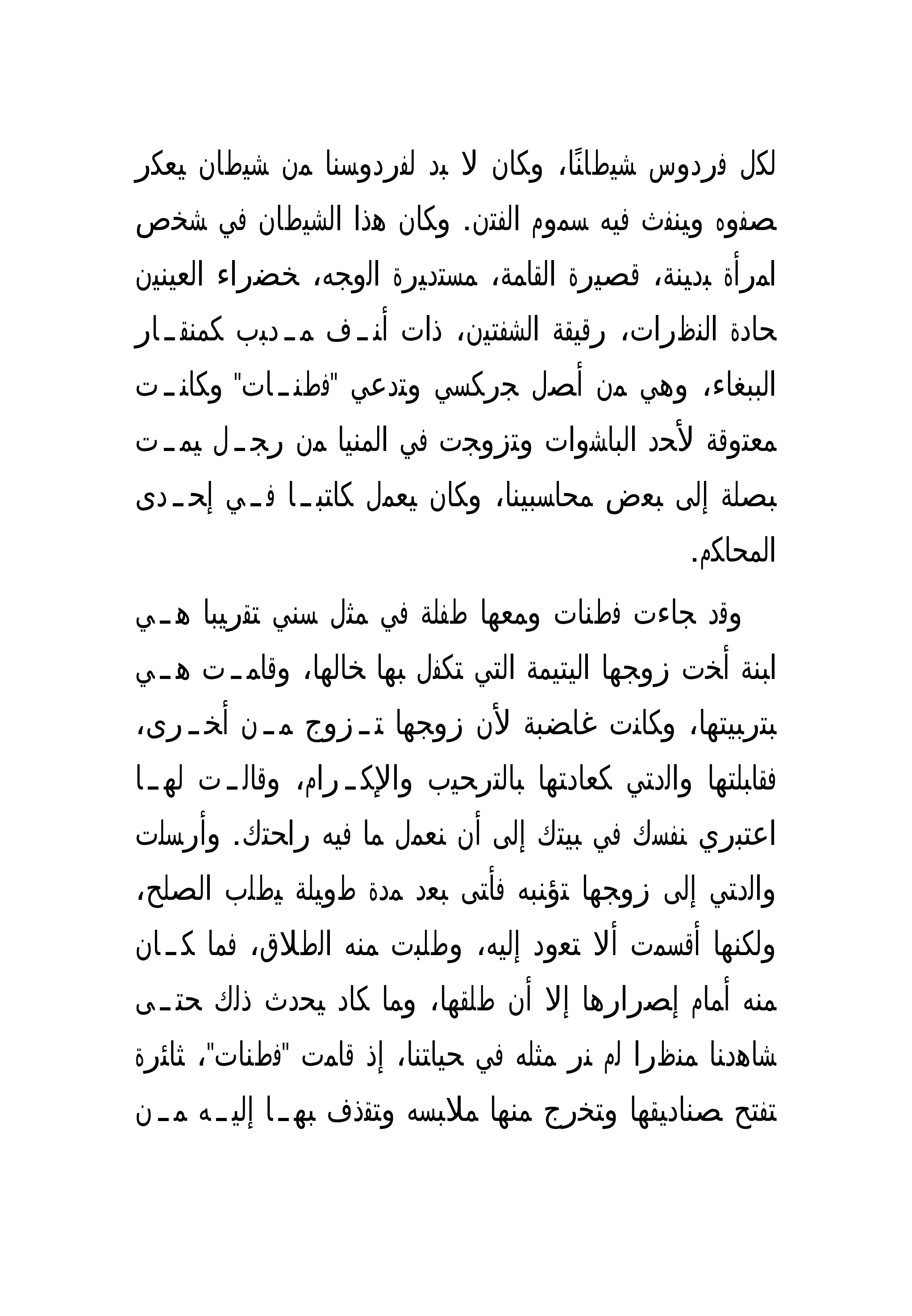
وكانت غرفة المائـدة لا تتميـز عـن بـاقي الغـرف إلا بوجود دولابين في الحـائط لحفـظ الأطبـاق الفضـية والأكواب، وحمالة الطست والإبريق التي كانت تشغل ركنًـا بجانب الباب، وكرسي مرتفع مستدير فـي وسـط الغرفـة


توضع عليه صينية كبيرة وقت تناول الطعام، ثم ترفع بعد ذلك وتسند إلى الحائط.

أما غرفة الاستقبال فكانت فسيحة، وعلى جانبيها مرآتان كبيرتان، أمام كل واحدة منهما "كونسول" مذهب عليه قطعة من الرخام، وفي الوسط منضدة من الطراز نفسه، والمقاعد والكتب مذهبة ومكسوة بالحرير، وأمام كل كنبة منضدة صغيرة. وكان يزيد من بهجة هذه الغرفة أبسطة ثمينة ونجفة جميلة من الكريستال والبرونز المذهب مدلاة من السقف، وعلى جانبي المرآتين مجموعة من المصابيح، وقد بقى كل ذلك مجللاً بالسواد منذ وفاة والدي حتى قرب زواجي.

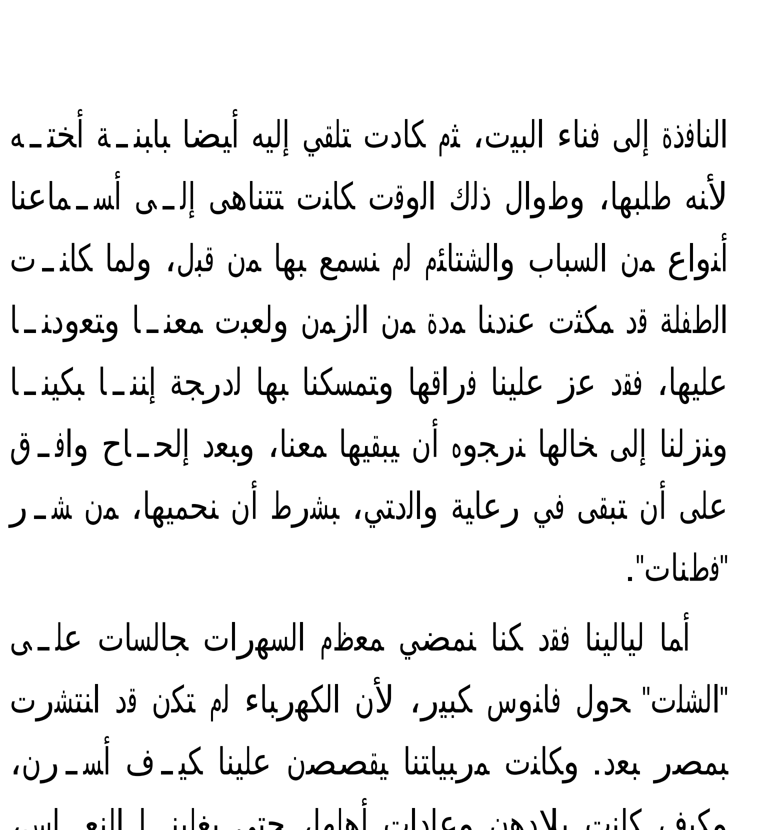
أما غرف نومنا فكانت بسيطة للغاية، تضم الأسرة والدواليب والمقاعد وبعض الأبسطة والثريات. وكانت مربياتنا يدخلن غرفتنا في الصباح لإيقاظنا، وتتولى "سياح" مساعدة أخي في غسل وجهه وارتداء ملابسه بينما تتولى "دادة زهرة" مساعدتي في ارتداء ملابسي وتمشيط شعري.

وكان بيتنا يسوده النظام ويشمله الهدوء وترفرف عليه الطمأنينة نتيجة الوفاق بين الخدم وحسن التفاهم والتعاضد بين من فيه، وظل حال بيتنا هكذا مدة طويلة، ولكن يبدو أن



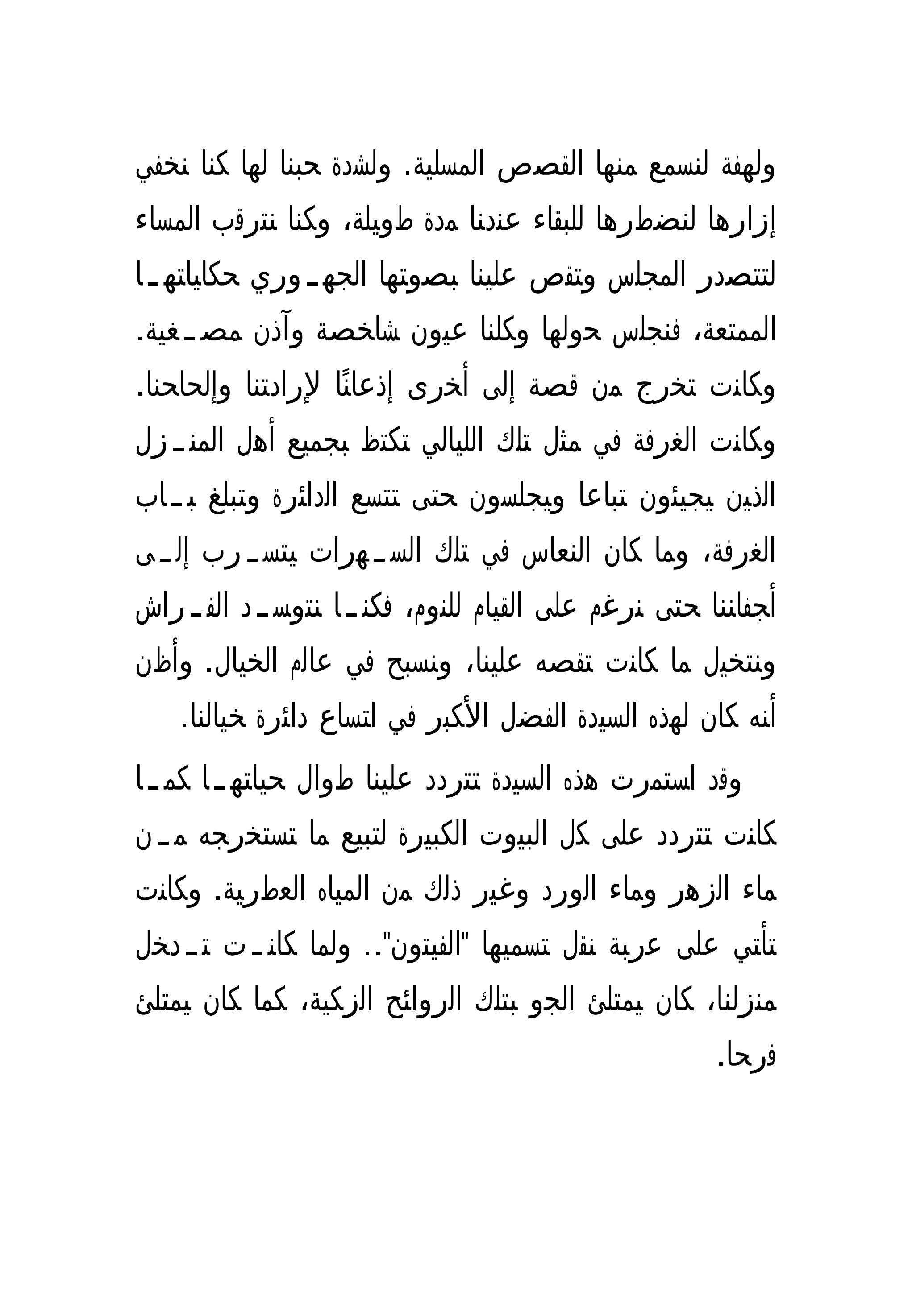
لكل فردوس شيطانًا، وكان لا بد لفردوسنا من شيطان يعكر صفوه وينفث فيه سموم الفتن. وكان هذا الشيطان في شخص امرأة بدينة، قصيرة القامة، مستديرة الوجه، خضراء العينين حادة النظرات، رقيقة الشفتين، ذات أنف مدبب كمنقار الببغاء، وهي من أصل جركسي وتدعي "فطنات" وكانت معتوقة لأحد الباشوات وتزوجت في المنيا من رجل يمت بصلة إلى بعض محاسبينا، وكان يعمل كاتبا في إحدى المحاكم.

وقد جاءت فطنات ومعها طفلة في مثل سني تقريبا هي ابنة أخت زوجها اليتيمة التي تكفل بها خالها، وقامت هي بتربيتها، وكانت غاضبة لأن زوجها تزوج من أخرى، فقابلتها والدتي كعادتها بالترحيب والإكرام، وقالت لها اعتبري نفسك في بيتك إلى أن نعمل ما فيه راحتك. وأرسلت والدتي إلى زوجها تؤنبه فأتى بعد مدة طويلة يطلب الصلح، ولكنها أقسمت ألا تعود إليه، وطلبت منه الطلاق، فما كان منه أمام إصرارها إلا أن طلقها، وما كاد يحدث ذلك حتى شاهدنا منظرا لم نر مثله في حياتنا، إذ قامت "فطنات"، ثائرة تفتح صناديقها وتخرج منها ملابسه وتقذف بها إليه من



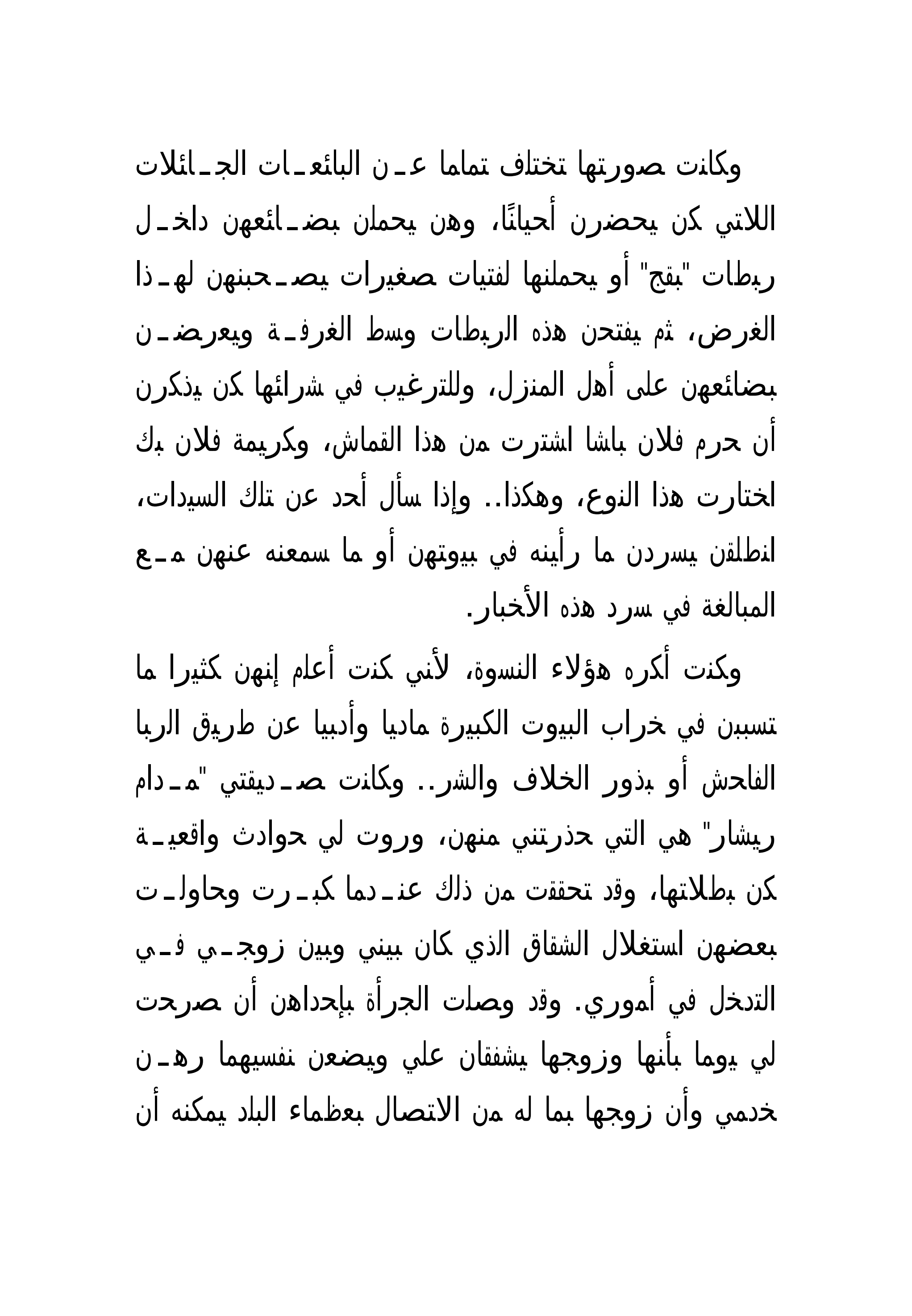
النافذة إلى فناء البيت، ثم كادت تلقي إليه أيضا بابنة أخته لأنه طلبها، وطوال ذلك الوقت كانت تتناهى إلى أسماعنا أنواع من السباب والشتائم لم نسمع بها من قبل، ولما كانت الطفلة قد مكثت عندنا مدة من الزمن ولعبت معنا وتعودنا عليها، فقد عز علينا فراقها وتمسكنا بها لدرجة إننا بكينا ونزلنا إلى خالها نرجوه أن يبقيها معنا، وبعد إلحاح وافق على أن تبقى في رعاية والدتي، بشرط أن نحميها، من شر "قطنات".

أما ليالينا فقد كنا نمضي معظم السهرات جالسات على "الشلت" حول فانوس كبير، لأن الكهرباء لم تكن قد انتشرت بمصر بعد. وكانت مربياتنا يقصصن علينا كيف أسرن، وكيف كانت بلادهن وعادات أهلها، حتى يغلبنا النعاس، فنأوي إلى فراشنا. وكانت تلك السهرات تطول وتكتسب كثيرا من الأهمية والبهجة عندما كانت تحضر لزيارتنا سيدة كانت تستخرج ماء الزهر ونسميها "الست الزهارة". كانت طويلة القامة، ضخمة الجسم، مستديرة الوجه، عليها سيماء الهيبة والوقار، ترتدي دائما الملابس البيضاء وعلى رأسها طرحة بيضاء. وكنا نحبها كثيرا وننتظر زيارتها بشوق



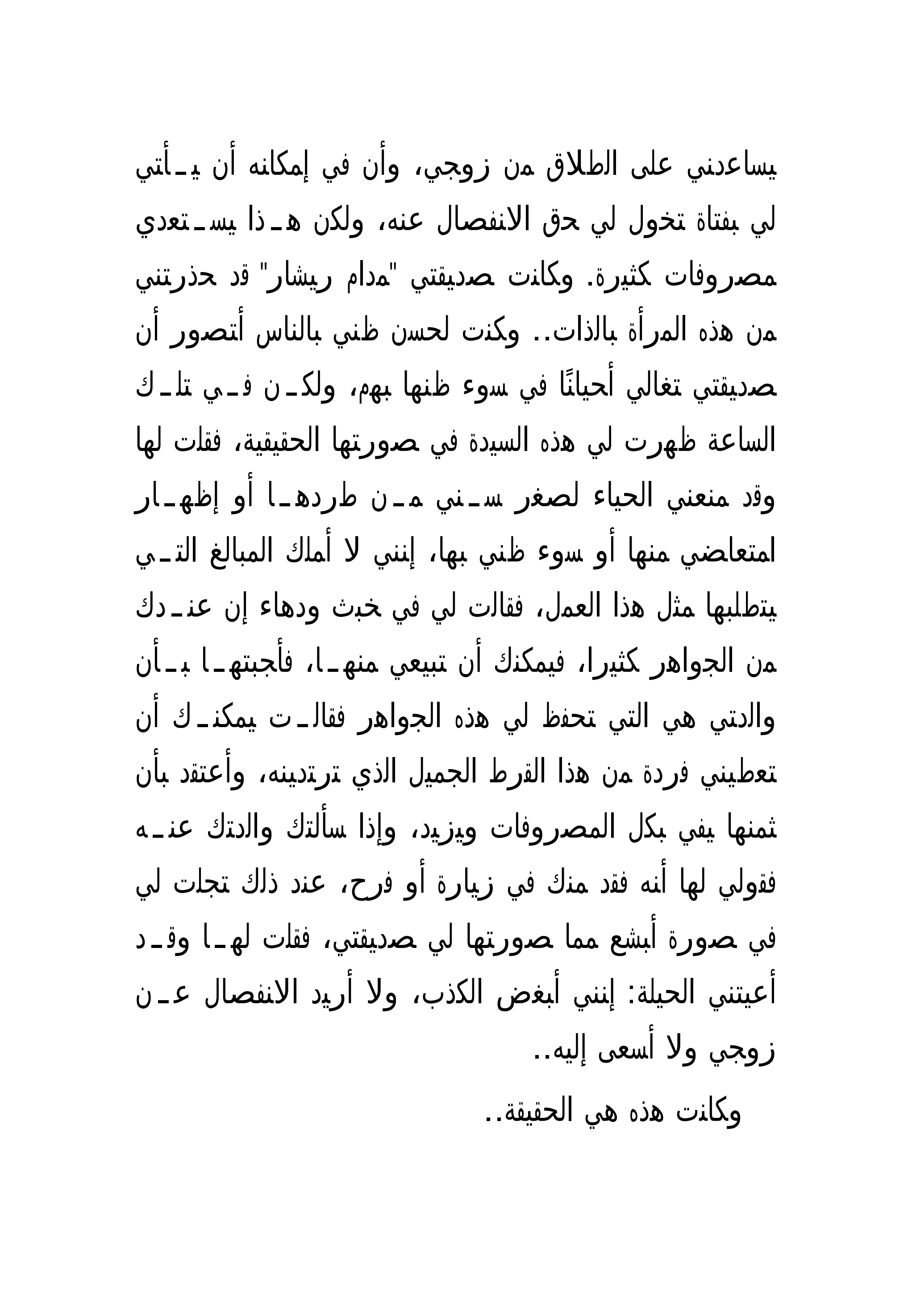
ولهفة لنسمع منها القصص المسلية. ولشدة حبنا لها كنا نخفي إزارها لنضطرها للبقاء عندنا مدة طويلة، وكنا نترقب المساء لتتصدر المجلس وتقص علينا بصوتها الجهوري حكاياتها الممتعة، فنجلس حولها وكلنا عيون شاخصة وآذن مصغية. وكانت تخرج من قصة إلى أخرى إذعانًا لإرادتنا وإلحاحنا. وكانت الغرفة في مثل تلك الليالي تكتظ بجميع أهل المنزل الذين يجيئون تباعا ويجلسون حتى تتسع الدائرة وتبلغ باب الغرفة، وما كان النعاس في تلك السهرات يتسرب إلى أجفاننا حتى نرغم على القيام للنوم، فكنا نتوسد الفراش ونتخيل ما كانت تقصه علينا، ونسبح في عالم الخيال. وأظن أنه كان لهذه السيدة الفضل الأكبر في اتساع دائرة خيالنا.

وقد استمرت هذه السيدة تتردد علينا طوال حياتها كما كانت تتردد على كل البيوت الكبيرة لتبيع ما تستخرجه من ماء الزهر وماء الورد وغير ذلك من المياه العطرية. وكانت تأتي على عربة نقل تسميها "الفيتون".. ولما كانت تدخل منزلنا، كان يمتلئ الجو بتلك الروائح الزكية، كما كان يمتلئ فرحا.



وكانت صورتها تختلف تماما عن البائعات الجائلات اللاتي كن يحضرن أحيانًا، وهن يحملن بضائعهن داخل ربطات "بقج" أو يحملنها لفتيات صغيرات يصحبنهن لهذا الغرض، ثم يفتحن هذه الربطات وسط الغرفة ويعرضن بضائعهن على أهل المنزل، وللترغيب في شرائها كن يذكرن أن حرم فلان باشا اشترت من هذا القماش، وكريمة فلان بك اختارت هذا النوع، وهكذا.. وإذا سأل أحد عن تلك السيدات، انطلقن يسردن ما رأينه في بيوتهن أو ما سمعنه عنهن مع المبالغة في سرد هذه الأخبار.

وكنت أكره هؤلاء النسوة، لأني كنت أعلم إنهن كثيرا ما تسببن في خراب البيوت الكبيرة ماديا وأدبيا عن طريق الربا الفاحش أو بذور الخلاف والشر.. وكانت صديقتي "مدام ريشار" هي التي حذرتني منهن، وروت لي حوادث واقعية كن بطلاتها، وقد تحققت من ذلك عندما كبرت وحاولت بعضهن استغلال الشقاق الذي كان بيني وبين زوجي في التدخل في أموري. وقد وصلت الجرأة بإحداهن أن صرحت لي يوما بأنها وزوجها يشفقان علي ويضعن نفسيهما رهن خدمي وأن زوجها بما له من الاتصال بعظماء البلد يمكنه أن



يساعدني على الطلاق من زوجي، وأن في إمكانه أن يأتي لي بفتاة تخول لي حق الانفصال عنه، ولكن هذا يستدعي مصروفات كثيرة. وكانت صديقتي "مدام ريشار" قد حذرتني من هذه المرأة بالذات.. وكنت لحسن ظني بالناس أتصور أن صديقتي تغالي أحيانًا في سوء ظنها بهم، ولكن في تلك الساعة ظهرت لي هذه السيدة في صورتها الحقيقية، فقلت لها وقد منعني الحياء لصغر سني من طردها أو إظهار امتعاضي منها أو سوء ظني بها، إنني لا أملك المبالغ التي يتطلبها مثل هذا العمل، فقالت لي في خبث ودهاء إن عندك من الجواهر كثيرا، فيمكنك أن تبيعي منها، فأجبتها بأن والدتي هي التي تحفظ لي هذه الجواهر فقالت يمكنك أن تعطيني فردة من هذا القرط الجميل الذي ترتدينه، وأعتقد بأن ثمنها يفي بكل المصروفات ويزيد، وإذا سألتك والدتك عنه فقولي لها أنه فقد منك في زيارة أو فرح، عند ذلك تجلت لي في صورة أبشع مما صورتها لي صديقتي، فقلت لها وقد أعيتني الحيلة: إنني أبغض الكذب، ولا أريد الانفصال عن زوجي ولا أسعى إليه..

وكانت هذه هي الحقيقة..

ولكن هذا الموقف لم يثن من عزمها، بل أخذت تتحين الفرص للتقرب مني واستغلال سذاجتي لتصل إلى الاستفادة المادية التي تنشدها، فلما اشتريت قطعة الأرض التي بنيت عليها فيما بعد منزلي الحالي، كان الشراء بوساطة زوجي الذي كان وكيلاً عنا، وقد حاولت هذه السيدة أن تدس عليه، فسألتني يوما عن ثمن المتر من هذه الأرض، فأجبتها، فقالت لي: كم يظلمونك. إن هذه الأرض لا تساوي نصف ثمنها. فأثر في ذلك وصدقته إلى حد ما، ولكن لم يمض شهر حتى عادت تقول لي أن زوجها وجد مشتريا لهذه الأرض بالقيمة التي دفعت فيها، ونصحتني بأن أنتهز هذه الفرصة فأبيعها وأشتري بثمنها قطعة أفضل منها، فرفضت.

وعادت بعد أسبوع تعطيني فيها ٥٠% زيادة على ثمنها الأصلي، فأظهرت لها دهشتي من عرض هذه الزيادة وقد كانت منذ حين تبخس قيمة هذه الأرض، وظلت تتردد بين الحين والآخر تزيد في الثمن حتى بلغ ما عرضته ثلاثة أضعاف الثمن الأصلي، وكان نصيبها الرفض في كل مرة.

ولقد وصلت الجرأة بزوجها إلى أن يتسلم عربونًا لبيع الأرض أثناء غيابي عن مصر، دون تفويض مني يخوله

ذلك، كما أرسل إلي برقية يخبرني فيها أنه تسلم العربون ويطلب موافقتي على البيع، فكان ردي هو الرفض البات، فأثار هذا حقده، وحول مؤامراته للدس لي عند زوجي وشقيقي بخطابات مجهولة الإمضاء يحمل علي فيها، ولما ضقت به ذرعا، سردت على صديقتي حرم المغفور له حسين رشدي باشا هذه القصة، وسلمتها خطاباته لتطلع زوجها عليها، وكان لدي خطاب منه بخط الخطابات المجهولة نفسه.. وكان رشدي باشا يشغل في ذلك الوقت منصبا كبيرا في وزارة الحقانية، فما كان منه إلا أن استدعاه وهدده بالنفي من مصر في ظرف أربع وعشرين إذا لم يرتدع، وبعد ذلك لم أسمع عنه أو عن زوجته شيئًا. وهكذا نجوت منهما.

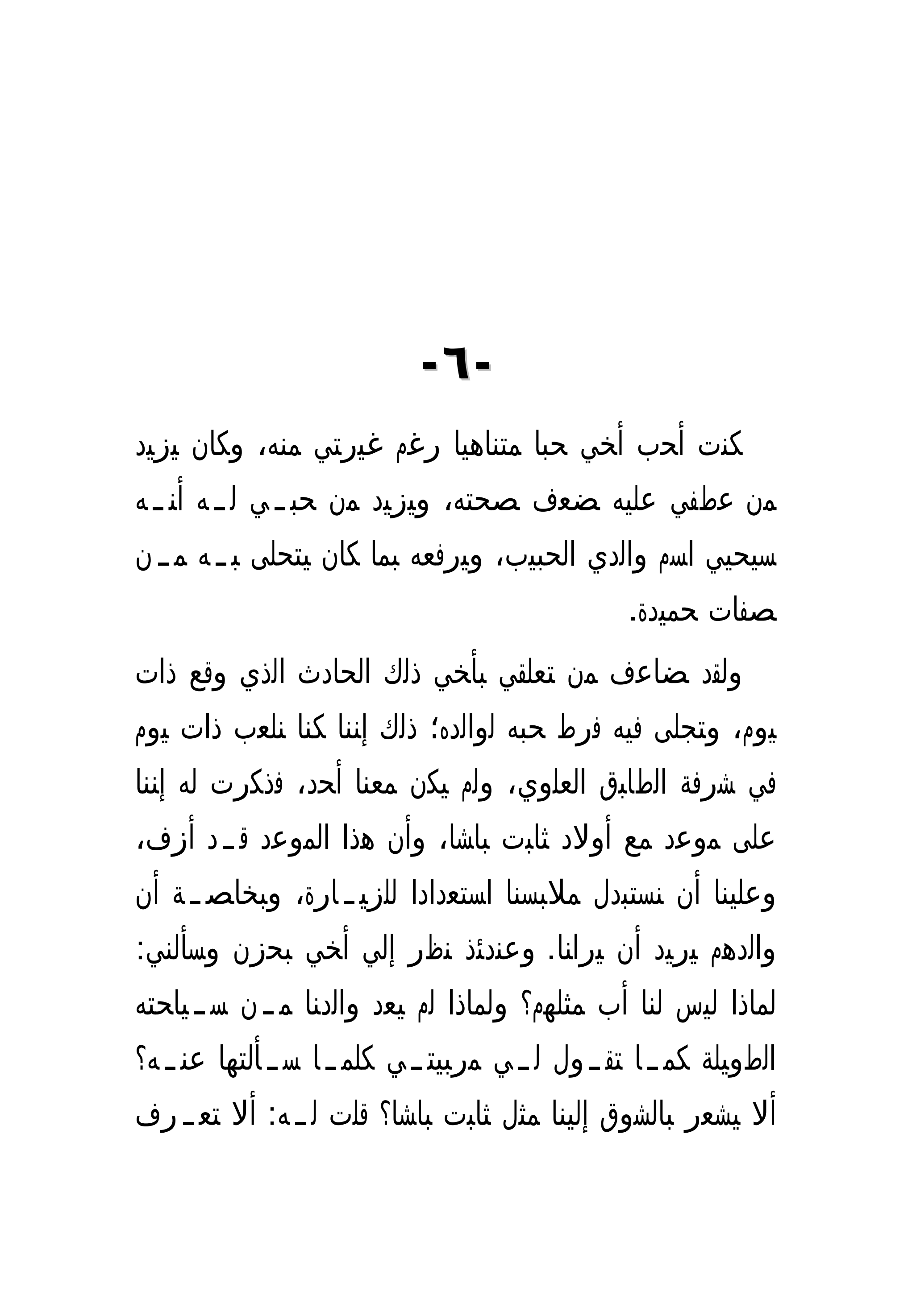
ولعل هذه القصة تكون درسا للسيدات والفتيات، فيأخذن حذرهن من أمثال هؤلاء النسوة اللاتي يترددن على البيوت، ويمشين بالشر بين أهلها.

كانت هذه هي صورة تسليتنا في حياتنا العائلية على ما كان بيتنا فيه من حداد. وكان يزيد في اغتباطنا زيارة أصدقاء المرحوم والدي لنا، وحدبهم علينا، واهتمامهم بنا،

وأذكر منهم الزبير باشا والشيخ علي الليثي والأنبا كيرلس بطريرك الأقباط وقليني فهمي باشا وحسن حسني باشا وثابت باشا الذي كانت تربطنا بأبنائه أواصر صداقة منذ الصغر لأنه كان جارنا وصديقًا لوالدي، كما كانت والدتهم صديقة لوالدتي. وكنا نقضي أغلب أوقاتنا في اللعب والمرح في حديقتهم الفسيحة المترامية التي كانت تشغل كل الأرض التي بنيت عليها لوكاندة سافوي القديمة وعمارة بهلر الحديثة. وكان ممرنا الموصل إليها حديقة قطاوي باشا التي كانت تمتد من شارع الشريفين إلى ميدان سليمان باشا. وكثيرا ما كنا نلعب في تلك الحديقة ومعنا أنجال قطاوي باشا.

ومن كثرة اختلاطي بالصبيان ولعبي معهم، تطبعت بطباعهم وشببت عليها، وهنا أقرر أن اختلاط الجنسين منذ الصغر إن لم يكن له تأثير حسن في تربية الأطفال، فليس من ورائه الضرر الذي يحدث من الاختلاط في أدوار المراهقة وما بعدها، لأن اختلاط الأطفال يجعلهم يشبون على عدم الفوارق وتربطهم الصداقة البريئة ومن كثرة تعود بعضهم على بعض يصبحون كأنهم إخوة.

وأؤكد أن كثيرا من الفتيات اللاتي تآخين منذ الصغر مع زملائهن من الفتيان؛ كن أقل علما بكثير من الأمور التي عرفتها أترابهن ممن تعارفن في سن كبيرة، فما من شك في أن الفوارق والنزعات في هذه الأعمار تكون ظاهرة ومحسوسة.. أما الاختلاط منذ الصغر وبين أولاد من طبقة متساوية تربوا على أساس من الحشمة والاحترام، فهو قليل الشوائب والأخطاء.



-٦-

كنت أحب أخي حبا متناهيا رغم غيرتي منه، وكان يزيد من عطفي عليه ضعف صحته، ويزيد من حبي له أنه سيحيي اسم والدي الحبيب، ويرفعه بما كان يتحلى به من صفات حميدة.

ولقد ضاعف من تعلقي بأخي ذلك الحادث الذي وقع ذات يوم، وتجلى فيه فرط حبه لوالده؛ ذلك إننا كنا نلعب ذات يوم في شرفة الطابق العلوي، ولم يكن معنا أحد، فذكرت له إننا على موعد مع أولاد ثابت باشا، وأن هذا الموعد قد أزف، وعلينا أن نستبدل ملابسنا استعدادا للزيارة، وبخاصة أن والدهم يريد أن يرانا. وعندئذ نظر إلي أخي بحزن وسألني: لماذا ليس لنا أب مثلهم؟ ولماذا لم يعد والدنا من سياحته الطويلة كما تقول لي مربيتي كلما سألتها عنه؟ ألا يشعر بالشوق إلينا مثل ثابت باشا؟ قلت له: ألا تعرف

السبب؟ قال: لا. فهل تعرفينه أنت؟ قلت: نعـم، ولكـن إذا أطلعتك عليه فهل تعدني بأن تحتفظ بهذا السر دون أن تبوح به لأحد؟ قال: نعم.. تعدني بذلك، قلت لـه: إنهـم يكـذبون علينا.. إن والدنا لن يعود إلينـا أبـدا.. فقـال فـي دهشـة واستغراب: لماذا؟ قلت: لأنه قد مات!..

وكم ندمت على خروج هذه الكلمة من فمي، لأنـه كـاد يصعق من هول المفاجأة، وارتمـى علـى الأرض يبكـي وينتحب ويصرخ صراخًا عاليا، وانحنيت عليه باكية أحـاول أن أهدئ من روعه وأكفكف عبراته.. ولكن حناني لم يهون عليه شيئًا، بل ظل على هذه الحالة إلى أن سمعته والـدتي، فهرولت نحونا صارخة: مالك يا خطاب؟

وعندئذ تواريت خلف الباب وأنا أرتعـد خوفًـا وفزعـا، مخافة أن يطلعها أخي على ما قلته له، فتحقد علي، ومالـت عليه والدتي ورفعته عن الأرض وضمته إلى صدرها وهـو ما زال يبكي دون أن يجيب عـن أسـئلتها.. فظنـت أنـي ضربته، فالتفتت إلي غاضبة وسألتني: هل ضـربته؟ فـرد عليها وهو يشهق قائلاً: لا... أبلة لم تفعل لي شيئًا!..

وتعجبت والدتي من أمره، وظلت تحاول تهدئته إلى أن نام في حضنها، وأمضينا ليلة سوداء، لأن ذلك الانفعال أثر في صحته الضعيفة، فقضى يومين أو أكثر دون أن يقوى على مغادرة فراشه، واجتهدت والدتي أن تعرف منه السبب، فلم يعترف لها بشيء. ولما كان لا يعرف الكذب، فإنه لم يستطع أن يهدئ خاطرها.

وهكذا بر أخي الصغير بوعده، وشب على هذه الفضيلة، ولم يعد يسأل بعد ذلك عن أبيه لأنه عرف مكانه، ومنذ ذلك اليوم زاد تقديري لأخي، وتضاعفت محبتي له، وشعرت أنه يغمرني بحبه أكثر من ذي قبل ويسر إلي بخفايا نفسه، وقد ظل الحب بيننا متبادلاً وكبيرا حتى فرق بيننا القدر، وكانت وفاته أقسى صدمة واجهتني في حياتي.

كانت في حياتنا الأسرية صداقات وطيدة، وفي مقدمة السيدات اللائي كنت أكن لهن الحب والاحترام، المغفور لها سمو الأميرة أمينة إلهامي قرينة الخديوي توفيق، فقد كنت أجد منها العطف والمجاملة، ولذلك ظلت منزلتها في نفسي كما كانت حتى الآن.

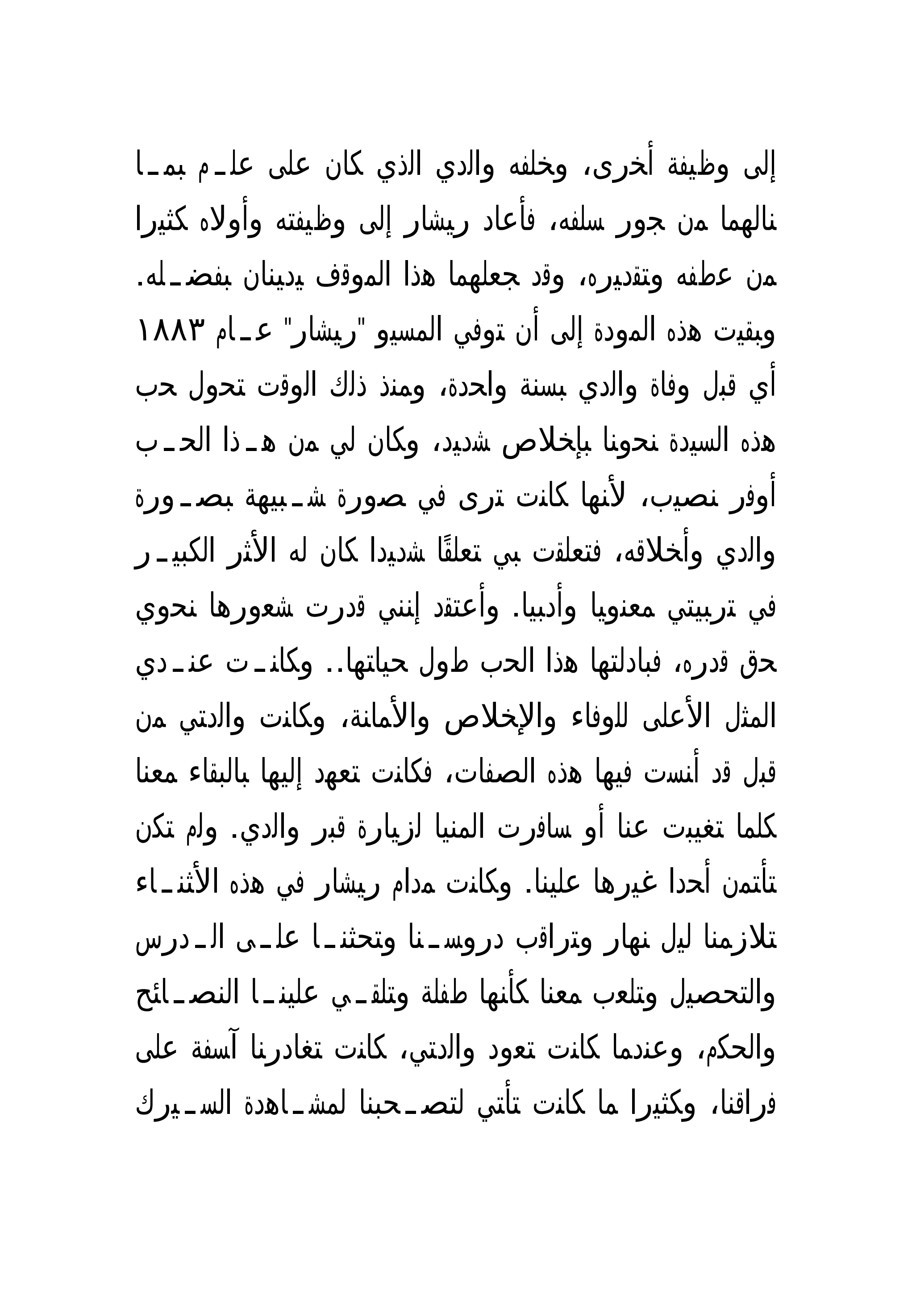
وقد عرفتها وأحببتها وأعجبت بجمالها وجلالها وأنا طفلة بعد وفاة والدي، إذ كانت والدتي تأخذنا معها إلى السراي كلما التمست المساعدة في أمورنا وأشغالنا، أو حسم النزاع بالنسبة لبعض مشاكل الميراث، وأذكر إنها كانت تنظر إلينا في حنان، وتأمر الجواري بأن يذهبن بنا إلى غرفة أولادها الأمراء والأميرات، فكنا نلعب معهم حتى تنتهي زيارة والدتي وتستأذن للانصراف.

وأذكر أن أخي الذي لم يكن قد تجاوز الرابعة من عمره، قد أعجبته ذات مرة لعبة كبيرة من لعب الأميرات، وأصر على ألا يخرج بدونها، وعندما عرفت الأميرة الوالدة أمرت بإعطائها له، فخرج مسرورا بينما كنت أتصبب عرقًا من الخجل لأني بحكم السن كنت أدرك أكثر منه ما يليق وما لا يليق.

ومن بين هؤلاء أيضا سيدة فرنسية كانت زوجة أحد كبار مهندسي الري في الوجه القبلي، وكانت قد جاءت إلى مصر مع خالها وهو مهندس أيضا؛ حيث لم يكن لها من عائل سواه إذ كانت يتيمة الوالدين. وقد أحبها ريشار وتزوج منها، ثم مات خالها وبقيت هي مع زوجها في مصر.

وكانت هذه السيدة خفيفة الروح، رقيقة الحاشـية، جذابـة أكثر منها جميلة، وكانت ذات عينين سوداوين فاتنتين مثـل شعرها الفاحم. وكان زوجها يفوقها جمالاً تزينـه الرجولـة والشجاعة والمروءة. وكانت زوجته مكروهة مـن النسـاء، وكان هو أيضا مكروها من الرجال، لأن حبهمـا المتبـادل الوثيق لم يسمح لأحد أن يطمع في الوصول اليهما.

وفي ذلك الوقت، كان أحد الباشوات يشغل منصب مفتش عام الوجه القبلي، قبل أن يشغل والدي هذا المنصب، فكـان بحكم وظيفته رئيسا للمسيو ريشار، وكثيرا ما كان يدعوه مع زوجتـه إلـى سـراياه ويحتفـي بهمـا حفـاوة بالغـة. وقد فهمت مدام ريشار من مجاملته لهما وكثرة تردده عليهما أنه يقصد استمالتها إليه، فصارت تحتجب عنه وتعتذر عـن قبول دعوته وإذا أتى للزيارة في غياب زوجها امتنعت عـن مقابلته، وكان من نتيجة هذا الصد مـن جانبهـا أن فصـل زوجها من عمله، ولما كانا فقيرين لا مورد لهما إلا الوظيفة، فقد ذاقا مرارة العيش وبؤسه مدة طويلة، تحملاها بصبر في سبيل الذود عن شرفهما وكرامتهما. ولم تشأ عدالة السماء أن يستمر عذاب هذين الزوجين البريئين طويلاً، فنقل هذا الباشا

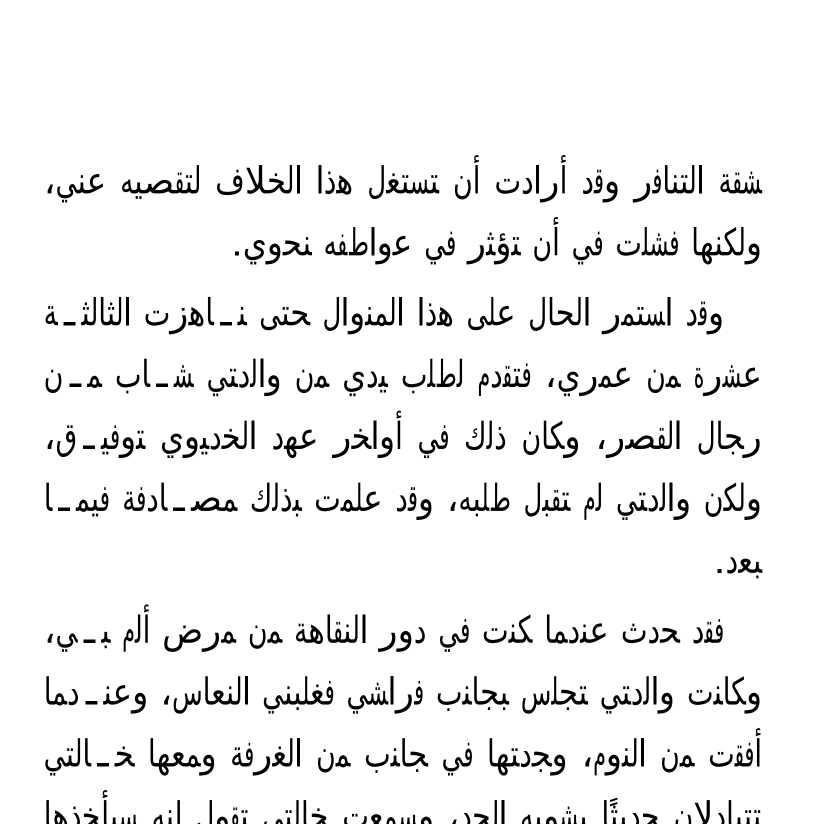


إلى وظيفة أخرى، وخلفه والدي الذي كان على علـم بمـا نالهما من جور سلفه، فأعاد ريشار إلى وظيفته وأولاه كثيرا من عطفه وتقديره، وقد جعلهما هذا الموقف يدينان بفضـله. وبقيت هذه المودة إلى أن توفي المسيو "ريشار" عـام ١٨٨٣ أي قبل وفاة والدي بسنة واحدة، ومنذ ذلك الوقت تحول حب هذه السيدة نحونا بإخلاص شديد، وكان لي من هـذا الحـب أوفر نصيب، لأنها كانت ترى في صورة شـبيهة بصـورة والدي وأخلاقه، فتعلقت بي تعلقًا شديدا كان له الأثر الكبيـر في تربيتي معنويا وأدبيا. وأعتقد إنني قدرت شعورها نحوي حق قدره، فبادلتها هذا الحب طول حياتها.. وكانـت عنـدي المثل الأعلى للوفاء والإخلاص والأمانة، وكانت والدتي من قبل قد أنست فيها هذه الصفات، فكانت تعهد إليها بالبقاء معنا كلما تغيبت عنا أو سافرت المنيا لزيارة قبر والدي. ولم تكن تأتمن أحدا غيرها علينا. وكانت مدام ريشار في هذه الأثنـاء تلازمنا ليل نهار وتراقب دروسـنا وتحثنـا علـى الـدرس والتحصيل وتلعب معنا كأنها طفلة وتلقـي علينـا النصـائح والحكم، وعندما كانت تعود والدتي، كانت تغادرنا آسفة على فراقنا، وكثيرا ما كانت تأتي لتصـحبنا لمشـاهدة السـيرك

والحفلات المختلفة، وعندما كان يسألها أحد عمـا إذا كنـت ابنتها، كانت تطير فرحا وتقبلني قائلة: إذًا هدى تشبهني.

كانت "فطنات" وصيفة والدتي تكرهني كرهـا شـديدا.. وكانت أيضا تكره مدام ريشار من أجلي لأنها كانت تـدافع عني وتحميني من شرها. قد حاولت هذه الوصيفة مرارا أن تشي بمدام ريشار عند والدتي، وقد نجحت فعلاً فـي آخـر الأمر، وكان علي أن أدافع عن صديقتي وأنفي عنها ما كانت ترميها به "فطنات" من تهم.

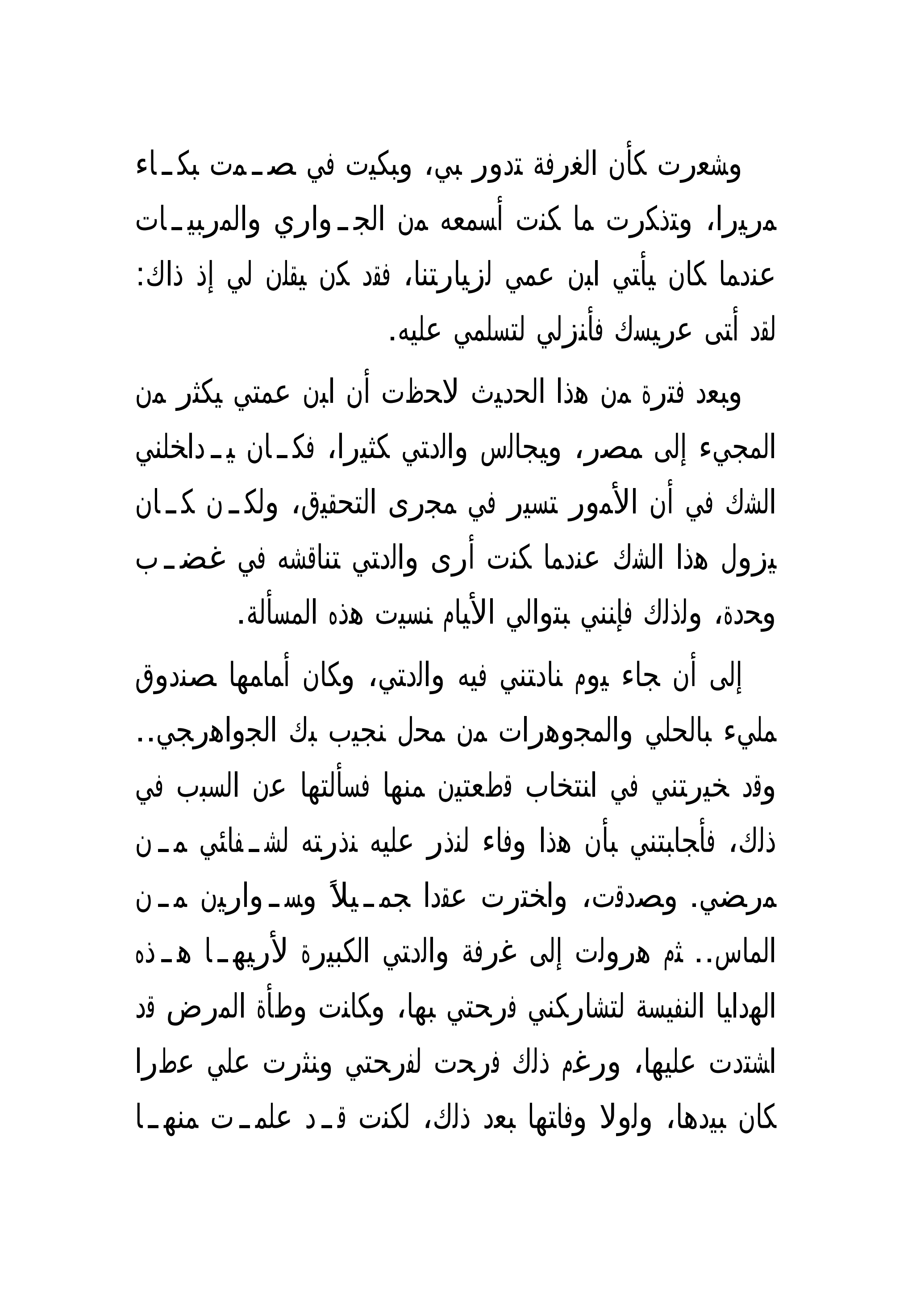
وكانت تتمادى في الإساءة إلى من فـي البيـت، وفـي مقدمتهم فتاتان مصريتان تربيتا معي.. وقد ظلت كذلك إلـى أن هربت الأولى "فردوس" من المنزل، ولجـأت إلـى دار الحرية، ورفضت العودة إلى البيت؛ رغم حبها الشديد لـي، وبقيت أنا والفتاة الأخرى "ياسمين" نتقاسم اللعنات التي كانت تصبها علينا، وفضلاً عن ذلك فقد كـان علـي أن أواجـه محاولتها بذر الشقاق بيني وبين أخي، فقـد كنـت أنصـحه بالمواظبة على دروسه والجد في طلب العلم، بينما كانت هي توحي إليه بأنه غني ومثله ليس في احتياج للتعليم. وما زالت وراءه تحضه على التراخي والتكاسل حتى اتسعت بيني وبينه



شقة التنافر وقد أرادت أن تستغل هذا الخلاف لتقصيه عني، ولكنها فشلت في أن تؤثر في عواطفه نحوي.

وقد استمر الحال على هذا المنوال حتى ناهزت الثالثة عشرة من عمري، فتقدم لطلب يدي من والدتي شاب من رجال القصر، وكان ذلك في أواخر عهد الخديوي توفيق، ولكن والدتي لم تقبل طلبه، وقد علمت بذلك مصادفة فيما بعد.

فقد حدث عندما كنت في دور النقاهة من مرض ألم بي، وكانت والدتي تجلس بجانب فراشي فغلبني النعاس، وعندما أفقت من النوم، وجدتها في جانب من الغرفة ومعها خالتي تتبادلان حديثًا يشوبه الجد، وسمعت خالتي تقول إنه سيأخذها رغما عنك لأنه سيطلبها من الخديوي، وحينئذ لا يمكنك إلا الإذعان لأمره. فردت عليها والدتي قائلة: وهل ابنتي بلا عريس؟ إنني سأزوجها من ابن عمتها، فقالت خالتي: حرام عليك أن تفعلي ذلك، وتزوجي هذه الطفلة من رجل له أولاد أكبر منها سنًا، فقالت لها أمي: أنه ابن عمتها وصاحب الأمر في كل شيء.. عندئذ غضبت خالتي وقالت لها سنرى من الذي يفوز في النهاية؟..



وشعرت كأن الغرفة تدور بي، وبكيت في صمت بكاء مريرا، وتذكرت ما كنت أسمعه من الجواري والمربيات عندما كان يأتي ابن عمي لزيارتنا، فقد كن يقلن لي إذ ذاك: لقد أتى عريسك فأنزلي لتسلمي عليه.

وبعد فترة من هذا الحديث لاحظت أن ابن عمتي يكثر من المجيء إلى مصر، ويجالس والدتي كثيرا، فكان يداخلني الشك في أن الأمور تسير في مجرى التحقيق، ولكن كان يزول هذا الشك عندما كنت أرى والدتي تناقشه في غضب وحدة، ولذلك فإنني بتوالي الأيام نسيت هذه المسألة.

إلى أن جاء يوم نادتني فيه والدتي، وكان أمامها صندوق مليء بالحلي والمجوهرات من محل نجيب بك الجواهرجي.. وقد خيرتني في انتخاب قطعتين منها فسألتها عن السبب في ذلك، فأجابتني بأن هذا وفاء لنذر عليه نذرته لشفائي من مرضي. وصدقت، واخترت عقدا جميلاً وسوارين من الماس.. ثم هرولت إلى غرفة والدتي الكبيرة لأريها هذه الهدايا النفيسة لتشاركني فرحتي بها، وكانت وطأة المرض قد اشتدت عليها، ورغم ذلك فرحت لفرحتي ونثرت علي عطرا كان بيدها، ولولا وفاتها بعد ذلك، لكنت قد علمت منها

الحقيقة، ولكن للأسف لم يعد بعد وفاتها من يكاشفني الحقائق أو يفسر لي ما يتعسر علي فهمه.

ولقد حزنت عليها حزنًا عميقًا، وكانت قد أهدت لي خاتما يوم ختمت القرآن، فأصبح هذا الخاتم تذكارا خالدا وعزيزا لا يفارق إصبعي.

وقد لاحظت بعد ذلك أنه كلما أتت زائرة لوالدتي، صعدت "فطنات" إلى الطابق العلوي، وأخرجت قطعتي الماس من الدولاب وعادت بهما إلى غرفة الضيوف لتتفرج عليهما الزائرات. وكنت أبدي دهشتي لذلك، وأخجل من أن يظن الناس أننا حديثو نعمة!.

ثم لاحظت بعد ذلك أن "فطنات" وبعض الجواري يهيئن "الشور" وهي عبارة عن قطع مربعة من الحرير أو التيل الأبيض مزركشة بخيوط الذهب أو الفضة.

ولما كنت أدرك أن هذه القطع تهدى للمدعوين يوم عقد القران، فقد سألت لمن تعدون هذه "الشور" فقيل لي إنها لقران ابنة أحد الباشوات الذي سيعقد قريبا..

ثم رأيت بعض إصلاحات تجري في المنزل، وقررت والدتي أن نقضي فصل الشتاء في حلوان إلى أن يتم

الإصلاح.. فاستأجروا لنا بيتًا صغيرا بالجهة الشرقية قـرب الأرض المقامة عليها المصحة الآن.. وكانت من قبل خاليـة تؤدي إلى الجبل. فسافرنا إلى حلوان دون أن يسـاورني أي شك من ناحية هذه الاستعدادات.

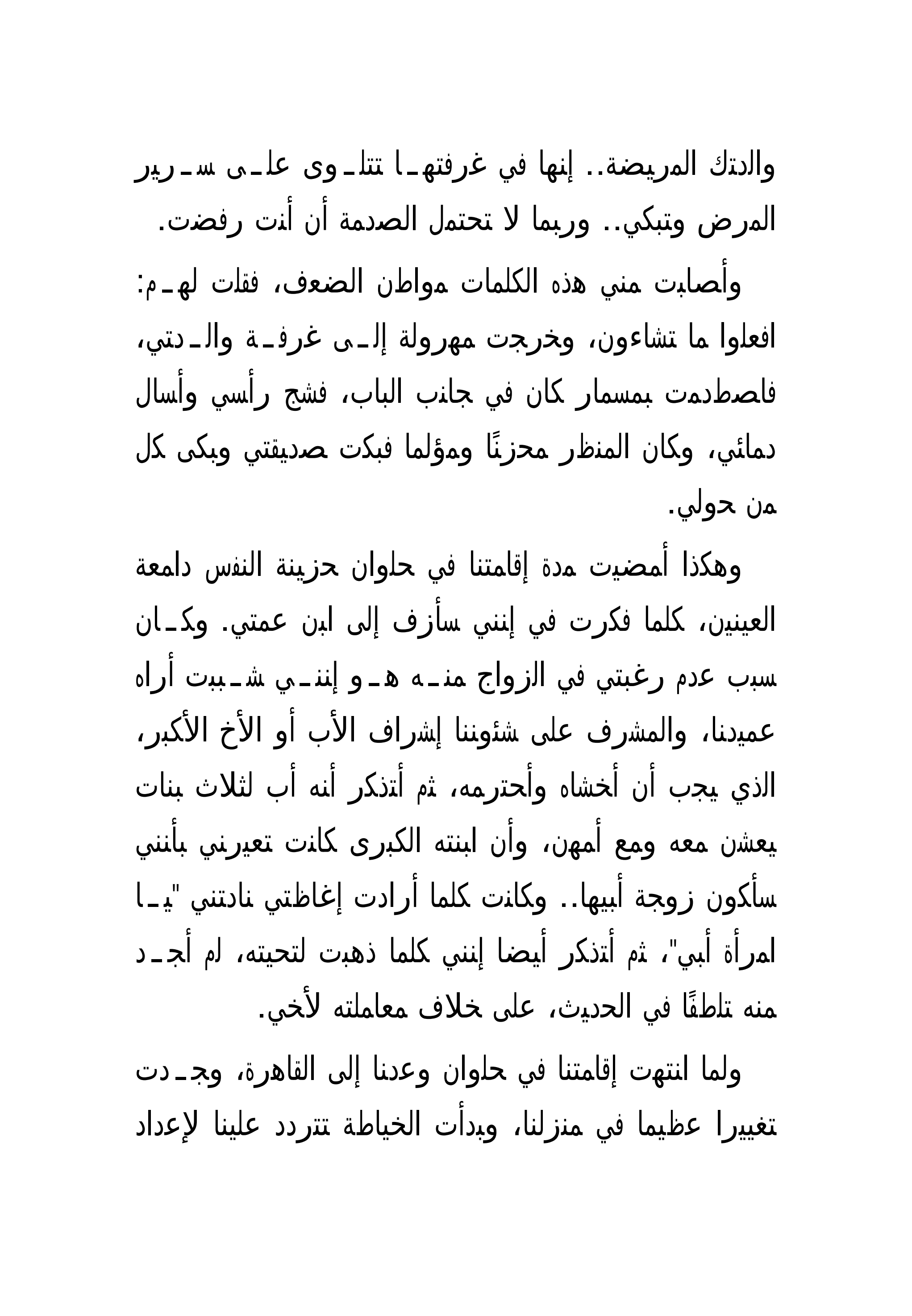
وقد أعجبتني تلك الضاحية الرائعة التي كانت في أبهـى حال بهجتها في ذلك الوقت؛ حيث كـان الخـديوي توفيـق يتخذها مشتى له، كما كانت أغلب العائلات الكبيرة تقضـي فصل الشتاء فيها. ويؤمها في أيام الجمع والآحاد والأعيـاد معظم أهل القاهرة للنزهة وقضاء الوقت في الكـازينو ودور التمثيل. وكان الشيخ سلامة حجازي رحمه ا يمثـل فـي مسرح الكازينو روايات تاريخية غاية في الإتقان والإبـداع، ولما كنت أميل كثيرا للروايات المسرحية وأحب الموسـيقى، فقد صادفت حلوان في نفسي قبولاً وسرورا، فضلاً عـن أن المرأة لم تكن تخرج كثيرا في المدن في ذلك الوقت، ولـذلك كانت تجد في حلوان بعض الحرية التي لا تتمتع بهـا فـي القاهرة فتخرج النساء للنزهة هناك.

وقد حدث ذات يوم أن جاءت إحدى صديقاتي من القاهرة لتقضي معي بضعة أيام في حلوان، وفرحت كثيرا، وخرجت

معها بعد الظهر، لأطلعها على ما في حلـوان مـن روعـة وجمال، ولم نكد نتجه إلى المحطة حتى فوجئت بقدوم "سعيد آغا" عابسا ليقول لي: إلى أين أنت ذاهبة؟ عودي إلى البيـت فورا.

وأذعنت لأمره رغما عني.. وعدت ومعي صديقتي. فلما دخلت أدهشني وجود معلمة اللغة التركية بالباب. ولما سلمت عليها، وجدت بيدها طرحة بيضاء وضعتها على رأسي فـي الحال، ثم وضعت مصحفًا تحت إبطي، فازدادت دهشتي من هـذا العمـل الـذي لـم أتعـوده أو أفهـم لـه معنـى. ثم جاء سعيد آغا وخلفه علي بك فهمي وزوج خالتي سـعد الدين بك، فهرولت إلى غرفتي.. وعندما وجدتهم يتبعـونني، لجأت إلى النافذة وأعطيتهم ظهري ففاجأني علي بك قـائلاً: إن ابن عمتك علي بك شعراوي يريد الزواج منـك.. فمـن توكلين منا؟

في تلك اللحظة بالذات، فهمت معنى كل تلك الاستعدادات وهذه الأشياء التي لم يمكنني تفسيرها من قبل. وأخذت أبكي وأنا مولية لهم ظهري.. ولما طال وقوفهم، تقدم "سعيد آغـا" وهمس في أذني: أتريدين إغضاب روح والدك والقضاء على



والدتك المريضة.. إنها في غرفتهـا تتلـوى علـى سـرير المرض وتبكي.. وربما لا تحتمل الصدمة أن أنت رفضت.

وأصابت مني هذه الكلمات مواطن الضعف، فقلت لهـم: افعلوا ما تشاءون، وخرجت مهرولة إلـى غرفـة والـدتي، فاصطدمت بمسمار كان في جانب الباب، فشج رأسي وأسال دمائي، وكان المنظر محزنًا ومؤلما فبكت صديقتي وبكى كل من حولي.

وهكذا أمضيت مدة إقامتنا في حلوان حزينة النفس دامعة العينين، كلما فكرت في إنني سأزف إلى ابن عمتي. وكـان سبب عدم رغبتي في الزواج منـه هـو إننـي شـببت أراه عميدنا، والمشرف على شئوننا إشراف الأب أو الأخ الأكبر، الذي يجب أن أخشاه وأحترمه، ثم أتذكر أنه أب لثلاث بنات يعشن معه ومع أمهن، وأن ابنته الكبرى كانت تعيرني بأنني سأكون زوجة أبيها.. وكانت كلما أرادت إغاظتي نادتني "يـا امرأة أبي"، ثم أتذكر أيضا إنني كلما ذهبت لتحيته، لم أجـد منه تلطفًا في الحديث، على خلاف معاملته لأخي.

ولما انتهت إقامتنا في حلوان وعدنا إلى القاهرة، وجـدت تغييرا عظيما في منزلنا، وبدأت الخياطة تتردد علينا لإعداد

ثياب الجهاز، فكنت أرفض ارتداءها ولا ألتفت إلى شيء مما يدور حولي، إلى أن اقترب موعد الزفاف وبدءوا في إقامة الزينات، وقد لاحظت أن والدتي كانت خلال هذه الفترة دائمة الثورة والغضب، تماما كما كانت عندما خطبت، ولكني لم أعلم سبب ذلك لأنني كنت أتجنب السؤال عن أي شيء.

وحتى يوم حفلة زواجي، كنت أجهل الاستعدادات التي عملت من أجلي، ولا أعرف الجناح الذي أعد لي في المنزل.. فأخذتني والدتي للفرجة عليه، وهنا أعترف بأن ما رأيته من الرياش الفاخر قد أدخل على نفسي شيئًا من السرور، وغابت عني الحقيقة التي كنت أخشاها أمام هذا الجمال الساحر.

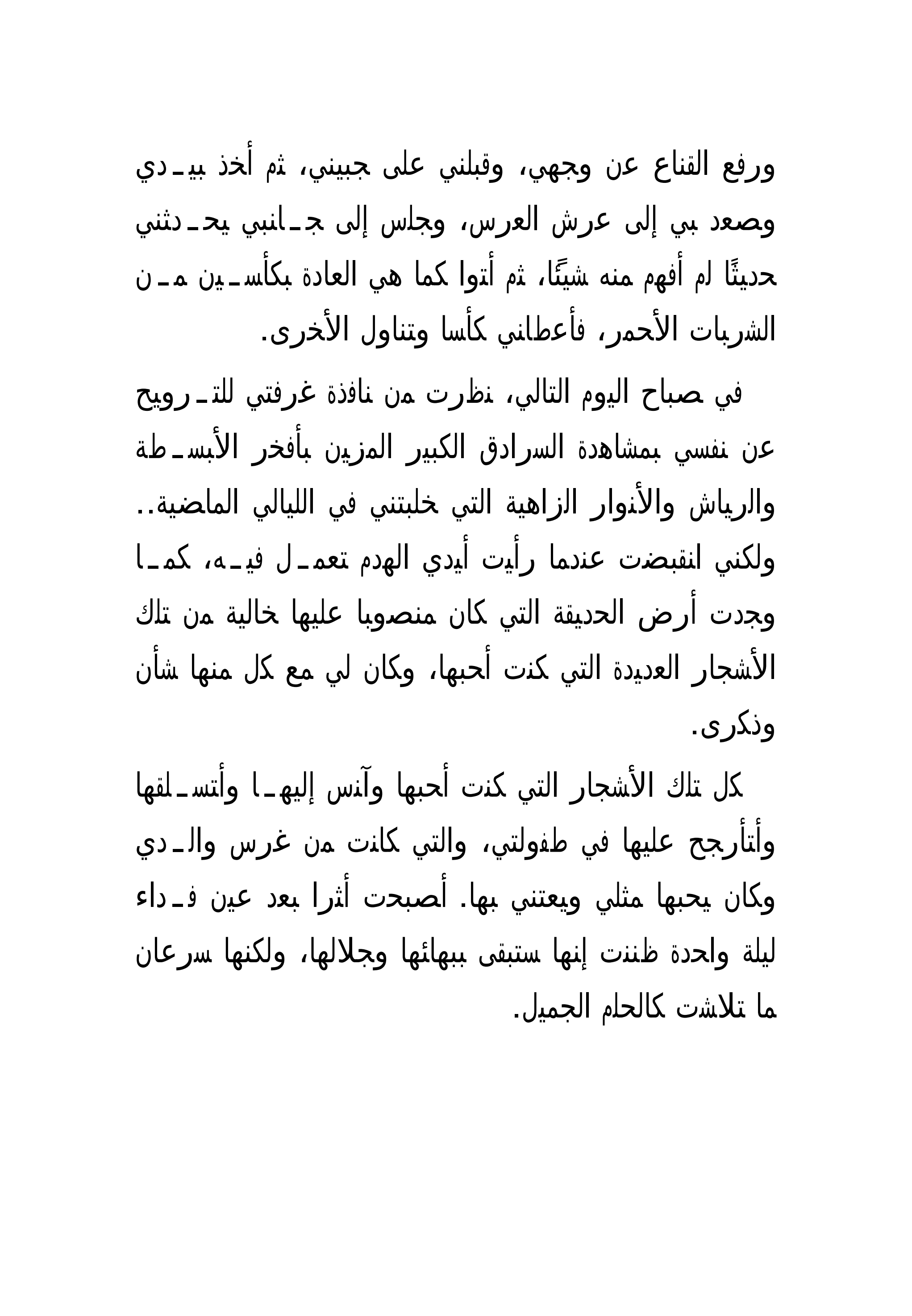
ولما بدأت ليالي الفرح الثلاث، أخرجني ما سمعته من الموسيقى وما رأيته من المظاهر المفرحة عن تلك الأحاسيس التي كانت تنتابني، وكنت أضحك وأمرح مع زميلاتي اللائي يحضرن هذه الليالي، حتى ظن أهل البيت أن الحالة الأولى لم تكن إلا مظهرا من مظاهر الخجل التي تستولي على الفتيات في مثل هذه الظروف. وزاد من فرحي ما رأيته ليلة الزفاف من العناية الفائقة بشخصي، وكدت أطير من الفرحة

عندما دخلت غرفة الزينة وارتديت حلة العرس المزركشـة بالذهب والفضة، وأذهلني لمعان الماس والجواهر التي حلوا بها صدري وتوجوا رأسي وزينوا ساعدي. وتصورت إننـي سأبقى في هذا الزي وعلى هذه الحال إلى ما شاء ا .

ولما أقبلت المغنيات لزفافي إلى الجناح الذي أعـد لـي، وكان على مسافة طويلة، وبدأت أشعر بثقل هـذه الأشـياء، فصرت أتوكأ على زميلاتي فتيات الشرف وأنا أسـير بـين الشموع المتوهجة ورائحة الأزهار الزكية حتى وصلت إلـى البهو الكبير، وهناك رأيت حشـدا ضـخما مـن السـيدات المصريات والأجنبيات في ثياب السـهرة البديعـة، وكلهـن عيون شاخصة إلي، مليئة بالتأثر والحنان.

وعندما أجلسوني على عرش العرس، جـاءت السـيدات الأجنبيات كل بدورها تضم يدي وتقدم إلي باقة مـن الـورد أو تضعها تحت قدمي في شيء من التأثر. ولم أفهم وقتئذ أن هذا الشعور كان رفقًا بطفولتي لتزويجي فـي تلـك السـن المبكرة.

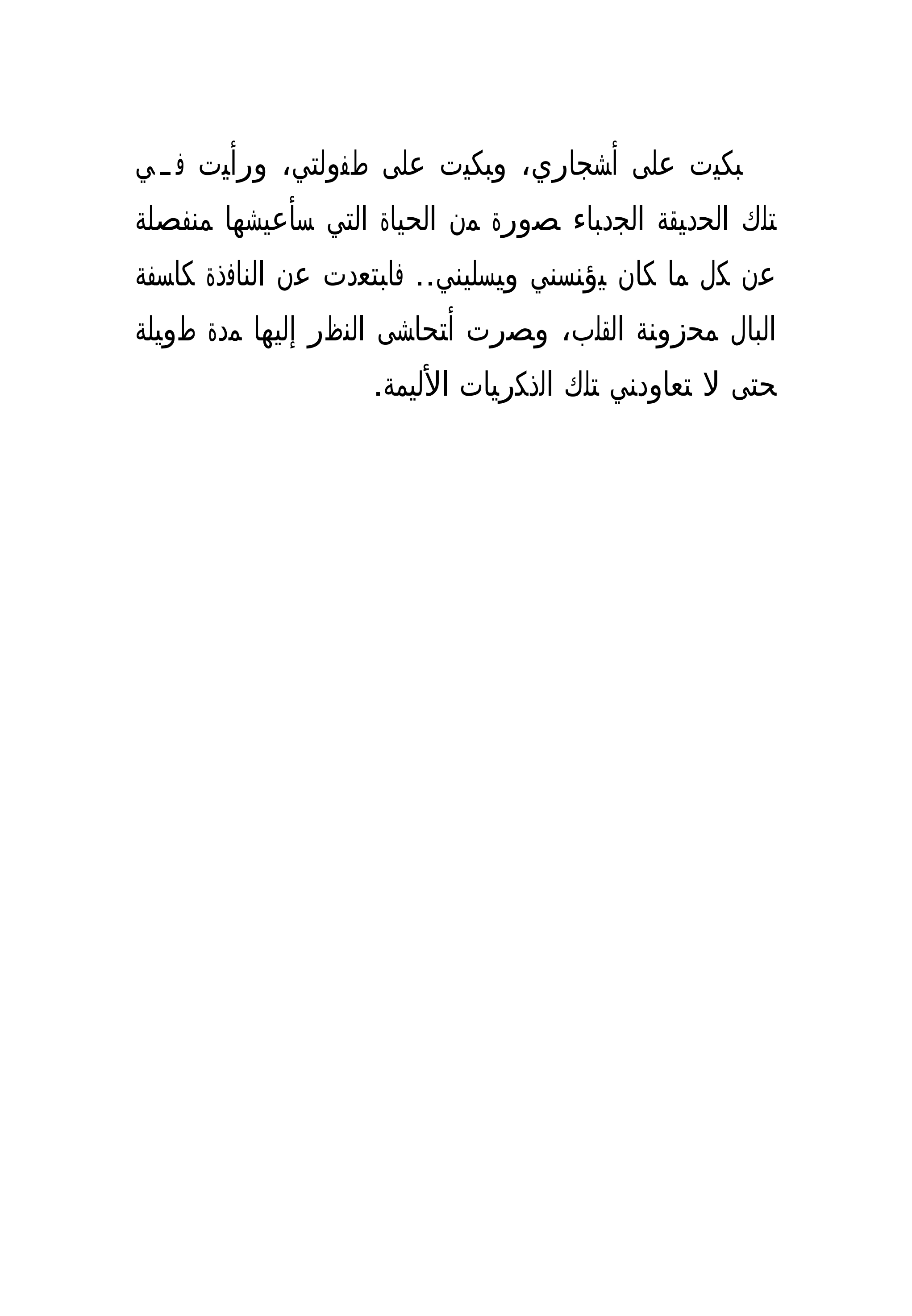
وعلى قرع الطبول، انصرفت السيدات ودخل الآغا معلنًا قدوم العريس. ودخل وصلى ركعتين، ثم قام وأقبل نحـوي



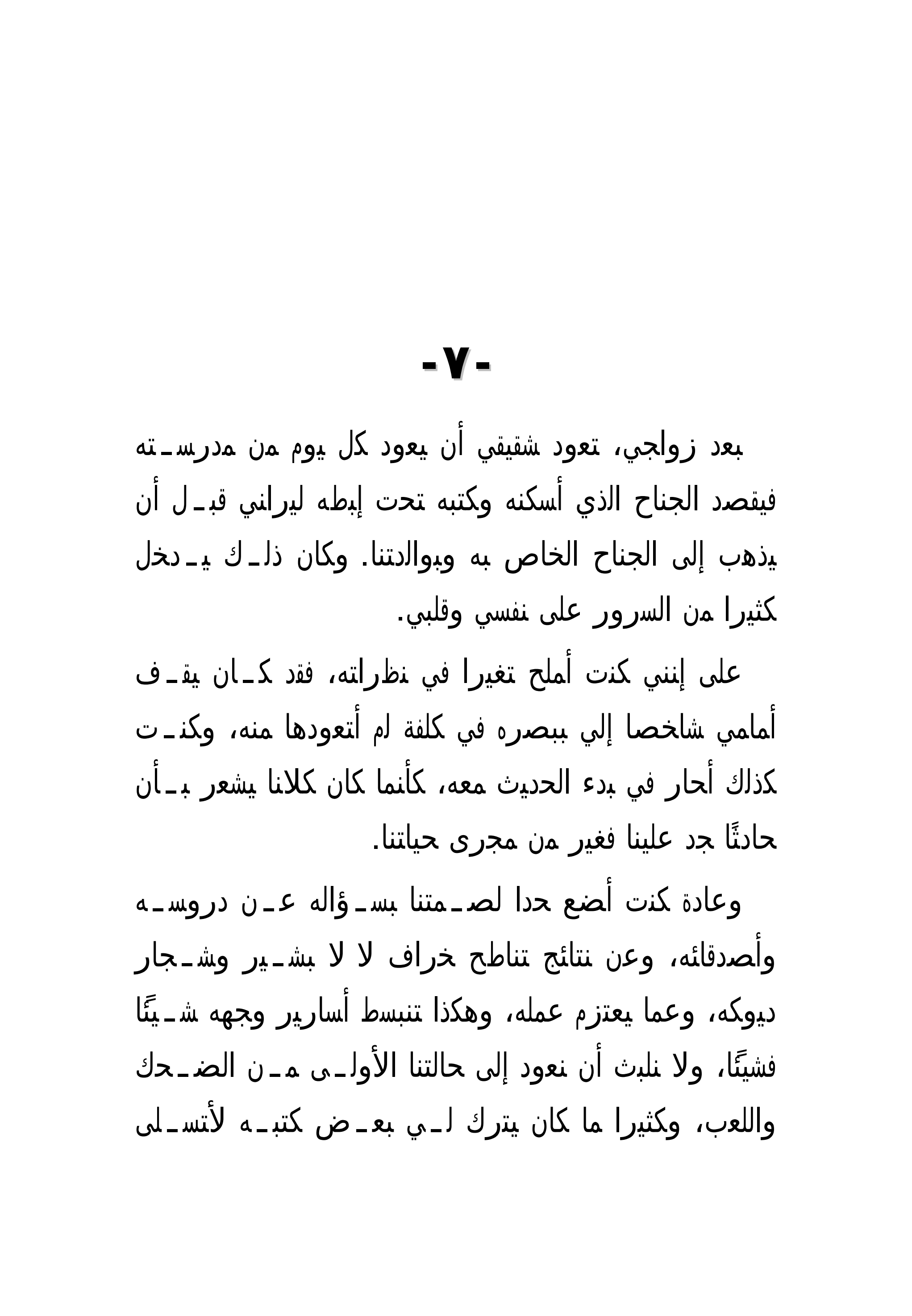
ورفع القناع عن وجهي، وقبلني على جبيني، ثم أخذ بيـدي وصعد بي إلى عرش العرس، وجلس إلى جـانبي يحـدثني حديثًا لم أفهم منه شيئًا، ثم أتوا كما هي العادة بكأسـين مـن الشربات الأحمر، فأعطاني كأسا وتناول الأخرى.

في صباح اليوم التالي، نظرت من نافذة غرفتي للتـرويح عن نفسي بمشاهدة السرادق الكبير المزين بأفخر الأبسـطة والرياش والأنوار الزاهية التي خلبتني في الليالي الماضية.. ولكني انقبضت عندما رأيت أيدي الهدم تعمـل فيـه، كمـا وجدت أرض الحديقة التي كان منصوبا عليها خالية من تلك الأشجار العديدة التي كنت أحبها، وكان لي مع كل منها شأن وذكرى.

كل تلك الأشجار التي كنت أحبها وآنس إليهـا وأتسـلقها وأتأرجح عليها في طفولتي، والتي كانت من غرس والـدي وكان يحبها مثلي ويعتني بها. أصبحت أثرا بعد عين فـداء ليلة واحدة ظننت إنها ستبقى ببهائها وجلالها، ولكنها سرعان ما تلاشت كالحلم الجميل.



بكيت على أشجاري، وبكيت على طفولتي، ورأيت فـي تلك الحديقة الجدباء صورة من الحياة التي سأعيشها منفصلة عن كل ما كان يؤنسني ويسليني.. فابتعدت عن النافذة كاسفة البال محزونة القلب، وصرت أتحاشى النظر إليها مدة طويلة حتى لا تعاودني تلك الذكريات الأليمة.



-٧-

بعد زواجي، تعود شقيقي أن يعود كل يوم من مدرسته فيقصد الجناح الذي أسكنه وكتبه تحت إبطه ليراني قبل أن يذهب إلى الجناح الخاص به وبوالدتنا. وكان ذلك يدخل كثيرا من السرور على نفسي وقلبي.

على إنني كنت أملح تغيرا في نظراته، فقد كان يقف أمامي شاخصا إلي ببصره في كلفة لم أتعودها منه، وكنت كذلك أحار في بدء الحديث معه، كأنما كان كلانا يشعر بأن حادثًا جد علينا فغير من مجرى حياتنا.

وعادة كنت أضع حدا لصمتنا بسؤاله عن دروسه وأصدقائه، وعن نتائج تناطح خراف لا لا بشير وشجار ديوكه، وعما يعتزم عمله، وهكذا تنبسط أسارير وجهه شيئًا فشيئًا، ولا نلبث أن نعود إلى حالتنا الأولى من الضحك واللعب، وكثيرا ما كان يترك لي بعض كتبه لأتسلى

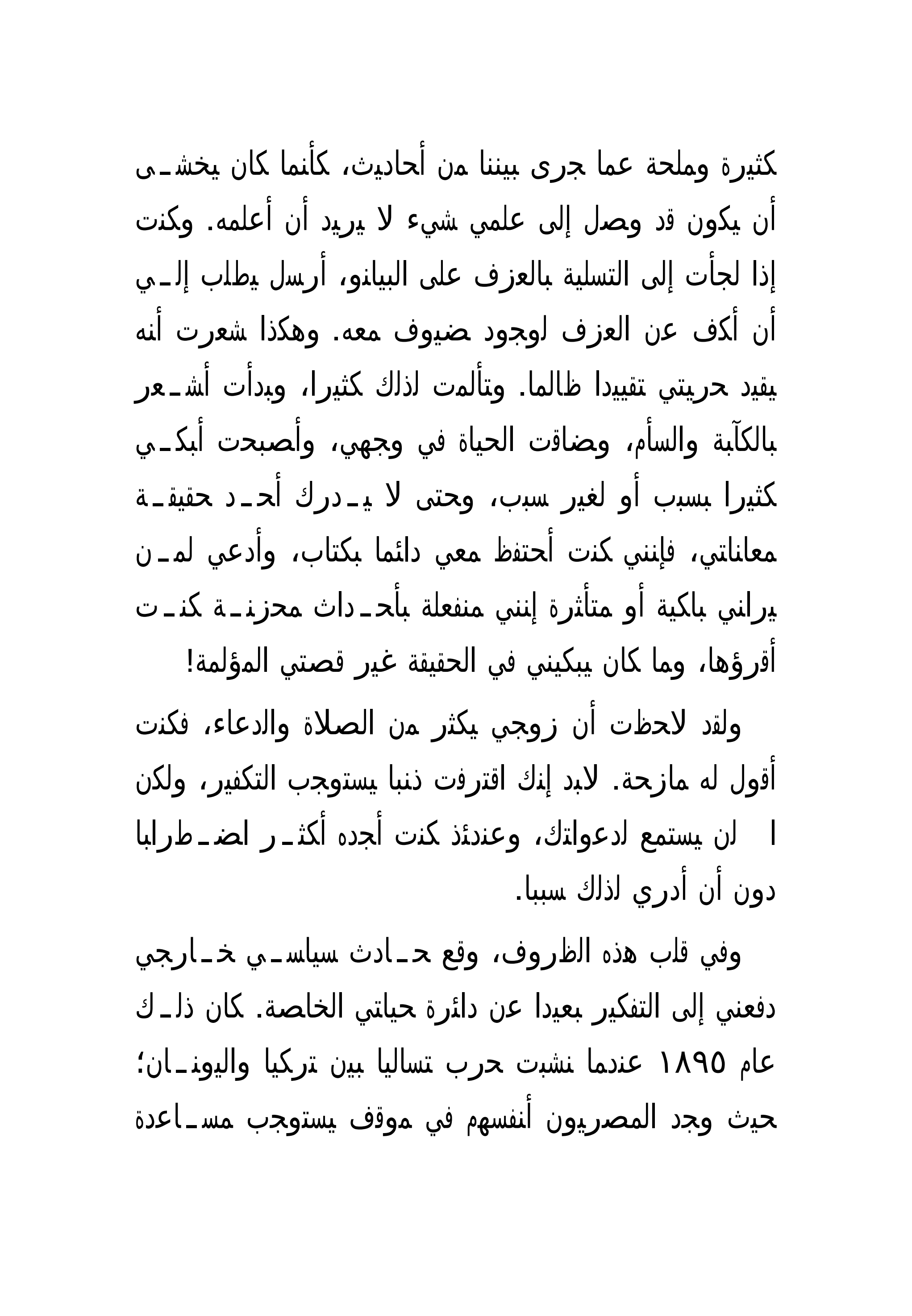
بقراءتها، ويقاسمني بعض أدواته المدرسية كما كان يفعل من قبل.

وقد أحضر لي ذات يوم باقة زهر البانسيه يضمها شريط حريري سماوي اللون، وكنت أحب هذا اللون وهذا النوع من الأزهار والذي يرمز للذكرى، ولذلك فقد فرحت بها كثيـرا، وما زالت أحتفظ بها عندي حتى اليوم.

ولقد ظللت بعد ذلك فترة طويلة دون أن أقـدر وضـعي الجديد الذي كان يقتضي مني الرزانة، ويحتم علي أن أظهر بمظهر ربة البيت بمعنى الكلمة، فقد كنت بحكم سني أميـل إلى عالم الطفولة وألعب كلما وجدت إلى اللعب سبيلا.

على إنني لم أتهيب حياتي الزوجية طويلاً، فقد كنت أميل إلى زوجي بحكم قرابتي له، ولما كان يظهره من عطف على بعد زواجنا. وبدأت آنس به وأطمئن إليه شيئًا فشيئًا، إلى أن لاحظت بعد أشهر أن هناك شيئًا غامضا قد استولى عليـه، فتغيرت أحواله معي ومعاملته لي، ولم أكن حتى ذلك الوقت أدري لهذا التغيير سببا.

كنت إذا أردت زيارة صـديقة أو قريبـة، منعنـي مـن الخروج، وإذا زارتني صديقة أو قريبة استجوبني استجوابات



كثيرة وملحة عما جرى بيننا من أحاديث، كأنما كان يخشى أن يكون قد وصل إلى علمي شيء لا يريد أن أعلمه. وكنت إذا لجأت إلى التسلية بالعزف على البيانو، أرسل يطلب إلي أن أكف عن العزف لوجود ضيوف معه. وهكذا شعرت أنه يقيد حريتي تقييدا ظالما. وتألمت لذلك كثيرا، وبدأت أشعر بالكآبة والسأم، وضاقت الحياة في وجهي، وأصبحت أبكي كثيرا بسبب أو لغير سبب، وحتى لا يدرك أحد حقيقة معاناتي، فإنني كنت أحتفظ معي دائما بكتاب، وأدعي لمن يراني باكية أو متأثرة إنني منفعلة بأحداث محزنة كنت أقرؤها، وما كان يبكيني في الحقيقة غير قصتي المؤلمة!

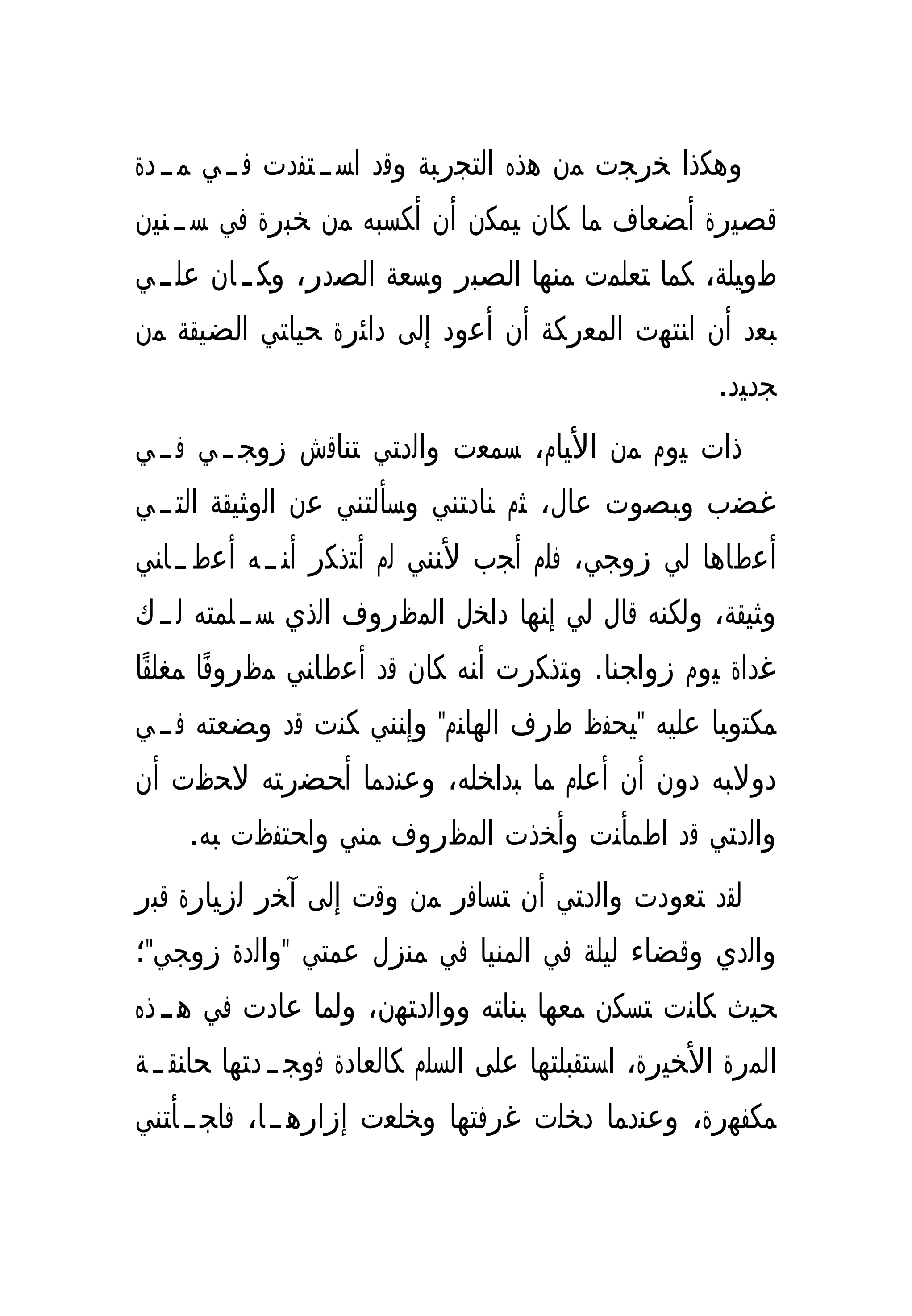
ولقد لاحظت أن زوجي يكثر من الصلاة والدعاء، فكنت أقول له مازحة. لابد إنك اقترفت ذنبا يستوجب التكفير، ولكن ا لن يستمع لدعواتك، وعندئذ كنت أجده أكثر اضطرابا دون أن أدري لذلك سببا.

وفي قلب هذه الظروف، وقع حادث سياسي خارجي دفعني إلى التفكير بعيدا عن دائرة حياتي الخاصة. كان ذلك عام ١٨٩٥ عندما نشبت حرب تساليا بين تركيا واليونان؛ حيث وجد المصريون أنفسهم في موقف يستوجب مساعدة

الأتراك وكان أن شكلت لجنة من الرجال للمساعدة برئاسـة المرحوم رياض باشا، وتولت السيدة قرينته رئاسـة لجنـة السيدات، وقد طلب من زوجي أن أكون عضوا فيهـا رغـم صغر سني، فوافق على الفور، وكانت هذه أول مـرة أقـوم فيها بالمساهمة في عمل اجتماعي إنساني عام نبهنـي إلـى واجب الفرد نحو المجتمع وجعلني أقدر فائدة التضامن.

وقد وجدت في هذا الأمل أكبر تسلية وعـزاء وصـرت أنظر إلى نفسي بعين الاعتبار والتقدير بعد أن خضت عباب المجتمع، وتمكنت من دراسة أخـلاق النـاس عـن كثـب، والمقارنة بين شعورهم وآرائهم وعرفت كم يعاني الإنسـان في سبيل التعاون على الخير. وكم يريق مـاء وجهـه فـي السعي إليه مدفوعا بشعور الواجب والإنسانية.

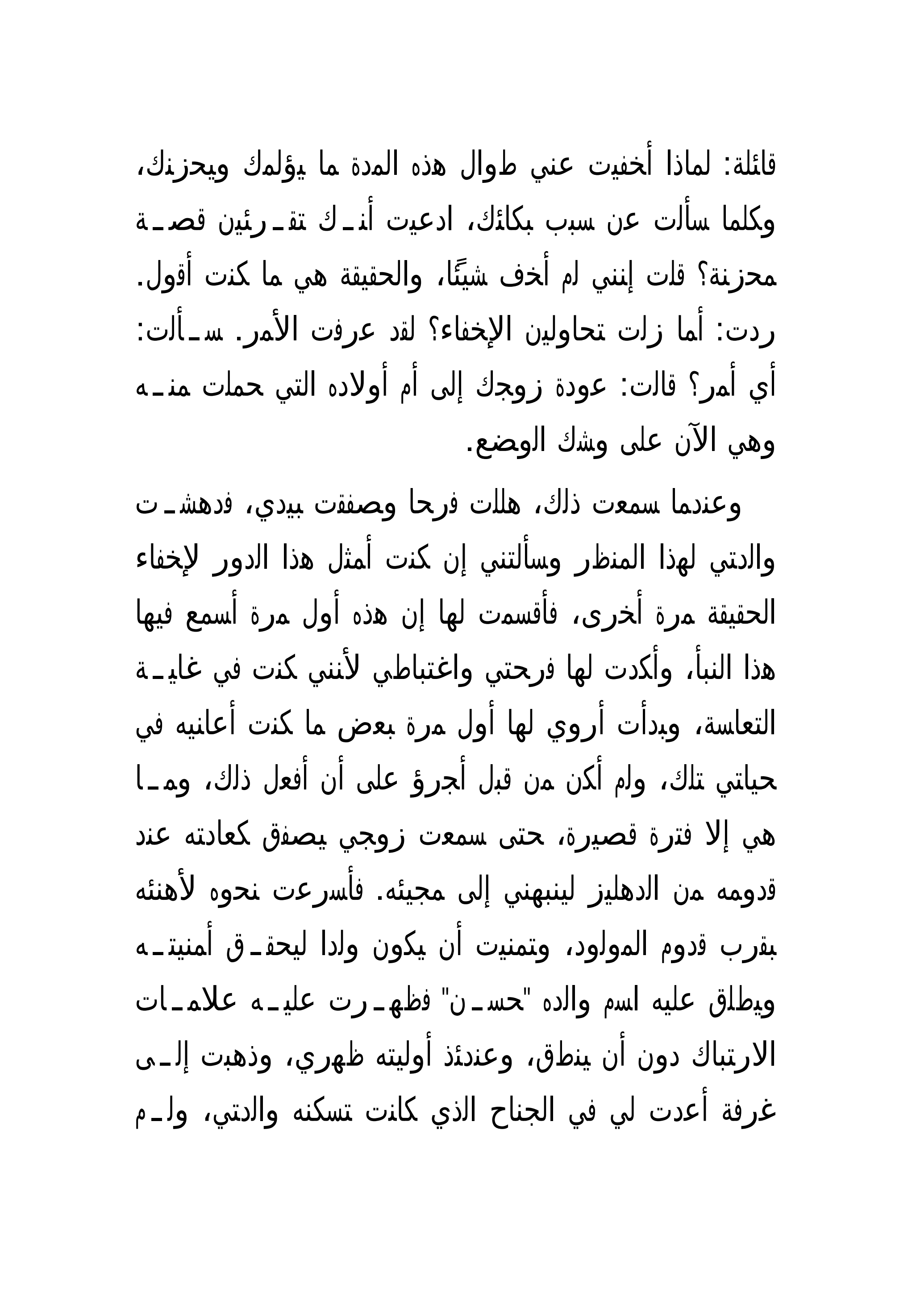
وكان الدرس الثاني الذي تعلمته هو أنه بعـد أن انتهـت الحرب بانتصار تركيا، أراد الباب العـالي أن يعبـر عـن عرفانه لمصر بالجميل، فأرسل النياشين وآيات الشكر إلـى رئيس الحكومة الذي خلف رياض باشا، وبذلك نال التقـدير من لم يناصروا تركيا أو يأخذوا بيدها، وهكذا تعطي الحيـاة غالبا من لا يستحق وكفى المجاهد أنه أرضى ضميره.



وهكذا خرجت من هذه التجربة وقد استفدت في مدة قصيرة أضعاف ما كان يمكن أن أكسبه من خبرة في سنين طويلة، كما تعلمت منها الصبر وسعة الصدر، وكان علي بعد أن انتهت المعركة أن أعود إلى دائرة حياتي الضيقة من جديد.

ذات يوم من الأيام، سمعت والدتي تناقش زوجي في غضب وبصوت عال، ثم نادتني وسألتني عن الوثيقة التي أعطاها لي زوجي، فلم أجب لأنني لم أتذكر أنه أعطاني وثيقة، ولكنه قال لي إنها داخل المظروف الذي سلمته لك غداة يوم زواجنا. وتذكرت أنه كان قد أعطاني مظروفًا مغلقًا مكتوبا عليه "يحفظ طرف الهانم" وإنني كنت قد وضعته في دولابه دون أن أعلم ما بداخله، وعندما أحضرته لاحظت أن والدتي قد اطمأنت وأخذت المظروف مني واحتفظت به.

لقد تعودت والدتي أن تسافر من وقت إلى آخر لزيارة قبر والدي وقضاء ليلة في المنيا في منزل عمتي "والدة زوجي"؛ حيث كانت تسكن معها بناته ووالدتهن، ولما عادت في هذه المرة الأخيرة، استقبلتها على السلم كالعادة فوجدتها حانقة مكفهرة، وعندما دخلت غرفتها وخلعت إزارها، فاجأتني



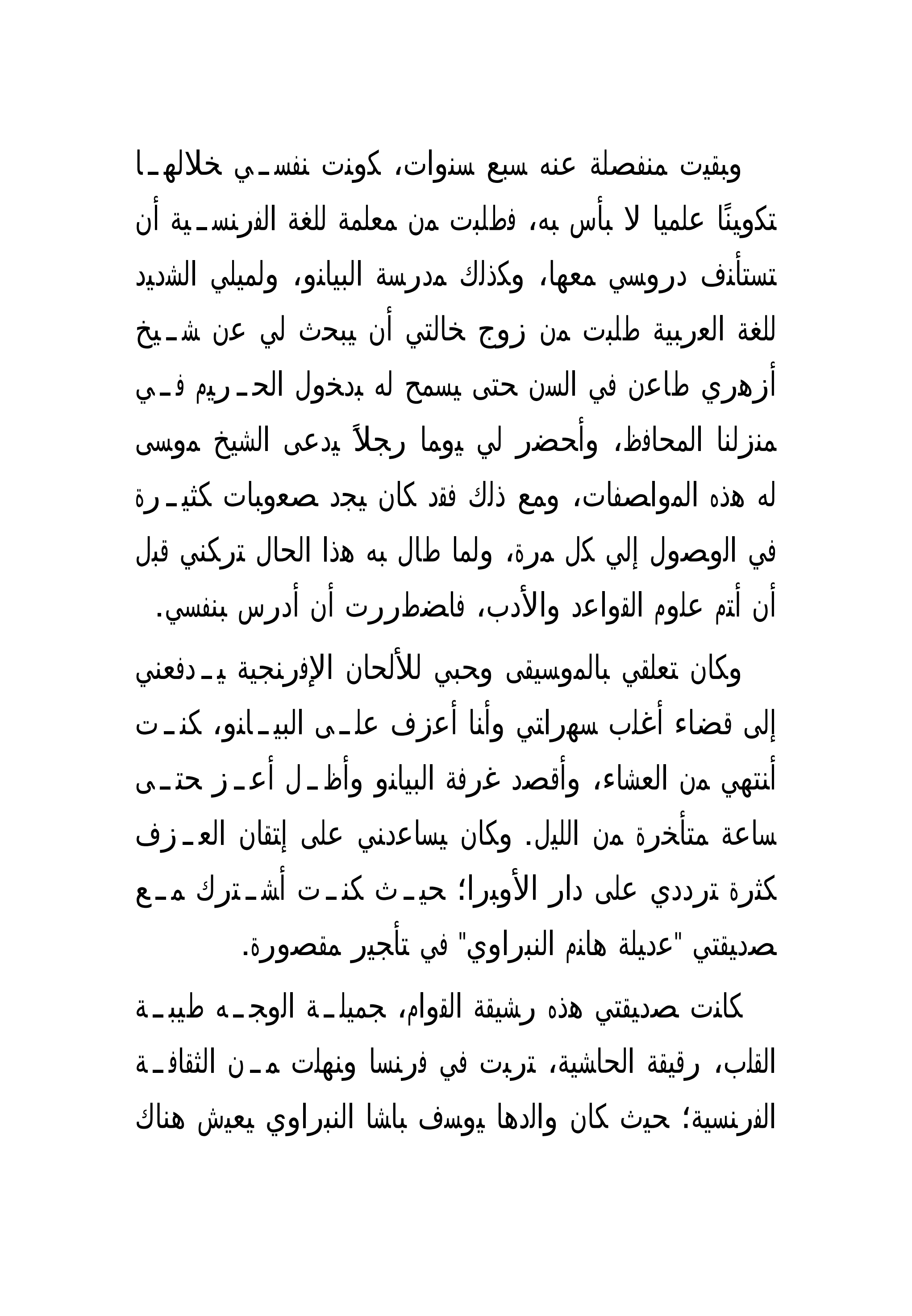
قائلة: لماذا أخفيت عني طوال هذه المدة ما يؤلمك ويحزنك، وكلما سألت عن سبب بكائك، ادعيت أنك تقرئين قصة محزنة؟ قلت إنني لم أخف شيئًا، والحقيقة هي ما كنت أقول. ردت: أما زلت تحاولين الإخفاء؟ لقد عرفت الأمر. سألت: أي أمر؟ قالت: عودة زوجك إلى أم أولاده التي حملت منه وهي الآن على وشك الوضع.

وعندما سمعت ذلك، هللت فرحا وصفقت بيدي، فدهشت والدتي لهذا المنظر وسألتني إن كنت أمثل هذا الدور لإخفاء الحقيقة مرة أخرى، فأقسمت لها إن هذه أول مرة أسمع فيها هذا النبأ، وأكدت لها فرحتي واغتباطي لأنني كنت في غاية التعاسة، وبدأت أروي لها أول مرة بعض ما كنت أعانيه في حياتي تلك، ولم أكن من قبل أجرؤ على أن أفعل ذلك، وما هي إلا فترة قصيرة، حتى سمعت زوجي يصفق كعادته عند قدومه من الدهليز لينبهني إلى مجيئه. فأسرعت نحوه لأهنئه بقرب قدوم المولود، وتمنيت أن يكون ولدا ليحقق أمنيته ويطلق عليه اسم والده "حسن" فظهرت عليه علامات الارتباك دون أن ينطق، وعندئذ أوليته ظهري، وذهبت إلى غرفة أعدت لي في الجناح الذي كانت تسكنه والدتي، ولم

يكن قد مضى على زواجنا إذ ذاك أكثر من خمسـة عشـر شهرا.

وإنني أفضل أن أتحدث باختصار عن هذه المسألة، فأقول أنه قد بدا لي من مجريات الحوادث ما كنـت أجهلـه، فقـد عرفت من تلك الوثيقة التي ظلت تحت يدي مدة طويلة دون أن أعرف مضمونها، أنهم لإتمام زواجي من ابن عمتي كانوا قد اتفقوا معه على أن أكون الزوجة الوحيدة، وقد تم زواجي منه بعد أن نفذ التزامه، ولكن عندما رأت والدتي أنه عاد إلى حياته الأولى مع أم بناته وتأكدت من ذلك بحـدوث الحمـل قررت انفصالي عنه.

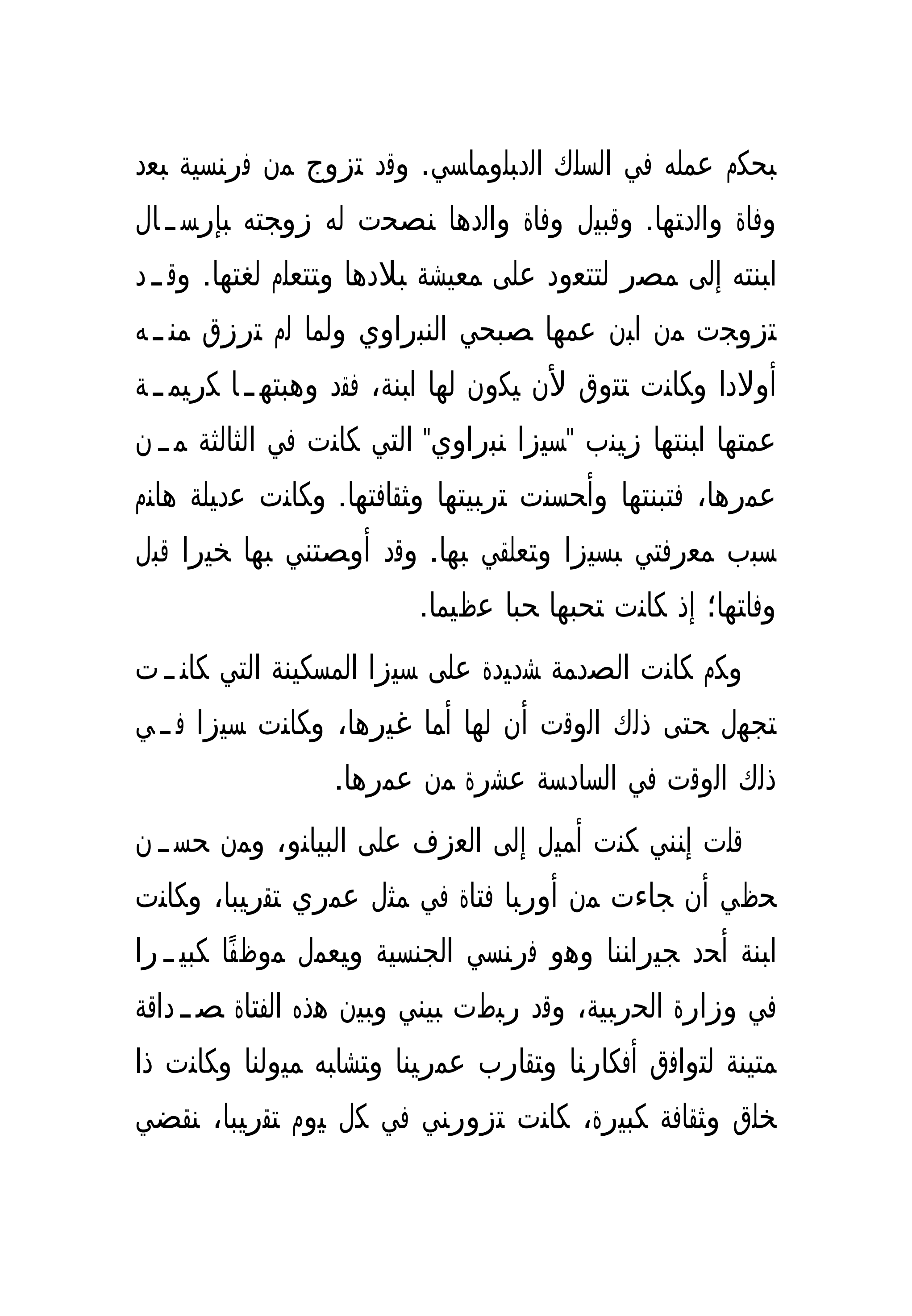
ولقد حاول زوجي بعد مضي فترة من الزمن إصلاح ذات البيت، ولكن والدتي كانت في حالة ثورة وغضب عليه نظرا لموقفه الذي أثر في نفسيتها، وإن كان قد تبين لنا فيما بعـد خلاف ذلك، فقد أتضح أن مفهوم الإقرار هو أننـي الـزوج الوحيدة، وأنه إن راجع أم أولاده تكون طالقًا بينمـا التـبس الأمر علينا وقصرناه على أساس وقوع الطلاق بالنسبة لـي أنا.



وبقيت منفصلة عنه سبع سنوات، كونت نفسي خلالها تكوينًا علميا لا بأس به، فطلبت من معلمة للغة الفرنسية أن تستأنف دروسي معها، وكذلك مدرسة البيانو، ولميلي الشديد للغة العربية طلبت من زوج خالتي أن يبحث لي عن شيخ أزهري طاعن في السن حتى يسمح له بدخول الحريم في منزلنا المحافظ، وأحضر لي يوما رجلاً يدعى الشيخ موسى له هذه المواصفات، ومع ذلك فقد كان يجد صعوبات كثيرة في الوصول إلي كل مرة، ولما طال به هذا الحال تركني قبل أن أتم علوم القواعد والأدب، فاضطررت أن أدرس بنفسي.

وكان تعلقي بالموسيقى وحبي للألحان الإفرنجية يدفعني إلى قضاء أغلب سهراتي وأنا أعزف على البيانو، كنت أنتهي من العشاء، وأقصد غرفة البيانو وأظل أعزف حتى ساعة متأخرة من الليل. وكان يساعدني على إتقان العزف كثرة ترددي على دار الأوبرا؛ حيث كنت أشترك مع صديقتي "عديلة هانم النبراوي" في تأجير مقصورة.

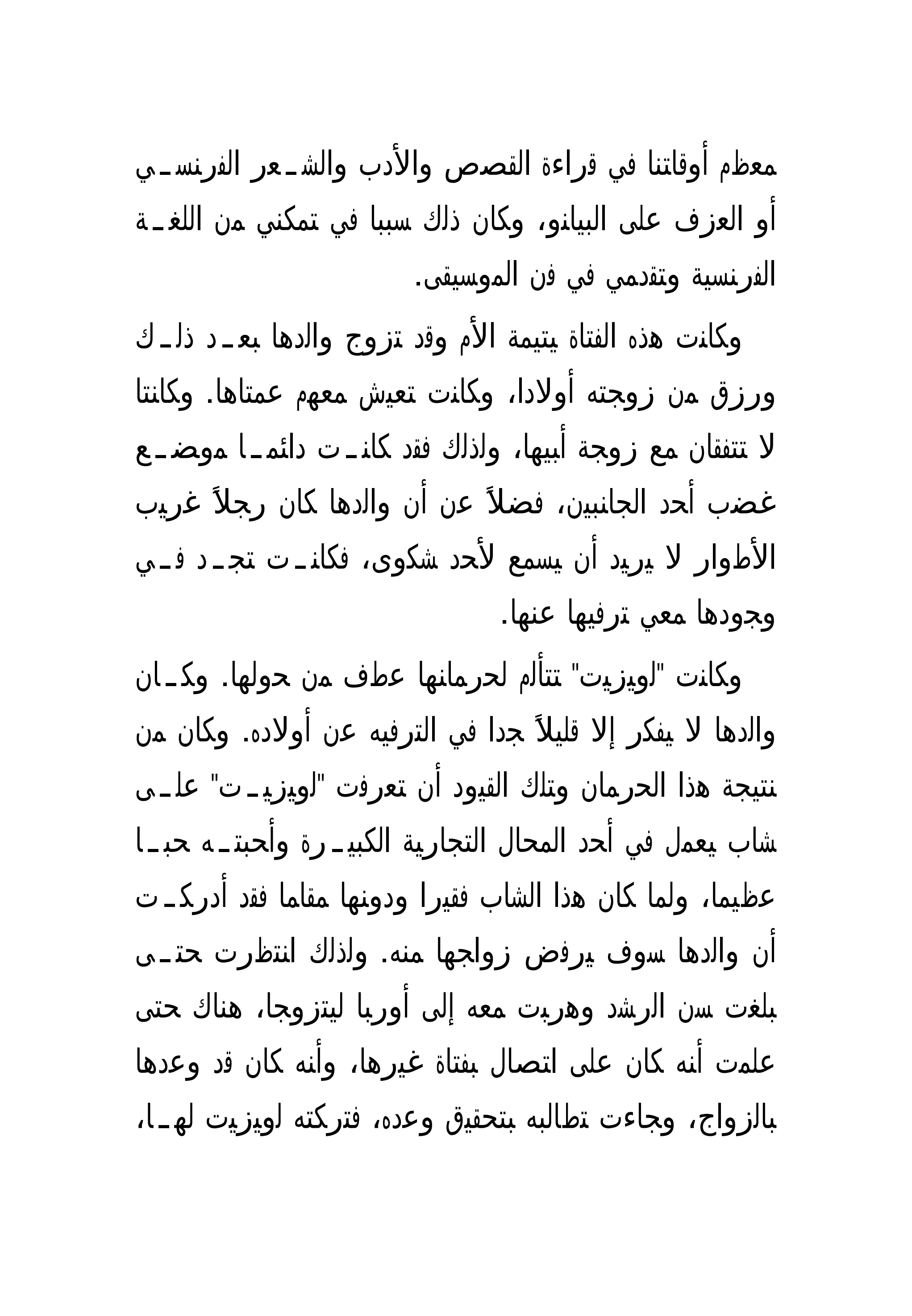
كانت صديقتي هذه رشيقة القوام، جميلة الوجه طيبة القلب، رقيقة الحاشية، تربت في فرنسا ونهلت من الثقافة الفرنسية؛ حيث كان والدها يوسف باشا النبراوي يعيش هناك



بحكم عمله في السلك الدبلوماسي. وقد تزوج من فرنسية بعد وفاة والدتها. وقبيل وفاة والدها نصحت له زوجته بإرسـال ابنته إلى مصر لتتعود على معيشة بلادها وتتعلم لغتها. وقـد تزوجت من ابن عمها صبحي النبراوي ولما لم ترزق منـه أولادا وكانت تتوق لأن يكون لها ابنة، فقد وهبتهـا كريمـة عمتها ابنتها زينب "سيزا نبراوي" التي كانت في الثالثة مـن عمرها، فتبنتها وأحسنت تربيتها وثقافتها. وكانت عديلة هانم سبب معرفتي بسيزا وتعلقي بها. وقد أوصتني بها خيرا قبل وفاتها؛ إذ كانت تحبها حبا عظيما.

وكم كانت الصدمة شديدة على سيزا المسكينة التي كانـت تجهل حتى ذلك الوقت أن لها أما غيرها، وكانت سيزا فـي ذلك الوقت في السادسة عشرة من عمرها.

قلت إنني كنت أميل إلى العزف على البيانو، ومن حسـن حظي أن جاءت من أوربا فتاة في مثل عمري تقريبا، وكانت ابنة أحد جيراننا وهو فرنسي الجنسية ويعمل موظفًا كبيـرا في وزارة الحربية، وقد ربطت بيني وبين هذه الفتاة صـداقة متينة لتوافق أفكارنا وتقارب عمرينا وتشابه ميولنا وكانت ذا خلاق وثقافة كبيرة، كانت تزورني في كل يوم تقريبا، نقضي



معظم أوقاتنا في قراءة القصص والأدب والشعر الفرنسي أو العزف على البيانو، وكان ذلك سببا في تمكني من اللغة الفرنسية وتقدمي في فن الموسيقى.

وكانت هذه الفتاة يتيمة الأم وقد تزوج والدها بعد ذلك ورزق من زوجته أولادا، وكانت تعيش معهم عمتاها. وكانتا لا تتفقان مع زوجة أبيها، ولذلك فقد كانت دائما موضع غضب أحد الجانبين، فضلاً عن أن والدها كان رجلاً غريب الأطوار لا يريد أن يسمع لأحد شكوى، فكانت تجد في وجودها معي ترفيها عنها.

وكانت "لويزيت" تتألم لحرمانها عطف من حولها. وكان والدها لا يفكر إلا قليلاً جدا في الترفيه عن أولاده. وكان من نتيجة هذا الحرمان وتلك القيود أن تعرفت "لويزيت" على شاب يعمل في أحد المحال التجارية الكبيرة وأحبته حبا عظيما، ولما كان هذا الشاب فقيرا ودونها مقاما فقد أدركت أن والدها سوف يرفض زواجها منه. ولذلك انتظرت حتى بلغت سن الرشد وهربت معه إلى أوربا ليتزوجا، هناك حتى علمت أنه كان على اتصال بفتاة غيرها، وأنه كان قد وعدها بالزواج، وجاءت تطالبه بتحقيق وعده، فتركته لويزيت لها،

وعادت إلى مصر والتحقت بأحد البيوت كمربية للأطفـال. ولما علم أبوها بذلك، عفا عنها وأراد أن يعيدها إلى منزلـه لتعيش معه، ولكنها رفضت لأنها لم تجد في نفسها الشجاعة على مواجهة أبيها بعد ما حدث فأوعز الأب إلـى أخيـه أن يدعوها لتقيم معه في فرنسا، فبعث إليهـا عمهـا يـدعوها، فوافقت لأنها شعرت بأنه ليس في مقدورها الاستمرار فـي خدمة البيوت. وذهبت إلى هناك حيث انتابتها حمى، وأجريت لها عملية الزائدة الدودية وماتت على إثر ذلك.

ولم تكن أختها الصغرى أوفر حظًا منها. فقد أحبت شابا، ورفض أبوها أن تتزوج منه لفقره، وعندما أراد أن يزوجها من غيره، رفضت ومرضت وسافر بها الأب إلـى فرنسـا لتغيير الهواء ولإبعادها عن هذا الشاب، وفي إحدى النزهات صادفت هذا الشاب، فأصابتها رعدة ومرضت بالحمى إلـى أن ماتت هي الأخرى.

وكم من فتيات ذهبن ضحية ظلم الآباء ونتيجـة تفضـيل المادة على سعادة بناتهم. ولذلك تنتهي حياة هؤلاء الفتيـات بالموت أو السقوط.

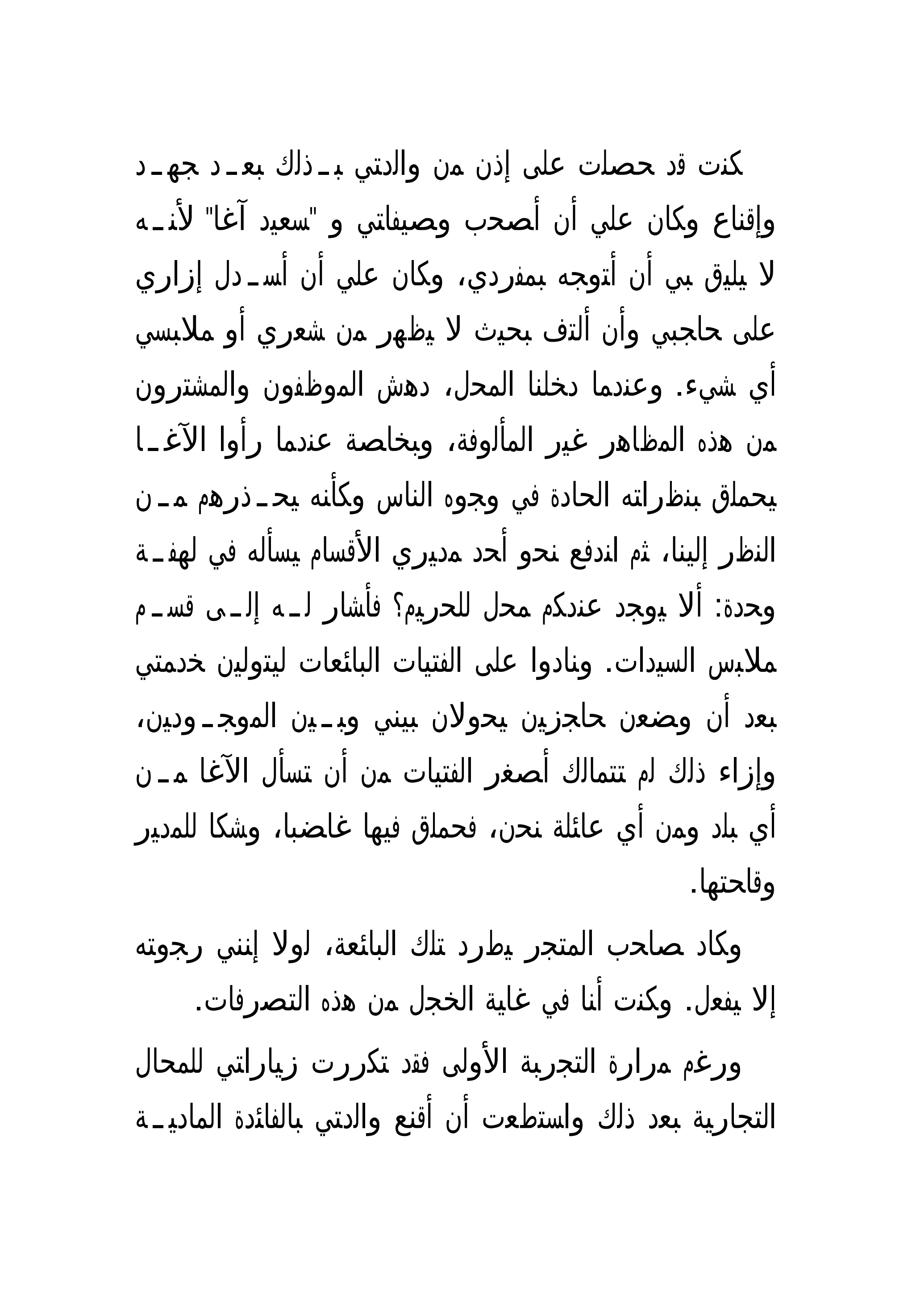
طوال تلك الفترة، لم تنقطع الوساطة بيني وبين زوجـي، وأذكر أن الزبير باشا طلب مقابلتي يوما، فلما قابلته سـألني عن سبب عدم عودتي لزوجي وقيامي بخدمته، وقال إن هذا لا يليق أن تفعله بنت سلطان باشا، ثم انبرى غاضبا ليقـول: ألا تعلمي أن من حق زوجك أن يأخذك عنـوة إلـى محـل الطاعة؟.. واستمر يخاطبني بغلظة وعنف وأنا صامتة، ولما رأى دموعي على خدي، قال لي لقد سمحت لنفسي أن أكلمك بهذه اللهجة لأن والدك كان بمنزلة شـقيقي، ولـذلك فـإنني اعتبر نفسي أتكلم بلسانه.. فلم أستطع بعد ذلك صمتًا وقلت: لو كان والدي على قيد الحياة لما أسمعني مثل هـذا الكـلام لأنني لم أذنب، وإن كان هناك مذنب فهو ابن عمتي، ورغم ذلك فلو كنت أعلم أنه في احتياج لـي، مـا تـرددت فـي التضحية بنفسي، ولكنه الآن يعيش مع أم أولاده التي تلد لـه كل سنة طفلاً، ويكفي إنني لا أطلب منـه شـيئًا، وأتحمـل مناوءاته، ولو كان أبي حيا لما قبل أن تتعذب ابنتـه بهـذه الصورة لأنه كان رجلاً عادلاً وأبا رحيما، ثم تركته وخرجت وفي اليوم التالي أرسل زوجته لتعتذر لي عن قسوته.

وبعد أيام علمت أن الشيخ علي الليثي يريد هو أيضـا أن يتوسط في الصلح، وأنه يعتزم القدوم لهذا الغـرض. ولقـد ارتعت لذلك لأنني كنت أحبه كثيرا، وكنت أخشى إن حـاول معاملتي بخشونة الزبير باشا أن يقل حبي واحترامي له ومع ذلك انتظرته بشجاعة. ولكنه لم يأت، وعلمت أنه عز عليـه أن يكدر خاطري لاعتقاده بأنني لست المخطئة، فازداد حبي وتقديري له.

وتعددت بعد ذلك المساعي وتنوعت الوسـائل لإرغـامي على الصلح، وكثيرا ما كان يأتي زوجي بنفسه ويستخدم كافة الوسائل ما بين الرجاء والعطف تارة وما بين الوعيد والعنف تارة أخرى. ولكني في كل هـذه الحـالات. كنـت أتمالـك مشاعري، وأحاول إقناعه بالمنطق، وأذكره بواجباتـه نحـو أولاده ووالدتهم. وكنت أقول له إنني أعتقد أن الذي يـدفعك إلى هذا السعي إنما هو وخز الضمير لظنك أنك أسأت إلـي ولكن ثق أنك قد أحسنت بعملك لأن واجبـك نحـو أولادك يقضي عليك أن تعيش بينهم. فكان يدعي أن حبه لـي هـو دافعه الوحيد للإلحاح علي بالعودة.. وكنت أرى على وجهه علامات الحزن الصادق أحيانًا.

وقد أثرت كل هذه العوامل والانفعـالات فـي أعصـابي وصحتي، فمرضت مرضا شديدا ألزمني الفراش عدة أشهر، وعندما جاء الصيف أشار علي صـديقنا وطبيبنـا الـدكتور علوي باشا بضرورة سفري إلى الإسكندرية لتغيير الهـواء والاستفادة بحمامات البحر، وسافرنا بالفعل، وعدت بعد ثلاثة أشهر وقد استفدت إلى حد ما من بعدي عن المنازعات، كما أصبحت أكثر تعلقًا بالبحر مما كنت، وعندما جاء الصـيف التالي، وأردت السفر إلى الرمل، أراد زوجي أن يستغل هذه الفرصة وظن أنه إذا منعني من السفر قبلت الصـلح معـه. فامتنع عن صرف المبلغ الذي اعتمدته لسفري، ولكن والدتي عندما عرفت ذلك، سافرت على الفور لتستأجر لـي منـزلاً على حسابها الخاص، وسمحت لي بالسفر مع خالتي لقضـاء الصيف هناك وكان لهذا العطف أبلغ الأثر في نفسي.

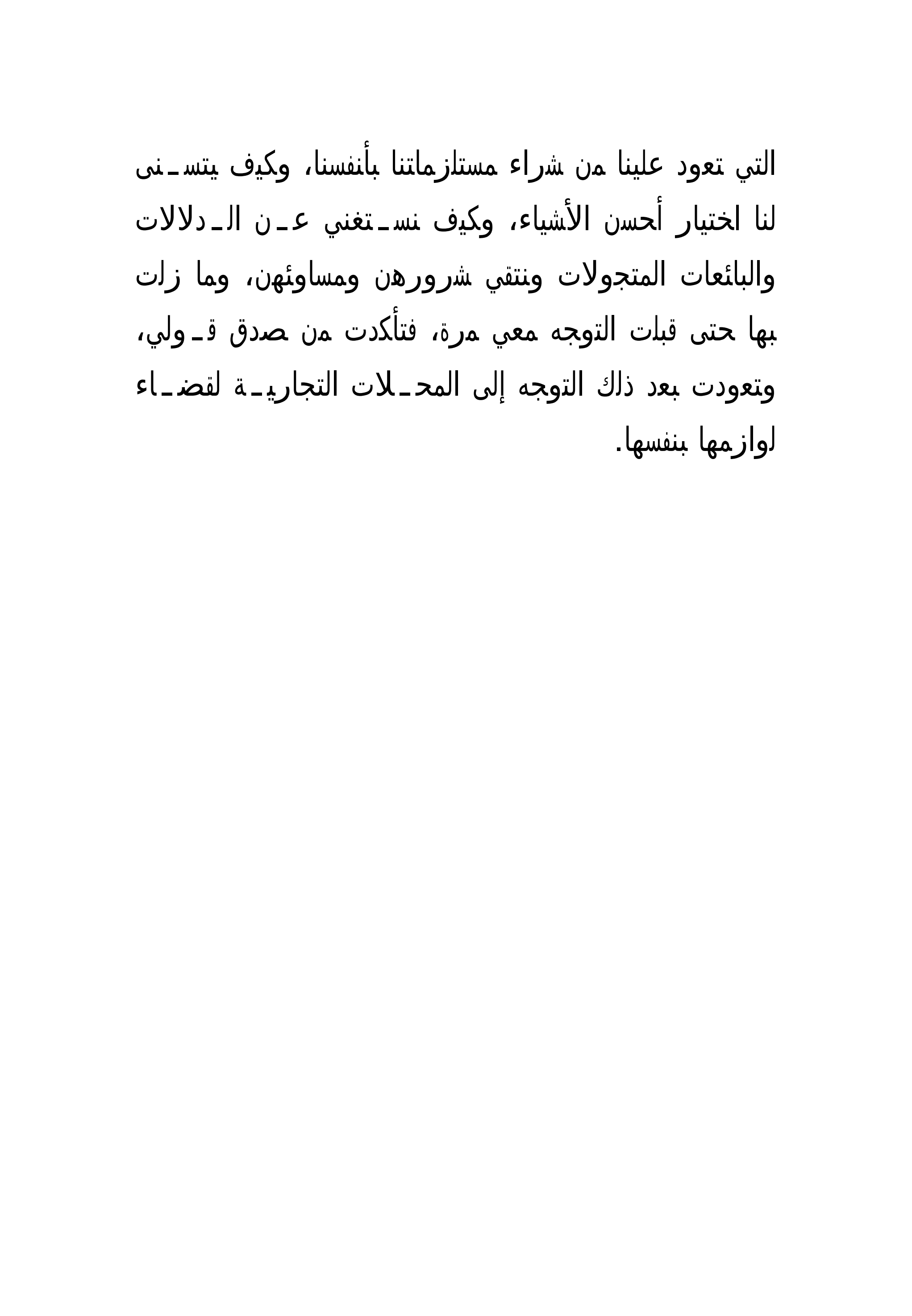
وفي الإسكندرية.. في ذلك الصيف بالذات.. كانت لي أول تجربة من نوعها. فقد قررت أن أشتري لوازمي بنفسي مـن المحلات الكبيرة. بالرغم من تـذمر "سـعيد آغـا" ورغـم امتعاض أهل المنزل ودهشتهم من هذه الخطوة وتحدثهم عنها وكأنني قد خالفت قوانين الشريعة.



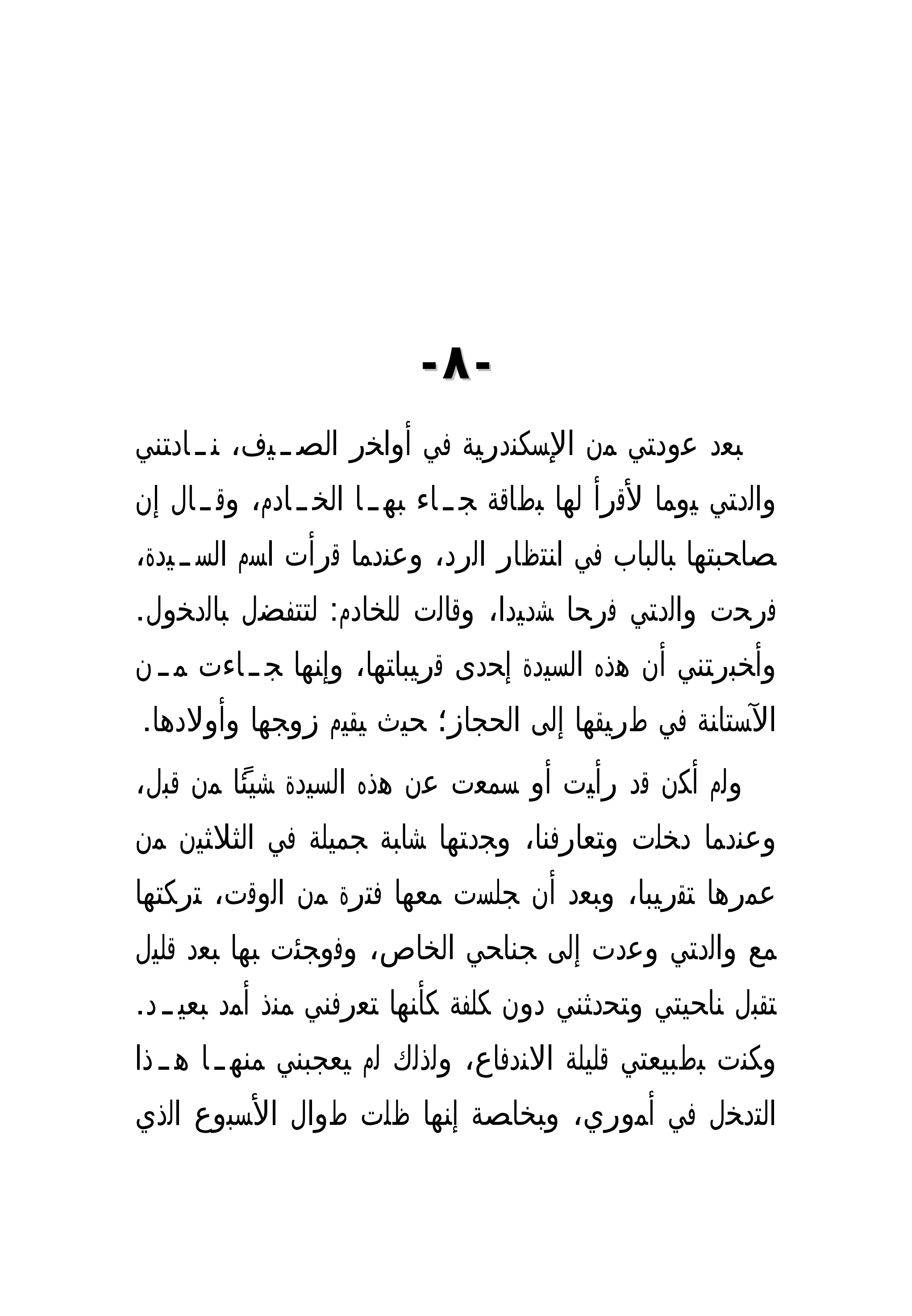
كنت قد حصلت على إذن من والدتي بعد ذلك بعد جهد وإقناع وكان علي أن أصحب وصيفاتي و "سعيد آغا" لأنه لا يليق بي أن أتوجه بمفردي، وكان علي أن أسدل إزاري على حاجبي وأن ألتف بحيث لا يظهر من شعري أو ملابسي أي شيء. وعندما دخلنا المحل، دهش الموظفون والمشترون من هذه المظاهر غير المألوفة، وبخاصة عندما رأوا الآغا يحملق بنظراته الحادة في وجوه الناس وكأنه يحذرهم من النظر إلينا، ثم اندفع نحو أحد مديري الأقسام يسأله في لهفة وحدة: ألا يوجد عندكم محل للحريم؟ فأشار له إلى قسم ملابس السيدات. ونادوا على الفتيات البائعات ليتولين خدمتي بعد أن وضعن حاجزين يحولان بيني وبين الموجودين، وإزاء ذلك لم تتمالك أصغر الفتيات من أن تسأل الآغا من أي بلد ومن أي عائلة نحن، فحملق فيها غاضبا، وشكا للمدير وقاحتها.

وكاد صاحب المتجر يطرد تلك البائعة، لولا إنني رجوته إلا يفعل. وكنت أنا في غاية الخجل من هذه التصرفات.

ورغم مرارة التجربة الأولى فقد تكررت زياراتي للمحال التجارية بعد ذلك واستطعت أن أقنع والدتي بالفائدة المادية



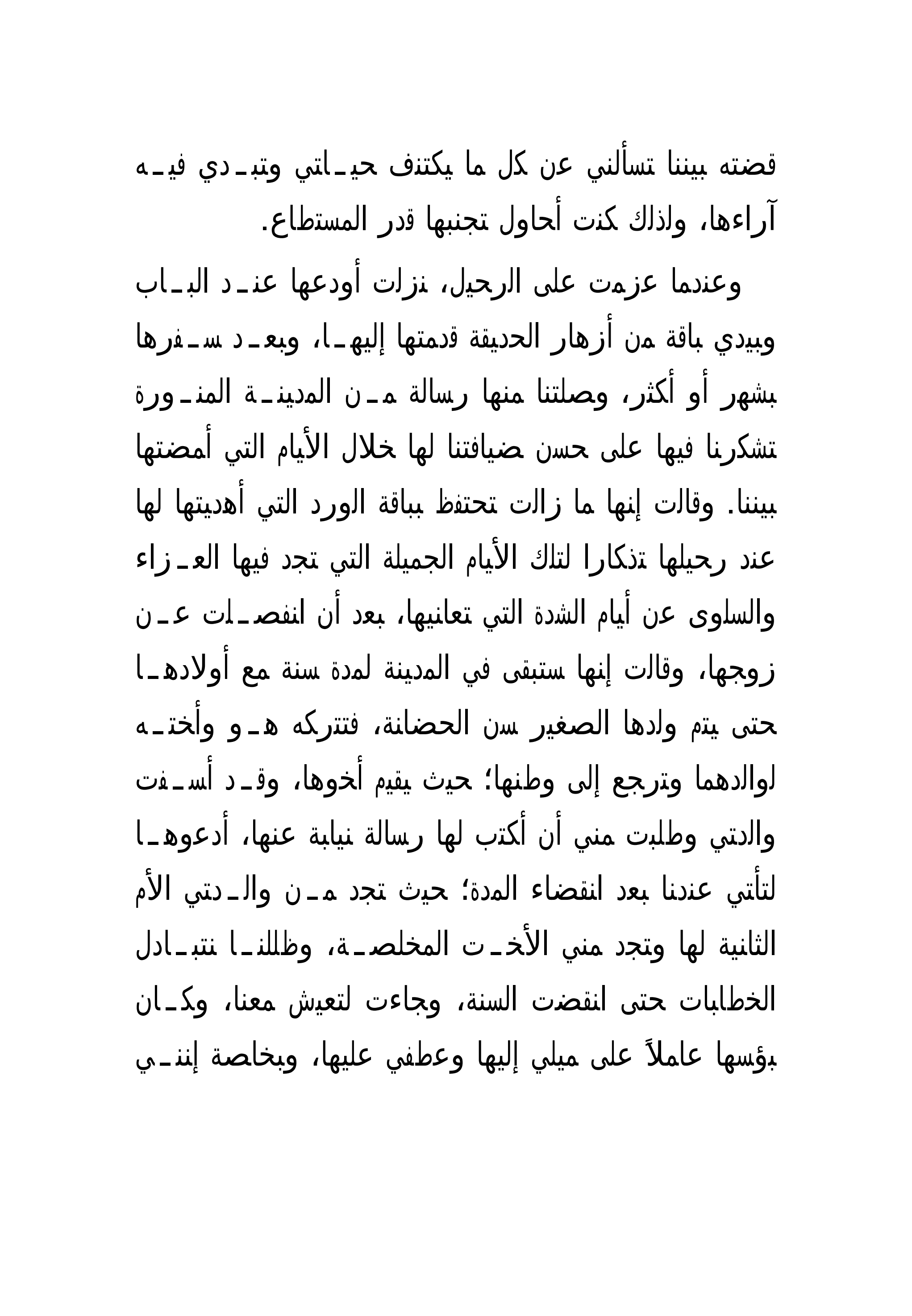
التي تعود علينا من شراء مستلزماتنا بأنفسنا، وكيف يتسـنى لنا اختيار أحسن الأشياء، وكيف نسـتغني عـن الـدلالات والبائعات المتجولات ونتقي شرورهن ومساوئهن، وما زلت بها حتى قبلت التوجه معي مرة، فتأكدت من صدق قـولي، وتعودت بعد ذلك التوجه إلى المحـلات التجاريـة لقضـاء لوازمها بنفسها.



-٨-

بعد عودتي من الإسكندرية في أواخر الصيف، نادتني والدتي يوما لأقرأ لها بطاقة جاء بها الخادم، وقال إن صاحبتها بالباب في انتظار الرد، وعندما قرأت اسم السيدة، فرحت والدتي فرحا شديدا، وقالت للخادم: لتتفضل بالدخول. وأخبرتني أن هذه السيدة إحدى قريباتها، وإنها جاءت من الآستانة في طريقها إلى الحجاز؛ حيث يقيم زوجها وأولادها.

ولم أكن قد رأيت أو سمعت عن هذه السيدة شيئًا من قبل، وعندما دخلت وتعارفنا، وجدتها شابة جميلة في الثلاثين من عمرها تقريبا، وبعد أن جلست معها فترة من الوقت، تركتها مع والدتي وعدت إلى جناحي الخاص، وفوجئت بها بعد قليل تقبل ناحيتي وتحدثني دون كلفة كأنها تعرفني منذ أمد بعيد. وكنت بطبيعتي قليلة الاندفاع، ولذلك لم يعجبني منها هذا التدخل في أموري، وبخاصة إنها ظلت طوال الأسبوع الذي



قضته بيننا تسألني عن كل ما يكتنف حياتي وتبدي فيه آراءها، ولذلك كنت أحاول تجنبها قدر المستطاع.

وعندما عزمت على الرحيل، نزلت أودعها عند الباب وبيدي باقة من أزهار الحديقة قدمتها إليها، وبعد سفرها بشهر أو أكثر، وصلتنا منها رسالة من المدينة المنورة تشكرنا فيها على حسن ضيافتنا لها خلال الأيام التي أمضتها بيننا. وقالت إنها ما زالت تحتفظ بباقة الورد التي أهديتها لها عند رحيلها تذكارا لتلك الأيام الجميلة التي تجد فيها العزاء والسلوى عن أيام الشدة التي تعانيها، بعد أن انفصلت عن زوجها، وقالت إنها ستبقى في المدينة لمدة سنة مع أولادها حتى يتم ولدها الصغير سن الحضانة، فتتركه هو وأخته لوالدهما وترجع إلى وطنها؛ حيث يقيم أخوها، وقد أسفت والدتي وطلبت مني أن أكتب لها رسالة نيابة عنها، أدعوها لتأتي عندنا بعد انقضاء المدة؛ حيث تجد من والدتي الأم الثانية لها وتجد مني الأخت المخلصة، وظللنا نتبادل الخطابات حتى انقضت السنة، وجاءت لتعيش معنا، وكان بؤسها عاملاً على ميلي إليها وعطفي عليها، وبخاصة إنني

كنت أقرأ في ملامحها علامات اليأس والحزن العميق مما أثر في صحتها تأثيرا شديدا.

وعندما كنا نتسامر ذات ليلة روت لي قصتها المؤثرة، وهي التي تكاد تكون صورة طبق الأصل من حياة المرأة الشرقية في ذلك العصر.

قالت: أنا من أم شركسية وأب تركي، وكان والدي أحد السادة الأثرياء، وقد تزوج من والدتي لأنه لم يرزق أبناء من زوجته الأولى، وقد أنجبت له والدتي أخي وأنا، ثم مات بعد أن ضاعت أمواله في أوراق مالية تدهور ثمنها، ولم يترك لنا سوى بيت ذي حديقة واسعة، وكانت والدتي صغيرة وخشيت عجزها عن مواجهة الحياة، فتزوجت من رجل طيب أحسن معاملتها وتكفل بنا كأنه والدنا.

وذات يوم حضر زوج والدتي ومعه رجل من أشراف الحجاز طلبني من والدتي، وزكاه زوجها فرضيت بزواجي منه إذا وعد صدقًا أنه لا يفرقني عنها ولا يطلب مني مغادرة وطني. وسألته إذا كانت له زوجة أخرى فطمأنها بقوله إنه لم يتزوج بعد. وقد عرف كيف يستميلني ويجذبني إليه ويحببني فيه فأحببته، حتى أنه لما أراد العودة إلى بلاده رغبت في

مرافقته، ورافقتنا والدتي إلى الحجاز، ووجدت أنه لم يكذب عليها ولم تكن له زوجة غيري، ولما اطمأنت إلى ذلك، تركتني ورجعت إلى بلادها. وعشت معه عيشة هادئة، وبعد ثلاث سنوات رزقت منه بطفلة سميتها "زينب".

كان زوجي في كل حج يتوجه إلى مكة ويغيب فيها، فساورتني الشكوك. وذات يوم عثرت على خطاب في درج مكتبه من سيدة فهمت منه أنه تزوجها، فثارت ثائرتي، وفارقته عائدة إلى استانبول وفي نيتي عدم العودة إليه.

ولكن زوجي حضر في صيف تلك السنة، وبذل كل جهده لينال رضاي وعفوي عنه، وعزا زواجه بابنة عمته بأنها قريبته يخشى على مالها من الضياع، فرجعت معه، ورزقت منه ولدا هو "السيد محمد". ولكن تبين لي بعد ذلك أنه مزواج، وأنه من كثرة زواجه لا يعلم عدد من تزوج منهن، وكذلك لا يعرف أولاده، ولما وصلت إلى المدينة وكانت لي عمة تعيش فيها قصدت بيتها ونزلت عندها وأرسلت إليه طالبة طلاقي بشرط أن أبقى مع ولدي حتى يبلغ سن الحضانة، فقبل ذلك. وبقيت مع ولدي حتى انقضت المدة، وكتبت إليكم فجاءني كتابكم بالأمل".

وقد تألمت لحال هذه السيدة ورثيت لهـا ووعـدتها بـأن أعاملها معاملة الأخت لشقيقتها، ومن محاسن الصدف إنهـا جاءت في وقت كنت محتاجة فيه إلى شـيء يحـول اتجـاه تفكيري في حالتي.

وكانت هذه السيدة ذات صفات طيبـة ومخلصـة وفيـة. وكانت تحبني حبا جما أشعرني بسعادة عظيمة: ولكن كثيـرا ما كانت محبتها تدفعها إلى محاولة الاستئثار بي، وكان ذلك يحدث عندي شيئًا من الثورة النفسية لأنني أكره كل ما يحـد من حريتي واستقلالي، وإن كنت أشفق عليهـا لعلمـي أنـه لا ملجأ لها إلا بيتنا وبخاصة بعد أن توفي شقيقها الوحيد بعد وفاة أمها، وصارت وحيدة لا معين لها في الحياة.

كانت تميل إلى العزلة والأشغال اليدوية والبقاء في الغرفة التي تعودت الوجود فيها وتكره كل شيء يحدث الضوضاء، ولذلك كانت تضيق بعزفي الموسيقي رغم إننـي كنـت قـد وصلت في العزف على البيانو إلى درجة لا بأس بها، وكنت مرغمة على الإقلال من هذه الهواية مراعاة لخاطرها.

وقد فكرت في وسيلة تشغلها عني قليلاً، فعرضت عليهـا أن تأخذ معي دروسا في الرسم، وأن تشاركني أيضـا فـي

دروس اللغة العربية واللغة الفرنسية، فقبلت، ولكنها لم تستمر إلا في الرسم لميلها الشديد للأشغال اليدوية. وقد أتقنت هـذا الفن لدرجة كبيرة.

عاشت هذه السيدة بجانبي خمس سـنوات حتـى صـرنا خلالها كأختين تفرح الواحدة لفرح الأخرى وتحزن لحزنها. وفي هذه الفترة تعرفت بسيدة أخرى أحببتها حبـا صـادقًا، وكانت هي الوحيدة التي لا تغار منها صديقتي وتعترف بأنها جديرة بحبي وإخلاصي، تلك هي الزوجة الأولى للمرحـوم حسين رشدي باشا، وكنت فرنسية الجنسية.

عرفتها في حفل زفاف حسين بك ريـاض، وكنـت مـع صديقة لي بغرفة الزفاف عندما دخلت هذه السـيدة وعليهـا سيماء الوقار وملامح الذكاء، فاسترعت انتباهي. وأظن إنني أيضا كنت موضع اهتمامها رغم صغر سني في ذلك الوقت. قدمتني إليها شقيقة رشدي باشا، وأمضيت بجانبهـا معظـم السهرة مغتبطة بجانبها؛ إذ وجدتها فـي أفكارهـا وحـديثها تختلف عن غيرها من السيدات المثقفات المغرورات، وقـد زادنا ارتباطًا يوم أمضيناه بباخرة على النيل ذهبت بنا إلـى القناطر الخيرية ومعنا سيدات أخريات من الإفرنجيات، وقـد

مكننا الوقت الطويل الذي أمضيناه معا من حسـن التعـارف وربطنا بأواصر المودة الأدبية والروحية، وقد صارحتني إنها سمعت عني كثيرا ولكن على غير الحقيقة التي لمستها مـن معاشرتها لي.. فسألتها عما وصل إليها عني، فقالت سـمعت بعض الناس يقولون إنك تركت زوجك لأنك تريدين الـزواج من غيره من الشبان، وأنه تعس لفراقك وعدم انقيـادك لـه، وقد امتحناك دون أن تشعري، فظهر لنا خلاف ما سـمعنا. فلما أظهرت لها دهشتي من امتحانها الذي لم أشـعر بـه.. قالت دخلت عندي إحدى صديقاتي يوم استقبالي، وكنت أنت عندي وقتئذ، فقدمتك إليها، وبعد خروجك تحدثنا، وأكثـرت من الثناء عليك وتحدثنا عن السيدات المصريات عامة. فقالت هذه السيدة، كم من خفايا يخبئها البرقع!.. فقلت لهـا: مـاذا تعنين بهذا القول؟ قالت: كل هؤلاء السيدات يسـلكن تحـت شعار براقعهن أسوأ المسالك. أما نحن معشر الفرنجيات فإننا نخرج سافرات.. وكل واحد يعرفنا ولذلك لا يمكننا أن نطرق مكانًا مشتبها فيه، قلت لها: إن هذا الكلام لا ينطبـق علـى صديقاتي وخاصة صديقتي الصغيرة، قالت لي: هل تسمحين

لي أن أمتحنها، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. فقالت لها: افعلي ما تشائين، فإني على ثقة تامة بصديقتي.

عندئذ سألتها عن تلك السيدة، ولما عرفتها، تذكرت إنها كانت تتردد علينا حتى بلغت من نفسي مكانة طيبة، وفي صباح يوم كنا نتحدث عن التحف والآثار القديمة، فقالت إنها تعرف أحد الحوانيت وفيه مما أحب الأشياء كثيرة، وحببت إلى مرافقتها إلى ذلك الحانوت لأرى لوحات الرسم والتحف الموجودة به، فوافقت وخرجنا معا في عربتها، وبعد أن تفرجنا، دعتني بإلحاح لتناول الشاي معها في أحد محلات الحلوى، فرفضت لأن ذلك لا يليق بي شخصيا فضلاً عن خروجه عن التقاليد.. وكررت رجاءها وإلحاحها، وكررت الرفض بدوري. ولما لم توفق إلى إقناعي، ظنت إنني ربما أقبل هذه الدعوة إذا كانت في محل آخر بعيد عن المدينة، فعرضت علي الذهاب إلى مقهى بجهة الجزيرة لا يؤمه أحد من معارفنا، فرفضت أيضا رفضا باتًا، وقد دهشت السيدة لهذا الرفض من شابة مثلي إزاء سيدة مثلها، فلم أعبأ بدهشتها، ورجوتها في شيء من الخشونة والاستياء أن تعيدني إلى منزلي. ولما فهمت مني أن رفضي يرجع إلى أن

الاختلاط يتنافى مع تقاليدنا، قالت لي إن كثيرا من السـيدات المسلمات يحضرن عندي الحفلات، ويمكثن داخـل حجـرة مظلمة يمكنهن من خلالها مشاهدة الحفلة من وراء ستار دون أن يراهن أحد، ولكنني أقنعتها أن هؤلاء السيدات يذهبن مع أزواجهن أو أخوتهن أو آبائهن، وأن حالتي تختلف عنهن.

وكنت قد حدثت صديقتي حرم رشدي بك في أمـر هـذه الصديقة بعد أن كثر إلحاحها علي، فقالت لي إن خيـر مـا تقدمينه لها دليلاً على إخلاصك وحبك هو ألا تطلبـي منهـا زيارتك أو حضور أية حفلة عندك.

وكان هذا يزيد في تقديري وإخلاصي لصـديقتي حـرم رشدي باشا، فهي لم تكن تعني بظروفي وحـالتي واسـمي فقط، وإنما كانت أيضا تجتهد في تثقيفي في اللغة الفرنسـية، وكانت ترشدني إلى أثمن الكتب وأنفعها.. وكانـت تناقشـني فيما قرأت وتفسر لي ما يصعب علي فهمه، وكانـت تغـذي عقلي وروحي بكل أنواع الجمال والكمال.

ثم إنها كانت تحتم علي أن أحضر عندها كل يوم سـبت من كل أسبوع، وهو يوم استقبالها.. فـي الموعـد المحـدد للسيدات.. قائلة لي: "أنت زهرة صالوني"، وفي الأيام التي لم

أكن أتمكن فيها من زيارتها، كنت أرسل لها باقات الزهور، فكانت تشكرني برسالة رقيقة تقول فيها: إن هـذه الزهـور الجميلة التي أرسلتها إلى لا يمكن أن تملأ الفراغ الذي أوجده غياب زهرتي المحبوبة، فحاولي التقليل من تلك الباقات حتى لا تنقصي بغيابك من بهجة صالوني.

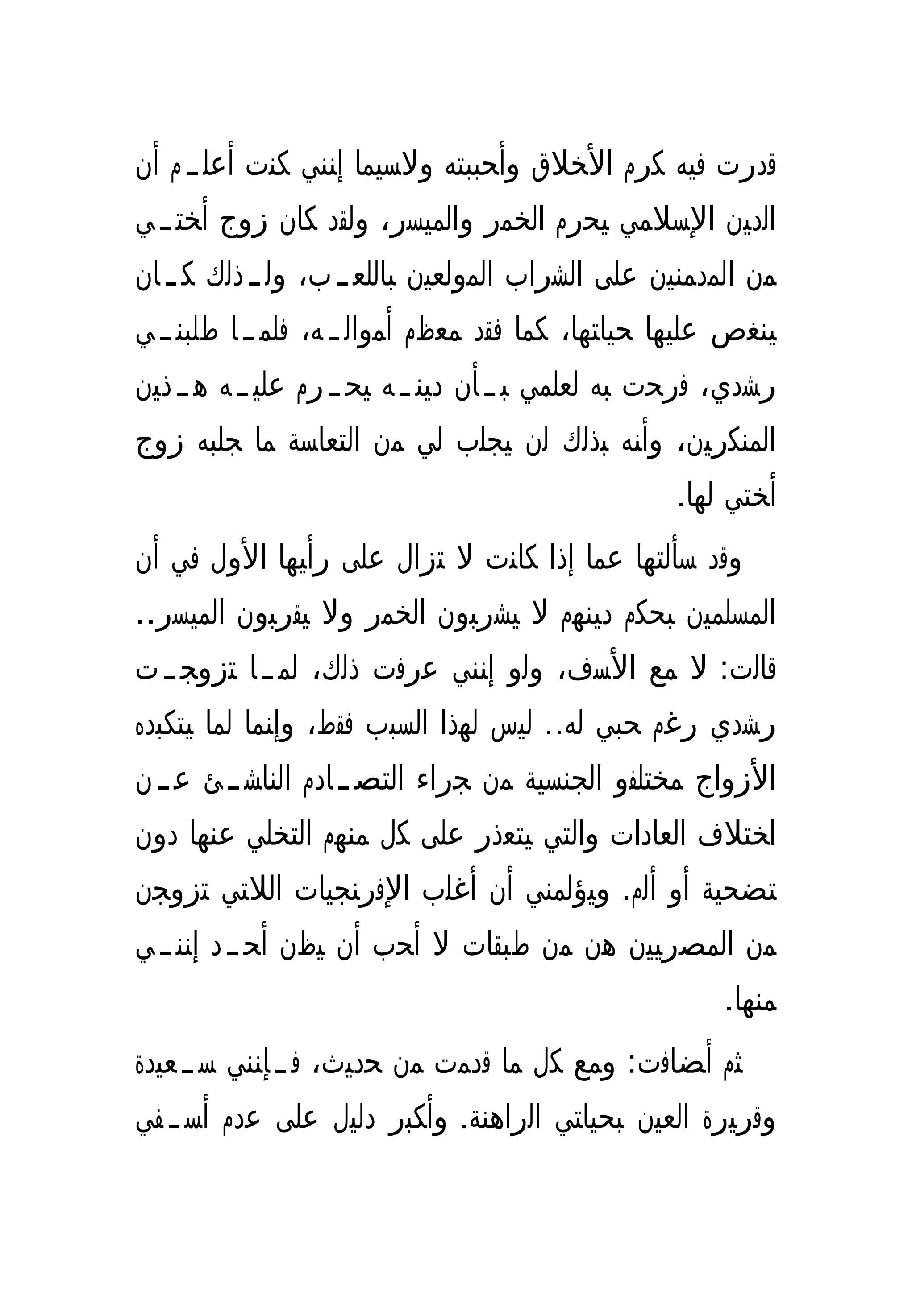
ولقد كانت هذه السيدة الفاضلة مثال العفة والطهر والوفاء والكمال، وكانت تحب أن يتصف كل أصـحابها ومعارفهـا بتلك الصفات النبيلة، ولذلك كانت تحاول دائما أن تبث فـيهم هذه الفضائل.

وأذكر في أحد أيـام اسـتقبالها أن دار الحـديث حـول موضوع التقاليد والحجاب، فقالت: إنني رغم إعجابي بالزي المصري وما يكسبه الحجاب للمرأة من روعة وجمال، فإنني أشعر بالأسف في الوقت نفسـه لأنـه يحـول دون تقـدمها ويحرمها التمتع بقسط أوفر من التعليم والرياضـة البدنيـة، ولذلك تتعرض للبدانة، كما أنه في الأوساط الغربيـة يظـن الكثيرون أن الحجاب أداة تستر على ما خفي تحته، ولـذلك يرجع كثير من السائحين إلى بلادهم بفكرة خاطئة؛ حيث إن بعض من يقودونهم إلى المنازل الساقطة، كثيرا ما يـدخلون

في روعهم أنهم يقدمونهم لسيدات مـن العـائلات الكبيـرة، فيعودون إلى بلادهم مشبعين بهذا الاعتقاد الخاطئ.. ويكتب بعضهم ما يمليه عليه خياليه الضال واعتقاده الفاسد. ثم انتقلنا للحديث عن كتابها "حريم ومسلمات مصر" الذي قدمته باسـم مستعار. وقالت لقد كان غرضي من هذا الكتاب هو وصـف حياة المصريين على حقيقتها ليعلم الإفرنج أنهم ظلوا يسيئون الظن بهم طويلاً، ولأقنعهم بأن المصـريين فـي عـاداتهم وتقاليدهم لا يختلفون عنهم إلا قليلاً، بل لقد ميـزهم ديـنهم الحنيف بما فيه من حكمة وعدالة على غيرهم من البشر.

وقالت إنني بدأت في تأليف كتاب آخر أبين فيه سوء حال المرأة المصرية كزوجة وأم من جـراء التقاليـد والعـادات البعيدة عن الدين، فالحقيقة أن الدين الإسلامي قـد أنصـف المرأة أكثر من أي ديـن آخـر، وسأسـمي هـذا الكتـاب "المطلقات"؛ حيث إني حضرت عدة جلسات فـي المحكمـة الشرعية، وتألمت كثيرا لتعاسة المرأة المصـرية وبخاصـة الفقيرة وظلم الرجل لها.

وقد سألتها عما إذا كانت تقبل الزواج من رشدي باشا فيما لو عرفت مثل هذا من قبل؟ فقالت: نعم.. كنت تزوجته لأني


قدرت فيه كرم الأخلاق وأحببته ولاسيما إنني كنت أعلم أن الدين الإسلامي يحرم الخمر والميسر، ولقد كان زوج أختي من المدمنين على الشراب المولعين باللعب، ولذلك كان ينغص عليها حياتها، كما فقد معظم أمواله، فلما طلبني رشدي، فرحت به لعلمي بأن دينه يحرم عليه هذين المنكرين، وأنه بذلك لن يجلب لي من التعاسة ما جلبه زوج أختي لها.

وقد سألتها عما إذا كانت لا تزال على رأيها الأول في أن المسلمين بحكم دينهم لا يشربون الخمر ولا يقربون الميسر.. قالت: لا مع الأسف، ولو إنني عرفت ذلك، لما تزوجت رشدي رغم حبي له.. ليس لهذا السبب فقط، وإنما لما يتكبده الأزواج مختلفو الجنسية من جراء التصادم الناشئ عن اختلاف العادات والتي يتعذر على كل منهم التخلي عنها دون تضحية أو ألم. ويؤلمني أن أغلب الإفرنجيات اللاتي تزوجن من المصريين هن من طبقات لا أحب أن يظن أحد إنني منها.

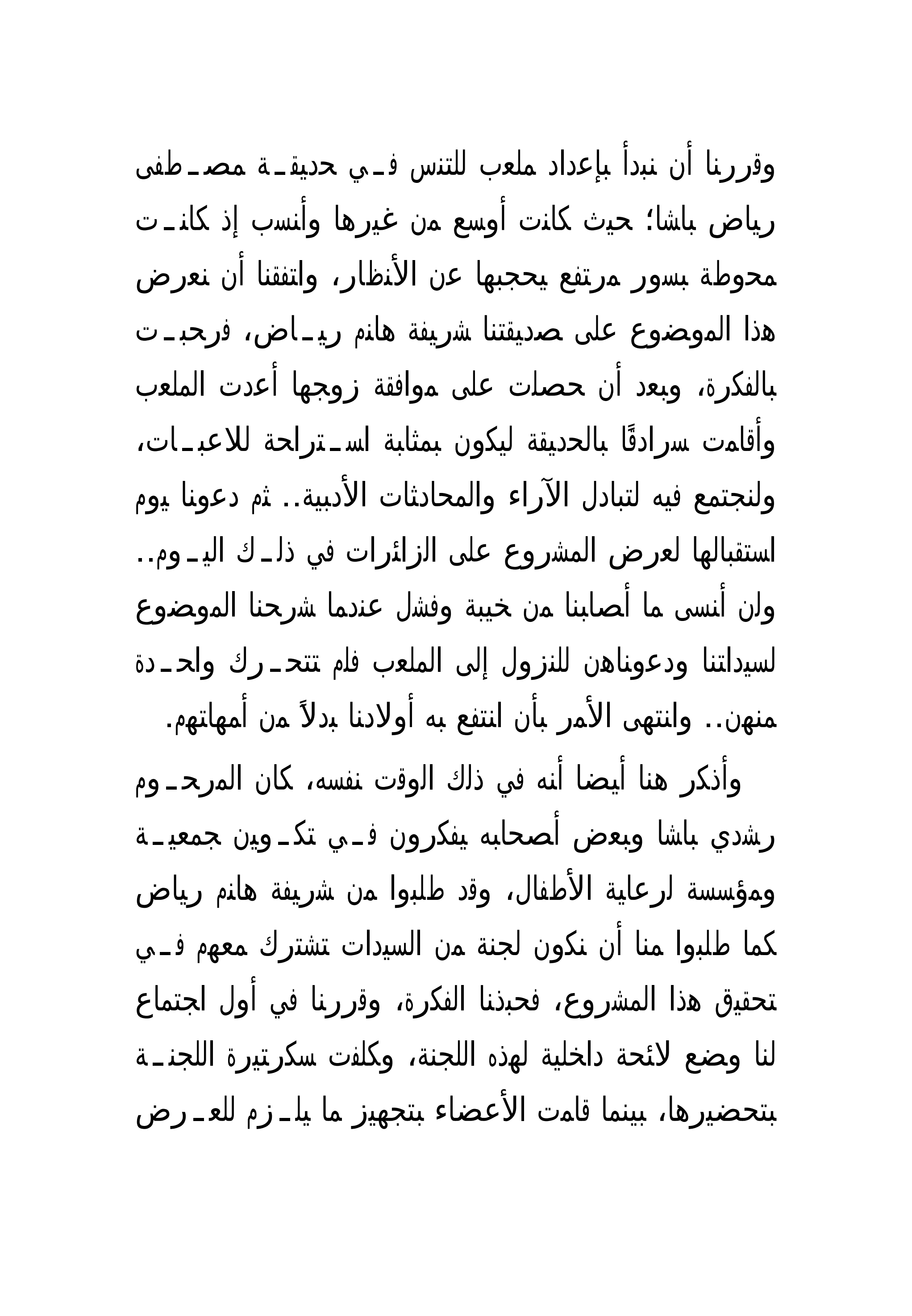
ثم أضافت: ومع كل ما قدمت من حديث، فإنني سعيدة وقريرة العين بحياتي الراهنة. وأكبر دليل على عدم أسفي

وامتزاجي بالأسرة المصرية إنني أعددت لي قبـرا بالإمـام بجانب قبر زوجي كي لا نفترق في الدنيا أو في الآخرة.

ونظرت إليها في دهشة، فإذا بها تقول أمـام صـاحباتها الفرنجيات: ألا تعلمين أني اعتنقت الـدين الإسـلامي منـذ زواجي من رشدي، وإنني الآن مسلمة وأريد أن أدفـن فـي مقابر المسلمين.. ولقد كتبت ذلك في وصيتي لأهلي.

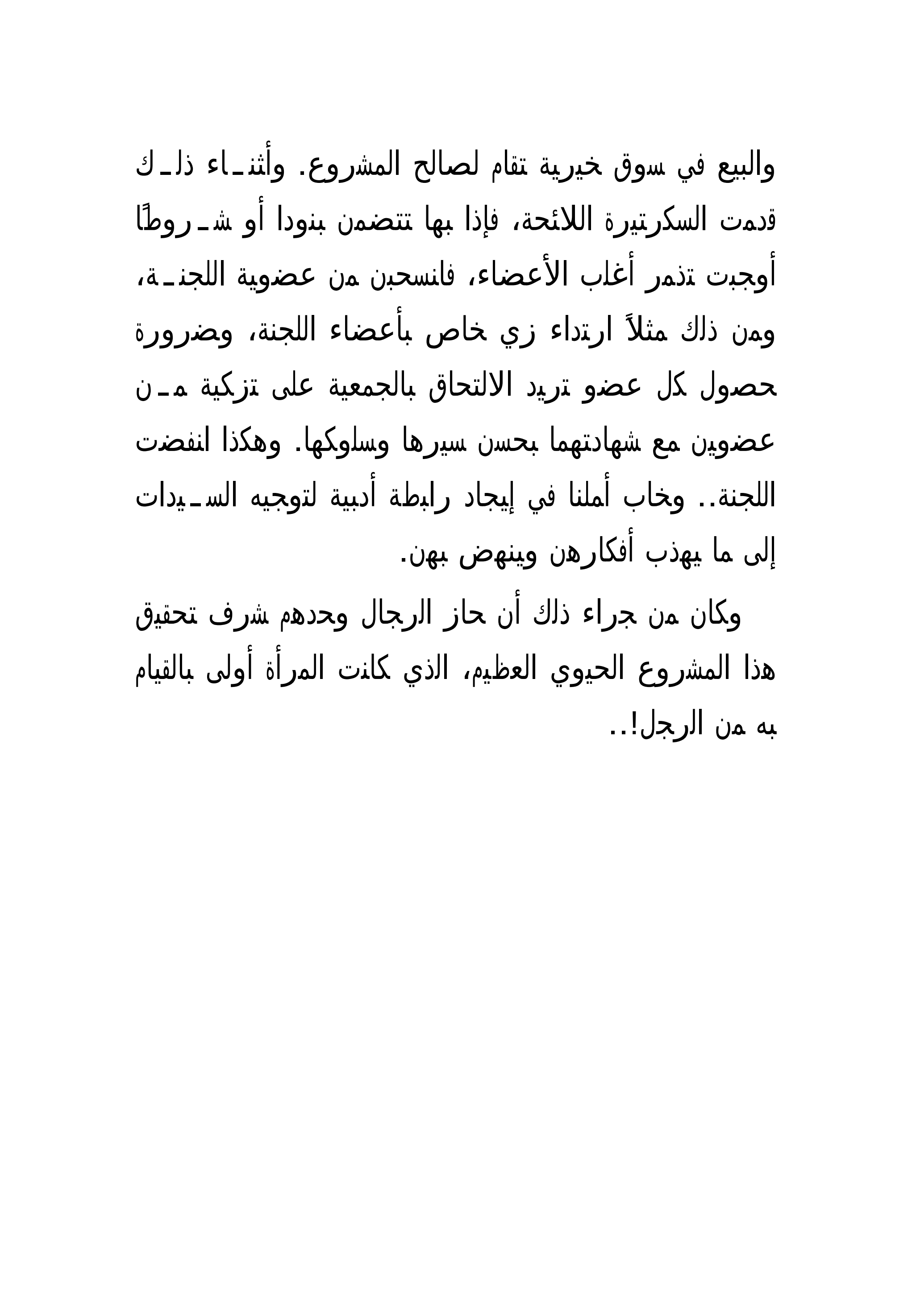
حقيقة أن صديقتي كانت وقتئذ الوحيدة بين الإفرنج التـي أمكنها أن تدرس وتتفهم وتقدر أخلاق المصريين وصفاتهم.. وكانت تعرف كثيرا من الأمثلة العربية الدارجـة، وتحـيط بكثير من العادات والتقاليد التي لا تعرفهـا كثيـرات مـن المصريات أنفسهن.

وكثيرا ما كنا نتريض في طريق الجيزة أو في حـدائقها. وكان يدور حديثنا غالبا حول البحث عن الطريقـة العمليـة المجدية للوصول إلى تحسين حال المرأة المصرية والترفيـه عنها. وقد استقر رأينا على أن نبدأ مشروعنا بتوجيه المـرأة إلى ممارسة الرياضة البدنية أولاً، وتنبيهها إلى خوض الحياة الاجتماعية وترغيبها في دراسة الفنون والآداب، وذلك بعقـد اجتماعات تجمع بين الرياضة الفكرية والرياضـة البدينـة..



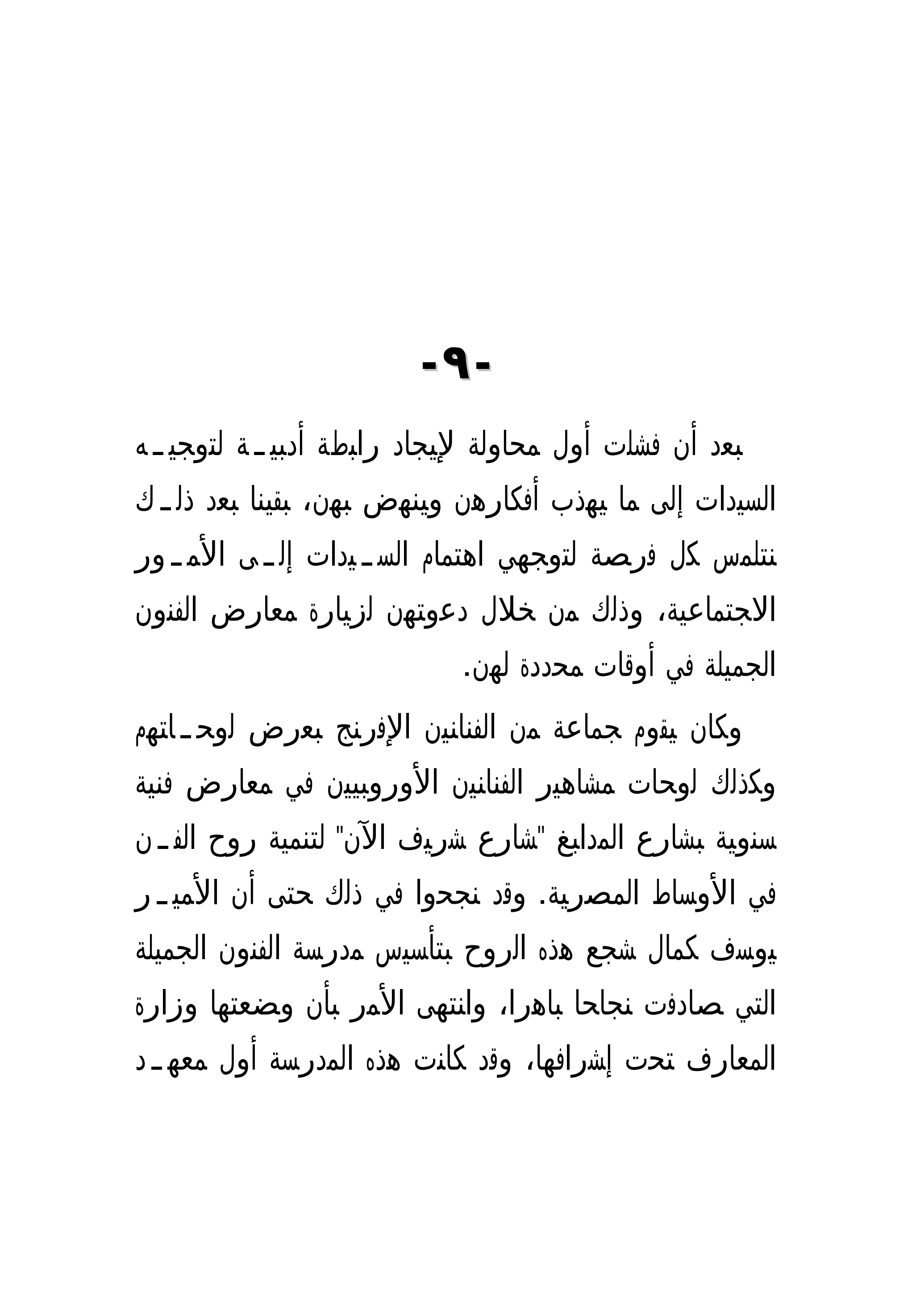
وقررنا أن نبدأ بإعداد ملعب للتنس في حديقة مصطفى رياض باشا؛ حيث كانت أوسع من غيرها وأنسب إذ كانت محوطة بسور مرتفع يحجبها عن الأنظار، واتفقنا أن نعرض هذا الموضوع على صديقتنا شريفة هانم رياض، فرحبت بالفكرة، وبعد أن حصلت على موافقة زوجها أعدت الملعب وأقامت سرادقًا بالحديقة ليكون بمثابة استراحة للاعبات، ولنجتمع فيه لتبادل الآراء والمحادثات الأدبية.. ثم دعونا يوم استقبالها لعرض المشروع على الزائرات في ذلك اليوم.. ولن أنسى ما أصابنا من خيبة وفشل عندما شرحنا الموضوع لسيداتنا ودعوناهن للنزول إلى الملعب فلم تتحرك واحدة منهن.. وانتهى الأمر بأن انتفع به أولادنا بدلاً من أمهاتهم.

وأذكر هنا أيضا أنه في ذلك الوقت نفسه، كان المرحوم رشدي باشا وبعض أصحابه يفكرون في تكوين جمعية ومؤسسة لرعاية الأطفال، وقد طلبوا من شريفة هانم رياض كما طلبوا منا أن نكون لجنة من السيدات تشترك معهم في تحقيق هذا المشروع، فحبذنا الفكرة، وقررنا في أول اجتماع لنا وضع لائحة داخلية لهذه اللجنة، وكلفت سكرتيرة اللجنة بتحضيرها، بينما قامت الأعضاء بتجهيز ما يلزم للعرض



والبيع في سوق خيرية تقام لصالح المشروع. وأثناء ذلك قدمت السكرتيرة اللائحة، فإذا بها تتضمن بنودا أو شروطًا أوجبت تذمر أغلب الأعضاء، فانسحبن من عضوية اللجنة، ومن ذلك مثلاً ارتداء زي خاص بأعضاء اللجنة، وضرورة حصول كل عضو تريد الالتحاق بالجمعية على تزكية من عضوين مع شهادتهما بحسن سيرها وسلوكها. وهكذا انفضت اللجنة.. وخاب أملنا في إيجاد رابطة أدبية لتوجيه السيدات إلى ما يهذب أفكارهن وينهض بهن.

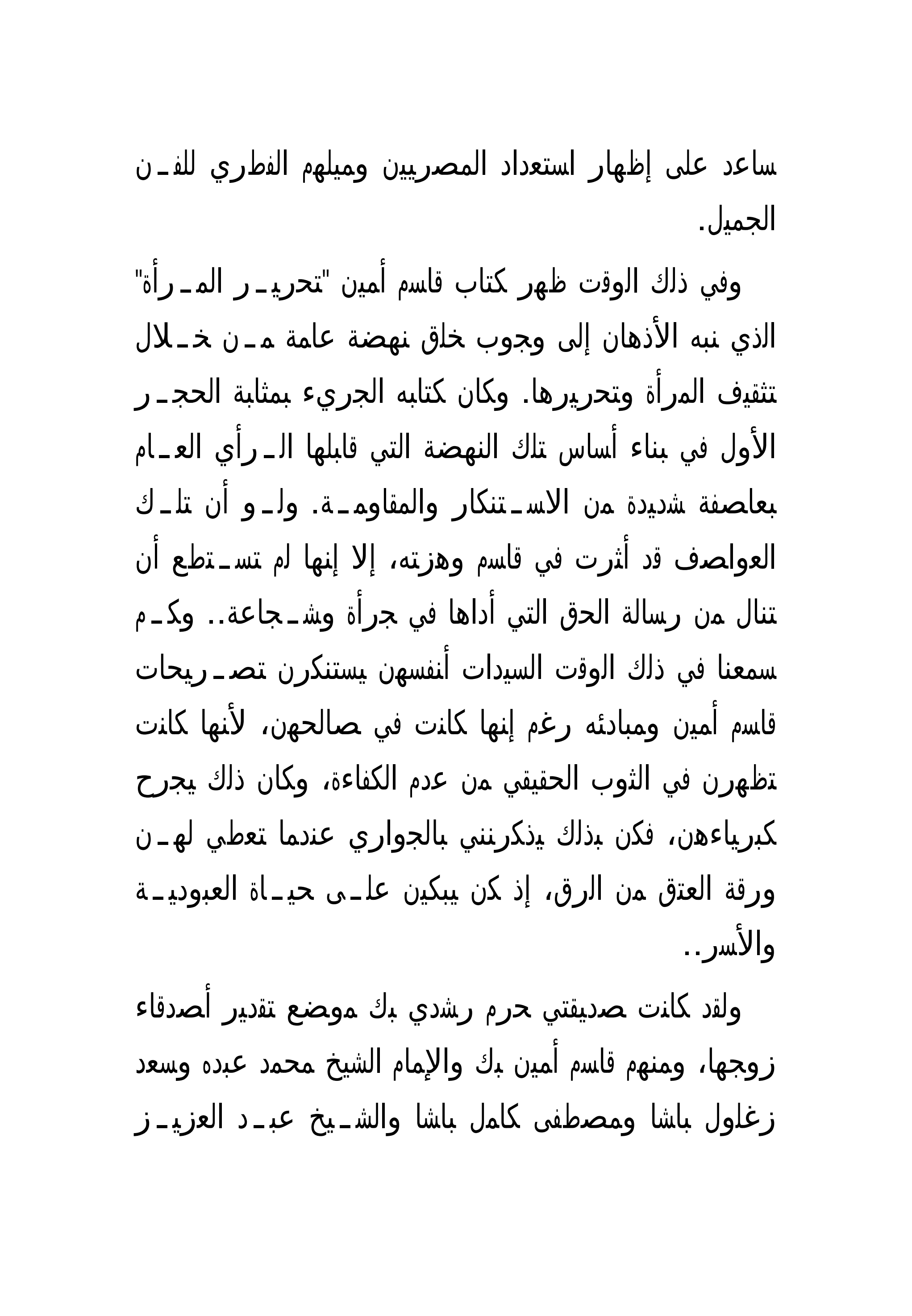
وكان من جراء ذلك أن حاز الرجال وحدهم شرف تحقيق هذا المشروع الحيوي العظيم، الذي كانت المرأة أولى بالقيام به من الرجل!..



-٩-

بعد أن فشلت أول محاولة لإيجاد رابطة أدبية لتوجيه السيدات إلى ما يهذب أفكارهن وينهض بهن، بقينا بعد ذلك نتلمس كل فرصة لتوجهي اهتمام السيدات إلى الأمور الاجتماعية، وذلك من خلال دعوتهن لزيارة معارض الفنون الجميلة في أوقات محددة لهن.

وكان يقوم جماعة من الفنانين الإفرنج بعرض لوحاتهم وكذلك لوحات مشاهير الفنانين الأوروبيين في معارض فنية سنوية بشارع المدابغ "شارع شريف الآن" لتنمية روح الفن في الأوساط المصرية. وقد نجحوا في ذلك حتى أن الأمير يوسف كمال شجع هذه الروح بتأسيس مدرسة الفنون الجميلة التي صادفت نجاحا باهرا، وانتهى الأمر بأن وضعتها وزارة المعارف تحت إشرافها، وقد كانت هذه المدرسة أول معهد



ساعد على إظهار استعداد المصريين وميلهم الفطري للفـن الجميل.

وفي ذلك الوقت ظهر كتاب قاسم أمين "تحريـر المـرأة" الذي نبه الأذهان إلى وجوب خلق نهضة عامة مـن خـلال تثقيف المرأة وتحريرها. وكان كتابه الجريء بمثابة الحجـر الأول في بناء أساس تلك النهضة التي قابلها الـرأي العـام بعاصفة شديدة من الاسـتنكار والمقاومـة. ولـو أن تلـك العواصف قد أثرت في قاسم وهزته، إلا إنها لم تسـتطع أن تنال من رسالة الحق التي أداها في جرأة وشـجاعة.. وكـم سمعنا في ذلك الوقت السيدات أنفسهن يستنكرن تصـريحات قاسم أمين ومبادئه رغم إنها كانت في صالحهن، لأنها كانت تظهرن في الثوب الحقيقي من عدم الكفاءة، وكان ذلك يجرح كبرياءهن، فكن بذلك يذكرنني بالجواري عندما تعطي لهـن ورقة العتق من الرق، إذ كن يبكين علـى حيـاة العبوديـة والأسر..

ولقد كانت صديقتي حرم رشدي بك موضع تقدير أصدقاء زوجها، ومنهم قاسم أمين بك والإمام الشيخ محمد عبده وسعد زغلول باشا ومصطفى كامل باشا والشـيخ عبـد العزيـز

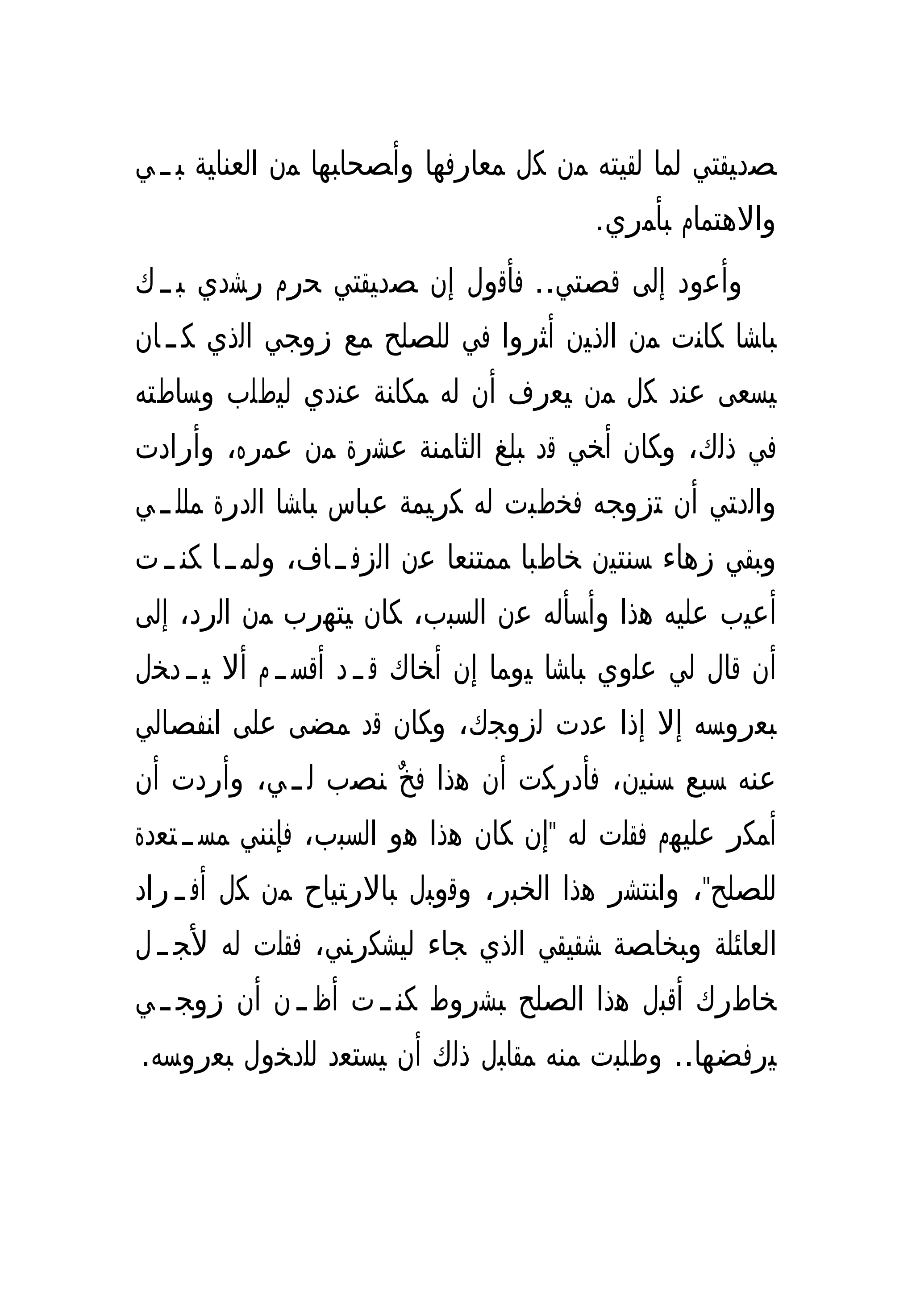
جاويش وغيرهم من رجالات مصر المعدودين، وكانت كثيرا ما تقص علي ما يدور بينها وبينهم من الحـديث، وكانـت تعجب بآراء قاسم أمين وشجاعته الأدبية، وفي الوقت نفسـه تأسف لعدم تقدير مواطنيه له إلا القليل من أصـدقائه، كمـا كانت تثري لتألمه من جحود مواطنيه لفضله وتخلي أصـدق أصدقائه ومؤيدي مبادئه عنه أثناء هبـوب العاصـفة التـي أثيرت ضده عندما صرح بآرائه في تحرير المرأة.

لقد كانت صديقتي حرم رشدي باشا المثل الأعلى للمـرأة المهذبة الكاملة، وكانت لا تطيق أن ترى أي سـوء تفـاهم أو بغضاء بين أصدقائها أو معارفها.. وكان لها التأثير الكبير علي في الصلح مع زوجي.

ولقد قدر لهذه السيدة أن تتلقى صدمات عائليـة وماديـة متتالية، فلم تقو على احتمال هذه الصدمات نظرا لما كانـت عليه من قلة المقاومة نتيجة مرض مزمن فضلاً عن إرهـاق نفسها بالأعمال، فأضعف كل ذلك قلبها الطيـب، وكـان أن مرضت وتوفيت إثر عملية جراحية أجريت لها في بـاريس في أكتوبر ١٩٠٨.

وقد علمت من زوجي الذي كان بباريس في تلك السـنة وقابلها هناك، إنني كنت شغلها الشاغل، وإنها كانت تعـرض عليها الأشياء لتي كلفتها بها وهي على سرير المرض. وكان هذا دليلاً على الاهتمام والصداقة والمحبة. وقد كتبت لي عند دخولها المستشفى تقول: "دخلت المستشفى لتجري لي عملية جراحية صغيرة، فلا تجزعي إذا وصلك نبأ خـاطئ بـأنني قد مت، ولا تبكي علي كما رأيتك تبكين عندما أشـيع خطـأ خبر وفاة الدكتور هيس".

وجاءت وفاتها بعد وفاة الزعيم المعروف مصطفى كامل باشا الذي كانت تقدره وتناصر آراءه، وكان مصطفى كامـل أصدق أصدقاء أخي، ثم لحق بهما قاسم أمين نصير المـرأة والصديق الحميم لسعد زغلول باشا ورشدي باشا، فخسـرت مصر ثلاثة من المجاهدين المخلصين في خدمـة قضـيتها. ومن غريب الصدف أن شقيقي رزئ في أعز صديق لديه في الوقت الذي رزئت فيه في أعز صديقاتي وأحبهن إلي، ومن شدة حزني عليها مرضت مرضا شديدا، أدى إلـى إذعـان زوجي أخيرا لمشورة الأطباء بسفرنا إلى الخارج للاستشفاء في فرنسا، وهناك أدركت هول الفاجعة التي لحقت بي بفقدان

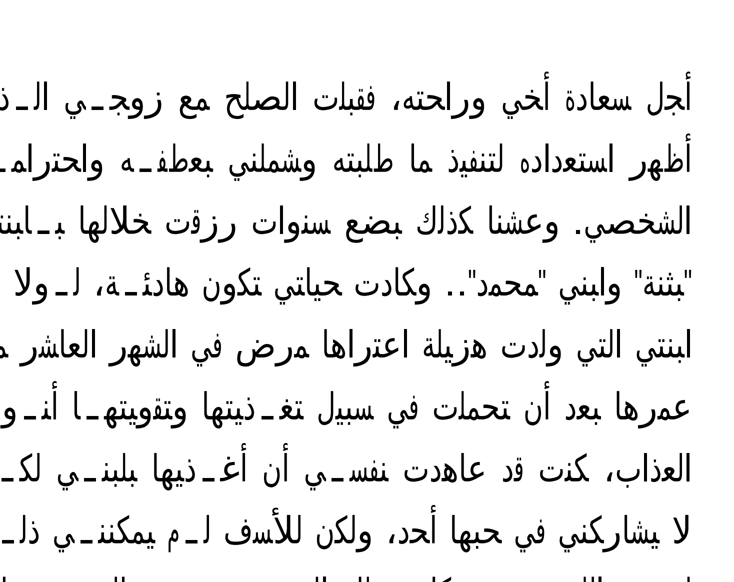


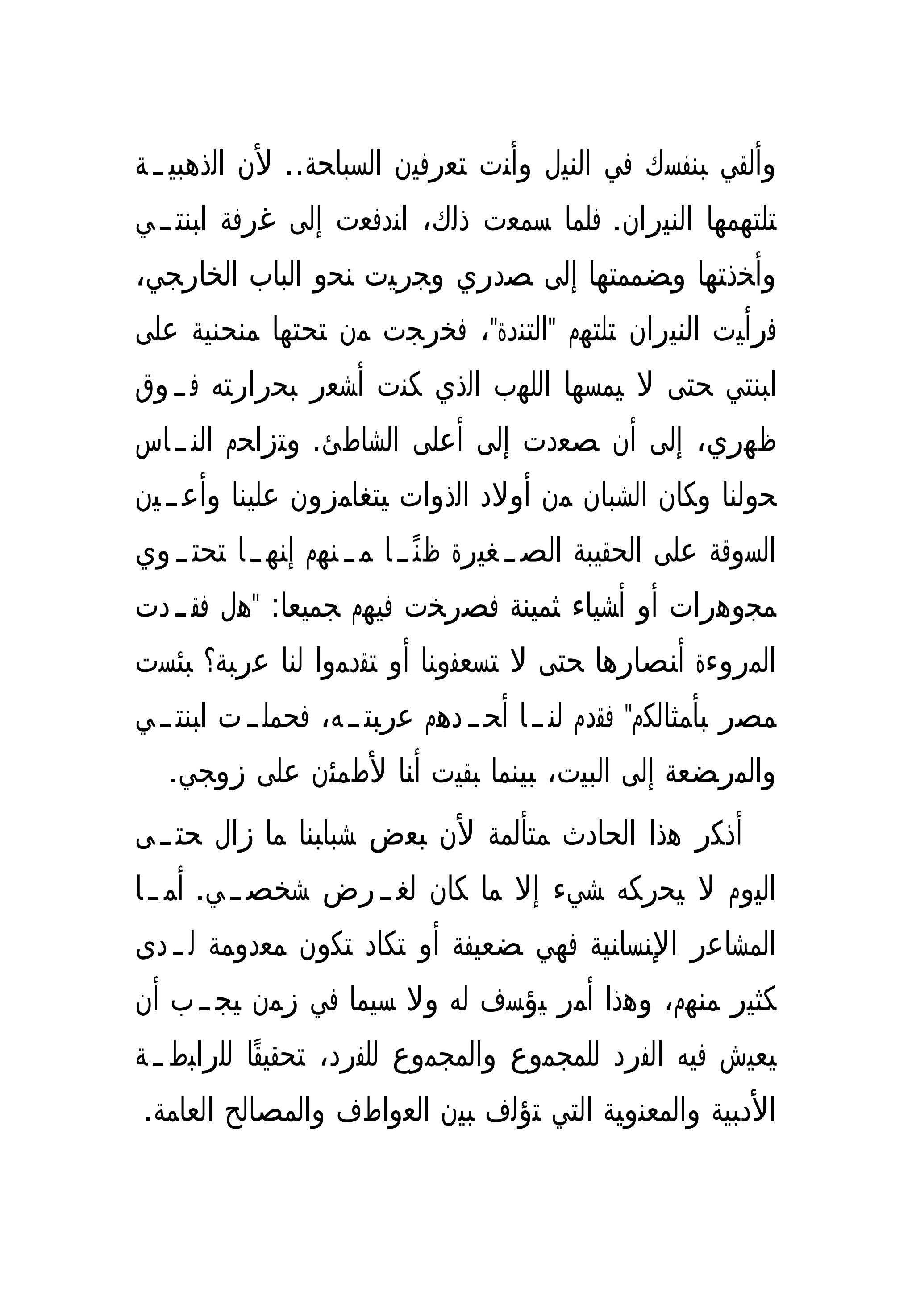
صديقتي لما لقيته من كل معارفها وأصحابها من العناية بي والاهتمام بأمري.

وأعود إلى قصتي.. فأقول إن صديقتي حرم رشدي بك باشا كانت من الذين أثروا في للصلح مع زوجي الذي كان يسعى عند كل من يعرف أن له مكانة عندي ليطلب وساطته في ذلك، وكان أخي قد بلغ الثامنة عشرة من عمره، وأرادت والدتي أن تزوجه فخطبت له كريمة عباس باشا الدرة ملاي وبقي زهاء سنتين خاطبا ممتنعا عن الزفاف، ولما كنت أعيب عليه هذا وأسأله عن السبب، كان يتهرب من الرد، إلى أن قال لي علوي باشا يوما إن أخاك قد أقسم ألا يدخل بعروسه إلا إذا عدت لزوجك، وكان قد مضى على انفصالي عنه سبع سنين، فأدركت أن هذا فخٌ نصب لي، وأردت أن أمكر عليهم فقلت له "إن كان هذا هو السبب، فإنني مستعدة للصلح"، وانتشر هذا الخبر، وقوبل بالارتياح من كل أفراد العائلة وبخاصة شقيقي الذي جاء ليشكرني، فقلت له لأجل خاطرك أقبل هذا الصلح بشروط كنت أظن أن زوجي يرفضها.. وطلبت منه مقابل ذلك أن يستعد للدخول بعروسه.

واستقر رأي أخي على القيام بالاستعدادات اللازمة. وكان يفضل أن يتم الزفاف دون طنطنة أو حفلات، وأن تعطي المبالغ التي ستصرف للفقراء والمعوزين. وقلت له ما دام في إمكانك عمل هذا وذاك ففي الأمرين صدقة، لأنك بإقامة الأفراح ستحسن إلى الكثيرين من العمال المساكين كالفراشين والطهاة وستطعم الفقراء، فتصدق وأقم أفراحا تتحدث بجمالها وروعتها الناس أعواما طويلة. فضحك لقولي هذا، ووعدني بتنفيذ رغباتي، وقد نفذها فعلاً، وقد وصف ليالي الفرح صديقنا شاعر القطرين خليل بك مطران في افتتاحية العدد الثالث والعشرين من المجلة المصرية الصادر يوم أول مايو ١٩٠٢.

وبعد أن تزوج شقيقي، ظننت إنني وفقت إلى لعب الدور الذي أردته، وأنه سيمكنني بعد ذلك أن أماطل حتى يسأم زوجي كثرة المماطلة ويكف عن المطالبة برجوعي إليه فيتركني وشأني، ولكني رأيت مع الأسف أن بقائي في المنزل سيكون سببا في شقاء أخي، لأنني لاحظت أن زوجته لم تكن تنظر بعين الرضا إلى كثرة زياراته لي وعطفه الكبير علي، فرأيت من الواجب علي أن أضحي بنفسي من


أجل سعادة أخي وراحته، فقبلت الصلح مع زوجي الذي أظهر استعداده لتنفيذ ما طلبته وشملني بعطفه واحترامه الشخصي. وعشنا كذلك بضع سنوات رزقت خلالها بابنتي "بثنة" وابني "محمد".. وكادت حياتي تكون هادئة، لولا أن ابنتي التي ولدت هزيلة اعتراها مرض في الشهر العاشر من عمرها بعد أن تحملت في سبيل تغذيتها وتقويتها أنواع العذاب، كنت قد عاهدت نفسي أن أغذيها بلبني لكي لا يشاركني في حبها أحد، ولكن للأسف لم يمكنني ذلك لشرود اللبن مني. وكانت تلك السنة شحيحة بالمرضعات فالتزمنا تغييرهن الواحدة بعد الأخرى. وكان أن ساءت صحة طفلتي وبخاصة بعد أن انتابتها حمى شديدة، وقد اختلاف الأطباء حول حقيقة مرضها، وإن كانوا قد اتفقوا على ضرورة تغيير الهواء لها، ولكن والدها كان يكره التنقل لكثرة مشاغله، فاستحسن أن نأخذها إلى "الذهبية" التي كانت راسية بجانب الجزيرة الصغيرة. وبعد أن وصلنا وذهبت المرضعة بالطفلة إلى فراشها في آخر الذهبية، بينما كنت أتهيأ لخلع إزاري. إذا بنور شديد يملأ الأرجاء، وإذا بزوجي يندفع في اللحظة نفسها ممتقع الوجه قائلاً: اخرجي حالاً



وألقي بنفسك في النيل وأنت تعرفين السباحة.. لأن الذهبيـة تلتهمها النيران. فلما سمعت ذلك، اندفعت إلى غرفة ابنتـي وأخذتها وضممتها إلى صدري وجريت نحو الباب الخارجي، فرأيت النيران تلتهم "التندة"، فخرجت من تحتها منحنية على ابنتي حتى لا يمسها اللهب الذي كنت أشعر بحرارته فـوق ظهري، إلى أن صعدت إلى أعلى الشاطئ. وتزاحم النـاس حولنا وكان الشبان من أولاد الذوات يتغامزون علينا وأعـين السوقة على الحقيبة الصـغيرة ظنًـا مـنهم إنهـا تحتـوي مجوهرات أو أشياء ثمينة فصرخت فيهم جميعا: "هل فقـدت المروءة أنصارها حتى لا تسعفونا أو تقدموا لنا عربة؟ بئست مصر بأمثالكم" فقدم لنـا أحـدهم عربتـه، فحملـت ابنتـي والمرضعة إلى البيت، بينما بقيت أنا لأطمئن على زوجي.

أذكر هذا الحادث متألمة لأن بعض شبابنا ما زال حتـى اليوم لا يحركه شيء إلا ما كان لغـرض شخصـي. أمـا المشاعر الإنسانية فهي ضعيفة أو تكاد تكون معدومة لـدى كثير منهم، وهذا أمر يؤسف له ولا سيما في زمن يجـب أن يعيش فيه الفرد للمجموع والمجموع للفرد، تحقيقًا للرابطـة الأدبية والمعنوية التي تؤلف بين العواطف والمصالح العامة.

وعندما عدت إلى البيت. ولن أنسى تلك الليلـة المفزعـة الرهيبة التي قضيتها بجنب ابنتي الحبيبة بين اليأس والرجاء، إلى أن جاء الدكتور هيس في الصباح. وعندما رآها، ارتمى على الكرسي وهو يقول: الحمد   .. إنها لا تزال على قيـد الحياة.

وأذكر أن الدكتور هيس كان طيب القلب، كريم الـنفس، يحب الأطفال الذين خرجوا إلى نور الحياة على يديه محبـة الوالد العطوف على أولاده. كذلك فإنني أذكر له بالشكر دائما خدماته الإنسانية كلما كنت أقصده في عيادته بعض الفقـراء في بيوتهم وأكواخهم، فقد كان يلبي طلبي في أية ساعة مـن الليل أو النهار، وأكثر من ذلك أنه كثيرا ما كان يـدفع مـن جيبه ثمن الأدوية إذا لمس فقرهم وعجزهم عن شرائها.

وقد ظلت ابنتي تعاني من ضعف شديد لعـدة سـنوات. وكانت كلما أصيبت بمرض شديد اشتدت وطأته عليها بسبب ضعفها. وفي كل مرة كان الأطباء يشيرون علي بضـرورة سفرها إلى أوربا لاعتقادهم بأن تغيير الهواء يفيـدها وكـان والدها يرفض رفضا باتًا إلى أن ساءت حالة ابنتي ذات مرة وعيل صبري، فهددت زوجي بالافتراق عنه إذا تسبب عـن

رفضه هذا وفاة ابنتي دون أن نقضي على هذه المصيبة. وانتهى الأمر أن أذن لي بالسفر إلى الآستانة.

كانت هذه هي أولى أسفارنا للخارج. وقد سافر معنا الباشا لتوصيلنا على باخرة روسية صغيرة اسمها "تزاريستا" وقد بدأت صحة "بثنة" تتحسن منذ ثاني يوم لوجودنا على المركب، فأخذت تجري هنا وهناك ويلاطفها جميع الركاب.

وكنت أتوق لرؤية تركيا لما كنت أسمعه عن جمال الطبيعة ورفاهية الحياة فيها. وقد صادف وصولنا غروب الشمس وفي بوغاز استنابول الجميل كانت الشمس تلقي بأشعتها الجميلة الأخيرة على "قرن الذهب" فتنعكس تلك الأشعة على المآذن البيضاء وقباب المساجد الكبيرة فوق بساط سندسي من الخضرة.

وكان بشير آغا قد استأجر لنا منزلاً على الطريق المرتفع اتقاء تأثير الرطوبة في صحة الطفلة وبناء على طلب الطبيب فقد ركبنا إليه عربة مغطاة بخيمة صغيرة من تلك التي يطلق عليها اسم عربات المهاجرين "مهاجر عربة س". ولم تستطع العربة أن تواصل بنا الطريق فصعدنا أكثر من نصفه على أقدامنا حتى وصلنا المرتفع "البقوش"؛ حيث كان البيت،

وكنت أظن إنني سأجد فيه كل أسباب الراحة، ولذلك شد مـا كان تأثري عندما وجدته بيتًا له حديقة صغيرة وكدت أتركه في الحال لولا وجود ابنتي ووالدتي معي، ولذلك رأيـت أن نقضي به الليلة وفي نيتي أن أغادره عنـد طلـوع الشـمس لأبحث بنفسي عن منزل آخر أفضل منه. ولكن ما أن بـزغ الفجر حتى رأيت منظرا من أبدع المناظر الطبيعيـة التـي رأتها عيناي فقد رأيت البوسفور ممتدا أمامي في شكل شريط تحده من الجانبين مرتفعات مكسوة بالخضرة وتتناثر عليهـا أكشاك صغيرة مغطاة بالجمالون الأحمر أو الأسود وتتخللها قصور بيضاء أعدت دورا للسفارات الأجنبية علـى شـكل نصف دائرة تطل على المضيق الموصل للبحـر الأسـود. كذلك رأيت المنزل محوطًا بحديقة لطيفـة تحـوي أشـجارا مثمرة أو مزهرة، وقد ذكرتني شجرة منها محملة بالمشـمش بتلك الشجرة التي كنت أحبها في منزل والـدي، واقتلعوهـا بسبب زفافي!..

وتبين لي أن هذا المنزل هو أفضل منزل فـي المنطقـة المرتفعة وقد وطنت نفسي على البقاء فيه وبدأت أنظمه قدر المستطاع، وغادرنا الباشا للرجوع على الباخرة نفسها عنـد

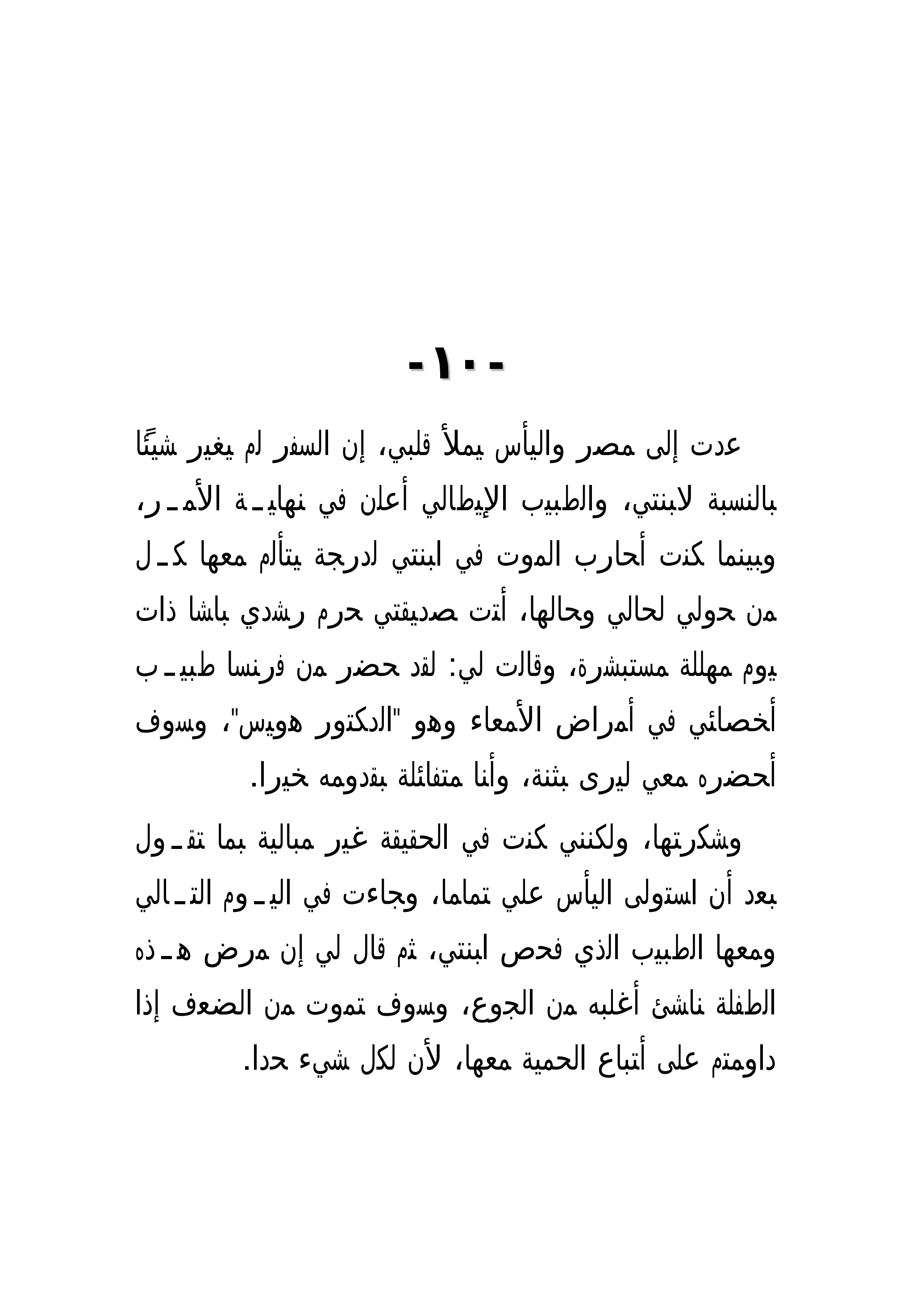
عودتها. وبقيت مع والدتي وابنتي وسيدة شركسية من معاتيق الخديوي إسماعيل باشا أبت إلا أن ترافقني في رحلتي بعد أن رفضت خادمتي أن تصحبني لأن لها ولدا لا يمكنها أن تبتعد عنه زمنًا طويلاً. ولقد أفادتني هذه السيدة كثيرا وقدمت لـي خدمات كبيرة لا أنساها. وكان اسمها "مهرماه هانم" وكانـت كبيرة قالغوات "وصيفات" سراي إسماعيل باشـا.. وكانـت حائزة رتبة باشجاويش، ووظيفتها في الحفلات والمواسـم أن تسير أمام والدة باشا وبيدها صولجان طويل. وعندما تـدخل الوالدة غرفة استقبالها وتجلس تلقي أمامها مهرماه هانم خطبة التعظيم المعتادة، ثم تقف إلى جانبها.

كانت هذه السيدة تتردد علينا وتحب ابنتي كثيـرا ولكـن حبها تحول كلية بعد ذلك إلى ابني "محمـد" حتـى صـارت تزاحمني في حبه.

وقد بقينا في استنابول ببيوك دره ثلاثة أشهر، وكان يعالج ابنتي طوال هذه المدة طبيب إيطالي اختصاص في أمـراض الأطفال. ورغم أنه كان ذائع الصيت، فـإن ابنتـي كانـت تتحسن فترة، ثم لا تلبث أن تسوء أضعاف هذه الفترة، ولذلك أمضيت فترة وجودي في استانبول دون أن أحظـى برؤيـة

آثارها ومعالمها، وأذكـر إنني لـم أنـزل إلـى المدينـة إلا مرة أو اثنتين لشراء بعض لوازمنا الضرورية، وقد لفت نظري تزاحم الكلاب في الشوارع والأزقة لدرجـة يتعطـل معها السير، وعندما سألت عن سر هذه الظاهرة العجيبة، قيل لي أن الخليفة يحمي هذه الكلاب ويتبرك بها، ولذلك أجـرى عليها راتبا خاصا من الجراية. كذلك فقد استرعى انتبـاهي السوق الكبيرة "أوزوث جارشي" وهي تشـبه سـوق خـان الخليلي في مصر، وكنا نرى السيدات التركيات يجبن السوق في المآزر الحريرية المختلفة الألوان وعلى وجوههن النقاب الأسود.

وعندما رأيت أنه لا فائدة من إطالة البقاء، رجعـت إلـي وطني وأنا أكثر بؤسا مني عند السفر إلى تركيا التي غادرتها دون أن أعرف عنها أكثر من بيوك دره والبوسفور، وأذكـر هنا أن الطبيب الإيطالي الذي كان يعالج ابنتي هناك، رفض أن يتقاضى أتعابا لأنه لم يوفق لشفائها، فوضعت النقود فـي جيبه عند نزوله من المركب دون أن يشعر؛ حيث كان قـد أتى ليوصلنا إلى الباخرة.



-١٠-

عدت إلى مصر واليأس يملأ قلبي، إن السفر لم يغير شيئًا بالنسبة لابنتي، والطبيب الإيطالي أعلن في نهايـة الأمـر، وبينما كنت أحارب الموت في ابنتي لدرجة يتألم معها كـل من حولي لحالي وحالها، أتت صديقتي حرم رشدي باشا ذات يوم مهللة مستبشرة، وقالت لي: لقد حضر من فرنسا طبيـب أخصائي في أمراض الأمعاء وهو "الدكتور هويس"، وسوف أحضره معي ليرى بثنة، وأنا متفائلة بقدومه خيرا.

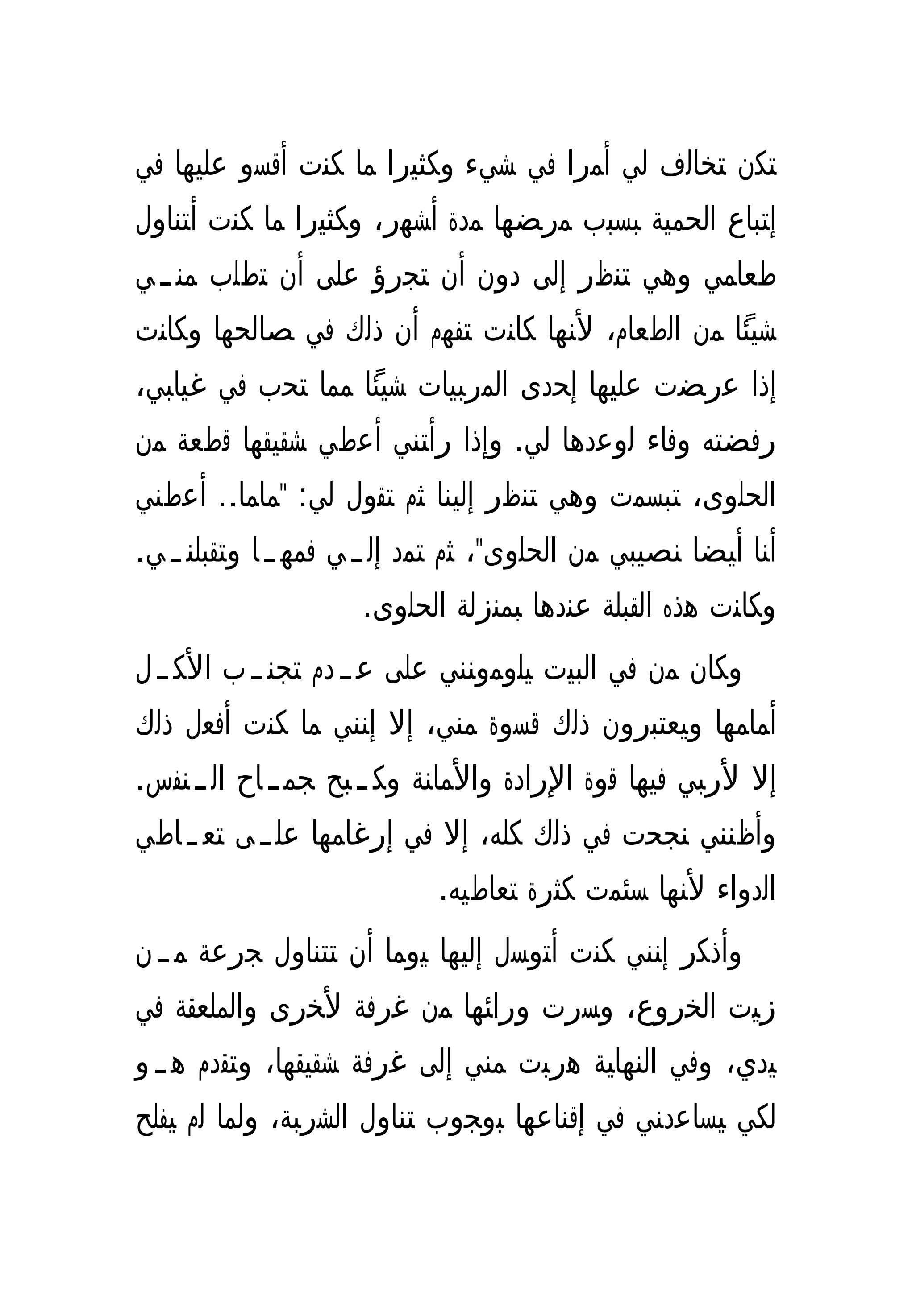
وشكرتها، ولكنني كنت في الحقيقة غير مبالية بما تقـول بعد أن استولى اليأس علي تماما، وجاءت في اليـوم التـالي ومعها الطبيب الذي فحص ابنتي، ثم قال لي إن مرض هـذه الطفلة ناشئ أغلبه من الجوع، وسوف تموت من الضعف إذا داومتم على أتباع الحمية معها، لأن لكل شيء حدا.

ولا أستطيع أن أنسى منظرها في هذه اللحظة وهي تتطلع إلى الطبيب بابتسامة شاحبة هزيلة.

وسألني الطبيب عن تلك الأمراض التي اعترتها من يـوم ولادتها. ولما عرف بأمر الحمى التي كانت تعتريها، قـال: لا شك في أن الملاريا هي التي تسبب كل هذه المضاعفات. ووصف لها العلاج اللازم للملاريا، وأمـر بتغـذيتها، وقـد نجحت طريقته وصرت ألجأ إلى إتباعها كلما اقتضى الحال.

بقيت كذلك مع ابنتي حتى بلغت السادسة مـن عمرهـا. وانقطعت عن كل شيء طوال هذه المـدة تفرغًـا لعلاجهـا ومحاربة الموت فيها. فانفضت بعض صديقاتي من حـولي وغضب بعضهن الآخر لانقطاعي عنهن. وكن ينـادينني "أم بثنة" رغم إنني رزقت بولدي "محمد" بعد ولادتهـا بسـنتين ونصف سنة.

كذلك فقد كنت أرى زوجي يمتعض أحيانًا لانشغالي عنه بابنتي التي كنت مجنونة بها، وكان يخيل إلي إنها إذا ماتـت فإنني لابد أن أموت معها حزنًا عليها، وتعلقت بـي الطفلـة وأحبتني لدرجة إنها كانت لا تحتمل البعد عني دقائق، حتـى كان يضرب بحبنا المثل في البيت، ومن شدة حبها لي، لـم



تكن تخالف لي أمرا في شيء وكثيرا ما كنت أقسو عليها في إتباع الحمية بسبب مرضها مدة أشهر، وكثيرا ما كنت أتناول طعامي وهي تنظر إلى دون أن تجرؤ على أن تطلب مني شيئًا من الطعام، لأنها كانت تفهم أن ذلك في صالحها وكانت إذا عرضت عليها إحدى المربيات شيئًا مما تحب في غيابي، رفضته وفاء لوعدها لي. وإذا رأتني أعطي شقيقها قطعة من الحلوى، تبسمت وهي تنظر إلينا ثم تقول لي: "ماما.. أعطني أنا أيضا نصيبي من الحلوى"، ثم تمد إلي فمها وتقبلني. وكانت هذه القبلة عندها بمنزلة الحلوى.

وكان من في البيت يلومونني على عدم تجنب الأكل أمامها ويعتبرون ذلك قسوة مني، إلا إنني ما كنت أفعل ذلك إلا لأربي فيها قوة الإرادة والأمانة وكبح جماح النفس. وأظنني نجحت في ذلك كله، إلا في إرغامها على تعاطي الدواء لأنها سئمت كثرة تعاطيه.

وأذكر إنني كنت أتوسل إليها يوما أن تتناول جرعة من زيت الخروع، وسرت ورائها من غرفة لأخرى والملعقة في يدي، وفي النهاية هربت مني إلى غرفة شقيقها، وتقدم هو لكي يساعدني في إقناعها بوجوب تناول الشربة، ولما لم يفلح

هو أيضا، قال لها بلطف: "انظري يا أبلة بثنة كيف يمكنني أن أشرب الشربة دون امتعاض وظننته يمزح، فقربت الملعقة من فمه، وكم كانت دهشتي؛ إذ شربها دون تردد لتحذو أخته حذوه. فأكبرت فيه روح التضحية وهو أصغر منها سنًا.. ومع ذلك فإنها لم تشرب الشربة!.

ولقد ربيت ابنتي وابني عن طريق الإقناع، فلم أنهرهما أبدا وأستعمل الغلظة معهما حتى ولو وقع من أحدهما خطأ يستوجب ذلك؛ بل كنت أحاول إقناعه بخطئه في لطف حتى يقتنع ويشعر بشيء من الخجل فلا يأتيه ثانية من نفسه، وبذلك أمكنني أن أبث فيهما روح تقدير المسئولية وتحملها بأهداب الأمانة والصدق، وقد شبا على هذه الصفات وتطبعا بهذه الفضائل، وشجعني ذلك على المضي في هذه الطريقة التربوية الصحيحة التي لا تتطلب من الأم إلا قليلاً من الصبر والتفرغ لأقدس الواجبات.

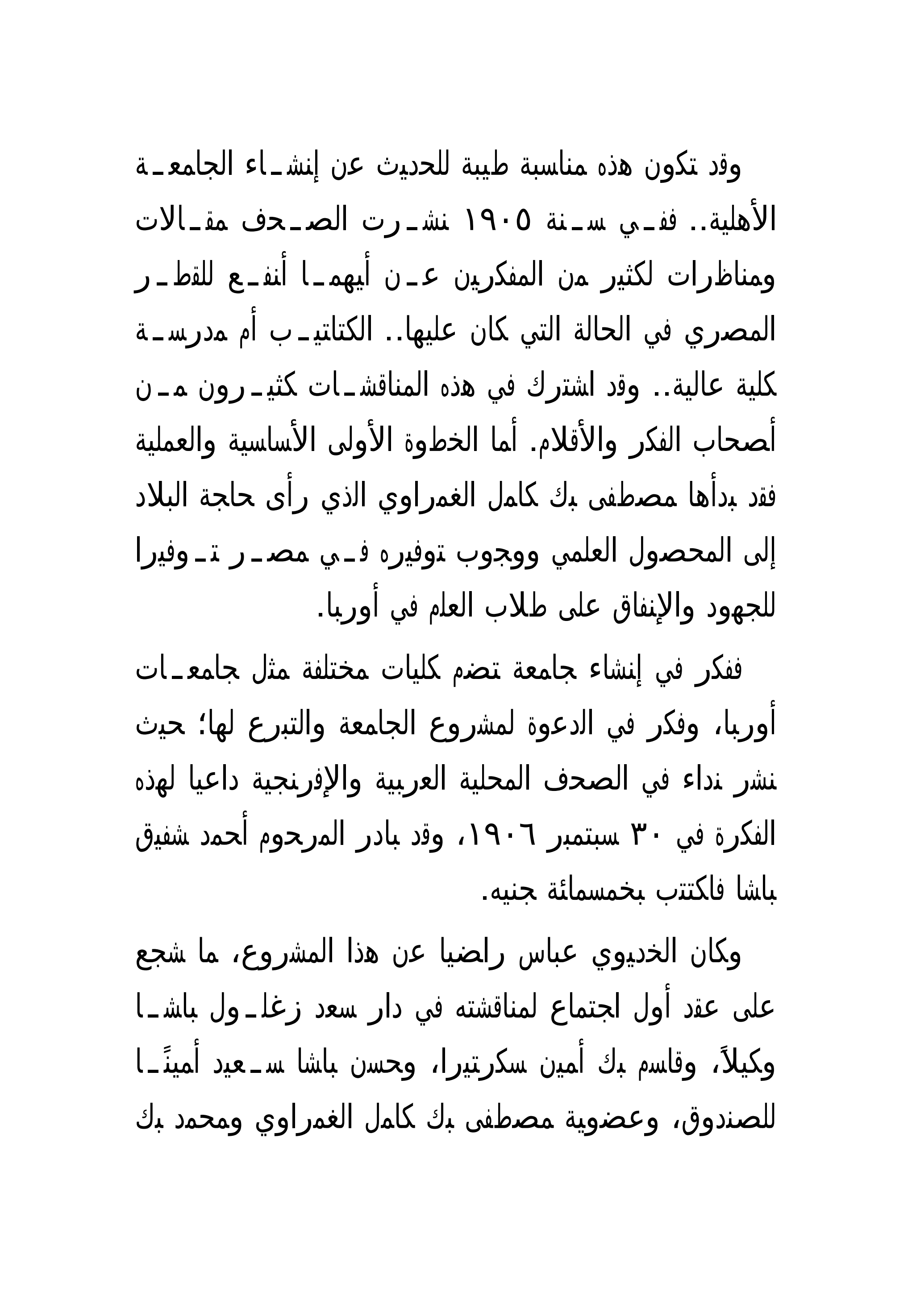
بعد أن تحسنت صحة ابنتي واطمأننت عليها على أخيها. وبدآ حياتهما الدراسية، أخذت أعود إلى حياتي الأولى من مخالطة صديقاتي، وبخاصة بعد وفاة صديقتي مدام رشدي باشا التي كنت أعتمد عليها في كثير من أموري والتي كانت

تملأ الفراغ الذي أحدثه ابتعادي عن الناس لانشغالي بابنتي، وقد اضطررت إزاء ذلك أن أعتمد على نفسي، وألا أنتظـر من أحد أي معونة.

وفي هذه الأثناء، حضرت من أوربا آنسة فاضلة تـدعى "مدموازيل مارجريت كليمان" وقد مرت بمصر في طوافهـا حول العالم منتدبة من نادي السياحة لمؤسسة كازنيجي، وقد أرسلها إلي صديقنا المرحوم علي بك بهجت؛ حيث أرادت أن تتعرف بسيدات مصريات، فقمت بواجبي نحوهـا ودعوتهـا ذات ليلة إلى الأوبرا الخديوية، وبينما كانت تحـدثني عـن جولاتها والخطب التي كانت تلقيها في مختلف البلاد، سألتني عما إذا كانت سيداتنا يتلقين محاضرات أو يحضـرنها، فلـم يمكنني إلا مصارحتها بالحقيقة وهي أن شيئًا من ذلـك لـم يحدث بعد، وسألتها أن تلقي علينا محاضـرة عـن المـرأة الشرقية والغربية في مسألة الحجاب، فقبلت على أن تكـون المحاضرة تحت رئاسة إحدى السيدات الكبيرات سنًا ومقاما، لأن سني إذ ذاك لم تكن تسمح بذلك.

فوعدتها بالبحث غير آملة في إقناع والدتنا بترؤس هـذه الحفلة، ولكن ساعدني الحظ في تلك الليلة نفسها، إذ قابلـت

وأنا خارجة من مقصورتي "الأميرة عين الحياة أحمد"، وكنت أحبها وتحبني، فتقدمت إليها وعرضـت عليهـا المشـروع ورجوتها أن تقبل رئاسة الاجتماع، فقبلت من غيـر تـردد وأخذت على عاتقي إيجاد القاعة المناسـبة وإعـداد تـذاكر الدعوة وتوزيعها بأسرع ما يمكن، وعندما عدت إلى المنزل عرضت الأمر على زوجي فاستصوب أن يكون الاجتمـاع في إدارة "الجريدة" أو بإحدى صالات الجامعة التي كانت في منزل خيري باشا "الجامعة الأمريكيـة الآن"، وقـد فضـلت الأخيرة وطلبناها من المرحوم علوي باشا وتحدد للاجتمـاع يوم الجمعة ١٥ يناير ١٩٠٩ لتكون الجامعـة خاليـة مـن المعلمين والطلبة، وكانت الجامعة إذ ذاك تحت رئاسة سـمو الأمير أحمد فؤاد "الملك فؤاد فيما بعد"، وكانـت هـذه أول محاضرة ألقيت على جمـع مـن السـيدات فـي الجامعـة المصرية، وقد لقيت نجاحا وتقديرا شجعاني على أن أطلـب من "الآنسة كليمان" أن تعود إلينا بعد ذلـك لتلقـي سلسـلة محاضرات مفيدة على سيداتنا، وبخاصة بعد أن رتب سـمو الأمير محاضرات خاصة للسيدات في أيام الجمع.



وقد تكون هذه مناسبة طيبة للحديث عن إنشاء الجامعة الأهلية.. ففي سنة ١٩٠٥ نشرت الصحف مقالات ومناظرات لكثير من المفكرين عن أيهما أنفع للقطر المصري في الحالة التي كان عليها.. الكتاتيب أم مدرسة كلية عالية.. وقد اشترك في هذه المناقشات كثيرون من أصحاب الفكر والأقلام. أما الخطوة الأولى الأساسية والعملية فقد بدأها مصطفى بك كامل الغمراوي الذي رأى حاجة البلاد إلى المحصول العلمي ووجوب توفيره في مصر توفيرا للجهود والإنفاق على طلاب العلم في أوربا.

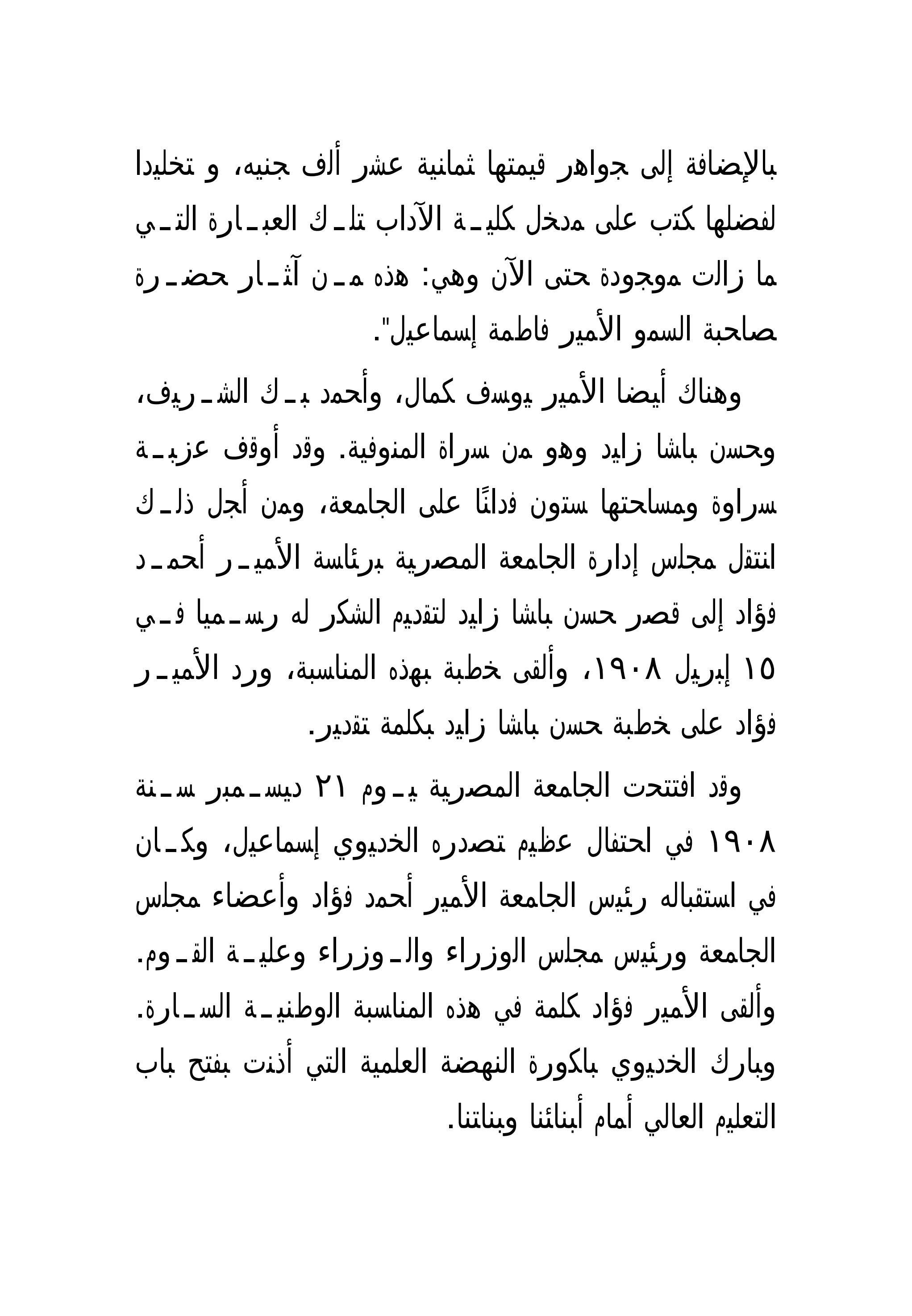
ففكر في إنشاء جامعة تضم كليات مختلفة مثل جامعات أوربا، وفكر في الدعوة لمشروع الجامعة والتبرع لها؛ حيث نشر نداء في الصحف المحلية العربية والإفرنجية داعيا لهذه الفكرة في ٣٠ سبتمبر ١٩٠٦، وقد بادر المرحوم أحمد شفيق باشا فاكتتب بخمسمائة جنيه.

وكان الخديوي عباس راضيا عن هذا المشروع، ما شجع على عقد أول اجتماع لمناقشته في دار سعد زغلول باشا وكيلاً، وقاسم بك أمين سكرتيرا، وحسن باشا سعيد أمينًا للصندوق، وعضوية مصطفى بك كامل الغمراوي ومحمد بك

عثمان أباظة ومحمد بك راسم وحسن بك جمجـوم وحسـن باشا السيوفي وغيرهم. وكان المعتمـد البريطـاني اللـورد كرومر يحارب كل ما من شأنه تقدم البلاد، فنادى بأن تعميم التعليم الابتدائي أهم من ذلك، وأن الأمة أحوج إليه من التعليم الجامعي، بل إنه ذهب في محاربة المشروع إلى حد تعيـين سعد زغلول باشا وزيرا للمعارف بقصد إبعاده عن الاشتغال بأمر الجامعة.

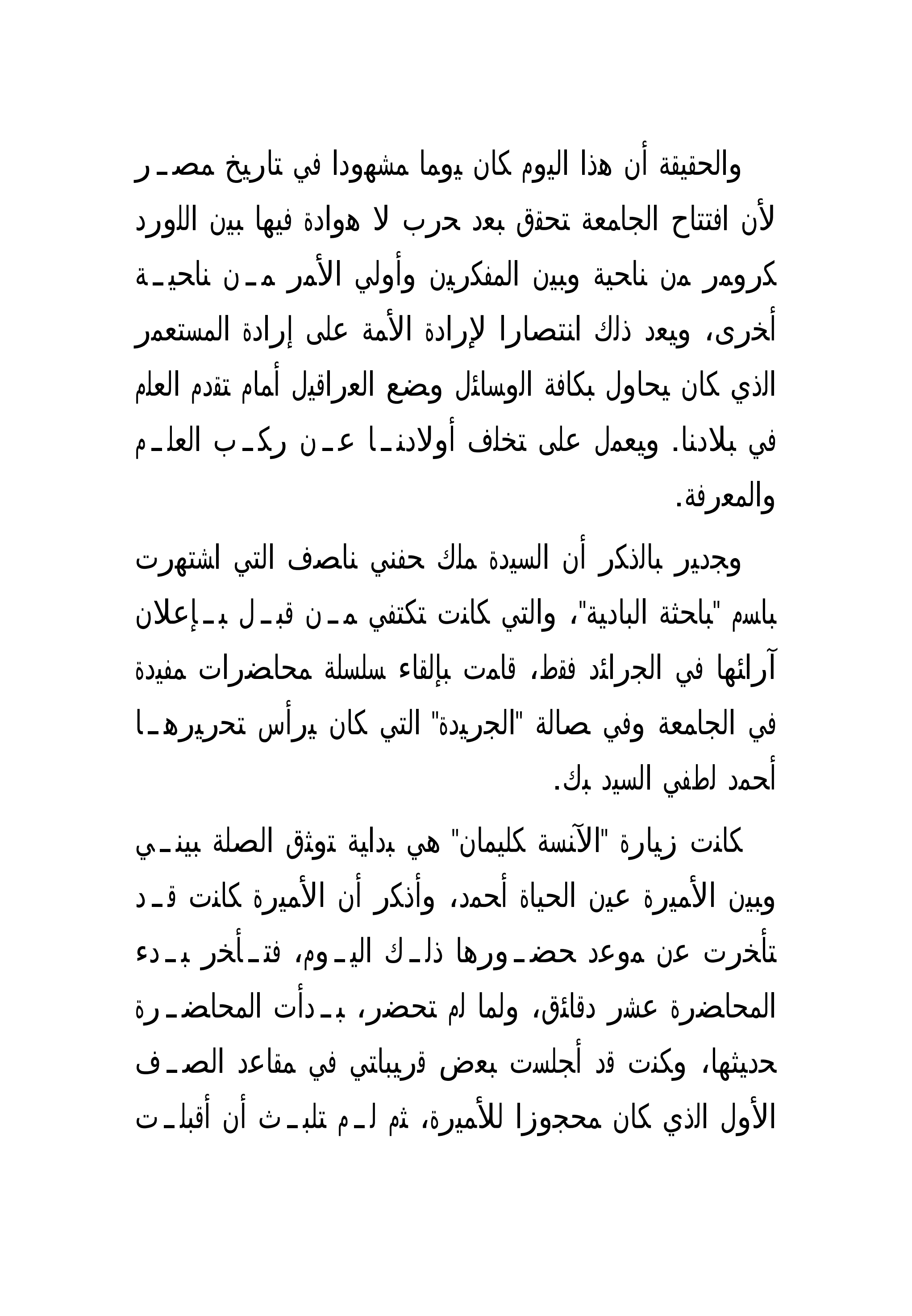
وقد قام قاسم بـك أمـين بمجهـودات عظيمـة لنجـاح المشروع؛ حيث قابل الخديوي وعرض عليه أن يتولى رعاية المشروع فقبل الخديوي وانتهى الأمر بتعيين الأميـر أحمـد فؤاد رئيسا لمجلس الجامعة عام ١٩٠٧، ومن أعضائها محمد علوي باشا وعبد الخالق ثروت باشا وإسماعيل صدقي باشـا ويعقوب أرتين باشا وإسماعيل حسنين باشا ومرقص فهمـي بك وعلي بهجت بك والسير جاسـتون ماسـبيرو. وهكـذا خرجت الجامعة المصرية إلى عالم الوجود.

وكان في مقدمة المتبرعين لهذا المشروع: الأميرة فاطمة كريمة الخديوي إسماعيل التي تبرعت بستة أفدنـة ووقفـت ستمائة فدان ليصرف من إيرادهـا علـى شـئون الجامعـة


بالإضافة إلى جواهر قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه، و تخليدا لفضلها كتب على مدخل كلية الآداب تلك العبارة التي ما زالت موجودة حتى الآن وهي: هذه من آثار حضرة صاحبة السمو الأمير فاطمة إسماعيل".

وهناك أيضا الأمير يوسف كمال، وأحمد بك الشريف، وحسن باشا زايد وهو من سراة المنوفية. وقد أوقف عزبة سراوة ومساحتها ستون فدانًا على الجامعة، ومن أجل ذلك انتقل مجلس إدارة الجامعة المصرية برئاسة الأمير أحمد فؤاد إلى قصر حسن باشا زايد لتقديم الشكر له رسميا في ١٥ إبريل ١٩٠٨، وألقى خطبة بهذه المناسبة، ورد الأمير فؤاد على خطبة حسن باشا زايد بكلمة تقدير.

وقد افتتحت الجامعة المصرية يوم ٢١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ في احتفال عظيم تصدره الخديوي إسماعيل، وكان في استقباله رئيس الجامعة الأمير أحمد فؤاد وأعضاء مجلس الجامعة ورئيس مجلس الوزراء والوزراء وعلية القوم. وألقى الأمير فؤاد كلمة في هذه المناسبة الوطنية السارة. وبارك الخديوي باكورة النهضة العلمية التي أذنت بفتح باب التعليم العالي أمام أبنائنا وبناتنا.



والحقيقة أن هذا اليوم كان يوما مشهودا في تاريخ مصر لأن افتتاح الجامعة تحقق بعد حرب لا هوادة فيها بين اللورد كرومر من ناحية وبين المفكرين وأولي الأمر من ناحية أخرى، ويعد ذلك انتصارا لإرادة الأمة على إرادة المستعمر الذي كان يحاول بكافة الوسائل وضع العراقيل أمام تقدم العلم في بلادنا. ويعمل على تخلف أولادنا عن ركب العلم والمعرفة.

وجدير بالذكر أن السيدة ملك حفني ناصف التي اشتهرت باسم "باحثة البادية"، والتي كانت تكتفي من قبل بإعلان آرائها في الجرائد فقط، قامت بإلقاء سلسلة محاضرات مفيدة في الجامعة وفي صالة "الجريدة" التي كان يرأس تحريرها أحمد لطفي السيد بك.

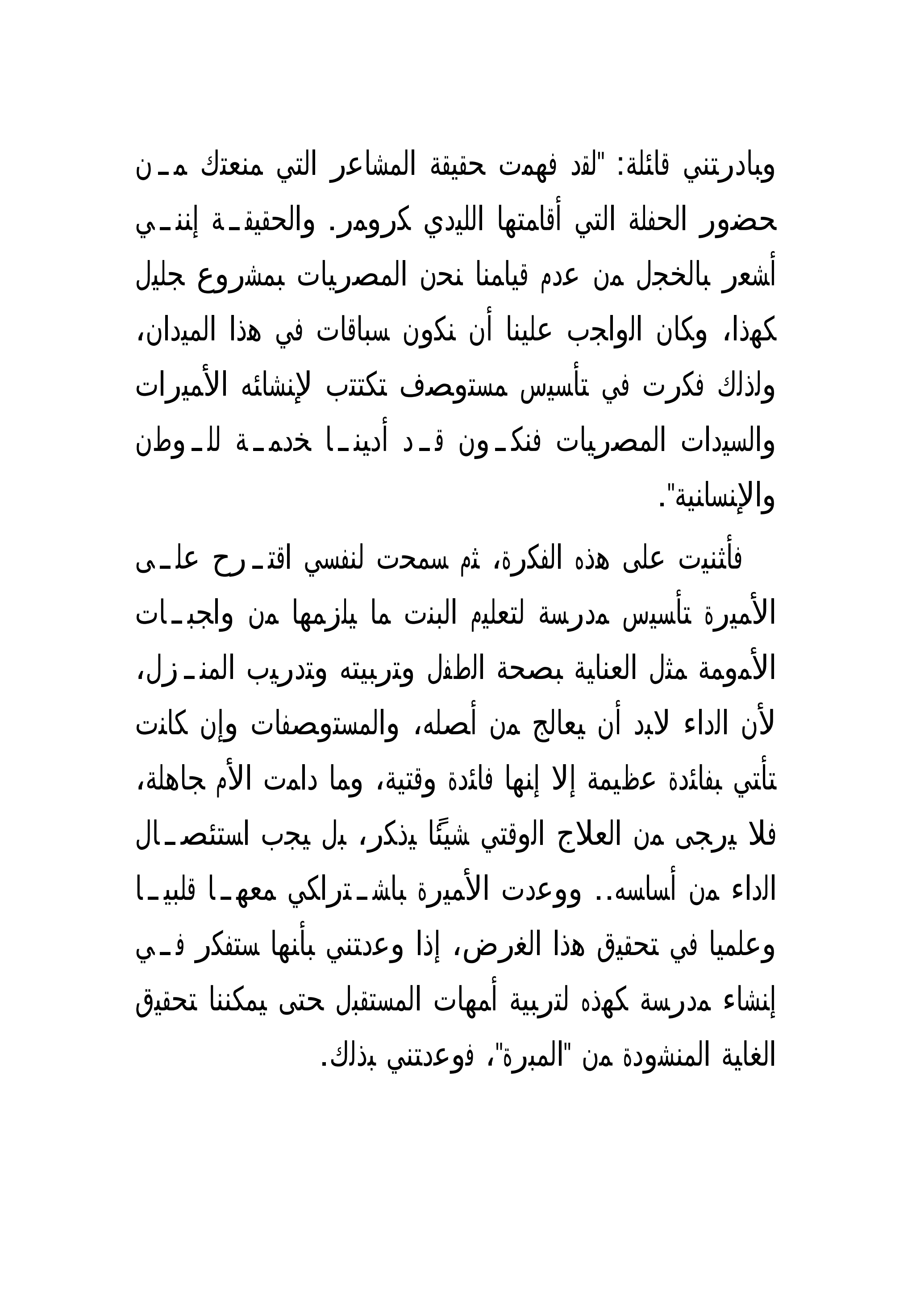
كانت زيارة "الآنسة كليمان" هي بداية توثق الصلة بيني وبين الأميرة عين الحياة أحمد، وأذكر أن الأميرة كانت قد تأخرت عن موعد حضورها ذلك اليوم، فتأخر بدء المحاضرة عشر دقائق، ولما لم تحضر، بدأت المحاضرة حديثها، وكنت قد أجلست بعض قريباتي في مقاعد الصف الأول الذي كان محجوزا للأميرة، ثم لم تلبث أن أقبلت

الأميرة، ورأتها قريباتي فأخلين لهـا المقاعـد، ولمـا رأت السيدات الحاضرات ذلك، قمن جميعا مثلنا، وهنـا سـكتت المحاضرة عن الحديث وقامت هي الأخرى معتقدة أن هـذه هي تقاليدنا، فأسفت الأميرة لأنها سببت كل هـذا الانزعـاج واعتذرت للآنسة المحاضرة عن تأخيرهـا، وهنـا رجـوت الآنسة كليمان أن تبدأ محاضرتها من جديد.

ولقد كان هذا الحادث موضـع انتقـاد بعـض السـيدات الأجنبيات، لأن المحاضر عندهن لا يجوز أن يقاطع حديثـه أو يقف مهما كان مركز القادم، ولكن العذر أن هـذه كانـت أول محاضرة تلقى على سيداتنا، وهن لم يتعودن مثل هـذه الاجتماعات.

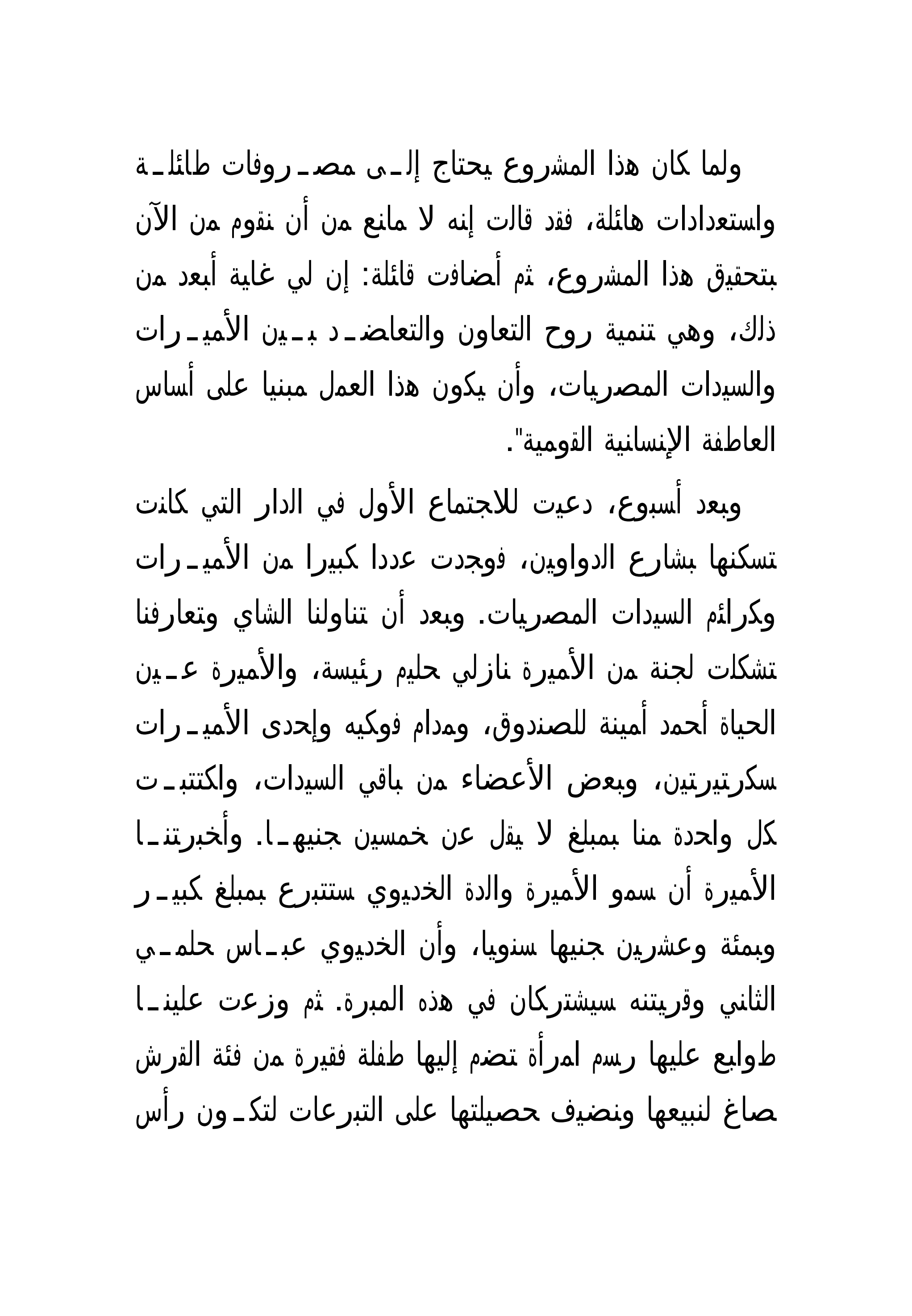
وبعد مضي أيام من محاضرة الآنسة كليمـان وصـلتني دعوة للشاي من الأميرة عين الحياة أحمد للتعارف بين الليدي كرومر الجديدة والسيدات اللاتي ساعدن في إنشاء مستوصف الليدي كرومر الأولى، ولكنني اعتذرت لأنني لم أشترك فـي تلك المساعدة، وكانت والدتي هي التي فعلت ذلك.

وبعد فترة قصيرة أرسلت الأميرة تطلبني لمقابلتها معتذرة بمرضها، فبادرت بتلبية الـدعوة وقـابلتني فـي فراشـها،



وبادرتني قائلة: "لقد فهمت حقيقة المشاعر التي منعتك من حضور الحفلة التي أقامتها الليدي كرومر. والحقيقة إنني أشعر بالخجل من عدم قيامنا نحن المصريات بمشروع جليل كهذا، وكان الواجب علينا أن نكون سباقات في هذا الميدان، ولذلك فكرت في تأسيس مستوصف تكتتب لإنشائه الأميرات والسيدات المصريات فنكون قد أدينا خدمة للوطن والإنسانية".

فأثنيت على هذه الفكرة، ثم سمحت لنفسي اقترح على الأميرة تأسيس مدرسة لتعليم البنت ما يلزمها من واجبات الأمومة مثل العناية بصحة الطفل وتربيته وتدريب المنزل، لأن الداء لابد أن يعالج من أصله، والمستوصفات وإن كانت تأتي بفائدة عظيمة إلا إنها فائدة وقتية، وما دامت الأم جاهلة، فلا يرجى من العلاج الوقتي شيئًا يذكر، بل يجب استئصال الداء من أساسه.. ووعدت الأميرة باشتراكي معها قلبيا وعلميا في تحقيق هذا الغرض، إذا وعدتني بأنها ستفكر في إنشاء مدرسة كهذه لتربية أمهات المستقبل حتى يمكننا تحقيق الغاية المنشودة من "المبرة"، فوعدتني بذلك.



ولما كان هذا المشروع يحتاج إلى مصروفات طائلة واستعدادات هائلة، فقد قالت إنه لا مانع من أن نقوم من الآن بتحقيق هذا المشروع، ثم أضافت قائلة: إن لي غاية أبعد من ذلك، وهي تنمية روح التعاون والتعاضد بين الأميرات والسيدات المصريات، وأن يكون هذا العمل مبنيا على أساس العاطفة الإنسانية القومية".

وبعد أسبوع، دعيت للاجتماع الأول في الدار التي كانت تسكنها بشارع الدواوين، فوجدت عددا كبيرا من الأميرات وكرائم السيدات المصريات. وبعد أن تناولنا الشاي وتعارفنا تشكلت لجنة من الأميرة نازلي حليم رئيسة، والأميرة عين الحياة أحمد أمينة للصندوق، ومدام فوكيه وإحدى الأميرات سكرتيرتين، وبعض الأعضاء من باقي السيدات، واكتتبت كل واحدة منا بمبلغ لا يقل عن خمسين جنيها. وأخبرتنا الأميرة أن سمو الأميرة والدة الخديوي ستتبرع بمبلغ كبير وبمئة وعشرين جنيها سنويا، وأن الخديوي عباس حلمي الثاني وقرينته سيشتركان في هذه المبرة. ثم وزعت علينا طوابع عليها رسم امرأة تضم إليها طفلة فقيرة من فئة القرش صاغ لنبيعها ونضيف حصيلتها على التبرعات لتكون رأس

مال الجمعية، كما قررت توزيع بعض هذه الطوابع على المديريات والمحافظات والمراكز والوزارات للمساعدة في رأس مال الجمعية، وتم توريد الحصيلة للأميرة عين الحياة.

ثم حدث أن سافرت الأميرة بعد ذلك في فصل الصيف للاستشفاء في أوربا، وكان قد اعتراها المرض الذي قضى على حياتها الغالية ولم تكن قد جاوزت إذ ذاك الخمسين من عمرها، فكان لوفاتها حزن عميق في نفسي لأني كنت أحبها وأقدرها لفرط ذكائها ورقة حاشيتها وطيبة قلبها ووداعة نفسها.

وفي ذات ليلة رأيتها في منامي وقد دخلت علي وأنا في غرفة دراستي مدة طفولتي في بيت والدي مرتدية ثيابا سوداء وخلفها كريمتها الأميرة كاظمة تحمل على يديها وسادة صغيرة فوقها كتاب مقفل، فتقدمت لتحيتها، وبعد أن ردت علي التحية، التفتت إلى كريمتها وأخذت منها الوسادة وما عليها وسلمتها إلي صامتة.

ولما كنت أعتقد في الأحلام، فقد فسرت هذا بأنها تعهد إلي بتحقيق مشروعها وتأتمنني عليه.. فقررت في نفسي أن أبذل كل جهدي من أجل تنفيذ رغبتها وفاء لها، وكانت

الأميرات بعد وفاتها قد أظهرن فتـورا نحـو تحقيـق هـذا المشروع، وبخاصة عندما طلبن من نجلها الأمير كمال الدين حسين المبالغ التي كانت لديها من حصيلة التبرعـات وبيـع الطوابع، فطلب منهن إثبات ذلك، ولما لم يكـن لـديهن أي مستند، فقد داخلهن اليأس.. ولكني قلت لهن إنه لابـد مـن استرداد هذه المبالغ، وإنني لا أشك في أنها قد أثبتتهـا فـي الأوراق التي تركتها، وكان هذا يتطلب وجود مندوبة تتـردد على الدائرة وتبحث مع الكُتاب والموظفين في الدفاتر، وقـد اخترت لذلك صديقة فرنسية لهـا درايـة بإمسـاك الـدفاتر ومعروفة بالأمانة والصدق، وقبلت القيام بهذه المأمورية بـلا مقابل إكراما لخاطري، واستطاعت أن تثبت لنا الحـق فـي ثلاثة آلاف من الجنيهات، دفعها لنـا الأميـر دون تـردد. وأمكننا بذلك إنجاز المشروع باستئجار منزل صـغير فـي شارع البراموني، مجهـز بكـل الـوازم التـي يتطلبهـا المستوصف. ولا يزال المستوصف موجودا إلى الآن يقـوم بأجل الخدمات الإنسانية، وهو المعروف باسم "مبرة محمـد علي".

وقد أقمنا فيما بعد عدة حفلات بهدف جمع مبالغ جديـدة لدعم المبرة، وقد ساعد دخل هذه الليالي الشرقية على نمـو رأس مال الجمعية، فأبديت للجنة اقتراحـي بشـأن إنشـاء مدرسة لتربية أمهات المستقبل. وقصصت علـيهن مـا دار بيني وبين المرحومة الأميرة عين الحياة عند قيامهـا بتنفيـذ مشروع المبرة. فأيدت وجهـة نظـري معظـم الأميـرات والسيدات، واعتمدت اللجنة مبلغًا لشراء منزل لهذا الغرض. ووفقت إلى منزل كبير بشبرا مساحة فدان.. وهو مبني على طراز القصور القديمة ويفي بالغرض ولا يتطلب إلا بعـض التعديلات والترميمات. وقد اشتريناه بمبلـغ ٢٢٠٠ جنيـه، وكلفنا المرحوم المهندس محمود باشا فهمي بترميمه، وقمنـا من جانبنا بإعداد ما يلزمه لاستكمال أثاثات المدرسة.

ولا يسعني إلا أن أذكر الهمة العظيمة التي كانت تبـذلها الأميرات والسيدات المصريات أعضاء هذه الجمعية للقيـام بواجبهن الإنساني، وكان لي شرف رئاسة اللجنـة العاملـة فيها، وكانت الأعضاء يحضرن كل جلسـة تعقـد أسـبوعيا ويعتنين بصحة البؤساء من أولاد الفقراء وأمهاتهم، جاعلات نصب أعينهن العناية بأولاد الشعب. كذلك فقد تطوع بعـض

الأطباء المصريين والأجانب لهذه الخدمة الإنسانية بالمجان.
وكانت الخدمات الطبية تجري تحـت إشـراف الأميـرات والسيدات أعضاء اللجنة اللاتي كن يحضرن بالتناوب في أيام محددة.

-١١-

في صيف عام ١٩٠٩، سافرت إلى أوربا لأول مرة وقد قصدنا إلى فرنسا نزولاً على مشورة الأطباء للاستشفاء. وكان معنا في هذه الرحلة أخي وزوجته وأولاده ووالدتي.

وقد أبحرنا على إحدى البواخر الألمانية، وسارت بنا فـي هدوء واتزان إلى أن اقتربنا من نابولي، وكنت أتوق لرؤيـة هذا الميناء الذي طالمـا شـوقتني خـالتي إليـه بوصـفها الجميل له، وعندما أوشكت السفينة على الرسـو، أبصـرنا زوارق صغيرة ملأى بالمغنين والموسيقيين يوقعون الأغاني الشعبية ابتغاء عطف المسافرين عليهم بدراهم قليلة.

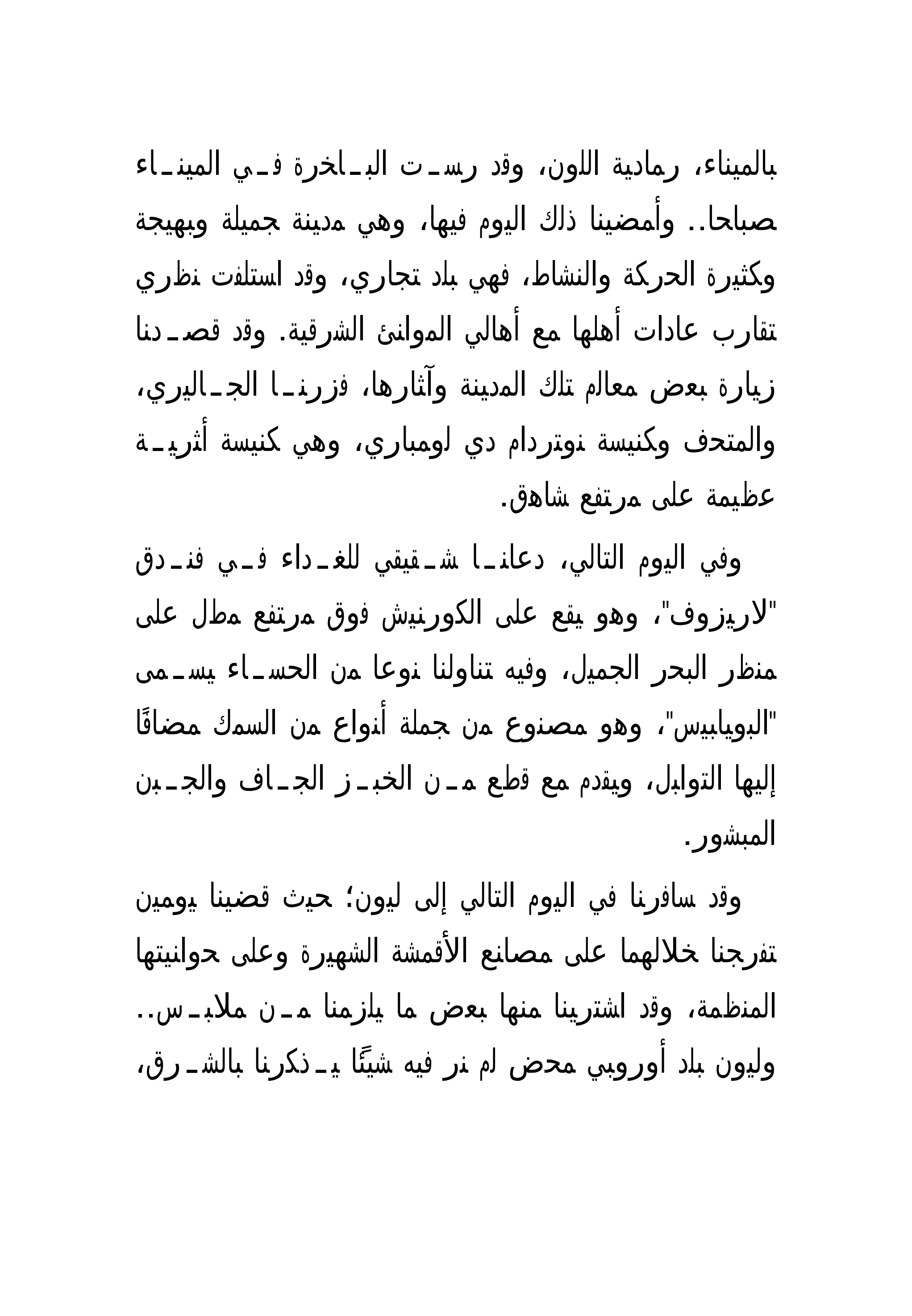
وكم كان مؤثرا وغريبا ومسليا في وقت واحد منظر تلك الزوارق تحوط بها أسراب من الأطفال الصغار يسبحون في الماء كالأسماك في انتظار عطايا المسافرين. فإذا مـا ألقـى إليهم أحد ببعض الليرات، غاصوا جميعا في الماء لالتقاطها.

بينما يطوف بعض الباعة الجائلين بالمركب ليبيعوا الصدف والمرجان وأنواع الانتيكات والحلي وغيرها.

وعندما رأينا حال أهل تلك المدينة، لم نشعر بأننا بعدنا كثيرا عن الشرق، إذ كنا نرى الأطفال حفاة عراة الرءوس ليسوا على جانب كبير من النظافة كما كان الحال في بعض البلدان الشرقية، كذلك فقد كنا نشاهد في بعض الطرقات الملابس المغسولة منشورة في النوافذ والشرفات، وأحيانًا على حبال مشدودة بين منزل وآخر بعرض الشارع، وفي الأحياء الفقيرة كنا نرى بعض النساء جالسات أمام بيوتهن يمشطن شعورهن.

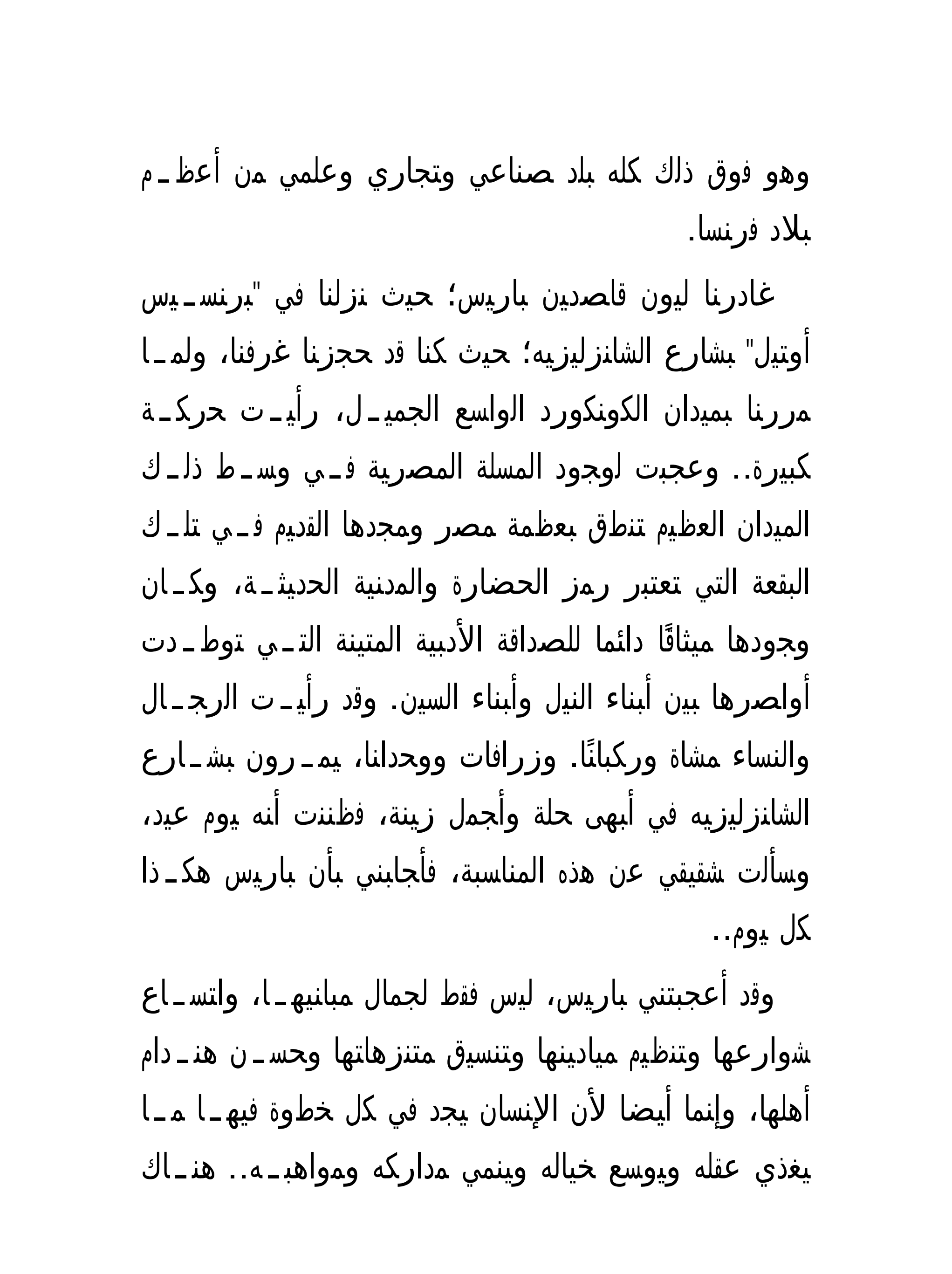
أمضينا في نابولي تلك الليلة بعد أن زرنا بركان فيزوف والجاليري، وعندما استيقظت في الصباح الباكر ونظرت من نافذة غرفتي، رأيت منظرا من أروع مناظر الطبيعة، فقد كانت الشمس تبدو من بين قمم الهضاب وكأنها شعلة متقدة من النيران.

وقد أبحرت بنا الباخرة بعد ذلك في طريقها إلى مرسيليا. وعندما اقتربنا منها، ظهرت أمامنا في ثوب يختلف عما رأيناه في نابولي، فقد كانت السماء قاتمة والهضاب المحيطة


بالميناء، رمادية اللون، وقد رست الباخرة في الميناء صباحا.. وأمضينا ذلك اليوم فيها، وهي مدينة جميلة وبهيجة وكثيرة الحركة والنشاط، فهي بلد تجاري، وقد استلفت نظري تقارب عادات أهلها مع أهالي الموانئ الشرقية. وقد قصدنا زيارة بعض معالم تلك المدينة وآثارها، فزرنا الجاليري، والمتحف وكنيسة نوتردام دي لومباري، وهي كنيسة أثرية عظيمة على مرتفع شاهق.

وفي اليوم التالي، دعانا شقيقي للغداء في فندق "لاريزوف"، وهو يقع على الكورنيش فوق مرتفع مطل على منظر البحر الجميل، وفيه تناولنا نوعا من الحساء يسمى "البويابيس"، وهو مصنوع من جملة أنواع من السمك مضافًا إليها التوابل، ويقدم مع قطع من الخبز الجاف والجبن المبشور.

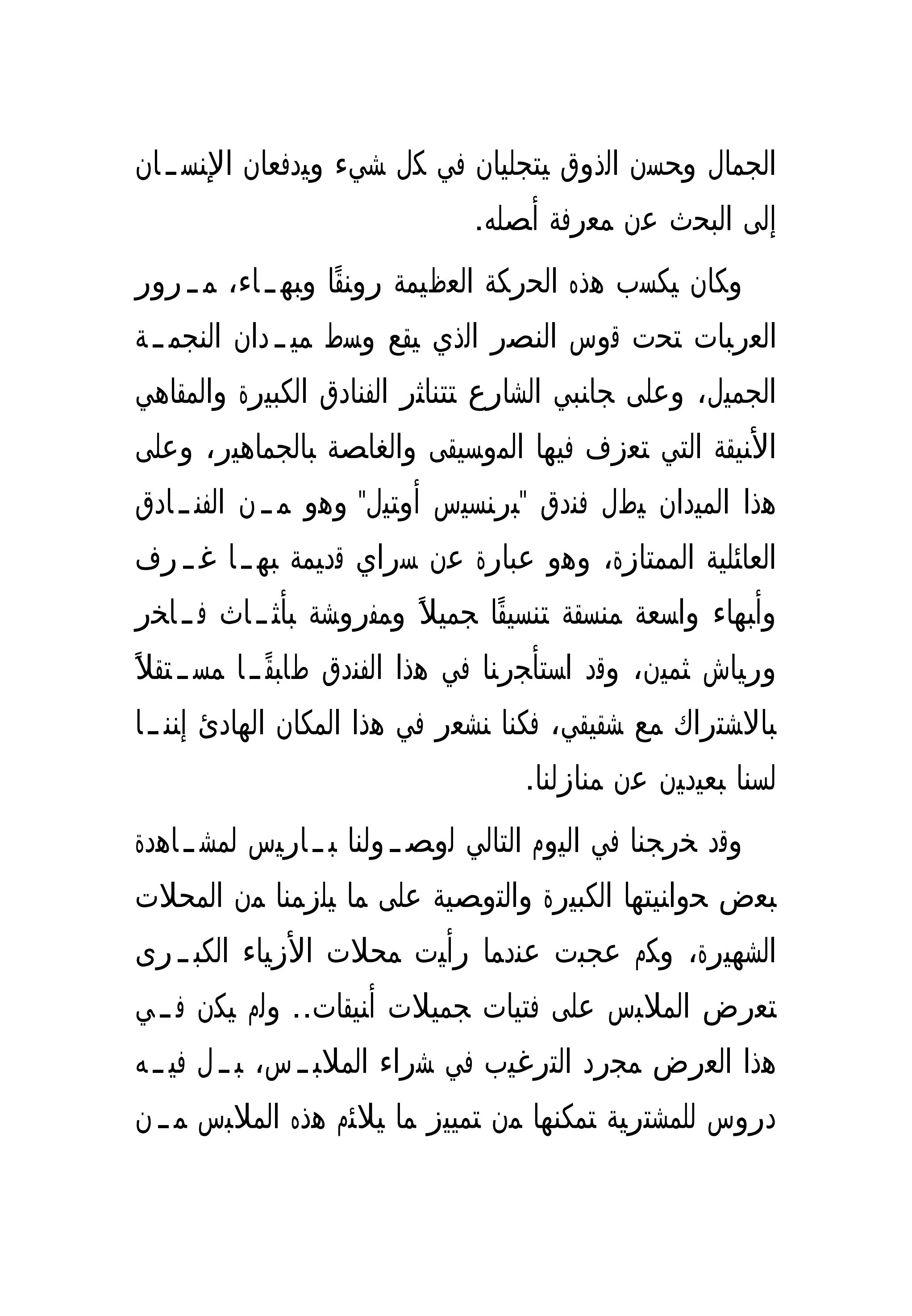
وقد سافرنا في اليوم التالي إلى ليون؛ حيث قضينا يومين تفرجنا خلالهما على مصانع الأقمشة الشهيرة وعلى حوانيتها المنظمة، وقد اشترينا منها بعض ما يلزمنا من ملابس.. وليون بلد أوروبي محض لم نر فيه شيئًا يذكرنا بالشرق،



وهو فوق ذلك كله بلد صناعي وتجاري وعلمي من أعظم بلاد فرنسا.

غادرنا ليون قاصدين باريس؛ حيث نزلنا في "برنسيس أوتيل" بشارع الشانزليزيه؛ حيث كنا قد حجزنا غرفنا، ولما مررنا بميدان الكونكورد الواسع الجميل، رأيت حركة كبيرة.. وعجبت لوجود المسلة المصرية في وسط ذلك الميدان العظيم تنطق بعظمة مصر ومجدها القديم في تلك البقعة التي تعتبر رمز الحضارة والمدنية الحديثة، وكان وجودها ميثاقًا دائما للصداقة الأدبية المتينة التي توطدت أواصرها بين أبناء النيل وأبناء السين. وقد رأيت الرجال والنساء مشاة وركبانًا. وزرافات ووحدانا، يمرون بشارع الشانزليزيه في أبهى حلة وأجمل زينة، فظننت أنه يوم عيد، وسألت شقيقي عن هذه المناسبة، فأجابني بأن باريس هكذا كل يوم..

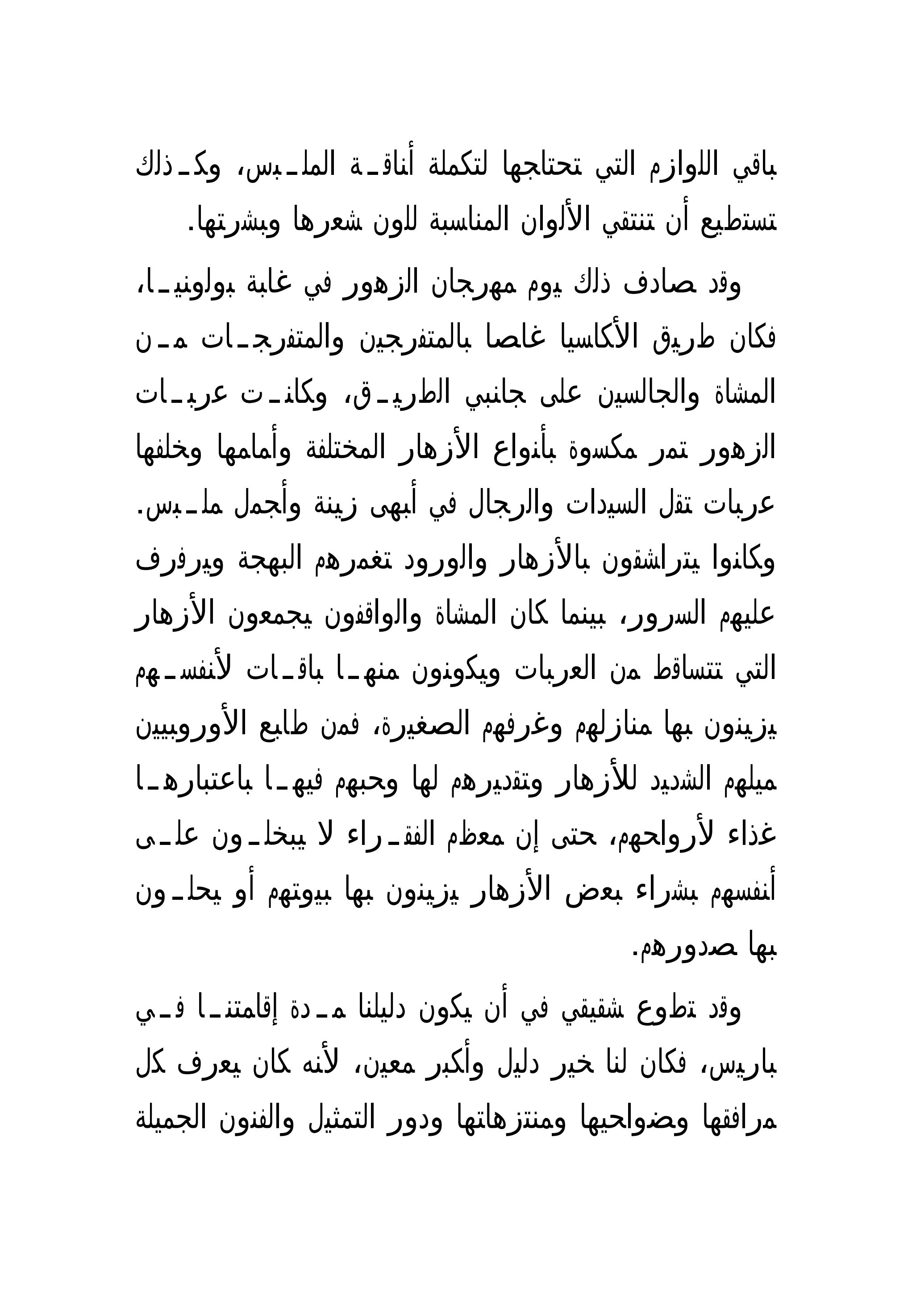
وقد أعجبتني باريس، ليس فقط لجمال مبانيها، واتساع شوارعها وتنظيم ميادينها وتنسيق متنزهاتها وحسن هندام أهلها، وإنما أيضا لأن الإنسان يجد في كل خطوة فيها ما يغذي عقله ويوسع خياله وينمي مداركه ومواهبه.. هناك



الجمال وحسن الذوق يتجليان في كل شيء ويدفعان الإنسان إلى البحث عن معرفة أصله.

وكان يكسب هذه الحركة العظيمة رونقًا وبهاء، مرور العربات تحت قوس النصر الذي يقع وسط ميدان النجمة الجميل، وعلى جانبي الشارع تتناثر الفنادق الكبيرة والمقاهي الأنيقة التي تعزف فيها الموسيقى والغاصة بالجماهير، وعلى هذا الميدان يطل فندق "برنسيس أوتيل" وهو من الفنادق العائلية الممتازة، وهو عبارة عن سراي قديمة بها غرف وأبهاء واسعة منسقة تنسيقًا جميلاً ومفروشة بأثاث فاخر ورياش ثمين، وقد استأجرنا في هذا الفندق طابقًا مستقلاً بالاشتراك مع شقيقي، فكنا نشعر في هذا المكان الهادئ إننا لسنا بعيدين عن منازلنا.

وقد خرجنا في اليوم التالي لوصولنا باريس لمشاهدة بعض حوانيتها الكبيرة والتوصية على ما يلزمنا من المحلات الشهيرة، وكم عجبت عندما رأيت محلات الأزياء الكبرى تعرض الملابس على فتيات جميلات أنيقات.. ولم يكن في هذا العرض مجرد الترغيب في شراء الملابس، بل فيه دروس للمشترية تمكنها من تمييز ما يلائم هذه الملابس من



باقي اللوازم التي تحتاجها لتكملة أناقة الملبس، وكذلك تستطيع أن تنتقي الألوان المناسبة للون شعرها وبشرتها.

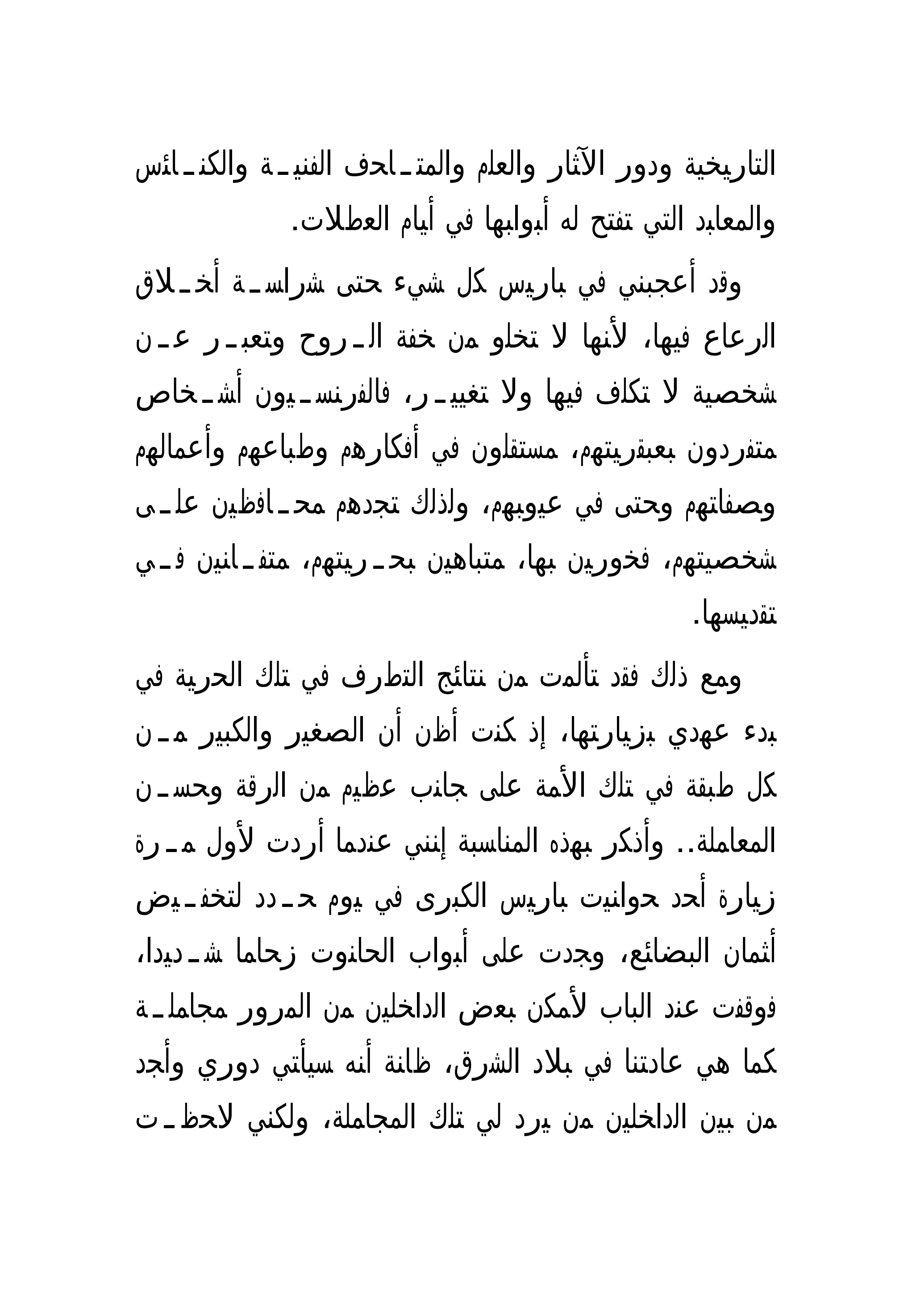
وقد صادف ذلك يوم مهرجان الزهور في غابة بولونيا، فكان طريق الأكاسيا غاصا بالمتفرجين والمتفرجات من المشاة والجالسين على جانبي الطريق، وكانت عربات الزهور تمر مكسوة بأنواع الأزهار المختلفة وأمامها وخلفها عربات تقل السيدات والرجال في أبهى زينة وأجمل ملبس. وكانوا يتراشقون بالأزهار والورود تغمرهم البهجة ويرفرف عليهم السرور، بينما كان المشاة والواقفون يجمعون الأزهار التي تتساقط من العربات ويكونون منها باقات لأنفسهم يزينون بها منازلهم وغرفهم الصغيرة، فمن طابع الأوروبيين ميلهم الشديد للأزهار وتقديرهم لها وحبهم فيها باعتبارها غذاء لأرواحهم، حتى إن معظم الفقراء لا يبخلون على أنفسهم بشراء بعض الأزهار يزينون بها بيوتهم أو يحلون بها صدورهم.

وقد تطوع شقيقي في أن يكون دليلنا مدة إقامتنا في باريس، فكان لنا خير دليل وأكبر معين، لأنه كان يعرف كل مرافقها وضواحيها ومنتزهاتها ودور التمثيل والفنون الجميلة

والمتاحف والسرايات الملكية القديمة والتاريخية، وكان ذلك يرجع إلى ما يتحلى به من حسن الذوق وتقدير الأشياء حق قدرها، ولذلك كان وجوده معي يكسبها جمالاً في عيني فوق جمالها ويزيد من تقديري لها، وهو ما لم أعد أشعر به من بعده.

كم كنت أرتاح لوجودي بجانب شقيقي في الزيارات التي كنا نقوم بها في باريس، لاتفاق شعورنا وميولنا في تقديرنا للفن والعلم والجمال وتقارب أذواقنا، وأظن أنه هو أيضا كان يشعر مثلي بكثير من الغبطة لمرافقتي له.. وكم شق علي زيارة تلك الأرجاء بدونه من بعده، وكم فقدت من رونقها في نظري كلما حاولت أن أستعيد الذكرى.

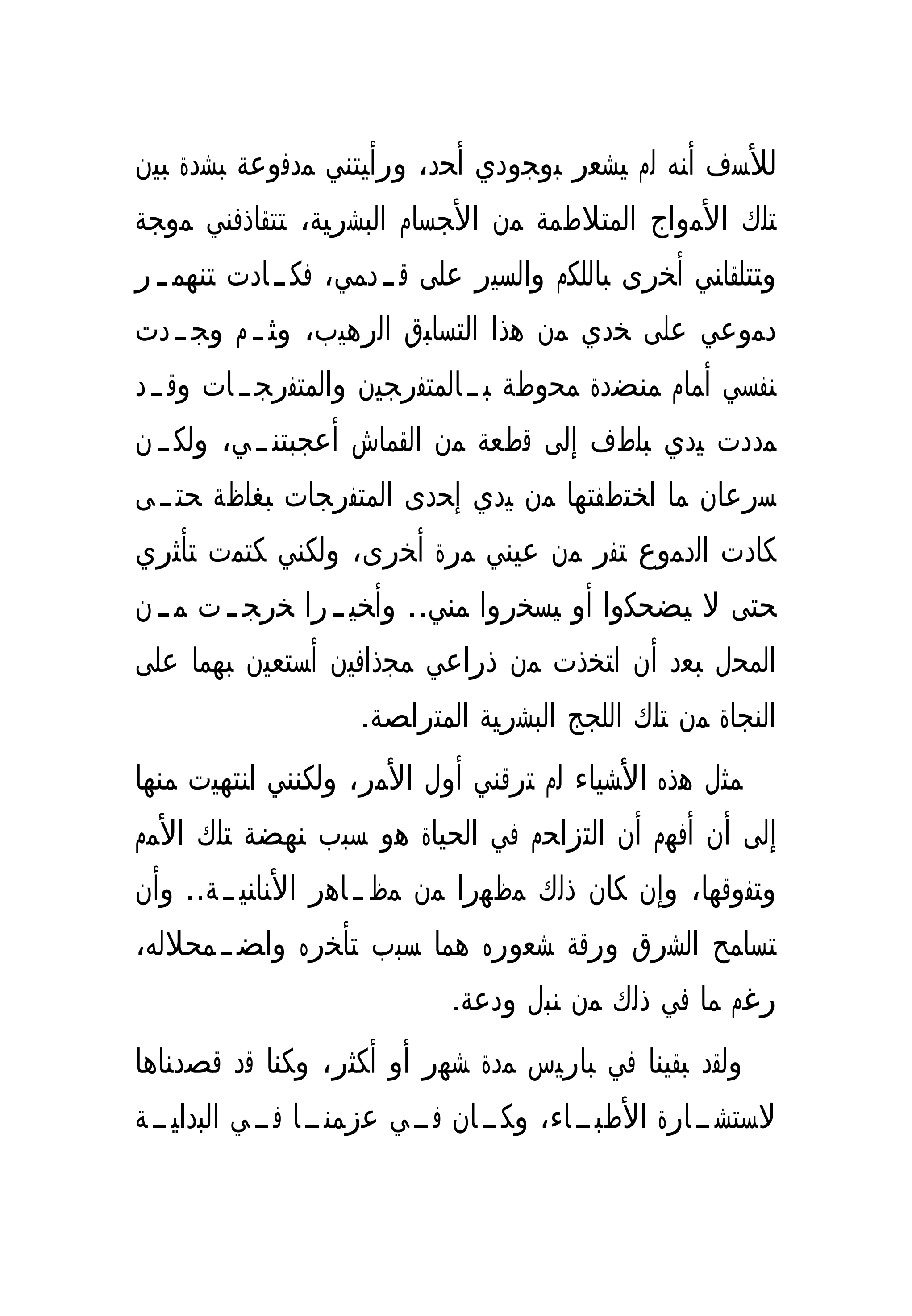
وباريس هي الصفحة المنشورة من سجل تاريخ الفرنسيين؛ حيث يشب الفرنسي في أية بيئة ملما منذ نعومة أظفاره بتاريخ بلاده، قبل أن يدخل المدارس ويتعلم هذا التاريخ في الكتب.. ولذلك تراه فخورا بتاريخها المجيد، حريصا على خلود هذا المجد، وليس هذا فحسب، بل ترى الشعب الفرنسي يطوف بكل القصور الأثرية والميادين



التاريخية ودور الآثار والعلم والمتاحف الفنية والكنائس والمعابد التي تفتح له أبوابها في أيام العطلات.

وقد أعجبني في باريس كل شيء حتى شراسة أخلاق الرعاع فيها، لأنها لا تخلو من خفة الروح وتعبر عن شخصية لا تكلف فيها ولا تغيير، فالفرنسيون أشخاص متفردون بعبقريتهم، مستقلون في أفكارهم وطباعهم وأعمالهم وصفاتهم وحتى في عيوبهم، ولذلك تجدهم محافظين على شخصيتهم، فخورين بها، متباهين بحريتهم، متفانين في تقديسها.

ومع ذلك فقد تألمت من نتائج التطرف في تلك الحرية في بدء عهدي بزيارتها، إذ كنت أظن أن الصغير والكبير من كل طبقة في تلك الأمة على جانب عظيم من الرقة وحسن المعاملة.. وأذكر بهذه المناسبة إنني عندما أردت لأول مرة زيارة أحد حوانيت باريس الكبرى في يوم حدد لتخفيض أثمان البضائع، وجدت على أبواب الحانوت زحاما شديدا، فوقفت عند الباب لأمكن بعض الداخلين من المرور مجاملة كما هي عادتنا في بلاد الشرق، ظانة أنه سيأتي دوري وأجد من بين الداخلين من يرد لي تلك المجاملة، ولكني لاحظت



للأسف أنه لم يشعر بوجودي أحد، ورأيتني مدفوعة بشدة بين تلك الأمواج المتلاطمة من الأجسام البشرية، تتقاذفني موجة وتتلقاني أخرى باللكم والسير على قدمي، فكادت تنهمر دموعي على خدي من هذا التسابق الرهيب، وثم وجدت نفسي أمام منضدة محوطة بالمتفرجين والمتفرجات وقد مددت يدي بلطف إلى قطعة من القماش أعجبتني، ولكن سرعان ما اختطفتها من يدي إحدى المتفرجات بغلظة حتى كادت الدموع تفر من عيني مرة أخرى، ولكني كتمت تأثري حتى لا يضحكوا أو يسخروا مني.. وأخيرا خرجت من المحل بعد أن اتخذت من ذراعي مجذافين أستعين بهما على النجاة من تلك اللجج البشرية المتراصة.

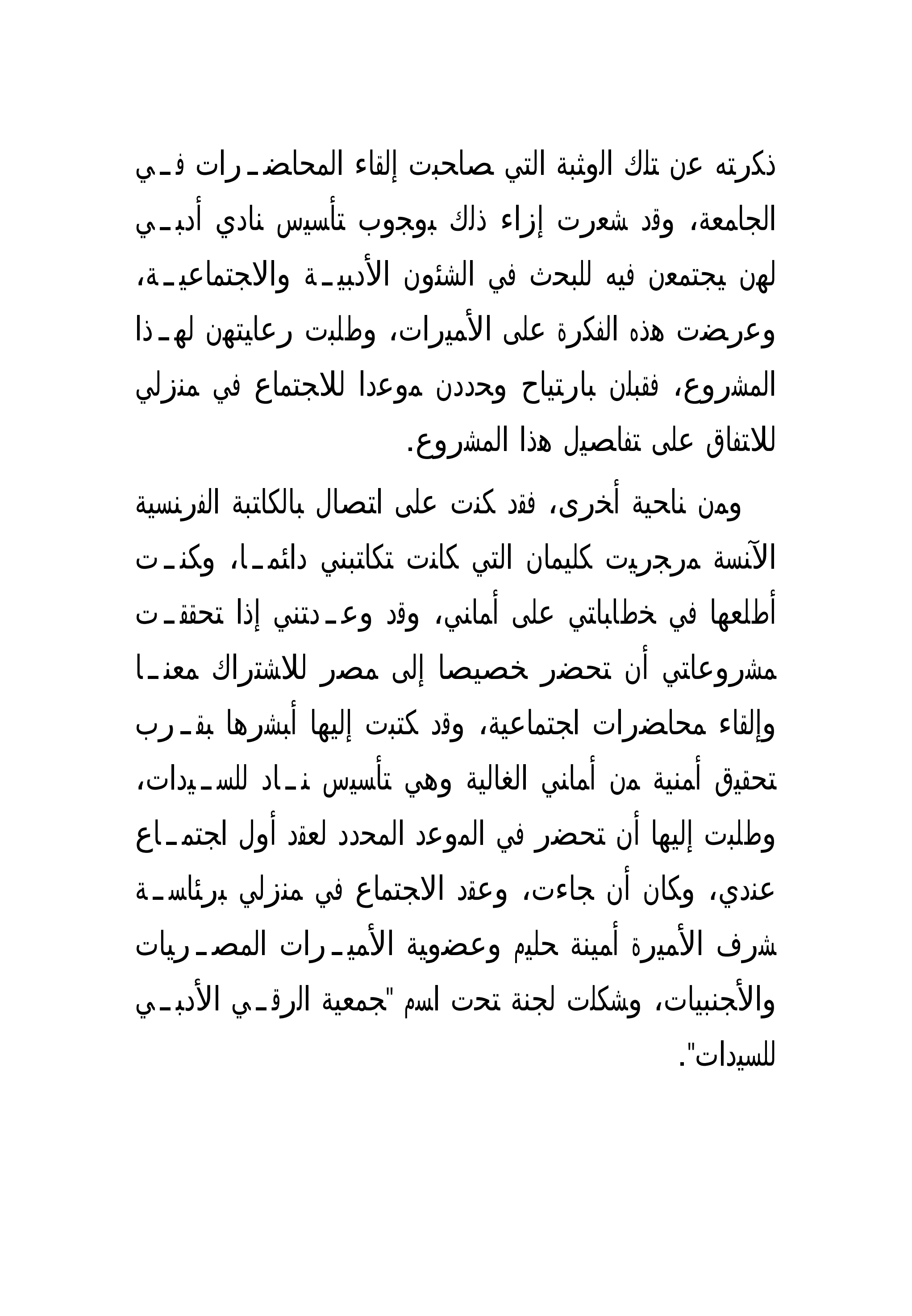
مثل هذه الأشياء لم ترقني أول الأمر، ولكنني انتهيت منها إلى أن أفهم أن التزاحم في الحياة هو سبب نهضة تلك الأمم وتفوقها، وإن كان ذلك مظهرا من مظاهر الأنانية.. وأن تسامح الشرق ورقة شعوره هما سبب تأخره واضمحلاله، رغم ما في ذلك من نبل ودعة.

ولقد بقينا في باريس مدة شهر أو أكثر، وكنا قد قصدناها لاستشارة الأطباء، وكان في عزمنا في البداية

ألا تمتد إقامتنا بها أكثر من أسبوعين، ولكن المدة طالت دون أن نشعر بها، لأن تغيير الهواء والمعيشة كان لهمـا أفضـل الأثر على صحتنا جميعا. وقد عزمنا بعد ذلك علـى السـفر إلى "ابنيول دي لورن" بناء على مشورة البروفيسور "روبان" الذي أكد لنا أن مياه تلك الجهة مفيدة جدا بالنسبة لما كنـت أشكوه من عدم انتظام الدورة الدموية، وهو ما كان يسبب لي كل الآلام التي كنت أقاسيها.. وكان أخي قد نوى الرحيل إلى "البوي دودوم" في الوقت نفسه، فغادرنا جميعا الفنـدق فـي صباح واحد.

بعد عودتي من أوربا، وقعت أحداث هامة فـي مصـر. ومن ذلك ما وقع يوم ٢٠ فبرايـر ١٩١٠، وهـو إطـلاق الرصاص على بطرس غالي باشا رئيس النظارة مـن فتـى يدعى إبراهيم ناصف الورداني، المنتمي للحـزب الـوطني، وذلك عند مغادرة الرئيس لنظارة الخارجيـة فـي السـاعة الواحدة بعد الظهر.. وكان هذا من أبرز الأحداث السياسـية التي وقعت في تلك الفترة.

أما عن الأحداث الاجتماعية، فإنه قد ظهرت فـي ذلـك الوقت بوادر نهضة أدبية بين السيدات الراقيـات، إثـر مـا



ذكرته عن تلك الوثبة التي صاحبت إلقاء المحاضرات في الجامعة، وقد شعرت إزاء ذلك بوجوب تأسيس نادي أدبي لهن يجتمعن فيه للبحث في الشئون الأدبية والاجتماعية، وعرضت هذه الفكرة على الأميرات، وطلبت رعايتهن لهذا المشروع، فقبلن بارتياح وحددن موعدا للاجتماع في منزلي للاتفاق على تفاصيل هذا المشروع.

ومن ناحية أخرى، فقد كنت على اتصال بالكاتبة الفرنسية الآنسة مرجريت كليمان التي كانت تكاتبني دائما، وكنت أطلعها في خطاباتي على أماني، وقد وعدتني إذا تحققت مشروعاتي أن تحضر خصيصا إلى مصر للاشتراك معنا وإلقاء محاضرات اجتماعية، وقد كتبت إليها أبشرها بقرب تحقيق أمنية من أماني الغالية وهي تأسيس ناد للسيدات، وطلبت إليها أن تحضر في الموعد المحدد لعقد أول اجتماع عندي، وكان أن جاءت، وعقد الاجتماع في منزلي برئاسة شرف الأميرة أمينة حليم وعضوية الأميرات المصريات والأجنبيات، وشكلت لجنة تحت اسم "جمعية الرقي الأدبي للسيدات".

وقد بدأت الآنسة "مرجريـت كليمـان" بإلقـاء سلسـلة محاضرات بمنزلي وبالجامعة المصرية، كـذلك اشـتركت الكاتبة المبدعة الآنسة "مي" في عضوية هذه اللجنة، وكانـت لا تزال في بدء حياتها الأدبية. أما السيدة لبيبة هاشم صاحبة مجلة "فتاة الشرق" فقد عينت سكرتيرة عربية لهذه اللجنة.

وقد انهالت علي رسائل التهنئة والترحيب بهذا المشروع الذي صادف قبولاً حسنًا لدى النفوس المتعطشة إليه، وكان ذلك في إبريل ١٩١٤.

وكان علي بعد ذلك أن أقوم بالبحث عن منزل ليكون مقرا لهذا النادي الذي لم نكن نجرؤ على تسميته ناديا، نظـرا لأن التقاليد كانت تستهجن مثل هذا العمل، ولا تسمح للمراة بـأن تتنفس أو تجد لنفسها منتدى تلقي فيه صـديقاتها والعـاملات معها في الحياة الاجتماعية، ثم جاء الصيف وسافر كثير من الأميرات والسيدات إلى أوربا كعادتهن، علـى أن يسـتأنف العمل على تحقيق هذا المشروع الجديد عقب عودتهن إلـى الوطن.

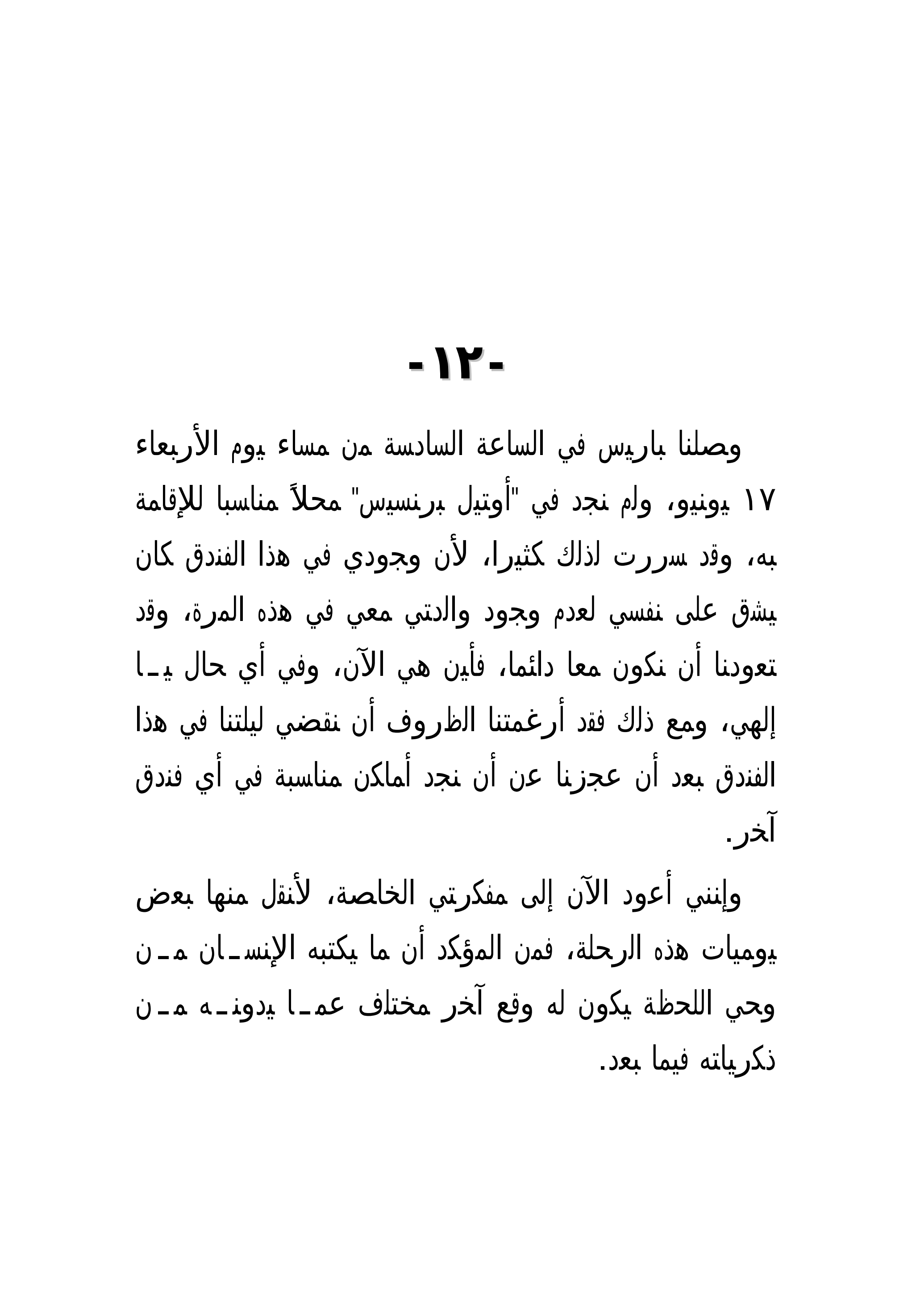
وفي غضون هذه المدة، اشتد مرض الحمى الشوكية على ابنة أخي الصغيرة، وكنت أحبها حبا كبيرا، وكنـا نتحـدث

أمامها بأنها ستكون عروسا لأبني محمد، فتشبع الطفلان بهذه الفكرة وتوثقت عرى المحبة بينهما، وكانت هي تقول إنني أحبه وسأتزوجه رغم كل شيء، أما هو فأذكر إنني قلت له يوما: "وهل تنتظرك وهي أكبر منك بسنة والبنات يتزوجن مبكرات؟" فأخذ يبكي بالدموع ويقول: "إذًا بمن سأتزوج؟". وكأنما ليس في الحياة غيرها!

وزادت وطأة المرض على "هدى" الصغيرة، رغم كل ما بذله والدها من عناية، حتى أنه أحضر البروفيسور "روبين" خصيصا من باريس لعلاجها. ولكن كل هذه المحاولات لم تفلح.. وبعد أن قاست كثيرا من مرارة المرض، توفيت إلى رحمة ا ، وأذكر إنني كتبت في مفكرتي يوم الاثنين ١١ مايو ١٩١٥ أقول: "قصف المنون صباح اليوم زهرة في عنفوان صباها، بل في طفولتها، فوا حسرتاه".

ولقد كان لوفاتها تأثير كبير على صحة والدها الذي كان يعزها ويحبها، وكان لذلك رجة كبيرة وهزة عنيفة في نفوسنا جميعا، وقد حزن عليها ولدي محمد حزنًا شديدا رغم صغر سنه، وكان إذ ذاك مريضا وضعيف البنية، وكانت تعتريه حمى منخفضة لازمته باستمرار ولم ينفع فيها أي علاج.

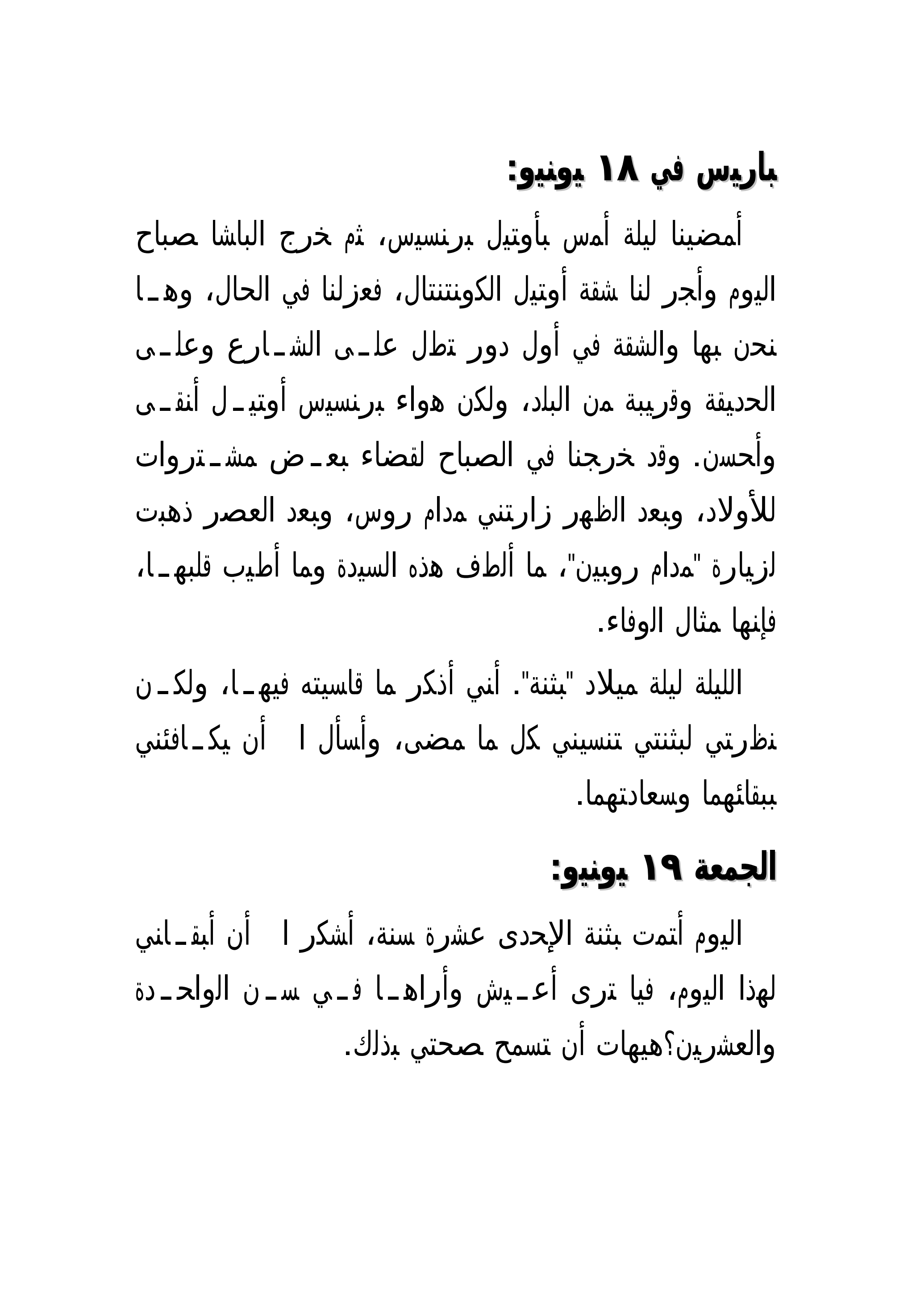
ولما عجز الأطباء عن معرفة سبب هذه الحالة، نصحوا بالسفر إلى أوربا لعرضه على الأخصائيين هناك وليستفيد من تغيير الهواء والإقامة في الجبال. وقد اضطررت للسفر تاركة والدتي على فراش المرض؛ حيث لم يسمح لها الطبيب بالسفر وإن كان قد طمأنها على صحتها ما دامت بعيدة عن المؤثرات وعن الصدمات النفسية والمتاعب الجسمانية، وكان سفرنا من الإسكندرية بعد ظهر يوم الأربعاء ١٤ يونيو ١٩١٤. وكانت هذه أول مرة أفارق فيها والدتي وأسافر بدونها، ورغم أن الطبيب طمأنني عليها، فقد كنت أحس في دخيلتي كأنني لن أراها ثانية، وقد حدثتني نفسي أن أرجع من الإسكندرية لولا الحالة التي كان عليها ولدي وخوفي مما قد يترتب على عدم العناية به.



-١٢-

وصلنا باريس في الساعة السادسة من مساء يوم الأربعاء ١٧ يونيو، ولم نجد في "أوتيل برنسيس" محلاً مناسبا للإقامة به، وقد سررت لذلك كثيرا، لأن وجودي في هذا الفندق كان يشق على نفسي لعدم وجود والدتي معي في هذه المرة، وقد تعودنا أن نكون معا دائما، فأين هي الآن، وفي أي حال يا إلهي، ومع ذلك فقد أرغمتنا الظروف أن نقضي ليلتنا في هذا الفندق بعد أن عجزنا عن أن نجد أماكن مناسبة في أي فندق آخر.

وإنني أعود الآن إلى مفكرتي الخاصة، لأنقل منها بعض يوميات هذه الرحلة، فمن المؤكد أن ما يكتبه الإنسان من وحي اللحظة يكون له وقع آخر مختلف عما يدونه من ذكرياته فيما بعد.



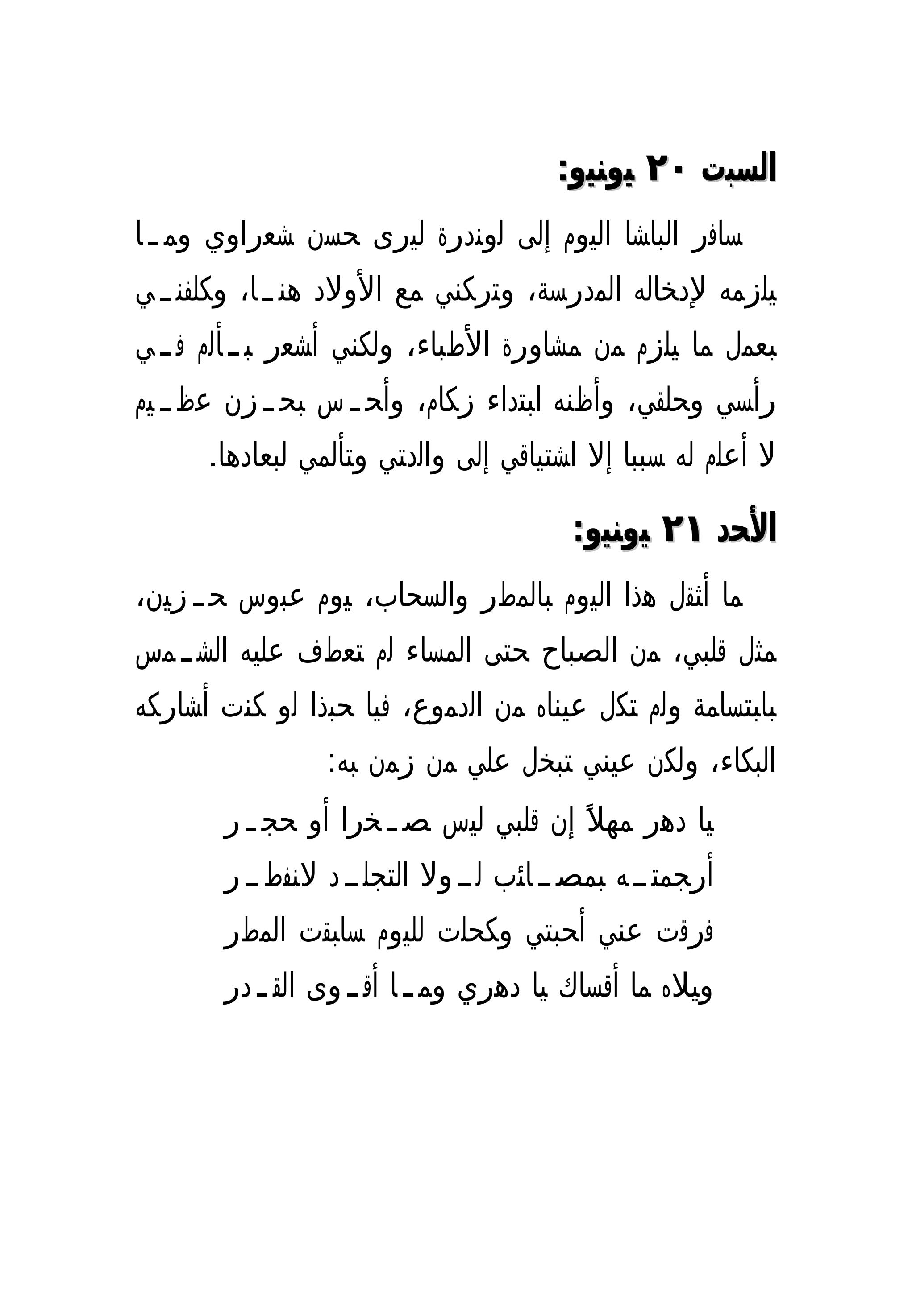
باريس في ١٨ يونيو:

أمضينا ليلة أمس بأوتيل برنسيس، ثم خرج الباشا صباح اليوم وأجر لنا شقة أوتيل الكونتنتال، فعزلنا في الحال، وهـا نحن بها والشقة في أول دور تطل علـى الشـارع وعلـى الحديقة وقريبة من البلد، ولكن هواء برنسيس أوتيـل أنقـى وأحسن. وقد خرجنا في الصباح لقضاء بعـض مشـتروات للأولاد، وبعد الظهر زارتني مدام روس، وبعد العصر ذهبت لزيارة "مدام روبين"، ما ألطف هذه السيدة وما أطيب قلبهـا، فإنها مثال الوفاء.

الليلة ليلة ميلاد "بثنة". أني أذكر ما قاسيته فيهـا، ولكـن نظرتي لبثنتي تنسيني كل ما مضى، وأسأل ا أن يكـافئني ببقائهما وسعادتهما.

الجمعة ١٩ يونيو:

اليوم أتمت بثنة الإحدى عشرة سنة، أشكر ا أن أبقـاني لهذا اليوم، فيا ترى أعـيش وأراهـا فـي سـن الواحـدة والعشرين؟هيهات أن تسمح صحتي بذلك.



السبت ٢٠ يونيو:

سافر الباشا اليوم إلى لوندرة ليرى حسن شعراوي وما يلزمه لإدخاله المدرسة، وتركني مع الأولاد هنا، وكلفني بعمل ما يلزم من مشاورة الأطباء، ولكني أشعر بألم في رأسي وحلقي، وأظنه ابتداء زكام، وأحس بحزن عظيم لا أعلم له سببا إلا اشتياقي إلى والدتي وتألمي لبعادها.

الأحد ٢١ يونيو:

ما أثقل هذا اليوم بالمطر والسحاب، يوم عبوس حزين، مثل قلبي، من الصباح حتى المساء لم تعطف عليه الشمس بابتسامة ولم تكل عيناه من الدموع، فيا حبذا لو كنت أشاركه البكاء، ولكن عيني تبخل علي من زمن به:

يا دهر مهلاً إن قلبي ليس صخرا أو حجر
أرجمته بمصائب لولا التجلد لانفطر
فرقت عني أحبتي وكحلت لليوم سابقت المطر
ويلاه ما أقساك يا دهري وما أقوى القدر

توجهت بعد ظهر اليوم إلى "الدكتور كومبي" وأزعجني بتشخيص مرض "محمد"؛ حيث قال إن عنده التهابا في المصران.

الاثنين ١٢ يونيو:

توجهنا مع "مدموازيل كليمان" بعد الغداء إلى فرساي وعند وصولنا ذهبنا إلى منزلنا وتوجهنا إلى البارك وتفرجنا عليه، أما السراي فكانت مغلقة كأغلب المتاحف بفرنسا.

الخميس ٢٥ يونيو:

توجهت مع "مدموازيل كليمان" إلى بولونيا، وأخذنا الشاي معا في قاعة استقبال الكلوب.

حضر الدكتور روبين اليوم، وطمأنني على "محمد"؛ حيث إنه لم يجد عنده التهابا في المصران، وقرر لعلاجه ١٥ يوما.

الاثنين ٢٩ يونيو:

دعيت إلى الشاي مع "مدموازيل كليمان" عند "مدام سيجفريد". وتوجهت الساعة الرابعة عند السيدة العاقلة المحترمة، فقابلتنا بترحيب ولطف زائدين. وقدمت لي



مدموازيل فيجزون مفتشة مدارس البنات، وكانت قد دعتها خصيصا لكي تعرفني بها ولكي يمكنني بوساطتها مشاهدة المدارس الصناعية والتدبيرية.

الثلاثاء ٣٠ يونيو:

توجهت مع "مدموازيل فيجزون" لزيارة المدارس الصناعية والتدبير المنزلي للبنات. وسرني جدا ما رأيته وأحزنني، سررت لهم وحزنت علينا، فرحت لتقدمهم وتكدرت لتأخرنا، يلزمنا جيل بطوله وعرضه إذا كنا حاكمين أنفسنا إذا بقينا محكومين، لنحصل على درجتهم إذا مشينا وحذونا حذوهم. ولكن وا أسفاه من أين نتحصل على هذه الروح الحية، نثبت في عملنا ونثابر عليه لنصل إلى هذه الدرجة من الكمال.

في أثناء وجودي بباريس، دعيت لحضور اجتماع نسائي كبير تطالب فيه السيدات بمساواة المرأة بالرجل في الحقوق والانتخاب وينادين بالسلام.

وقد عقد اجتماع كبير في صالة "الجورنال"، خطبت فيه عظيمات السيدات الفرنسيات مثل مدام سيجفريد وأفريل دي سانت كروا ومدموازيل كليمان وسيدات أخريات، وقد

لاحظت روح الدعوة للسلام بين الشباب حتى بين الضـباط أنفسهم، وقد سررت من هذا المظهر الجميل جدا، وصـرت أعتقد أن الأوروبيين حقيقة قد وصلوا إلى درجة عظيمة من الرقي.

وقد حدث أن زرت "مدام سيجفريد" بعد ذلك، وتحدثنا في السلام وسألتها عما إذا كانت تعتقد أن السلام سيسود أوربـا، فأجابتني تلك السيدة العظيمة قائلة:

لأجل أن يسود السلام العالم يجب أن نوطده في نفوسـنا، ونهيئ له فيما حولنا، وبالطبع فإن ذلك يحتـاج إلـى زمـن طويل.

عدنا بعد ذلك إلى "فيتيل"؛ حيث بدأ الباشا في أخذ حماماته وقد شعرت بالوحدة لعدم وجود والدتي معي، فكنت أقضـي أغلب أوقاتي في النزهة مع ولدي في الحديقة أو في القـرى القريبة من البلدة.

وقد كتبت في مفكرتي الخاصة يوم الجمعـة ١٠ يوليـو ١٩١٤ هذه السطور: أف، ما أطول ليلة الأمس علي، ومـا أثقل هذا اليوم الحزين!.. سأمضي كل مدة "الكور" –العلاج- بهذا الشكل.. محرومة من أويقات حريتي التي ألقـي فيهـا

العنان على عاتق أفكاري وتذكاراتي وأنفرد بهم عن كل شغل وشاغل بين كتبي وتخيلاتي وأحلامي وأوهامي وصلاتي وعبادتي وماضي وحاضري، وبالجملة حياتي الحقيقية.. حياتي الشخصية التي فيها أكون أنا.. معي نفسي.. فلها أو عليها كما تقتضي الظروف.. فإلى اللقاء يا أنا!

وكتبت في اليوم التالي السبت ١١ يوليو: أمضيت هذا اليوم أطوف في البارك مثل التائهة وحدي؛ حيث إن الأولاد كانوا يتفرجون على "قرة جوز" وكان الباشا مشغولاً بأخذ مياهه في الأوقات المعينة لها، فأين أنت يا والدتي العزيزة؟ وما حالك الآن؟ كنت قبل سنتين تلازمينني في مثل هذه الساعات، والآن ليس معي إلا تذكارك، وأي تذكار يا رباه أينما أكون، أتصورك في فراشك طريحة الآلام، فتظلم الدنيا في عيني فينعكس فيهما ما كنت أراه حسنًا.

على إنني قد حاولت أن أملأ فراغ وقتي. ولما كانت بلدة "دون ريمون" وهي بلدة "جان دارك" لا تبعد كثيرا عن "فيتيك" فقد زرتها وشاهدت الغرفة الصغيرة التي كانت تسكنها، والشجرة التي كانت تؤدي صلاتها تحتها فتسمع أصوات "سانت كاترينا" و "سان ميشيل" يأمرانها أن تخلص

فرنسا من احتلال الإنجليز في عهد الملك شـارك السـابع. وقد أعطاها الملك قوة مسلحة صغيرة هجمـت بهـا علـى الإنجليز وانتصرت عليهم في "باتي" ثم خانها أحد الفرنسيين وحاكمها الإنجليز وحكموا عليها بالإعدام حرقًا.. وبعد ذلـك أخذ الفرنسيون يقدسونها، واتخذوا من بيتها الصغير متحفًـا فيه كل الآثار التاريخية القديمة الموجودة في "دون ريمون".

ولما أوشك الباشا أن يتم حماماته، سافرت إلـى بـاريس لقضاء بعض حاجياتي على أن أعود مع حسن شعراوي، وقد نزلت في شقة كان أخي قد استأجرها بدلاً من النـزول فـي الفندق لعدم وجود أحد معي سوى خادمتي "مرجريت".

وكم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت بـاريس خاليـة، وشوارعها هادئة ساكنة، ووجوه سكانها عابسة كاسفة. وكان قد صادف وجودي بها أواخر شهر يوليو عندما وقعت حادثة "مدام كايز" التي قتلت "مسيو بينيت" صاحب ومدير جريـدة "الفيجارو". وكان الجميع يكيلون لها اللعنات رغم أنهم كانوا يعلمون أن هذه السيدة لم تقدم على ارتكاب جريمتها إلا بعـد أن سعت بكل جهدها لكي تمنع "مسيو بينيت" من نشر الوثائق التي كانت تحت يده، والتي كان يهددها هي وزوجها بنشرها

وفيها ما يلوث شرفهما، فلما فعل، لم تستطع كبح جماح نفسها فقتلته.

وفي الوقت نفسه، كنت أسمع الناس يتحدثون عن احتمال وقوع الحرب بين فرنسا وألمانيا، وما كنت أصدق ذلك لثقتي العظيمة في أن المدنية التي وصلت إليها أوربا ستمنعها من خوض غمار الحرب، التي تعتبر أشد أنواع الوحشية. ولكن عندما زارتني صديقتي "مدموازيل كليمان"، وجدتها شاحبة وتكاد تكون مقوسة الظهر من هول الموقف فسألتها: أتظنين حقًا أن الحرب قائمة، فقالت: نعم مع الأسف، لأن الحالة تفاقمت تفاقما شديدا، فقلت لها: وماذا سيكون موقفكم أنتم يا أنصار السلام؟ قالت: سنكون بجانب شعبنا، لأن صوتنا ما زال ضعيفًا، وقد عجبت من ذلك، ولم أصدق أبدا أن الحرب ممكنة.

ولكن عندما توجهت في اليوم التالي لقضاء حاجياتي وأردت صرف ورقة مالية قيمتها ألف فرنك، لم أجد قيمة صرفها ذهبا، وأتت إلى الصرافة وبيدها كيس مليء بالفضة، وقالت لي: لقد جمع كل الذهب ولم يبق عندي سوى الفضة..

وقد فضلت أن تعطيني ورقًا بدلاً من الفضة الثقيلة، وقـد أسفت بعد ذلك لأنني كنت أجهل قيمة الدراهم الفضية.

وفي اليوم الذي أردت فيه العودة إلى "فيتيل" مـع حسـن شعراوي، سألني الخادم عما إذا كنت قد حجزت في القطـار لأنه يتعذر غالبا وجود محلات مرموقة خالية، فأجبته بالنفي، وكان أن سبقنا إلى المحطة لحجز المحلات، ولكننـا عنـدما توجهنا إلى القطار، وجدنا كل دواوينه خالية، فلم يسافر فـي القطار سوانا نحن الثلاثة وأحد المراكشيين!..

ولما وصلنا إلى "فيتيل"، وجـدت الباشـا والأولاد فـي انتظارنا بالمحطة، وقد استقبلوني في لهفة قائلين إنه لم يبـق بالفندق الذي نسكنه أحد غيرنا، لأن الناس هجـروا المدينـة خوفًا من الحرب لقربها من الحدود، وكـان ذلـك يـوم ٢٩ يوليو، وقد قررنا أن نغادر "فيتيل" بعد يومين أو ثلاثة أيـام، وعلى الأكثر في اليوم الثاني من شهر أغسطس.

وقد رأيت الخدم بالفندق محزونين، وبخاصة الخادمـات لأن أزواجهن قد طلبوا للتجنيد ولما سألنا مدير الفندق عـن الحلة، أجابنا بأنه أمر بإغلاق الفندق وهو قائم بجمع الـذهب

لإرساله إلى المصارف، وأنه ربما يطلب هو أيضا للخدمـة العسكرية.

غادرنا "فيتيل" في أول أغسطس قاصدين "سان مـوريس" بسويسرا، وكان المفروض أن يصل القطار الذي سنستقله في حوالي الساعة الحادية عشرة، ولكننا بقينا في انتظاره علـى رصيف المحطة حتى الساعة الواحدة، ولما تـأخر موعـده حوالي ثلاث ساعات، سألنا ناظر المحطة عن السبب، فقـال لنا في غضب: هل هذا يوم سباحة مع أطفال؟ فقلنا له إننا ما كنا نعلم أنه يوم التعبئة والاستعداد للحرب، ودخلـت مطعـم المحطة لأشتري شيئًا من الطعام لـلأولاد، فوجدتـه خاليـا لا من رغيف واحد وعلبة من كبد الإوز، فاشـتريتها هـي والرغيف وكان الأولاد في حالة جوع شديد، فوزعت عليهم الرغيف والكبد. وكان معي بعض الشيكولاتة، فاحتفظت بها في حقيبتي الصغيرة احتياطيا للطوارئ.

بقينا كذلك حتى الساعة الثالثة، عنـدما مـر بنـا قطـار لا نعلم مقصده، ولما سألنا ناظر المحطة عن وجهته، قال لنا: "إن اليوم يوم ترحيل الجنود، ولا يعلم أحد إلى أيـن تسـير القطارات". فركبنا هذا القطار حتى وصل بنا إلى "بلفورت".

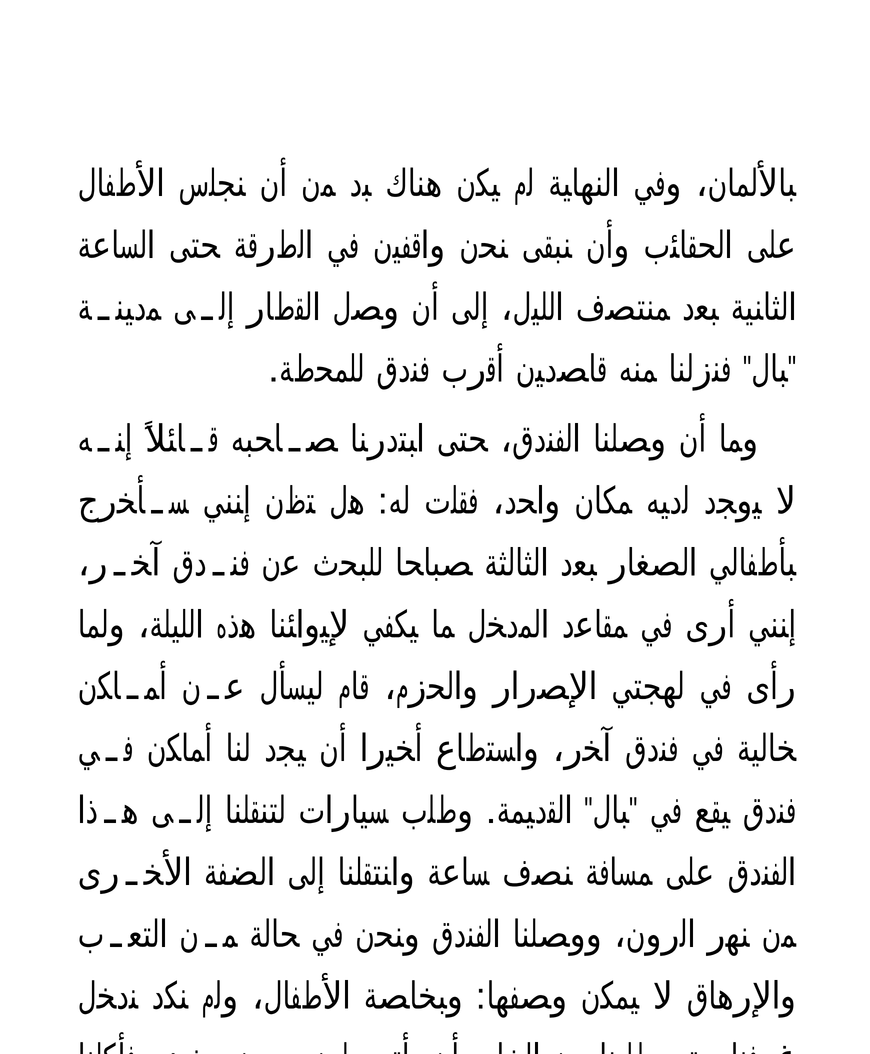
وفي تلك المحطة رأينا قطارا آخر قيل لنا إنه قاصـد إلـى الحدود من جهة سويسرا، وأشارت علينا بعـض السـيدات الفرنسيات بترك قطارنا وركوب هذا القطار، فنزلنا نحمـل أمتعتنا بأنفسنا لعدم وجود الحمالين بالمحطات وكانـت تمـر أمامنا القطارات تحمل المجندين، ونرى النساء اللاتي جـئن لودعاهم، بعضهم يبكي وبعضهم الآخر يحـاول أن يخفـي آلامه وأحزانه.

وسافر بنا القطار الآخر، وكانت قد ركبت معنا فيه سـيدة ألمانية وابنتها، وكانت ترتعد خوفًا، وقد أتـت هـذه السـيدة بابنتها والتصقت بي ورجتني أن أحميها وأن أقول إنها فـي معيتي، وقد وعدتها بذلك وطمأنت خاطرها.

ووقف بنا القطار فترة طويلة في إحدى المحطات، ثم سار بنا في حوالي الساعة العاشـرة وكـان الأولاد قـد جـاعوا وعطشوا وكان قد ركب معنا تاجر يهودي مصري وعرفنـا بنفسه، فقال لنا إن هذا القطار سوف يصل بنـا إلـى قـرب الحدود حوالي ساعة، وكان أن أخرجت ما معي من حلـوى وقسمته بين الجميع، ووعدنا التاجر بـأن يحضـر بعـض المأكولات من بوفيه المحطة عند وصولنا، وبعد أكثـر مـن

ساعة وقف القطار على مسافة قصيرة من الحدود وسمعنا البائعات ينادين باسم نوع من الفطير، فهرول اليهودي ونزل من القطار وجلسنا في انتظار أن يأتي لنا بشيء نأكله، وعلى هذا الأمل لم يتحرك أحد منا، ولما قرب موعد تحرك القطار، صعد التاجر صفر اليدين وهو يقول: حقًا، لقد كان طعم الفطير لذيذًا جدا، فقلت له: "لعلك تذكرت الأطفال، وأتيت لنا بشيء منه" فإذا به يرتبك ويقول في خجل: "أني آسف جدا.. لقد نسيت!". فلم أستطع أن أمنع نفسي من لومه قائلة: "لقد أعطيتك من زاد أولادي وأنت جائع، فكيف تنساهم؟".. فلم ينطق من شدة الخجل!

وبعد ساعة وقف القطار مرة أخرى على الحدود؛ حيث كان يجب علينا أن نترك قطارنا ونأخذ القطار السويسري الألماني. وقد حاولت أن انتهز الفرصة لأشرب قليلاً من الماء وأحضر بعض المأكولات من بوفيه المحطة، ولكن عبثًا حاولت، فقد كانت الألمانيات الجميلات مشغولات بتقديم الطعام والشراب للرجال الألمان ولم ينتبهن إلى إنني كنت أتكلم الفرنسية وهن لا يفهمنها وعدت إلى القطار، وحاولت أن أدخل أولادي إلى الصالون، فوجدت كل الدواوين مكتظة



بالألمان، وفي النهاية لم يكن هناك بد من أن نجلس الأطفال على الحقائب وأن نبقى نحن واقفين في الطرقة حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل، إلى أن وصل القطار إلى مدينة "بال" فنزلنا منه قاصدين أقرب فندق للمحطة.

وما أن وصلنا الفندق، حتى ابتدرنا صاحبه قائلاً إنه لا يوجد لديه مكان واحد، فقلت له: هل تظن إنني سأخرج بأطفالي الصغار بعد الثالثة صباحا للبحث عن فندق آخر، إنني أرى في مقاعد المدخل ما يكفي لإيوائنا هذه الليلة، ولما رأى في لهجتي الإصرار والحزم، قام ليسأل عن أماكن خالية في فندق آخر، واستطاع أخيرا أن يجد لنا أماكن في فندق يقع في "بال" القديمة. وطلب سيارات لتنقلنا إلى هذا الفندق على مسافة نصف ساعة وانتقلنا إلى الضفة الأخرى من نهر الرون، ووصلنا الفندق ونحن في حالة من التعب والإرهاق لا يمكن وصفها: وبخاصة الأطفال، ولم نكد ندخل غرفنا حتى طلبنا من الخادم أن يأتي بلبن وجبن وخبز، فأكلنا ثم نمنا نوما عميقًا.

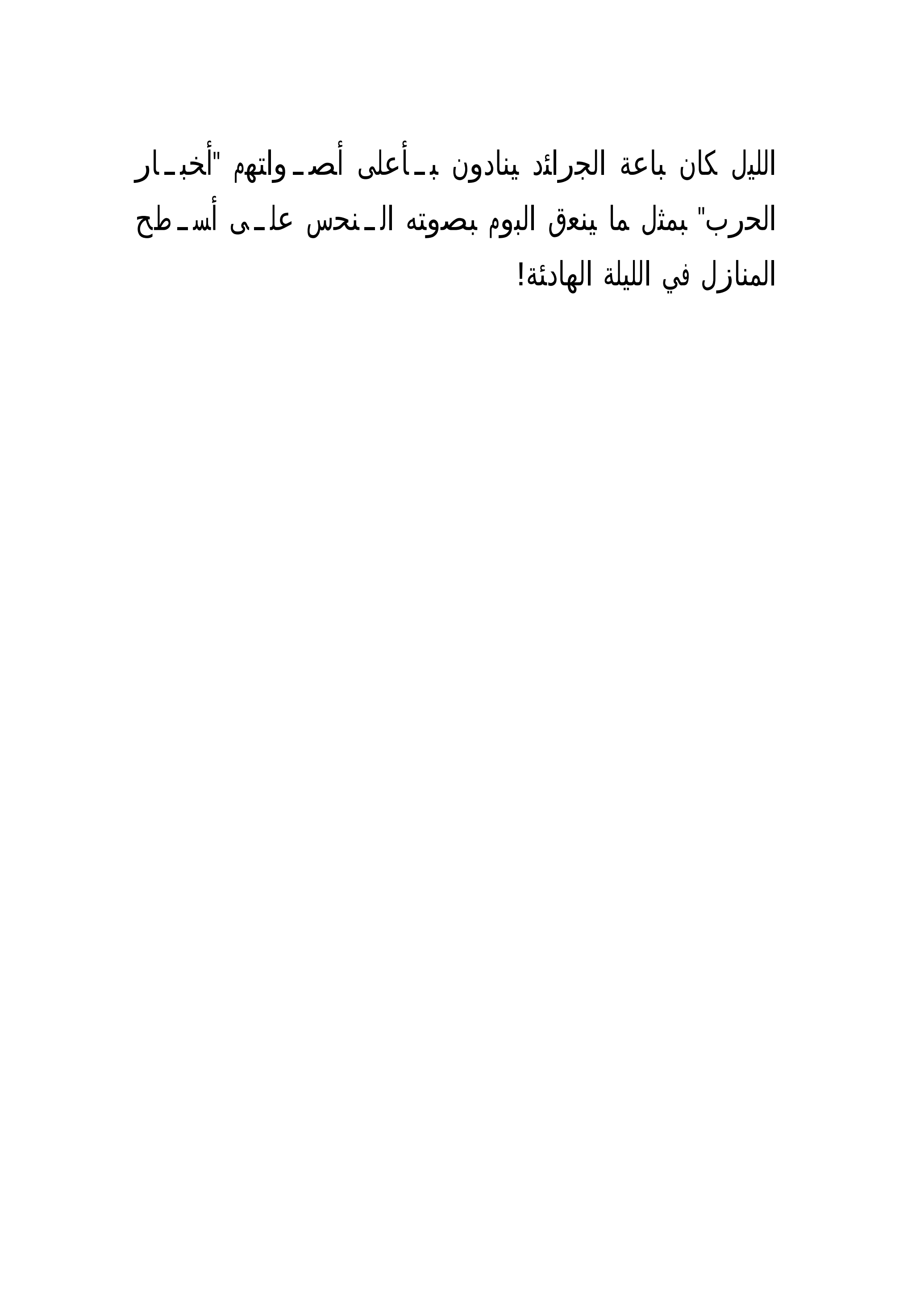
استيقظنا في الصباح على صوت الأطفال يلعبون في الشارع، وقد شعرت بالألم وأنا أنظر إلى هؤلاء الصغار

الذين كانوا يضحكون ويمرحون جاهلين كل ما يدور حولهم، غير مدركين أن الحرب سوف تحولهم إلى أيتام بؤساء!..

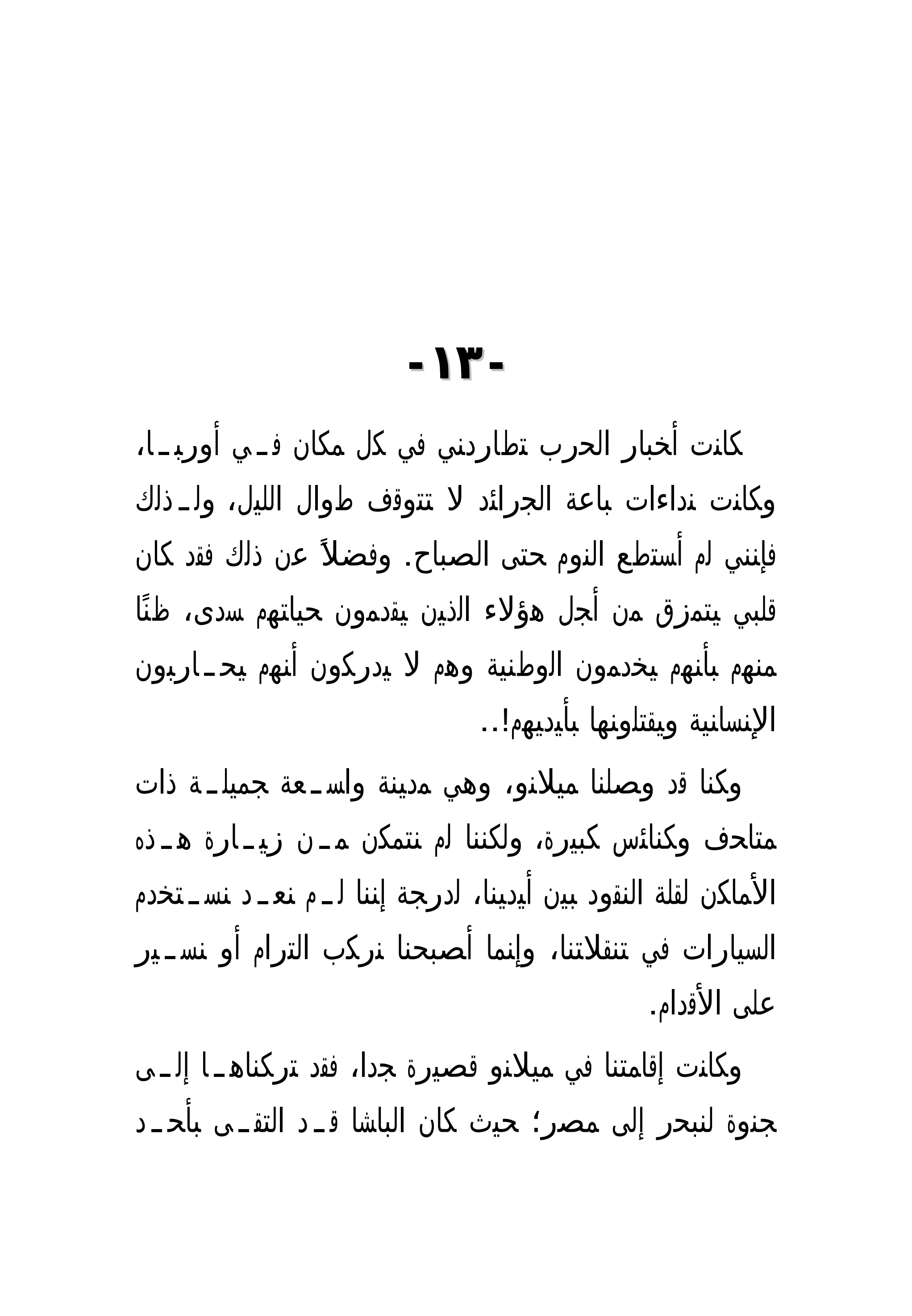
وفي يوم الأحد ٢ أغسطس ١٩١٤، بارحنا "بـال" إلـى زيورخ؛ حيث وصلنا في الخامسة مساء.. ونزلنا في فنـدق "بورولاك"، ولم نجد أماكن لائقة رغم إننا كنا قد حجزنا من قبل، ولكن كل الناس كانوا قد هاجروا إلى سويسرا باعتبارها بلد الحياة، ومن كثرة الزحام التزمت الفنادق بالاقتصاد قـدر الإمكان في المعيشة والغذاء، فلا يحصل النـزلاء إلا علـى القوت الضروري فقط، وكان علينا أن نتوجـه إلـى غرفـة الطعام للحصول على الإفطار، وانتظرنا في طابور طويـل أكثر من نصف ساعة حتى جاء دورنا..

وذات يوم افتقدنا الملح، فسألنا عن السبب، فقيـل لنـا إن هذه بوادر اقتصاد الحرب، وبدأنا نتنزه سيرا علـى الأقـدام بسبب غلاء المعيشة، وصرنا نتحاشى طلـب الشـاي بعـد الظهر لأنه كان يكلفنا جنيها تقريبا.

وإزاء هذه الظروف، قرر الباشا أن نعود إلى مصر عـن طريق إيطاليا، فتركنا زيورخ يـوم الجمعـة ٧ أغسـطس ١٩١٤؛ حيث وصلنا إلى ميلانو في الخامسة مسـاء، وفـي



الليل كان باعة الجرائد ينادون بأعلى أصواتهم "أخبار الحرب" بمثل ما ينعق البوم بصوته النحس على أسطح المنازل في الليلة الهادئة!



-١٣-

كانت أخبار الحرب تطاردني في كل مكان في أوربا، وكانت نداءات باعة الجرائد لا تتوقف طوال الليل، ولذلك فإنني لم أستطع النوم حتى الصباح. وفضلاً عن ذلك فقد كان قلبي يتمزق من أجل هؤلاء الذين يقدمون حياتهم سدى، ظنًا منهم بأنهم يخدمون الوطنية وهم لا يدركون أنهم يحاربون الإنسانية ويقتلونها بأيديهم!..

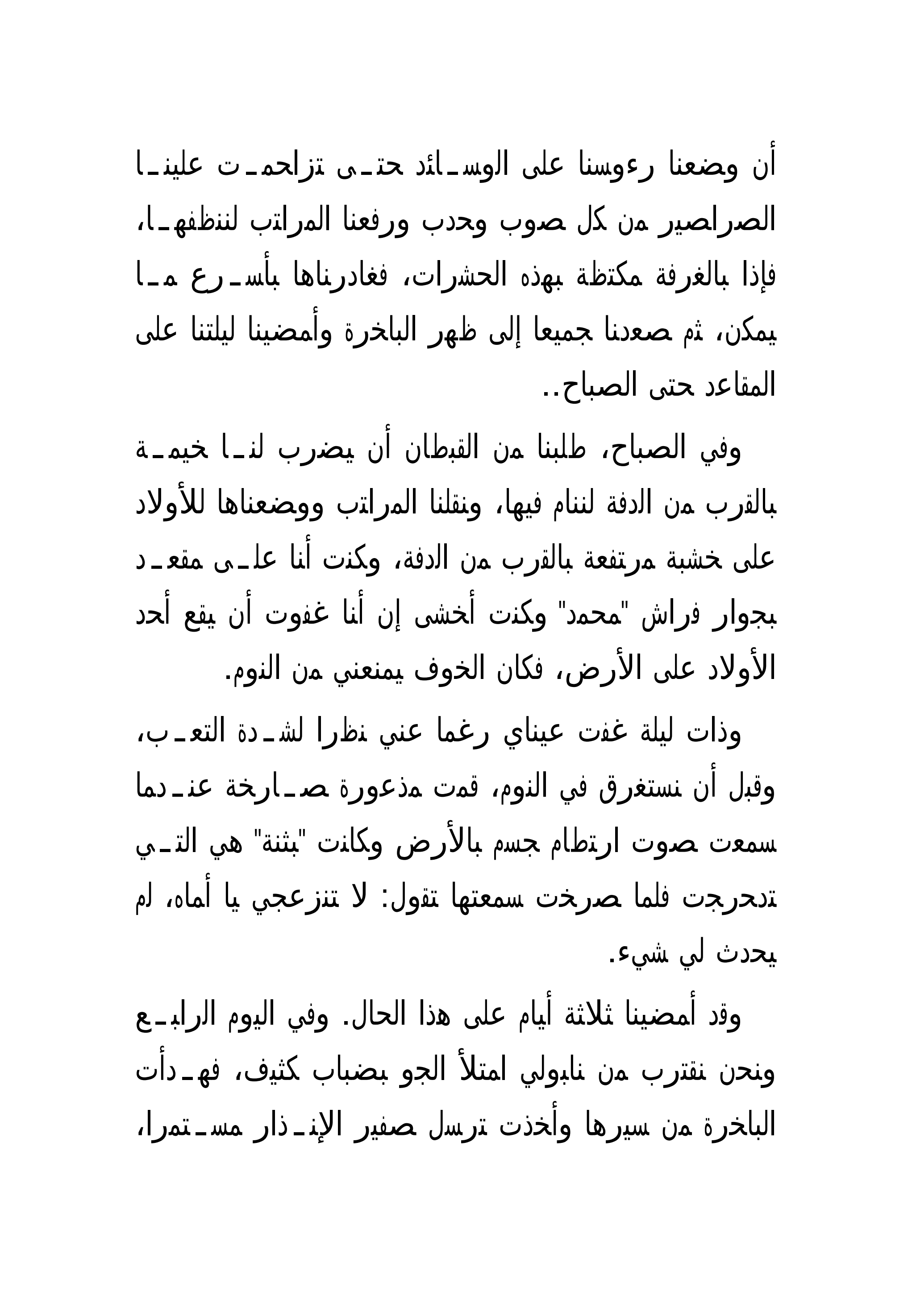
وكنا قد وصلنا ميلانو، وهي مدينة واسعة جميلة ذات متاحف وكنائس كبيرة، ولكننا لم نتمكن من زيارة هذه الأماكن لقلة النقود بين أيدينا، لدرجة إننا لم نعد نستخدم السيارات في تنقلاتنا، وإنما أصبحنا نركب الترام أو نسير على الأقدام.

وكانت إقامتنا في ميلانو قصيرة جدا، فقد تركناها إلى جنوة لنبحر إلى مصر؛ حيث كان الباشا قد التقى بأحد

المصريين الذي تنازل لنا عن محلات على إحدى البـواخر الإيطالية العتيقة، لأن البواخر كانت جميعها مزدحمـة جـدا وليس بها سرير واحد خال.

وهكذا بارحنا ميلانو يوم الثلاثـاء ١١ أغسـطس ١٩١٤ بقطار الساعة التاسعة والربع؛ حيث وصلنا إلى جنـوة فـي الساعة الثانية عشرة والثلث، وقد ركبنا الباخرة الإيطالية ليلة وصولنا إلى جنوة، وكنت أتوق إلى العودة بأسرع ما يمكـن إلى وطني، خوفًا من انزعـاج والـدتي – التـي تركتهـا مريضة- إذا علمت بنشوب الحرب، وكنـت أعلـم أن كـل صدمة نفسية عنيفة كانت تدينها من القبر.

قامت بنا الباخرة بعد منتصف الليل بقليل، وعندما أردنـا النزول إلى غرف النوم، لم يمكننا أن نبقي فيها أكثـر مـن دقائق نظرا لقذارتها وشدة الحر فيها، فتوجـه الباشـا إلـى القبطان يرجوه أن يستبدل لنا هذه الغرف فغيرها، ولكن لـم يتيسر ذلك لعدم وجود غيرها. ولكن قوميسـيري البـاخرة عرضوا عليه تأجير غرفهم نظير مبلغ باهظ، فقبل من أجـل راحتنا ودفع كل ما كان يمتلكه تقريبا، وصعدنا فرحين إلـى تلك الغرف، وكانت ذات منافذ كثيرة يدخلها الهواء، ولكن ما



أن وضعنا رءوسنا على الوسائد حتى تزاحمت علينا الصراصير من كل صوب وحدب ورفعنا المراتب لننظفها، فإذا بالغرفة مكتظة بهذه الحشرات، فغادرناها بأسرع ما يمكن، ثم صعدنا جميعا إلى ظهر الباخرة وأمضينا ليلتنا على المقاعد حتى الصباح..

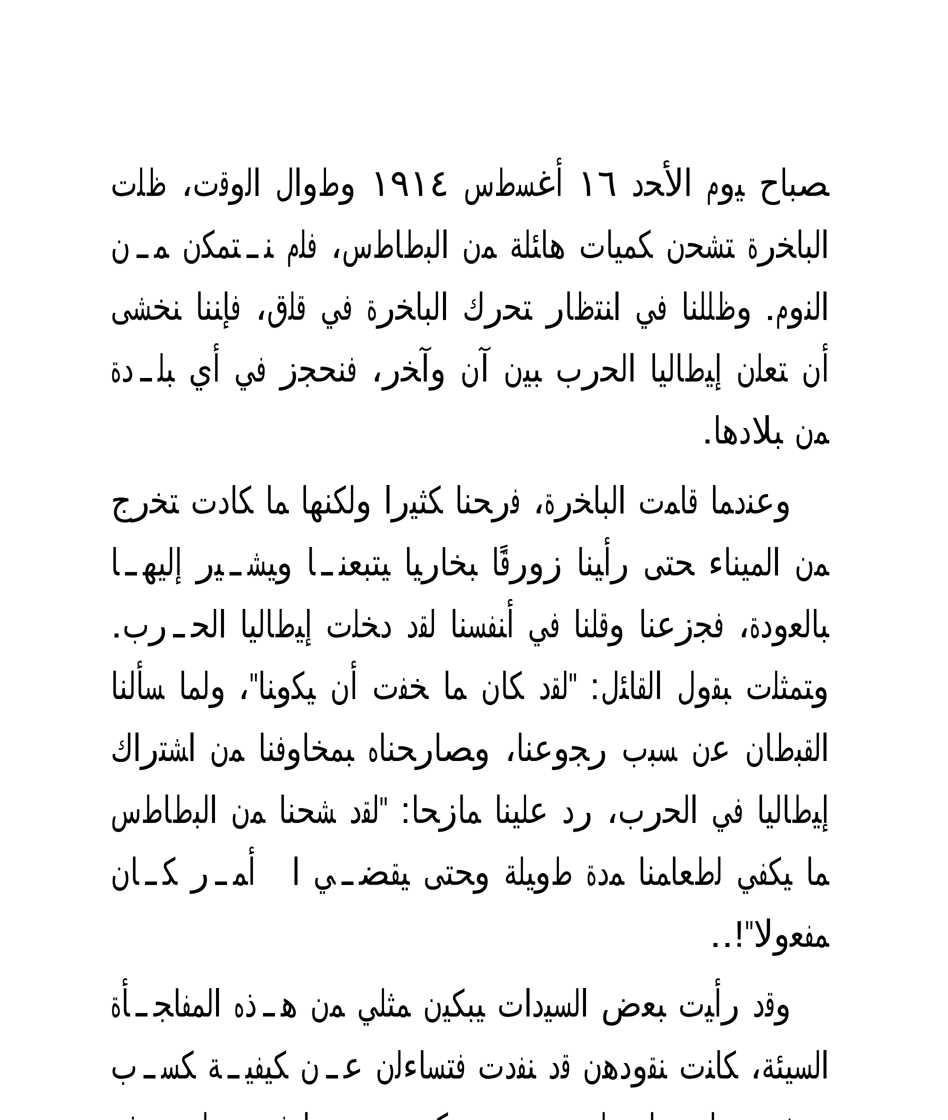
وفي الصباح، طلبنا من القبطان أن يضرب لنا خيمة بالقرب من الدفة لننام فيها، ونقلنا المراتب ووضعناها للأولاد على خشبة مرتفعة بالقرب من الدفة، وكنت أنا على مقعد بجوار فراش "محمد" وكنت أخشى إن أنا غفوت أن يقع أحد الأولاد على الأرض، فكان الخوف يمنعني من النوم.

وذات ليلة غفت عيناي رغما عني نظرا لشدة التعب، وقبل أن نستغرق في النوم، قمت مذعورة صارخة عندما سمعت صوت ارتطام جسم بالأرض وكانت "بثنة" هي التي تدحرجت فلما صرخت سمعتها تقول: لا تنزعجي يا أماه، لم يحدث لي شيء.

وقد أمضينا ثلاثة أيام على هذا الحال. وفي اليوم الرابع ونحن نقترب من نابولي امتلأ الجو بضباب كثيف، فهدأت الباخرة من سيرها وأخذت ترسل صفير الإنذار مستمرا،

بشكل مزعج، وأثناء ذلك شعرنا بهزة عنيفة أعقبها صـراخ من ركاب الدرجة الثالثة فهرولت نحو الحاجز لأبحث عـن أولادي، ظنًا مني أن المركب قد اصطدمت بغيرها، ورأيـت شبح الموت أمامي عندما نظرت إلى البحر ووجدت قطعا من الخشب وعددا من القبعات طافية على وجه الماء، ولم أشـك لحظة واحدة في أن الباخرة قد تحطم جزء منها إثر الصدمة وإنها على وشك أن تغرق، فجريت أبحث عن ولدي ليكـون بجانبي وقت الغرق. ولكن القبطان أسرع فطمأن الركاب بأن باخرتنا قد حطمت سفينة صيد. وأسـرع البحـارة بـإنزال قوارب النجاة ليبحثوا عن الغرقى. وصاروا ينشلونهم واحدا بعد الآخر فيما عدا واحد منهم ظلوا يبحثون عنه أكثر مـن ساعتين حتى يئسوا من العثور عليه، وعادت قوارب النجـاة بمن فيها وانقشع الضباب كأن لم يكن وكأنما تلك الساعة التي خيم فيها الضباب ما مرت إلا ليقع هذا الحادث وليغرق ذلك الرجل المسكين، وكأنها ساعة من ساعات القضاء التي يهبط فيها ملك الموت ليأخذ من اختاره القدر.

وقد وصلت الباخرة إلى نابولي عند المساء، وأمضينا فيها الليل، ثم وصلنا إلى كتانيا في الساعة الحادية عشـرة مـن



صباح يوم الأحد ١٦ أغسطس ١٩١٤ وطوال الوقت، ظلت الباخرة تشحن كميات هائلة من البطاطس، فلم نتمكن من النوم. وظللنا في انتظار تحرك الباخرة في قلق، فإننا نخشى أن تعلن إيطاليا الحرب بين آن وآخر، فنحجز في أي بلدة من بلادها.

وعندما قامت الباخرة، فرحنا كثيرا ولكنها ما كادت تخرج من الميناء حتى رأينا زورقًا بخاريا يتبعنا ويشير إليها بالعودة، فجزعنا وقلنا في أنفسنا لقد دخلت إيطاليا الحرب. وتمثلت بقول القائل: "لقد كان ما خفت أن يكونا"، ولما سألنا القبطان عن سبب رجوعنا، وصارحناه بمخاوفنا من اشتراك إيطاليا في الحرب، رد علينا مازحا: "لقد شحنا من البطاطس ما يكفي لطعامنا مدة طويلة وحتى يقضي ا أمر كان مفعولا"!..

وقد رأيت بعض السيدات يبكين مثلي من هذه المفاجأة السيئة، كانت نقودهن قد نفدت فتساءلن عن كيفية كسب عيشهن وليس لمعظمهن مهنة يتكسبن منها في ظروف الحرب، أما أنا فقد كنت أبكي لأن هذا التأخير يمكن أن يكون سببا في القضاء على حياة والدتي المريضة، أما بالنسبة

لأسباب الحياة، فقد كان معي من الحلي والجواهر ما يكفيني ثمنها أنا وأولادي لعدة سنين.

وكنت وأنا في عزلتي داخل الخيمة أسمع إحدى السيدات تقول: إنني أحسن الطهو، فإذا حجزت في إيطاليا، فيمكننـي أن أشتغل في بنسيون أو عند عائلة وأخرى تقول: أمـا أنـا فأحسن الحياكة والتفصيل، ويمكنني إذا احتجت أن أزاول هذه المهنة.. وثالثة تقول: أما أنا فلا أعرف حتى رتق فتق فـي ملابسي، ولا طهو أي نوع من الطعام، والقيـام بالخدمـة.. فماذا أصنع؟ ثم أضافت بعد برهـة قائلـة: أعمـل مربيـة أطفال!..

كنت أسمع كل ذلك وأسأل نفسي.. ماذا كـان يمكـن أن أفعل لو كنت في مثل ظروفهن؟

وجدتني لا أحسن الطهو، ولا أجيد الحياكة، ولا يمكننـي أن أترك ولدي وأدخل بيتًا للخدمة، وأعترف أن هـذا كـان درسا لي، لأنني بعد ذلك اجتهدت في تعلم الطهو، وتقـدمت في فن التفصيل والحياكة.

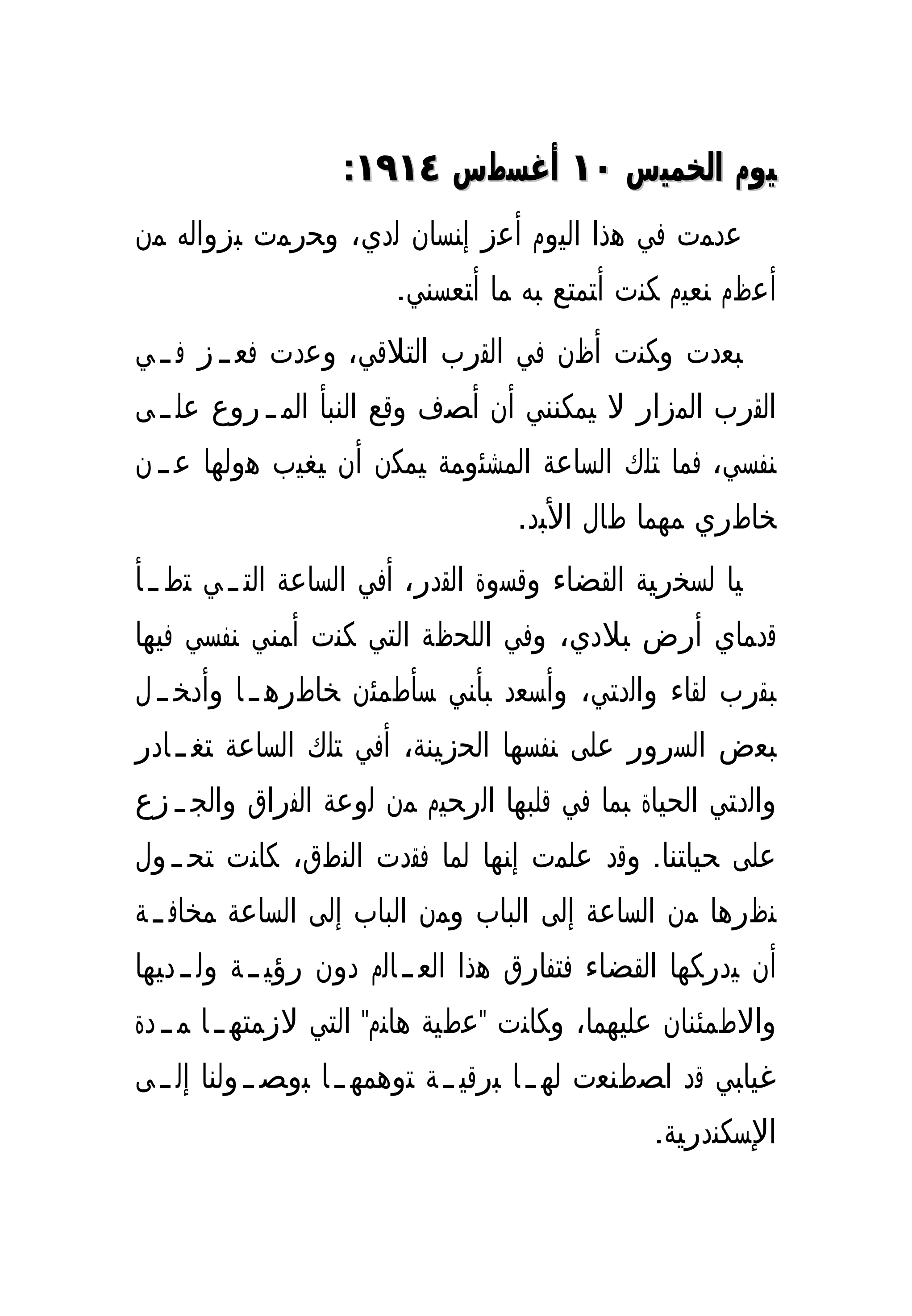
وعندما عادت الباخرة إلى ميناء كتانيا، عرفنـا السـبب، وهو أن شركة البواخر طلبت من الإسكندرية تموين الباخرة

بالفحم اللازم لرحلة العودة، فرفضت طلبها، ولذلك أعيـدت لتتزود باحتياجاتها، وبذلك اضطررنا للبقاء ليلة أخرى موعد وصولنا إلى الإسكندرية أربعا وعشرين ساعة، ولكننـا مـن ناحية أخرى كنا في منتهى الفرحة لعدم دخول إيطاليا الحرب حتى ذلك الوقت.

وقد وصلنا إلى الإسكندرية يوم ١٩ أغسطس ١٩١٤، وقد عجبنا لعدم وجود أحد في انتظارنا إلا الكاتب وفتـاة كانـت تعلم ابنتي اللغة العربية. وقد شكرتها وفـي الوقـت نفسـه عاتبتها لتكبدها مشاق السفر وهي تعلم إنني لا أستطيع البقاء في الإسكندرية أكثر من ليلة واحدة لأنني فـي لهفـة للقـاء والدتي والاطمئنان عليها.

وتوجهنا بعد ذلك إلى محطة الرمل، ولم أكد أنـزل مـن العربة حتى وجدت عامل التلغراف على الباب وسلمني برقية فتحتها بيد مرتعدة، ولما وقع نظري على سطورها، أحسست أن الأرض قد اهتزت وأن الدنيا تدور بي، فقد كان التلغراف يحمل نبأ مشئوما هو خبر وفاة والدتي المسكينة.

وإنني أنقل من مفكرتي الخاصة مـا كتبتـه عـن هـذه الفاجعة.

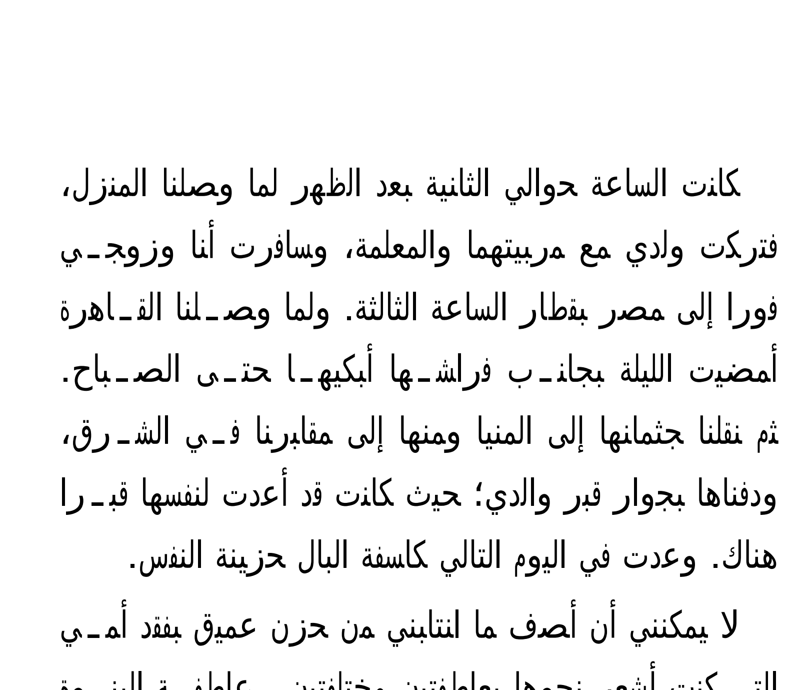


يوم الخميس ١٠ أغسطس ١٩١٤:

عدمت في هذا اليوم أعز إنسان لدي، وحرمت بزواله من أعظم نعيم كنت أتمتع به ما أتعسني.

بعدت وكنت أظن في القرب التلاقي، وعدت فعز في القرب المزار لا يمكنني أن أصف وقع النبأ المروع على نفسي، فما تلك الساعة المشئومة يمكن أن يغيب هولها عن خاطري مهما طال الأبد.

يا لسخرية القضاء وقسوة القدر، أفي الساعة التي تطأ قدماي أرض بلادي، وفي اللحظة التي كنت أمني نفسي فيها بقرب لقاء والدتي، وأسعد بأني سأطمئن خاطرها وأدخل بعض السرور على نفسها الحزينة، أفي تلك الساعة تغادر والدتي الحياة بما في قلبها الرحيم من لوعة الفراق والجزع على حياتنا. وقد علمت إنها لما فقدت النطق، كانت تحول نظرها من الساعة إلى الباب ومن الباب إلى الساعة مخافة أن يدركها القضاء فتفارق هذا العالم دون رؤية ولديها والاطمئنان عليهما، وكانت "عطية هانم" التي لازمتها مدة غيابي قد اصطنعت لها برقية توهمها بوصولنا إلى الإسكندرية.



كانت الساعة حوالي الثانية بعد الظهر لما وصلنا المنزل، فتركت ولدي مع مربيتهما والمعلمة، وسافرت أنا وزوجي فورا إلى مصر بقطار الساعة الثالثة. ولما وصلنا القاهرة أمضيت الليلة بجانب فراشها أبكيها حتى الصباح. ثم نقلنا جثمانها إلى المنيا ومنها إلى مقابرنا في الشرق، ودفناها بجوار قبر والدي؛ حيث كانت قد أعدت لنفسها قبرا هناك. وعدت في اليوم التالي كاسفة البال حزينة النفس.

لا يمكنني أن أصف ما انتابني من حزن عميق بفقد أمي التي كنت أشعر نحوها بعاطفتين مختلفتين.. عاطفة البنوة وعاطفة الأمومة اللتين امتزجتا أثناء مرضها الطويل، وما كانت تستلزمه حالتها المحزنة من ملاطفة واهتمام مستمرين.

نعم، شعرت عند موتها بيتم وثكل في وقت واحد. شعور غريب مؤلم أضناني، وكنت أظنه أقصى ما يكون من درجات الحزن، وما كنت أحسب أن القدر يخبئ لي بين طيات غيبه نكبة أفدح وأقسى.. وفاة أخي العزيز وعمادي الوحيد، وأن أحتمل هذه المصيبة كما احتملت غيرها. وكم حمدت ا أن اختار والدتي إلى جواره قبل هذه الفاجعة الكبرى.

ماتت والدتي، وكان يخفف من حزني عليها زيادة عطف أخي علي وملاطفته لي في كل لحظة، إذ ما من يوم يمر إلا وأراني وجهه المحبوب في الصبح والمساء، وغمرني بجميع أنواع البر والحنان، وقد كان هذا من جانب أخي المحبـوب يعوضني ما فقدته، كأنه كان يحس بأنني سأحرم منه عاجلاً، فكان يفيض على من حبه وحنانه ليمتعني بأكبر قسـط مـن محبته، وقد عشت بعد ذلك ثلاث سنوات كدت أنسى خلالهـا مصابي في أمي العزيزة بفضل رعاية أخي وعنايته.

كان أخي يأتي لزياراتي إن لم يكن صباحا ففي المسـاء، وكنا نتحدث في الأمور السياسية، وكان رأيه مخالفًا لرأيـي، فقد كنت أعجب بالحلفاء، بينمـا كـان يـرى أنهـم أنـاس مستعمرون وأنهم الذين أثاروا الحرب، وكان يطلب النصـر للألمان والأتراك.

أثناء رحلتنا في أوربا.. وصلنا خبر محاولة الاعتداء على حياة الخديوي عباس في استانبول، وكان الذي حاول اغتيال الخديوي هو شاب مصري يدعى "محمود مظهـر". وكـان الخديوي في طريقه إلى الباب العالي، فانقلب الشـارع إلـى معركة حربية لأن الجندرمة (الشرطة) ظنوا أن هناك انقلابا

دبره حزب الائتلاف والحرية ضـد حكـم حـزب الاتحـاد والترقي، فسقط في الشارع أكثر من ثلاثين شخصا، وقتـل أيضا الجاني "محمود مظهر"، وأصيب جلال باشا إصـابات انتهت بقطع قدميه، فغضبت عليه زوجته وهي بنت الخديوي وكانت قد تزوجته في مصر يوم سقوط "درنة" وقال فيه أحمد شوقي بك:

فـــرح هنـــا وهنـــاك قـــام مـــآتم
مـــولى ينـــوح وتـــابع يتـــرنم

وقد أصرت على طلب الطلاق منه، ومـا زالـت حتـى طلقت.

وبعد أسبوعين تقريبا من حادث الاعتداء، أعلنت الحرب العظمى، وكشـفت الحكومـة البريطانيـة عـن كراهيتهـا للخديوي.. وأبلغت قائمقام الخديوي حسين رشدي باشا علـى لسان نائب اللورد كتشنر فـي ١٢ أغسـطس ١٩١٤ بأنهـا لا ترغب في عودته في مصر. وبدأت الحـرب والخـديوي ما زال موجودا خارج مصر، وبعد ذلـك بقليـل تـردد أن الإنجليز أعلنوا عزل الخديوي، وأن جريدة الطان الفرنسـية كتبت مقالاً افتتاحيا في هذا الموضوع قالت فيه: "إن انجلترا

قد أحسنت بعزل الخديوي لأنه لم يكـن صـديقًا لإنجلتـرا أو فرنسا".

وفي يوم ٢١ ديسمبر وصل إلى الخـديوي نبـأ إعـلان الحماية على مصر، وإنها صارت سلطنة، وأن الأمير حسين كامل عم الخديوي قد عين سلطانًا عليها، وأنـه نظـرا لأن الخديوي قد انضم إلى أعداء ملك الإنجليز، فقد حـرم مـن الرجوع إلى مصر وإن حفظت له أملاكه الخاصة.

حلم رهيب

ذات ليلة رأيت حلما مزعجا أبكاني حتى صرت أشهق في نومي، واستيقظ زوجي وسألني عن سبب بكائي، فأجبته بأني رأيت في منامي إنني سافرت إلى المنيا وقصدت بيت أخـي وكان إذ ذاك هناك، فرأيت والدتي أمام باب غرفـة نومـه تكنس الأرض وهي كئيبة كاسفة. فسألتها عن أخي وزوجته فقالت لقد افترقا. فخرجت أبحث عنهما، ودخلت غرفة بجانب الباب فوجدت زوجة أخي في ثياب سوداء وبجانبهـا أختهـا حرم حسين بك رياض مرتدية أيضا إزارها الأسود، وكأنهما تتأهبان للخروج في غضب، فحاولت منعهما، فنظرتـا إلـي نظرة حنق، فعز علي ذلك وبكيت.

تشاءمت من ذلك الحلم.. ولكن في صبيحة اليوم التالي حضر شقيقي من المنيا، وزارني وسألني عن سبب تـأخري في السفر إليه مع صديقاتي اللاتي دعاهن معي لقضاء بضعة أيام عنده، ولما انتحلت له بعض الأعذار ألح علي في السفر في أقرب وقت. وكان ذلك يوم السبت ١٥ فبرايـر ١٩١٧، فوعدته بحضورنا يوم الثلاثاء. ولكن حال مـرض إحـدى صديقاتي دون سفرنا في ذلك اليوم، كما اعترت ولدي فـي مساء اليوم نفسه حمى شديدة اضطرتني للسهر بجانبه حتـى بعد منتصف الليل.

وفي صباح اليوم الأربعاء أيقظني زوجـي مبكـرا كمـا أيقظني ليلة حلمي، فقمت منزعجة وسألته عما حل بـابني، فقال لي: "لقد أيقظتك لنسافر إلى المنيا لأن أختـك مريضـة جدا". فأجبته: "وكيف أسافر وولدي مريض؟"، قال: "إنها في مرض الموت، أو في الحقيقة إنها توفيت".. فشعرت بحـزن شديد لهذا النبأ.

وذهبت إلى غرفة ولدي لأطمئن على حالتـه. وبعـد أن أعطيت مربيته التعليمات اللازمة، خرجـت وكـان موعـد

الرحيل قد أزف، فارتديت إزاري وخرجت باكية على أختي. مشغولة على والدي.

ولما وصلت إلى المحطة، وجدت سعيد آغا في انتظارنـا وعلى وجهه علامات الحزن الشديد. ولمـا ركبنـا القطـار تركني زوجي كعادته وتوجه إلى محل الرجال، وبقى معـي سعيد آغا، فقصصت عليه الحلم الذي رأيته، فقال: "لقد تحقق حلمك.. قلت: كيف ذلك ثم هل حـدث خـلاف بـين أخـي وزوجته استدعى فراقهما؟ فسكت ولم يرد.

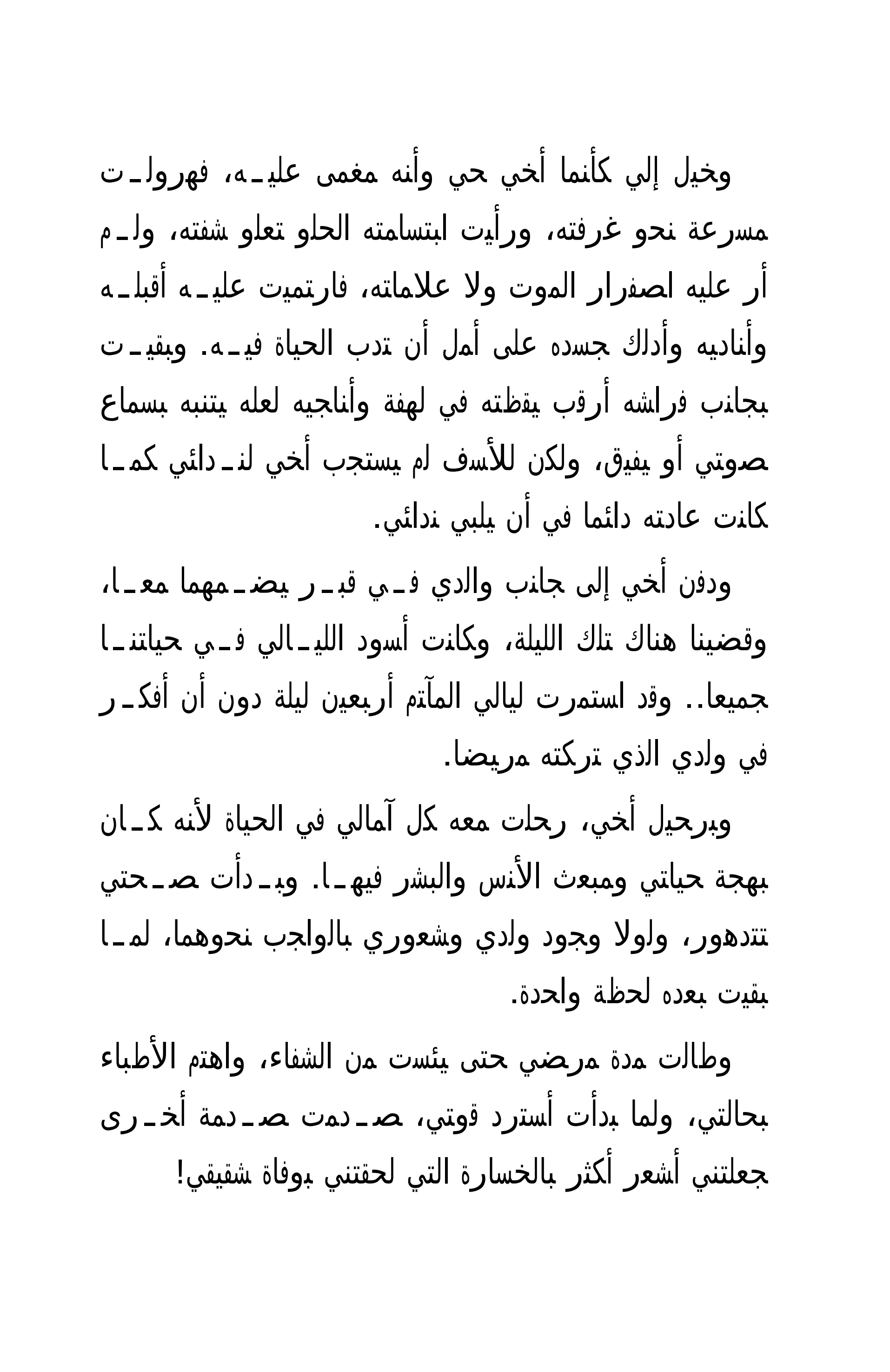
وطوال مدة السفر، كنت أتخيل أخي ينتظرنـي كعادتـه، وأفكر فيما أحدثته عنده وفاة أختي من الكدر لأنه كان يحبها ويجلها إذ كانت عطوفة علينا، وتربي ولداها محمد وإبراهيم وفؤاد سلطان عندنا، وكان شقيقي يحب "فؤاد" ويناديه بابنـه، وإن كان في مثل سنه ورضع معه، وهو الذي أعطاه اسـمه وسماه "فؤاد سلطان"، وكانت أختي هذه ثانية بنات والدي من ابنة عمه، وكانت تحب والدتي التي كانت فـي مثـل سـنها تقريبا، وكانت والدتي تبادلها الحب.

ولما وصل القطار بنا إلى محطة المنيا، لم أجد شقيقي في انتظارنا بل وجدت الآغا.. فظننـت مشـغولاً بـالمعزين..

وسألت الآغا إلى أين أذهب.. إلى بنـي أحمـد أم إلـى دار شقيقي! فأجابني: طبعا عندنا. فتبادر إلى ذهني أن أختي قـد توفيت عند شقيقي.

وكم دهشت لما رأيته من علامات الحزن الشـديد علـى وجوه الناس جميعا، ولما شـاهدته مـن إغـلاق المحـلات التجارية.. وازدادت دهشتي أكثر لما سمعته من ندب النساء وعويلهن في الطرق والمنازل.

لاحظت كل ذلك ولم يخطر ببالي قط أن سوءا قد أصاب أخي، وأن كل هذا من أجل وفاته، ولمـا وصـلت المنـزل دهشت من كثرة الزحام حتى صار من الصعب علي أن أشق لنفسي طريقًا رغم أنهم كانوا يفسحون لي الطريـق. وكـان الناس ينظرون إلي ذاهلين.. وقد علمـت فيمـا بعـد أنهـم حسبوني قد فقدت عقلي من هول الصدمة لأنني لم أبك ولـم تبدو علي إلا علامات الاندهاش والاستغراب. وقابلتني زوجة أخي قائلة: "انظري ما أصابنا". فقلت لها: "هل توفيت أختـي عندكم؟" فقالت: "إن مصيبتنا في أخيـك"، فأحسسـت كأنهـا طعنتني بخنجر وصل إلى أعماق قلبي.



وخيل إلي كأنما أخي حي وأنه مغمى عليه، فهرولت مسرعة نحو غرفته، ورأيت ابتسامته الحلو تعلو شفته، ولم أر عليه اصفرار الموت ولا علاماته، فارتميت عليه أقبله وأناديه وأدلك جسده على أمل أن تدب الحياة فيه. وبقيت بجانب فراشه أرقب يقظته في لهفة وأناجيه لعله يتنبه بسماع صوتي أو يفيق، ولكن للأسف لم يستجب أخي لندائي كما كانت عادته دائما في أن يلبي ندائي.

ودفن أخي إلى جانب والدي في قبر يضمهما معا، وقضينا هناك تلك الليلة، وكانت أسود الليالي في حياتنا جميعا.. وقد استمرت ليالي المآتم أربعين ليلة دون أن أفكر في ولدي الذي تركته مريضا.

وبرحيل أخي، رحلت معه كل آمالي في الحياة لأنه كان بهجة حياتي ومبعث الأنس والبشر فيها. وبدأت صحتي تتدهور، ولولا وجود ولدي وشعوري بالواجب نحوهما، لما بقيت بعده لحظة واحدة.

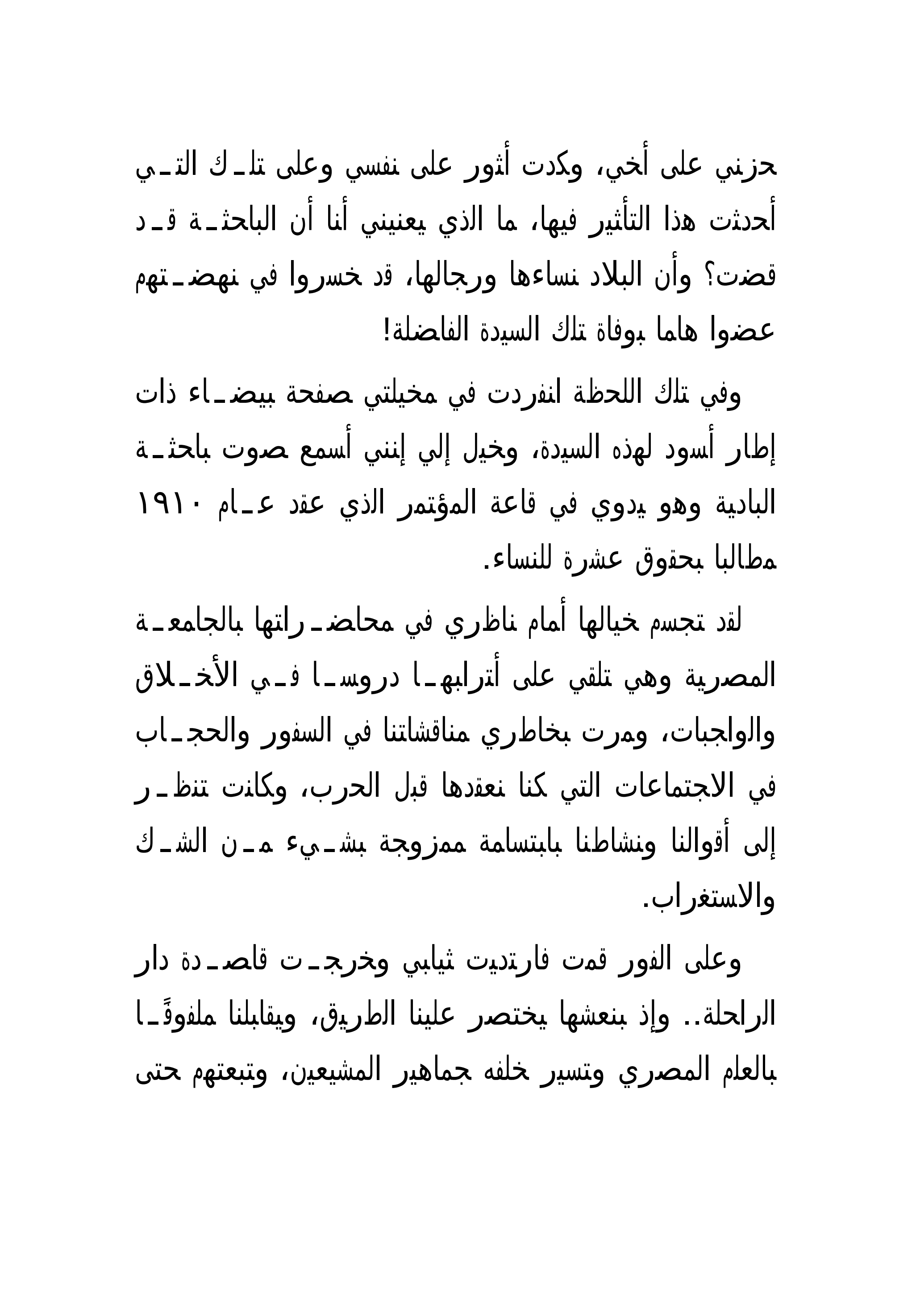
وطالت مدة مرضي حتى يئست من الشفاء، واهتم الأطباء بحالتي، ولما بدأت أسترد قوتي، صدمت صدمة أخرى جعلتني أشعر أكثر بالخسارة التي لحقتني بوفاة شقيقي!

- ١٤ -

أريد قبل أن أتحدث عن الحياة السياسية في مصـر فـي الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى، وما ترتب علـى ذلك من أحداث أدت إلى قيام ثورة ١٩١٩.. أريد قبل ذلـك أن أتحدث عن واقعة حدثت في تلك الأيام، وكانت ذات أثـر ومدلول على نفسيتي وتفكيري.

فقد حدث في صبيحة يوم ٢١ أكتوبر ١٩١٨ أن جـاءتني إحدى المربيات في ثياب سوداء تعودت أن تزورنـي بهـا مجاملة لي في حزني على شقيقي وقـد بـادرتني بصـوت متهدج قائلة: لقد ماتت الباحثة!..

وشعرت بهزة حزن في نفسي لهذا الخبر.. وما كنت أظن أن شيئًا في الحياة بعد فقدان أخي يستطيع أن يهز شـعوري هذه الهزة العنيفة، وقد عجبت لذلك إذ كنت قد قطعـت كـل صلة بالحياة، وحسبت أنه لم يبق في شعوري متسـع لغيـر



حزني على أخي، وكدت أثور على نفسي وعلى تلـك التـي أحدثت هذا التأثير فيها، ما الذي يعنيني أنا أن الباحثـة قـد قضت؟ وأن البلاد نساءها ورجالها، قد خسروا في نهضـتهم عضوا هاما بوفاة تلك السيدة الفاضلة!

وفي تلك اللحظة انفردت في مخيلتي صفحة بيضـاء ذات إطار أسود لهذه السيدة، وخيل إلي إنني أسمع صوت باحثـة البادية وهو يدوي في قاعة المؤتمر الذي عقد عـام ١٩١٠ مطالبا بحقوق عشرة للنساء.

لقد تجسم خيالها أمام ناظري في محاضـراتها بالجامعـة المصرية وهي تلقي على أترابهـا دروسـا فـي الأخـلاق والواجبات، ومرت بخاطري مناقشاتنا في السفور والحجـاب في الاجتماعات التي كنا نعقدها قبل الحرب، وكانت تنظـر إلى أقوالنا ونشاطنا بابتسامة ممزوجة بشـيء مـن الشـك والاستغراب.

وعلى الفور قمت فارتديت ثيابي وخرجـت قاصـدة دار الراحلة.. وإذ بنعشها يختصر علينا الطريق، ويقابلنا ملفوفًـا بالعلم المصري وتسير خلفه جماهير المشيعين، وتبعتهم حتى

مقرها الأخير؛ حيث واروا التراب ذلـك الجسـم النشـيط، وأغلقوا القبر على شعلة الذكاء المتقدة.

ولما عدت إلى منزلي واختليـت بـأحزاني، شـعرت أن الأموات أكثر تمسكًا بحقوقهم منا، فقد ألقوا على عواتقنا تراثًا مقدسا يطالبوننا باحترامه واستغلاله في كل فرصة، لذلك لمـا رأينا نحن النساء أن الرجال قد سبقونا لتكريم ذكرى فقيدتنا، لم أستطع إلا أن أتجرد من أنانية أحزاني، وأطالب زميلاتي بالواجب عليهن نحو "الباحثة" فقمنا بدورنا بإقامة حفل تـأبين لها بالجامعة المصرية الأولى. وأرادت السـيدات أن تكـون تحت رياستي، فاعتليت المنبر أول مرة في حياتي.

وبعد ذلك كنت أبحث عنها في الأيـام العصـبية التـي اجتزناها إبان الثورة وبعدها، وكنت أناديها في نفسي، فكـان لا يتردد صوتها إلا في ضميري.

ما بعد الحرب:

انتهت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٨، وأعلن الرئيس ولسون مبادئه الأربعة عشر التي كانت تعطي الأمـم حـق تقرير مصيرها واختيار الحاكم الذي ترضاه، وظلت مصـر تترقب تطبيق هذه المبادئ عليها وبخاصة إنها قد سـاعدت

الحلفاء مساعدات قيمة جدا كان لها أثر كبيـر فـي نتـائج الحرب، وقد اعترف الإنجليز أنفسهم بقيمة هذه المساعدات. ولما رأت مصر أنه لا يبدو أن إنجلترا ستفي بوعودهـا وأن الحالة سوف تبقى على ما كانت عليهن تيقظ شعور رجالهـا وبدءوا يتهيئون لنبذ مجال الكلام وخـوض مجـال العمـل. وبدؤوا ينبذون السياسة التي كانت مقصورة علـى تحريـر الاحتجاجات وتشكل الوفد المصري ليتـولى القيـام بعمـل إيجابي.

ويبدو أن التفكير في هذا الموضوع، وفي وجوب وضـع حد لهذه السياسة والخروج من عالم الاحتجاجات إلى العمـل الإيجابي، كان قد استولى على اهتمام كثير مـن رجـالات مصر. ودار الحديث بشأنه بين الأمير عمر طوسون وسـعد زغلول باشا وعدلي يكن باشا وعلي شعراوي باشا ومحمـد محمود باشا وحمد الباسل باشا وغيرهم من قادة الرأي فـي مصر. وقد كان الأمير عمر طوسون في طليعة المشـتغلين بهذه القضية لدرجة أن سعد باشا كان يفكر في إسناد رئاسـة الوفد إليه، ولكن الأمير لم يتمكن من الاشتراك في هذا العمل بعد أن صدرت إليه أوامر القصر بأن يعود إلى الإسـكندرية

وألا يتدخل في السياسة، وكان ذلك نتيجـة إيعـاز السـلطة الإنجليزية للقصر.

ولما كانت الجمعية التشريعية التي شكلت بمقتضى القانون الصادر في أول يوليو ١٩١٣ ما زالت قائمة حتـى انتهـاء الحرب العالمية الأولى، فقد اتجهت النية إلى اختيار أعضـاء الوفد المصري من بين أعضائها، أو اختيار هيئـة يزكيهـا هؤلاء الأعضاء وتخويل هذه الهيئة صفة الوكالـة العامـة، فاستقل سعد باشا وأصحابه بتأليف الوفد. وكان مما شجع هذه الفكرة ما عرضه علي باشا شعراوي من استعداده للقيام بكل ما يحتاجه سفر الوفد من نفقات لغاية أربعين ألـف جنيـه، ووعد بدفع الباقي إذا لم تقـم الأمـة بـدفع المـال الـلازم أو قصرت في دفع جانب منه.

وقد تكون الوفد من حضرات أصحاب السعادة والعـزة: سعد زغلول باشا –علي شعراوي باشا- عبد العزيز فهمـي بك- عبد اللطيف المكباتي بك- محمد محمود باشا- أحمـد لطفي السيد بك- إسماعيل صدقي باشا- سينوت حنا بـك- حمد الباسل باشا - جورج خياط بك - محمد أبـو النصـر بك- مصطفى النحاس بك- الدكتور حافظ عفيفي بك.

وقد بقى الوفد المصري بعد تشكيله، يرقب إعلان الهدنـة ليبدأ كفاحه بإبلاغ بريطانيا مطالب مصر. فلما أعلنت الهدنة يوم ١١ نوفمبر ١٩١٨، بادر سعد وأصحابه إلى طلب مقابلة السير ريجنالد ونجت المعتمد البريطاني، فحدد لهـم موعـدا يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر، في الساعة الحادية عشر صـباحا؛ حيث التقى به سعد زغلول باشا وعلي شعراوي باشا وعبـد العزيز فهمي بك.

وقد بدأ السير ونجت هذا اللقاء التاريخي بقوله: إن الصلح اقترب موعده. وبدأ العالم يفيق بعد غمرات الحـرب التـي شغلته زمنًا طويلاً، والمصريون هم أقل الأمـم تألمـا مـن أضرار الحرب، وهم مع ذلك قد استفادوا منها أموالاً طائلة، وعليهم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التي كانت سببا في قلة ضررهم وكثرة فائدتهم.

ورد عليه سعد زغلول باشا بقوله: ما تقـول إن إنجلتـرا فعلت خيرا لمصر، فإن المصريين بالبداهة يذكرونه لها مـع الشكر، ولكنني أظن أنه لا محل لـدوام الأحكـام العرفيـة ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات، وأن الهدنة وقد عقدت فإن المصريين لهم حق في أن يكونوا قلقين على مستقبلهم.

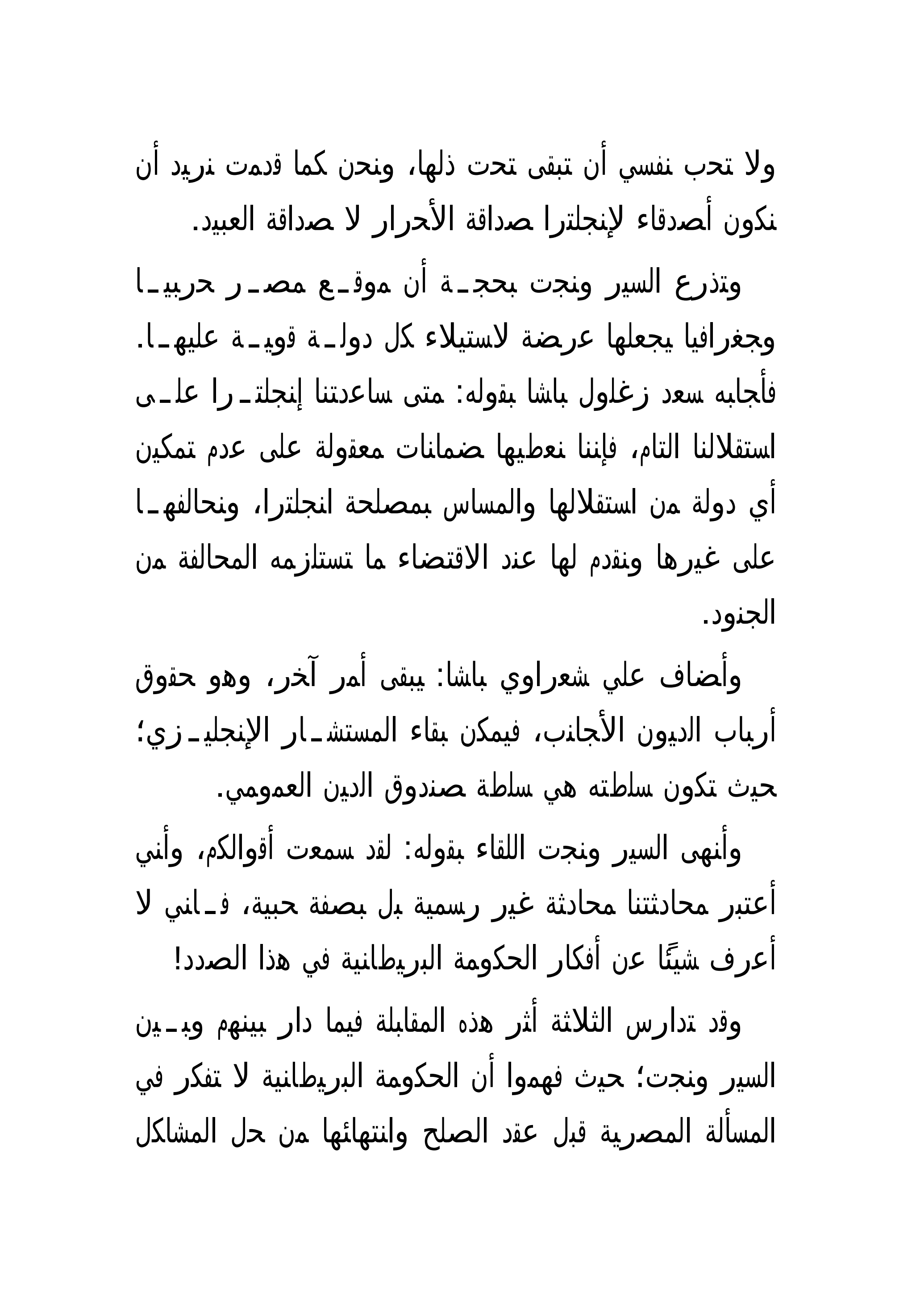
وقال السير ونجت: يجب ألا تتعجلوا وعليكم أن تكونـوا متبصرين في سلوككم، فإن المصريين في الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة.

ورد عليه سعد زغلول باشا: لا أستطيع الموافقـة علـى ذلك.

وتدخل علي شعراوي باشا قائلاً: إننا في طلبنا الاستقلال، لسنا مبالغين فيه، فإن أمتنا أرقى مـن البلغـار والصـرب والجبل الأسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديما وحديثًا.

فاعترض السير ونجت بأن نسبة الأميين في مصر كبيرة، وهنا رد عليه عبد العزيز فهمي بك بأن هذه النسـبة مسـألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم، لأن الذين يقودون الأمم في كل البلاد أفراد قلائل، وإن شروط الاستقلال التام متوفرة في مصر.

وقال السير ونجت: لقد كانت مصر عبدا لتركيا، أتفكـون أحط منها لو كانت عبدا لإنجلترا؟! وهنا تصدى لـه علـي شعراوي باشا قائلاً: قد أكون عبدا لرجل من الجعليين، وقـد أكون عبدا للسير ونجت الذي لا مناسبة بينه وبين الجعلـي، ومع ذلك لا تسرني كلتا الحالتين، لأن العبودية لا أرضـاها



ولا تحب نفسي أن تبقى تحت ذلها، ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لإنجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد.

وتذرع السير ونجت بحجة أن موقع مصر حربيا وجغرافيا يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها. فأجابه سعد زغلول باشا بقوله: متى ساعدتنا إنجلترا على استقلالنا التام، فإننا نعطيها ضمانات معقولة على عدم تمكين أي دولة من استقلالها والمساس بمصلحة انجلترا، ونحالفها على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من الجنود.

وأضاف علي شعراوي باشا: يبقى أمر آخر، وهو حقوق أرباب الديون الأجانب، فيمكن بقاء المستشار الإنجليزي؛ حيث تكون سلطته هي سلطة صندوق الدين العمومي.

وأنهى السير ونجت اللقاء بقوله: لقد سمعت أقوالكم، وأني أعتبر محادثتنا محادثة غير رسمية بل بصفة حبية، فإني لا أعرف شيئًا عن أفكار الحكومة البريطانية في هذا الصدد!

وقد تدارس الثلاثة أثر هذه المقابلة فيما دار بينهم وبين السير ونجت؛ حيث فهموا أن الحكومة البريطانية لا تفكر في المسألة المصرية قبل عقد الصلح وانتهائها من حل المشاكل

المترتبة على الحرب، وفهموا أيضا إنها حتى لو فكرت فـي ذلك، فليس في نيتها إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال البلاد لما بدا من دهشة على السير ونجت عندما تناولوا معه الكلام عن الاستقلال.

ولما كانوا قد عرفوا من خلال حديثهم مع السير ونجـت أنه لا يعرف بعد رأي حكومته في المسألة المصـرية، فقـد انتهزوها فرصة ملائمة لطلب السفر إلى لندن للتباحث مـع أولي الأمر هناك في المسألة وإطلاع الرأي العام عليها، وقد كتب سعد وأصحابه إلى قيادة الجيش الإنجليزي مستأذنين في السفر ومطالبين بجوازات السفر في أقرب فرصة. واتسعت حلقة المكاتبات بينهم وبين القيادة البريطانية ودار المنـدوب السامي.

وكانت وزارة حسين رشدي باشا في الحكم وقتئذ، فطلبت التصريح لأعضاء الوفد بالسفر إلى مؤتمر الصلح، فلم يوافق الإنجليز، ورأت الوزارات أن تستقيل لهذا السـبب. وظـل الوفد يطالب بالسماح له بالسفر دون جدوى، وعـزز طلبـه وتضامن معه جميع الوزراء السابقين وكل أصحاب المكانـة

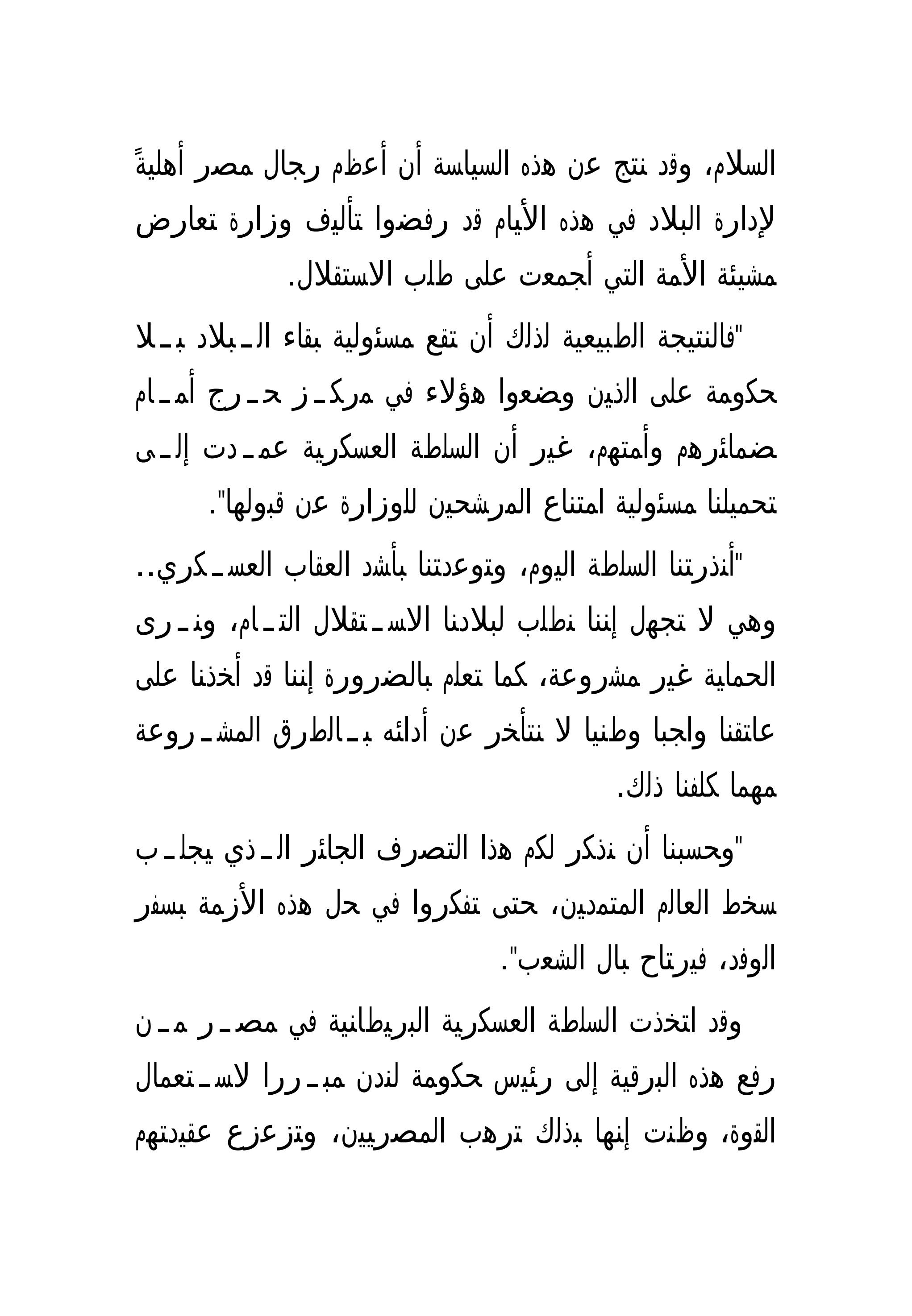
والكفاية في البلاد، وأضربوا عن الاشتراك في تأليف أية وزارة.. وبقيت البلاد بلا حكومة فترة من الزمن..

اعتقال زعماء الوفد

قلنا إن مصر كانت خاضعة للأحكام العسكرية وإزاء الموقف القائم، فقد استدعى القائد العام للقوات البريطانية رجال الوفد المصري يوم ٦ مارس ١٩١٩، وألقى عليهم هذا البلاغ: "علمت أنكم تضعون مسألة الحماية موضع المناقشة، وأنكم تقيمون العقبات في سير الحكومة المصرية تحت الحماية بالسعي في تأليف الوزارة؛ وحيث إن البلاد تحت الأحكام العسكرية، لهذا يلزمني أن أنذركم أن أي عمل منكم يرمي إلى عرقلة سير الإدارة يجعلكم عرضة للمعاملة الشديدة بموجب هذه الأحكام"!

وبعد أن أتم تلاوة هذا البلاغ، حاول سعد زغلول باشا مناقشته فصاح: "لا مناقشة".. وتركهم وانصرف.

وعندما انصرفوا من عنده، كتبوا برقية إلى رئيس الحكومة البريطانية، قالوا إن وزارة رشدي باشا لما علقت سحب استقالتها على سفر الوفد، قبلت استقالتها نهائيا، وليس لذلك معنى إلا الحيلولة بيننا وبين عرض قضيتنا على مؤتمر



السلام، وقد نتج عن هذه السياسة أن أعظم رجال مصر أهليةً لإدارة البلاد في هذه الأيام قد رفضوا تأليف وزارة تعارض مشيئة الأمة التي أجمعت على طلب الاستقلال.

"فالنتيجة الطبيعية لذلك أن تقع مسئولية بقاء البلاد بلا حكومة على الذين وضعوا هؤلاء في مركز حرج أمام ضمائرهم وأمتهم، غير أن السلطة العسكرية عمدت إلى تحميلنا مسئولية امتناع المرشحين للوزارة عن قبولها".

"أنذرتنا السلطة اليوم، وتوعدتنا بأشد العقاب العسكري.. وهي لا تجهل إننا نطلب لبلادنا الاستقلال التام، ونرى الحماية غير مشروعة، كما تعلم بالضرورة إننا قد أخذنا على عاتقنا واجبا وطنيا لا نتأخر عن أدائه بالطرق المشروعة مهما كلفنا ذلك.

"وحسبنا أن نذكر لكم هذا التصرف الجائر الذي يجلب سخط العالم المتمدين، حتى تفكروا في حل هذه الأزمة بسفر الوفد، فيرتاح بال الشعب".

وقد اتخذت السلطة العسكرية البريطانية في مصر من رفع هذه البرقية إلى رئيس حكومة لندن مبررا لاستعمال القوة، وظنت إنها بذلك ترهب المصريين، وتزعزع عقيدتهم

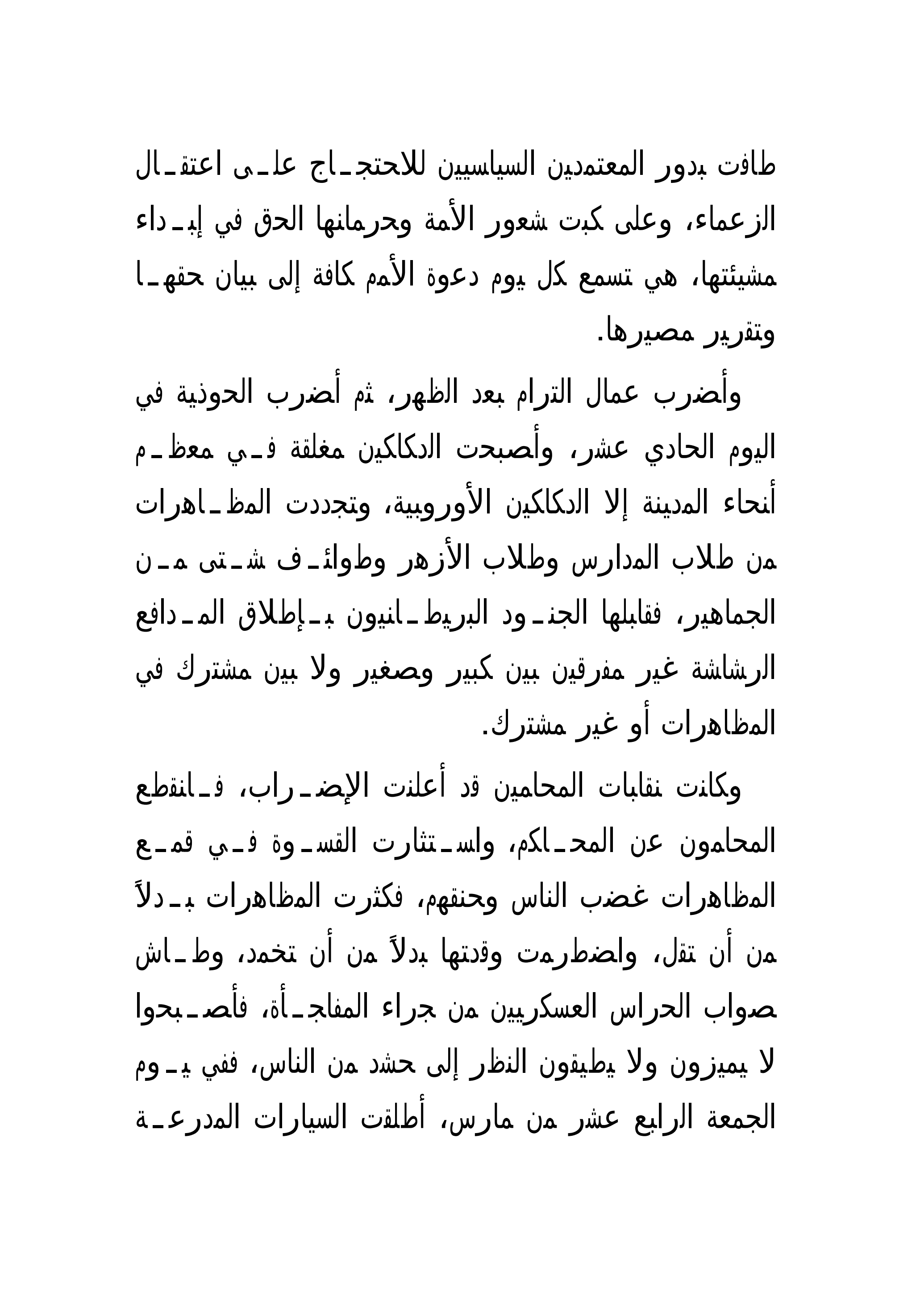
في عدالة قضيتهم، وفي يوم ٨ مارس ١٩١٩ تم اعتقال سعد زغلول باشا ومحمد محمـود باشـا وحمـد الباسـل باشـا وإسماعيل صدقي باشا، ونفوا إلى جزيرة مالطة.

ولقد شبت الثورة بعد نفي سعد باشا وأصحابه إلى مالطة، وحل محله زوجي الذي كان وكيلاً للوفد، وقامـت حركـة السيدات في ذلك الحين مباشرة، وكنت أنا وزوجـي نعمـل لخدمة وطننا لا لخدمة الأشخاص، وكان زوجي يطلعني على ما يحدث وما ينتظر أن يحدث، ليمكنني من ملء الفراغ الذي يحدثه نفيه أو سجنه، وكان هو الذي نصحني بالاتصال بحرم سعد باشا وحرم محمد محمود باشا وبعائلات أعضاء الوفد.

وكان نبأ اعتقال سعد وأصحابه قد سرى بطيئًا ومتناقضا في اليوم الأول، لأن القيادة العسكرية حظرت على الصحف نشره أو التلميح إليه.

ولكن أعضاء الوفد عرفوا النبأ في يومه، ثم علم به طلبة المدارس العليا وغيرهم في اليوم التالي، وسرى في أنحـاء القاهرة ومنها إلى الأقاليم.

وقد أضرب طلاب المدارس العليا في صباح اليوم العاشر من شهر مارس، وخرجوا من مدارسهم في مظاهرة كبيـرة



طافت بدور المعتمدين السياسيين للاحتجاج على اعتقال الزعماء، وعلى كبت شعور الأمة وحرمانها الحق في إبداء مشيئتها، هي تسمع كل يوم دعوة الأمم كافة إلى بيان حقها وتقرير مصيرها.

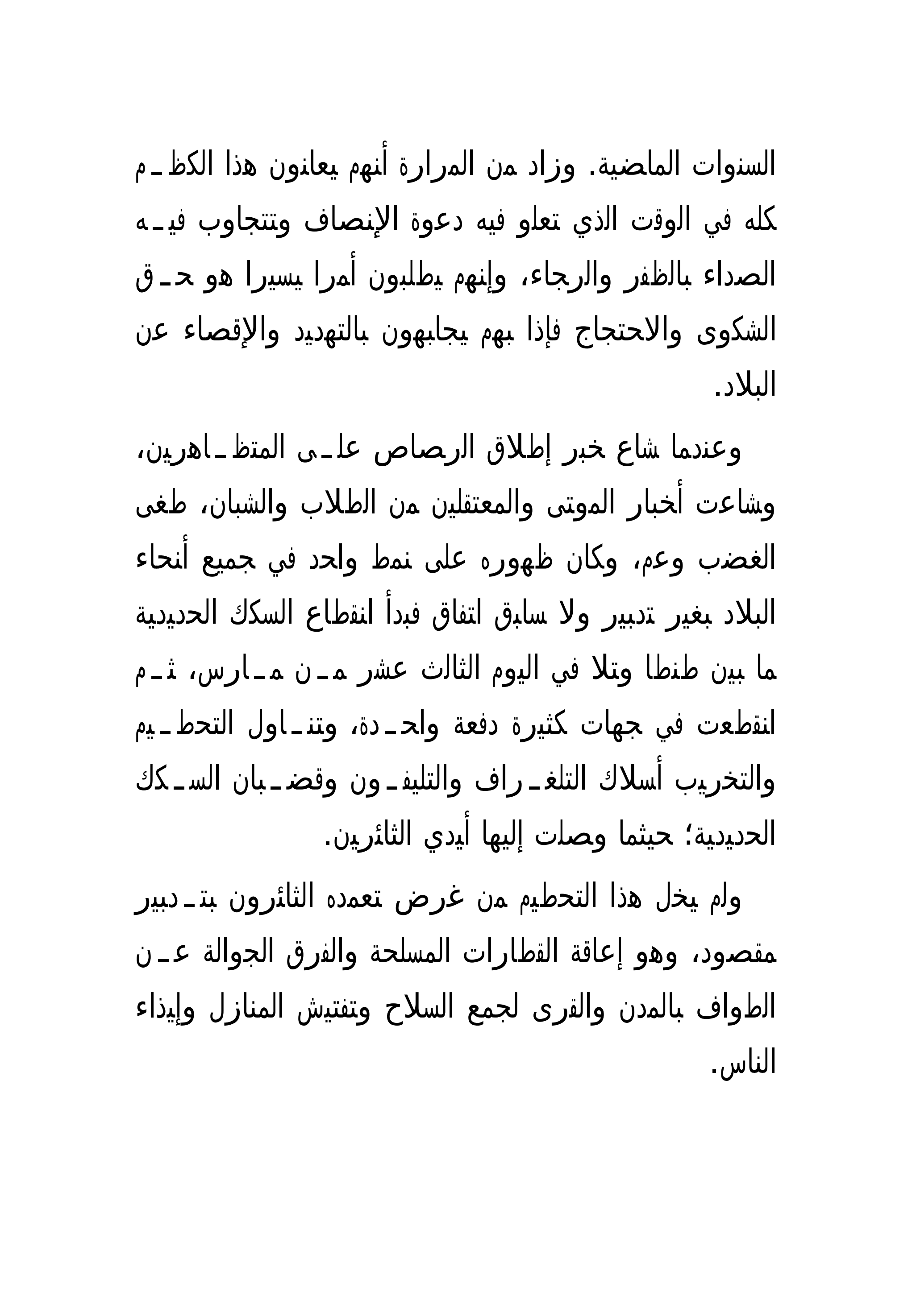
وأضرب عمال الترام بعد الظهر، ثم أضرب الحوذية في اليوم الحادي عشر، وأصبحت الدكاكين مغلقة في معظم أنحاء المدينة إلا الدكاكين الأوروبية، وتجددت المظاهرات من طلاب المدارس وطلاب الأزهر وطوائف شتى من الجماهير، فقابلها الجنود البريطانيون بإطلاق المدافع الرشاشة غير مفرقين بين كبير وصغير ولا بين مشترك في المظاهرات أو غير مشترك.

وكانت نقابات المحامين قد أعلنت الإضراب، فانقطع المحامون عن المحاكم، واستثارت القسوة في قمع المظاهرات غضب الناس وحنقهم، فكثرت المظاهرات بدلاً من أن تقل، واضطرمت وقدتها بدلاً من أن تخمد، وطاش صواب الحراس العسكريين من جراء المفاجأة، فأصبحوا لا يميزون ولا يطيقون النظر إلى حشد من الناس، ففي يوم الجمعة الرابع عشر من مارس، أطلقت السيارات المدرعة

نيرانها على حشد كبير بجوار المسجد الحسيني، فقتلت منهم بضعة عشر رجلاً وجرحت خلقًا كثيرين ولم يكونـوا فـي مظاهرة ولكنهم كانوا خارجين من المسجد بعد أداء الصلاة. وتعددت المظاهرات في مدن القطر، فقوبلت بمثل ما قوبلت به في القاهرة، وشاع خبر القتل وإطلاق الرصاص في أنحاء الأقاليم، فانفجر السخط الذي طال كظمـه فـي الصـدور، وانفجرت الثورة في كل مكان.

على أنه من الخطأ أن يقال إن المظاهرات كانـت هـي سبب الثورة الوحيد، أو إن الثورة ما كانت لتنفجر في القطر لولا مظاهرات العاصمة، فالمظاهرات كانت مثـل الشـرر الذي يتطاير في البداية من فوهة بركان يغلي علـى وشـك الانفجار، فمن شهد تلك الثورة الجارفة التي اندفعت انـدفاعا يدل على عمق مكامنها وتأجج وقودهـا، أيقـن أنهـا قـوة لا تحبس طويلاً، وأنها هي سبب المظاهرات وليست نتيجـة المظاهرات.

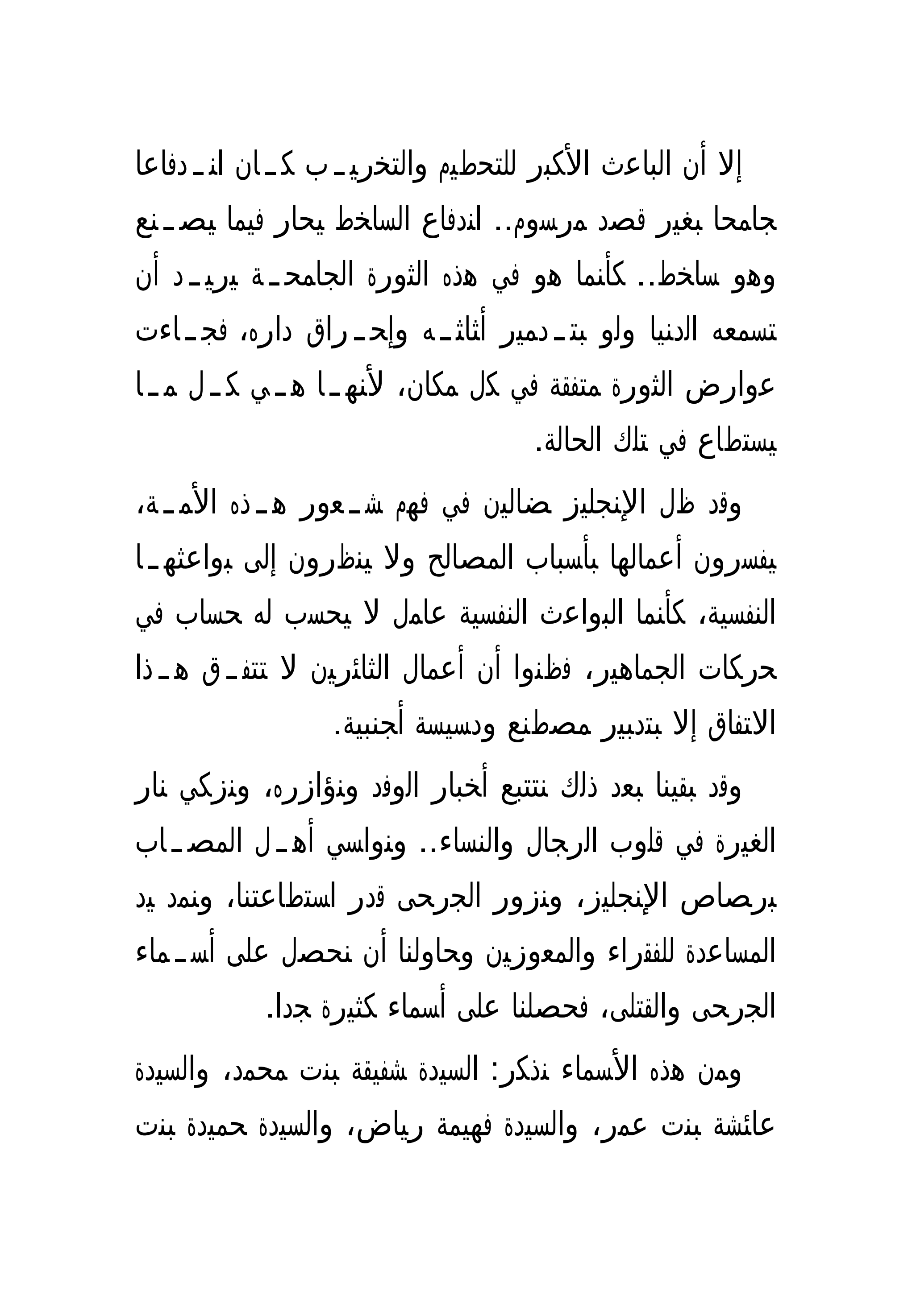
فقد صبر الناس زمنًا على مظالم الحرب وآثارهـا، ثـم انتظروا الفرج بعد الهدنة، فإذا بهم يتجرعون مرارة الخيبـة ويوجسون من مخاوف المستقبل فوق ما أوجسوا من مخاوف



السنوات الماضية. وزاد من المرارة أنهم يعانون هذا الكظم كله في الوقت الذي تعلو فيه دعوة الإنصاف وتتجاوب فيه الصداء بالظفر والرجاء، وإنهم يطلبون أمرا يسيرا هو حق الشكوى والاحتجاج فإذا بهم يجابهون بالتهديد والإقصاء عن البلاد.

وعندما شاع خبر إطلاق الرصاص على المتظاهرين، وشاعت أخبار الموتى والمعتقلين من الطلاب والشبان، طغى الغضب وعم، وكان ظهوره على نمط واحد في جميع أنحاء البلاد بغير تدبير ولا سابق اتفاق فبدأ انقطاع السكك الحديدية ما بين طنطا وتلا في اليوم الثالث عشر من مارس، ثم انقطعت في جهات كثيرة دفعة واحدة، وتناول التحطيم والتخريب أسلاك التلغراف والتليفون وقضبان السكك الحديدية؛ حيثما وصلت إليها أيدي الثائرين.

ولم يخل هذا التحطيم من غرض تعمده الثائرون بتدبير مقصود، وهو إعاقة القطارات المسلحة والفرق الجوالة عن الطواف بالمدن والقرى لجمع السلاح وتفتيش المنازل وإيذاء الناس.

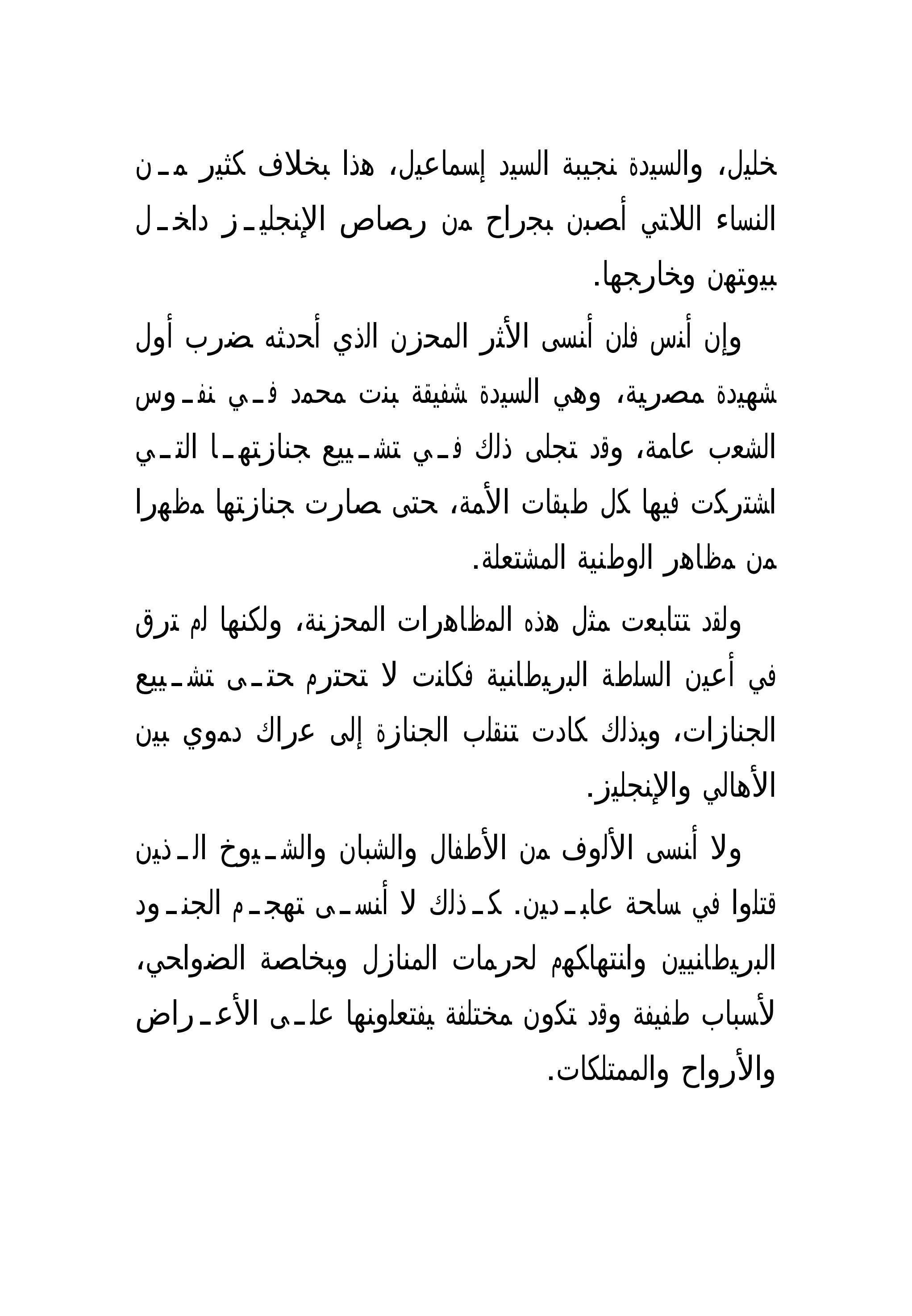


إلا أن الباعث الأكبر للتحطيم والتخريب كان اندفاعا جامحا بغير قصد مرسوم.. اندفاع الساخط يحار فيما يصنع وهو ساخط.. كأنما هو في هذه الثورة الجامحة يريد أن تسمعه الدنيا ولو بتدمير أثاثه وإحراق داره، فجاءت عوارض الثورة متفقة في كل مكان، لأنها هي كل ما يستطاع في تلك الحالة.

وقد ظل الإنجليز ضالين في فهم شعور هذه الأمة، يفسرون أعمالها بأسباب المصالح ولا ينظرون إلى بواعثها النفسية، كأنما البواعث النفسية عامل لا يحسب له حساب في حركات الجماهير، فظنوا أن أعمال الثائرين لا تتفق هذا الاتفاق إلا بتدبير مصطنع ودسيسة أجنبية.

وقد بقينا بعد ذلك نتتبع أخبار الوفد ونؤازره، ونزكي نار الغيرة في قلوب الرجال والنساء.. ونواسي أهل المصاب برصاص الإنجليز، ونزور الجرحى قدر استطاعتنا، ونمد يد المساعدة للفقراء والمعوزين وحاولنا أن نحصل على أسماء الجرحى والقتلى، فحصلنا على أسماء كثيرة جدا.

ومن هذه الأسماء نذكر: السيدة شفيقة بنت محمد، والسيدة عائشة بنت عمر، والسيدة فهيمة رياض، والسيدة حميدة بنت



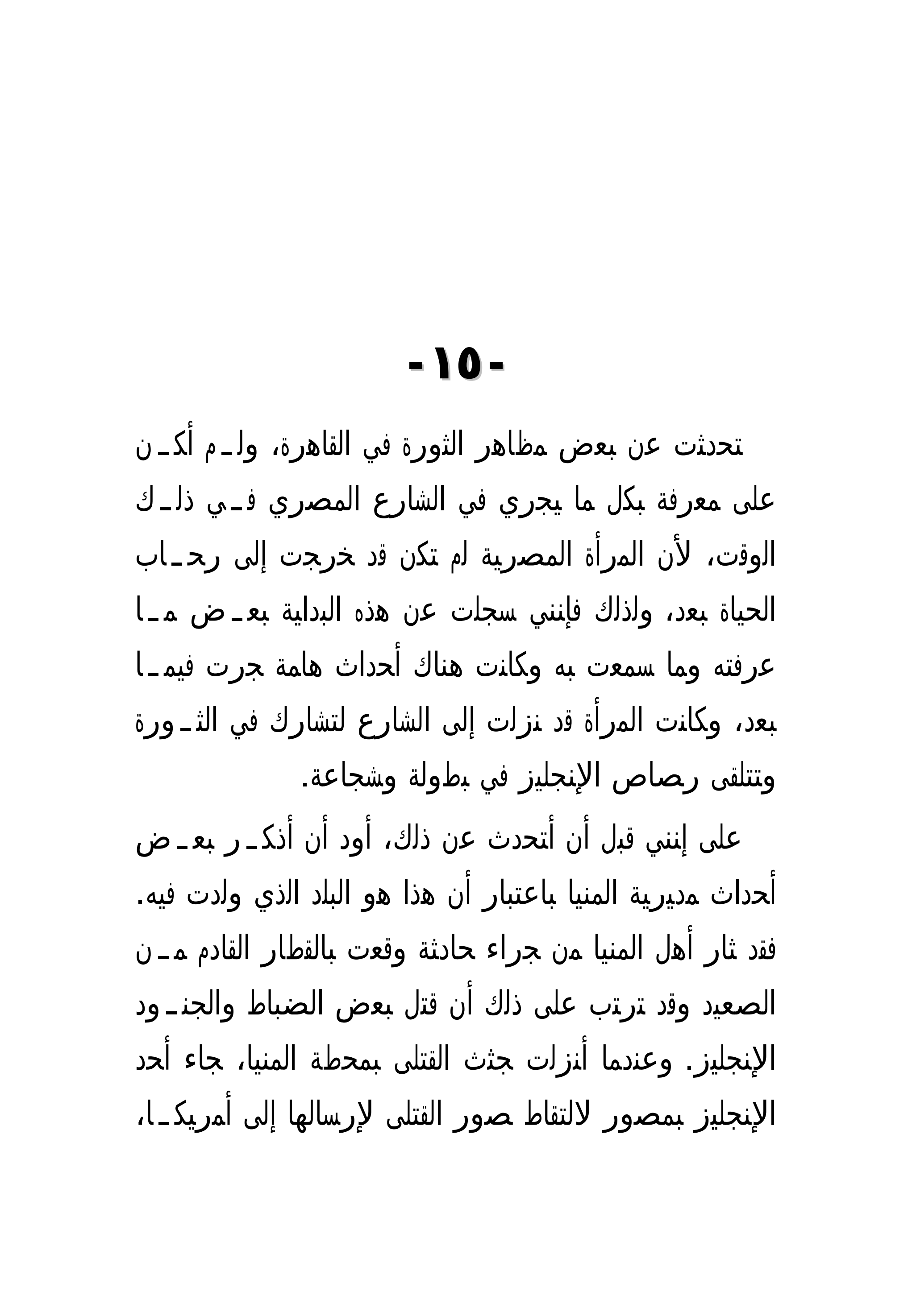
خليل، والسيدة نجيبة السيد إسماعيل، هذا بخلاف كثير من النساء اللاتي أصبن بجراح من رصاص الإنجليز داخل بيوتهن وخارجها.

وإن أنس فلن أنسى الأثر المحزن الذي أحدثه ضرب أول شهيدة مصرية، وهي السيدة شفيقة بنت محمد في نفوس الشعب عامة، وقد تجلى ذلك في تشييع جنازتها التي اشتركت فيها كل طبقات الأمة، حتى صارت جنازتها مظهرا من مظاهر الوطنية المشتعلة.

ولقد تتابعت مثل هذه المظاهرات المحزنة، ولكنها لم ترق في أعين السلطة البريطانية فكانت لا تحترم حتى تشييع الجنازات، وبذلك كادت تنقلب الجنازة إلى عراك دموي بين الأهالي والإنجليز.

ولا أنسى الألوف من الأطفال والشبان والشيوخ الذين قتلوا في ساحة عابدين. كذلك لا أنسى تهجم الجنود البريطانيين وانتهاكهم لحرمات المنازل وبخاصة الضواحي، لأسباب طفيفة وقد تكون مختلفة يفتعلونها على الأعراض والأرواح والممتلكات.

كل هذه الفظائع كانت تثير كراهية الشعب وسخط النســاء على جيوش تلك الأمة التي كانت تعتبر راقية متمدينة.



-١٥-

تحدثت عن بعض مظاهر الثورة في القاهرة، ولم أكن على معرفة بكل ما يجري في الشارع المصري في ذلك الوقت، لأن المرأة المصرية لم تكن قد خرجت إلى رحاب الحياة بعد، ولذلك فإنني سجلت عن هذه البداية بعض ما عرفته وما سمعت به وكانت هناك أحداث هامة جرت فيما بعد، وكانت المرأة قد نزلت إلى الشارع لتشارك في الثورة وتتلقى رصاص الإنجليز في بطولة وشجاعة.

على إنني قبل أن أتحدث عن ذلك، أود أن أذكر بعض أحداث مديرية المنيا باعتبار أن هذا هو البلد الذي ولدت فيه. فقد ثار أهل المنيا من جراء حادثة وقعت بالقطار القادم من الصعيد وقد ترتب على ذلك أن قتل بعض الضباط والجنود الإنجليز. وعندما أنزلت جثث القتلى بمحطة المنيا، جاء أحد الإنجليز بمصور لالتقاط صور القتلى لإرسالها إلى أمريكا،

وعلم الأهالي بذلك فدخلوا منزل المصور وأعدموا زجاجات التصوير.

ولما كانت النفوس مليئة بالحماسة ومشتعلة بالوطنية، فقد نشبت الثورة في المنيا، وبالغ بعض الأهالي فـي ثـورتهم، فحالوا الهجوم على بيوت الموظفين الإنجليز.

ولكن بعض الأعيان تصدوا لهم ومنعوهم من ذلك. وكان في مقدمة هؤلاء: الدكتور محمود بك عبد الرازق وابن أختي توفيق بك إسماعيل.. فقد آوى توفيق بعضهم عنده.. وعرض نفسه بذلك لغضب مواطنيه وهجومهم، أما الدكتور محمـود عبد الرازق فقد وقف أمام باب أحد الموظفين الإنجليز، وفتح صدره أمام الناس قائلاً: "لا تقتلوه إلا بعد أن تقتلوني".

وقد بدأ هو وبعض الأعيان يهدئون الخواطر الثائرة بإيهام أهالي المنيا بأن المديرية قد استقلت، وقد أداروا بالفعل دفـة شئونها لمدة أسبوع لم يحدث خلاله أي حادث إجرامي. ومع ذلك فقد كان جزاؤهما فيما بعد الحكم عليهما بالسجن لمـدة ثلاث سنوات.

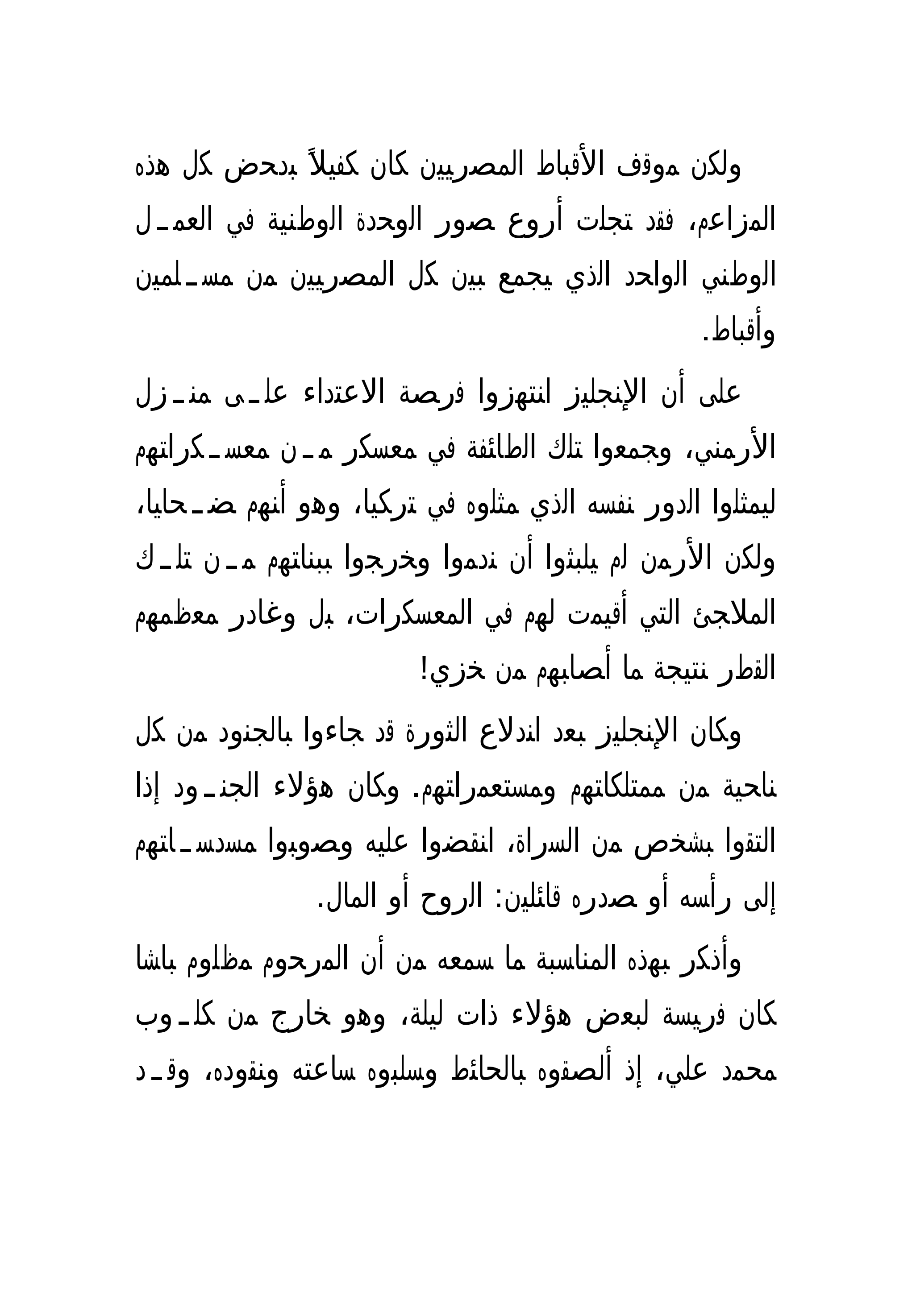
وقد ارتكب الإنجليز بعد ذلك كثيرا من الفظائع، ومن ذلك أنهم طافوا بالقرى يضربون الرجال بالسياط ويسطون علـى

البيوت ويعتدون على الحرمات ويقتلون المواشي والطيـور. ومما يؤسف له، أنهم عند إجراء التحقيق بعد ذلك، وجـدوا مصريا يقوم بوظيفة شاهد الملك، ووجدوا من بـين ضـباط الشرطة من كان أقسى على مواطنيه من الإنجليز أنفسهم.

ولقد كانت هذه الأحداث تزكي نيران الثورة فـي نفـوس المصريين وبخاصة بعد أن لمسوا مواقف مضادة من بعض الأجانب الذين عاشوا بينهم وربطت بينهم المصالح المشتركة والصداقة أعواما طويلة.

وكانت بداية هذه المواقف عندما قام شخص أرمني كـان يسكن حي عابدين بإطلاق الرصاص من مسدسه بلا مبـرر على مظاهرة سلمية كانت تمر أمام منزله، فأثار ذلك حنـق المتظاهرين وغيظهم، فهجموا على بيته وأحرقوا أثاثه.

وقد تخوفت تلك الطائفة، وأرادت أن تتظـاهر بولائهـا للإنجليز وتقدم لهم حجة ضد المصريين وسـلاحا للدعايـة ضدنا بأننا قوم متعصبون، وأن ثورتنا هذه ذات دوافع دينية وليست لأسباب دينية. وكذلك تبرأ بعض اليهود منا في ذلـك الوقت، والتحق كثير منهم بخدمة الجيش البريطاني.



ولكن موقف الأقباط المصريين كان كفيلاً بدحض كل هذه المزاعم، فقد تجلت أروع صور الوحدة الوطنية في العمل الوطني الواحد الذي يجمع بين كل المصريين من مسلمين وأقباط.

على أن الإنجليز انتهزوا فرصة الاعتداء على منزل الأرمني، وجمعوا تلك الطائفة في معسكر من معسكراتهم ليمثلوا الدور نفسه الذي مثلوه في تركيا، وهو أنهم ضحايا، ولكن الأرمن لم يلبثوا أن ندموا وخرجوا ببناتهم من تلك الملاجئ التي أقيمت لهم في المعسكرات، بل وغادر معظمهم القطر نتيجة ما أصابهم من خزي!

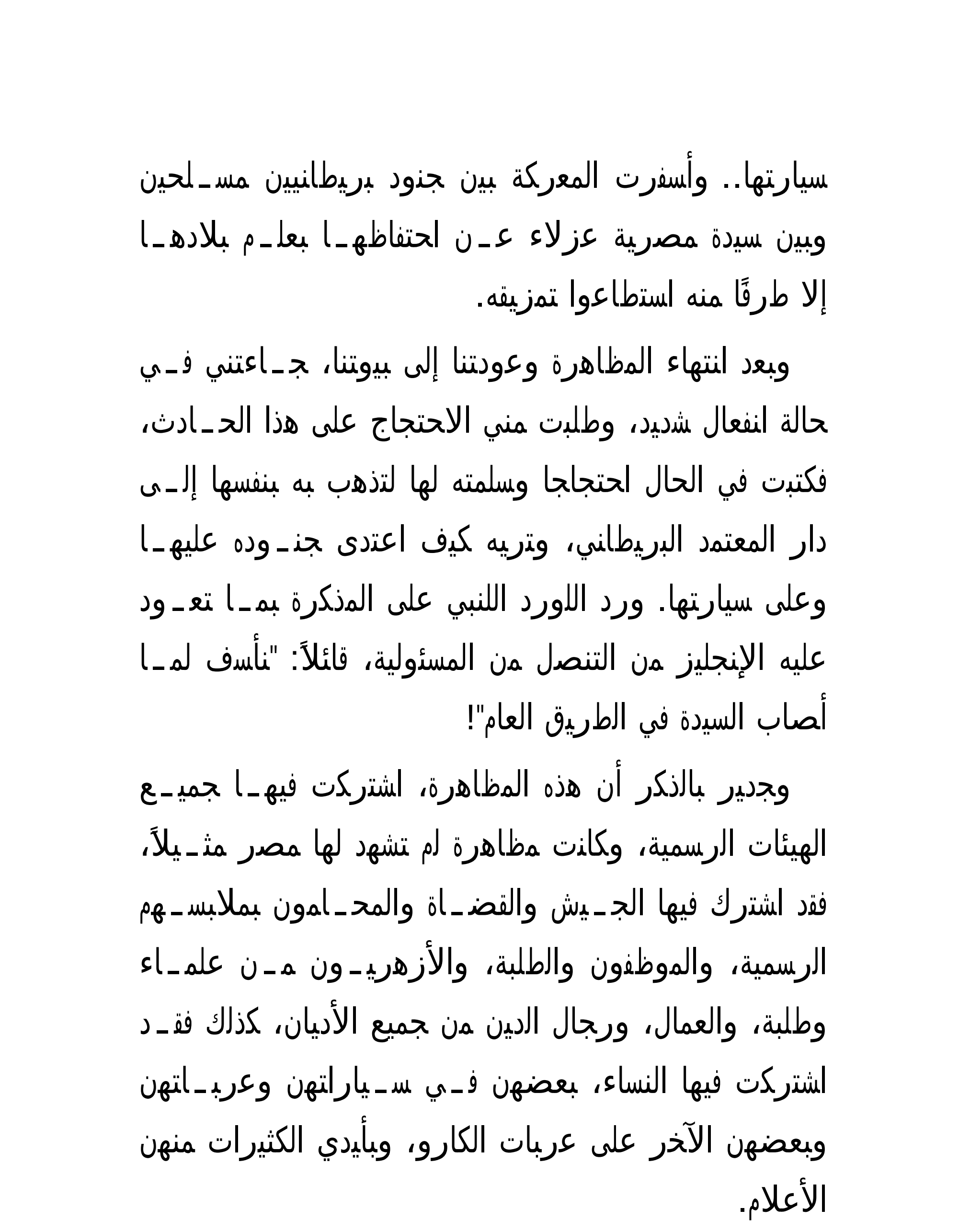
وكان الإنجليز بعد اندلاع الثورة قد جاءوا بالجنود من كل ناحية من ممتلكاتهم ومستعمراتهم. وكان هؤلاء الجنود إذا التقوا بشخص من السراة، انقضوا عليه وصوبوا مسدساتهم إلى رأسه أو صدره قائلين: الروح أو المال.

وأذكر بهذه المناسبة ما سمعه من أن المرحوم مظلوم باشا كان فريسة لبعض هؤلاء ذات ليلة، وهو خارج من كلوب محمد علي، إذ ألصقوه بالحائط وسلبوه ساعته ونقوده، وقد

أصابه من رعب لدرجة أنه لم يصدق أنه نجـا مـن القـوم الظالمين.

كذلك فقد كانوا يخطفون النساء فـي الشـوارع، وكـانوا يجردون الأقراط من آذانهن فتسيل الدماء منها، دون مبـالاة بذلك.

وكم تعدى علينا هؤلاء الجنود في المظـاهرات، وأذكـر على سبيل المثال إننا لما خرجنا في موكب المظاهرة العامة التي ضمت جميع الهيئات المصرية واشتركت فيها السيدات راكبات سياراتهن. وكانت المرحومة ألفت هانم راتب تمسك بيدها علما مصريا صغيرا يرفرف من نافذة سيارتها، وعنـد مرور المظاهرة أمام فندق الكونتيننتال.. انقض أحد الجنـود الإنجليز على سيارتها، وحاول انتزاع العلم من يدها، ولكنها تشبثت به ولم تمكنه من انتزاعه، ولما كان ذلك على مشـهد من المتفرجين الأجانب، فقد صفقوا لها إعجابا بهـا، فثـار الجندي ثورة حمقاء.. وأخذ يجذب العلم منها بقسوة ويضربها بيده الأخرى على ذراعها ضربات قاسـية ليرغمهـا علـى التسليم، ورغم ذلك لم يتمكن من قهرهـا، وعنـدما صـار أضحوكة المتفرجين أقبل بعض زملائه وأخـذوا يطعنـون



سيارتها.. وأسفرت المعركة بين جنود بريطانيين مسلحين وبين سيدة مصرية عزلاء عن احتفاظها بعلم بلادها إلا طرفًا منه استطاعوا تمزيقه.

وبعد انتهاء المظاهرة وعودتنا إلى بيوتنا، جاءتني في حالة انفعال شديد، وطلبت مني الاحتجاج على هذا الحادث، فكتبت في الحال احتجاجا وسلمته لها لتذهب به بنفسها إلى دار المعتمد البريطاني، وتريه كيف اعتدى جنوده عليها وعلى سيارتها. ورد اللورد اللنبي على المذكرة بما تعود عليه الإنجليز من التنصل من المسئولية، قائلاً: "نأسف لما أصاب السيدة في الطريق العام"!

وجدير بالذكر أن هذه المظاهرة، اشتركت فيها جميع الهيئات الرسمية، وكانت مظاهرة لم تشهد لها مصر مثيلاً، فقد اشترك فيها الجيش والقضاة والمحامون بملابسهم الرسمية، والموظفون والطلبة، والأزهريون من علماء وطلبة، والعمال، ورجال الدين من جميع الأديان، كذلك فقد اشتركت فيها النساء، بعضهن في سياراتهن وعرباتهن وبعضهن الآخر على عربات الكارو، وبأيدي الكثيرات منهن الأعلام.

وبالرغم من وقار المظاهرة وهيبتها، فإن نظامها وحماستها لم يرق في عين أحد الضباط الإنجليز الذي كان واقفًا بفندق شبرد، فما كان منه إلا أن أطلق مسدسه على المتظاهرين، فوقع واحد منهم، ورغم ذلك تابع المتظاهرون سيرهم في نظام، ما دفع الأجانب لأن يصفقوا لهم ويقولوا: تقدموا.. تقدموا، فالنصر لكم.

عندما حاول الجنود الإنجليز استثارة المصريين المتظاهرين، قام أحد ضباط السواري المصريين بضربهم بعصاة، واستطاع بمفرده أن يشتتهم جميعا. فلجئوا إلى حديقة الأزبكية واختبئوا فيها.

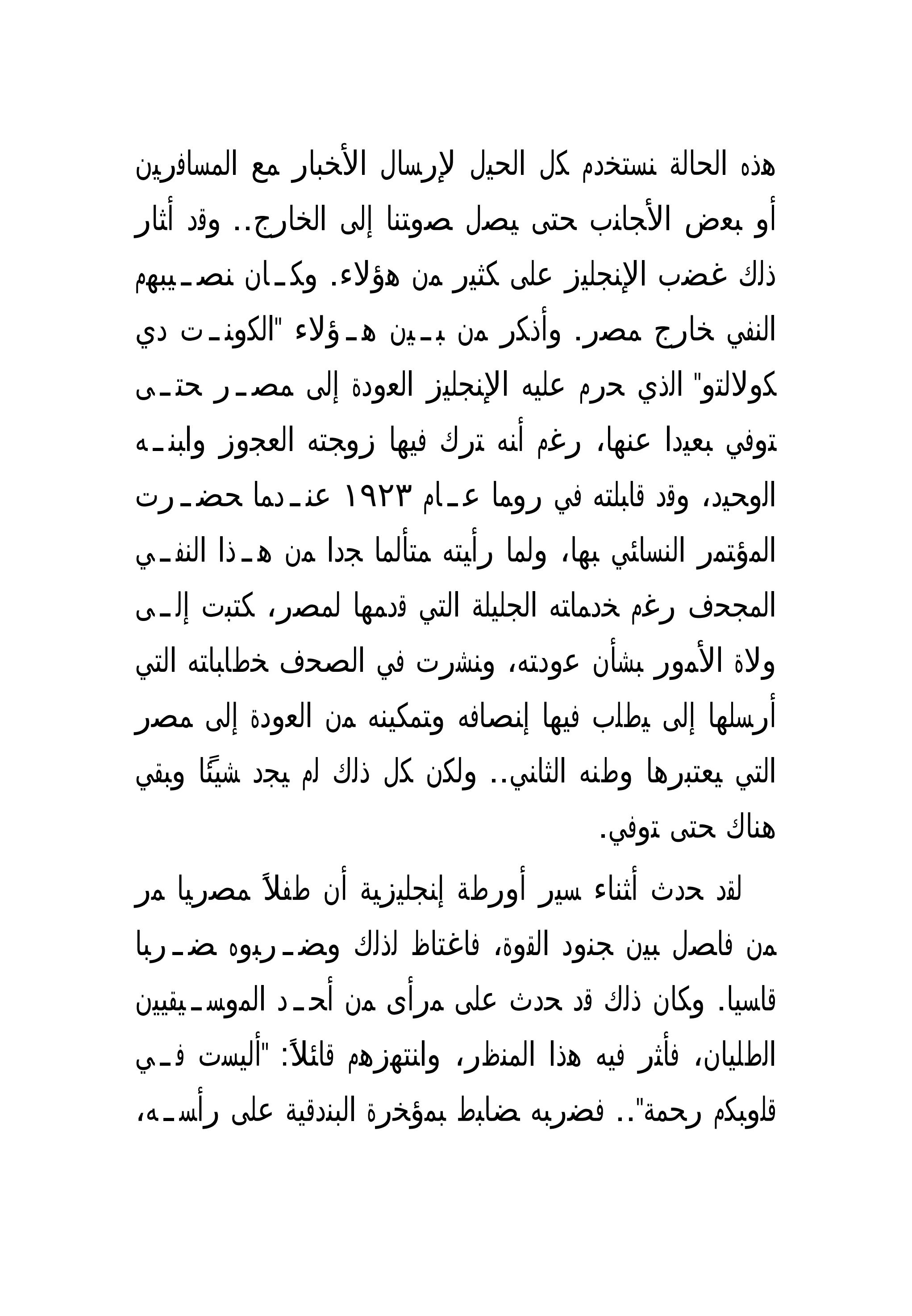
ولقد كان حقًا يوما مشهودا مشرقًا لمصر. ويذكرني ذلك بيوم مظاهرة الأزهريين الذين كانوا يشتعلون حماسة ووطنية، لدرجة أنهم كانوا يواجهون مدافع الإنجليز بصدورهم، وبلغت الشجاعة بأحدهم أن هجم على مدفع منها، وضرب الجندي الذي يعمل عليه، ووقف مكانه ليضرب الإنجليز، ولكن للأسف كان جهله باستعماله سببا في ضربه وموته.

وكانت السيدات في هذه الأحوال يصفقن من الشرفات والنوافذ، مستنهضات همم الرجال في هذا النضال الوطني.. حتى إن الجنود الإنجليز كانوا من فرض غيظهم يطلقون الرصاص عليهن، ولم تعلن أسماء من أصبن إنكارا للذات وبعدا عن طلب الجزاء أو الشكر.

محاولة تشويه الثورة

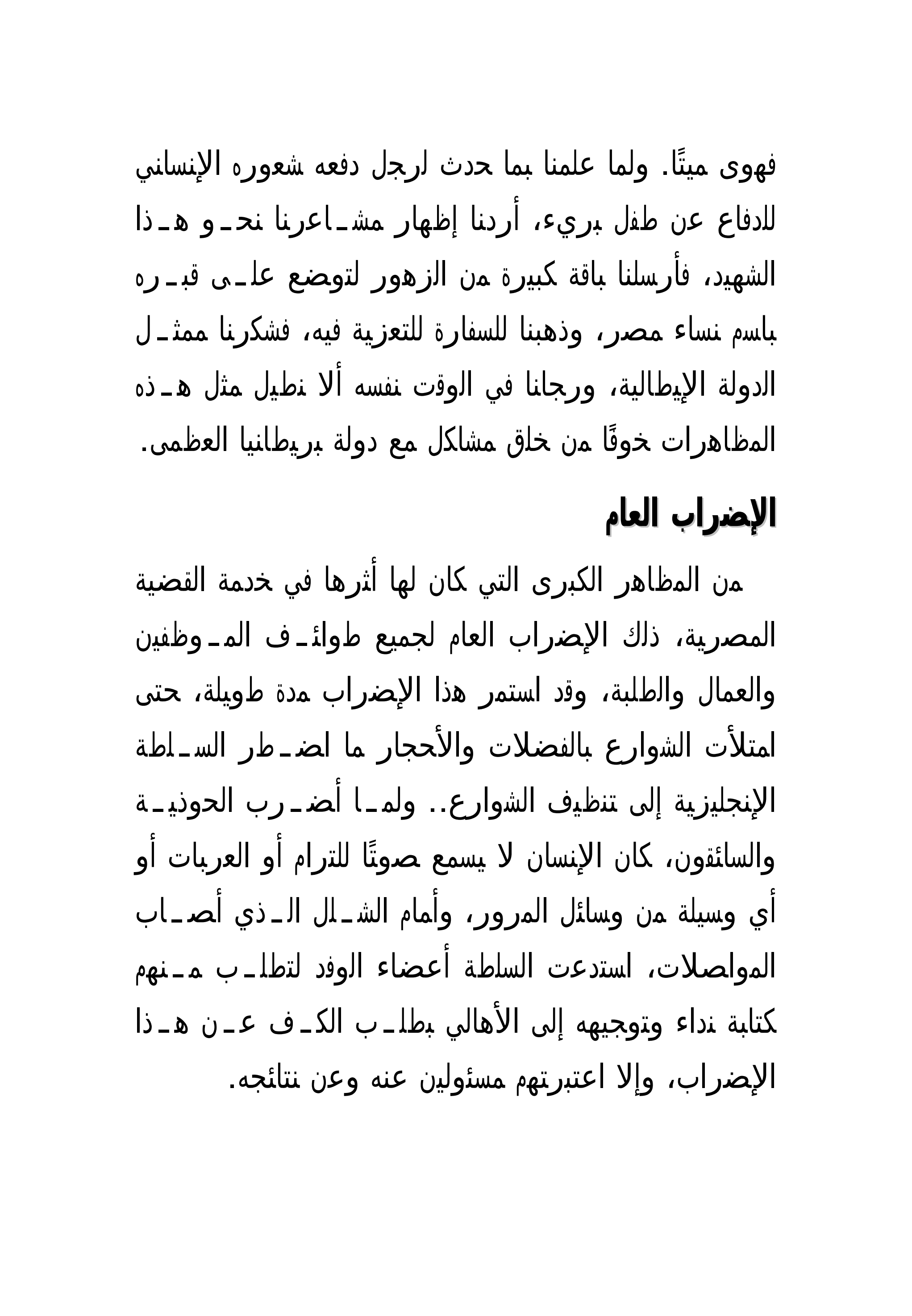
أراد الإنجليز أن يشوهوا جلال ثورتنا في الخارج، فصاروا يعلنون يوما إنها ثورة ضد الأجانب بهدف إثارة الرأي العام العالمي، وفي يوم آخر يسمونها ثورة الأكثرية المسلمة ضد الأقلية من الأديان الأخرى.

وقد أثار هذا الكذب والافتراء وسوء التعليل سخط إخواننا الأقباط والطوائف الأخرى، وكان أن تآخى الجميع، وصاروا يجتمعون في الكنائس والمساجد والمعابد وهم شيع مختلفة، وكان الشيخ يتأبط ذراع القسيس أو الحاخام أمام عدسات المصورين ليظهروا للملأ اتحاد الجميع على الثورة ضد الإنجليز، وكانت احتجاجاتنا على هذه التهم لا تتعدى أرض مصر لأن السلطة كانت تراقب البريد المصري للخارج، وكانت صحفنا لا تصل إلى أبعد من الإسكندرية، فكنا إزاء



هذه الحالة نستخدم كل الحيل لإرسال الأخبار مع المسافرين أو بعض الأجانب حتى يصل صوتنا إلى الخارج.. وقد أثار ذلك غضب الإنجليز على كثير من هؤلاء. وكـان نصـيبهم النفي خارج مصر. وأذكر من بـين هـؤلاء "الكونـت دي كولالتو" الذي حرم عليه الإنجليز العودة إلى مصـر حتـى توفي بعيدا عنها، رغم أنه ترك فيها زوجته العجوز وابنـه الوحيد، وقد قابلته في روما عـام ١٩٢٣ عنـدما حضـرت المؤتمر النسائي بها، ولما رأيته متألما جدا من هـذا النفـي المجحف رغم خدماته الجليلة التي قدمها لمصر، كتبت إلـى ولاة الأمور بشأن عودته، ونشرت في الصحف خطاباته التي أرسلها إلى يطلب فيها إنصافه وتمكينه من العودة إلى مصر التي يعتبرها وطنه الثاني.. ولكن كل ذلك لم يجد شيئًا وبقي هناك حتى توفي.

لقد حدث أثناء سير أورطة إنجليزية أن طفلاً مصريا مر من فاصل بين جنود القوة، فاغتاظ لذلك وضـربوه ضـربا قاسيا. وكان ذلك قد حدث على مرأى من أحـد الموسـيقيين الطليان، فأثر فيه هذا المنظر، وانتهزهم قائلاً: "أليست فـي قلوبكم رحمة".. فضربه ضابط بمؤخرة البندقية على رأسـه،



فهوى ميتًا. ولما علمنا بما حدث لرجل دفعه شعوره الإنساني للدفاع عن طفل بريء، أردنا إظهار مشاعرنا نحو هذا الشهيد، فأرسلنا باقة كبيرة من الزهور لتوضع على قبره باسم نساء مصر، وذهبنا للسفارة للتعزية فيه، فشكرنا ممثل الدولة الإيطالية، ورجانا في الوقت نفسه ألا نطيل مثل هذه المظاهرات خوفًا من خلق مشاكل مع دولة بريطانيا العظمى.

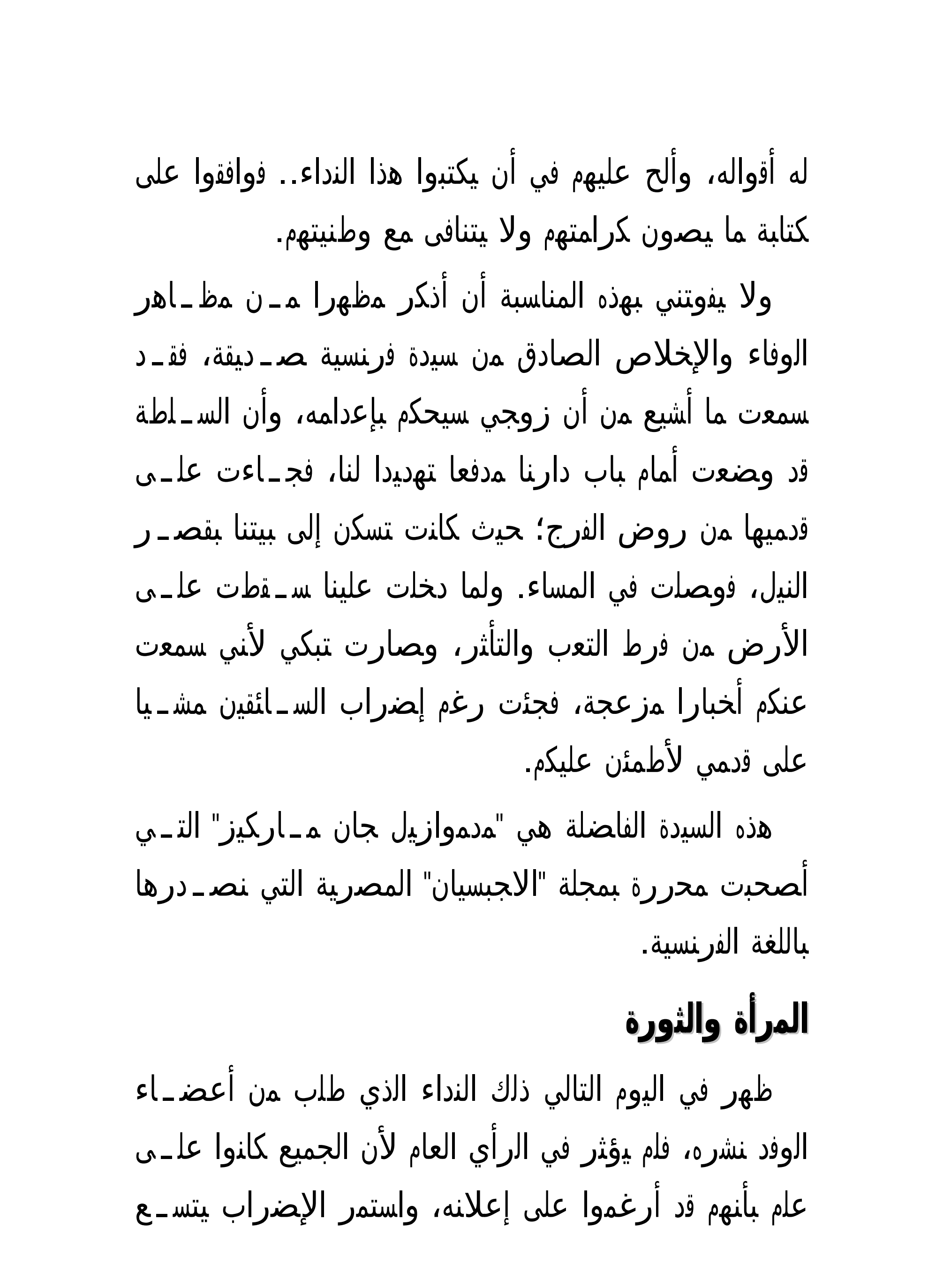
الإضراب العام

من المظاهر الكبرى التي كان لها أثرها في خدمة القضية المصرية، ذلك الإضراب العام لجميع طوائف الموظفين والعمال والطلبة، وقد استمر هذا الإضراب مدة طويلة، حتى امتلأت الشوارع بالفضلات والأحجار ما اضطر السلطة الإنجليزية إلى تنظيف الشوارع.. ولما أضرب الحوذية والسائقون، كان الإنسان لا يسمع صوتًا للترام أو العربات أو أي وسيلة من وسائل المرور، وأمام الشلل الذي أصاب المواصلات، استدعت السلطة أعضاء الوفد لتطلب منهم كتابة نداء وتوجيهه إلى الأهالي بطلب الكف عن هذا الإضراب، وإلا اعتبرتهم مسئولين عنه وعن نتائجه.

وقد اجتمع هؤلاء الأعضاء بزوجي وكيل الوفد في بيتنـا قبل توجههم إلى مركز رئاسة السـلطة الإنجليزيـة بفنـدق "سافواي" الذي كان الإنجليز احتلوه. وقد ترك الباشا زملاءه المجتمعين في الدور الأول من منزلنا، وصعد إلى الطـابق الثاني ليقول لي: "ربما تعتقلنا السلطة، فإذا حدث ذلك، فأرجو أن تسلمي هذا المبلغ حرم سعد باشا، فربما تحتاج إليه فـي غيبتي". وكان سعد باشا في المنفى في ذلك الوقت.

ولما نزل، توجهت إلى النافذة لأراه وهو خارج يتبعه كل أعضاء الوفد، وبعضهم يبتسم ابتسـامة مريـرة، وبعضـهم الآخر مضطرب الخـاطر، وأكثـرهم يحملـون معـاطفهم وعصيهم مستعدين للنفي أو لما هو أكثر من ذلك، إذ كان قد أذيع في ذلك اليوم أنهم سيعدمون رميا بالرصاص أو ينفون.

وقد علمت فيما بعد أنهم أدخلوا غرفة، ثم دخل عليهم قائد السلطة، ودون أن يحييهم ألقى عليهم بضع كلمـات حـادة، وأراد أن ينصرف دون أن يجيب عن أي سؤال، فقال علـي باشا شعراوي باللغة العربية: "أنا لم أفهم من كلامه شـيئًا.. أين هو ذاهب؟" فلما سمعه القائد يقول هذه الكلمـات بحـدة، عاد ليسأل عما يريده، فلما أفهمه كلام الباشا، أمر بأن تترجم



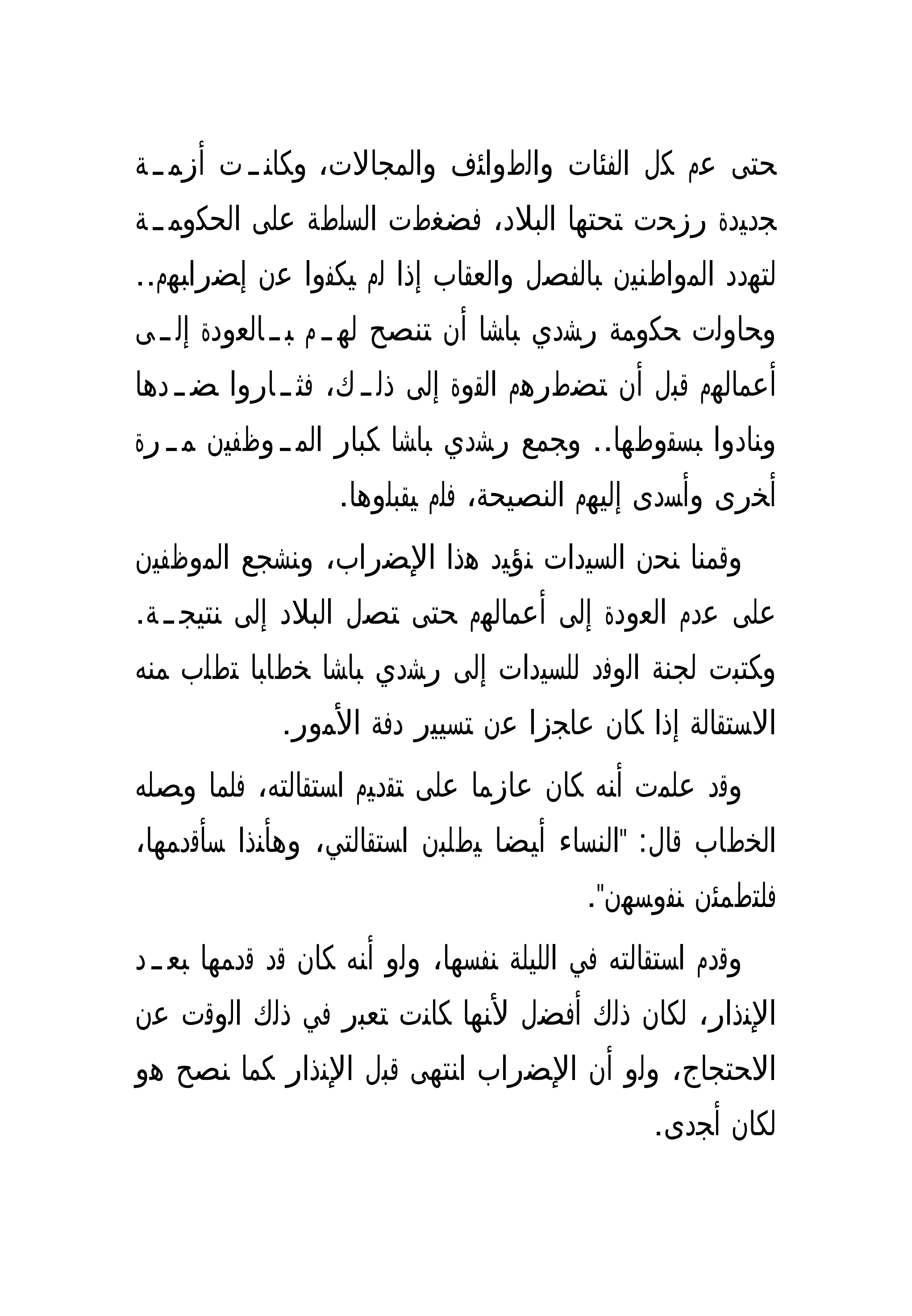
له أقواله، وألح عليهم في أن يكتبوا هذا النداء.. فوافقوا على كتابة ما يصون كرامتهم ولا يتنافى مع وطنيتهم.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أذكر مظهرا من مظاهر الوفاء والإخلاص الصادق من سيدة فرنسية صديقة، فقد سمعت ما أشيع من أن زوجي سيحكم بإعدامه، وأن السلطة قد وضعت أمام باب دارنا مدفعا تهديدا لنا، فجاءت على قدميها من روض الفرج؛ حيث كانت تسكن إلى بيتنا بقصر النيل، فوصلت في المساء. ولما دخلت علينا سقطت على الأرض من فرط التعب والتأثر، وصارت تبكي لأني سمعت عنكم أخبارا مزعجة، فجئت رغم إضراب السائقين مشيا على قدمي لأطمئن عليكم.

هذه السيدة الفاضلة هي "مدموازيل جان ماركيز" التي أصبحت محررة بمجلة "الاجبسيان" المصرية التي نصدرها باللغة الفرنسية.

المرأة والثورة

ظهر في اليوم التالي ذلك النداء الذي طلب من أعضاء الوفد نشره، فلم يؤثر في الرأي العام لأن الجميع كانوا على علم بأنهم قد أرغموا على إعلانه، واستمر الإضراب يتسع

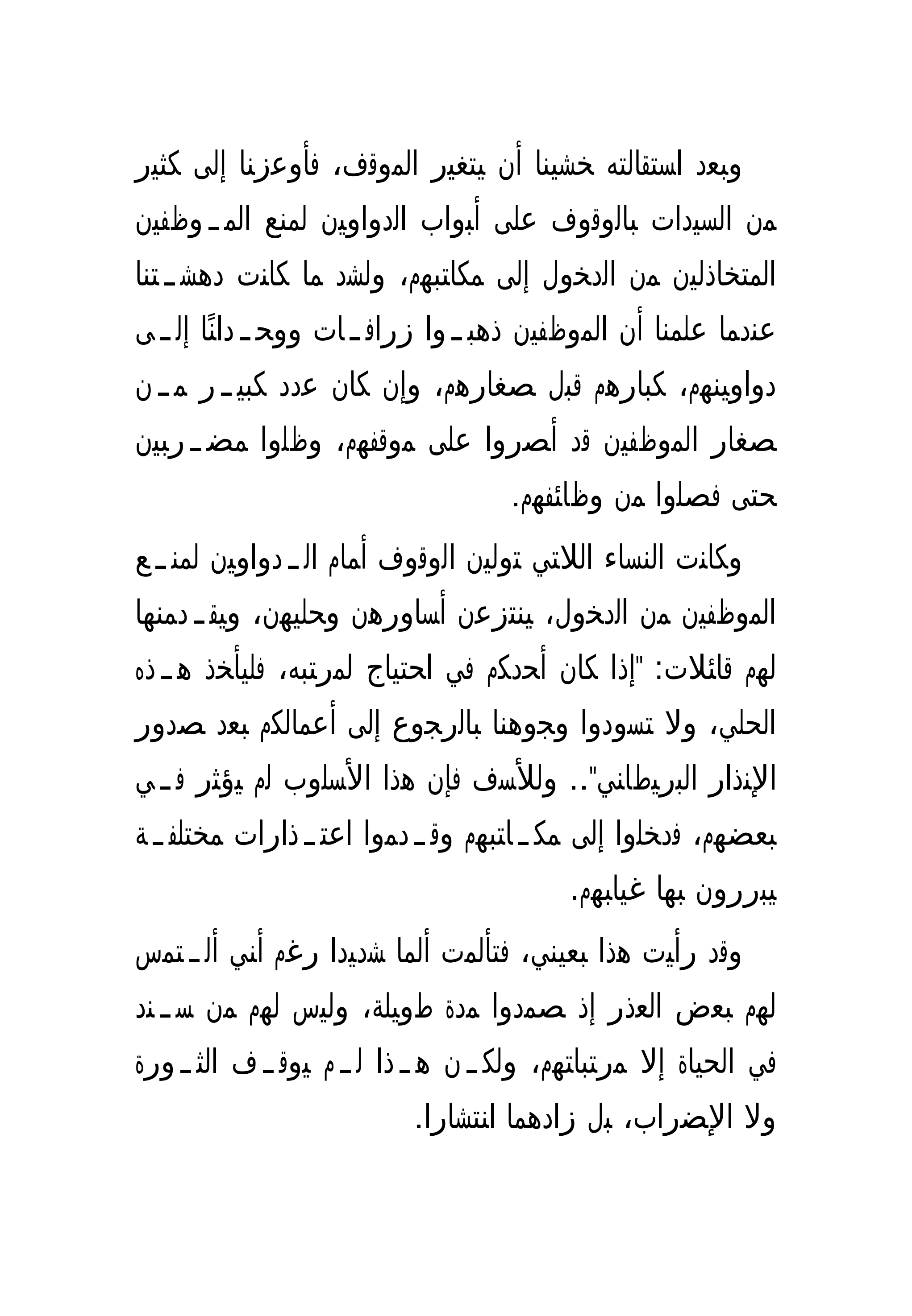


حتى عم كل الفئات والطوائف والمجالات، وكانت أزمة جديدة رزحت تحتها البلاد، فضغطت السلطة على الحكومة لتهدد المواطنين بالفصل والعقاب إذا لم يكفوا عن إضرابهم.. وحاولت حكومة رشدي باشا أن تنصح لهم بالعودة إلى أعمالهم قبل أن تضطرهم القوة إلى ذلك، فثاروا ضدها ونادوا بسقوطها.. وجمع رشدي باشا كبار الموظفين مرة أخرى وأسدى إليهم النصيحة، فلم يقبلوها.

وقمنا نحن السيدات نؤيد هذا الإضراب، ونشجع الموظفين على عدم العودة إلى أعمالهم حتى تصل البلاد إلى نتيجة. وكتبت لجنة الوفد للسيدات إلى رشدي باشا خطابا تطلب منه الاستقالة إذا كان عاجزا عن تسيير دفة الأمور.

وقد علمت أنه كان عازما على تقديم استقالته، فلما وصله الخطاب قال: "النساء أيضا يطلبن استقالتي، وهأنذا سأقدمها، فلتطمئن نفوسهن".

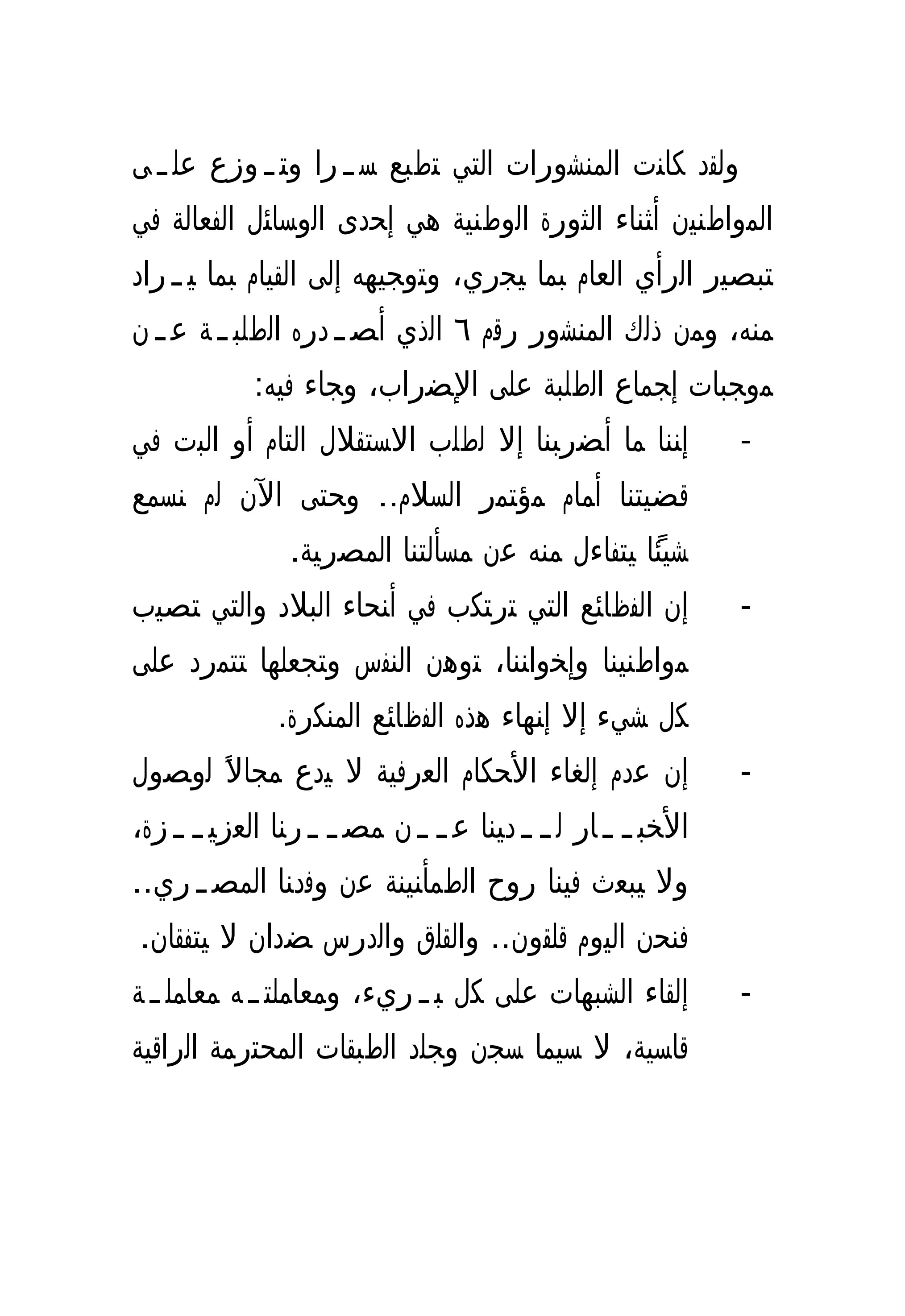
وقدم استقالته في الليلة نفسها، ولو أنه كان قد قدمها بعد الإنذار، لكان ذلك أفضل لأنها كانت تعبر في ذلك الوقت عن الاحتجاج، ولو أن الإضراب انتهى قبل الإنذار كما نصح هو لكان أجدى.



وبعد استقالته خشينا أن يتغير الموقف، فأوعزنا إلى كثير من السيدات بالوقوف على أبواب الدواوين لمنع الموظفين المتخاذلين من الدخول إلى مكاتبهم، ولشد ما كانت دهشتنا عندما علمنا أن الموظفين ذهبوا زرافات ووحدانًا إلى دواوينهم، كبارهم قبل صغارهم، وإن كان عدد كبير من صغار الموظفين قد أصروا على موقفهم، وظلوا مضربين حتى فصلوا من وظائفهم.

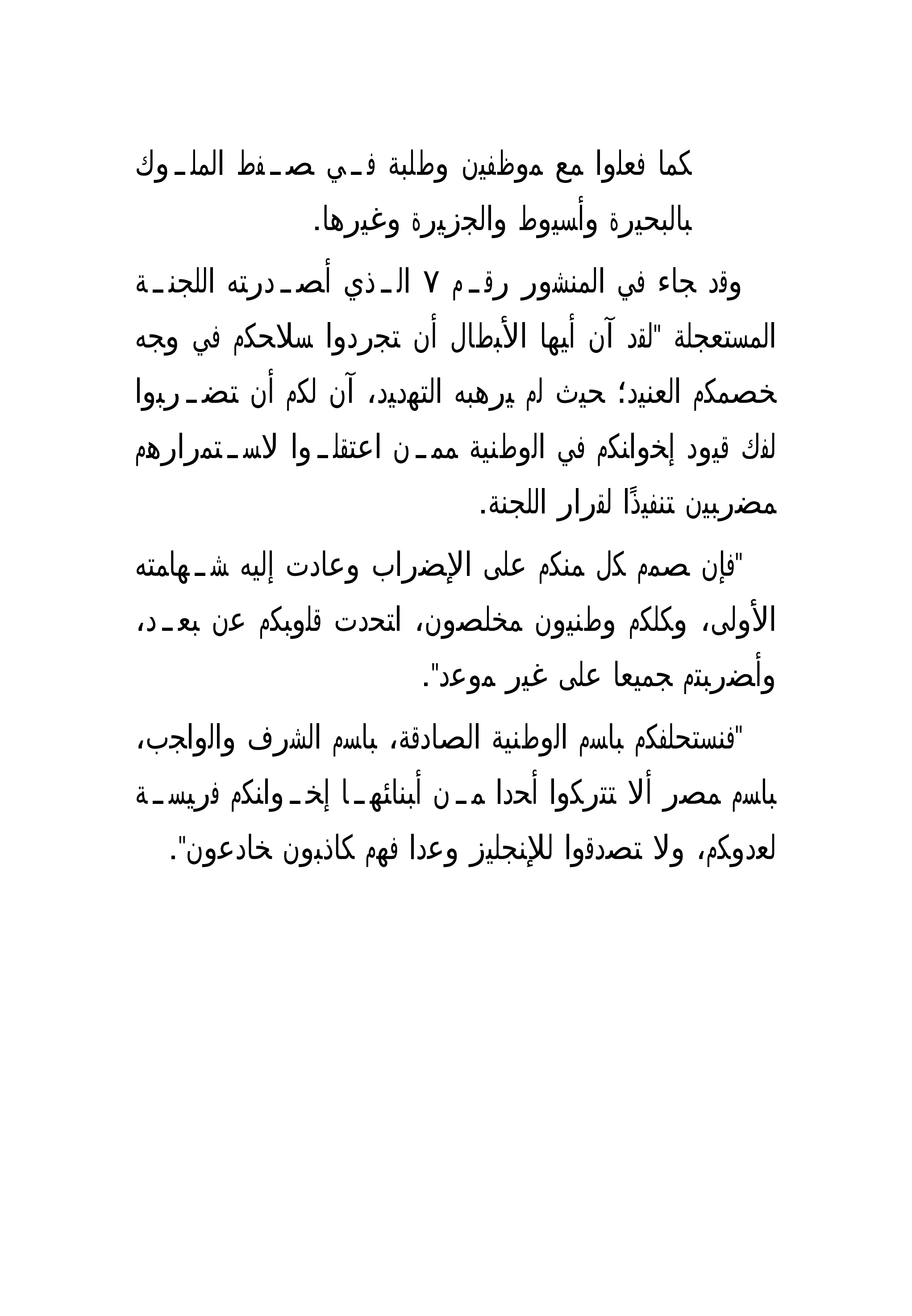
وكانت النساء اللاتي تولين الوقوف أمام الدواوين لمنع الموظفين من الدخول، ينتزعن أساورهن وحليهن، ويقدمنها لهم قائلات: "إذا كان أحدكم في احتياج لمرتبه، فليأخذ هذه الحلي، ولا تسودوا وجوهنا بالرجوع إلى أعمالكم بعد صدور الإنذار البريطاني".. وللأسف فإن هذا الأسلوب لم يؤثر في بعضهم، فدخلوا إلى مكاتبهم وقدموا اعتذارات مختلفة يبررون بها غيابهم.

وقد رأيت هذا بعيني، فتألمت ألما شديدا رغم أني ألتمس لهم بعض العذر إذ صمدوا مدة طويلة، وليس لهم من سند في الحياة إلا مرتباتهم، ولكن هذا لم يوقف الثورة ولا الإضراب، بل زادهما انتشارا.



ولقد كانت المنشورات التي تطبع سـرا وتـوزع علـى المواطنين أثناء الثورة الوطنية هي إحدى الوسائل الفعالة في تبصير الرأي العام بما يجري، وتوجيهه إلى القيام بما يـراد منه، ومن ذلك المنشور رقم ٦ الذي أصـدره الطلبـة عـن موجبات إجماع الطلبة على الإضراب، وجاء فيه:

- إننا ما أضربنا إلا لطلب الاستقلال التام أو البت في قضيتنا أمام مؤتمر السلام.. وحتى الآن لم نسمع شيئًا يتفاءل منه عن مسألتنا المصرية.
- إن الفظائع التي ترتكب في أنحاء البلاد والتي تصيب مواطنينا وإخواننا، توهن النفس وتجعلها تتمرد على كل شيء إلا إنهاء هذه الفظائع المنكرة.
- إن عدم إلغاء الأحكام العرفية لا يدع مجالاً لوصول الأخبـار لـدينا عـن مصـرنا العزيـزة، ولا يبعث فينا روح الطمأنينة عن وفدنا المصـري.. فنحن اليوم قلقون.. والقلق والدرس ضدان لا يتفقان.
- إلقاء الشبهات على كل بـريء، ومعاملتـه معاملـة قاسية، لا سيما سجن وجلد الطبقات المحترمة الراقية

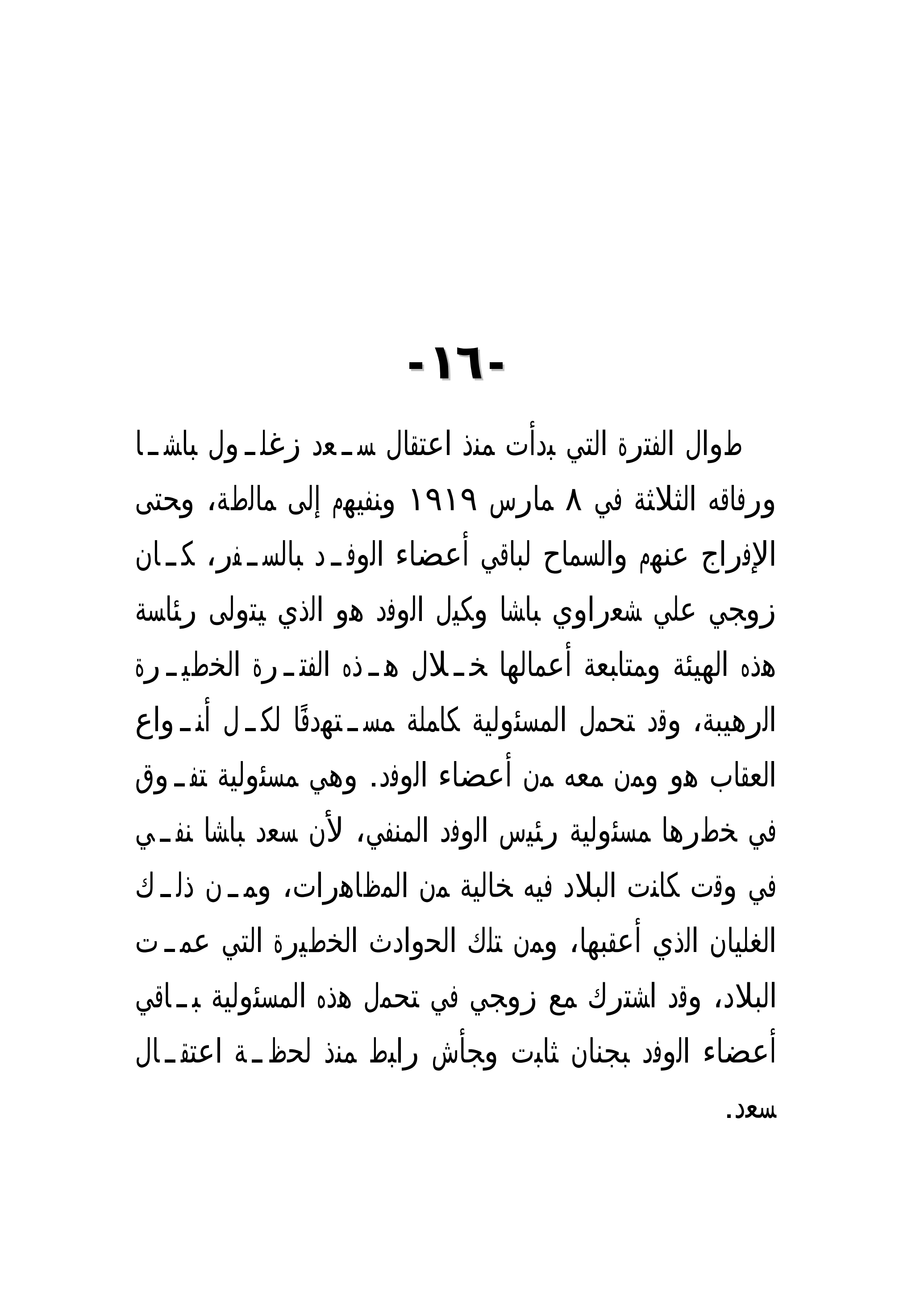


كما فعلوا مع موظفين وطلبة في صفط الملوك بالبحيرة وأسيوط والجزيرة وغيرها.

وقد جاء في المنشور رقم ٧ الذي أصدرته اللجنة المستعجلة "لقد آن أيها الأبطال أن تجردوا سلاحكم في وجه خصمكم العنيد؛ حيث لم يرهبه التهديد، آن لكم أن تضربوا لفك قيود إخوانكم في الوطنية ممن اعتقلوا ولاستمرارهم مضربين تنفيذًا لقرار اللجنة.

"فإن صمم كل منكم على الإضراب وعادت إليه شهامته الأولى، وكلكم وطنيون مخلصون، اتحدت قلوبكم عن بعد، وأضربتم جميعا على غير موعد".

"فنستحلفكم باسم الوطنية الصادقة، باسم الشرف والواجب، باسم مصر ألا تتركوا أحدا من أبنائها إخوانكم فريسة لعدوكم، ولا تصدقوا للإنجليز وعدا فهم كاذبون خادعون".

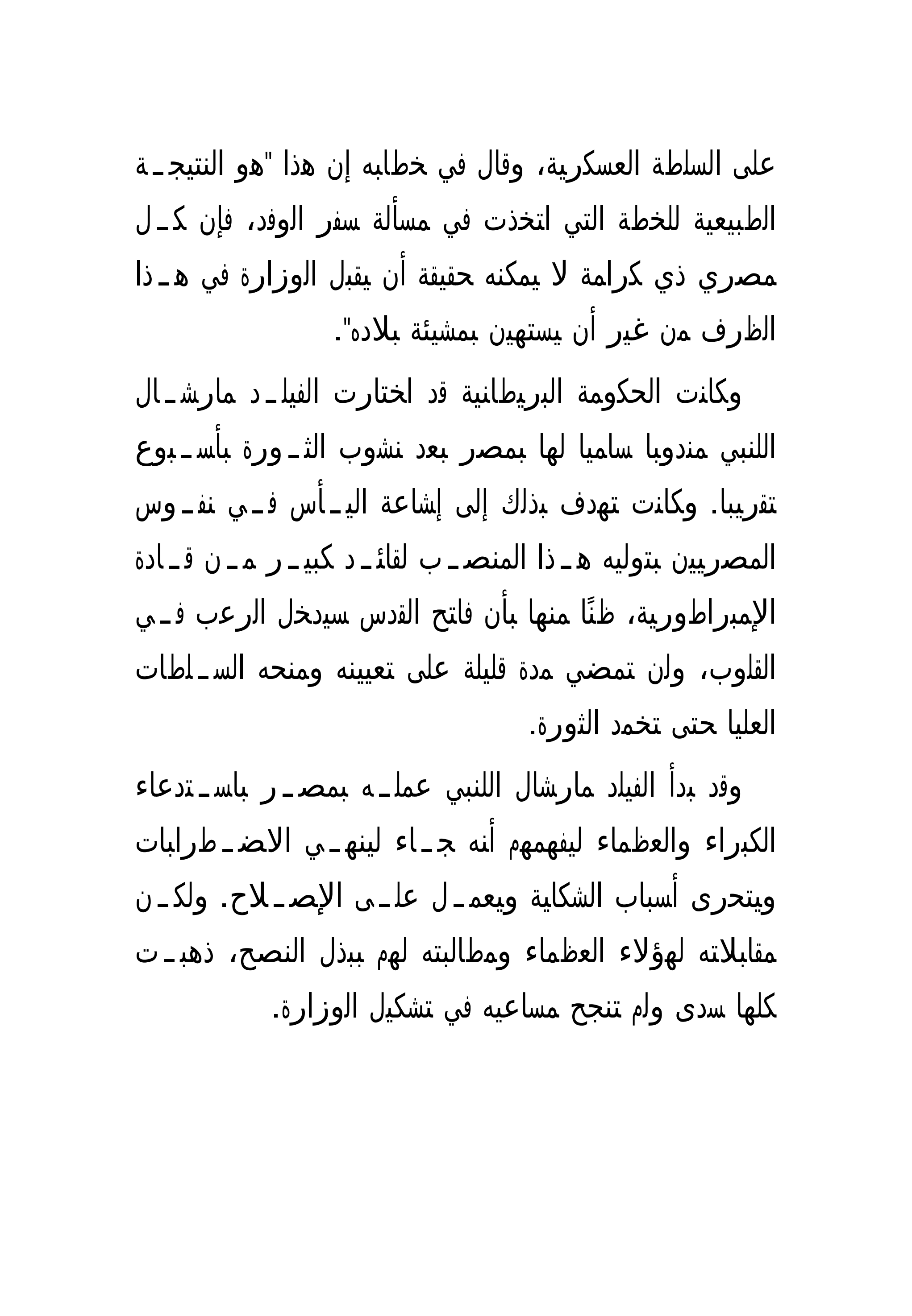


-١٦-

طوال الفترة التي بدأت منذ اعتقال سعد زغلول باشا ورفاقه الثلاثة في ٨ مارس ١٩١٩ ونفيهم إلى مالطة، وحتى الإفراج عنهم والسماح لباقي أعضاء الوفد بالسفر، كان زوجي علي شعراوي باشا وكيل الوفد هو الذي يتولى رئاسة هذه الهيئة ومتابعة أعمالها خلال هذه الفترة الخطيرة الرهيبة، وقد تحمل المسئولية كاملة مستهدفًا لكل أنواع العقاب هو ومن معه من أعضاء الوفد. وهي مسئولية تفوق في خطرها مسئولية رئيس الوفد المنفي، لأن سعد باشا نفي في وقت كانت البلاد فيه خالية من المظاهرات، ومن ذلك الغليان الذي أعقبها، ومن تلك الحوادث الخطيرة التي عمت البلاد، وقد اشترك مع زوجي في تحمل هذه المسئولية باقي أعضاء الوفد بجنان ثابت وجأش رابط منذ لحظة اعتقال سعد.

وقد حدث في يوم الاعتقال، أن أرسلت قرينة سعد باشا إلى زوجي تبلغه أن مكتب سعد مفتوح له ولزملائه في غيابه كما كان في حضوره، وترجوه أن يقبلوا دعوتها للعشاء في ذلك المساء، وأن يعقدوا جلستهم الأولى في مكان انعقادها المألوف كي لا يطرأ على سير الدعوة أدنى تغيير بعد ذلك الحادث الذي أريد به القضاء عليه. وقد قرر الأعضاء أن يلبوا رجاءها وأن يشكروها عليه، وإن كانوا قد اعتذروا عن حضور العشاء لانشغالهم بإعداد الخطة التي تلائم الموقف الجديد.

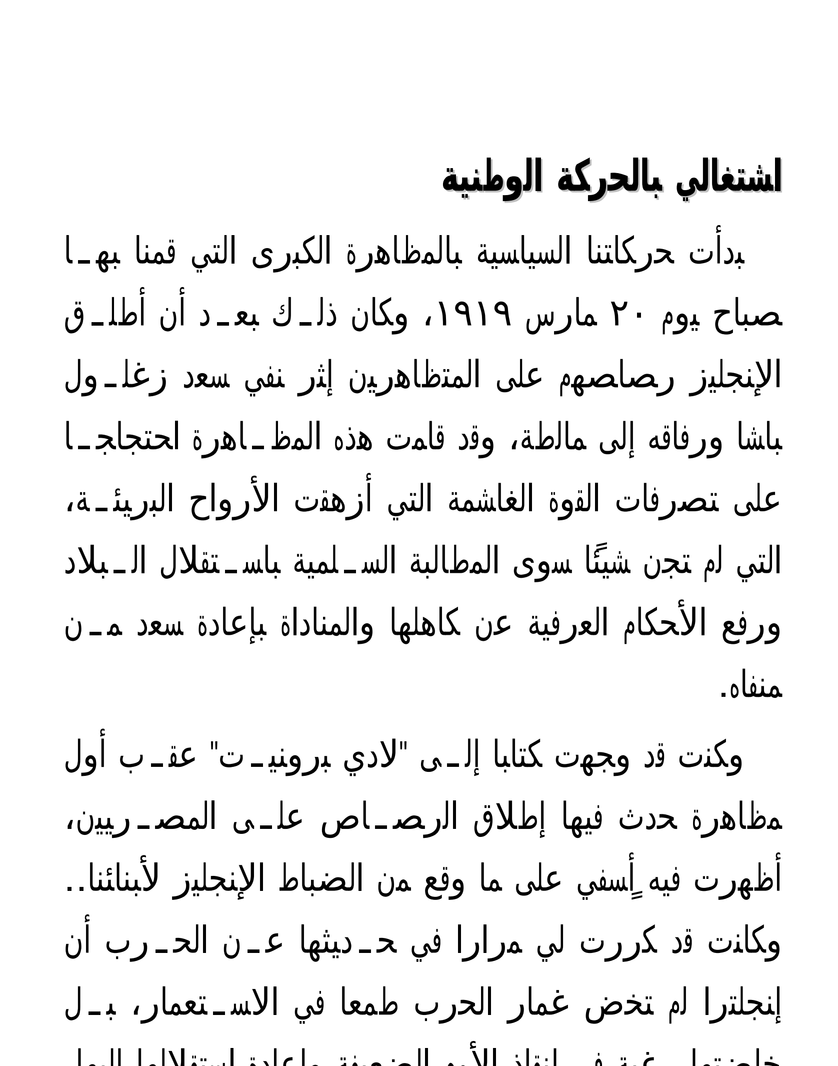
ولم يكن شعور الأعضاء بعد الاعتقال شعور فزع وارتداع كما قدرت السلطة، بل كان شعور استياء لاعتبارهم دون من اعتقلتهم السلطة في الخطر والأثر، وشعور رغبة في إفهام السلطة الإنجليزية خطأها وتحديها واستفزازها بإتيان العمل نفسه الذي من أجله اعتقلت سعدا وأصحابه. وقد كتب شعراوي باشا احتجاجا إلى رئيس الحكومة البريطانية على اعتقالهم، وأبلغه فيه أن الوفد مثابر على خطتهم، كما وجه مع زملائه في اليوم التالي خطابا إلى صاحب العظمة السلطان يلقي فيه تبعة إعراض الكبراء عن تأليف الوزارة



على السلطة العسكرية، وقال في خطابه إن هذا "هو النتيجة الطبيعية للخطة التي اتخذت في مسألة سفر الوفد، فإن كل مصري ذي كرامة لا يمكنه حقيقة أن يقبل الوزارة في هذا الظرف من غير أن يستهين بمشيئة بلاده".

وكانت الحكومة البريطانية قد اختارت الفيلد مارشال اللنبي مندوبا ساميا لها بمصر بعد نشوب الثورة بأسبوع تقريبا. وكانت تهدف بذلك إلى إشاعة اليأس في نفوس المصريين بتوليه هذا المنصب لقائد كبير من قادة الإمبراطورية، ظنًا منها بأن فاتح القدس سيدخل الرعب في القلوب، ولن تمضي مدة قليلة على تعيينه ومنحه السلطات العليا حتى تخمد الثورة.

وقد بدأ الفيلد مارشال اللنبي عمله بمصر باستدعاء الكبراء والعظماء ليفهمهم أنه جاء لينهي الاضطرابات ويتحرى أسباب الشكاية ويعمل على الإصلاح. ولكن مقابلاته لهؤلاء العظماء ومطالبته لهم ببذل النصح، ذهبت كلها سدى ولم تنجح مساعيه في تشكيل الوزارة.



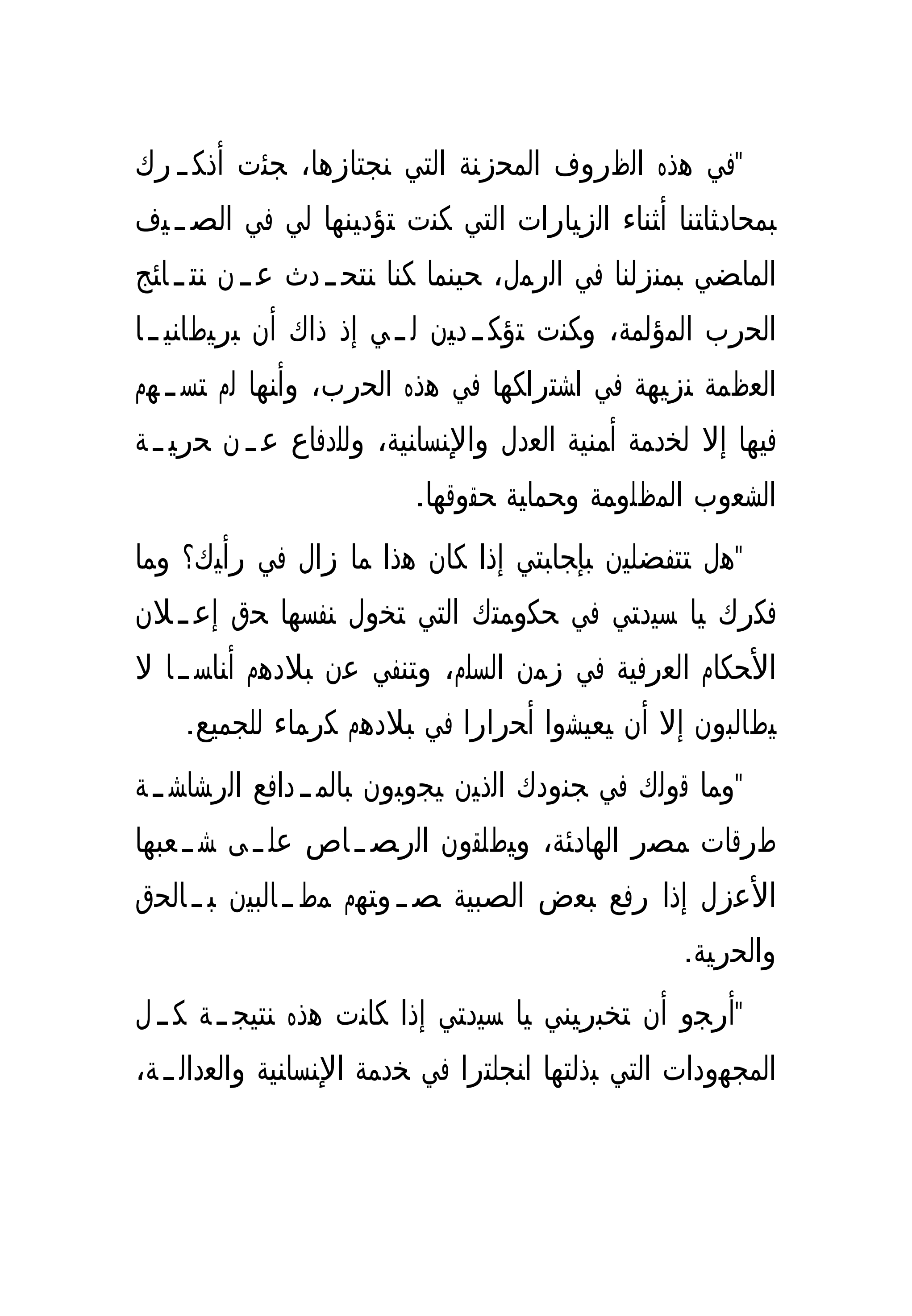
اشتغالي بالحركة الوطنية

بدأت حركاتنا السياسية بالمظاهرة الكبرى التي قمنا بها صباح يوم ٢٠ مارس ١٩١٩، وكان ذلك بعد أن أطلق الإنجليز رصاصهم على المتظاهرين إثر نفي سعد زغلول باشا ورفاقه إلى مالطة، وقد قامت هذه المظاهرة احتجاجا على تصرفات القوة الغاشمة التي أزهقت الأرواح البريئة، التي لم تجن شيئًا سوى المطالبة السلمية باستقلال البلاد ورفع الأحكام العرفية عن كاهلها والمناداة بإعادة سعد من منفاه.

وكنت قد وجهت كتابا إلى "لادي برونيت" عقب أول مظاهرة حدث فيها إطلاق الرصاص على المصريين، أظهرت فيه أسفي على ما وقع من الضباط الإنجليز لأبنائنا.. وكانت قد كررت لي مرارا في حديثها عن الحرب أن إنجلترا لم تخض غمار الحرب طمعا في الاستعمار، بل خاضتها رغبة في إنقاذ الأمم الضعيفة وإعادة استقلالها إليها. وكان أن كتبت لها هذا الخطاب لأذكرها فيها بلكماتها.

٢٢ مارس ١٩١٩

"سيدتي..

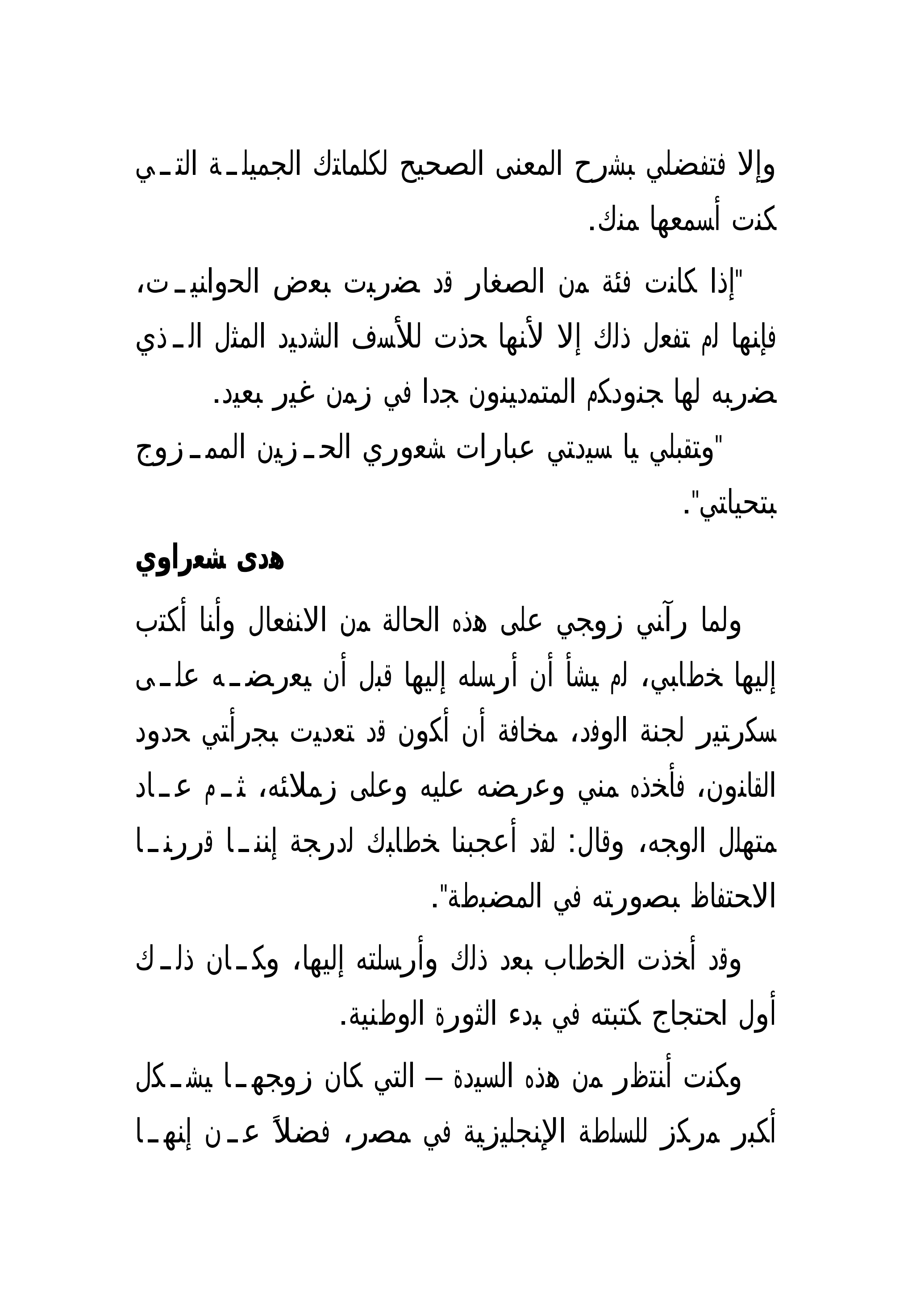


"في هذه الظروف المحزنة التي نجتازها، جئت أذكرك بمحادثاتنا أثناء الزيارات التي كنت تؤدينها لي في الصيف الماضي بمنزلنا في الرمل، حينما كنا نتحدث عن نتائج الحرب المؤلمة، وكنت تؤكدين لي إذ ذاك أن بريطانيا العظمة نزيهة في اشتراكها في هذه الحرب، وأنها لم تسهم فيها إلا لخدمة أمنية العدل والإنسانية، وللدفاع عن حرية الشعوب المظلومة وحماية حقوقها.

"هل تتفضلين بإجابتي إذا كان هذا ما زال في رأيك؟ وما فكرك يا سيدتي في حكومتك التي تخول نفسها حق إعلان الأحكام العرفية في زمن السلم، وتنفي عن بلادهم أناسا لا يطالبون إلا أن يعيشوا أحرارا في بلادهم كرماء للجميع.

"وما قولك في جنودك الذين يجوبون بالمدافع الرشاشة طرقات مصر الهادئة، ويطلقون الرصاص على شعبها الأعزل إذا رفع بعض الصبية صوتهم مطالبين بالحق والحرية.

"أرجو أن تخبريني يا سيدتي إذا كانت هذه نتيجة كل المجهودات التي بذلتها انجلترا في خدمة الإنسانية والعدالة،



وإلا فتفضلي بشرح المعنى الصحيح لكلماتك الجميلة التي كنت أسمعها منك.

"إذا كانت فئة من الصغار قد ضربت بعض الحوانيت، فإنها لم تفعل ذلك إلا لأنها حذت للأسف الشديد المثل الذي ضربه لها جنودكم المتمدينون جدا في زمن غير بعيد.

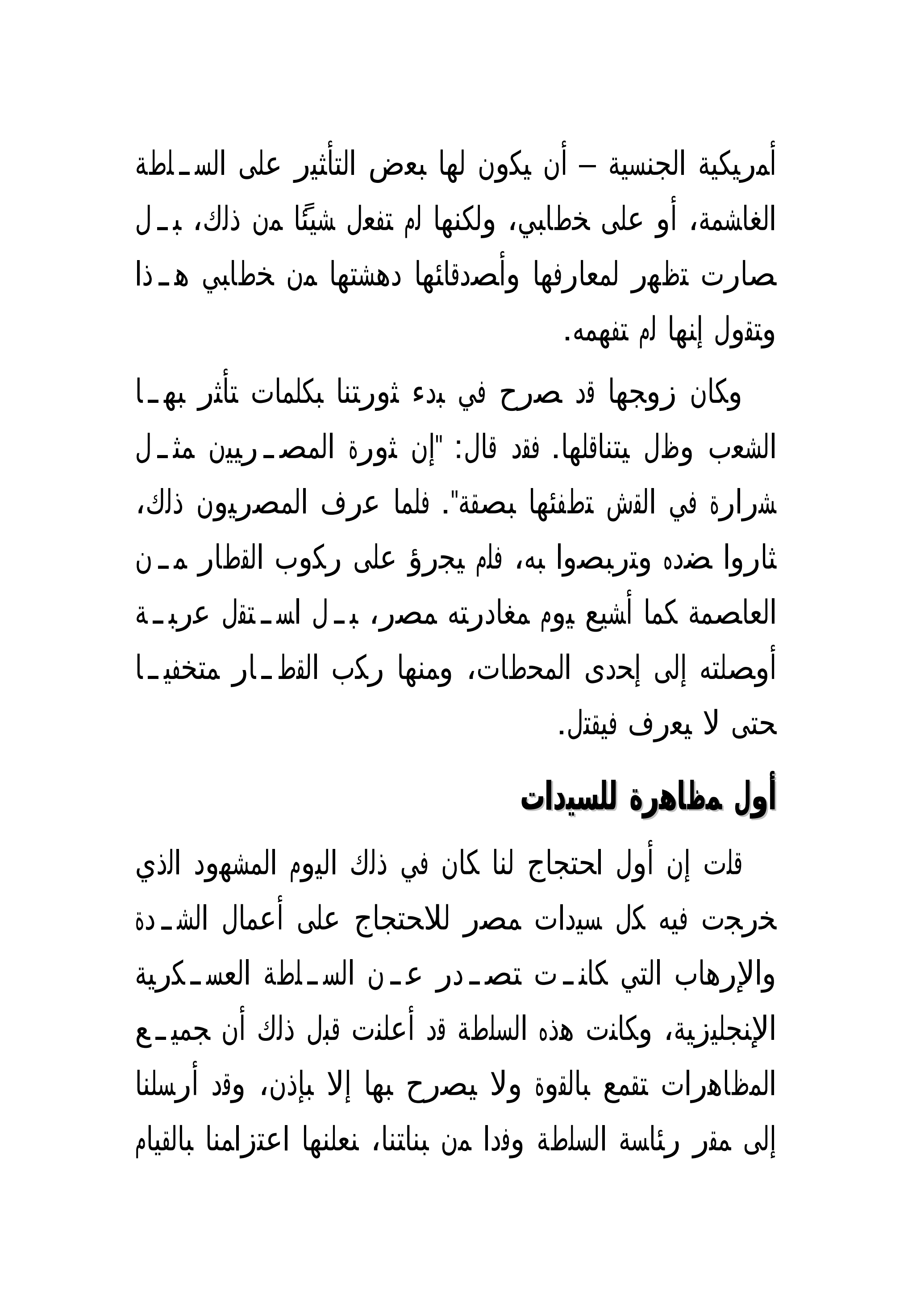
"وتقبلي يا سيدتي عبارات شعوري الحزين الممزوج بتحياتي".

هدى شعراوي

ولما رآني زوجي على هذه الحالة من الانفعال وأنا أكتب إليها خطابي، لم يشأ أن أرسله إليها قبل أن يعرضه على سكرتير لجنة الوفد، مخافة أن أكون قد تعديت بجرأتي حدود القانون، فأخذه مني وعرضه عليه وعلى زملائه، ثم عاد متهلل الوجه، وقال: لقد أعجبنا خطابك لدرجة إننا قررنا الاحتفاظ بصورته في المضبطة".

وقد أخذت الخطاب بعد ذلك وأرسلته إليها، وكان ذلك أول احتجاج كتبته في بدء الثورة الوطنية.

وكنت أنتظر من هذه السيدة – التي كان زوجها يشكل أكبر مركز للسلطة الإنجليزية في مصر، فضلاً عن إنها



أمريكية الجنسية – أن يكون لها بعض التأثير على السلطة الغاشمة، أو على خطابي، ولكنها لم تفعل شيئًا من ذلك، بل صارت تظهر لمعارفها وأصدقائها دهشتها من خطابي هذا وتقول إنها لم تفهمه.

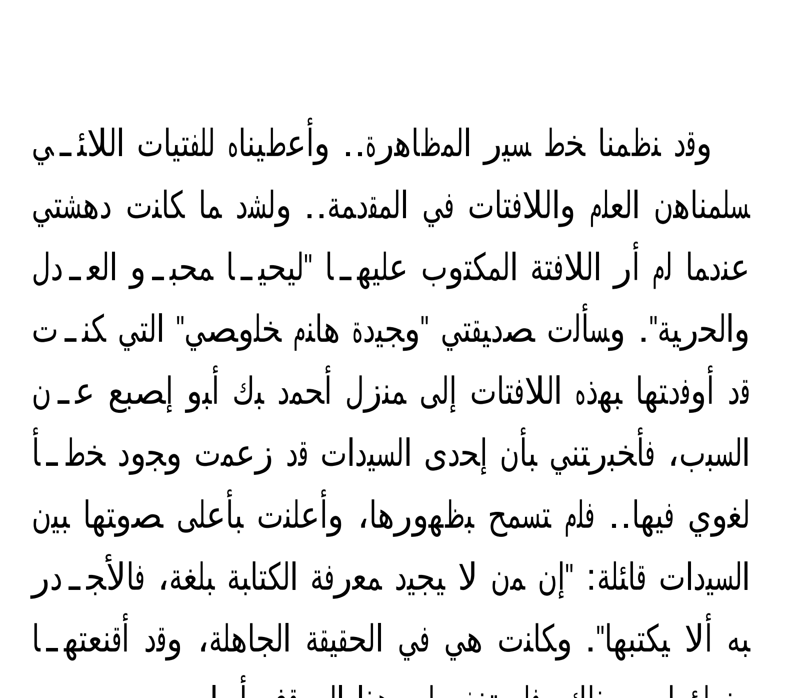
وكان زوجها قد صرح في بدء ثورتنا بكلمات تأثر بها الشعب وظل يتناقلها. فقد قال: "إن ثورة المصريين مثل شرارة في القش تطفئها بصقة". فلما عرف المصريون ذلك، ثاروا ضده وتربصوا به، فلم يجرؤ على ركوب القطار من العاصمة كما أشيع يوم مغادرته مصر، بل استقل عربة أوصلته إلى إحدى المحطات، ومنها ركب القطار متخفيا حتى لا يعرف فيقتل.

أول مظاهرة للسيدات

قلت إن أول احتجاج لنا كان في ذلك اليوم المشهود الذي خرجت فيه كل سيدات مصر للاحتجاج على أعمال الشدة والإرهاب التي كانت تصدر عن السلطة العسكرية الإنجليزية، وكانت هذه السلطة قد أعلنت قبل ذلك أن جميع المظاهرات تقمع بالقوة ولا يصرح بها إلا بإذن، وقد أرسلنا إلى مقر رئاسة السلطة وفدا من بناتنا، نعلنها اعتزامنا بالقيام

بمظاهرة سلمية.. فرفضت السلطة التصريح لنا بالمظـاهرة، وكان أن تصرفت بعض الفتيـات اللائـي كلفنـاهن بهـذه المأمورة من تلقاء أنفسهن؛ حيث اتصلن بكثير من السـيدات اللائي اتفقن معنا على السير في المظاهرة، وأخبرنهن بـأن المظاهرة قد أجلت، ولكننا بعد ذلك قرأنا في جريدة المقطـم أن السلطة قد سمحت للسيدات بإقامة هذه المظاهرة، فأمضينا الليلة في محاولات الاتصال بالسـيدات تلفونيـا لنخبـرهن بالتصريح، ولكن مع الأسف لم نستطع الاتصال بمعظمهـن بسبب الرقابة التي كانت مفروضة على التليفونات ولولا هذا الاضطراب الذي أثاره تصرف هؤلاء الفتيات لبقـي العـزم على ما كان عليه و لاشتركت كل نساء القـاهرة فـي تلـك المظاهرة.

وفي صباح يوم ٢٠ مارس ١٩١٩، أرسلت اللوحات التي كنت قـد أعـددتها للمظـاهرة إلـى منـزل أحمـد بـك أبو إصبع، مكتوبا عليها باللغتين العربية والفرنسية بالبويـة البيضاء على قماش أسود علامة الحداد: "ليحيا ناصرو العدل والحرية.. ليسقط الظالمون المستبدون وليسقط الاحتلال".



وقد نظمنا خط سير المظاهرة.. وأعطيناه للفتيات اللائي سلمناهن العلم واللافتات في المقدمة.. ولشد ما كانت دهشتي عندما لم أر اللافتة المكتوب عليها "ليحيا محبو العدل والحرية". وسألت صديقتي "وجيدة هانم خلوصي" التي كنت قد أوفدتها بهذه اللافتات إلى منزل أحمد بك أبو إصبع عن السبب، فأخبرتني بأن إحدى السيدات قد زعمت وجود خطأ لغوي فيها.. فلم تسمح بظهورها، وأعلنت بأعلى صوتها بين السيدات قائلة: "إن من لا يجيد معرفة الكتابة بلغة، فالأجدر به ألا يكتبها". وكانت هي في الحقيقة الجاهلة، وقد أقنعتها بخطئها بعد ذلك، فلم تغفر لي هذا الموقف أبدا.

ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد، فقد حدث موقف آخر. كان الاتفاق يقضي بأن نقصد سفارة أمريكا أولاً، ثم سفارة فرنسا.. ولكنني رأيت فتياتنا قد غيرن خط السير وقصدن بيت الأمة أولاً. فلما أرسلت صديقتي "وجيدة هانم" لتنبههن إلى ذلك، قلن لها إن غالبية السيدات قررن ذلك، فأذعنت لهذا القرار على مضض، وابتدأنا ببيت الأمة بدلاً من أن ننتهي به حسب الاتفاق.

ولم نكد نصل إلى هناك، حتى حاصرنا جنـود السـلطة الإنجليزية، وأحاطوا بنا مسلحين وقد سدوا الشوارع بمـدافع الماكينة، فوقفت صفوفنا تحيط بها صفوف الطلبة الذين كانوا يتبعوننا طوال الطريق لحمايتنا.

وقد أدركت أن هناك تدبيرا مسبقًا بين أدلتنا وبين السلطة التي كانت تنتظرنا مطمئنة بشارع سعد زغلول. وبذلك فشلت خطتنا، ولم يرنا إلا قليل من الناس، وعلمنا بعد ذلك أنه كان أمام دور السفارات عدد كبير من الأجانب ينتظروننا بباقات الورد ليلقوها تحت أقدامنا.

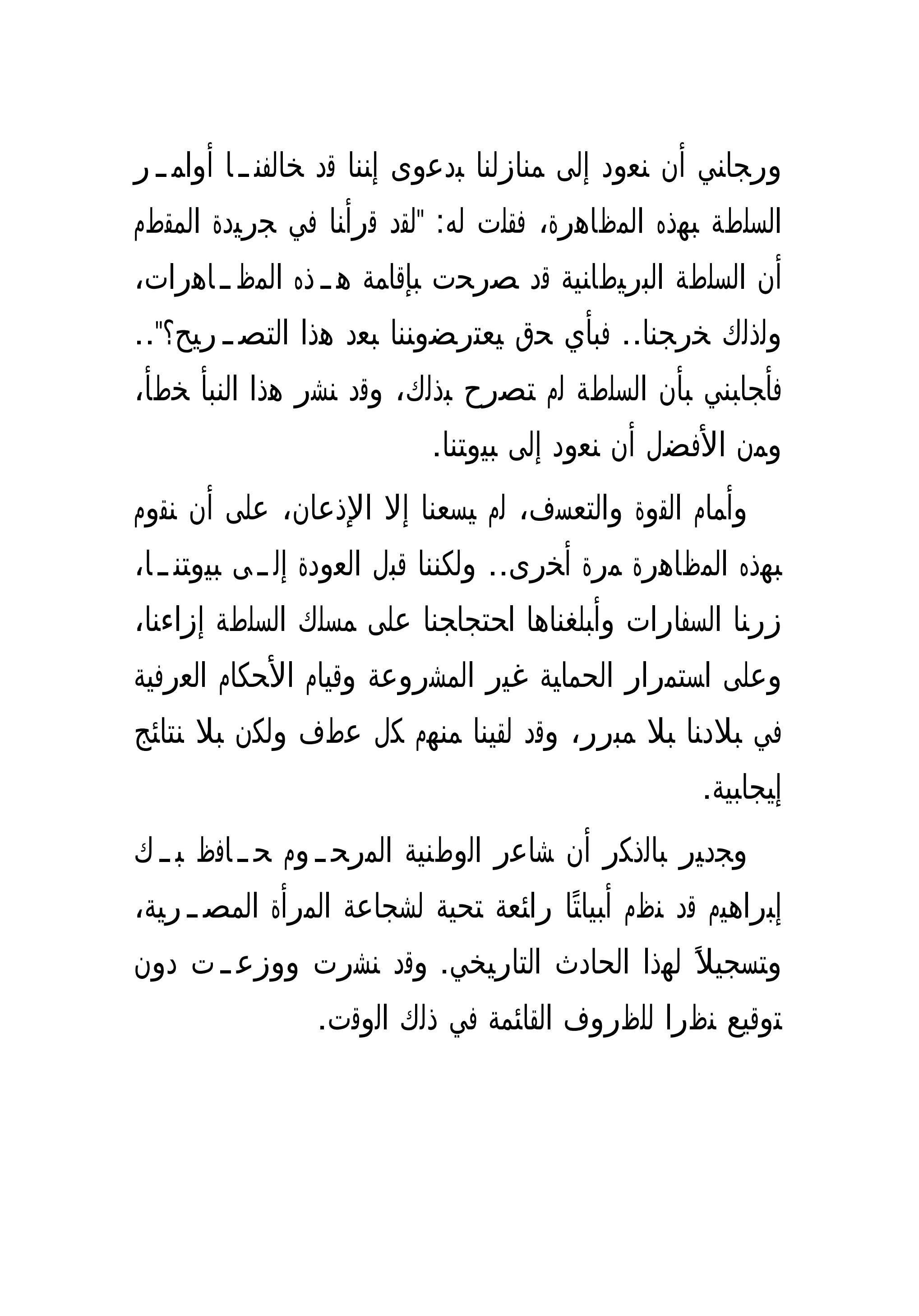
وبينما نحن في تلك الوقفة التي أجبرونا عليها، أردت أن أشق طريقي بالقوة لأقود مسيرة السيدات، فتقدمت إلى الأمام، وإذا بجندي إنجليزي يجلس القرفصاء بسرعة ويصوب فوهة بندقيته إلى صدري، وعندما حاولت أن أتقدم نحوه، أسرعت إحدى السيدات تجذبني من الخلف لتمنعني من التقدم، فقلـت لها بصوت عال: "دعيني أتقدم، ليكون لمصر اليـوم مـس كافيل". فما كاد الجندي يسمع هذا الاسم، حتى خجـل وقـام على الفور.

وأردت بعد ذلك أن اخترق صفوف الجنود، وطلبت من السيدات أن يتبعنني، فإذا بذراعين تحيطانني، وإذا بصوت حرم الدكتور حبيب خياط تقول لي: "ما هذا الجنون؟ أتريدين إراقة دماء هؤلاء الأولاد إذا رأوا قطرة من دمك تسيل؟".

وأعادتني هذه الكلمات إلى رشدي في الحال، فقد تصورت هؤلاء المئات من أبنائنا يخوضون المعركة ضد الإنجليز، وتصورت كم ستخسر مصر من بنيها بسبب مجازفتي هذه، فوقفت في مكاني لا أتحرك، وبقينا على هذه الحال ثلاث ساعات تحت وهج الشمس، وكم تمنيت أن تصيبني ضربة شمس لتقع مسئولية ذلك على السلطة الغاشمة، ولكن للأسف لم يحدث لنا أي أذى.

وأثناء ذلك الوقت، توجه الطلبة إلى السفارة الأمريكية، ثم إلى سفارتي إيطاليا وفرنسا، ووقفوا يصرخون: "لقد حاصرت السلطة الإنجليزية سيداتنا أمام منزل زغلول.. نطلب الإنصاف والمساعدة".

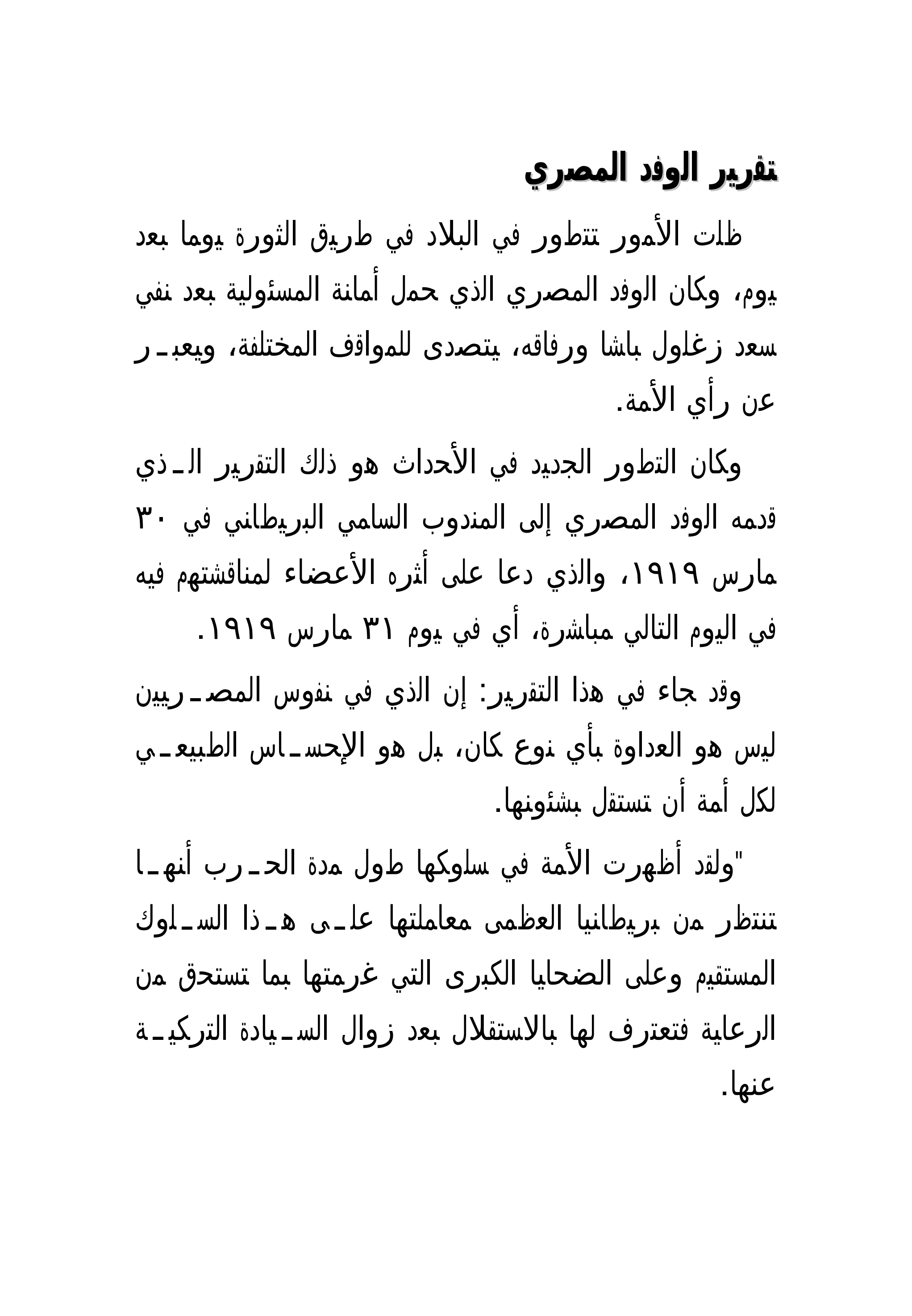
وقد توجه سفير أمريكا إلى موقع الحصار والتقط بعض الصور الفوتوغرافية. وهال هذا الأمر السلطة البريطانية، وسرعان ما جاء اللواء رسل باشا حكمدار العاصمة،



ورجاني أن نعود إلى منازلنا بدعوى إننا قد خالفنـا أوامـر السلطة بهذه المظاهرة، فقلت له: "لقد قرأنا في جريدة المقطم أن السلطة البريطانية قد صرحت بإقامة هـذه المظـاهرات، ولذلك خرجنا.. فبأي حق يعترضوننا بعد هذا التصـريح؟".. فأجابني بأن السلطة لم تصرح بذلك، وقد نشر هذا النبأ خطأ، ومن الأفضل أن نعود إلى بيوتنا.

وأمام القوة والتعسف، لم يسعنا إلا الإذعان، على أن نقوم بهذه المظاهرة مرة أخرى.. ولكننا قبل العودة إلـى بيوتنـا، زرنا السفارات وأبلغناها احتجاجنا على مسلك السلطة إزاءنا، وعلى استمرار الحماية غير المشروعة وقيام الأحكام العرفية في بلادنا بلا مبرر، وقد لقينا منهم كل عطف ولكن بلا نتائج إيجابية.

وجدير بالذكر أن شاعر الوطنية المرحـوم حـافظ بـك إبراهيم قد نظم أبياتًا رائعة تحية لشجاعة المرأة المصـرية، وتسجيلاً لهذا الحادث التاريخي. وقد نشرت ووزعـت دون توقيع نظرا للظروف القائمة في ذلك الوقت.



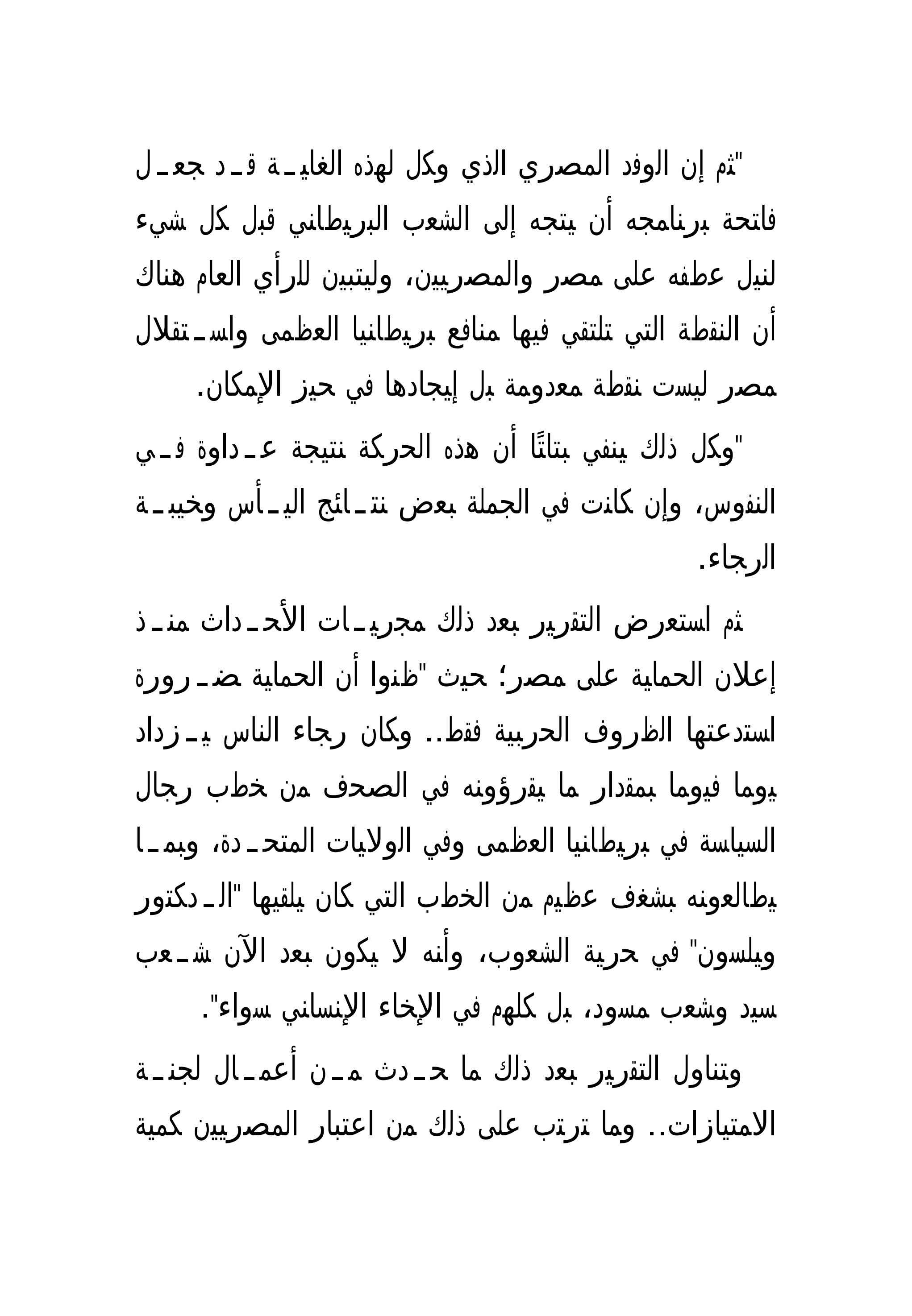
تقرير الوفد المصري

ظلت الأمور تتطور في البلاد في طريق الثورة يوما بعد يوم، وكان الوفد المصري الذي حمل أمانة المسئولية بعد نفي سعد زغلول باشا ورفاقه، يتصدى للمواقف المختلفة، ويعبر عن رأي الأمة.

وكان التطور الجديد في الأحداث هو ذلك التقرير الذي قدمه الوفد المصري إلى المندوب السامي البريطاني في ٣٠ مارس ١٩١٩، والذي دعا على أثره الأعضاء لمناقشتهم فيه في اليوم التالي مباشرة، أي في يوم ٣١ مارس ١٩١٩.

وقد جاء في هذا التقرير: إن الذي في نفوس المصريين ليس هو العداوة بأي نوع كان، بل هو الإحساس الطبيعي لكل أمة أن تستقل بشئونها.

"ولقد أظهرت الأمة في سلوكها طول مدة الحرب أنها تنتظر من بريطانيا العظمى معاملتها على هذا السلوك المستقيم وعلى الضحايا الكبرى التي غرمتها بما تستحق من الرعاية فتعترف لها بالاستقلال بعد زوال السيادة التركية عنها.



"ثم إن الوفد المصري الذي وكل لهذه الغاية قد جعل فاتحة برنامجه أن يتجه إلى الشعب البريطاني قبل كل شيء لنيل عطفه على مصر والمصريين، وليتبين للرأي العام هناك أن النقطة التي تلتقي فيها منافع بريطانيا العظمى واستقلال مصر ليست نقطة معدومة بل إيجادها في حيز الإمكان.

"وكل ذلك ينفي بتاتًا أن هذه الحركة نتيجة عداوة في النفوس، وإن كانت في الجملة بعض نتائج اليأس وخيبة الرجاء.

ثم استعرض التقرير بعد ذلك مجريات الأحداث منذ إعلان الحماية على مصر؛ حيث "ظنوا أن الحماية ضرورة استدعتها الظروف الحربية فقط.. وكان رجاء الناس يزداد يوما فيوما بمقدار ما يقرؤونه في الصحف من خطب رجال السياسة في بريطانيا العظمى وفي الولايات المتحدة، وبما يطالعونه بشغف عظيم من الخطب التي كان يلقيها "الدكتور ويلسون" في حرية الشعوب، وأنه لا يكون بعد الآن شعب سيد وشعب مسود، بل كلهم في الإخاء الإنساني سواء".

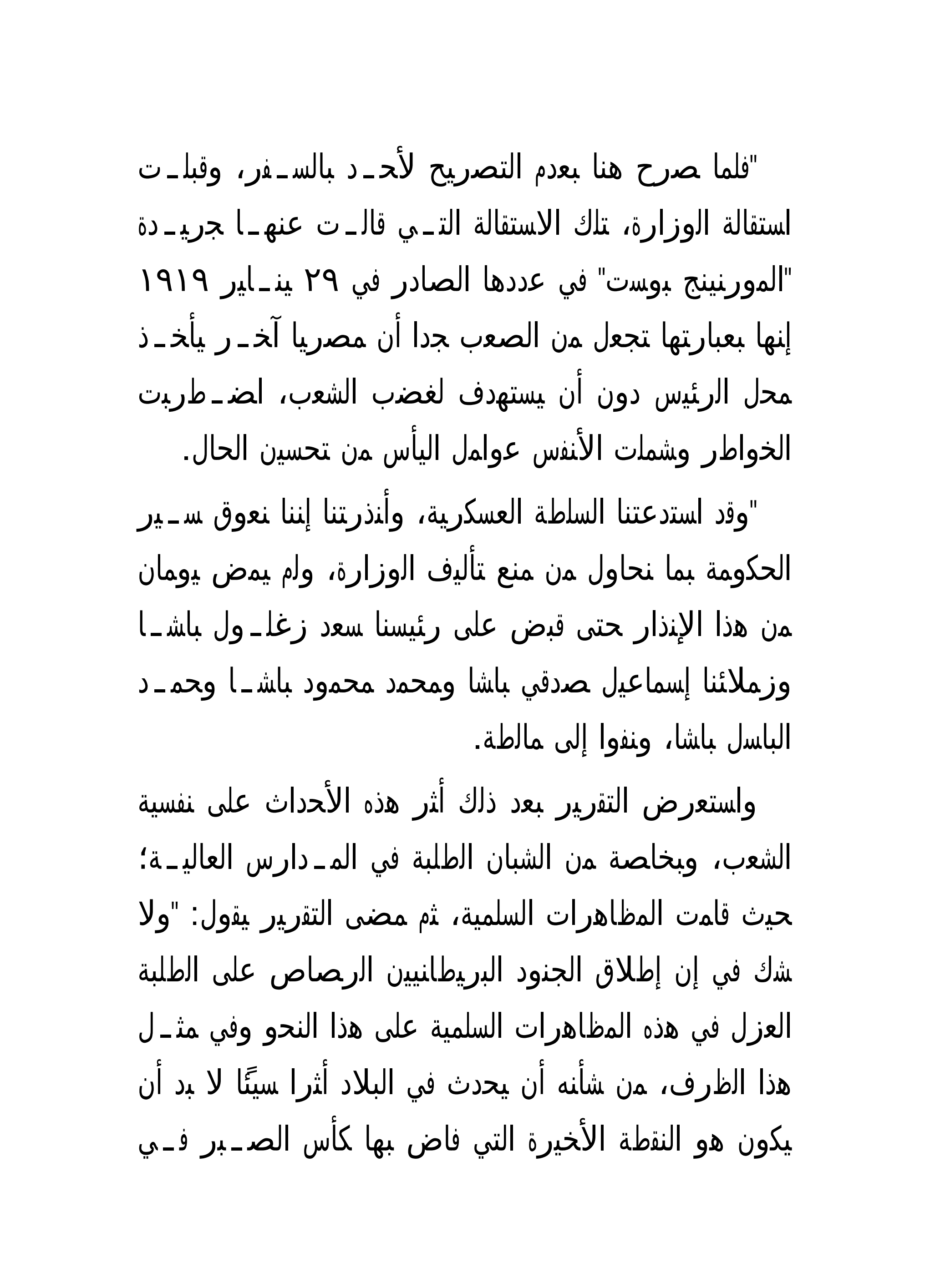
وتناول التقرير بعد ذلك ما حدث من أعمال لجنة الامتيازات.. وما ترتب على ذلك من اعتبار المصريين كمية

عاطلة ليس لهم في إدارة بلادهم نصيب، فخيم الحزن علـى نفوس المصريين، ولكنهم اعتقدوا أن كل ذلك من عمل حزب الاستعمار، وأن الشعب البريطاني الحـر لا يرضـى بهـذا التصرف".

"وما زالوا يعلقون آمالهم بالرأي العام البريطـاني العـام وبمؤتمر السلام الذي وضعت قواعده بفضل الأمم الحرة.

"ولما نشرت هذه القواعد تألف الوفد المصـري ولـيس أعضاؤه من غير المسئولين ولا غير المعبرين عن الـرأي العام كما يقال، بل إنه فضلاً على ما لرئيسه وبعض رجالـه من صفة النيابة عن الأمة، قد وكله أكثر من ثلاثـة أربـاع نواب الجمعية التشريعية غير الوزارة، كما وكلـه أعضـاء الهيئات النيابية الأخرى (مجالس المديريات والمجالس البلدية والمحلية) وكثير من الأفراد أولي الرأي في البلاد.

وطلب الوفد الترخيص له بالسفر إلى انجلترا وفرنسا، فلم يرخص له بذلك، فلما طال به الانتظار، رفع شـكواه إلـى المندوب السامي وقتئذ ثم إلى رئيس الـوزارة البريطانيـة، ويطرق كل باب ليتمكن من السفر.

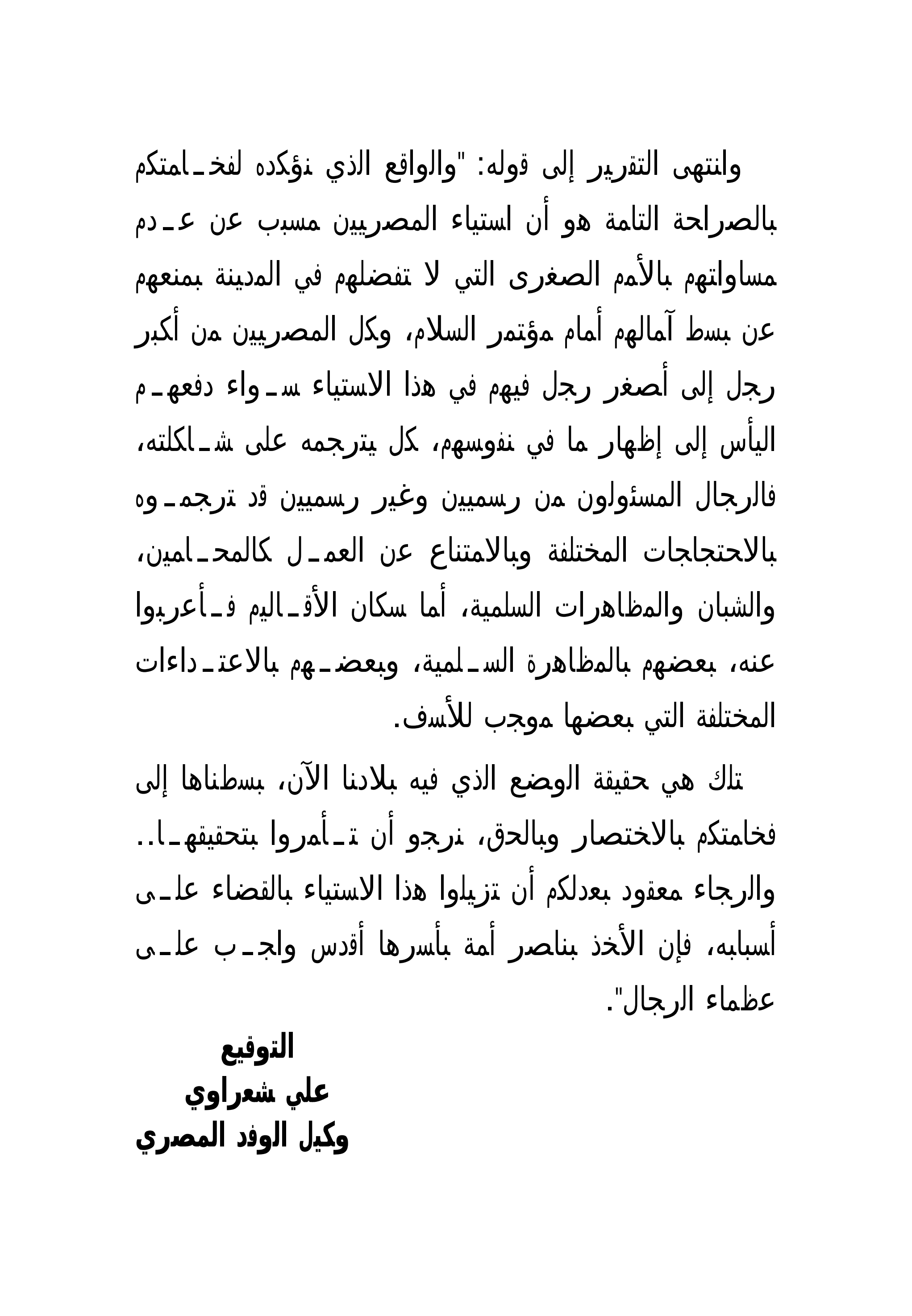


"فلما صرح هنا بعدم التصريح لأحد بالسفر، وقبلت استقالة الوزارة، تلك الاستقالة التي قالت عنها جريدة "المورنينج بوست" في عددها الصادر في ٢٩ يناير ١٩١٩ إنها بعبارتها تجعل من الصعب جدا أن مصريا آخر يأخذ محل الرئيس دون أن يستهدف لغضب الشعب، اضطربت الخواطر وشملت الأنفس عوامل اليأس من تحسين الحال.

"وقد استدعتنا السلطة العسكرية، وأنذرتنا إننا نعوق سير الحكومة بما نحاول من منع تأليف الوزارة، ولم يمض يومان من هذا الإنذار حتى قبض على رئيسنا سعد زغلول باشا وزملائنا إسماعيل صدقي باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا، ونفوا إلى مالطة.

واستعرض التقرير بعد ذلك أثر هذه الأحداث على نفسية الشعب، وبخاصة من الشبان الطلبة في المدارس العالية؛ حيث قامت المظاهرات السلمية، ثم مضى التقرير يقول: "ولا شك في إن إطلاق الجنود البريطانيين الرصاص على الطلبة العزل في هذه المظاهرات السلمية على هذا النحو وفي مثل هذا الظرف، من شأنه أن يحدث في البلاد أثرا سيئًا لا بد أن يكون هو النقطة الأخيرة التي فاض بها كأس الصبر في

نفوس أهل البلاد، لأنه في يوم ١٥ ابتـدأت تـأتي أخبـار الاعتداء على طرق المواصلات ووقوع البلاد طرا في هـذا الإضراب الشديد. ذلك ولم يقف الاستياء من هـذه المعاملـة القاسية لأمة غير محاربة عند حد الرجال، فـإن السـيدات المخدرات لم يطقن أيضا احتمال هذه الصدمة، ولـم يقـف حجابهن الكثيف في طريق إظهار عواطفهن، بل قمن نحـو الثلاثمائة من عقائل أعلى البيوت في القاهرة بمظاهرة نشرت الجرائد صبح يومها أي يوم ٢٠ مارس إنها مصرح بها. فلما نزلن من عرباتهن وقطعن مسافة من طريقهن حتى وصـلن إلى بيت سعد زغلول باشا، أحدق بهن الجنود البريطـانيون مصوبين أفواه البنادق وسنان السنج نحـوهن، فـوقفن فـي الشمس محصورات بقوة السلاح نحو الساعتين، ثم سمح لهن أخيرا بعد أن رآهن على تلـك الحـال رجـال الوكـالتين السياسيتين الأمريكية والطليانية.. وكان هذا أيضا مظهرا من مظاهر سياسة الإحراج، تلك السياسـة التـي يجـب عـدلاً وإنصافًا أن تكون هي المسئولة عن النتـائج التـي نجمـت عنها".



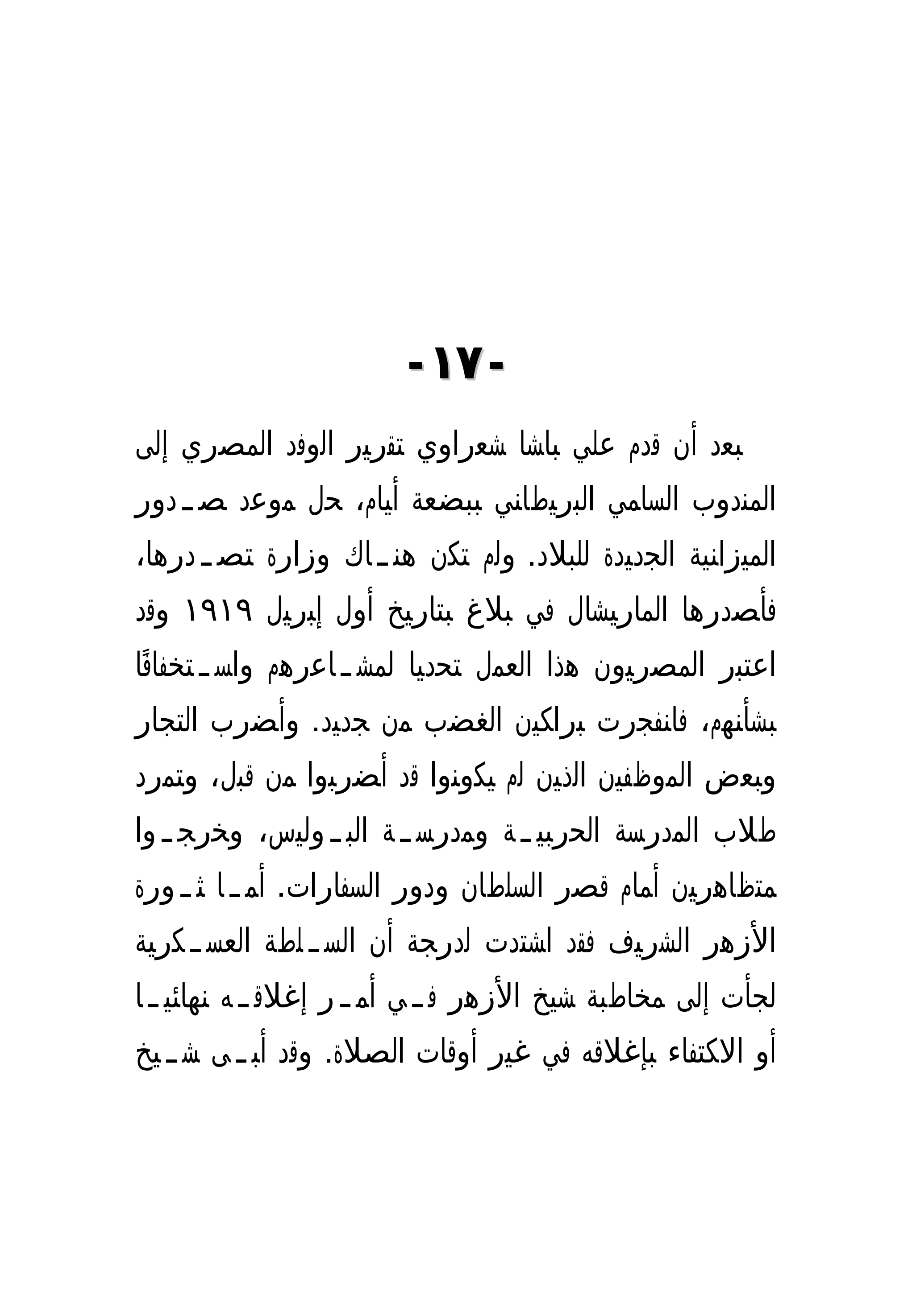
وانتهى التقرير إلى قوله: "والواقع الذي نؤكده لفخـامتكم بالصراحة التامة هو أن استياء المصريين مسبب عن عـدم مساواتهم بالأمم الصغرى التي لا تفضلهم في المدينة بمنعهم عن بسط آمالهم أمام مؤتمر السلام، وكل المصريين من أكبر رجل إلى أصغر رجل فيهم في هذا الاستياء سـواء دفعهـم اليأس إلى إظهار ما في نفوسهم، كل يترجمه على شـاكلته، فالرجال المسئولون من رسميين وغير رسميين قد ترجمـوه بالاحتجاجات المختلفة وبالامتناع عن العمـل كالمحـامين، والشبان والمظاهرات السلمية، أما سكان الأقـاليم فـأعربوا عنه، بعضهم بالمظاهرة السـلمية، وبعضـهم بالاعتـداءات المختلفة التي بعضها موجب للأسف.

تلك هي حقيقة الوضع الذي فيه بلادنا الآن، بسطناها إلى فخامتكم بالاختصار وبالحق، نرجو أن تـأمروا بتحقيقهـا.. والرجاء معقود بعدلكم أن تزيلوا هذا الاستياء بالقضاء علـى أسبابه، فإن الأخذ بناصر أمة بأسرها أقدس واجـب علـى عظماء الرجال".

التوقيع

علي شعراوي

وكيل الوفد المصري



-١٧-

بعد أن قدم علي باشا شعراوي تقرير الوفد المصري إلى المندوب السامي البريطاني ببضعة أيام، حل موعد صدور الميزانية الجديدة للبلاد. ولم تكن هناك وزارة تصدرها، فأصدرها الماريشال في بلاغ بتاريخ أول إبريل ١٩١٩ وقد اعتبر المصريون هذا العمل تحديا لمشاعرهم واستخفافًا بشأنهم، فانفجرت براكين الغضب من جديد. وأضرب التجار وبعض الموظفين الذين لم يكونوا قد أضربوا من قبل، وتمرد طلاب المدرسة الحربية ومدرسة البوليس، وخرجوا متظاهرين أمام قصر السلطان ودور السفارات. أما ثورة الأزهر الشريف فقد اشتدت لدرجة أن السلطة العسكرية لجأت إلى مخاطبة شيخ الأزهر في أمر إغلاقه نهائيا أو الاكتفاء بإغلاقه في غير أوقات الصلاة. وقد أبى شيخ

الأزهر أن يفعل ذلك، وقال إن ا ينهي المسلم عن إغلاق مساجد ا .

ولم يكن أمام اللورد اللنبي إلا أن يلعب بالورقة الأخيرة، فطلب من السلطان فؤاد أن يصدر منشورا ينصح فيه الأهالي بالخلود إلى السكنية، وقد فعل ذلك، وصدر المنشور السلطاني الذي نشر في الوقائع المصرية الصادر يوم الأحد ٦ إبريل ١٩١٩.

ولكن هذه المحاولة لم تجد نفعا، فقد ظلت الثورة قائمة ومشتعلة وبعد أن رأى اللورد اللنبي أنه قد جرب كل وسيلة بلا جدوى، قرر أن يلجأ إلى الحل الذي طلبه المصريون. فقد استعرض الحوادث التي شبت خلال هذا الشهر، ورأى أن اعتقال سعد ورفاقه قد أثار أحداثًا خطيرة، وأنه قد هبت على إثر ذلك أعظم ثورة في تاريخ مصر. ورأى أيضا أن زوجي علي باشا شعراوي باعتباره وكيل الوفد قد عالج هو وزملاؤه من رجال الوفد هذه المواقف بشجاعة مذهلة.

وإنهم رغم تعرضهم لقسوة الإنجليز، فإنهم قد مضوا في طريقهم مثابرين، ضاربين أروع الأمثال في شجاعتهم ووطنيتهم وتفانيهم في خدمة البلاد والثبات على المبدأ.

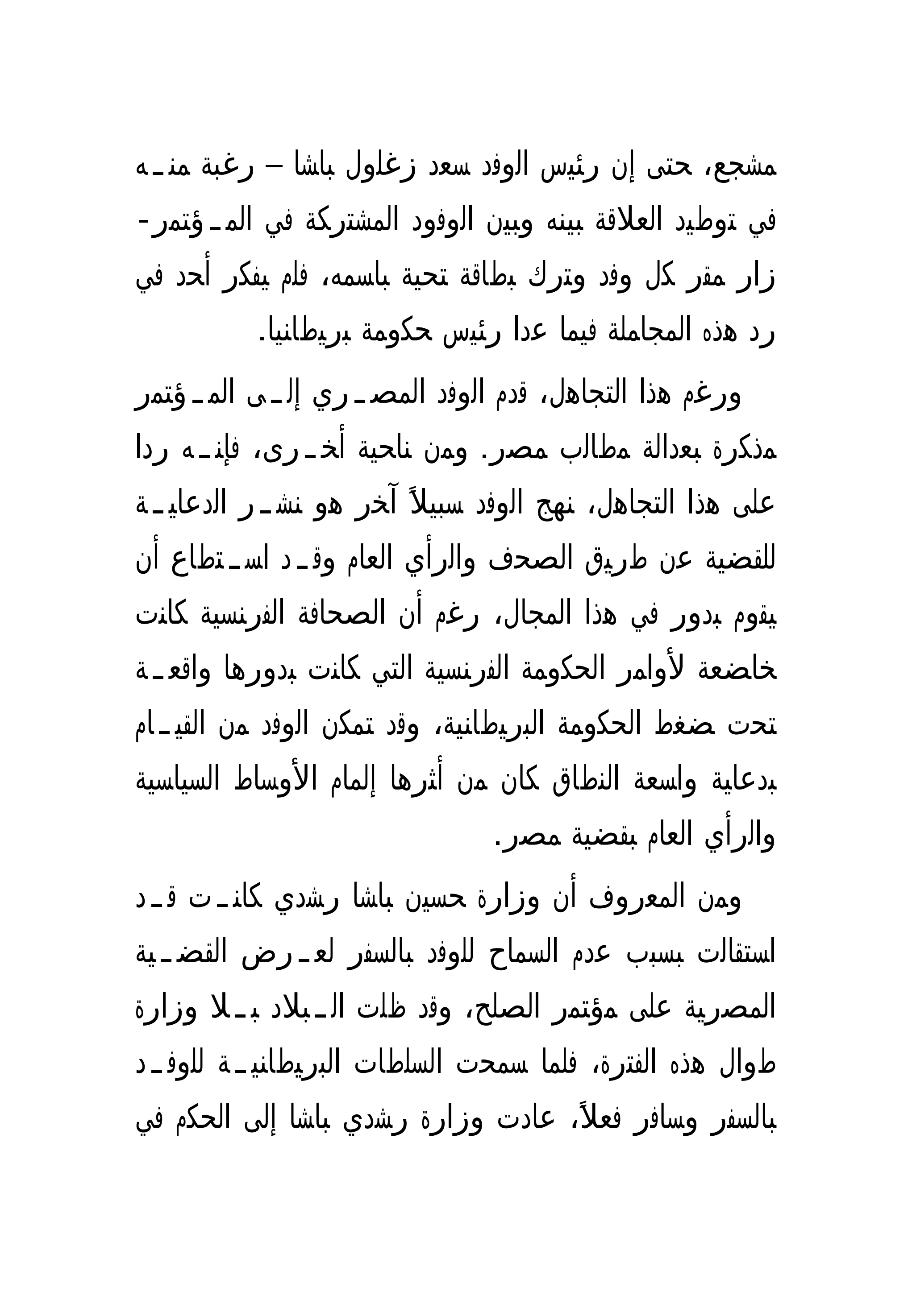
وإزاء ذلك كله، أصدر اللورد اللنبي إعلانًا بأن الحكومـة البريطانية قد سمحت لأعضاء الوفد المصري بالسفر.

وكان هذا الإعلان تغيرا في السياسة الإنجليزية بعـد أن وجدت إنجلترا أنه لا سبيل إلى الاستمرار في تلك السياسـة التي نتج عنها قيام الثورة الخطيرة في البلاد.

وكان أن عدلت عنها، وأفرجت عن سعد ورفاقه يـوم ٧ إبريل ١٩١٩، ورتبت سفر باقي أعضاء الوفـد المصـري؛ بحيث يلتقون مع سعد زغلول باشا ورفاقه في المركب التـي تحملهم إلى باريس.

وقد ابتهجت الأمة ابتهاجا شديدا بهذا النصـر السياسـي، وعمتها نشوة الفرح، وقامت مظاهرات الابتهاج بـدلاً مـن مظاهرات الغضب والثورة. ورغم كثرة المظـاهرات فـي جميع أنحاء البلاد، فقد انعدمت حوادث السـرقة والشـغب. واشترك في هذه المظاهرات كبار القوم وصغارهم، وكلهـم مستبشر بما أحرزته البلاد من فوز نتيجة الوحدة والائتلاف.

وبعد الإفراج عن الزعماء المنفيين وانضـمام الأعضـاء الآخرين إليهم، ذهبوا جميعا إلى باريس للاشتراك في مؤتمر السلام، وقدموا إليه طلبا فرفض طلبهم، وقوبلوا استقبالاً غير



مشجع، حتى إن رئيس الوفد سعد زغلول باشا – رغبة منه في توطيد العلاقة بينه وبين الوفود المشتركة في المؤتمر- زار مقر كل وفد وترك بطاقة تحية باسمه، فلم يفكر أحد في رد هذه المجاملة فيما عدا رئيس حكومة بريطانيا.

ورغم هذا التجاهل، قدم الوفد المصري إلى المؤتمر مذكرة بعدالة مطالب مصر. ومن ناحية أخرى، فإنه ردا على هذا التجاهل، نهج الوفد سبيلاً آخر هو نشر الدعاية للقضية عن طريق الصحف والرأي العام وقد استطاع أن يقوم بدور في هذا المجال، رغم أن الصحافة الفرنسية كانت خاضعة لأوامر الحكومة الفرنسية التي كانت بدورها واقعة تحت ضغط الحكومة البريطانية، وقد تمكن الوفد من القيام بدعاية واسعة النطاق كان من أثرها إلمام الأوساط السياسية والرأي العام بقضية مصر.

ومن المعروف أن وزارة حسين باشا رشدي كانت قد استقالت بسبب عدم السماح للوفد بالسفر لعرض القضية المصرية على مؤتمر الصلح، وقد ظلت البلاد بلا وزارة طوال هذه الفترة، فلما سمحت السلطات البريطانية للوفد بالسفر وسافر فعلاً، عادت وزارة رشدي باشا إلى الحكم في

٩ إبريل ١٩١٩، ولكنها لم تستطع الاسـتمرار فـي الحكـم طويلاً لعدم تمكنها من التوفيق بين مطالب المصريين وبـين إرادة السلطات البريطانية وكان أن استقالت، وأعقبتها وزارة محمد سعيد باشا الذي صرح للصحف غداة تأليف الـوزارة بأن وزارته لا تبت في شيء لـه مسـاس بمركـز مصـر السياسي، وإنها ليست لها صفة سياسية لأن المسألة لم يبـت فيها بعد في مؤتمر الصلح.

وقد استطاع سعيد باشا في مدة رئاسته للوزارة، أن يخفف بعض الأحكام الصارمة فرفع شيئًا من الضغط عن الصحافة والخطابة. ولكن الناس كانوا يسيئون الظن بنياته، لأنهم كانوا يعرفون جفاءه لسعد باشا ووفاقه مع اللورد اللنبي فأوجسـوا منه خيفة، وثار بعضهم عليه، ورماه أحدهم بقنبلة لم تصبه.

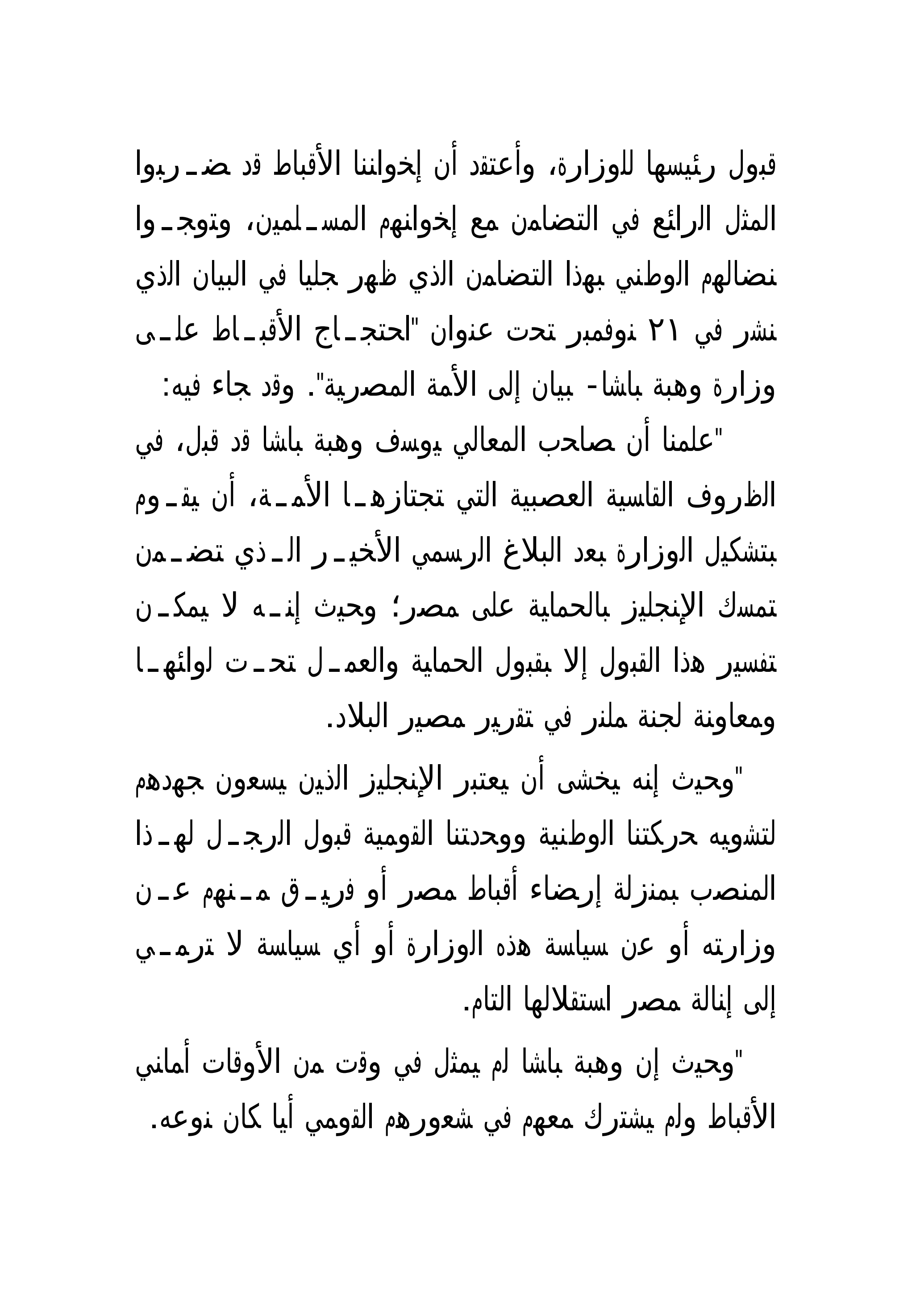
على أن الوفاق بين سعيد باشا واللورد اللنبي لـم يمتـد طويلاً، فقد اختلفا في مسألة لجنة ملنر والغرض من قدومها فقد كان اللورد اللنبي باختصار يرى أن امتعاض المصريين من قدوم لجنة ملنر سبب كاف لتعجيل قدومها بينمـا كـان رئيس الوزارة يرى ألا تحضر اللجنة قبل الفراغ مـن حـل

القضية المصرية بين الدولة العثمانية والدولة البريطانية، وقد أدى هذا الخلاف إلى استقالة سعيد باشا من رئاسة الوزارة.

وفي ٢١ نوفمبر ١٩١٩، قبل يوسف باشا وهبة تشكيل الوزارة، ونهج منهاج سلفه على أن تكون وزارته إدارية، واتخذ خطة الحياة بالنسبة للجنة ملنر المقبلة.

وقد وصلت لجنة ملنر إلى القاهرة يوم ٧ ديسمبر ١٩١٩ في جو مشحون بالكراهية وسوء الظن من جميع المصريين الذين كانوا على إيمان واقتناع كاملين بأن هذه اللجنة تهدف إلى احتواء مصر ضمن المستعمرات البريطانية، لا سيما أن وظيفة رئيس اللجنة لورد ملنر هي "وزير مستعمرات". وهذا وحده كفيل بأن يوحي بوجود هذه النية، فضلاً عن أن أعضاءها كلهم من المستعمرين، ورغم أن اللجنة أصدرت بيانًا تطمئن فيه الأمة إلى حسن نواياها وإلى رغبتها في التعاون للتوفيق بين أماني الأمة وبين المصالح الخاصة لبريطانيا، فإنها قد تطوعت من الوفد ومن البلاد كافة، ولم يعد أمامه مناص من السفر بعد مدة لم تطل.

أما وزارة يوسف باشا وهبة فقد قوبلت بكثير من الامتعاض من أهل البلاد قاطبة، وتوالت الاحتجاجات على



قبول رئيسها للوزارة، وأعتقد أن إخواننا الأقباط قد ضربوا المثل الرائع في التضامن مع إخوانهم المسلمين، وتوجوا نضالهم الوطني بهذا التضامن الذي ظهر جليا في البيان الذي نشر في ٢١ نوفمبر تحت عنوان "احتجاج الأقباط على وزارة وهبة باشا- بيان إلى الأمة المصرية". وقد جاء فيه:

"علمنا أن صاحب المعالي يوسف وهبة باشا قد قبل، في الظروف القاسية العصيبة التي تجتازها الأمة، أن يقوم بتشكيل الوزارة بعد البلاغ الرسمي الأخير الذي تضمن تمسك الإنجليز بالحماية على مصر؛ وحيث إنه لا يمكن تفسير هذا القبول إلا بقبول الحماية والعمل تحت لوائها ومعاونة لجنة ملنر في تقرير مصير البلاد.

"وحيث إنه يخشى أن يعتبر الإنجليز الذين يسعون جهدهم لتشويه حركتنا الوطنية ووحدتنا القومية قبول الرجل لهذا المنصب بمنزلة إرضاء أقباط مصر أو فريق منهم عن وزارته أو عن سياسة هذه الوزارة أو أي سياسة لا ترمي إلى إنالة مصر استقلالها التام.

"وحيث إن وهبة باشا لم يمثل في وقت من الأوقات أماني الأقباط ولم يشترك معهم في شعورهم القومي أيا كان نوعه.

"وحيث إنه لا فرق بين مسلم وقبطي بل المصريون كلهم شخص واحد، ولكن الأقباط يرون أنفسهم مضطرين إلى أن يتقدموا بصفتهم أقباطًا لإظهار شعورهم حيال هذا الحادث.

"لذلك هم يلعنون براءتهم من كل رجـل أو هيئـة تقبـل الحماية أو تساعد على تعضيدها".

"فلكل هذه الأسباب يعلن الموقعون على هذا اشتراكهم مع سائر طبقات الأمة المصرية في الاحتجـاج علـى تشـكيل الوزارة الجديدة".

وقد وقع هذا البيان من رجال الدين المسـيحي: القمـص باسيليوس إبراهيم وكيل البطريركية، والقمص بطرس عوض ا رئيس الكنيسة البطريركية، والقمص سـيداروس غـالي نائب رئيس المجلس العام وعضو المجلس الروحي، والقمص سلامة منصور رئيس المجلـس الأعلـى الملـي الفرعـي، والقمص مرقص سرجيوس، والقمص عبد المسيح ميخائيـل رئيس كنيسة الفجالة.

ومن قادة الرأي وأعضاء الوفد: سينوت بك حنا، ويصـا بك واصف، فهمي بك حنا ويصا، أمين بك خياط، شكري بك بطرس، سامي أخنوخ فانوس، إبراهيم تكـلا، ولـيم مكـرم

عبيد، راغب اسكندر، عزيز مشرقي، الدكتور إبراهيم فهمي المنياوي باشا الدكتور نجيب اسكندر باشا.

وإلى جانب ذلك، فقد عقد اجتماع كبيـر فـي الكنيسـة المرقصـية الكبـرى برئاسـة القمـص باسـيلوس وكيـل البطريركية.. وقد تناوب فيه الخطباء محتجين علـى قبـول وهبة باشا تشكيل الوزارة، ومعبرين عـن تضـامنهم مـع إخوانهم المسلمين. وقد أرسل المجتمعون برقية إلـى وهبـة باشا محتجين على قبوله الوزارة، "إذ هـو قبـول للحمايـة ولمناقشة لجنة ملنر، وهذا يخالف ما أجمعت عليـه الأمـة المصرية من طلب الاستقلال التام ومقاطعة اللجنة".

وفي صباح يوم الاثنـين ١٥ ديسـمبر ١٩١٩، نشـرت الصحف نبأ محاولة اغتيال رئيس الوزراء؛ حيث قام بهـذه المحاولة شاب وطني من أقباط مصر يدعى "عريان أفنـدي يوسف" بمدرسة الطب، بإطلاق أربع رصاصات من مسدس بيده على سيارة رئيس الوزراء في ميدان سـوارس، وقـد تحطم زجاج السيارة، ونجا رئيس الوزراء.

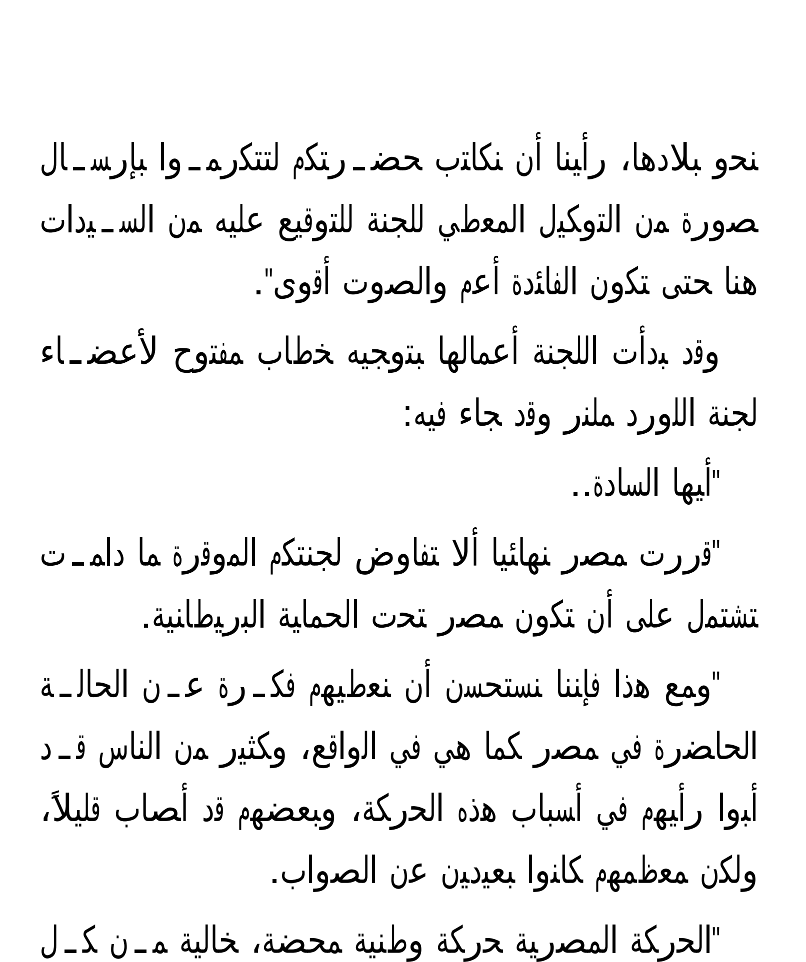
لجنة الوفد للسيدات:

كنت قد سافرت إلى مدينة الأقصر خلال تلك الفترة التي تم فيها تشكيل لجنة الوفد المركزية للسيدات. وقد تم كل شيء وأنا بعيدة عن القاهرة، إلى أن وصلتني رسالة مـن السـيدة استر فهمي ويصا، تخبرني فيها بأن السيدات قد اجتمعن في الكنيسة المرقصية الكبرى يوم الخميس ٨ يناير ١٩٢٠. وقد نجحت عملية الانتخاب نجاحا باهرا، وأسفرت النتيجة عـن انتخاب السيدات: حرم شعراوي باشا (١٣٩ صـوتًا) حـرم فهمي بك (١٠٢ صوت)، حرم عمر باشـا سـلطان (١٠٠ صوت) حرم رياض باشا (٩٨ صوتًا) حرم حجـازي بـك (٧٥ صوتًا) الآنسة فكرية حسني (٦٨ صوتًا) حرم أحمد بك أبو أصبح (٦٥ صوتًا) حرم مقاري بك (٦٣ صوتًا)، حـرم علوي باشا (٥٢ صوتًا) حرم رفيق بك فتحي (٥٠ صـوتًا) حرم مجيب بك فتحي (٥٠ صوتًا) حـرم تكـلا باشـا (٣٨ صوتًا) حرم الدكتور أحمد عزت (٣٨ صوتًا) حـرم أحمـد أفندي شاكر (٣٣ صوتًا) حرم ويصا واصـف أفنـدي (٢٣ صوتًا).

وقالت السيدة استر فهمي ويصا في رسالتها: "ويغلب على ظني أن أغلبية تلك السيدات مناسبة، ومرسل لك الاحتجـاج من نسختين للتوقيع عليهما بصفتك الرئيسة وردهما بالتالي.. ونرجو أن يصلا برجوع البريد للأهمية".

وقد نص قانون لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات على أن "مهمة هذه اللجنة مساعدة اللجنة المركزيـة للوفـد المصري في تبليغ الوفد المصري أماني السيدات المصريات والسعي بكل ما يمكنهـا (أي لجنـة السـيدات) لاسـتمرار المطالبة باستقلال مصر استقلالاً تاما.. وأن تقوم هذه اللجنة ما دام العمل الذي انتدب الوفـد لأجلـه قائمـا.. وتصـدر القرارات بأغلبية الآراء، وإذا تساوت يـرجح رأي الفريـق الذي فيه الرئيسة".

ولم يكد يعلن عن قيام لجنة الوفد المركزية للسيدات، حتى انهالت علينا التوكيلات الصادرة من المواطنات في القـاهرة والأقاليم، مؤكدة أن "للجنة المذكورة أن تمثـل أمـام جميـع الهيئات". كما تلقيت رسالة من السيدة حرم عبد السلام فهمي جمعة باشا رئيسة اتحاد ترقي المرأة المصرية بطنطا، تقول فيها: "ولما كان مفروضا على كل مصرية أن تؤدي الواجب



نحو بلادها، رأينا أن نكاتب حضرتكم لتتكرموا بإرسال صورة من التوكيل المعطي للجنة للتوقيع عليه من السيدات هنا حتى تكون الفائدة أعم والصوت أقوى".

وقد بدأت اللجنة أعمالها بتوجيه خطاب مفتوح لأعضاء لجنة اللورد ملنر وقد جاء فيه:

"أيها السادة..

"قررت مصر نهائيا ألا تفاوض لجنتكم الموقرة ما دامت تشتمل على أن تكون مصر تحت الحماية البريطانية.

"ومع هذا فإننا نستحسن أن نعطيهم فكرة عن الحالة الحاضرة في مصر كما هي في الواقع، وكثير من الناس قد أبوا رأيهم في أسباب هذه الحركة، وبعضهم قد أصاب قليلاً، ولكن معظمهم كانوا بعيدين عن الصواب.

"الحركة المصرية حركة وطنية محضة، خالية من كل صبغة دينية أو تأثير تركي، ولا دخل للبلشفية فيها مطلقًا، وليست نتيجة حالة الغلاء الحاضر كما ذكر بعضهم.

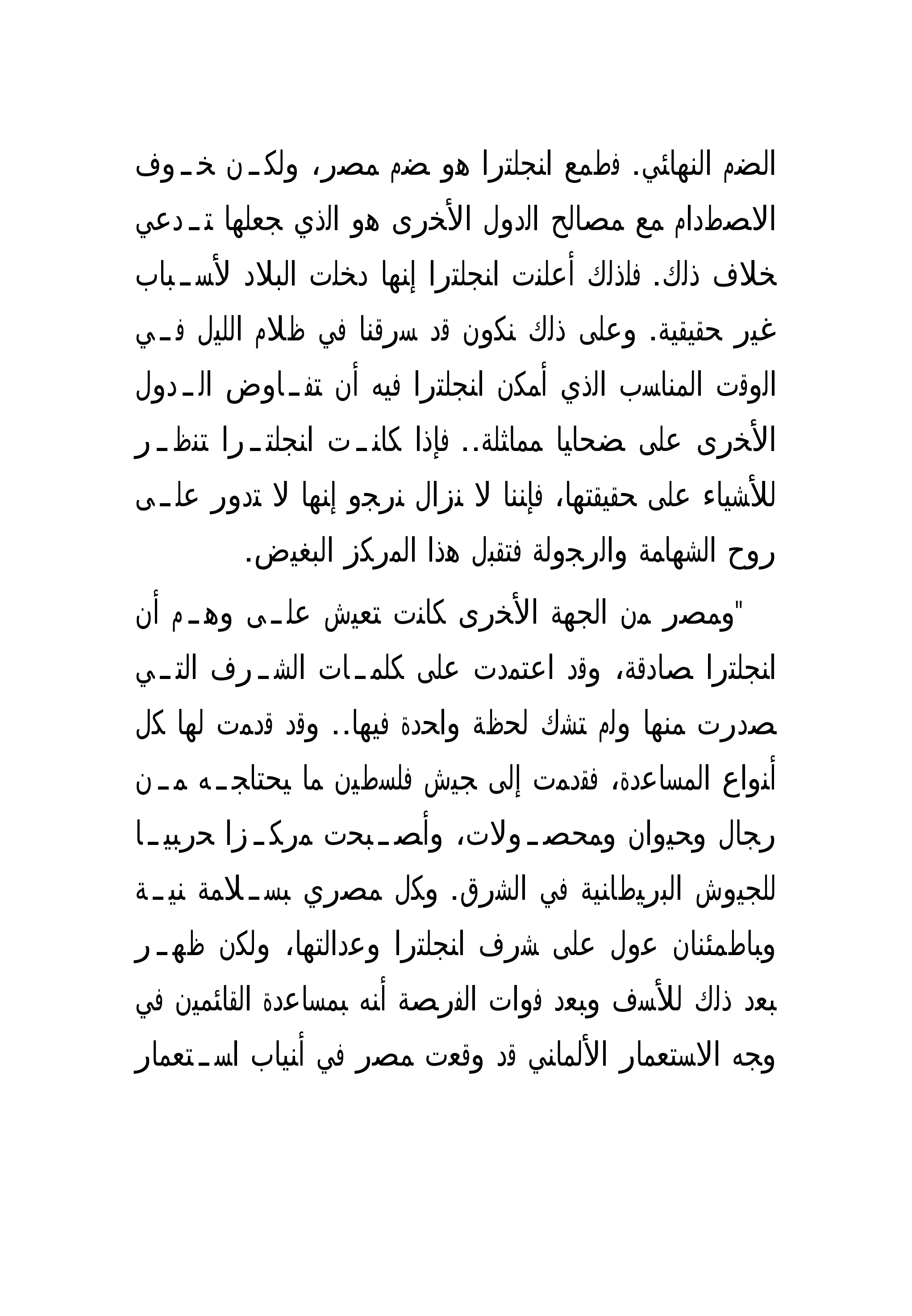
"والمسألة المصرية وطنية محضة.. ويمكننا أن نقول إن ثورة اليوم هي نتيجة سوء الإدارة في مصر، وحقيقة لا يمكننا أن نقول إن سوء الإدارة هو السبب المباشر في

إحداث هذه الثورة، ولكن لا يمكننا أن ننكر أن سوء الإدارة قد أيقظ الصفات الكامنة في المصريين.

"إن نار الوطنية الحقيقية التي تزكيها المدنية الصحيحة، وإن أخمدتها الفتوحات المتعددة والمدنيات المظلمة، إلا أنها كامنة على الدوام، وقد ساعد على اشتعالها ثانية النفوذ الإنكليزي ومدنية القرن العشرين، وقد قدم سوء الإدارة البريطانية الوقود من جديد لاشتعال هذه الروح في قلوب المصريين.

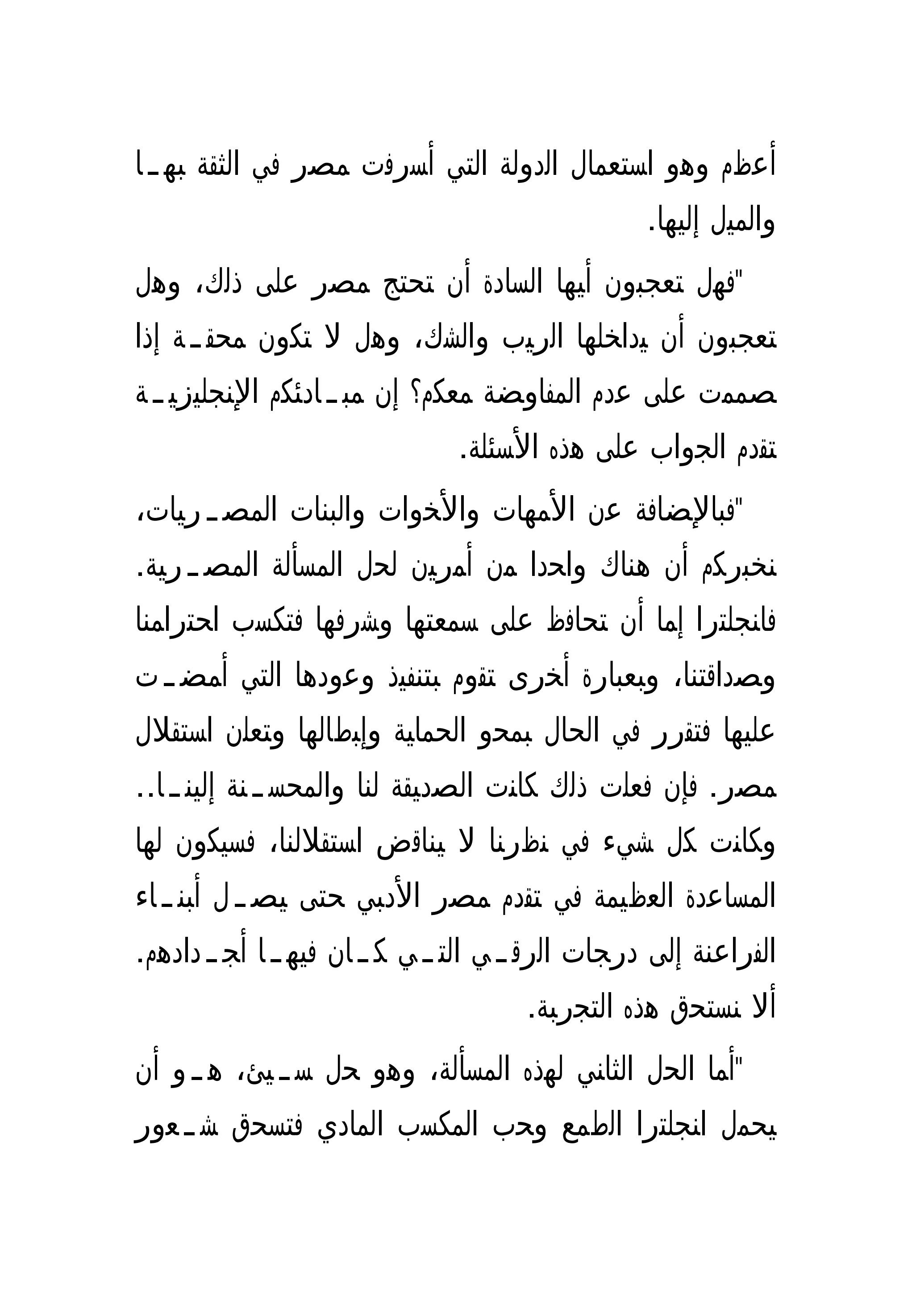
"تفخر انجلترا بأنها حكمت مصر حكما صالحا في الماضي، ونحن نشكرها على ذلك. ولعظمة انجلترا شأن كبير في ذلك النجاح رغما عما يقوله اللورد ملنر من أنه لا يوجد شيء اسمه عظمة، فلم تكن العظمة المشار إليها عظمة القوة العسكرية التي حفظت خضوع المصريين وهدوءهم في مدة الحكم البريطاني، فإن المصريين لا يخافون المدافع، ولكنها العظمة الناتجة من حسن سمعة إنجلترا.

"ولابد أن انجلترا قد حضرت إلى مصر لذلك الغرض الوحيد، وهو تأييد مصالحها التجارية وتمهيد الطريق إلى



الضم النهائي. فطمع انجلترا هو ضم مصر، ولكن خوف الاصطدام مع مصالح الدول الأخرى هو الذي جعلها تدعي خلاف ذلك. فلذلك أعلنت انجلترا إنها دخلت البلاد لأسباب غير حقيقية. وعلى ذلك نكون قد سرقنا في ظلام الليل في الوقت المناسب الذي أمكن انجلترا فيه أن تفاوض الدول الأخرى على ضحايا مماثلة.. فإذا كانت انجلترا تنظر للأشياء على حقيقتها، فإننا لا نزال نرجو إنها لا تدور على روح الشهامة والرجولة فتقبل هذا المركز البغيض.

"ومصر من الجهة الأخرى كانت تعيش على وهم أن انجلترا صادقة، وقد اعتمدت على كلمات الشرف التي صدرت منها ولم تشك لحظة واحدة فيها.. وقد قدمت لها كل أنواع المساعدة، فقدمت إلى جيش فلسطين ما يحتاجه من رجال وحيوان ومحصولات، وأصبحت مركزا حربيا للجيوش البريطانية في الشرق. وكل مصري بسلامة نية وباطمئنان عول على شرف انجلترا وعدالتها، ولكن ظهر بعد ذلك للأسف وبعد فوات الفرصة أنه بمساعدة القائمين في وجه الاستعمار الألماني قد وقعت مصر في أنياب استعمار



أعظم وهو استعمال الدولة التي أسرفت مصر في الثقة بهـا والميل إليها.

"فهل تعجبون أيها السادة أن تحتج مصر على ذلك، وهل تعجبون أن يداخلها الريب والشك، وهل لا تكون محقـة إذا صممت على عدم المفاوضة معكم؟ إن مبـادئكم الإنجليزيـة تقدم الجواب على هذه الأسئلة.

"فبالإضافة عن الأمهات والأخوات والبنات المصـريات، نخبركم أن هناك واحدا من أمرين لحل المسألة المصـرية. فانجلترا إما أن تحافظ على سمعتها وشرفها فتكسب احترامنا وصداقتنا، وبعبارة أخرى تقوم بتنفيذ وعودها التي أمضـت عليها فتقرر في الحال بمحو الحماية وإبطالها وتعلن استقلال مصر. فإن فعلت ذلك كانت الصديقة لنا والمحسـنة إلينـا.. وكانت كل شيء في نظرنا لا يناقض استقلالنا، فسيكون لها المساعدة العظيمة في تقدم مصر الأدبي حتى يصـل أبنـاء الفراعنة إلى درجات الرقـي التـي كـان فيهـا أجـدادهم. ألا نستحق هذه التجربة.

"أما الحل الثاني لهذه المسألة، وهو حل سـيئ، هـو أن يحمل انجلترا الطمع وحب المكسب المادي فتسحق شـعور

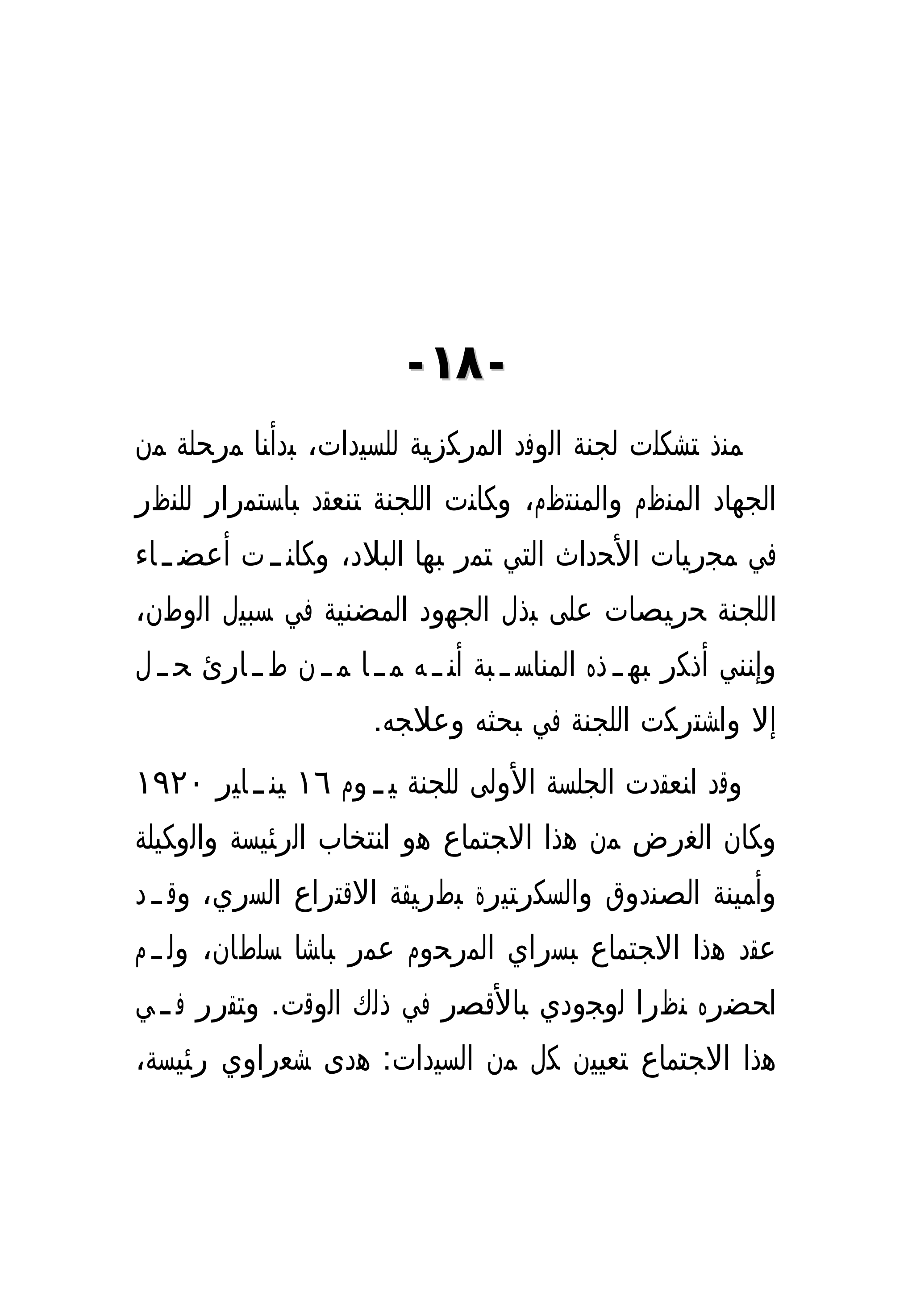
نفسها بالشرف والواجب، وتستولي على مصـر بالتـدريج وبالقوة، فإذا تظلم المصريون قـابلتهم بنـار البنـادق كمـا حصل.. إن لإنجلترا قوة كافيـة مـن الجـيش والأسـطول والطيارات، ولكننا سنحتج ونتظلم وسنحارب بلا سلاح حتى تروى أرض أبنائنا بدمائنا، فنموت موتة السعداء.

"وإن تاريخنا في زمن الرومان وما بعده يؤيد ما سبق من العبارات. لا تنسوا أيها السادة المحترمون المئة ألف شـهيد في زمن ديوكليشن.. ونرجو لكم أن تنظروا إلى المصـريين في ذلك العهد بأنهم هم آباء المصريين الحاليين والدم فـيهم واحد.

"وإننا نستميح العذر في الكلام بهذه الصراحة، فإن الأولى يكون الإنسان صريحا لا سيما في زمن سئمت فيه الدنيا من طريقة المحاولات القديمة، وبعد هذه الحرب العظيمة لا يمكن لشيء أن يبقى سوى الحريـة والعـدل والصـدق. سـترفع الفضيلة رأسها على مر الزمن، ويخيل لنا أن انجلترا ستكون أكبر العاملين على ذلك"

عن سيدات مصر:

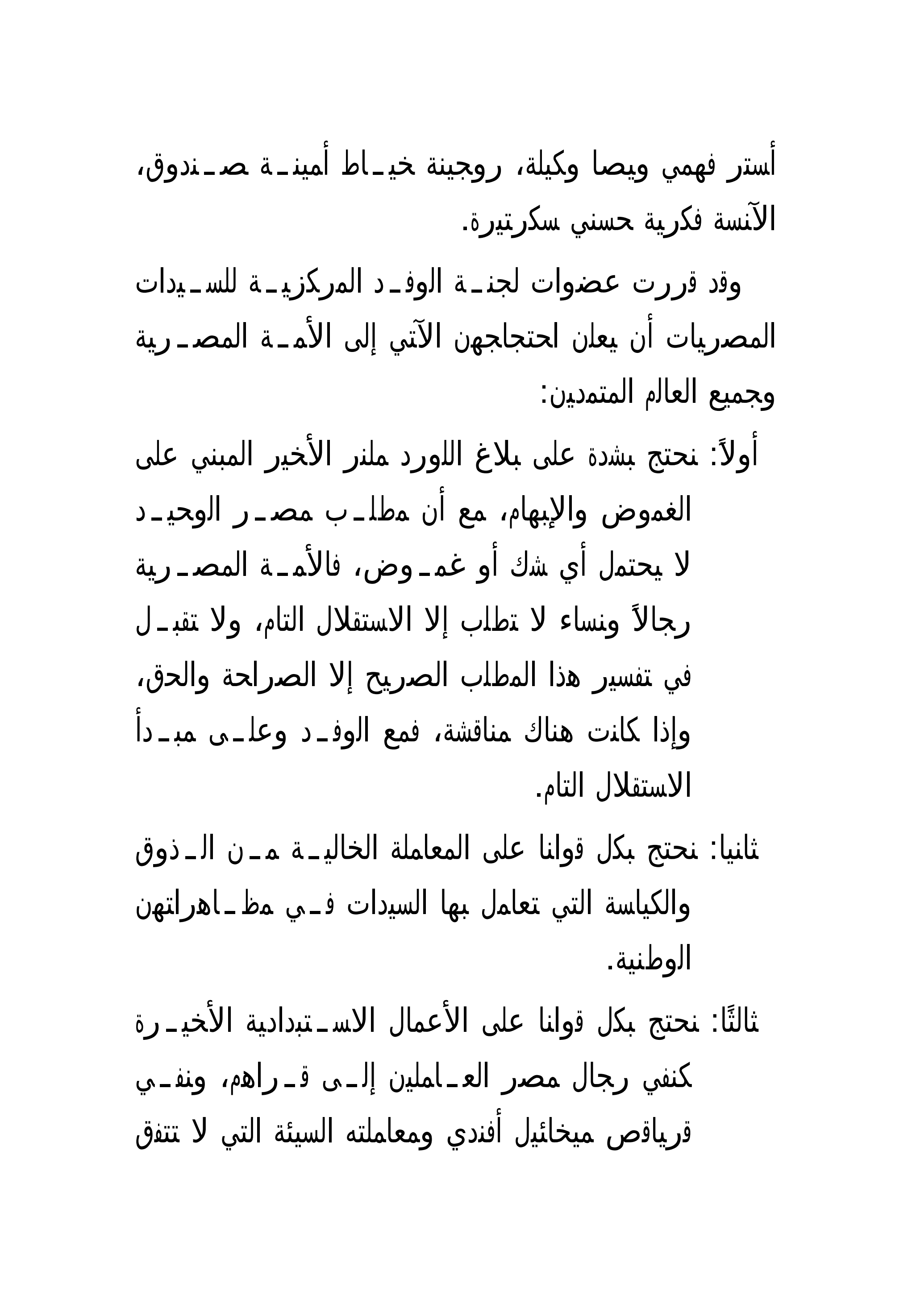
هدى شعراوي



-١٨-

منذ تشكلت لجنة الوفد المركزية للسيدات، بدأنا مرحلة من الجهاد المنظم والمنتظم، وكانت اللجنة تنعقد باستمرار للنظر في مجريات الأحداث التي تمر بها البلاد، وكانت أعضاء اللجنة حريصات على بذل الجهود المضنية في سبيل الوطن، وإنني أذكر بهذه المناسبة أنه ما من طارئ حل إلا واشتركت اللجنة في بحثه وعلاجه.

وقد انعقدت الجلسة الأولى للجنة يوم ١٦ يناير ١٩٢٠ وكان الغرض من هذا الاجتماع هو انتخاب الرئيسة والوكيلة وأمينة الصندوق والسكرتيرة بطريقة الاقتراع السري، وقد عقد هذا الاجتماع بسراي المرحوم عمر باشا سلطان، ولم احضره نظرا لوجودي بالأقصر في ذلك الوقت. وتقرر في هذا الاجتماع تعيين كل من السيدات: هدى شعراوي رئيسة،



أستر فهمي ويصا وكيلة، روجينة خياط أمينة صندوق، الآنسة فكرية حسني سكرتيرة.

وقد قررت عضوات لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات أن يعلن احتجاجهن الآتي إلى الأمة المصرية وجميع العالم المتمدين:

أولاً: نحتج بشدة على بلاغ اللورد ملنر الأخير المبني على الغموض والإبهام، مع أن مطالب مصر الوحيد لا يحتمل أي شك أو غموض، فالأمة المصرية رجالاً ونساء لا تطلب إلا الاستقلال التام، ولا تقبل في تفسير هذا المطلب الصريح إلا الصراحة والحق، وإذا كانت هناك مناقشة، فمع الوفد وعلى مبدأ الاستقلال التام.

ثانيا: نحتج بكل قوانا على المعاملة الخالية من الذوق والكياسة التي تعامل بها السيدات في مظاهراتهن الوطنية.

ثالثًا: نحتج بكل قوانا على الأعمال الاستبدادية الأخيرة كنفي رجال مصر العاملين إلى قراهم، ونفي قرياقص ميخائيل أفندي ومعاملته السيئة التي لا تتفق

مع مبادئ الحرية والعدالة، ونطلب وضع حد لهـذه الطرق الاستبدادية التي لا تتفق مع مدنية أمة حرة.

رابعا: نطلب وسنطالب باستقلال بلادنا التام، ولن نرضـى غيره بديلاً، "فلتحيا" مصر حرة، و"ليحيا" الاسـتقلال التام.

هذا وقد اعترضت "بهيرة هانم فتحي" علـى جملـة "وإذا كانت هناك مناقشة فمع الوفد"، قائلة: نحن لا نريد ولا نقبـل المفاوضة معهم بأي شكل كان، ولا نريد سـوى الاسـتقلال دون قيد ولا شرط. وأرسلت نسخة منه للورد وأخرى للجنة الوفد المركزية للرجال.

وكان سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري قد أرسـل برقية من باريس بتاريخ ٢٦ يناير ١٩٢٠، أعلـن فيهـا أن الوفد المصري بعد بلاغ اللورد ملنر، وأكد فيها أنه لا يمكن فتح باب المفاوضة إلا بعد الاعتراف باستقلالنا التام، فهنـاك وهناك فقط، يمكن أن يتفاوض الوفد في دائرة واحـدة هـي طريق المحافظة على مصالح الأجانب وعلى حرية الملاحـة في قناة السويس طبقًا لبرنامج الوفد"..

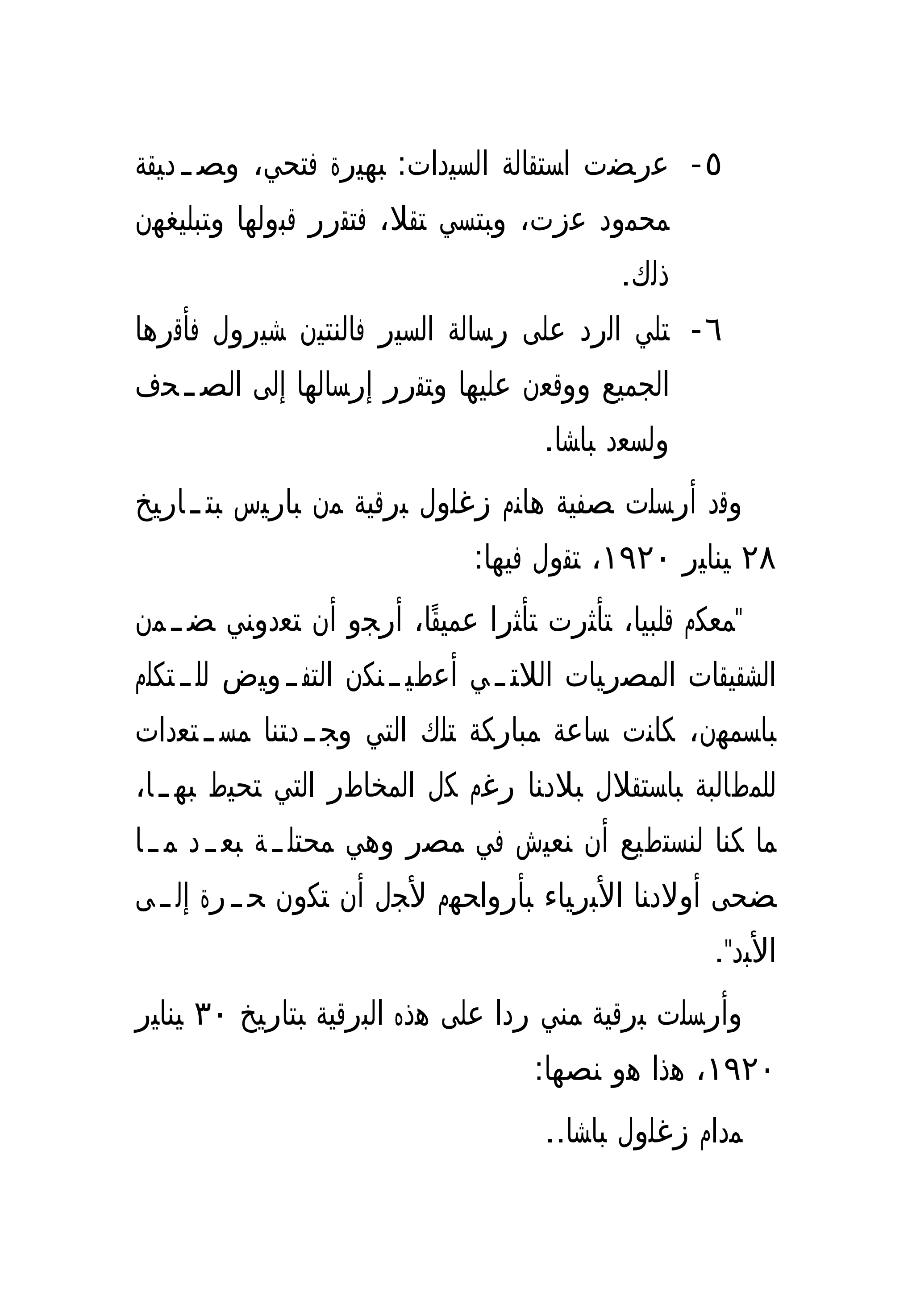
وقد عقدت لجنة الوفد المركزيـة للسـيدات المصـريات جلستها الثالثة في ٣٠ يناير ١٩٢٠، وتناولت المسائل التالية:

١- عرض إرسال شكر لمعالي سعد باشـا ردا علـى رسالته البرقية، فوافق الجميع.

٢- اقتراح بجعل حرم سعد باشا رئيسة شرف وممثلة للجنة في باريس وإفادتها بذلك مع شـكرها علـى برقيتها، فصدق على ذلك بإجماع الآراء.

٣- عرض عمل احتجاج على فظائع طنطـا، فوافـق الجميع على ذلك، وعهد إلـى إحـداهن بكتابتـه. وتقرر انعقاد جلسة فوق العادة يوم ٣١ منه بذهبية فهمي بك ويصا الساعة الخامسة مساء للتوقيع على الاحتجاج المذكور بعد الإطلاع عليه.

٤- اقترح أن يكون الاجتماع أسبوعيا لضرورة ذلـك، فتقرر قبول ذلك بعد المناقشة، وجعل الاجتماع كل يوم جمعة من كل أسبوع الساعة العاشرة والنصف صباحا.



٥- عرضت استقالة السيدات: بهيرة فتحي، وصديقة محمود عزت، وبتسي تقلا، فتقرر قبولها وتبليغهن ذلك.

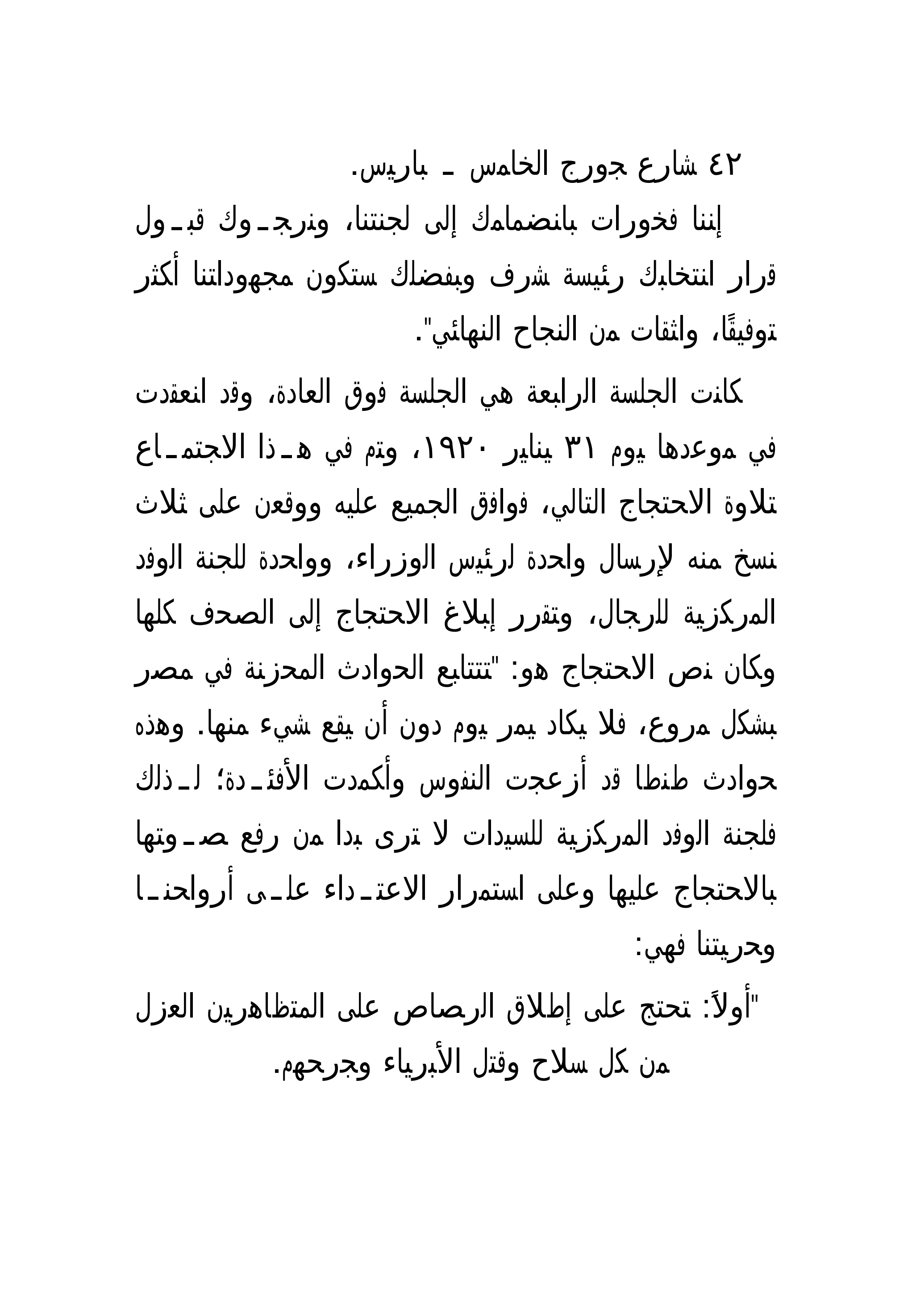
٦- تلي الرد على رسالة السير فالنتين شيرول فأقرها الجميع ووقعن عليها وتقرر إرسالها إلى الصحف ولسعد باشا.

وقد أرسلت صفية هانم زغلول برقية من باريس بتاريخ ٢٨ يناير ١٩٢٠، تقول فيها:

"معكم قلبيا، تأثرت تأثرا عميقًا، أرجو أن تعدوني ضمن الشقيقات المصريات اللاتي أعطينكن التفويض للتكلم باسمهن، كانت ساعة مباركة تلك التي وجدتنا مستعدات للمطالبة باستقلال بلادنا رغم كل المخاطر التي تحيط بها، ما كنا لنستطيع أن نعيش في مصر وهي محتلة بعد ما ضحى أولادنا الأبرياء بأرواحهم لأجل أن تكون حرة إلى الأبد".

وأرسلت برقية مني ردا على هذه البرقية بتاريخ ٣٠ يناير ١٩٢٠، هذا هو نصها:

مدام زغلول باشا..

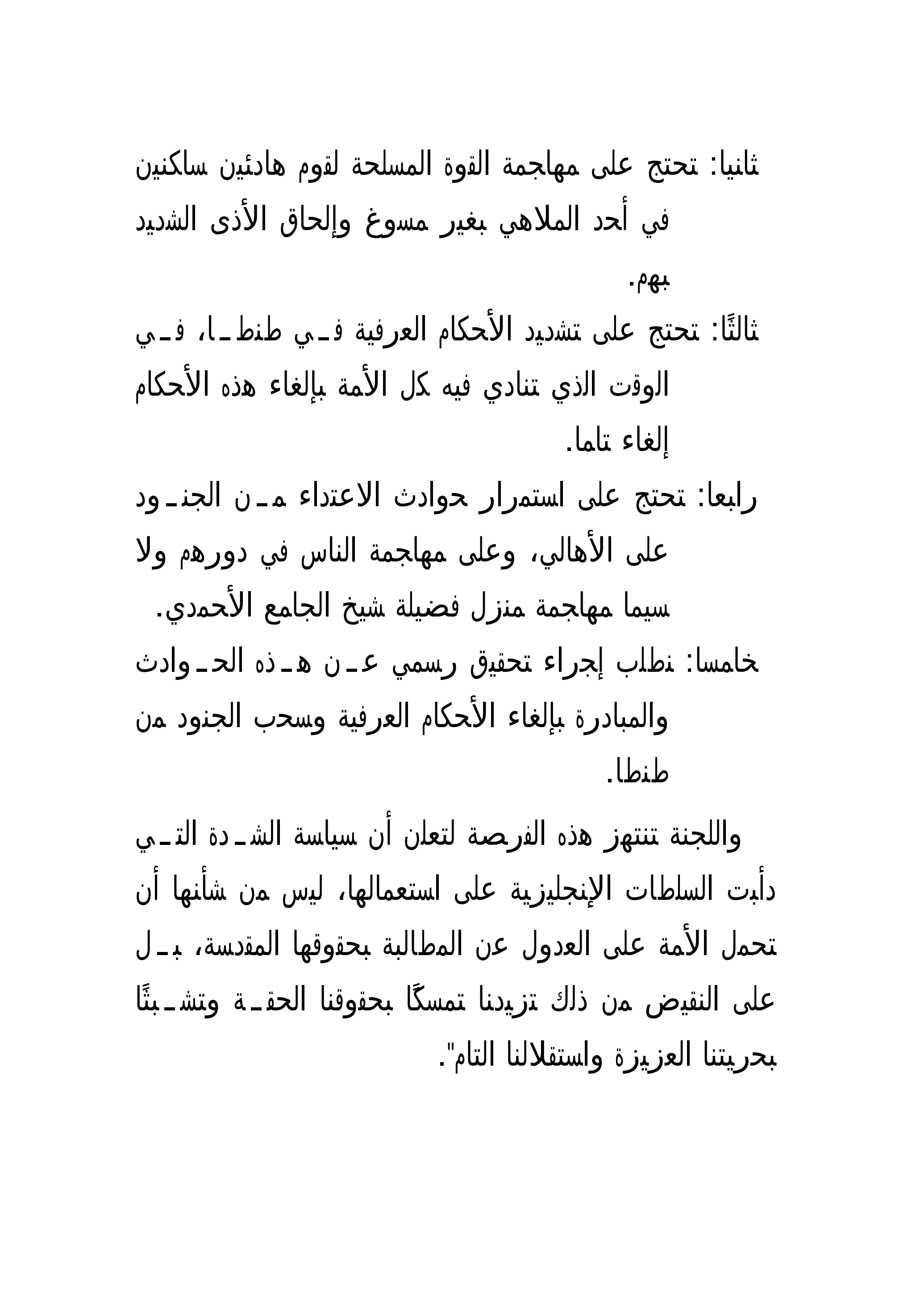


٤٢ شارع جورج الخامس ـ باريس.

إننا فخورات بانضمامك إلى لجنتنا، ونرجوك قبول قرار انتخابك رئيسة شرف وبفضلك ستكون مجهوداتنا أكثر توفيقًا، واثقات من النجاح النهائي".

كانت الجلسة الرابعة هي الجلسة فوق العادة، وقد انعقدت في موعدها يوم ٣١ يناير ١٩٢٠، وتم في هذا الاجتماع تلاوة الاحتجاج التالي، فوافق الجميع عليه ووقعن على ثلاث نسخ منه لإرسال واحدة لرئيس الوزراء، وواحدة للجنة الوفد المركزية للرجال، وتقرر إبلاغ الاحتجاج إلى الصحف كلها وكان نص الاحتجاج هو: "تتتابع الحوادث المحزنة في مصر بشكل مروع، فلا يكاد يمر يوم دون أن يقع شيء منها. وهذه حوادث طنطا قد أزعجت النفوس وأكمدت الأفئدة؛ لذلك فلجنة الوفد المركزية للسيدات لا ترى بدا من رفع صوتها بالاحتجاج عليها وعلى استمرار الاعتداء على أرواحنا وحريتنا فهي:

"أولاً: تحتج على إطلاق الرصاص على المتظاهرين العزل من كل سلاح وقتل الأبرياء وجرحهم.



ثانيا: تحتج على مهاجمة القوة المسلحة لقوم هادئين ساكنين في أحد الملاهي بغير مسوغ وإلحاق الأذى الشديد بهم.

ثالثًا: تحتج على تشديد الأحكام العرفية في طنطا، في الوقت الذي تنادي فيه كل الأمة بإلغاء هذه الأحكام إلغاء تاما.

رابعا: تحتج على استمرار حوادث الاعتداء من الجنود على الأهالي، وعلى مهاجمة الناس في دورهم ولا سيما مهاجمة منزل فضيلة شيخ الجامع الأحمدي.

خامسا: نطلب إجراء تحقيق رسمي عن هذه الحوادث والمبادرة بإلغاء الأحكام العرفية وسحب الجنود من طنطا.

واللجنة تنتهز هذه الفرصة لتعلن أن سياسة الشدة التي دأبت السلطات الإنجليزية على استعمالها، ليس من شأنها أن تحمل الأمة على العدول عن المطالبة بحقوقها المقدسة، بل على النقيض من ذلك تزيدنا تمسكًا بحقوقنا الحقة وتشبثًا بحريتنا العزيزة واستقلالنا التام".

"أما الجلسة السادسة، فقد عقدت في ١٣ فبراير ١٩٢٠، وقد عرض فيها الاحتجاج التالي فصدق عليه بإجماع الآراء. وتقرر إرسال نسخ منه لرئيس الوزراء ولمعالي سعد باشا وللجنة الوفد المركزية وللصحف وهذا نصه:

"تحتج لجنة الوفد المصري للسيدات باسم مصر على بقاء الأحكام العرفية واستمرار اعتقال أبناء مصر البررة الذين لا ذنب لهم إلا المطالبة باستقلال بلادهم، كما تحتج على ما يلاقونه من سوء المعاملة.

"لا يزال سيف الأحكام العرفية على الرقاب في هذه البلاد الآمنة بعد انقضاء مدة الحرب بنحو أربعة عشر شهرا، في حين أن البلاد لا تطلب استقلالها إلا بالوسائل السلمية المشروعة، ولا تزال الأحكام العرفية تتخذ ذريعة لإيجاد القلق في أنحاء البلاد وبث الجنود الإنجليز في كثير من حياتها للتضييق على الناس في حياتهم اليومية تضييقًا لا يرعى حرمة حتى لمنازل كبرائهم وأئمة دينهم.

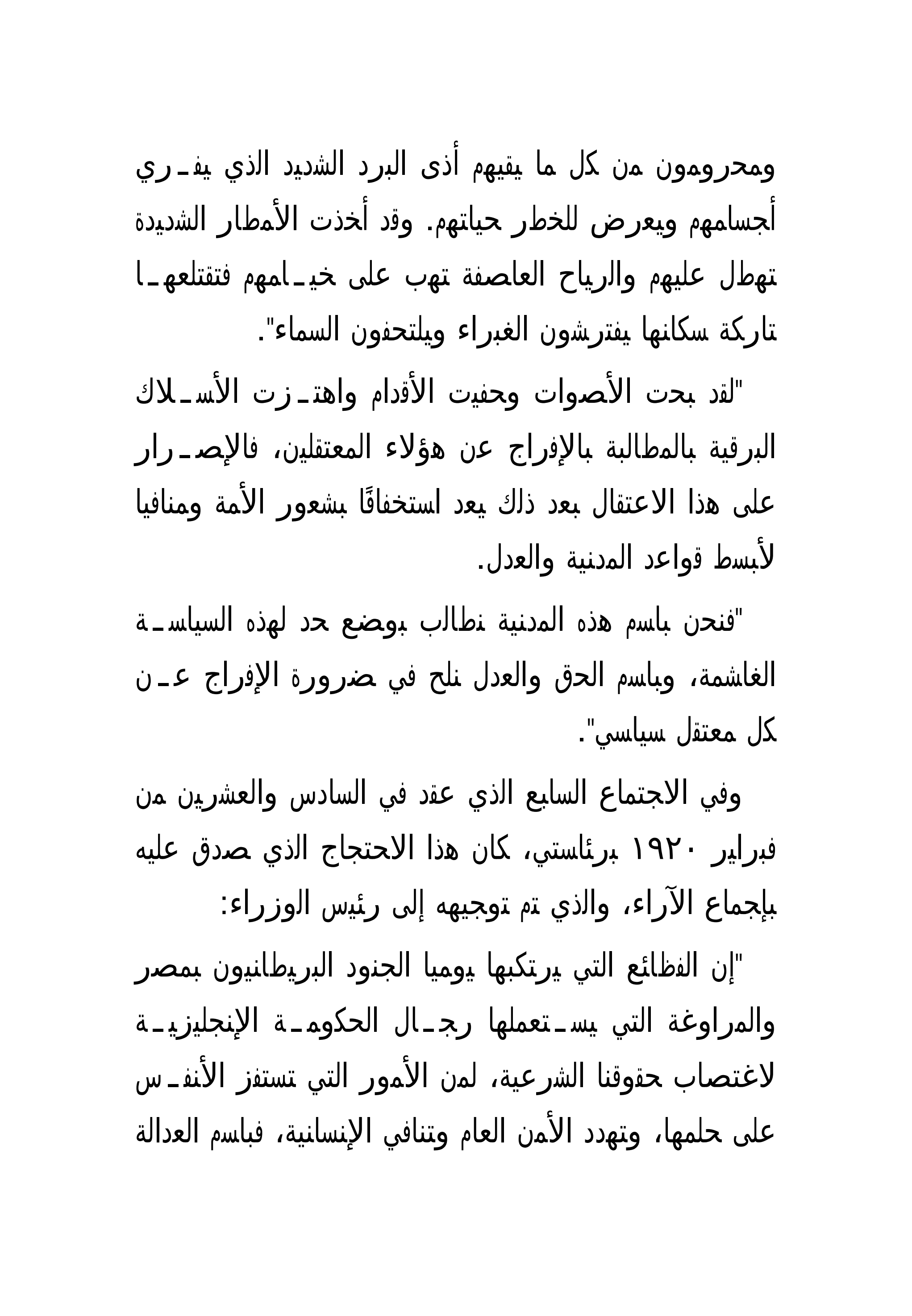
"فهذه مدينة طنطا أصاب أهلها الأبرياء ما أصابهم من قتل وجرح وسلب وغير ذلك من صنوف الاعتداء، وكان العدل يقضي بالقصاص من المعتدين عليهم، فانقلبت آية ذلك

العدل واعتبر البريء جانيا والجاني بريئًا، وبدلاً من أن يجري تحقيق حتى لا تزر وازرة وزر أخرى، وقع القصاص على الأهالي الأبرياء، وأصبحوا يعاملون معاملة المدن المحاربة التي يفتحها العدو في خلال الحرب الطاحنة.

"وهؤلاء كثير من أبناء مصر صودروا في حريتهم الشخصية، وشردوا وأوذوا واعتقلوا بغير جريرة وبلا محاكمة ولا سؤال، بل كان قيامهم بواجبهم الوطني سببا لإيقاع هذا الأذى بهم، مع أنهم لم ينفردوا بهذا فالأمة مشتركة معهم فيما يعزونه إليهم من الإثم إن كانت محبة الوطن إثما والمطالبة بالاستقلال وزرا يستوجب التعذيب.

"ومن الغريب أن ترتفع أصوات العدالة من جميع أنحاء العالم، فلا تصادف ملبيا من أولئك المسيطرين على مصر بالرغم من إرادتها، فهم يصمون آذانهم كلما سمعوا نداء منبعثًا من القلوب المجروحة المتألمة وكأنهم آلوا على أنفسهم أن يقفوا جامدين حيال كل مطالب بحقوقه".

"وليت الأمر لم يتعد هذا النوع من التعذيب لغير ذنب، فإن أنباء المعتقلين تدل على أنهم يعاملون معاملة سيئة، وكيف تطيب هذه المعاملة وسواء هم مبعدون في الصحاري

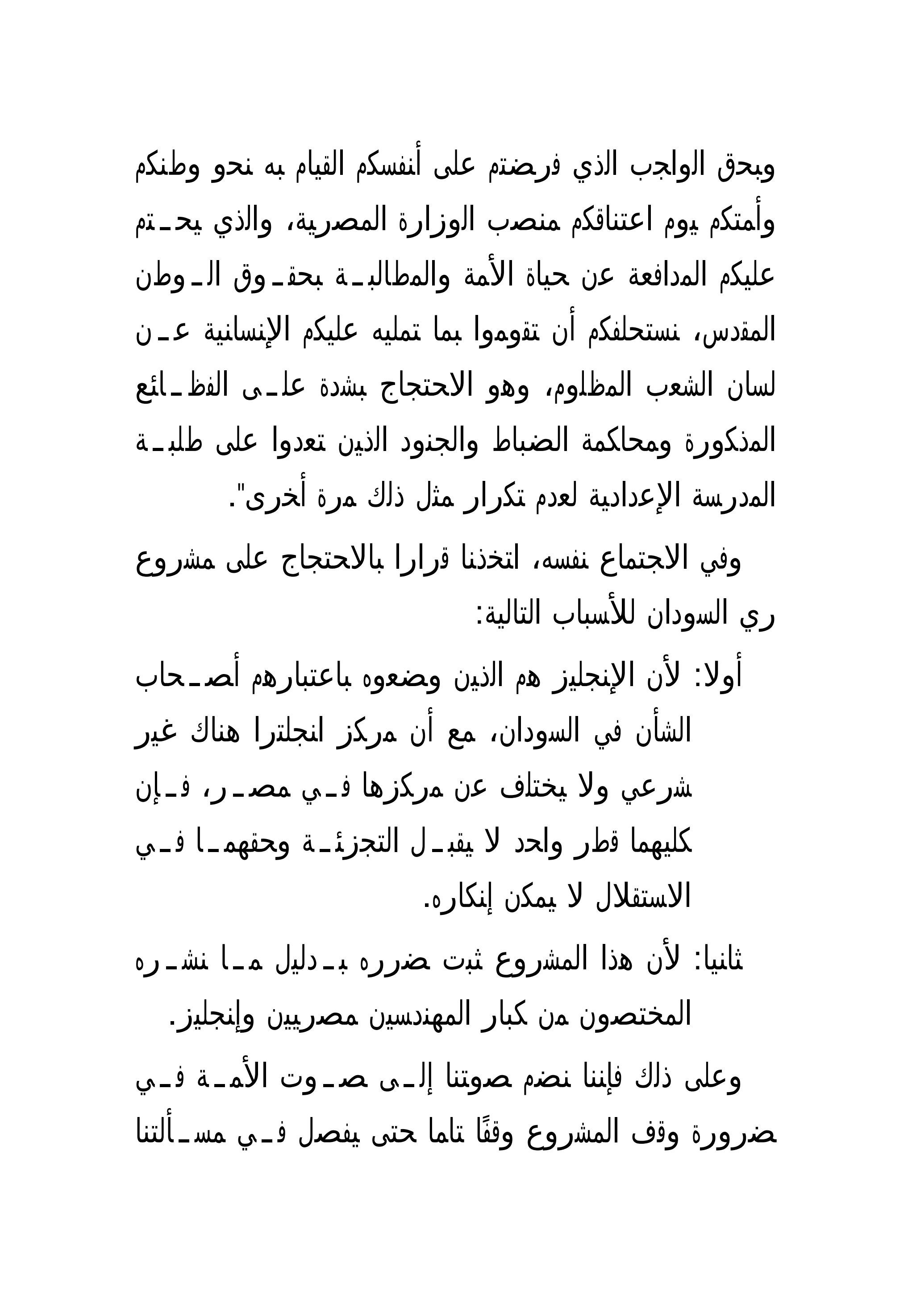

ومحرومون من كل ما يقيهم أذى البرد الشديد الذي يفري أجسامهم ويعرض للخطر حياتهم. وقد أخذت الأمطار الشديدة تهطل عليهم والرياح العاصفة تهب على خيامهم فتقتلعها تاركة سكانها يفترشون الغبراء ويلتحفون السماء".

"لقد بحت الأصوات وحفيت الأقدام واهتزت الأسلاك البرقية بالمطالبة بالإفراج عن هؤلاء المعتقلين، فالإصرار على هذا الاعتقال بعد ذلك يعد استخفافًا بشعور الأمة ومنافيا لأبسط قواعد المدنية والعدل.

"فنحن باسم هذه المدنية نطالب بوضع حد لهذه السياسة الغاشمة، وباسم الحق والعدل نلح في ضرورة الإفراج عن كل معتقل سياسي".

وفي الاجتماع السابع الذي عقد في السادس والعشرين من فبراير ١٩٢٠ برئاستي، كان هذا الاحتجاج الذي صدق عليه بإجماع الآراء، والذي تم توجيهه إلى رئيس الوزراء:

"إن الفظائع التي يرتكبها يوميا الجنود البريطانيون بمصر والمراوغة التي يستعملها رجال الحكومة الإنجليزية لاغتصاب حقوقنا الشرعية، لمن الأمور التي تستفز الأنفس على حلمها، وتهدد الأمن العام وتنافي الإنسانية، فباسم العدالة



وبحق الواجب الذي فرضتم على أنفسكم القيام به نحو وطنكم وأمتكم يوم اعتناقكم منصب الوزارة المصرية، والذي يحتم عليكم المدافعة عن حياة الأمة والمطالبة بحقوق الوطن المقدس، نستحلفكم أن تقوموا بما تمليه عليكم الإنسانية عن لسان الشعب المظلوم، وهو الاحتجاج بشدة على الفظائع المذكورة ومحاكمة الضباط والجنود الذين تعدوا على طلبة المدرسة الإعدادية لعدم تكرار مثل ذلك مرة أخرى".

وفي الاجتماع نفسه، اتخذنا قرارا بالاحتجاج على مشروع ري السودان للأسباب التالية:

أولا: لأن الإنجليز هم الذين وضعوه باعتبارهم أصحاب الشأن في السودان، مع أن مركز انجلترا هناك غير شرعي ولا يختلف عن مركزها في مصر، فإن كليهما قطر واحد لا يقبل التجزئة وحقهما في الاستقلال لا يمكن إنكاره.

ثانيا: لأن هذا المشروع ثبت ضرره بدليل ما نشره المختصون من كبار المهندسين مصريين وإنجليز.

وعلى ذلك فإننا نضم صوتنا إلى صوت الأمة في ضرورة وقف المشروع وقفًا تاما حتى يفصل في مسألتنا

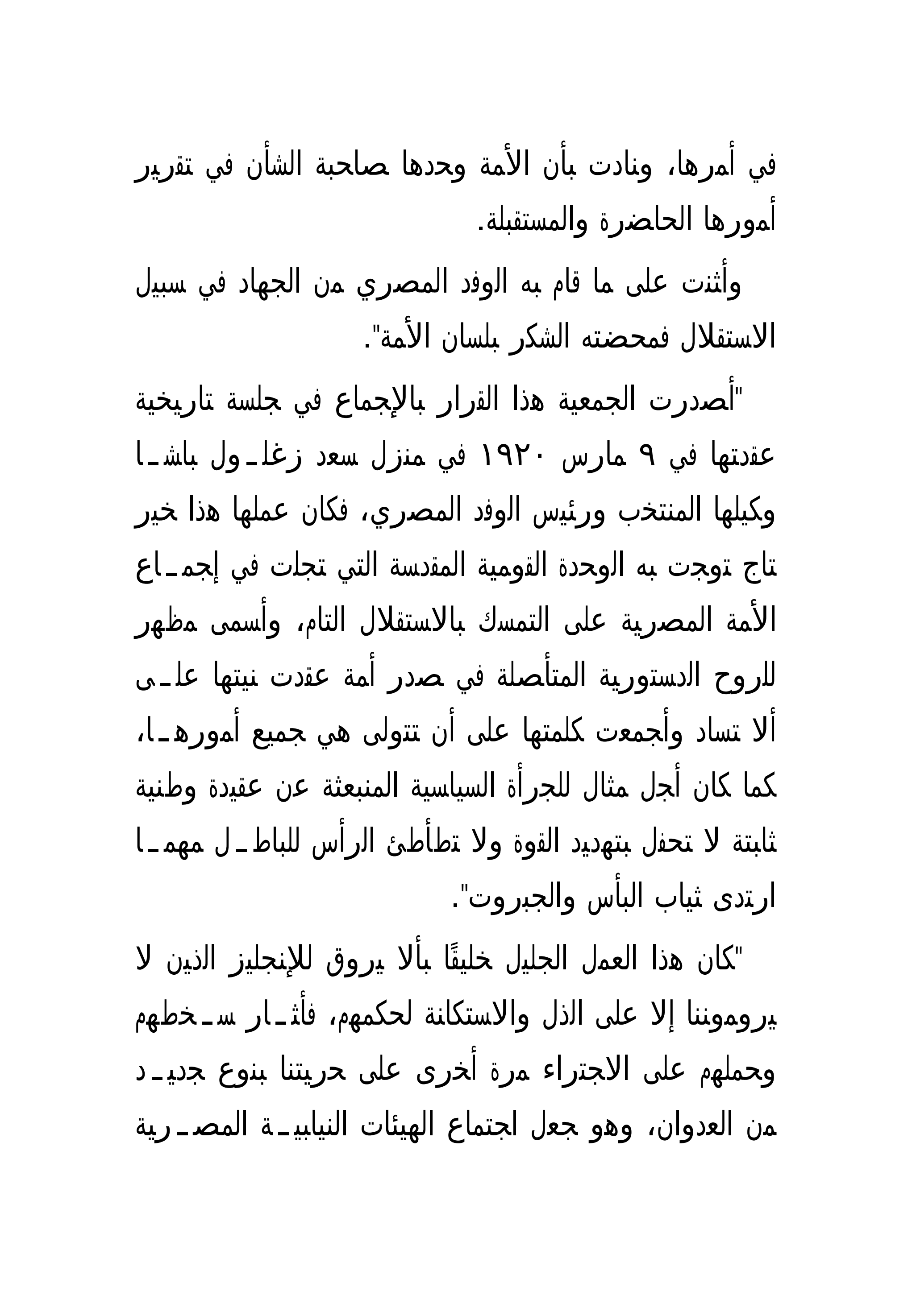
السياسية العامة، لأن البت فيه يجب أن يكون من اختصاص المجلس النيابي الذي يمثل مصر والسـودان بعـد أن تـرد حقوقهما إليهما.

وإننا نطالب الوزارة بأن تنضم إلى الأمة في رأيها وتمنع تنفيذ هذا المشروع بجميع الطرق التي لديها، فإذا لم تسـتطع ذلك، فعليها أن تتخلى عن منصبها حتى لا تتحمل تبعة هـذا العمل الخطير".

احتجاج مارس

وفي يوم ٢٠ مارس ١٩٢٠، عقدت لجنة الوفد المركزية للسيدات اجتماعا، أقرت فيه هذا الاحتجاج:

"اجتمع أعضاء الجمعية التشريعية (على الرغم من سيف الأحكام العرفية المسلط فوق الرءوس ولم تكتـرث للأمـر القاضي بتعطيلها)، اجتمعت فنادت بالاستقلال التام وبطـلان الحماية، واحتجت على ما لحق البلاد وأبناءهـا علـى يـد حماتها القهريين من صنوف الاعتداء على الأرواح والأموال والحرية، وعلى تعطيل الدستور ووضع القوانين والأنظمـة المختلفة من غير عرضها على الأمة، وجـاهرت بوجـوب وقف مشروعات الري إلى أن تبت الأمة المصرية المسـتقلة



في أمرها، ونادت بأن الأمة وحدها صاحبة الشأن في تقرير أمورها الحاضرة والمستقبلة.

وأثنت على ما قام به الوفد المصري من الجهاد في سبيل الاستقلال فمحضته الشكر بلسان الأمة".

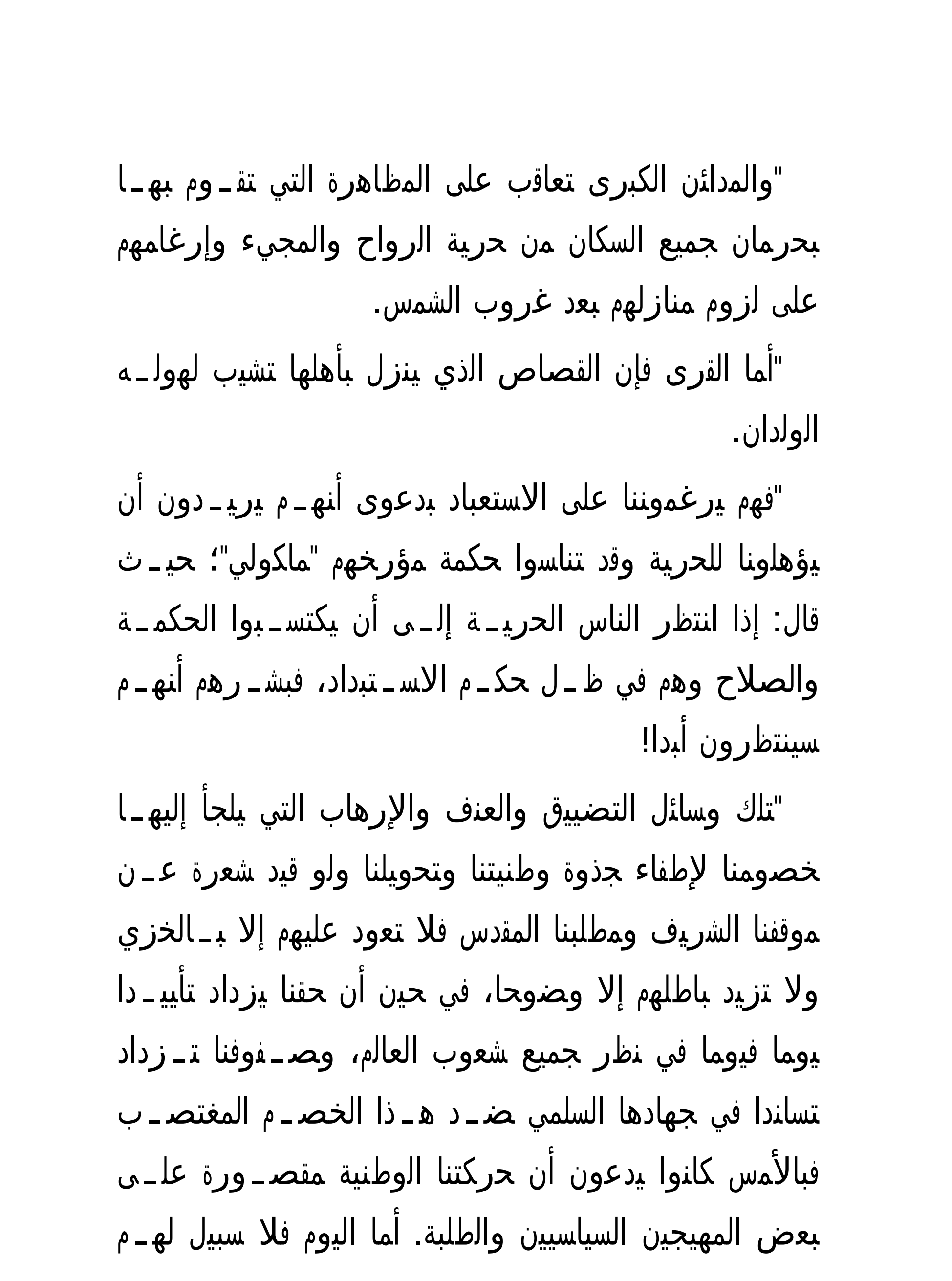
"أصدرت الجمعية هذا القرار بالإجماع في جلسة تاريخية عقدتها في ٩ مارس ١٩٢٠ في منزل سعد زغلول باشا وكيلها المنتخب ورئيس الوفد المصري، فكان عملها هذا خير تاج توجت به الوحدة القومية المقدسة التي تجلت في إجماع الأمة المصرية على التمسك بالاستقلال التام، وأسمى مظهر للروح الدستورية المتأصلة في صدر أمة عقدت نيتها على ألا تساد وأجمعت كلمتها على أن تتولى هي جميع أمورها، كما كان أجل مثال للجرأة السياسية المنبعثة عن عقيدة وطنية ثابتة لا تحفل بتهديد القوة ولا تطأطئ الرأس للباطل مهما ارتدى ثياب البأس والجبروت".

"كان هذا العمل الجليل خليقًا بألا يروق للإنجليز الذين لا يروموننا إلا على الذل والاستكانة لحكمهم، فأثار سخطهم وحملهم على الاجتراء مرة أخرى على حريتنا بنوع جديد من العدوان، وهو جعل اجتماع الهيئات النيابية المصرية

أو أعضائها جريمة تستوجب محاكمة أولئك الأعضاء أمـام المحاكم العسكرية الإنجليزية، وذلك ليسكتوا صوت النـواب وهو أحق الأصوات بالسماع لأنه من صوت الشعب وصوت الشعب من صوت ا ، فكان هذا الاعتداء حلقة جديدة اقترفها الإنجليز في سبيل حمايتنا رغم أنوفنا، وبرهانًا آخر على أن إنجلترا لا تحترم الحرية، فإن تغنـت بـذكرها فمـا ذلـك إلا للتغرير بالعالم وذر الرماد في عيون الشعوب.

"وها هي جميع تصرفاتها إزاء الحركة المصرية السـلمية من بدايتها إلى الآن لا تنطوي إلا على حكم القهر والإرهاب والاعتداء على حرية الكتابة والعدل والاجتماع وهي أركـان الحياة الحرة".

"فالمظاهرات السلمية من جانب شبيبة الأمة وطلبتها تقابل برصاص البنادق والمدافع الرشاشة. ومظـاهرات السـيدات تقاوم بأسنة السيوف، وضروب العنف والامتهان. ومجـرد النداء بحياة الوطن والاستقلال يلقي بصـاحبه فـي أعمـاق السجون، بل يؤدي به إلى الأشغال الشاقة، والجهر بالحق في صحيفة يستنزل عليها الحكـم بالتعطيـل وعلـى مطبعتهـا بالإقفال. والاجتماعات تمنع بالقوة القهرية.

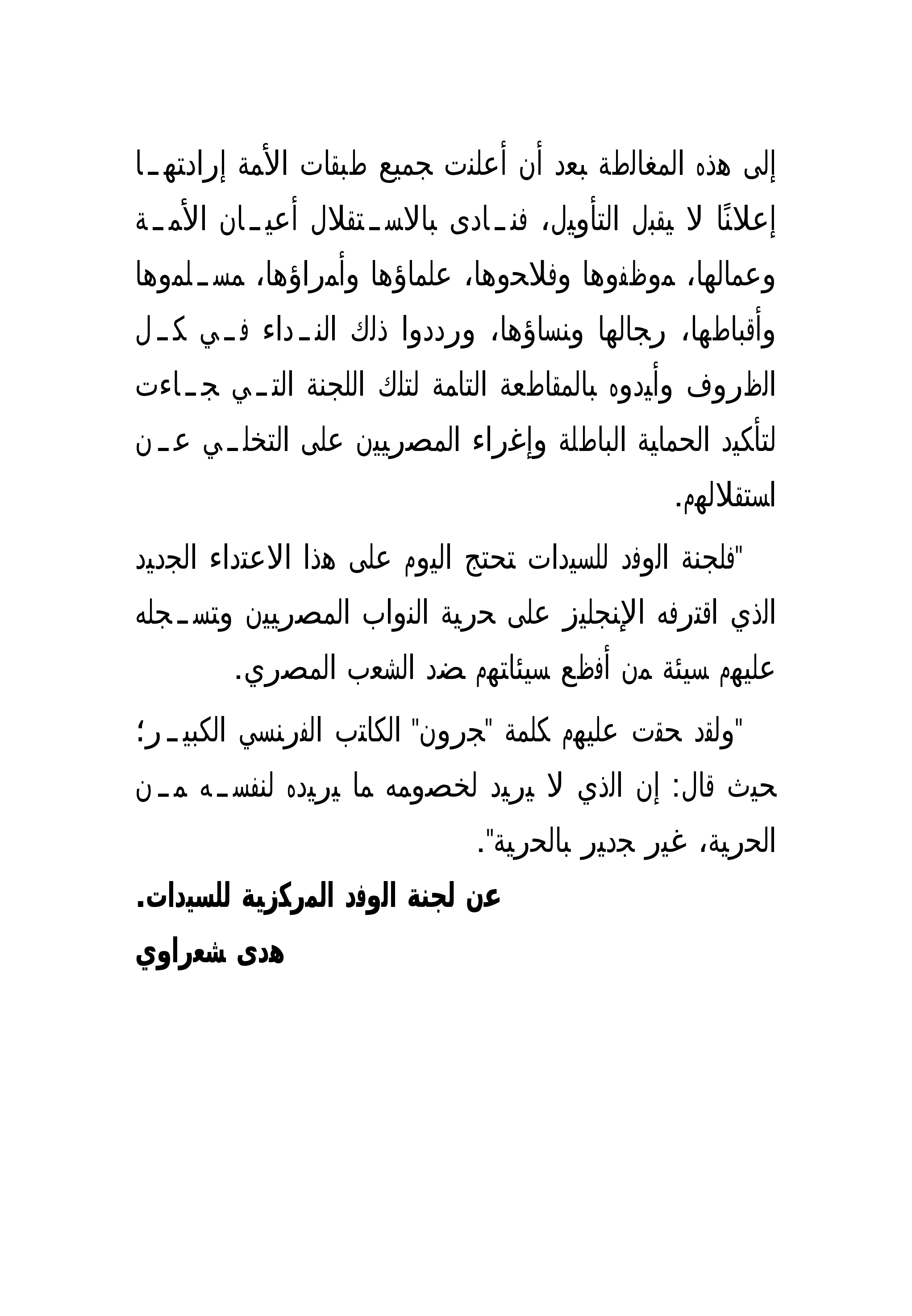


"والمدائن الكبرى تعاقب على المظاهرة التي تقـوم بهـا بحرمان جميع السكان من حرية الرواح والمجيء وإرغامهم على لزوم منازلهم بعد غروب الشمس.

"أما القرى فإن القصاص الذي ينزل بأهلها تشيب لهولـه الولدان.

"فهم يرغموننا على الاستعباد بدعوى أنهـم يريـدون أن يؤهلونا للحرية وقد تناسوا حكمة مؤرخهم "ماكولي"؛ حيـث قال: إذا انتظر الناس الحريـة إلـى أن يكتسـبوا الحكمـة والصلاح وهم في ظـل حكـم الاسـتبداد، فبشـرهم أنهـم سينتظرون أبدا!

"تلك وسائل التضييق والعنف والإرهاب التي يلجأ إليهـا خصومنا لإطفاء جذوة وطنيتنا وتحويلنا ولو قيد شعرة عـن موقفنا الشريف ومطلبنا المقدس فلا تعود عليهم إلا بـالخزي ولا تزيد باطلهم إلا وضوحا، في حين أن حقنا يزداد تأييـدا يوما فيوما في نظر جميع شعوب العالم، وصـفوفنا تـزداد تساندا في جهادها السلمي ضـد هـذا الخصـم المغتصـب فبالأمس كانوا يدعون أن حركتنا الوطنية مقصـورة علـى بعض المهيجين السياسيين والطلبة. أما اليوم فلا سبيل لهـم

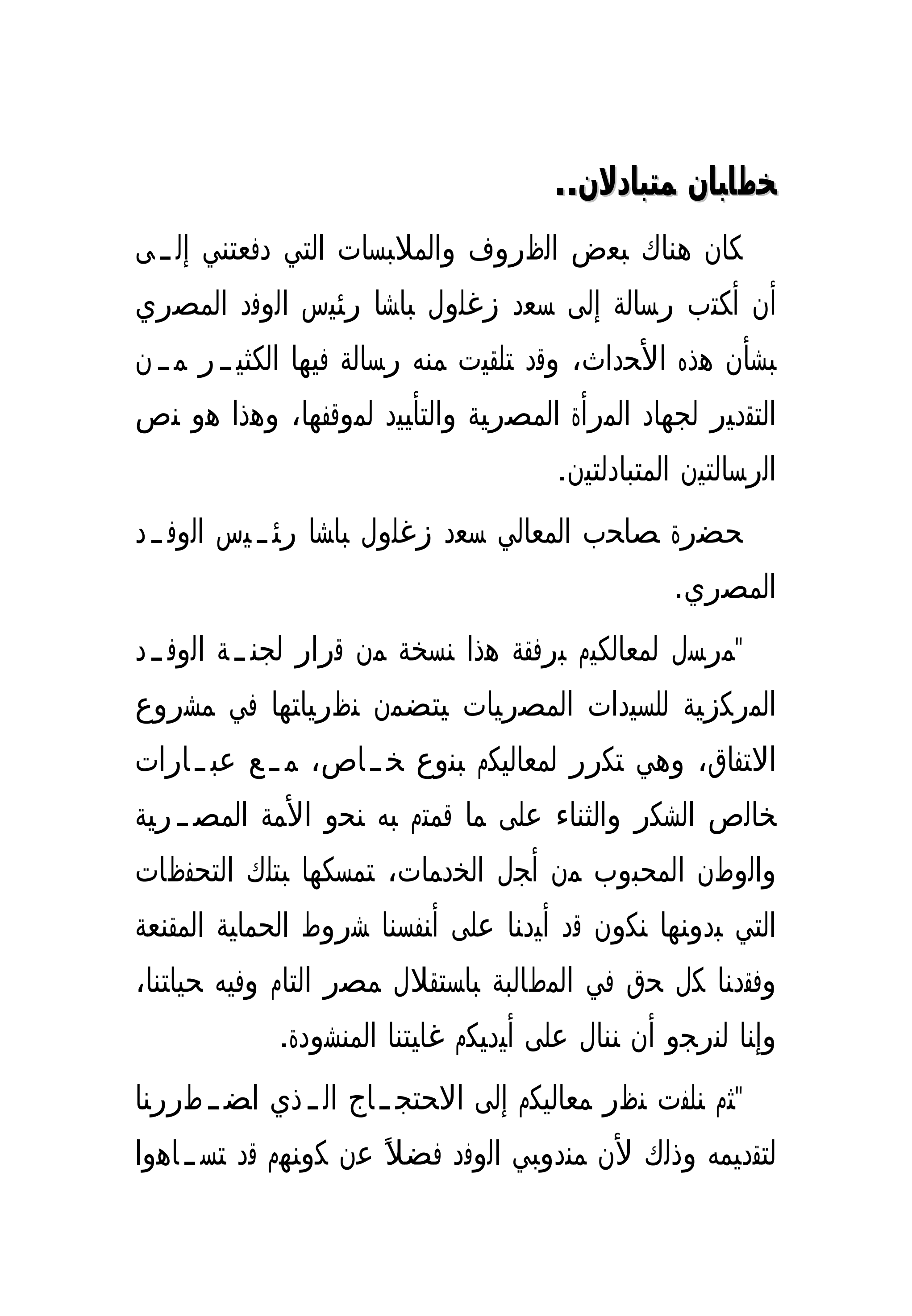

إلى هذه المغالطة بعد أن أعلنت جميع طبقات الأمة إرادتها إعلانًا لا يقبل التأويل، فنادى بالاستقلال أعيان الأمة وعمالها، موظفوها وفلاحوها، علماؤها وأمراؤها، مسلموها وأقباطها، رجالها ونساؤها، ورددوا ذلك النداء في كل الظروف وأيدوه بالمقاطعة التامة لتلك اللجنة التي جاءت لتأكيد الحماية الباطلة وإغراء المصريين على التخلي عن استقلالهم.

"فلجنة الوفد للسيدات تحتج اليوم على هذا الاعتداء الجديد الذي اقترفه الإنجليز على حرية النواب المصريين وتسجله عليهم سيئة من أفظع سيئاتهم ضد الشعب المصري.

"ولقد حقت عليهم كلمة "جرون" الكاتب الفرنسي الكبير؛ حيث قال: إن الذي لا يريد لخصومه ما يريده لنفسه من الحرية، غير جدير بالحرية".

عن لجنة الوفد المركزية للسيدات.

هدى شعراوي



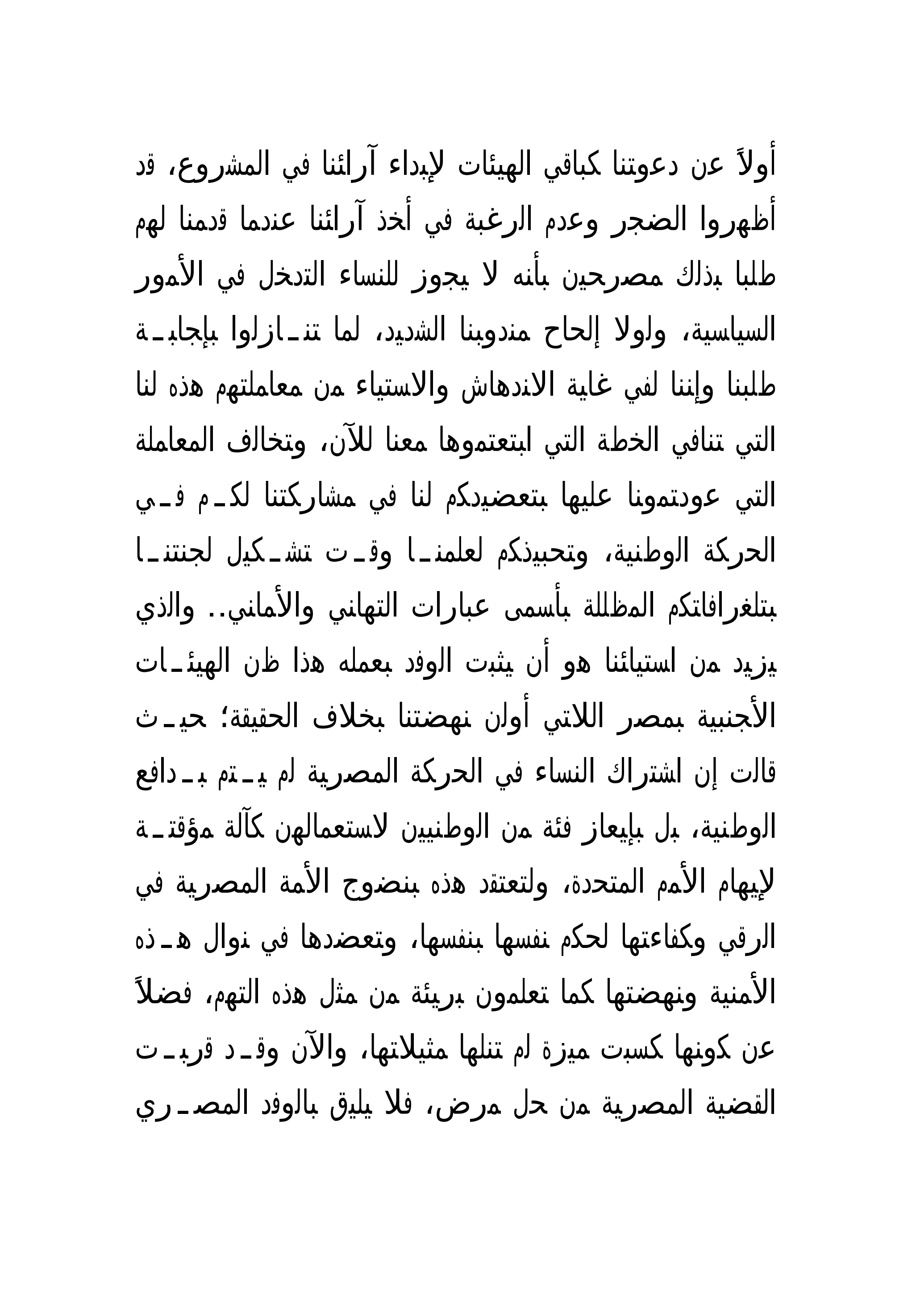
خطابان متبادلان..

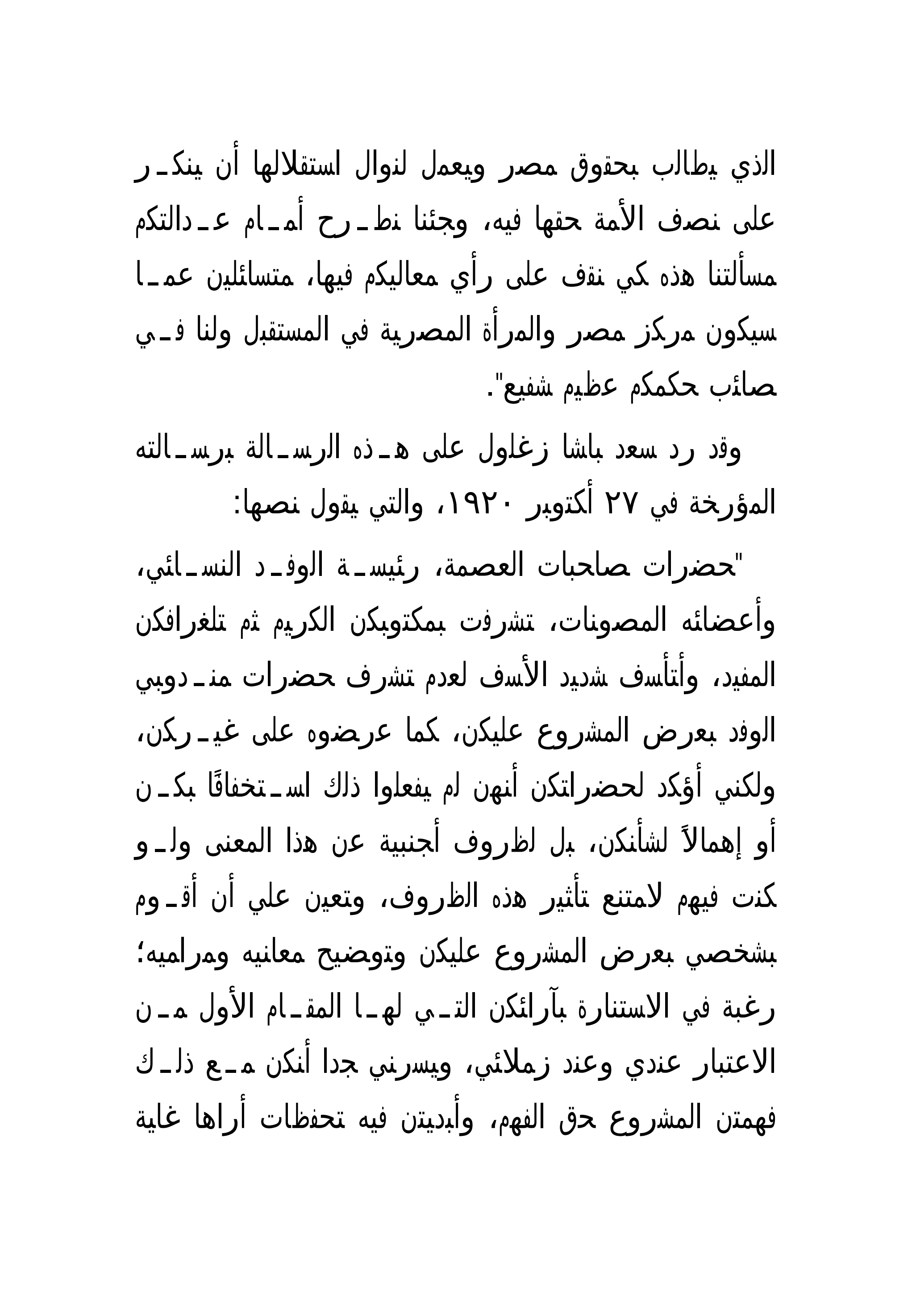
كان هناك بعض الظروف والملابسات التي دفعتني إلـى أن أكتب رسالة إلى سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصري بشأن هذه الأحداث، وقد تلقيت منه رسالة فيها الكثيـر مـن التقدير لجهاد المرأة المصرية والتأييد لموقفها، وهذا هو نص الرسالتين المتبادلتين.

حضرة صاحب المعالي سعد زغلول باشا رئـيس الوفـد المصري.

"مرسل لمعاليكم برفقة هذا نسخة من قرار لجنـة الوفـد المركزية للسيدات المصريات يتضمن نظرياتها في مشروع الاتفاق، وهي تكرر لمعاليكم بنوع خـاص، مـع عبـارات خالص الشكر والثناء على ما قمتم به نحو الأمة المصـرية والوطن المحبوب من أجل الخدمات، تمسكها بتلك التحفظات التي بدونها نكون قد أيدنا على أنفسنا شروط الحماية المقنعة وفقدنا كل حق في المطالبة باستقلال مصر التام وفيه حياتنا، وإنا لنرجو أن ننال على أيديكم غايتنا المنشودة.

"ثم نلفت نظر معاليكم إلى الاحتجـاج الـذي اضـطررنا لتقديمه وذلك لأن مندوبي الوفد فضلاً عن كونهم قد تسـاهوا

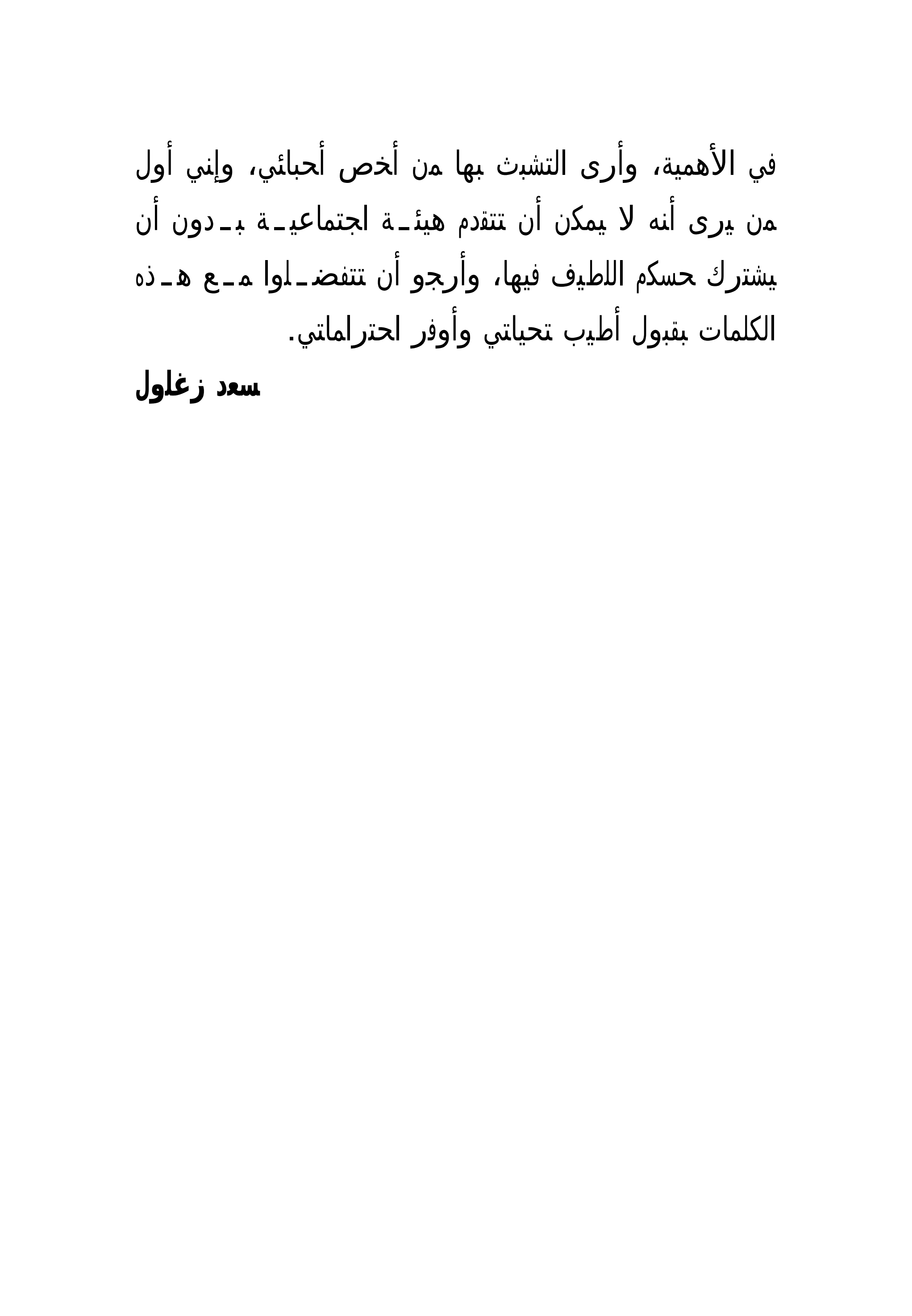

أولاً عن دعوتنا كباقي الهيئات لإبداء آرائنا في المشروع، قد أظهروا الضجر وعدم الرغبة في أخذ آرائنا عندما قدمنا لهم طلبا بذلك مصرحين بأنه لا يجوز للنساء التدخل في الأمور السياسية، ولولا إلحاح مندوبنا الشديد، لما تنـازلوا بإجابـة طلبنا وإننا لفي غاية الاندهاش والاستياء من معاملتهم هذه لنا التي تنافي الخطة التي ابتعتموها معنا للآن، وتخالف المعاملة التي عودتمونا عليها بتعضيدكم لنا في مشاركتنا لكـم فـي الحركة الوطنية، وتحبيذكم لعلمنـا وقـت تشـكيل لجنتنـا بتلغرافاتكم المظللة بأسمى عبارات التهاني والأماني.. والذي يزيد من استيائنا هو أن يثبت الوفد بعمله هذا ظن الهيئـات الأجنبية بمصر اللاتي أولن نهضتنا بخلاف الحقيقة؛ حيـث قالت إن اشتراك النساء في الحركة المصرية لم يـتم بـدافع الوطنية، بل بإيعاز فئة من الوطنيين لاستعمالهن كآلة مؤقتـة لإيهام الأمم المتحدة، ولتعتقد هذه بنضوج الأمة المصرية في الرقي وكفاءتها لحكم نفسها بنفسها، وتعضدها في نوال هـذه الأمنية ونهضتها كما تعلمون بريئة من مثل هذه التهم، فضلاً عن كونها كسبت ميزة لم تنلها مثيلاتها، والآن وقـد قربـت القضية المصرية من حل مرض، فلا يليق بالوفد المصـري



الذي يطالب بحقوق مصر ويعمل لنوال استقلالها أن ينكـر على نصف الأمة حقها فيه، وجئنا نطـرح أمـام عـدالتكم مسألتنا هذه كي نقف على رأي معاليكم فيها، متسائلين عمـا سيكون مركز مصر والمرأة المصرية في المستقبل ولنا فـي صائب حكمكم عظيم شفيع".

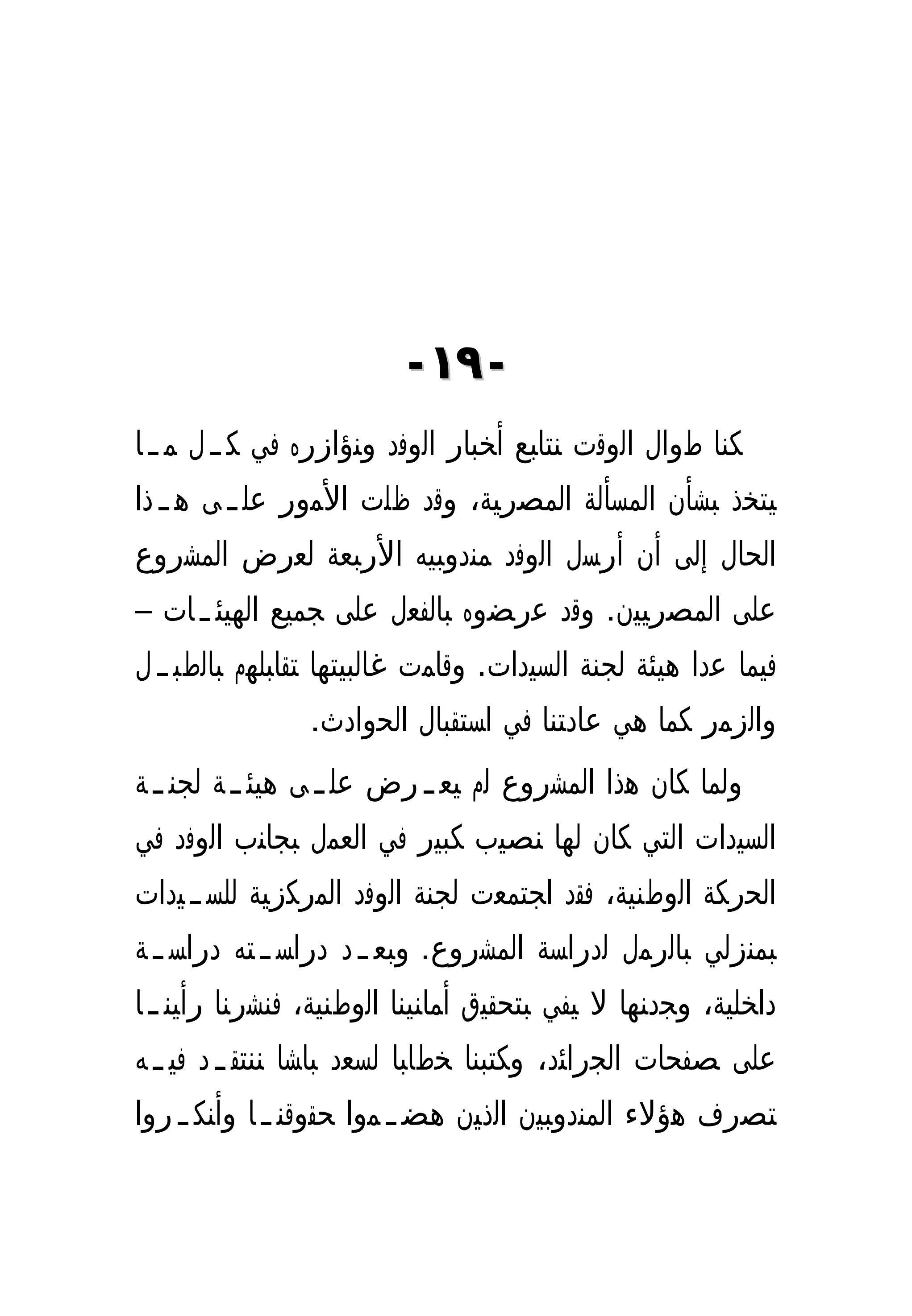
وقد رد سعد باشا زغلول على هـذه الرسـالة برسـالته المؤرخة في ٢٧ أكتوبر ١٩٢٠، والتي يقول نصها:

"حضرات صاحبات العصمة، رئيسـة الوفـد النسـائي، وأعضائه المصونات، تشرفت بمكتوبكن الكريم ثم تلغرافكن المفيد، وأتأسف شديد الأسف لعدم تشرف حضرات منـدوبي الوفد بعرض المشروع عليكن، كما عرضوه على غيـركن، ولكني أؤكد لحضراتكن أنهن لم يفعلوا ذلك اسـتخفافًا بكـن أو إهمالاً لشأنكن، بل لظروف أجنبية عن هذا المعنى ولـو كنت فيهم لامتنع تأثير هذه الظروف، وتعين علي أن أقـوم بشخصي بعرض المشروع عليكن وتوضيح معانيه ومراميه؛ رغبة في الاستنارة بآرائكن التـي لهـا المقـام الأول مـن الاعتبار عندي وعند زملائي، ويسرني جدا أنكن مـع ذلـك فهمتن المشروع حق الفهم، وأبديتن فيه تحفظات أراها غاية



في الأهمية، وأرى التشبث بها من أخص أحبائي، وإني أول من يرى أنه لا يمكن أن تتقدم هيئة اجتماعية بدون أن يشترك حسكم اللطيف فيها، وأرجو أن تتفضلوا مع هذه الكلمات بقبول أطيب تحياتي وأوفر احتراماتي.

سعد زغلول



-١٩-

كنا طوال الوقت نتابع أخبار الوفد ونؤازره في كـل مـا يتخذ بشأن المسألة المصرية، وقد ظلت الأمور علـى هـذا الحال إلى أن أرسل الوفد مندوبيه الأربعة لعرض المشروع على المصريين. وقد عرضوه بالفعل على جميع الهيئـات – فيما عدا هيئة لجنة السيدات. وقامت غالبيتها تقابلهم بالطبـل والزمر كما هي عادتنا في استقبال الحوادث.

ولما كان هذا المشروع لم يعـرض علـى هيئـة لجنـة السيدات التي كان لها نصيب كبير في العمل بجانب الوفد في الحركة الوطنية، فقد اجتمعت لجنة الوفد المركزية للسـيدات بمنزلي بالرمل لدراسة المشروع. وبعـد دراسـته دراسـة داخلية، وجدنها لا يفي بتحقيق أمانينا الوطنية، فنشرنا رأينـا على صفحات الجرائد، وكتبنا خطابا لسعد باشا ننتقـد فيـه تصرف هؤلاء المندوبين الذين هضـموا حقوقنـا وأنكـروا

وجودنا بإغفال هيبتنا في عرض المشروع، وكانت الرسالتان المتبادلتان بيني وبين سعد باشا زغلول، وقد سبق الحـديث عنهما، وبعد ذلك وصلتنا رسالة من سكرتير الوفد في ذلـك الوقت مصطفى النحاس بك، ويقول: "إننـا لنفخـر بنهضـة سيداتنا واهتمامهن بمستقبل البلاد، ويسرنا أن تتفضل اللجنة المركزية للسيدات بأن ترسل إلينا برأيهن في مشروع الاتفاق وملاحظاتهن عليه. وإننا سنحلها محل الاعتبار اللائق بها.

وقد عقدت لجنة الوفد المركزية للسيدات جلستها الثالثـة عشرة في منزلي بلوران يوم ٢٥ سـبتمبر ١٩٢٠. وسـجل محضر الجلسة أن اللجنة قد استعرضـت شـروط الاتفـاق المنشورة ببلاغ الوفد إلى الأمة والشرح الذي قدمه حضرات مندوبي الوفد لهذه الشروط، وقررت ما يلي:

١- شكر حضرات أعضاء الوفد.

٢- عدم صلاحية قواعد الاتفـاق لأن تكـون أساسـا لمعاهدة تعقد بين مصر وإنجلترا، إلا إذا أضـيفت إليها التحفظات الآتية:

١- أن ينص في الفقرة الأولى من المادة الثالثة على إلغاء الحماية.

٢- أن تعين الحقوق التي تمنحها مصـر لإنجلتـرا بأنهـا الحقوق المذكورة في مشروع الاتفاق كي لا تتعدى هذه الحقوق ما ذكر في المشروع.

٣- أن تتعهد بريطانيا بتعضيد مصر في الدفاع عن سلامة أرضها إذا طلبت مصر هذا التعضيد، وفي نظير ذلـك تسمح مصر لها باستعمال طرق مواصلاتها إذا كانـت بريطانيا تحارب في بلاد لا يمكنهـا الوصـول إليهـا إلا عن طرق مصر.

٤- أن يكون لمصر حق عقد جميع المعاهدات مع الـدول الأجنبية إلا المعاهدات السياسية التي تضـر بمصـالح انجلترا، وكذلك لا يجوز لإنجلترا عقد محالفات سياسية تتعارض مع مصالح مصر.

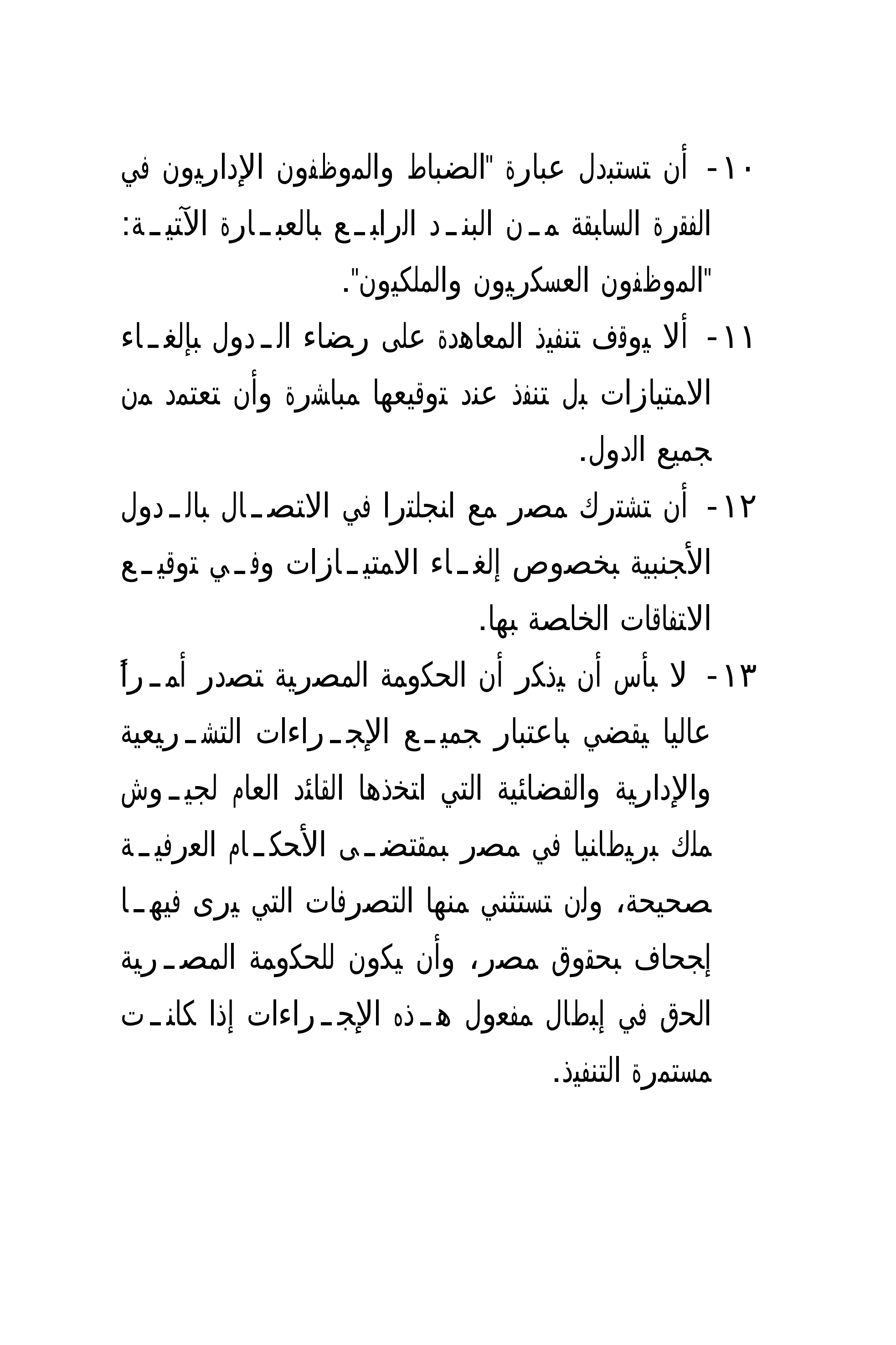
٥- أن يحدد عدد الحامية العسكرية ومعـداتها ومركزهـا ومدة وجودها، على شرط أن يكون ذلك المركز بعيـدا عن المدن والعواصم وأن تدفع الحكومـة الإنجليزيـة أجرا لهذه الأرض حتى لا تصير ملكًا لها، وأن يـذكر صراحة بأن مهمة هذه الحامية المحافظة علـى قنـاة السويس فقط.

٦- أن يسمى الموظف الإنجليزي الذي سيحل محل صندوق الدين بمراقب صندوق الدين، وأن تحدد وظيفته باختصاصات صندوق الدين فقط، ولا يكون له صفة استشارية مطلقًا في الحكومة، وأن ينص صراحة على انتهاء وظيفته بمجرد سداد الدين سواء كان ذلك بعمل قرض داخلي بوساطة الحكومة أو انتقال أسهمه إلى أيدي المصريين.

٧- لا داعي لبقاء المستشار القضائي بالمرة ما دام للممثل البريطاني حق نقض القوانين المجحفة بالأجانب.

٨- لا بأس من قبول النص الثاني من الفقرة الخامسة بند رابع مع النص على رفع الأمر عند قيام أي خلاف إلى سلطة عليا وتعيين هذه السلطة.

٩- أن يكون الممثل البريطاني كباقي ممثلي الدول ولا يكون له مركز استثنائي في مصر بأي حال من الأحوال.



١٠- أن تستبدل عبارة "الضباط والموظفون الإداريون في الفقرة السابقة من البند الرابع بالعبارة الآتية: "الموظفون العسكريون والملكيون".

١١- ألا يوقف تنفيذ المعاهدة على رضاء الدول بإلغاء الامتيازات بل تنفذ عند توقيعها مباشرة وأن تعتمد من جميع الدول.

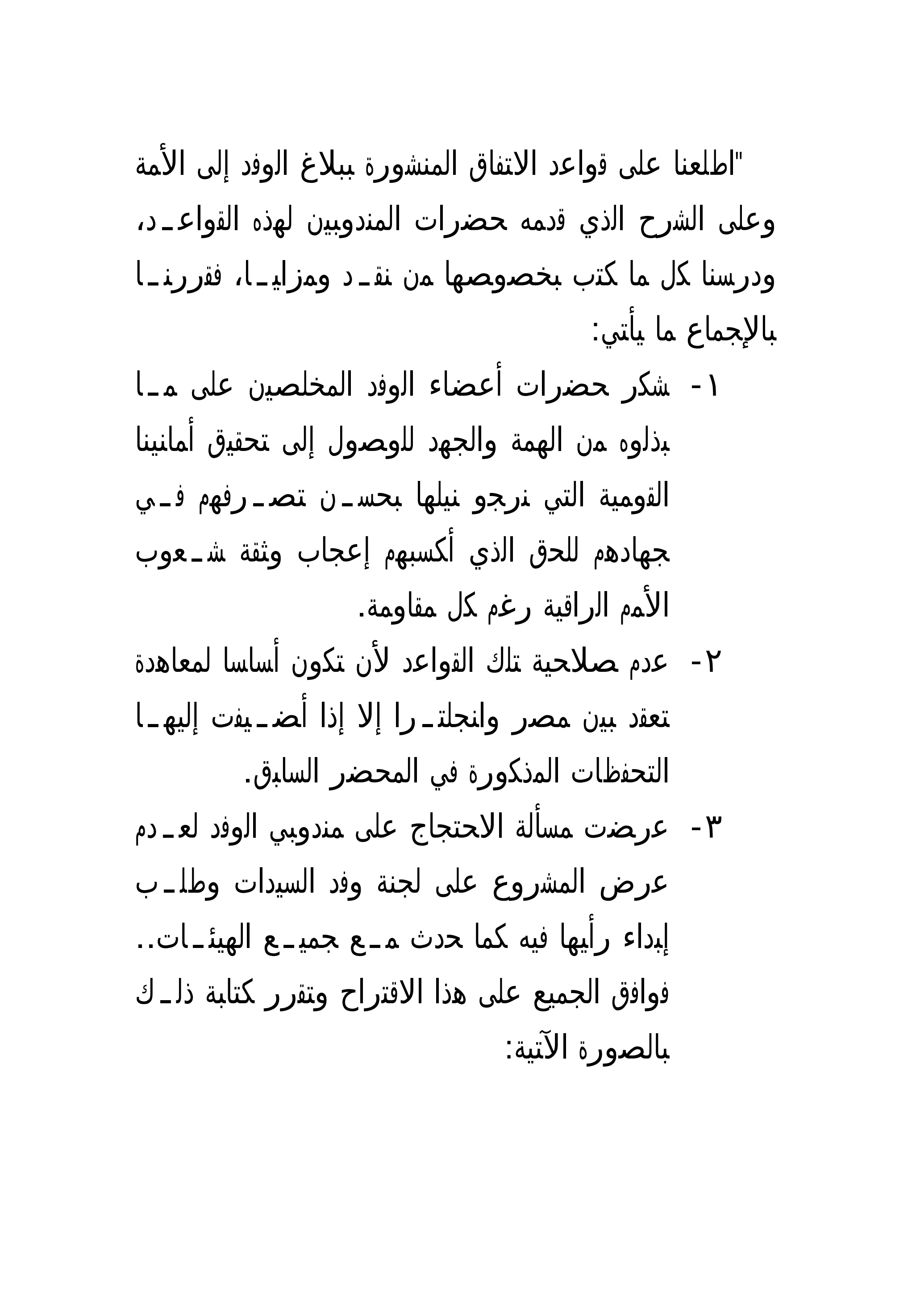
١٢- أن تشترك مصر مع انجلترا في الاتصال بالدول الأجنبية بخصوص إلغاء الامتيازات وفي توقيع الاتفاقات الخاصة بها.

١٣- لا بأس أن يذكر أن الحكومة المصرية تصدر أمراً عاليا يقضي باعتبار جميع الإجراءات التشريعية والإدارية والقضائية التي اتخذها القائد العام لجيوش ملك بريطانيا في مصر بمقتضى الأحكام العرفية صحيحة، وان تستثني منها التصرفات التي يرى فيها إجحاف بحقوق مصر، وأن يكون للحكومة المصرية الحق في إبطال مفعول هذه الإجراءات إذا كانت مستمرة التنفيذ.

١٤- أن تشترك مصر في تبليغ نص المعاهدة المشار إليها في البند الثالث إلى الـدول الأجنبيـة مـع بريطانيـا لإقرارها، وأن تعضد بريطانيا الطلـب الـذي تقدمـه للانضمام إلى عصبة الأمم.

١٥- أن ينص في المعاهدة على رضاء المتعاقدين بتحكيم محكمة لاهاي أو ما يقوم مقامها في كل خلاف ينشـب على تفسير شروط المعاهدة أو على عدم تنفيذها. أمـا مسالة السودان فيجب أن نتمسك بحقوقنا فيه باعتبـاره جزءا لا يتجزأ من مصر لا باعتباره مستعمرة.

١٦- وكانت الجلسة التي اتخذت فيها هذه التوصيات قـد بدأت في الساعة الثامنة صباحا واستمرت حتى الساعة الواحدة ظهرا، ونظرا لخطورة الموقـف والأحـداث والتطورات، فقد اتفق على العودة للعمل فـي السـاعة الخامسة من مساء اليوم نفسه، وفي هذه الجلسة صـدر قرار لجنة الوفد المركزية للسيدات الذي اتفـق علـى نشره في جميع الصحف المحلية، والذي ينص على ما يلي:



"اطلعنا على قواعد الاتفاق المنشورة ببلاغ الوفد إلى الأمة وعلى الشرح الذي قدمه حضرات المندوبين لهذه القواعـد، ودرسنا كل ما كتب بخصوصها من نقـد ومزايـا، فقررنـا بالإجماع ما يأتي:

١- شكر حضرات أعضاء الوفد المخلصين على مـا بذلوه من الهمة والجهد للوصول إلى تحقيق أمانينا القومية التي نرجو نيلها بحسـن تصـرفهم فـي جهادهم للحق الذي أكسبهم إعجاب وثقة شـعوب الأمم الراقية رغم كل مقاومة.

٢- عدم صلاحية تلك القواعد لأن تكون أساسا لمعاهدة تعقد بين مصر وانجلتـرا إلا إذا أضـيفت إليهـا التحفظات المذكورة في المحضر السابق.

٣- عرضت مسألة الاحتجاج على مندوبي الوفد لعـدم عرض المشروع على لجنة وفد السيدات وطلـب إبداء رأيها فيه كما حدث مـع جميـع الهيئـات.. فوافق الجميع على هذا الاقتراح وتقرر كتابة ذلـك بالصورة الآتية:

"حضرات أصحاب السعادة والعزة مندوبي الوفد المصري.

"إن لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات بصفتها هيئة منتخبة ممثلة لنصف الأمة المصرية التي انتخبت وتأسست لمساعدة الوفد المصري والسير على برنامجه للمطالبة باستقلال مصر التام. وقد قامت بواجبها نحو الأم والوفد المصري كما يجب، قد اجتمعت اليوم بمنزل حرم صاحب السعادة علي شعراوي باشا بلوران برمل الإسكندرية، وقررت بناء على دعوتكم ما يأتي:

١- الاحتجاج على عدم دعوتها لعرض المشروع عليها للمناقشة فيه وأخذ رأيها كما اتبع مع جميع الهيئات أو إبداء رأيها كتابة إلا بعد أن قدمت طلبا بذلك.

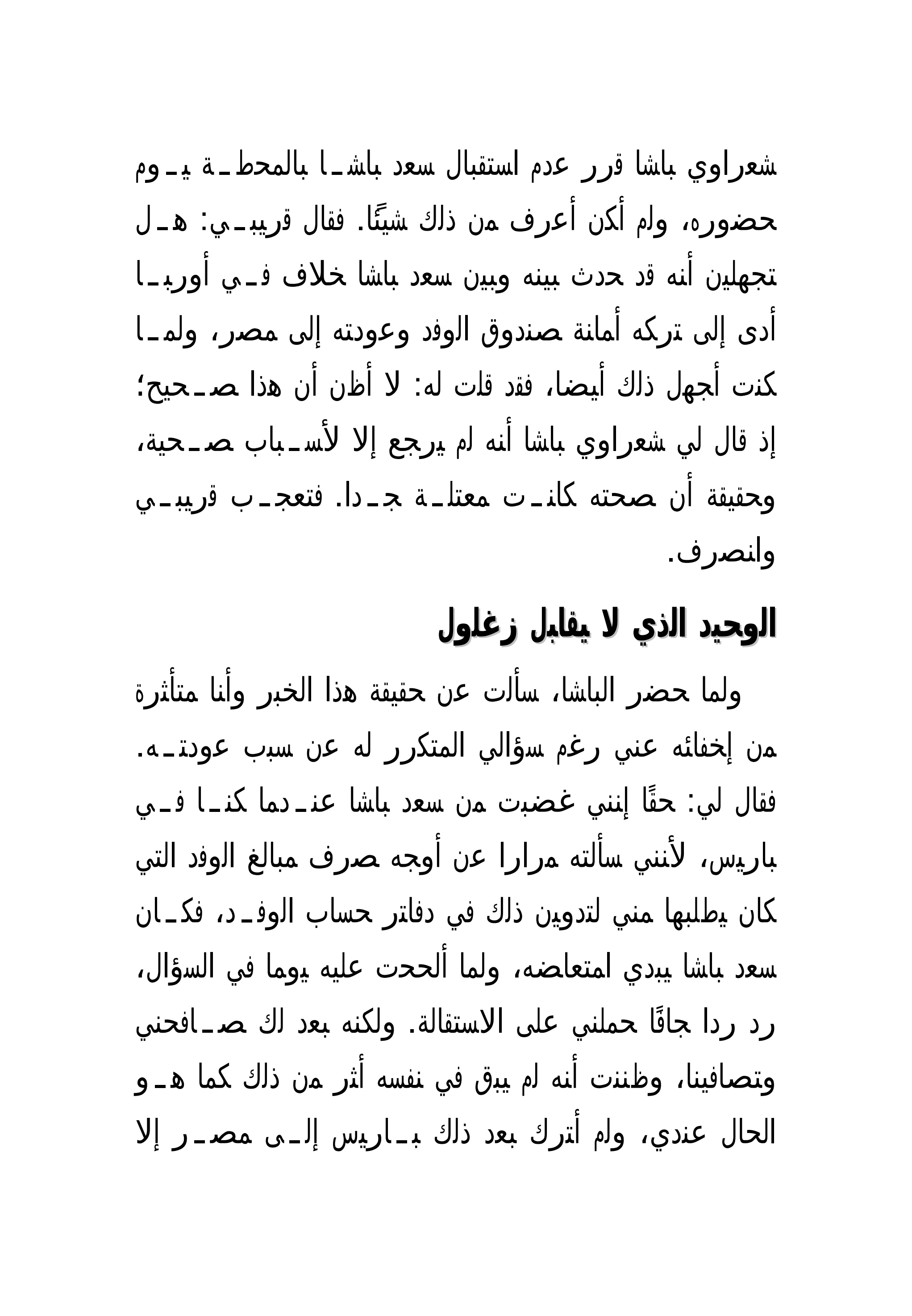
وأذكر أنه كان لرأينا هذا ضجة بين المتتبعين لأعمالنا، فأيده بعضهم وأنحت علينا بالأغلبية باللائمة كالمعتاد. فقد كان كل شيء يصدر من سعد مقبولاً ولو لم يكن في مصلحة الوطن، والدليل على ذلك رفض الأمة لمشروع ملنر بعد الطبل والزمر الذي قوبل به، وكان رفضه بناء على تنويه

من سعد باشا بأنه لا يحقق أماني البلاد، إذ علموا أنـه لـم يرسل المشروع لاستفتاء الأمة إلا إرضـاء لرغبـة بعـض أعضاء الوفد المؤيدين له، وإذا بأعضاء آخرين يرجعون بعد ذلك من باريس الواحد تلو الآخر. وكان أول من رجع منهم قبل عرض المشروع هو زوجي علي باشا شعراوي، الـذي دهش مثلنا من عدم عرض المشروع عليه ولم يدع للانضمام إلى مندوبي الوفد الذين قدموا لعرض المشروع رغـم أنـه وكيل الوفد المصري. وقد أدى ذلك إلى أن بعض السـيدات كن يسألنني: هل رجوع الباشا لاختلاف في الرأي بينه وبين سعد باشا؟ فكنت أنفي هذا الزعم لأن الباشا لم يكن قد صرح لي بشيء من هذا القبيل، ولم يقطع صلته بأعضـاء الوفـد الذين قدموا لعرض المشروع.. وبهـذه المناسـبة أذكـر أن زوجي توجه لزيارتهم عقب عودتهم من أوربا رغم أن سعد باشا لم يكتب إليه بالانضمام إليهم في عرض المشروع، ولم يرد أحد منهم زيارته إلا لطفي السيد بك الذي كان صـديقه الوفي.

ولما سمع سعد باشا بأن الحكومة الإنجليزية لا ترغب في مفاوضته بصفته نائبا عن الأمة، ولكنها تريد أن تتفاوض مع

ممثلي الحكومة المصرية، لم يطق البقاء في باريس وعزم على العودة إلى مصر كما هو معروف. فقامت البلاد تحتفي بقدومه حكومة وشعبا، وكان بعض المفكرين المصريين وبعض أعضاء الوفد ومنهم زوجي يفضلون عدم قيام سعد باشا بمفاوضات رسمية ليبقى كمرجع أخير للمفاوضين الحكوميين، يشد أزرهم ويكون لهم بمنزلة دعامة يرتكزون عليها ويعمل حسابها المفاوضون الإنجليز، وبذلك تنجح المفاوضات. ولكن ذلك لم يكن متفقًا مع اتجاه سعد باشا الذي كان يريد أن يتم على يديه كل شيء خاص بالقضية المصرية، فبذر بذور الشقاق، وكانت برقيته الشهيرة التي نوه فيها بأن بعض أعضاء الوفد تواطئوا مع الحكومة على الاتفاق مع الإنجليز على معاهدة لا تحقق مطالب المصريين، فقامت البلاد وقعدت لهذه الجرأة لاسيما وقد جاءت هذه البرقية في وقت كانت النفوس فيه ثائرة متعطشة لشيء من الحرية، ولذلك كانت تنتظر بفارغ الصبر عودة سعد باشا إلى مصر.

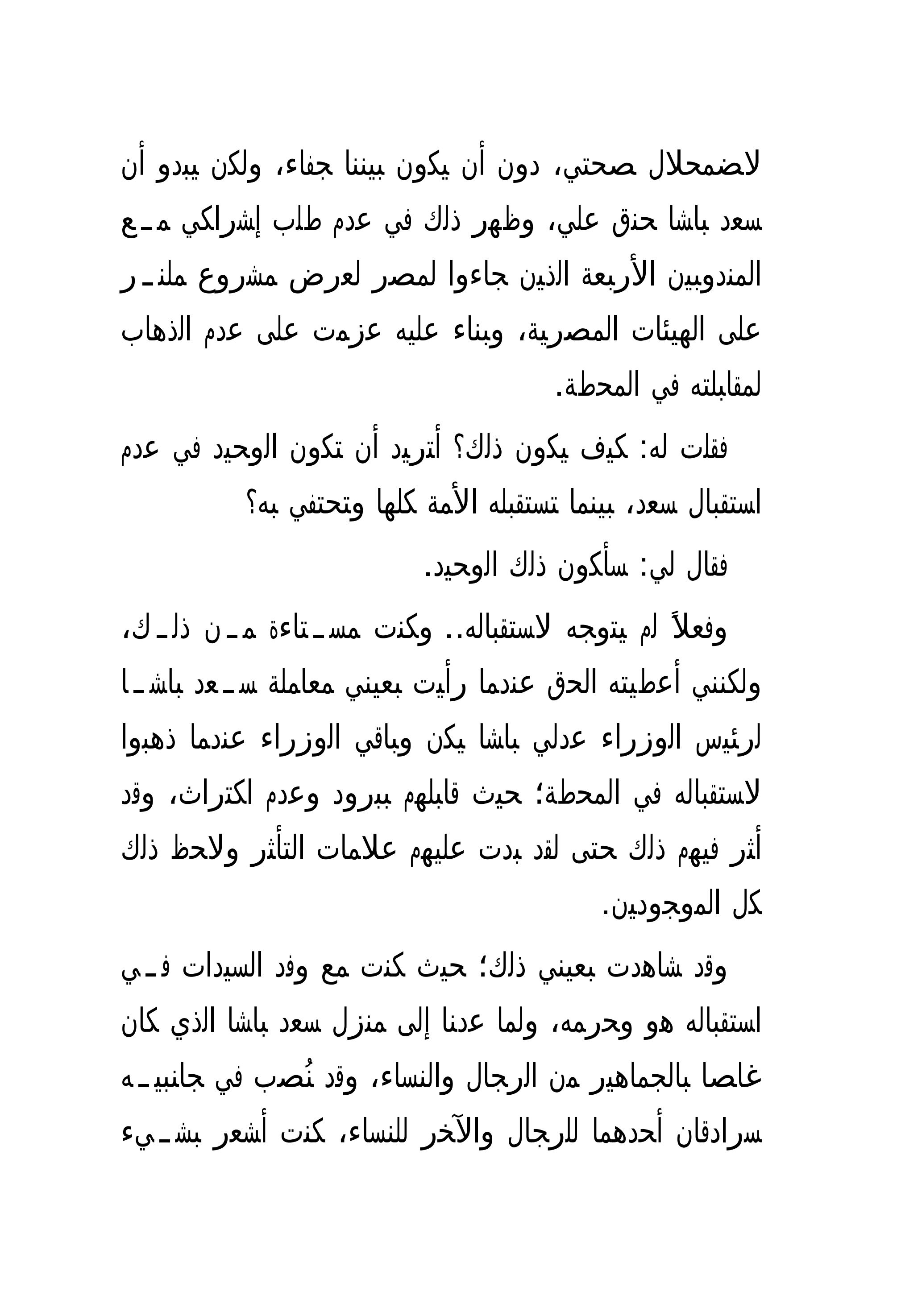
وقبيل وصول سعد باشا بيوم أو يومين، كنت في مكتبي.. وإذا بأحد أقاربي جاء ليسألني عن حقيقة ما سمعه من أن



شعراوي باشا قرر عدم استقبال سعد باشا بالمحطة يوم حضوره، ولم أكن أعرف من ذلك شيئًا. فقال قريبي: هل تجهلين أنه قد حدث بينه وبين سعد باشا خلاف في أوربا أدى إلى تركه أمانة صندوق الوفد وعودته إلى مصر، ولما كنت أجهل ذلك أيضا، فقد قلت له: لا أظن أن هذا صحيح؛ إذ قال لي شعراوي باشا أنه لم يرجع إلا لأسباب صحية، وحقيقة أن صحته كانت معتلة جدا. فتعجب قريبي وانصرف.

الوحيد الذي لا يقابل زغلول

ولما حضر الباشا، سألت عن حقيقة هذا الخبر وأنا متأثرة من إخفائه عني رغم سؤالي المتكرر له عن سبب عودته. فقال لي: حقًا إنني غضبت من سعد باشا عندما كنا في باريس، لأنني سألته مرارا عن أوجه صرف مبالغ الوفد التي كان يطلبها مني لتدوين ذلك في دفاتر حساب الوفد، فكان سعد باشا يبدي امتعاضه، ولما ألححت عليه يوما في السؤال، رد ردا جافًا حملني على الاستقالة. ولكنه بعد اك صافحني وتصافينا، وظننت أنه لم يبق في نفسه أثر من ذلك كما هو الحال عندي، ولم أترك بعد ذلك باريس إلى مصر إلا



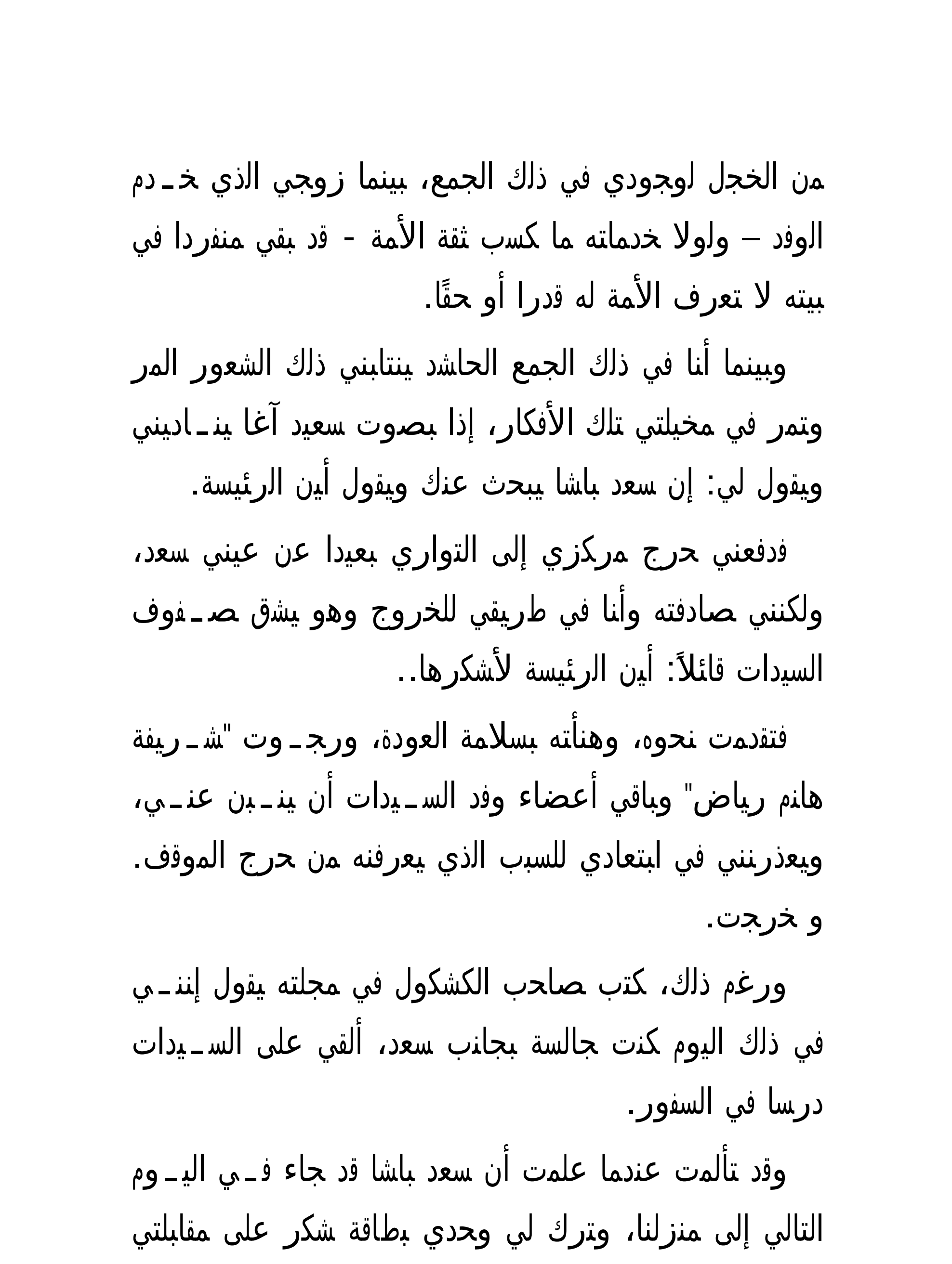
لاضمحلال صحتي، دون أن يكون بيننا جفاء، ولكن يبدو أن سعد باشا حنق علي، وظهر ذلك في عدم طلب إشراكي مع المندوبين الأربعة الذين جاءوا لمصر لعرض مشروع ملنر على الهيئات المصرية، وبناء عليه عزمت على عدم الذهاب لمقابلته في المحطة.

فقلت له: كيف يكون ذلك؟ أتريد أن تكون الوحيد في عدم استقبال سعد، بينما تستقبله الأمة كلها وتحتفي به؟

فقال لي: سأكون ذلك الوحيد.

وفعلاً لم يتوجه لاستقباله.. وكنت مستاءة من ذلك، ولكنني أعطيته الحق عندما رأيت بعيني معاملة سعد باشا لرئيس الوزراء عدلي باشا يكن وباقي الوزراء عندما ذهبوا لاستقباله في المحطة؛ حيث قابلهم ببرود وعدم اكتراث، وقد أثر فيهم ذلك حتى لقد بدت عليهم علامات التأثر ولاحظ ذلك كل الموجودين.

وقد شاهدت بعيني ذلك؛ حيث كنت مع وفد السيدات في استقباله هو وحرمه، ولما عدنا إلى منزل سعد باشا الذي كان غاصا بالجماهير من الرجال والنساء، وقد نُصب في جانبيه سرادقان أحدهما للرجال والآخر للنساء، كنت أشعر بشيء



من الخجل لوجودي في ذلك الجمع، بينما زوجي الذي خـدم الوفد – ولولا خدماته ما كسب ثقة الأمة - قد بقي منفردا في بيته لا تعرف الأمة له قدرا أو حقًا.

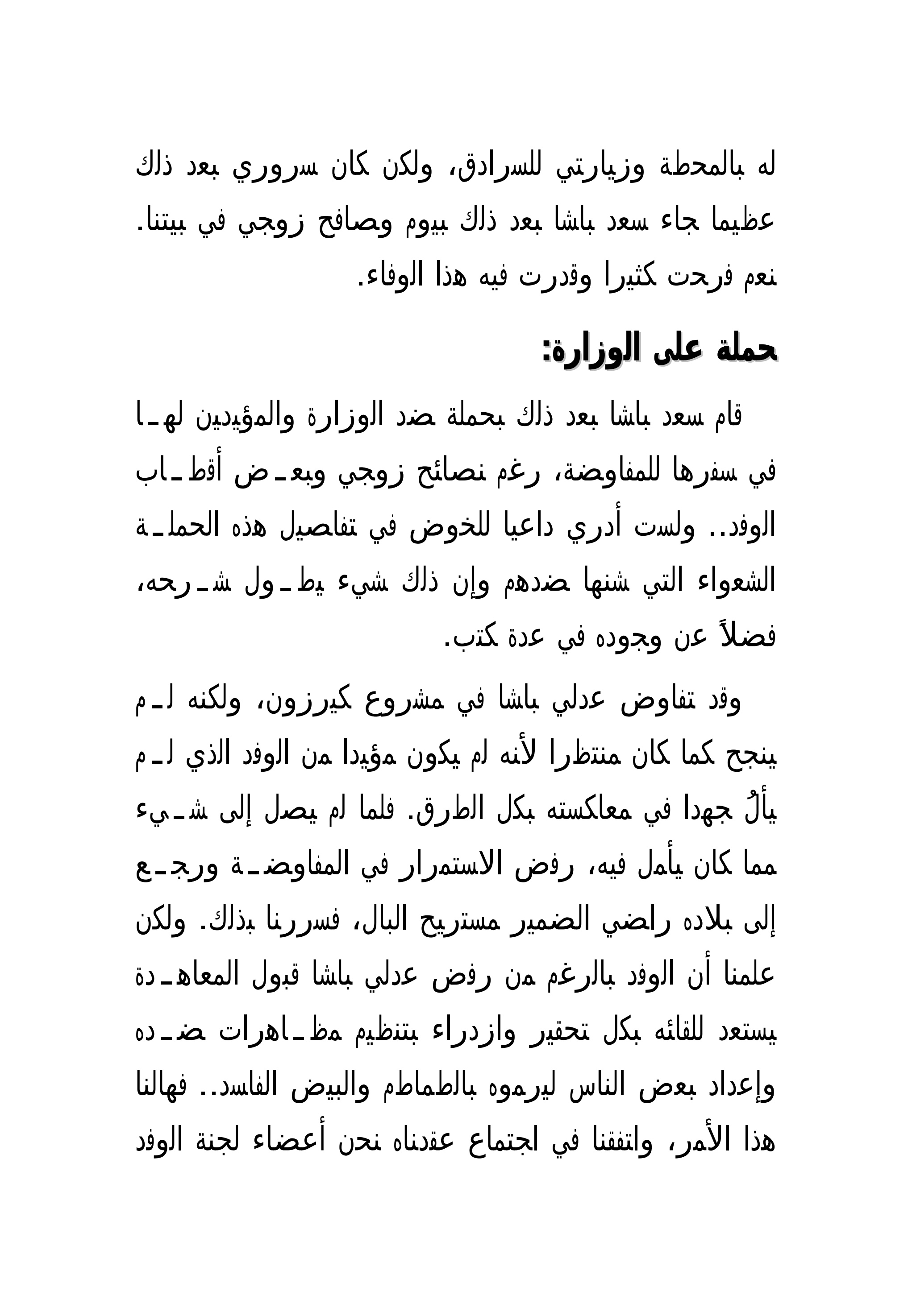
وبينما أنا في ذلك الجمع الحاشد ينتابني ذلك الشعور المر وتمر في مخيلتي تلك الأفكار، إذا بصوت سعيد آغا ينـاديني ويقول لي: إن سعد باشا يبحث عنك ويقول أين الرئيسة.

فدفعني حرج مركزي إلى التواري بعيدا عن عيني سعد، ولكنني صادفته وأنا في طريقي للخروج وهو يشق صـفوف السيدات قائلاً: أين الرئيسة لأشكرها..

فتقدمت نحوه، وهنأته بسلامة العودة، ورجـوت "شـريفة هانم رياض" وباقي أعضاء وفد الســيدات أن ينـبن عنـي، ويعذرنني في ابتعادي للسبب الذي يعرفنه من حرج الموقف. و خرجت.

ورغم ذلك، كتب صاحب الكشكول في مجلته يقول إننـي في ذلك اليوم كنت جالسة بجانب سعد، ألقي على الســيدات درسا في السفور.

وقد تألمت عندما علمت أن سعد باشا قد جاء فـي اليـوم التالي إلى منزلنا، وترك لي وحدي بطاقة شكر على مقابلتي

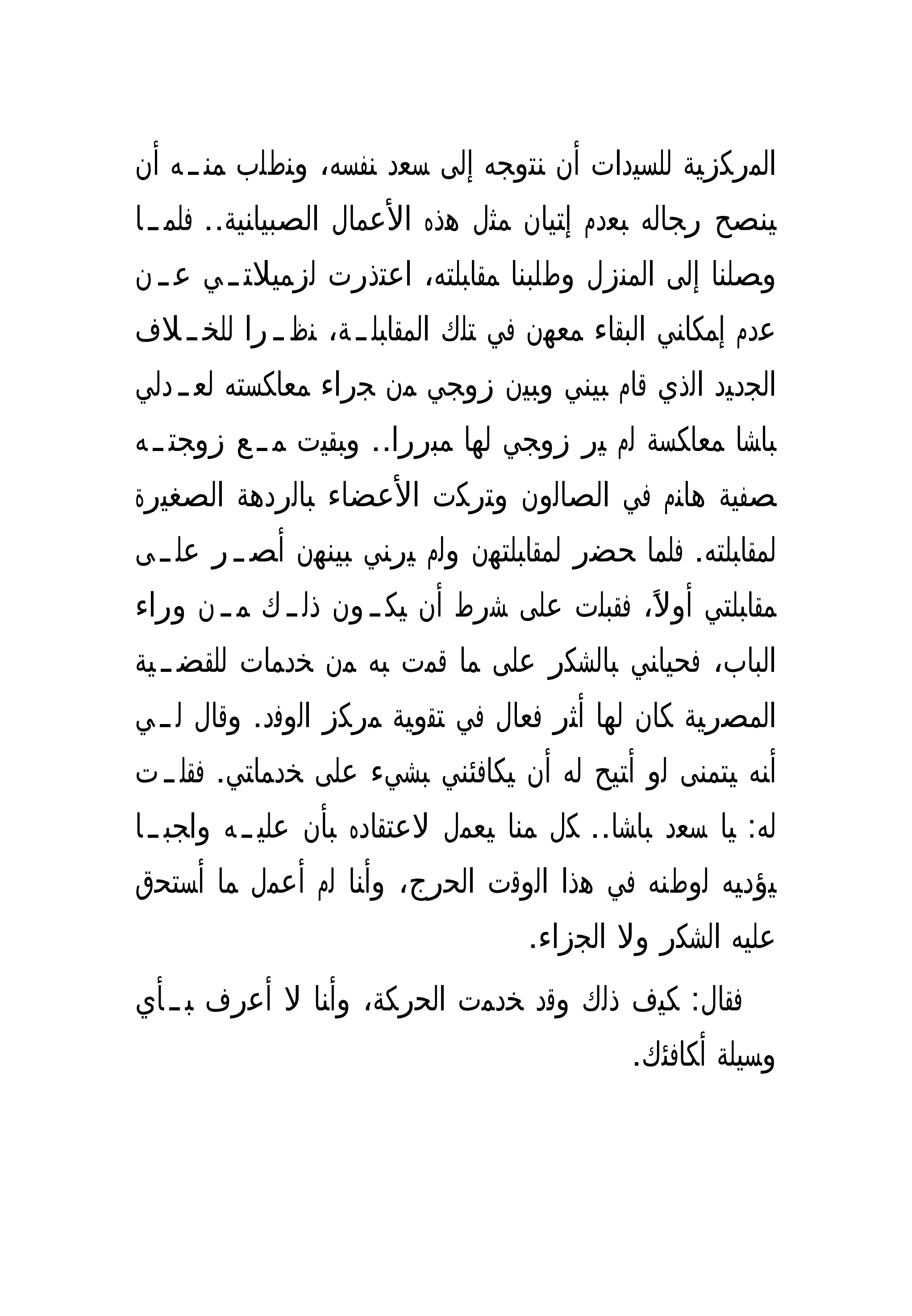


له بالمحطة وزيارتي للسرادق، ولكن كان سروري بعد ذلك عظيما جاء سعد باشا بعد ذلك بيوم وصافح زوجي في بيتنا. نعم فرحت كثيرا وقدرت فيه هذا الوفاء.

حملة على الوزارة:

قام سعد باشا بعد ذلك بحملة ضد الوزارة والمؤيدين لها في سفرها للمفاوضة، رغم نصائح زوجي وبعض أقطاب الوفد.. ولست أدري داعيا للخوض في تفاصيل هذه الحملة الشعواء التي شنها ضدهم وإن ذلك شيء يطول شرحه، فضلاً عن وجوده في عدة كتب.

وقد تفاوض عدلي باشا في مشروع كيرزون، ولكنه لم ينجح كما كان منتظرا لأنه لم يكون مؤيدا من الوفد الذي لم يألُ جهدا في معاكسته بكل الطرق. فلما لم يصل إلى شيء مما كان يأمل فيه، رفض الاستمرار في المفاوضة ورجع إلى بلاده راضي الضمير مستريح البال، فسررنا بذلك. ولكن علمنا أن الوفد بالرغم من رفض عدلي باشا قبول المعاهدة يستعد للقائه بكل تحقير وازدراء بتنظيم مظاهرات ضده وإعداد بعض الناس ليرموه بالطماطم والبيض الفاسد.. فهالنا هذا الأمر، واتفقنا في اجتماع عقدناه نحن أعضاء لجنة الوفد



المركزية للسيدات أن نتوجه إلى سعد نفسه، ونطلب منه أن ينصح رجاله بعدم إتيان مثل هذه الأعمال الصبيانية.. فلما وصلنا إلى المنزل وطلبنا مقابلته، اعتذرت لزميلاتي عن عدم إمكاني البقاء معهن في تلك المقابلة، نظرا للخلاف الجديد الذي قام بيني وبين زوجي من جراء معاكسته لعدلي باشا معاكسة لم ير زوجي لها مبررا.. وبقيت مع زوجته صفية هانم في الصالون وتركت الأعضاء بالردهة الصغيرة لمقابلته. فلما حضر لمقابلتهن ولم يرني بينهن أصر على مقابلتي أولاً، فقبلت على شرط أن يكون ذلك من وراء الباب، فحياني بالشكر على ما قمت به من خدمات للقضية المصرية كان لها أثر فعال في تقوية مركز الوفد. وقال لي أنه يتمنى لو أتيح له أن يكافئني بشيء على خدماتي. فقلت له: يا سعد باشا.. كل منا يعمل لاعتقاده بأن عليه واجبا يؤديه لوطنه في هذا الوقت الحرج، وأنا لم أعمل ما أستحق عليه الشكر ولا الجزاء.

فقال: كيف ذلك وقد خدمت الحركة، وأنا لا أعرف بأي وسيلة أكافئك.

فانتهزت فرصة سروره وتقديره لعملي، وقلت لـه: مـا دمت تصر على إقناعي بأنني أستحق مكافأتك، فإن لي عندك طلبا أرجو تحقيقه.

فقال: بكل سرور.. ما هذا الطلب؟

قلت له: أن تقابل عدلي باشا بمثل ما قابلك مـن حفـاوة وتكريم يوم عودتك إلى الوطن، وأن تمنع المظاهرات المزمع قيامها وتنظيمها لرميه بالطماطم والبيض الفاسد.

فتمهل قليلاً كأنه لم يكن ينتظر مني مثل هذا الطلب، ثـم قال: وا لو كان الأمر متعلقًا بي شخصيا، لأجبت رغبتـه إرضاء لخاطرك، ولكن إن رضيت أنا، لا يرضـي غيـري بذلك.

فقلت له: ومن الذي يخالفك في الرأي إذا أردت شيئًا؟

فأسرعت صفية هانم وقالت له: وا يا سعد لو وضـعت يدك في يد عدلي، لن أكون لك زوجة بعد الذي فعله.

فقال لي: أسمعت يا سيدتي بآذانك؟

فقلت: سمعت. ولم يبق لي كلام بعد ذلك إلا أن أطلب من ا عز وجل أن يهدئ الخواطر ويهيئ ما فيه الخير.

وكان أن تركني وانصرف لمقابلة أعضاء اللجنة، وكـان اللقاء بينه وبينهن.. قصة أخرى!..

-٢٠-

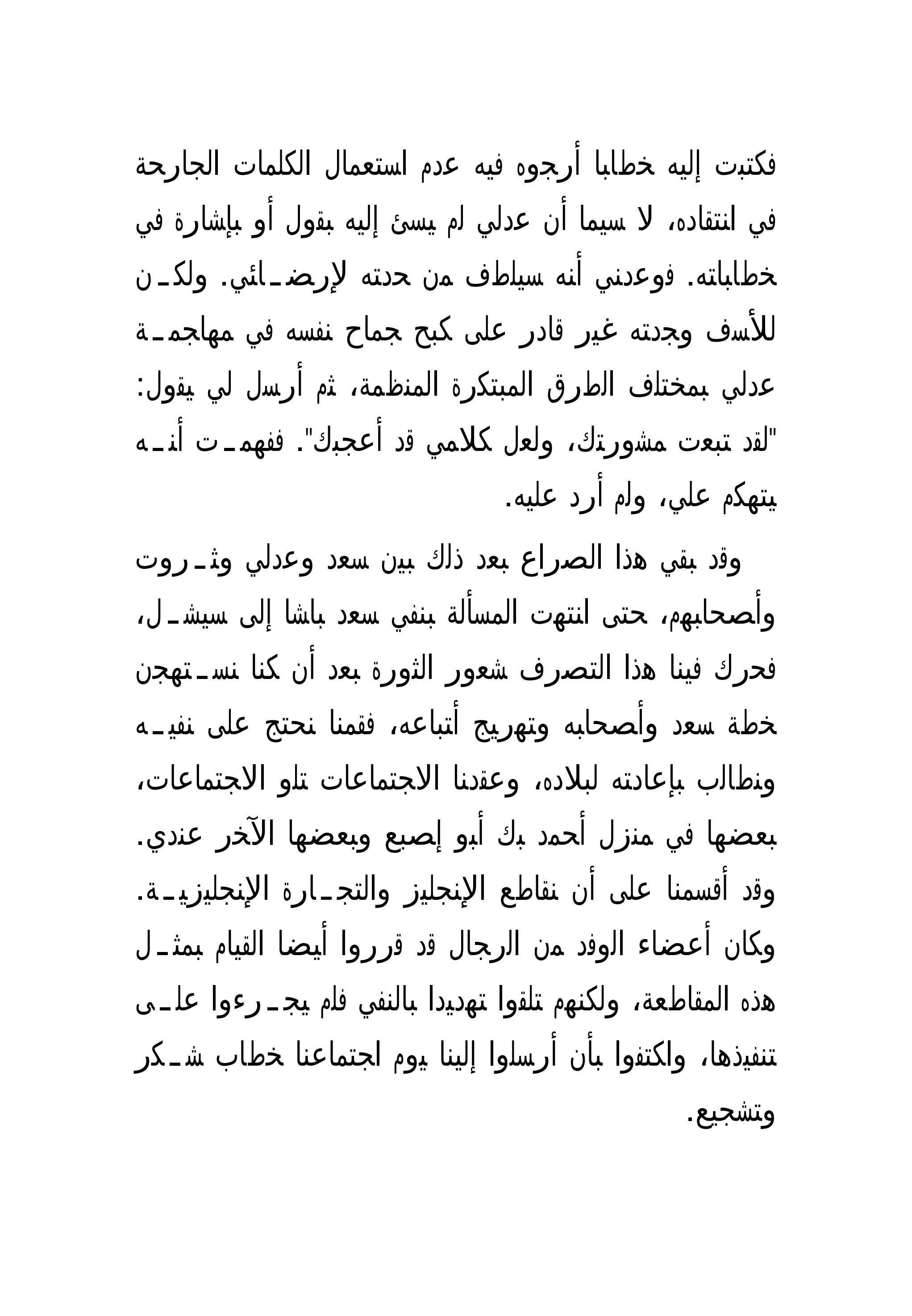
بعد ذاك اللقاء العاصف بيني وبين سعد باشا زغلول تركني وتوجه إلى الغرفة الأخرى، لمقابلة أعضاء لجنتنا ولم يدم هذا اللقاء إلا دقائق قليلة؛ حيث أخبروني بأن السيدات قد خرجن من الغرفة ويردن الانصراف، وأن سعد باشا قد غادر المكان، وخرجت مع صفية هانم من الصالون فوجدت زميلاتي يرددن في حالة من التوتر والارتباك: "هيا بنا. مصر لها رب".

وبعد أن سلمنا على صفية هانم وخرجنا وركبنا عرباتنا، ركبت معي مدام ويصا خياط وسيدة ثالثة لا أتذكر من هي الآن، فسألتهن عما دار بينهن وبين سعد باشا بخصوص الموضوع الذي جئنا من أجله، فأخبرنني أن سعد باشا قد دخل عليهن وهو يقول: "هل أعطيتن رشوة حتى تأتين لطلب مثل ذلك الطلب؟" فقلن له: "نحن لا نرتشي، ولو كان ذلك ما

وقفنا هذا الموقف". فقال لنا: "من هو ذا عدلي؟ الأمة كلهـا معي". فردت عليه مدام خياط قائلة: "إذا كان في الأمة واحد يخالفك الرأي، فالأمة إذن ليست بالإجماع معـك". فغضـب واحتد عليهن وعاد يقول: "لابد أنهم أعطوك رشوة". فقامـت السيدات محتدات، وأرسلن إلي لكي أخرج. ورجعنا بعد ذلك إلى منزلي. وبقينا نفكر فيما نفعل مجتمعات لدرء هذا العمل المخزي، وكان التليفون يدق بين الحين والآخر؛ حيث يسأل الطلبة وبعض الأعيان عن نتيجة مقابلتنـا لسـعد، بعـد أن سمعوا أن وفد السيدات قد توجه إليه ليطلب منه أن يحسـن مقابلة عدلي باشا، ويستفسرون عما إذا كان هـذا صـحيحا، وماذا تم في الأمر.

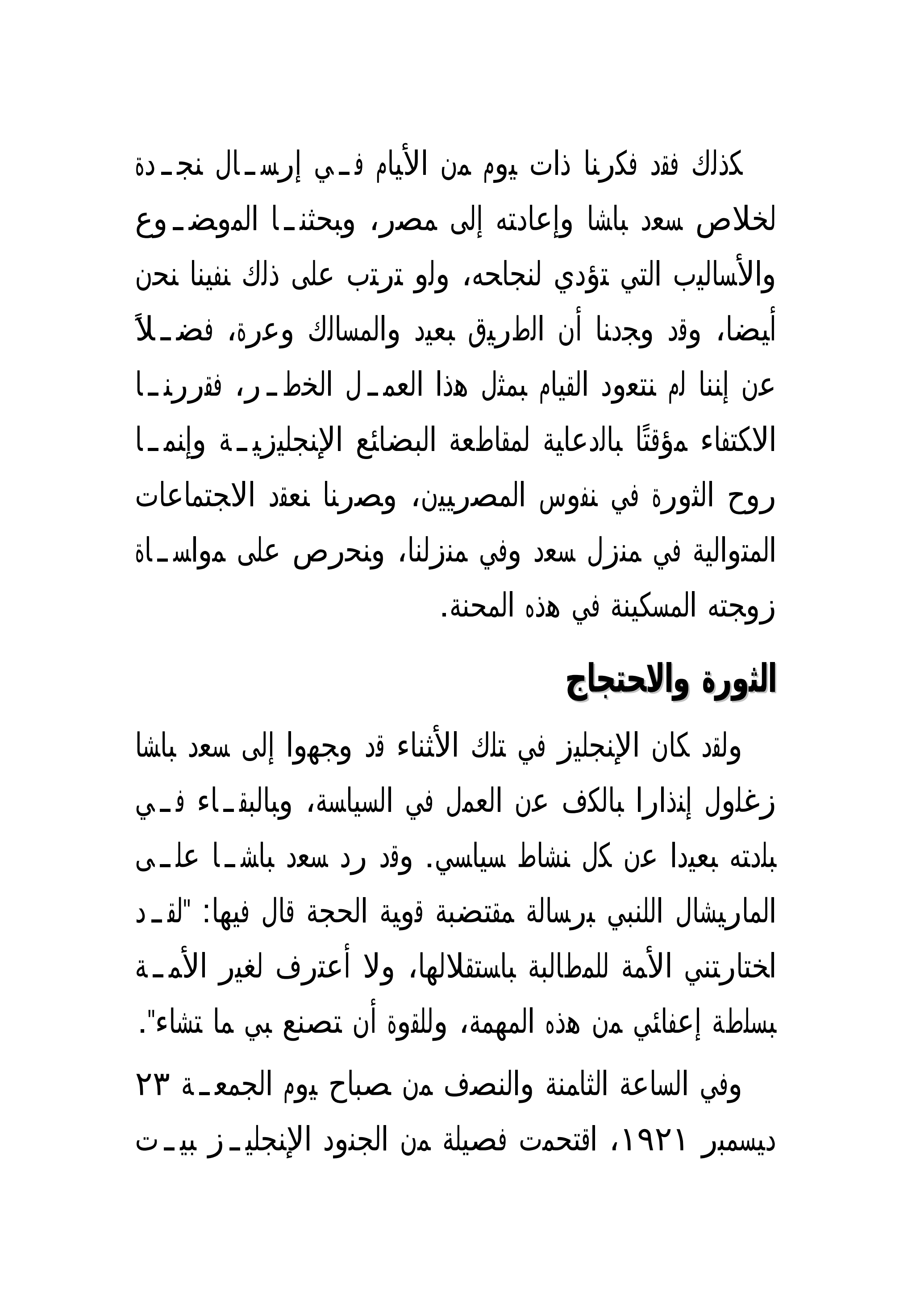
وهنا، لابد أن أعترف بأننا قد أخطأنا خطأ كبيرا عنـدما تسترنا على هذا الخبر ونفينا صحته، وأعتقد إننا لو كنا قـد أخبرناهم بالحقيقة، لعرف الناس نية سعد باشا ولأنفض مـن حوله كثيرون.

وقد وصل عدلي باشا في اليوم الثاني لهذا اللقاء بعـد أن قام بواجبه نحو بلاده، ولكن للأسف لم يقدر الشعب المصري جهود رجاله المخلصين. وقام سعد يرمي عـدلي بالخيانـة،



فكتبت إليه خطابا أرجوه فيه عدم استعمال الكلمات الجارحة في انتقاده، لا سيما أن عدلي لم يسئ إليه بقول أو بإشارة في خطاباته. فوعدني أنه سيلطف من حدته لإرضائي. ولكن للأسف وجدته غير قادر على كبح جماح نفسه في مهاجمة عدلي بمختلف الطرق المبتكرة المنظمة، ثم أرسل لي يقول: "لقد تبعت مشورتك، ولعل كلامي قد أعجبك". ففهمت أنه يتهكم علي، ولم أرد عليه.

وقد بقي هذا الصراع بعد ذلك بين سعد وعدلي وثروت وأصحابهم، حتى انتهت المسألة بنفي سعد باشا إلى سيشل، فحرك فينا هذا التصرف شعور الثورة بعد أن كنا نستهجن خطة سعد وأصحابه وتهريج أتباعه، فقمنا نحتج على نفيه ونطالب بإعادته لبلاده، وعقدنا الاجتماعات تلو الاجتماعات، بعضها في منزل أحمد بك أبو إصبع وبعضها الآخر عندي. وقد أقسمنا على أن نقاطع الإنجليز والتجارة الإنجليزية. وكان أعضاء الوفد من الرجال قد قرروا أيضا القيام بمثل هذه المقاطعة، ولكنهم تلقوا تهديدا بالنفي فلم يجرءوا على تنفيذها، واكتفوا بأن أرسلوا إلينا يوم اجتماعنا خطاب شكر وتشجيع.



كذلك فقد فكرنا ذات يوم من الأيام في إرسال نجدة لخلاص سعد باشا وإعادته إلى مصر، وبحثنا الموضوع والأساليب التي تؤدي لنجاحه، ولو ترتب على ذلك نفينا نحن أيضا، وقد وجدنا أن الطريق بعيد والمسالك وعرة، فضلاً عن إننا لم نتعود القيام بمثل هذا العمل الخطر، فقررنا الاكتفاء مؤقتًا بالدعاية لمقاطعة البضائع الإنجليزية وإنما روح الثورة في نفوس المصريين، وصرنا نعقد الاجتماعات المتوالية في منزل سعد وفي منزلنا، ونحرص على مواساة زوجته المسكينة في هذه المحنة.

الثورة والاحتجاج

ولقد كان الإنجليز في تلك الأثناء قد وجهوا إلى سعد باشا زغلول إنذارا بالكف عن العمل في السياسة، وبالبقاء في بلدته بعيدا عن كل نشاط سياسي. وقد رد سعد باشا على الماريشال اللنبي برسالة مقتضبة قوية الحجة قال فيها: "لقد اختارتني الأمة للمطالبة باستقلالها، ولا أعترف لغير الأمة بسلطة إعفائي من هذه المهمة، وللقوة أن تصنع بي ما تشاء".

وفي الساعة الثامنة والنصف من صباح يوم الجمعة ٢٣ ديسمبر ١٩٢١، اقتحمت فصيلة من الجنود الإنجليز بيت

الأمة، واعتقلت سعدا، وذهبت به إلى جزيرة سيشل التي اختارها الإنجليز منفى له..

ولم تكد هذه الأخبار تعرف وتنتشر، حتى نشبت الثورة واندلعت نيرانها في القاهرة، وتأججت منتقلة إلى الوجه البحري والوجه القبلي إلى أن عمت مصر كلها.

وقد سار الشعب رحلة شديدة المراس في جهاده ضد الإنجليز وكان جهادا مليئًا بأعمال البطولة، وجدير بالذكر أنه على إثر قيام الثورة، اتحدت الصفوف من جديد، وزالت الخلافات الحزبية، وأصبح المصريون جميعهم رجلاً واحدا في الكفاح والجهاد.

ولقد كانت المظاهرات الصاخبة تجتاح كل نواحي القاهرة وتحتشد في الشوارع والميادين، وكانت هذه المظاهرات تواجه بأزيز رصاص الجنود البريطانيين ووقع حوافر فرسان الجيش الإنجليزي وعلى ظهورها الضباط والجنود وقد لمعت سيوفهم في محاولة لإخماد ثورة الشعب، فلا يجدون من المتظاهرين إلا كل أنواع البطولة والبسالة، رغم العشرات الذين كانوا يهوون تحت سنابك الخيل أو يسقطون قتلى بالرصاص.

وخلال هذه الملحمة الشعبية الهائلة، كتبت هذا الاحتجـاج الذي هو أقرب ما يكون إلـى الإنـذار، وبعثـت بـه إلـى الماريشال اللنبي في ٢٥ ديسمبر ١٩٢١، نيابة عن السيدات المصريات:

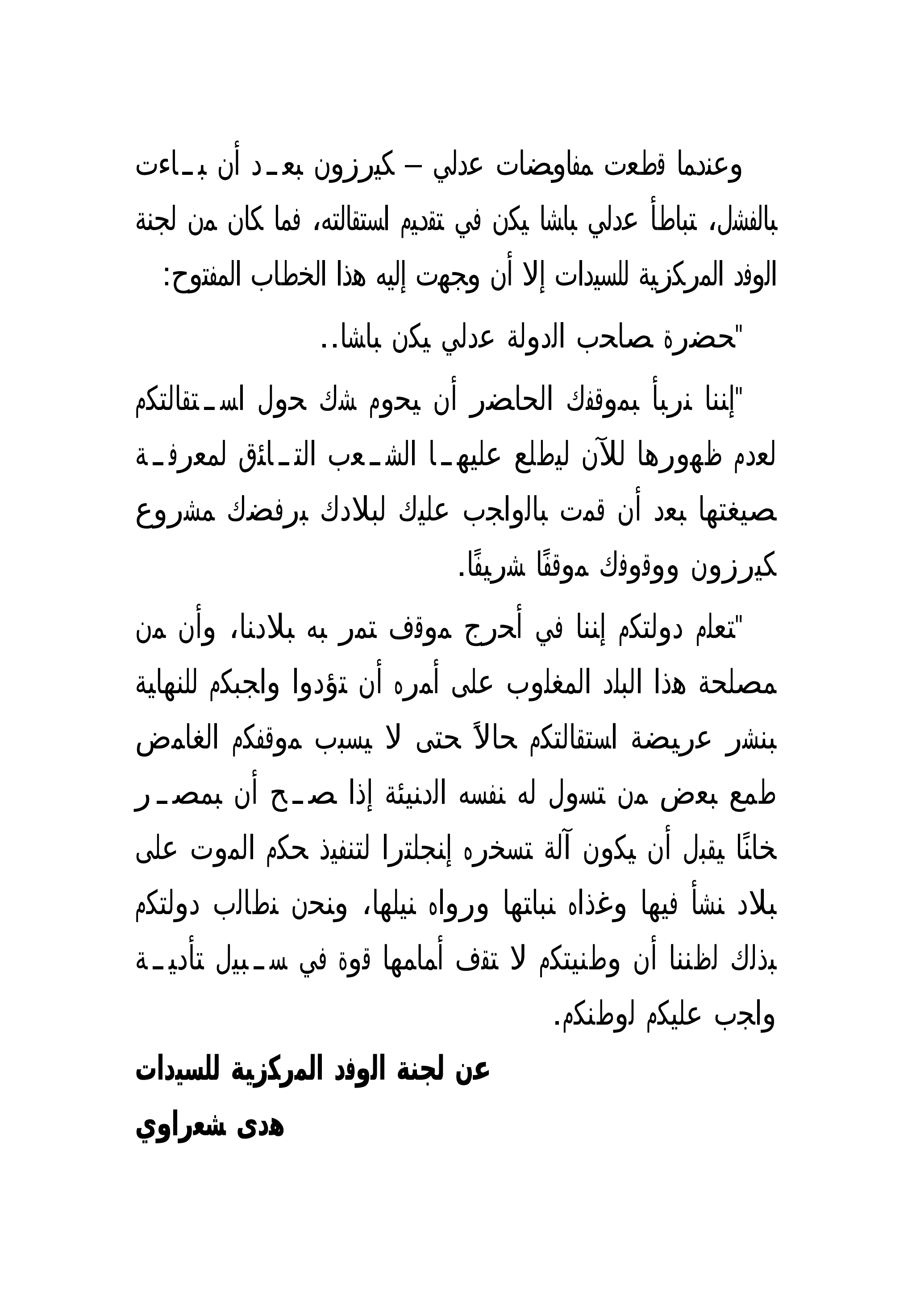
"إذا كنت يا صاحب الفخامة تعتقد في نفسك القدرة علـى خنق صوت الأمة المصرية بإبعاد الرجل الذي عهدت إليـه بأن يتكلم باسمها، فارجع عن هذا الاعتقاد أيضا، إذ إن القوة تفنى والحق يبقى!.. وسوف نواصل احتجاجنا بـلا انقطـاع على التدابير الجائرة الظالمة التي تتخذها فخامتـك ضـدنا، وهي تدابير لن تؤدي إلا إلى إثارة غضب الشعب وغضـب ا !..

عن السيدات المصريات

هدى شعراوي

خطاب مفتوح

ولقد حرصت لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات أن تكون في قلب الأحداث في هذه الفترة الحاسمة مـن تـاريخ مصر، وكانت تتابع كل التطورات السياسية وتعبر عن رأيها في المواقف والأحداث دون أن يعنيها الأشخاص.



وعندما قطعت مفاوضات عدلي – كيرزون بعد أن باءت بالفشل، تباطأ عدلي باشا يكن في تقديم استقالته، فما كان من لجنة الوفد المركزية للسيدات إلا أن وجهت إليه هذا الخطاب المفتوح:

"حضرة صاحب الدولة عدلي يكن باشا..

"إننا نربأ بموقفك الحاضر أن يحوم شك حول استقالتكم لعدم ظهورها للآن ليطلع عليها الشعب التائق لمعرفة صيغتها بعد أن قمت بالواجب عليك لبلادك برفضك مشروع كيرزون ووقوفك موقفًا شريفًا.

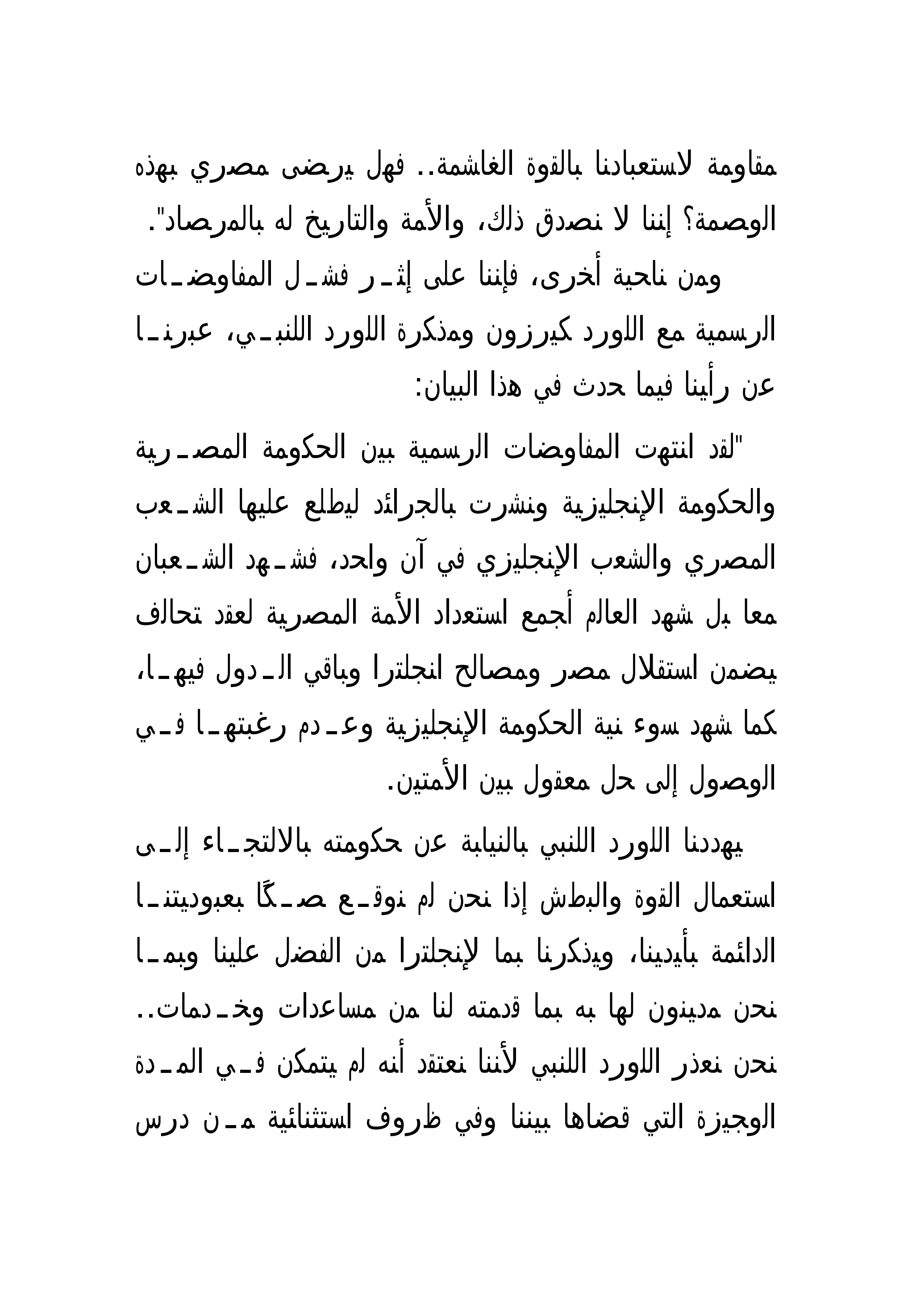
"تعلم دولتكم إننا في أحرج موقف تمر به بلادنا، وأن من مصلحة هذا البلد المغلوب على أمره أن تؤدوا واجبكم للنهاية بنشر عريضة استقالتكم حالاً حتى لا يسبب موقفكم الغامض طمع بعض من تسول له نفسه الدنيئة إذا صح أن بمصر خائنًا يقبل أن يكون آلة تسخره إنجلترا لتنفيذ حكم الموت على بلاد نشأ فيها وغذاه نباتها ورواه نيلها، ونحن نطالب دولتكم بذلك لظننا أن وطنيتكم لا تقف أمامها قوة في سبيل تأدية واجب عليكم لوطنكم.

عن لجنة الوفد المركزية للسيدات

هدى شعراوي

وبعد أن تناثرت الشائعات عن استقالة عدلي باشا يكـن، نتيجة فشل المفاوضات التي أجراها مع اللورد كيرزون، كان المتوقع أن تعيش البلاد فترة مماثلة لتلك التي عاشتها من قبل عقب استقالة وزارة حسين رشدي باشا، ولكن ظهر في ذلك الوقت احتمال قبول أحد المصريين تشكيل الوزارة؛ فواكبت لجنة الوفد المركزية للسيدات هذا الموقف الجديد، ونشـرت هذه الكلمة في الصحف:

"لقد أدى عدلي باشا الواجـب عليـه برفضـه مشـروع كيرزون وتقديم استقالته وإن كانت لم تظهر صيغتها لـلآن. غير إننا نسمع أن وزارة ستشكل، وإننـا إزاء ذلـك لنقـف مندهشين لا نكاد نصدق أن يوجد مصري تسمح له وطنيتـه أن يقبل الوزارة في أحرج وقت تمر به بلادنا المغلوبة على أمرها، إذا صح أن بمصر خائنًا يقبل أن يكون آلة تسـخره إنجلترا لتنفيذ حكم الموت على بلاده التي نشأ فيهـا وغـذاه نباتها ورواه نيلها، بعد أن ظهرت نيات إنجلترا الاستعمارية في مشروع كيرزون ومذكرة اللورد اللنبي، وبعد أن ظهـر ظهور الشمس أن إنجلترا تريد أن تكون الوزارة المصـرية عونًا لها على تنفيذ سياستها وقتل روح الوطنية ومحو كـل



مقاومة لاستعبادنا بالقوة الغاشمة.. فهل يرضى مصري بهذه الوصمة؟ إننا لا نصدق ذلك، والأمة والتاريخ له بالمرصاد".

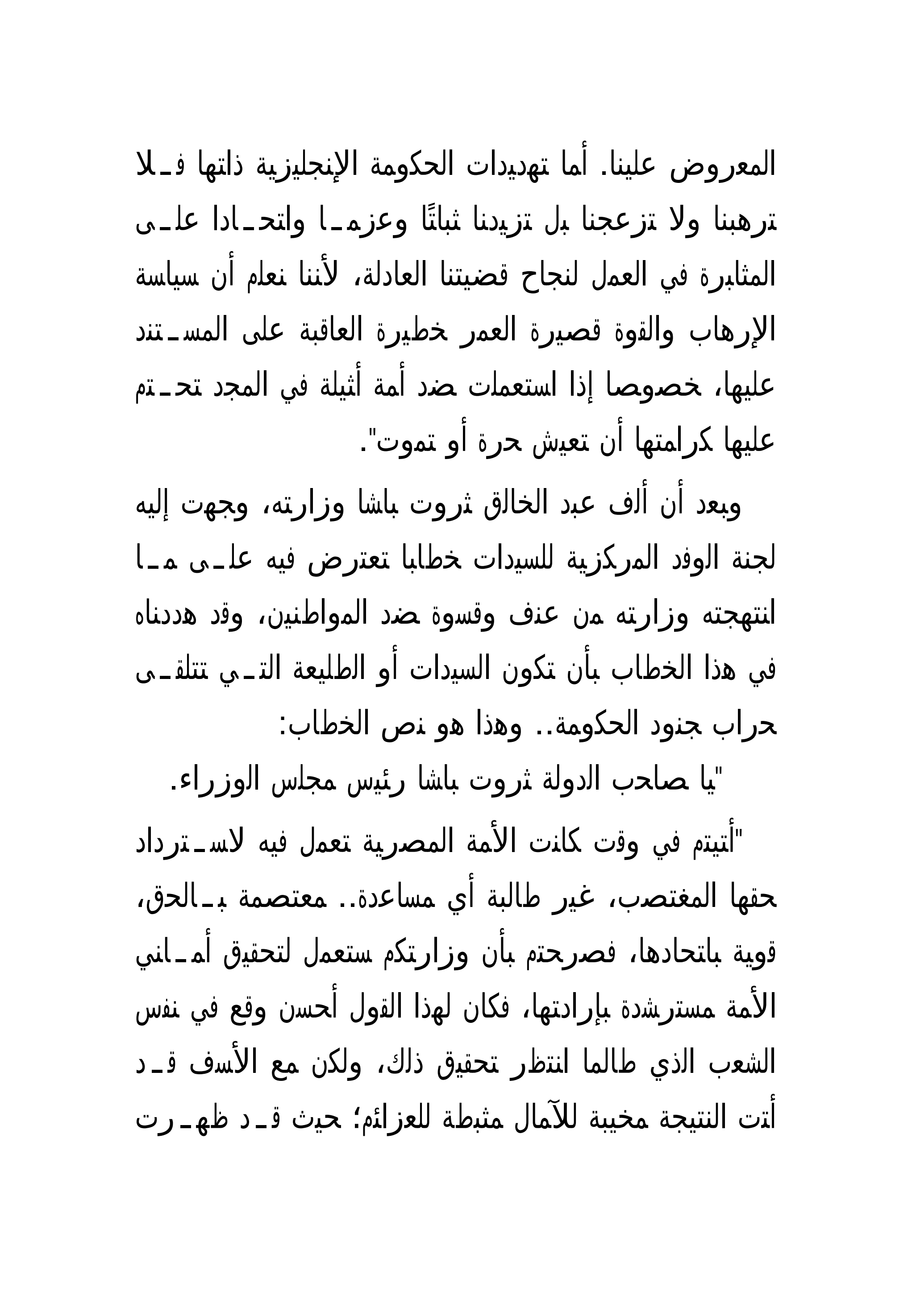
ومن ناحية أخرى، فإننا على إثر فشل المفاوضات الرسمية مع اللورد كيرزون ومذكرة اللورد اللنبي، عبرنا عن رأينا فيما حدث في هذا البيان:

"لقد انتهت المفاوضات الرسمية بين الحكومة المصرية والحكومة الإنجليزية ونشرت بالجرائد ليطلع عليها الشعب المصري والشعب الإنجليزي في آن واحد، فشهد الشعبان معا بل شهد العالم أجمع استعداد الأمة المصرية لعقد تحالف يضمن استقلال مصر ومصالح انجلترا وباقي الدول فيها، كما شهد سوء نية الحكومة الإنجليزية وعدم رغبتها في الوصول إلى حل معقول بين الأمتين.

يهددنا اللورد اللنبي بالنيابة عن حكومته بالالتجاء إلى استعمال القوة والبطش إذا نحن لم نوقع صكًا بعبوديتنا الدائمة بأيدينا، ويذكرنا بما لإنجلترا من الفضل علينا وبما نحن مدينون لها به بما قدمته لنا من مساعدات وخدمات.. نحن نعذر اللورد اللنبي لأننا نعتقد أنه لم يتمكن في المدة الوجيزة التي قضاها بيننا وفي ظروف استثنائية من درس

أخلاقنا وقوميتنا، وإن كنا لا نغنه على جهل تام من معرفـة تاريخنا المجيد. وكذلك نعذر الحكومة الإنجليزية الحالية لأنها استعمارية وقد أعمتها مطامعها عن النظـر إلـى الحقـائق وتقدير العواقب. ولكننا لا نجد عذرا ننتحله للأمة الإنجليزية بل وللأمم المتمدينة الأخرى إذا كانت هي أيضا تنظر بعيني اللورد اللنبي وحكومته، ولم تحسب حسابا للانقـلاب الـذي سيحدث في نفوس المصريين من قرب اليأس إلـى قلـوبهم، ولم تستدرك الأمر. إذا كان الإنجليزي فضل علينـا، فـذلك الفضل راجع إلى اللورد كيرزون الذي أدى إلينا بصـراحة مشروعه خدمة لا تقدر، إذ كشف لنا النقاب عن نوايا إنجلترا الاستعمارية، وأوقفنا على درجة مهارة حكومتها من السياسة والحذق.

"فليعلم اللورد اللنبي ولتعلم حكومته أنه إذا كان كما يقول من صالح المصريين أن يعيشوا على وفاق تام مـع الدولـة الإنجليزية، فما من مصري يجهل أنه من صالح إنجلترا أكثر أن تحافظ هي على صداقة الأمة المصرية لها وحسن ثقتهـا بها، وأنه لا يمكننا أن نتجاهل ولا نقدر ما يهدد مصـر بـل والدول الأخرى من الخطر العظيم إذا نحن قبلنا المشـروع

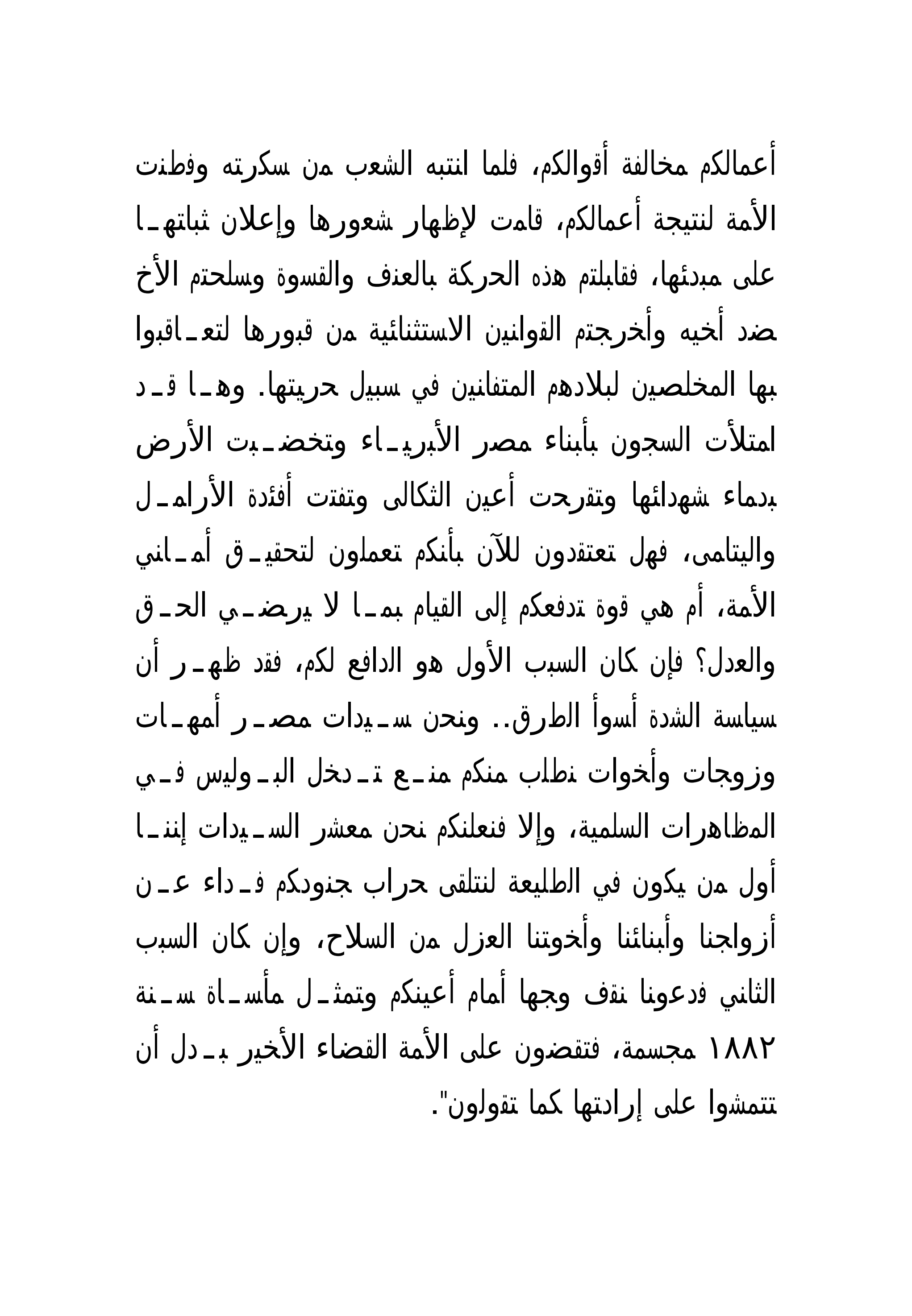


المعروض علينا. أما تهديدات الحكومة الإنجليزية ذاتها فلا ترهبنا ولا تزعجنا بل تزيدنا ثباتًا وعزما واتحادا على المثابرة في العمل لنجاح قضيتنا العادلة، لأننا نعلم أن سياسة الإرهاب والقوة قصيرة العمر خطيرة العاقبة على المستند عليها، خصوصا إذا استعملت ضد أمة أثيلة في المجد تحتم عليها كرامتها أن تعيش حرة أو تموت".

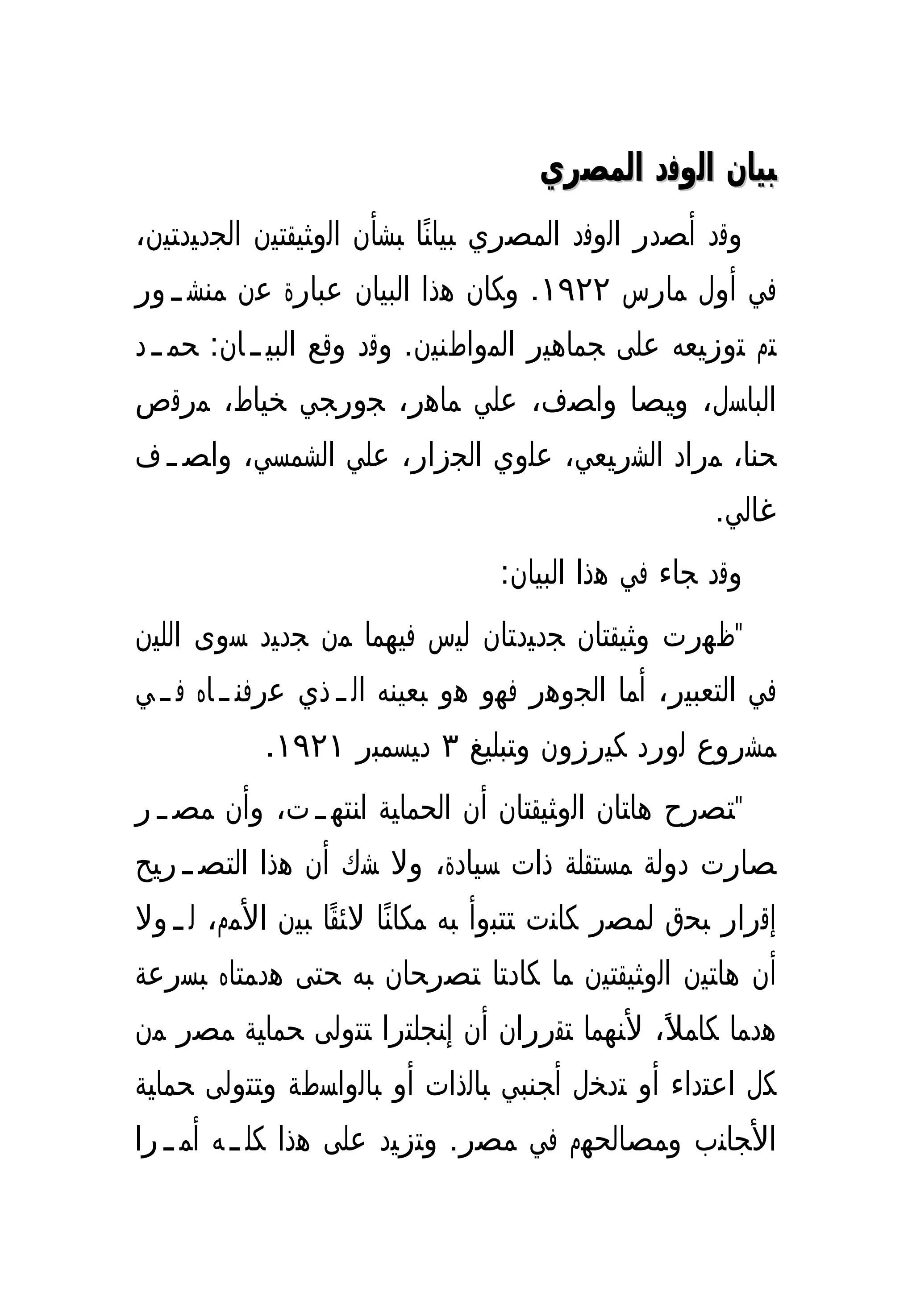
وبعد أن ألف عبد الخالق ثروت باشا وزارته، وجهت إليه لجنة الوفد المركزية للسيدات خطابا تعترض فيه على ما انتهجته وزارته من عنف وقسوة ضد المواطنين، وقد هددناه في هذا الخطاب بأن تكون السيدات أو الطليعة التي تتلقى حراب جنود الحكومة.. وهذا هو نص الخطاب:

"يا صاحب الدولة ثروت باشا رئيس مجلس الوزراء.

"أتيتم في وقت كانت الأمة المصرية تعمل فيه لاسترداد حقها المغتصب، غير طالبة أي مساعدة.. معتصمة بالحق، قوية باتحادها، فصرحتم بأن وزارتكم ستعمل لتحقيق أماني الأمة مسترشدة بإرادتها، فكان لهذا القول أحسن وقع في نفس الشعب الذي طالما انتظر تحقيق ذلك، ولكن مع الأسف قد أتت النتيجة مخيبة للآمال مثبطة للعزائم؛ حيث قد ظهرت



أعمالكم مخالفة أقوالكم، فلما انتبه الشعب من سكرته وفطنت الأمة لنتيجة أعمالكم، قامت لإظهار شعورها وإعلان ثباتها على مبدئها، فقابلتم هذه الحركة بالعنف والقسوة وسلحتم الأخ ضد أخيه وأخرجتم القوانين الاستثنائية من قبورها لتعاقبوا بها المخلصين لبلادهم المتفانين في سبيل حريتها. وها قد امتلأت السجون بأبناء مصر الأبرياء وتخضبت الأرض بدماء شهدائها وتقرحت أعين الثكالى وتفتت أفئدة الأرامل واليتامى، فهل تعتقدون للآن بأنكم تعملون لتحقيق أماني الأمة، أم هي قوة تدفعكم إلى القيام بما لا يرضي الحق والعدل؟ فإن كان السبب الأول هو الدافع لكم، فقد ظهر أن سياسة الشدة أسوأ الطرق.. ونحن سيدات مصر أمهات وزوجات وأخوات نطالب منكم منع تدخل البوليس في المظاهرات السلمية، وإلا فنعلنكم نحن معشر السيدات إننا أول من يكون في الطليعة لنتلقى حراب جنودكم فداء عن أزواجنا وأبنائنا وأخوتنا العزل من السلاح، وإن كان السبب الثاني فدعونا نقف وجها أمام أعينكم وتمثل مأساة سنة ١٨٨٢ مجسمة، فتقضون على الأمة القضاء الأخير بدل أن تتمشوا على إرادتها كما تقولون".



بيان الوفد المصري

وقد أصدر الوفد المصري بيانًا بشأن الوثيقتين الجديدتين، في أول مارس ١٩٢٢. وكان هذا البيان عبارة عن منشور تم توزيعه على جماهير المواطنين. وقد وقع البيان: حمد الباسل، ويصا واصف، علي ماهر، جورجي خياط، مرقص حنا، مراد الشريعي، علوي الجزار، علي الشمسي، واصف غالي.

وقد جاء في هذا البيان:

"ظهرت وثيقتان جديدتان ليس فيهما من جديد سوى اللين في التعبير، أما الجوهر فهو هو بعينه الذي عرفناه في مشروع لورد كيرزون وتبليغ ٣ ديسمبر ١٩٢١.

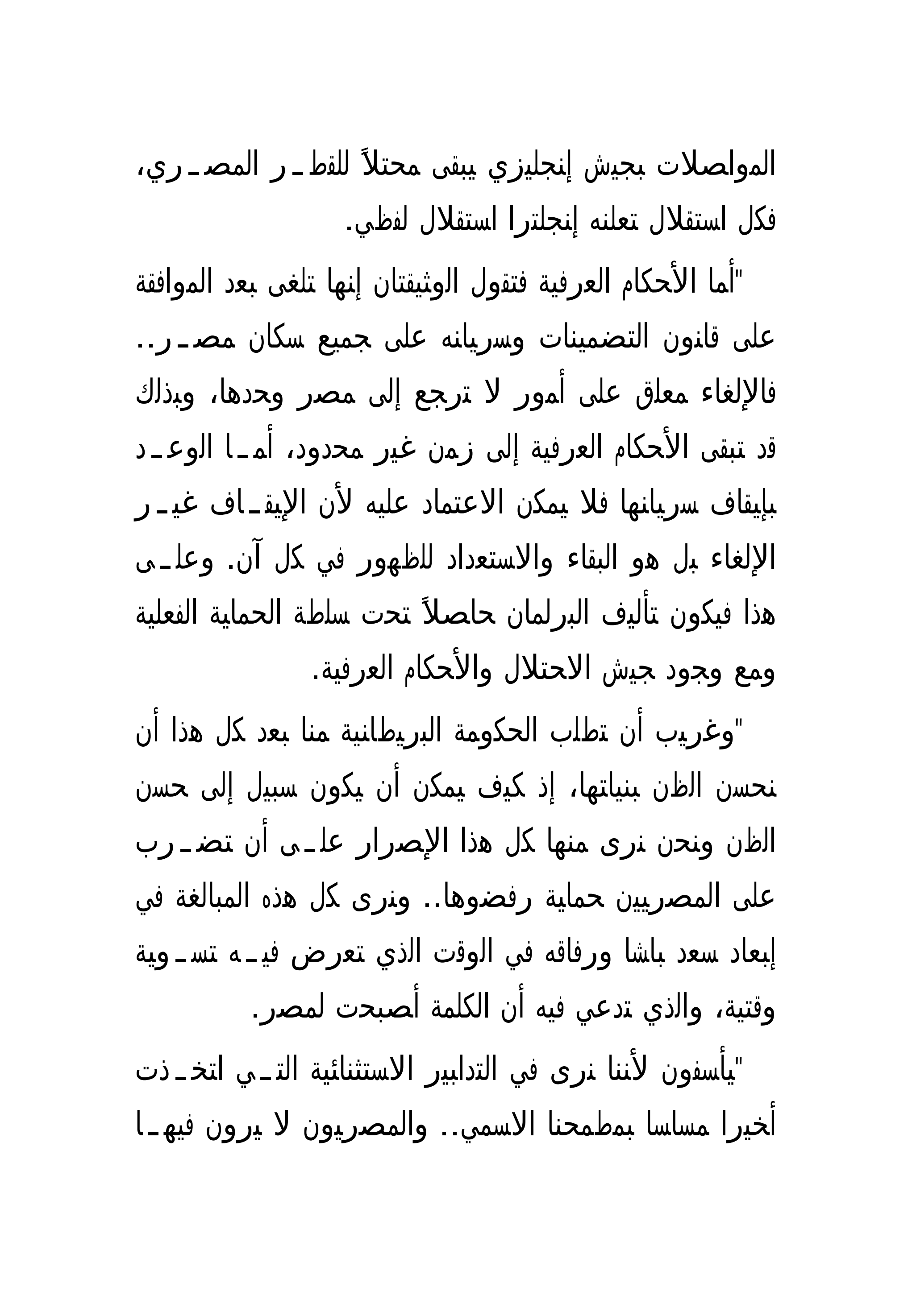
"تصرح هاتان الوثيقتان أن الحماية انتهت، وأن مصر صارت دولة مستقلة ذات سيادة، ولا شك أن هذا التصريح إقرار بحق لمصر كانت تتبوأ به مكانًا لائقًا بين الأمم، لولا أن هاتين الوثيقتين ما كادتا تصرحان به حتى هدمتاه بسرعة هدما كاملاً، لأنهما تقرران أن إنجلترا تتولى حماية مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبي بالذات أو بالواسطة وتتولى حماية الأجانب ومصالحهم في مصر. وتزيد على هذا كله أمرا

جديدا تقتضيه إنجلترا لنفسها وهو إنها هـي التـي تحمـي الأقليات، وهو تدخل بين الحكومة المصرية ورعاياها الـذين أجمعوا بأقليتهم وأكثريتهم على الخلاص من الحكم الأجنبي.

"فالدول على هذا لا تعرف لمصر مركزا دوليا غير إنهـا محمية بالسلطة الإنجليزية خارجا، وهذه السلطة هي نفسـها التي تحمي الأجانب والأقليات داخلاً، وليس هذا وذاك سوى الحماية قانونًا وفعلاً.

"وأما القول بأن هذه المسائل مؤقتة حتـى يحـين وقـت المفاوضات فلا يغير في الموضـوع شـيئًا، لأن التصـريح بإلغاء الحماية جاء في وثيقة واحدة مقترنًا بهذه القيود، ولأن تحديد وقت المفاوضة ليس من حق مصر وحدها. ومصـر التي تعاني الاحتلال المؤقت منذ أربعين سنة أعرف الـبلاد بالتسويات المؤقتة، على أن المفاوضات قد لا تفلـح، فتبقـى الضمانات التي احتفظت بها إنجلترا في يدها.

"ومتى كانت الحماية الفعلية باقية علـى هـذه الصـورة، وكانت انجلترا لا تزال تعتبـر مصـر كلهـا جـزءا مـن مواصلاتها الإمبراطورية وتحفظ في يدها حق تـأمين هـذه


المواصلات بجيش إنجليزي يبقى محتلاً للقطر المصري، فكل استقلال تعلنه إنجلترا استقلال لفظي.

"أما الأحكام العرفية فتقول الوثيقتان إنها تلغى بعد الموافقة على قانون التضمينات وسريانه على جميع سكان مصر.. فالإلغاء معلق على أمور لا ترجع إلى مصر وحدها، وبذلك قد تبقى الأحكام العرفية إلى زمن غير محدود، أما الوعد بإيقاف سريانها فلا يمكن الاعتماد عليه لأن الإيقاف غير الإلغاء بل هو البقاء والاستعداد للظهور في كل آن. وعلى هذا فيكون تأليف البرلمان حاصلاً تحت سلطة الحماية الفعلية ومع وجود جيش الاحتلال والأحكام العرفية.

"وغريب أن تطلب الحكومة البريطانية منا بعد كل هذا أن نحسن الظن بنياتها، إذ كيف يمكن أن يكون سبيل إلى حسن الظن ونحن نرى منها كل هذا الإصرار على أن تضرب على المصريين حماية رفضوها.. ونرى كل هذه المبالغة في إبعاد سعد باشا ورفاقه في الوقت الذي تعرض فيه تسوية وقتية، والذي تدعي فيه أن الكلمة أصبحت لمصر.

"يأسفون لأننا نرى في التدابير الاستثنائية التي اتخذت أخيرا مساسا بمطمحنا الاسمي.. والمصريون لا يرون فيها

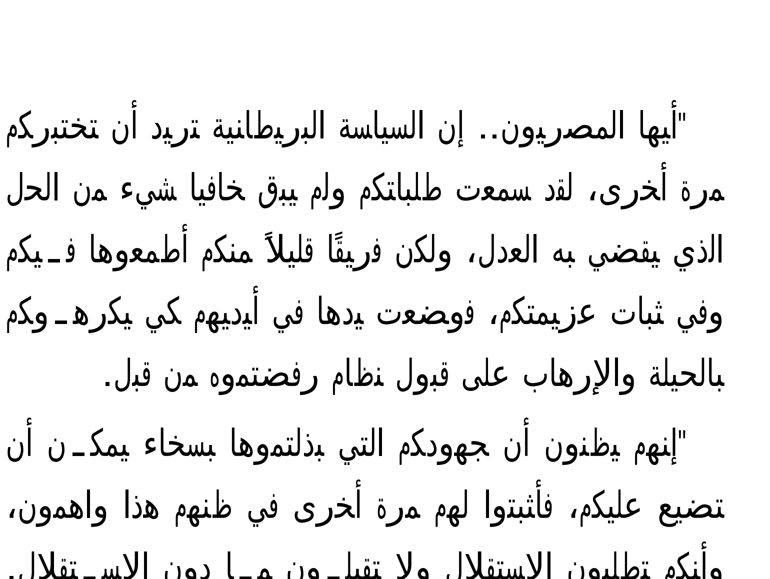
ذلك المساس لأن هذا المطمح أرفع من أن يمس. إنما يرون فيها مساسا بكرامتهم وشرفهم القومي، ويرون فيها إخلالاً بمبادئ العدل الأولية.

"حريتنا الشخصية مصادرة.. وحريتنا السياسية مخنوقة، والصحافة ما بين مكممة ومعطلة لا تستطيع نشر آراء الأفراد والهيئات في الحالة الجديدة. والاجتماعات العامة محرمة.. وزعيم البلاد رأس الحركة الوطنية مبعد عن الوطن.. والوطنيون مهددون بالنفي والاعتقال، كل هذا ويريدون أن يقنعونا بأن ذلك في مصلحتنا.

"حقًا إن مصلحتنا ومصلحتهم تقتضيان بأن يوضع حد لهذا الهياج، ولكن ذلك الهياج ليس إلا وليد سياسة الإرهاب والخديعة التي اتبعت في طول البلاد وعرضها.

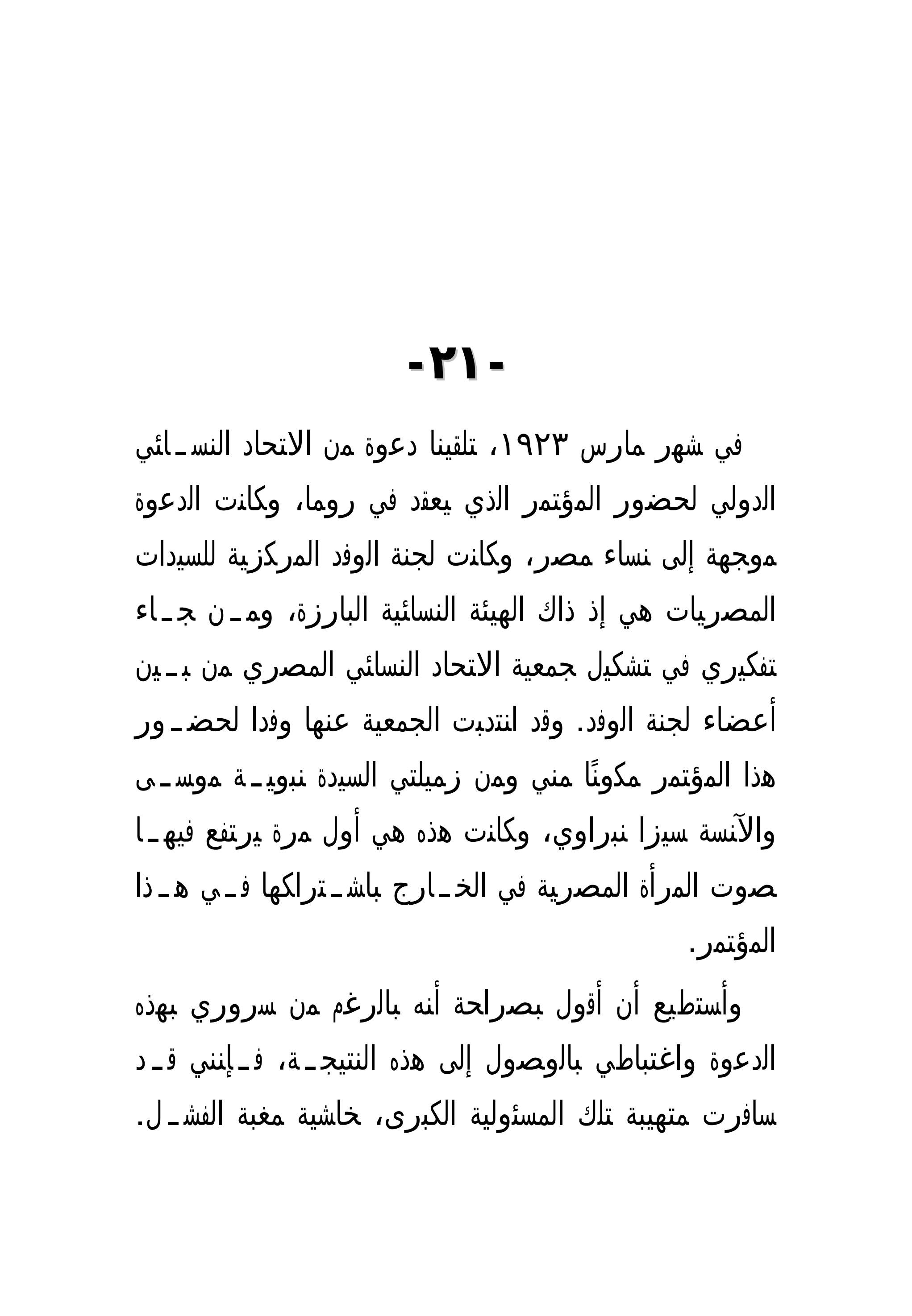
"إن مصلحتنا ومصلحتهم هي في رفع الظلم الذي وقع، وإلغاء التدابير الاستثنائية التي اتخذت، وتحطيم السلال التي تقيد حريتنا، وإعادة سعد والمنفيين إلى بلادهم، ورد المعتقلين السياسيين إلى أهلهم.

"حينذاك تطمئن النفوس ويصبح في الإمكان بحث المسألة المصرية في جو هادئ، فنقول مصر كلها:



"أيها المصريون.. إن السياسة البريطانية تريد أن تختبركم مرة أخرى، لقد سمعت طلباتكم ولم يبق خافيا شيء من الحل الذي يقضي به العدل، ولكن فريقًا قليلاً منكم أطمعوها فيكم وفي ثبات عزيمتكم، فوضعت يدها في أيديهم كي يكرهوكم بالحيلة والإرهاب على قبول نظام رفضتموه من قبل.

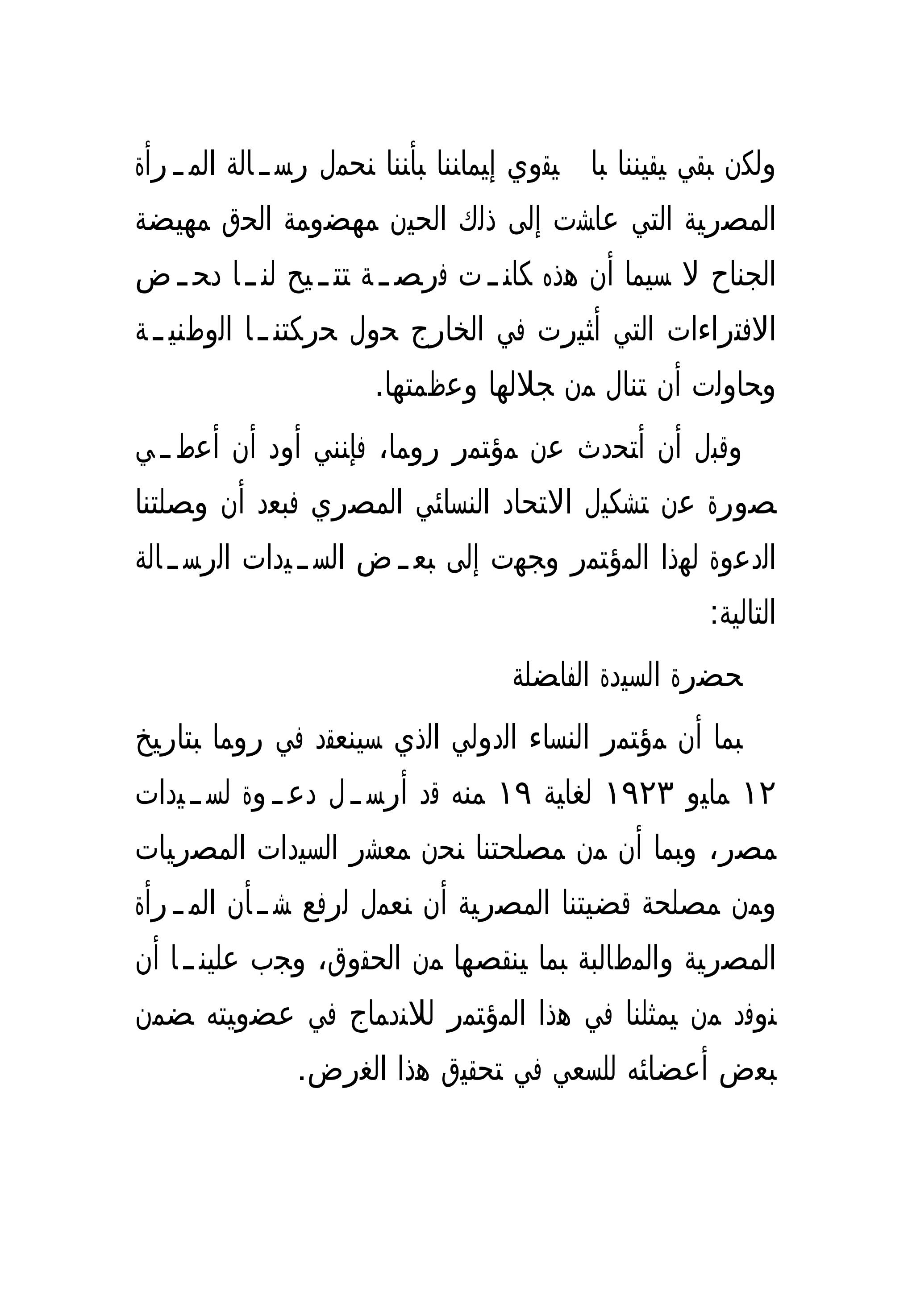
"إنهم يظنون أن جهودكم التي بذلتموها بسخاء يمكن أن تضيع عليكم، فأثبتوا لهم مرة أخرى في ظنهم هذا واهمون، وأنكم تطلبون الاستقلال ولا تقبلون ما دون الاستقلال. "فلتحيا" مصر.. "وليحيا" سعد باشا".



-٢١-

في شهر مارس ١٩٢٣، تلقينا دعوة من الاتحاد النسائي الدولي لحضور المؤتمر الذي يعقد في روما، وكانت الدعوة موجهة إلى نساء مصر، وكانت لجنة الوفد المركزية للسيدات المصريات هي إذ ذاك الهيئة النسائية البارزة، ومن جاء تفكيري في تشكيل جمعية الاتحاد النسائي المصري من بين أعضاء لجنة الوفد. وقد انتدبت الجمعية عنها وفدا لحضور هذا المؤتمر مكونًا مني ومن زميلتي السيدة نبوية موسى والآنسة سيزا نبراوي، وكانت هذه هي أول مرة يرتفع فيها صوت المرأة المصرية في الخارج باشتراكها في هذا المؤتمر.

وأستطيع أن أقول بصراحة أنه بالرغم من سروري بهذه الدعوة واغتباطي بالوصول إلى هذه النتيجة، فإنني قد سافرت متهيبة تلك المسئولية الكبرى، خاشية مغبة الفشل.

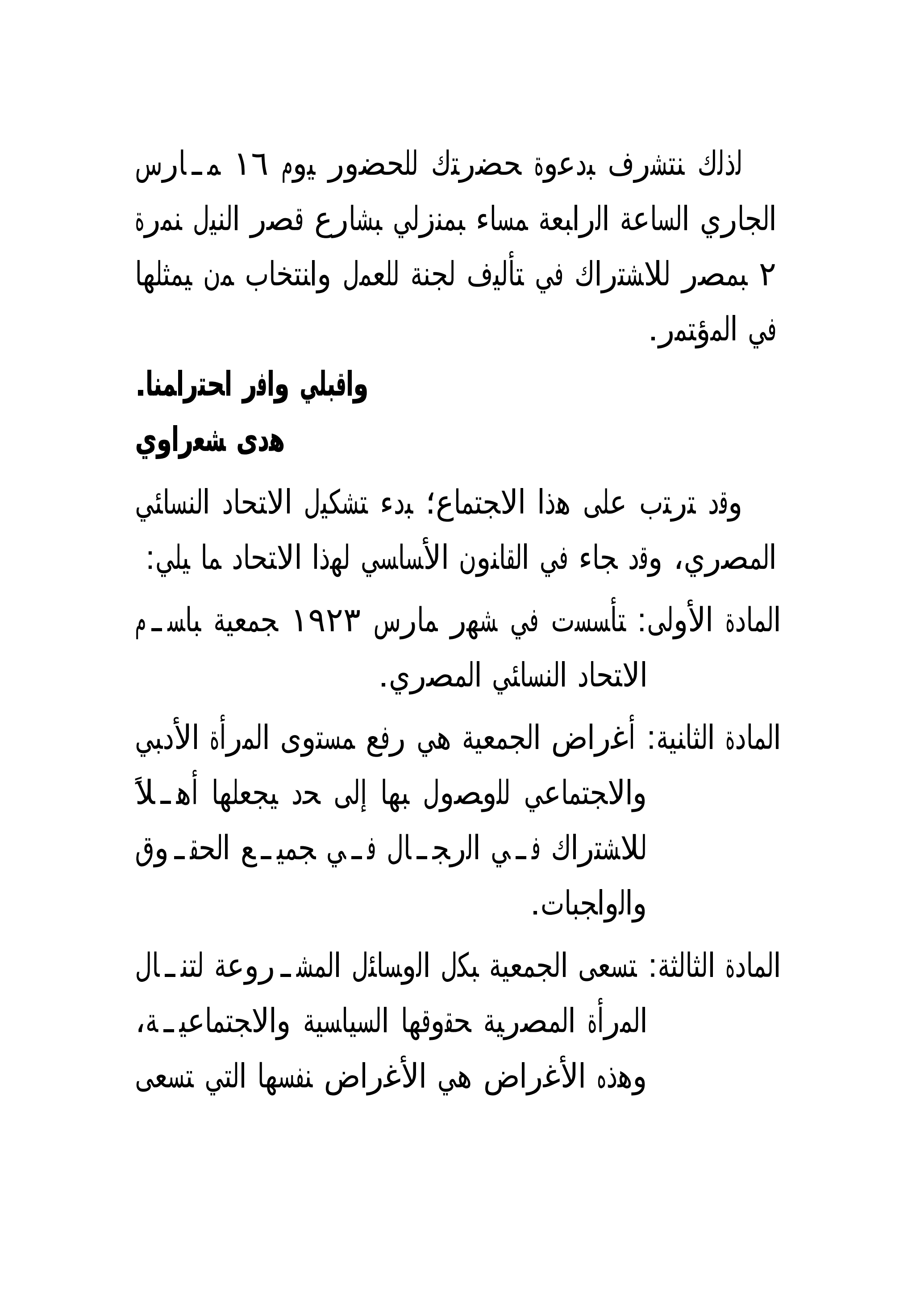


ولكن بقي يقيننا با يقوي إيماننا بأننا نحمل رسالة المرأة المصرية التي عاشت إلى ذلك الحين مهضومة الحق مهيضة الجناح لا سيما أن هذه كانت فرصة تتيح لنا دحض الافتراءات التي أثيرت في الخارج حول حركتنا الوطنية وحاولت أن تنال من جلالها وعظمتها.

وقبل أن أتحدث عن مؤتمر روما، فإنني أود أن أعطي صورة عن تشكيل الاتحاد النسائي المصري فبعد أن وصلتنا الدعوة لهذا المؤتمر وجهت إلى بعض السيدات الرسالة التالية:

حضرة السيدة الفاضلة

بما أن مؤتمر النساء الدولي الذي سينعقد في روما بتاريخ ١٢ مايو ١٩٢٣ لغاية ١٩ منه قد أرسل دعوة لسيدات مصر، وبما أن من مصلحتنا نحن معشر السيدات المصريات ومن مصلحة قضيتنا المصرية أن نعمل لرفع شأن المرأة المصرية والمطالبة بما ينقصها من الحقوق، وجب علينا أن نوفد من يمثلنا في هذا المؤتمر للاندماج في عضويته ضمن بعض أعضائه للسعي في تحقيق هذا الغرض.



لذلك نتشرف بدعوة حضرتك للحضور يوم ١٦ مـارس الجاري الساعة الرابعة مساء بمنزلي بشارع قصر النيل نمرة ٢ بمصر للاشتراك في تأليف لجنة للعمل وانتخاب من يمثلها في المؤتمر.

واقبلي وافر احترامنا.

هدى شعراوي

وقد ترتب على هذا الاجتماع؛ بدء تشكيل الاتحاد النسائي المصري، وقد جاء في القانون الأساسي لهذا الاتحاد ما يلي:

المادة الأولى: تأسست في شهر مارس ١٩٢٣ جمعية باسـم الاتحاد النسائي المصري.

المادة الثانية: أغراض الجمعية هي رفع مستوى المرأة الأدبي والاجتماعي للوصول بها إلى حد يجعلها أهـلاً للاشتراك فـي الرجـال فـي جميـع الحقـوق والواجبات.

المادة الثالثة: تسعى الجمعية بكل الوسائل المشـروعة لتنـال المرأة المصرية حقوقها السياسية والاجتماعيـة، وهذه الأغراض هي الأغراض نفسها التي تسعى

في تحقيقها جمعية الاتحاد النسائي المصري أن تكون ممثلة لها في مصر.

المادة الرابعة: تمثل هذه الهيئة جمعية عمومية ومجلس إدارة.

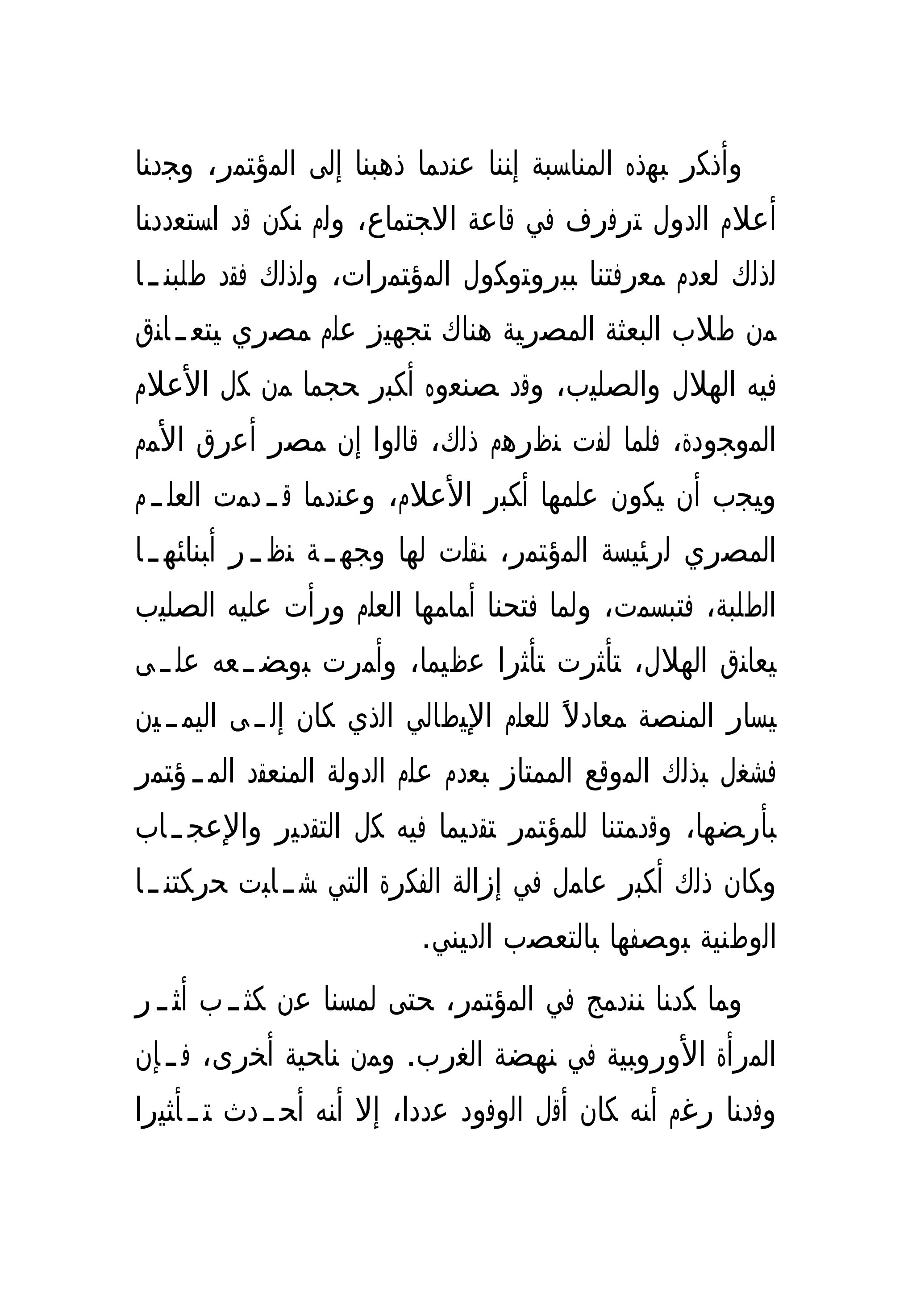
المادة الخامسة: تتألف الجمعية العمومية من أعضاء مشتركات وأعضاء مراسلات.

المادة السادسة: يتألف مجلس الإدارة من عشرين عضوا ينتخبن بواسطة الجمعية العمومية ومن بين أعضائها المشتركات.

وبعد ذلك تأتي المواد الإدارية والتنظيمية.

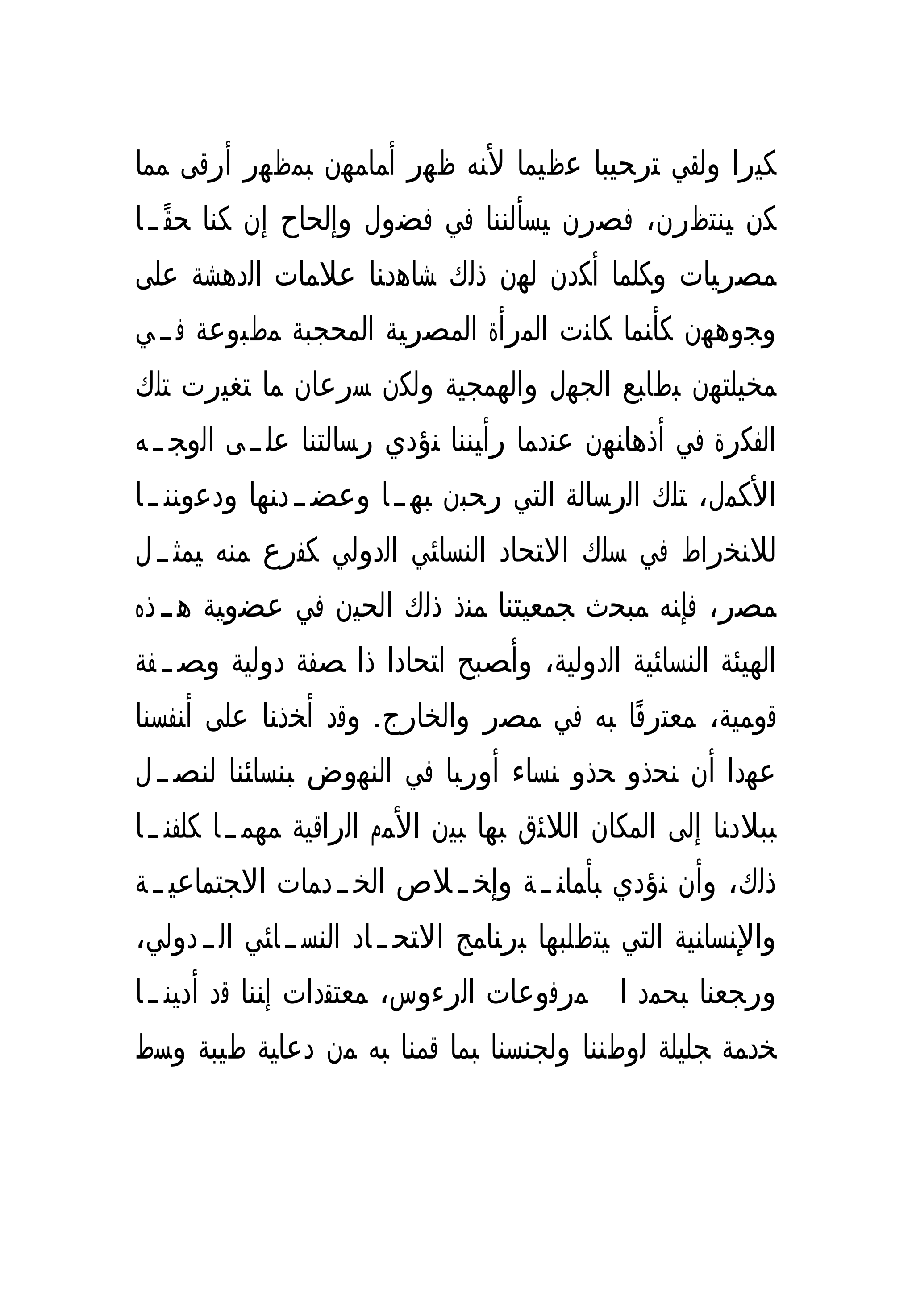
مؤتمر روما

ونعود بعد ذلك إلى اشتراكنا في المؤتمر الدولي الذي عقد في روما في مارس ١٩٢٣، فعندما وصلنا إلى روما، وجدناها تغص بمندوبات الدول الست والثلاثين التي اشتركت في هذا المؤتمر، وكانت كل دولة قد أوفدت أكثر من عشرين مندوبة عدا الصحافيات والصحافيين والوافدات لمشاهدة المؤتمر.



وأذكر بهذه المناسبة إننا عندما ذهبنا إلى المؤتمر، وجدنا أعلام الدول ترفرف في قاعة الاجتماع، ولم نكن قد استعددنا لذلك لعدم معرفتنا ببروتوكول المؤتمرات، ولذلك فقد طلبنا من طلاب البعثة المصرية هناك تجهيز علم مصري يتعانق فيه الهلال والصليب، وقد صنعوه أكبر حجما من كل الأعلام الموجودة، فلما لفت نظرهم ذلك، قالوا إن مصر أعرق الأمم ويجب أن يكون علمها أكبر الأعلام، وعندما قدمت العلم المصري لرئيسة المؤتمر، نقلت لها وجهة نظر أبنائها الطلبة، فتبسمت، ولما فتحنا أمامها العلم ورأت عليه الصليب يعانق الهلال، تأثرت تأثرا عظيما، وأمرت بوضعه على يسار المنصة معادلاً للعلم الإيطالي الذي كان إلى اليمين فشغل بذلك الموقع الممتاز بعدم علم الدولة المنعقد المؤتمر بأرضها، وقدمتنا للمؤتمر تقديما فيه كل التقدير والإعجاب وكان ذلك أكبر عامل في إزالة الفكرة التي شابت حركتنا الوطنية بوصفها بالتعصب الديني.

وما كدنا نندمج في المؤتمر، حتى لمسنا عن كثب أثر المرأة الأوروبية في نهضة الغرب. ومن ناحية أخرى، فإن وفدنا رغم أنه كان أقل الوفود عددا، إلا أنه أحدث تأثيرا


كبيرا ولقي ترحيبا عظيما لأنه ظهر أمامهن بمظهر أرقى مما كن ينتظرن، فصرن يسألننا في فضول وإلحاح إن كنا حقًا مصريات وكلما أكدن لهن ذلك شاهدنا علامات الدهشة على وجوههن كأنما كانت المرأة المصرية المحجبة مطبوعة في مخيلتهن بطابع الجهل والهمجية ولكن سرعان ما تغيرت تلك الفكرة في أذهانهن عندما رأيننا نؤدي رسالتنا على الوجه الأكمل، تلك الرسالة التي رحبن بها وعضدنها ودعوننا للانخراط في سلك الاتحاد النسائي الدولي كفرع منه يمثل مصر، فإنه مبحث جمعيتنا منذ ذلك الحين في عضوية هذه الهيئة النسائية الدولية، وأصبح اتحادا ذا صفة دولية وصفة قومية، معترفًا به في مصر والخارج. وقد أخذنا على أنفسنا عهدا أن نحذو حذو نساء أوربا في النهوض بنسائنا لنصل ببلادنا إلى المكان اللائق بها بين الأمم الراقية مهما كلفنا ذلك، وأن نؤدي بأمانة وإخلاص الخدمات الاجتماعية والإنسانية التي يتطلبها برنامج الاتحاد النسائي الدولي، ورجعنا بحمد ا مرفوعات الرءوس، معتقدات إننا قد أدينا خدمة جليلة لوطننا ولجنسنا بما قمنا به من دعاية طيبة وسط

ذلك الجمع الحاشد من مندوبات الـدول السـت والثلاثـين المشتركة في المؤتمر.

ولقد اندمجت جمعيتنا في الاتحاد النسائي الـدولي علـى أساس المطالبة بحقوق المرأة السياسية والمدنية لتخويلها حق الانتخاب، وللعمل على نشر مبادئ السلام وتوطيد دعائمـه، فأصبحت جهود المرأة المصرية عالمية لا محلية فقط، وهذا نصر كبير لبنات القرن العشرين في مصر.

لقد أخطأ الكثيرون فهم المبدأ الأساسي للاتحـاد النسـائي بشأن المطالبة بالمساواة في الحقوق السياسية للمـرأة، فقـد توهموا أن غرضها من الحصول على حريتهـا ومسـاواتها بالرجل في الحقوق هو الوصول إلى السفور ومزاحمة الرجل في مبادئ السياسة والعمل، مما أدى إلى تذمر بعض الرجال، والحقيقة أن مطالبة المرأة بحقها السياسي ليس معناه التدخل في الأمور السياسية والحزبية المحضة، بل للحصول علـى حقها في التشريع والتنفيذ حتى يمكنها المساهمة فـي عـلاج الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وبخاصة ما كان منها متصلاً بشئون المرأة والطفل وكان سفورها من الوسائل اللازمة للحصول على هذا الحق لا حبا في السفور كوسـيلة

للتبرج ولا سيما إلى مزاحمة الرجل كما اتهمت بـذلك زروا وبهتانًا.

حقوق المرأة المصرية

وكنت قد ألقيت خطابا في المؤتمر النسائي الـذي يمثـل مصر، وقد يكون من الأفضل أن أسجل هنا هـذا الخطـاب لتتضح أبعاد الصورة أمام كل الأعين، وهذا هو نص خطابي في المؤتمر:

"أنه ليسرني حقيقة أن أجد نفسي بينكن في هذه الجمعيـة المحترمة التي تمكنت فيها المرأة المصرية لأول مـرة فـي التاريخ من المجيء والمناقشة في حقوقها، وإنني لأجـد مـا يدعو إلى الفخر والغبطة في اختياري لإظهار تلك الرابطـة التي تربط بنات النيل بأخواتهن في أوربا.

حقًا لقد مر عصر طويل كنا نعمل فيه بمعزل عن العـالم أجمع خلا أزواجنا وأقاربنا، فنشأ عن ذلك انزواء شخصـيتنا وبقاؤنا وراء حجاب، على إننا إذا تأملنا في تاريخنا الغـابر رأينا أنه في الوقت الذي كانت مصر فيه تشرق فـي سـماء المجد ويتفجر نورها على البلدان، كانت المـرأة المصـرية تتمتع بحقوق الرجل نفسها. وقد حافظت على هذه الحقـوق

إلى اليوم الذي وقعت فيه مصر تحت نير الأجنبي، وأصاب المرأة ما أصاب نساء الشرق اللاتي ظللن ولا قانون يحميهن من استبداد الرجل وقد بقين في هذا الدرك حتى ظهر الإسلام الذي منح المرأة حقوقًا لم تحصل عليها من قبل، والتي تقاتل وستقاتل المرأة الغربية في سبيل الحصول عليها اليوم وغـدا وبعد غد.

وقد احتفظت المرأة حتى الساعة بهذه الحقوق التي يعترف بها القانون الديني، غير إنها لم تفكر في اسـتعمالها بسـبب الجهل الذي شبت فيه ودرجت أربعة قرون كاملة.

وما أفاقت مصر من سباتها العميق إلا في أوائـل حكـم محمد علي، ذلك المصلح الكبير الذي نهض بالبلاد، وأنشـأ المدارس التي فتح بعضها أبوابها للنسـاء ولـولا الاحـتلال الأجنبي لما وقفت في سيرها هذه الجهود التي كانت تعمـل على رفع مستوى المرأة العقلي، ولكان من المأمول اجتنـاء جمع ثمارها.

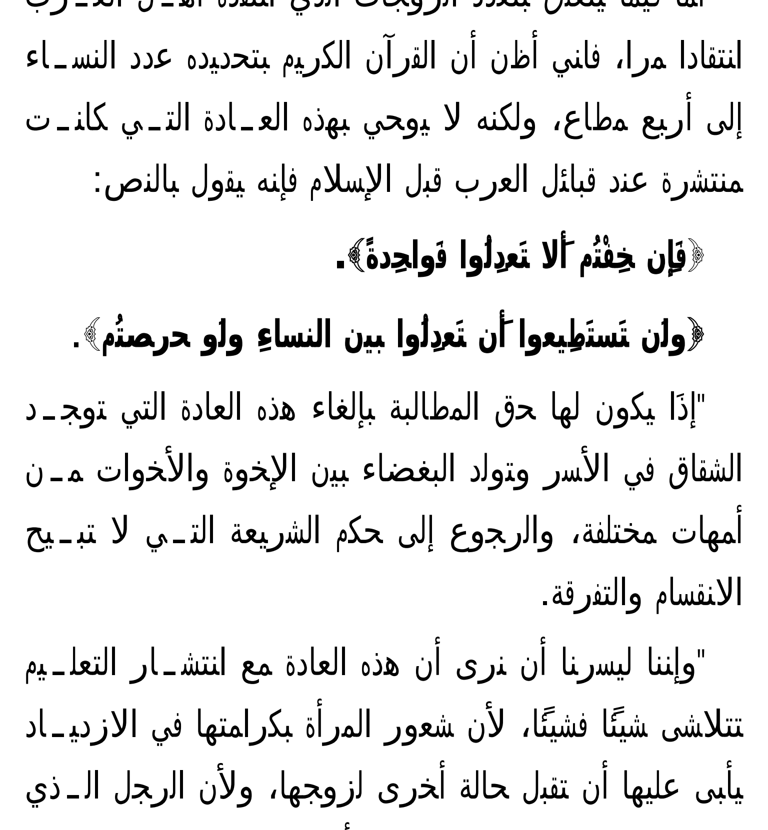
على أن مسألة التعليم الإجباري كانت موضوع المناقشـة والبحث في عهد السلطان حسين، ولكن أولي الأمر قر رأيهم على تأجيل إصدار هذا القانون بصفة نهائية ثلاثين عاما.

وقد حرمت الحكومة البنات ابتداء من سـنة ١٩٠٩ مـن حق أداء امتحان البكالوريا، ثم حرمتهن مـن نيـل شـهادة الدراسة الابتدائية، ولهذا السبب فإن بناتنا اللاتي يتعلمن فـي مدارس الحكومة لا يسمح لهن أن يحترفن إلا إحدى المهنتين مهنة مدرسة ومهنة قابلة.

ولكن لا يجوز أن نغفل هذه الحقيقة الأخـرى، وهـي أن النقاب كان من أكبر العوامل التي أدت بقاء المرأة في درجة من العلم لا متأخر عنها ولا متقدم، ذلك بأنه في سن معينـة يحال دون ذهاب الفتيات إلى معاهد التعليم، ورغما من هـذه العقبات تمكنت الكثيرات منهن من ارتشـاف مناهـل العلـم الراقي وبلوغ مكانة أخواتهن الأوروبيات، وقد قصد بعضهن جامعاتكن لإتمام دراستهن.

وقد بدأت المرأة المصرية – بفضل تعلمهـا ومعرفتهـا حقوقها أكثر من قبل – تظهر الميـل إلـى الاسـتفادة مـن الامتيازات التي يخولها القانون إياها، وها نحن أولاء نراهـا اليوم تحتل مكانة هامة فـي الأسـرة والمجتمـع والحيـاة السياسية.

والآن، فلنخلص الحقوق والمطالب التي سنبسطها غدا.



أما فيما يتعلق بتعدد الزوجات الذي انتقده أهل الغرب انتقادا مرا، فاني أظن أن القرآن الكريم بتحديده عدد النساء إلى أربع مطاع، ولكنه لا يوحي بهذه العادة التي كانت منتشرة عند قبائل العرب قبل الإسلام فإنه يقول بالنص:

﴿فَإِن خِفْتُم أَلا تَعدِلُوا فَواحِدةً﴾.

﴿ولن تَستَطِيعوا أَن تَعدِلُوا بين النساءِ ولُو حرصتُم﴾.

"إذًا يكون لها حق المطالبة بإلغاء هذه العادة التي توجد الشقاق في الأسر وتولد البغضاء بين الإخوة والأخوات من أمهات مختلفة، والرجوع إلى حكم الشريعة التي لا تبيح الانقسام والتفرقة.

"وإننا ليسرنا أن نرى أن هذه العادة مع انتشار التعليم تتلاشى شيئًا فشيئًا، لأن شعور المرأة بكرامتها في الازدياد يأبى عليها أن تقبل حالة أخرى لزوجها، ولأن الرجل الذي يزداد حرصه على السعادة والطمأنينة في البيت لا يفكر اليوم مطلقًا في إدخال عوامل التفرقة من الباب.

"أما الطلاق فإنه وإن كان الرجل هو الذي يلجأ إليه عادة، إلا أن المرأة في وسعها أن تتخذه سلاحا تدافع به عن نفسها،

لأن القانون لا يعترض على استعمالها هذا الحـق. ويمكـن للمـرأة المصـرية أن تحـتفظ بأبنائهـا لغايـة السـابعة أو التاسعة من عمرهم.

"وفيما يتعلق بالوراثة، فإن البنت لا حق لها إلا في نصف ميراث الأخ، ولكن يجب ألا يفوتنا أن مقتضيات الـزواج أن يقوم الرجل بنفقات البيت أيا كانت ثروة زوجتـه. والمـرأة ترث عن زوجها ربع ما يملك إذا لم يكن له ولد، والثُمن في الحالة الأخرى، وللأبناء الذين يعترف بهم أبوهم عين حقوق الوراثة التي يتمتع بها الأبناء الشرعيون.

"وقد أدخلت أخيرا بعض إصلاحات من شـأنها تحسـين حالة المرأة من جهة النفقة التي يطالب بها الزوج في حالـة الانفصال. فإذا لم يدفع المبلغ الذي تراعي المحكمة في تعيينه مقدرته على الدفع، ألقي به فـي السـجن فالرجـل يخشـى الجزاء، والمرأة المهجورة تجد في القانون حماية لها.

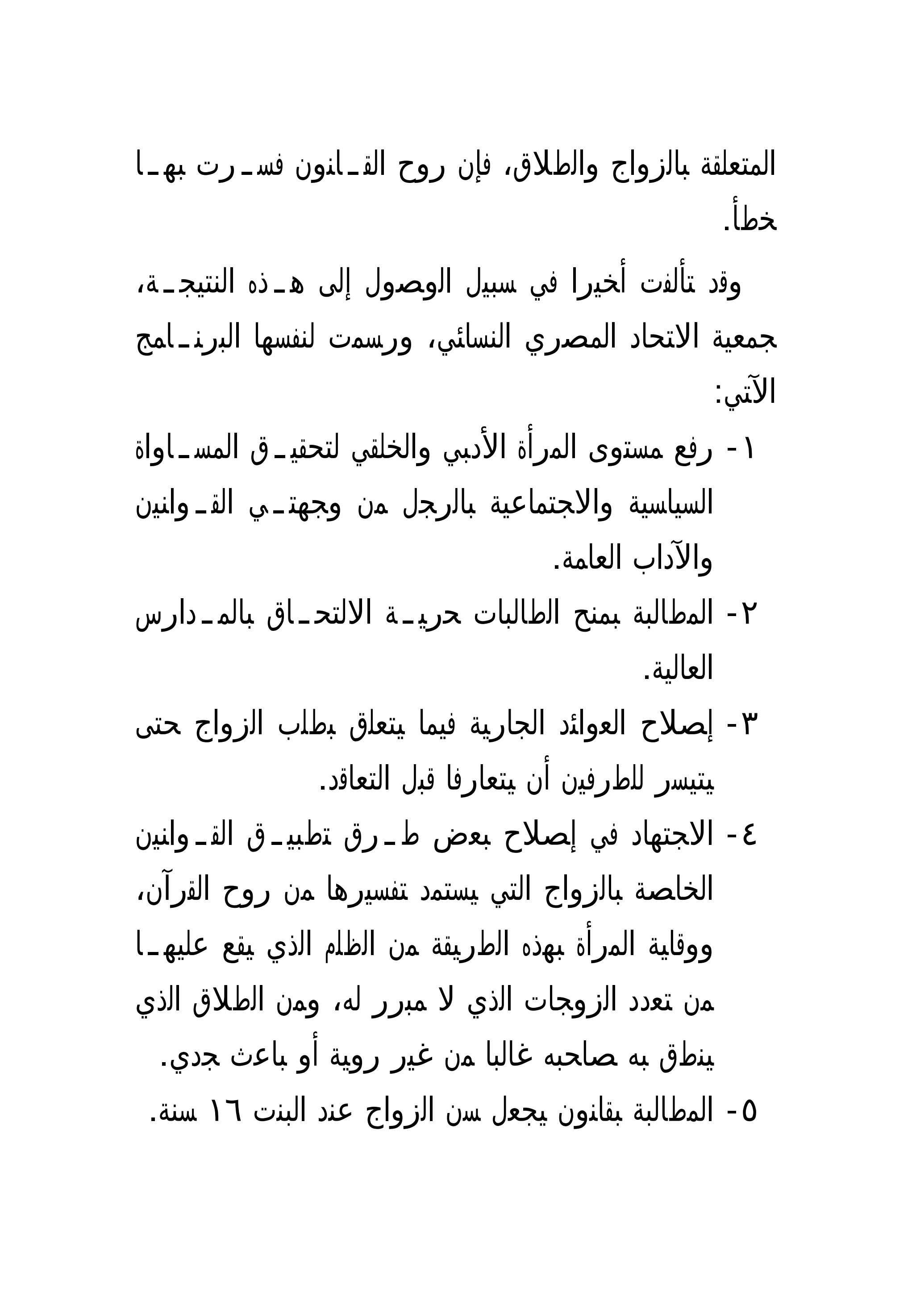
"وتتمتع المرأة المسلمة في الحياة المدنية بكفـاءة كاملـة، لأن القانون يكفل لها الاستقلال التام في التصرف في أملاكها متى بلغت سن الرشد، وفي إمكانها البيع والشراء والوصـية دون وجوب الحصول على تصريح مـن زوجهـا بـذلك،

والاشتراك في أي عمل مالي أو تجـاري بالتسـاوي مـع الرجل، وعدا ذلك فإنها تستمد من القـانون الإسـلام يحـق الاحتفاظ بجنسيتها في حالة ما إذا تزوجت بأجنبي.

ولم تأخذ المرأة إلى الآن من الحياة العامة بنصـيب مـن النشاط، ومنشأ ذلك جهلها، ولكن بما أن القوانين لا تشـتمل على أي تقييد يتعلق بكفاءتها، فسيكون في وسعها متى شاءت أن تطمح إلى الوظائف العمومية وجميع المهن التي يحترفها الرجال والاشتراك في كافة الجمعيات.

"وقد ظهرت المرأة المصرية في صورتها الحقيقيـة فـي حركة سنة ١٩١٩ في الوقت الذي كانت فيه الأمة من أولها إلى آخرها بحاجة إلى قواهـا كلهـا للمطالبـة باسـتقلالها. وشاركت المرأة الرجل في كفاحه السياسـي بتـداخلها فـي الإدارة والكتابة في الجرائد وتأسيس المجلات، وأنشأت بمالها الخاص مدارس حرف للفقراء وملاجئ للمرضـى الفقـراء وكونت جمعيات علمية.

يتبين مما تقدم أن المرأة المصرية التي تتمتع في المجتمع بامتيازات خاصة من وجهة القوانين، ليست بحاجة لتصـبح مساوية للرجل إلا إلى التعلم والمطالبة بإصلاح بعض العوائد



المتعلقة بالزواج والطلاق، فإن روح القـانون فسـرت بهـا خطأ.

وقد تألفت أخيرا في سبيل الوصول إلى هـذه النتيجـة، جمعية الاتحاد المصري النسائي، ورسمت لنفسها البرنـامج الآتي:

١- رفع مستوى المرأة الأدبي والخلقي لتحقيـق المسـاواة السياسية والاجتماعية بالرجل من وجهتـي القـوانين والآداب العامة.

٢- المطالبة بمنح الطالبات حريـة الالتحـاق بالمـدارس العالية.

٣- إصلاح العوائد الجارية فيما يتعلق بطلب الزواج حتى يتيسر للطرفين أن يتعارفا قبل التعاقد.

٤- الاجتهاد في إصلاح بعض طـرق تطبيـق القـوانين الخاصة بالزواج التي يستمد تفسيرها من روح القرآن، ووقاية المرأة بهذه الطريقة من الظلم الذي يقع عليهـا من تعدد الزوجات الذي لا مبرر له، ومن الطلاق الذي ينطق به صاحبه غالبا من غير روية أو باعث جدي.

٥- المطالبة بقانون يجعل سن الزواج عند البنت ١٦ سنة.

٦- العمل على نشر الدعوة في سبيل الصحة العمومية.
٧- تشجيع الفضيلة ومحاربة الرذيلة.
٨- محاربة الخرافات وبعض العوائد التي لا تتفق مع العقل.
٩- نشر الدعوة بمبادئ الجمعية بواسطة الصحافة.

والآن قبل أن أنسحب، اسمحن لي أيتها السيدات أن أشكركن على إلحاحكن في إظهار الرغبة في إشراك المرأة المصرية في عمل الاتحاد العظيم.

ولنا الأمل الكبير أن نصل بفضل نصائحكن التي هي لنا الهادي والاحتذاء على مثلكن الذي نجد خير مشجع إلى تحقيق رغباتنا وبلوغ القصد.

وإننا نضع أنفسنا تحت تصرفكن لخدمة مبادئكن ونشر أفكاركن، أما والاتحاد قوة، فإننا نرجو من صميم الفؤاد أن يتحقق في القريب العاجل، الغرض الذي نسعى إليه، أعني انتصار حقوق المرأة في العالم أجمع.

مقابلة موسوليني

كان من بين ما حققه مؤتمر روما الدولي، إننا التقينا بالسنيور موسوليني ثلاث مرات..

الأولى: عندما ترأس جلسة الافتتاح في سراي المعرض.. والثانية: عندما أقام حفل شاي للمندوبات فـي الكـابيتول.. وكانت المرة الثالثة: بعد أن انتهى المؤتمر من أعماله؛ حيث توجهت المندوبات المشتركات في المؤتمر لمقابلته في قصر الرئاسة وتعمدن أن يذهبن سائرات على الأقدام كرجاء له في أن يمنح المرأة الإيطالية حق الانتخاب.

وقد استقبلنا وصافح أعضاء المؤتمر واحـدة واحـدة.. وعندما جاء دوري وقدمت إليه كرئيسة وفد مصر عبر عن جميل عواطفه ومشاعره نحو مصر، وقال إنه يرقب باهتمام حركات التحرير في مصر، وجهاد المصريين والمصـريات في سبيل استقلال بلادهم، ثم تحدث عن تطلعه إلى توطيـد العلاقات التي تربط إيطاليا بمصر وغيرها من دول البحـر المتوسط، وأشاد بماضي مصر المجيد ومدنيتها العريقة وبما كان بين الدولتين من علاقات طيبة وصداقة قديمة وأعـرب عن أمله في تجديد ذلك ودوام ارتباطه.

ولقد كانت هذه اللفتة منه نحو مصر جـديرة بالتقـدير، فأعربت له عن فائق تأثري بهذه العناية وبدوري تحدثت عن

مجد إيطاليا السابق والحاضر. ثم كررت رجـائي الخـاص بمنح المرأة الإيطالية حقوقها السياسية.

-٢٢-

بعد أن عدنا من المؤتمر النسائي الدولي الذي عقـد فـي روما، كان علينا أن نلتقي مع أعضاء جمعية الاتحاد النسائي المصري، لنستعرض جهود مندوبات الجمعية فـي مـؤتمر روما، ونتدارس مطالب المرأة المصرية، وقد انتهـى هـذا الاجتماع إلى تحديد هذه المطالب، واتخذنا فيه قرارا بتقديمها للوزارة..

وفي يوم ٢ يوليو ١٩٢٣ ذهب وفد من أعضاء الجمعيـة لمقابلة دولة رئيس مجلس الوزراء.. وكان هذا الوفد مكونًـا من السيدات: شريفة رياض.. إحسان أحمد.. عزيزة فوزي.. جميلة عطية.. وغيرهن، وكانت الجمعية قد حددت مطلبـين أساسيين:

أولهما: فتح باب التعليم الثانوي والعالي في وجه الفتيات.

ثانيهما: سن قانون يمنع زواج البنات قبل سـن السادسـة عشرة.

وكنت قد كتبت رسالة إلى دولة رئيس الوزراء، حملتهـا الزميلات إليه في هذا اللقاء.. وكان نص هذه الرسالة كتالي:

"حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء.

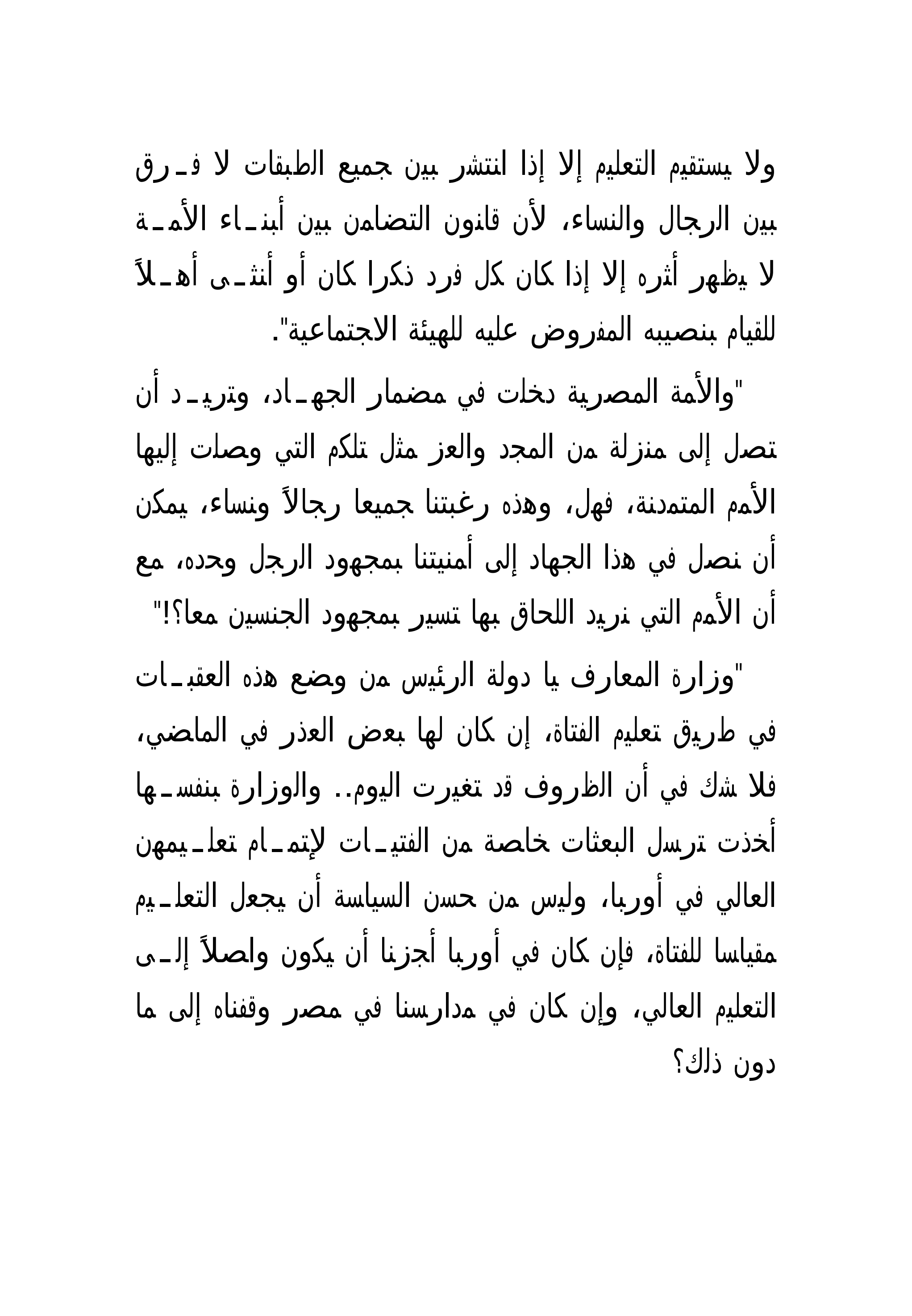
من أهم المسائل التي تناقشت فيها جمعية الاتحاد النسائي التي عقدت بدار الجامعة المصرية يوم الثلاثاء ٢٦ الجاري، موضوعان:

الأول: حالة التأخر الظاهر في التعليم العام للفتاة.

الثاني: إغفال الشروط الضرورية لمنع الحظـر الصـحي والعائلي عن زواج الفتاة.

وبعد المناقشة فيهما، رأت الجمعية في المسألة الأولى أن من أهم العقبات في طريق رقي الفتاة عدم السماح لهـا مـن وزارة المعارف في دخول الامتحانات العامة لنيل الشهادات الدراسية الثانوية والشهادات العالية.

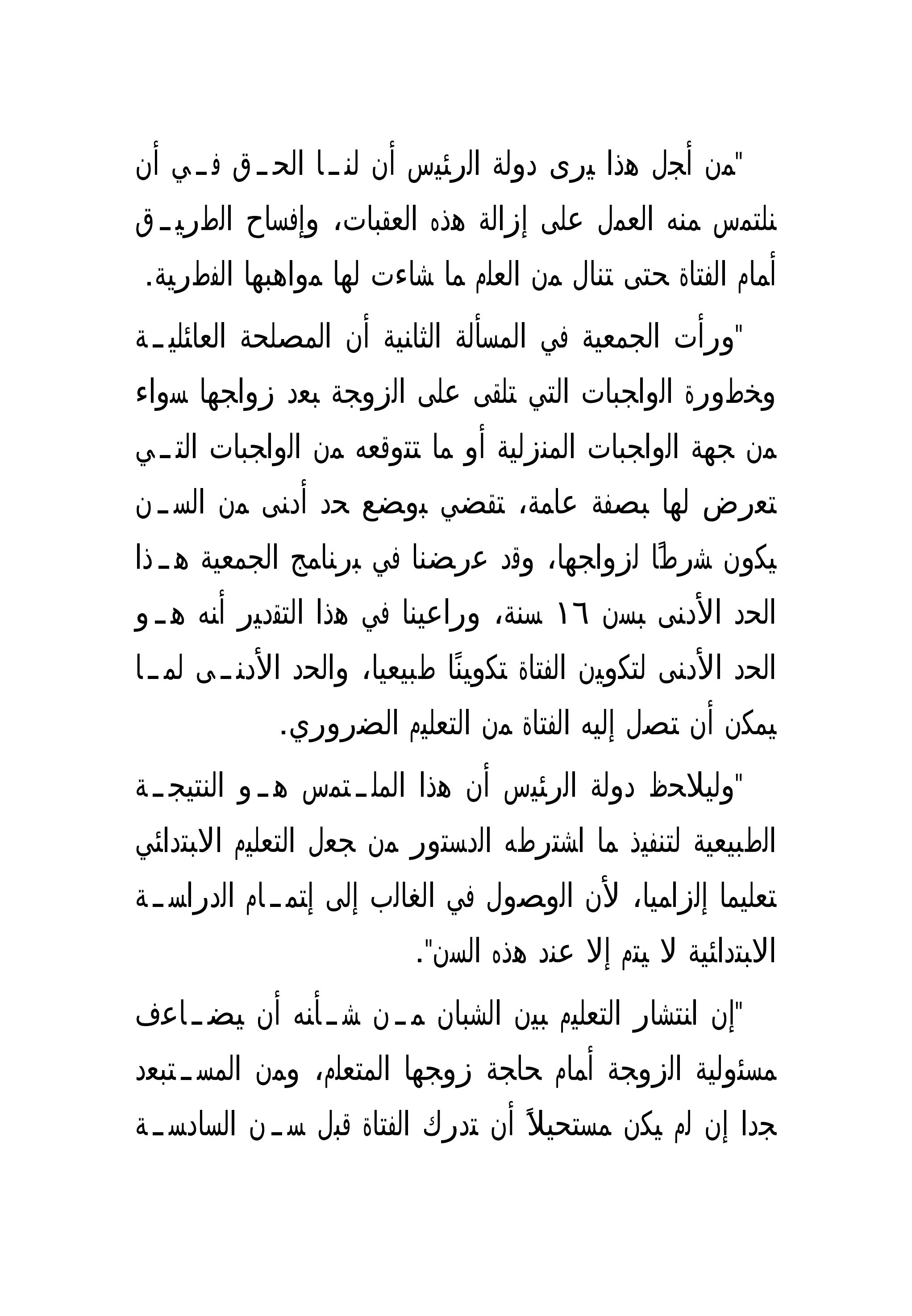
"إن تصرف الوزارة المشار إليه في هذا البـاب مخـالف للمصلحة العامة للرجال والنساء على السواء؛ حيث أصـبح من القضايا المسلم بها أن رقي الأمة تابع لدرجة التعليم فيها،



ولا يستقيم التعليم إلا إذا انتشر بين جميع الطبقات لا فـرق بين الرجال والنساء، لأن قانون التضامن بين أبنـاء الأمـة لا يظهر أثره إلا إذا كان كل فرد ذكرا كان أو أنثـى أهـلاً للقيام بنصيبه المفروض عليه للهيئة الاجتماعية".

"والأمة المصرية دخلت في مضمار الجهـاد، وتريـد أن تصل إلى منزلة من المجد والعز مثل تلكم التي وصلت إليها الأمم المتمدنة، فهل، وهذه رغبتنا جميعا رجالاً ونساء، يمكن أن نصل في هذا الجهاد إلى أمنيتنا بمجهود الرجل وحده، مع أن الأمم التي نريد اللحاق بها تسير بمجهود الجنسين معا؟!"

"وزارة المعارف يا دولة الرئيس من وضع هذه العقبـات في طريق تعليم الفتاة، إن كان لها بعض العذر في الماضي، فلا شك في أن الظروف قد تغيرت اليوم.. والوزارة بنفسـها أخذت ترسل البعثات خاصة من الفتيـات لإتمـام تعلـيمهن العالي في أوربا، وليس من حسن السياسة أن يجعل التعلـيم مقياسا للفتاة، فإن كان في أوربا أجزنا أن يكون واصلاً إلـى التعليم العالي، وإن كان في مدارسنا في مصر وقفناه إلى ما دون ذلك؟

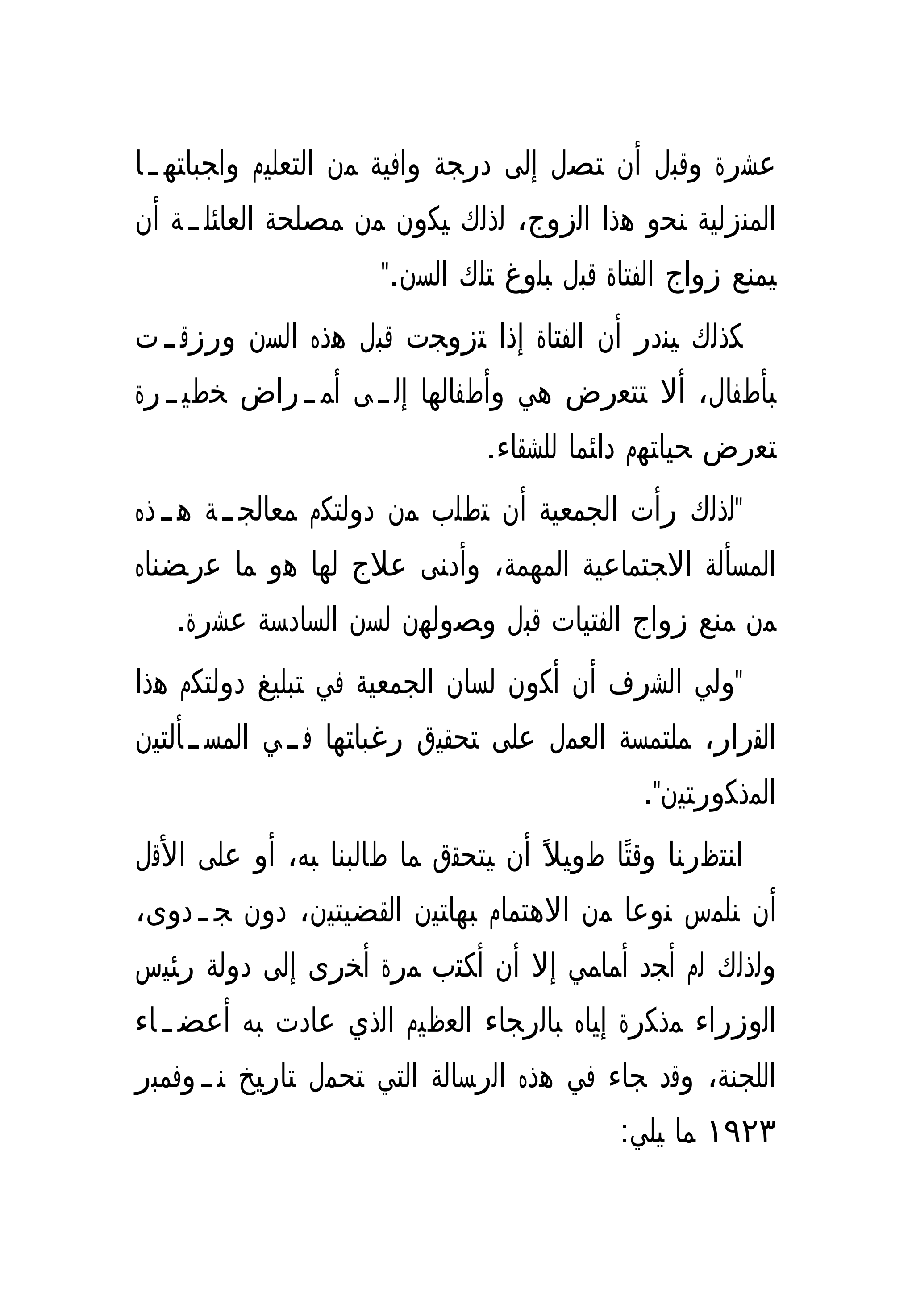


"من أجل هذا يرى دولة الرئيس أن لنـا الحـق فـي أن نلتمس منه العمل على إزالة هذه العقبات، وإفساح الطريـق أمام الفتاة حتى تنال من العلم ما شاءت لها مواهبها الفطرية.

"ورأت الجمعية في المسألة الثانية أن المصلحة العائليـة وخطورة الواجبات التي تلقى على الزوجة بعد زواجها سواء من جهة الواجبات المنزلية أو ما تتوقعه من الواجبات التـي تعرض لها بصفة عامة، تقضي بوضع حد أدنى من السـن يكون شرطًا لزواجها، وقد عرضنا في برنامج الجمعية هـذا الحد الأدنى بسن ١٦ سنة، وراعينا في هذا التقدير أنه هـو الحد الأدنى لتكوين الفتاة تكوينًا طبيعيا، والحد الأدنـى لمـا يمكن أن تصل إليه الفتاة من التعليم الضروري.

"وليلاحظ دولة الرئيس أن هذا الملـتمس هـو النتيجـة الطبيعية لتنفيذ ما اشترطه الدستور من جعل التعليم الابتدائي تعليما إلزاميا، لأن الوصول في الغالب إلى إتمـام الدراسـة الابتدائية لا يتم إلا عند هذه السن".

"إن انتشار التعليم بين الشبان مـن شـأنه أن يضـاعف مسئولية الزوجة أمام حاجة زوجها المتعلم، ومن المسـتبعد جدا إن لم يكن مستحيلاً أن تدرك الفتاة قبل سـن السادسـة



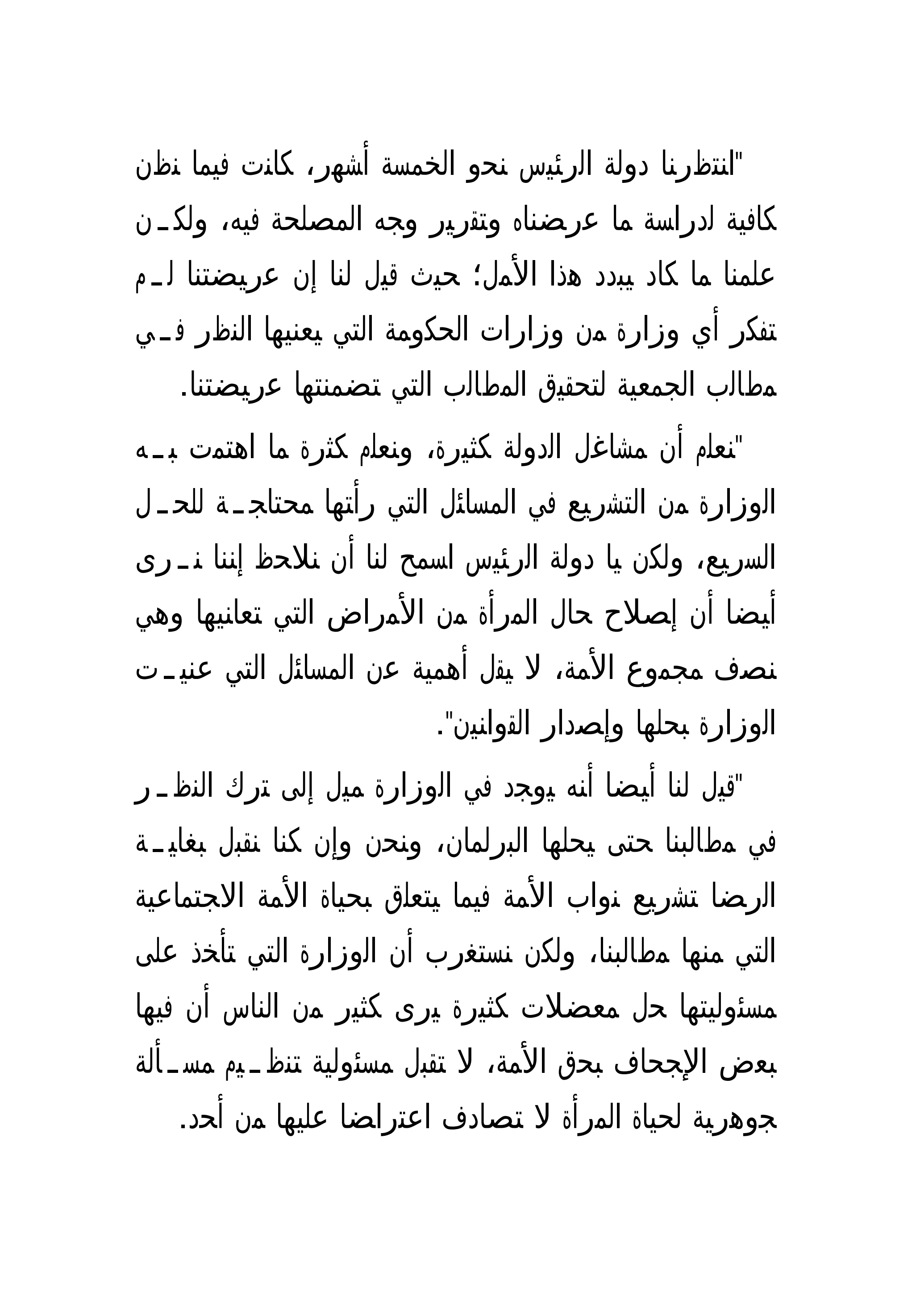
عشرة وقبل أن تصل إلى درجة وافية من التعليم واجباتها المنزلية نحو هذا الزوج، لذلك يكون من مصلحة العائلة أن يمنع زواج الفتاة قبل بلوغ تلك السن."

كذلك يندر أن الفتاة إذا تزوجت قبل هذه السن ورزقت بأطفال، ألا تتعرض هي وأطفالها إلى أمراض خطيرة تعرض حياتهم دائما للشقاء.

"لذلك رأت الجمعية أن تطلب من دولتكم معالجة هذه المسألة الاجتماعية المهمة، وأدنى علاج لها هو ما عرضناه من منع زواج الفتيات قبل وصولهن لسن السادسة عشرة.

"ولي الشرف أن أكون لسان الجمعية في تبليغ دولتكم هذا القرار، ملتمسة العمل على تحقيق رغباتها في المسألتين المذكورتين".

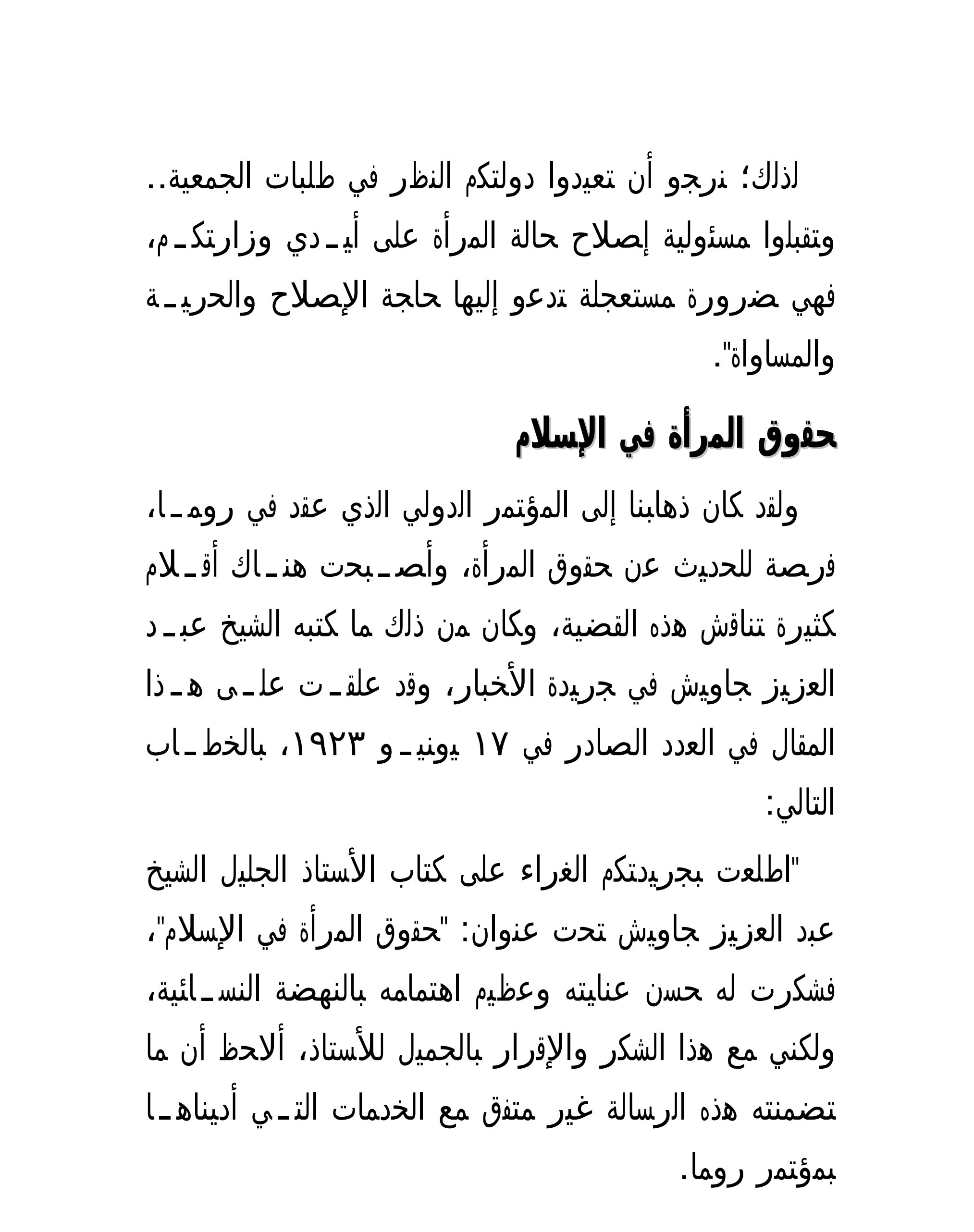
انتظرنا وقتًا طويلاً أن يتحقق ما طالبنا به، أو على الأقل أن نلمس نوعا من الاهتمام بهاتين القضيتين، دون جدوى، ولذلك لم أجد أمامي إلا أن أكتب مرة أخرى إلى دولة رئيس الوزراء مذكرة إياه بالرجاء العظيم الذي عادت به أعضاء اللجنة، وقد جاء في هذه الرسالة التي تحمل تاريخ نوفمبر ١٩٢٣ ما يلي:



"انتظرنا دولة الرئيس نحو الخمسة أشهر، كانت فيما نظن كافية لدراسة ما عرضناه وتقرير وجه المصلحة فيه، ولكن علمنا ما كاد يبدد هذا الأمل؛ حيث قيل لنا إن عريضتنا لم تفكر أي وزارة من وزارات الحكومة التي يعنيها النظر في مطالب الجمعية لتحقيق المطالب التي تضمنتها عريضتنا.

"نعلم أن مشاغل الدولة كثيرة، ونعلم كثرة ما اهتمت به الوزارة من التشريع في المسائل التي رأتها محتاجة للحل السريع، ولكن يا دولة الرئيس اسمح لنا أن نلاحظ إننا نرى أيضا أن إصلاح حال المرأة من الأمراض التي تعانيها وهي نصف مجموع الأمة، لا يقل أهمية عن المسائل التي عنيت الوزارة بحلها وإصدار القوانين".

"قيل لنا أيضا أنه يوجد في الوزارة ميل إلى ترك النظر في مطالبنا حتى يحلها البرلمان، ونحن وإن كنا نقبل بغاية الرضا تشريع نواب الأمة فيما يتعلق بحياة الأمة الاجتماعية التي منها مطالبنا، ولكن نستغرب أن الوزارة التي تأخذ على مسئوليتها حل معضلات كثيرة يرى كثير من الناس أن فيها بعض الإجحاف بحق الأمة، لا تقبل مسئولية تنظيم مسألة جوهرية لحياة المرأة لا تصادف اعتراضا عليها من أحد.

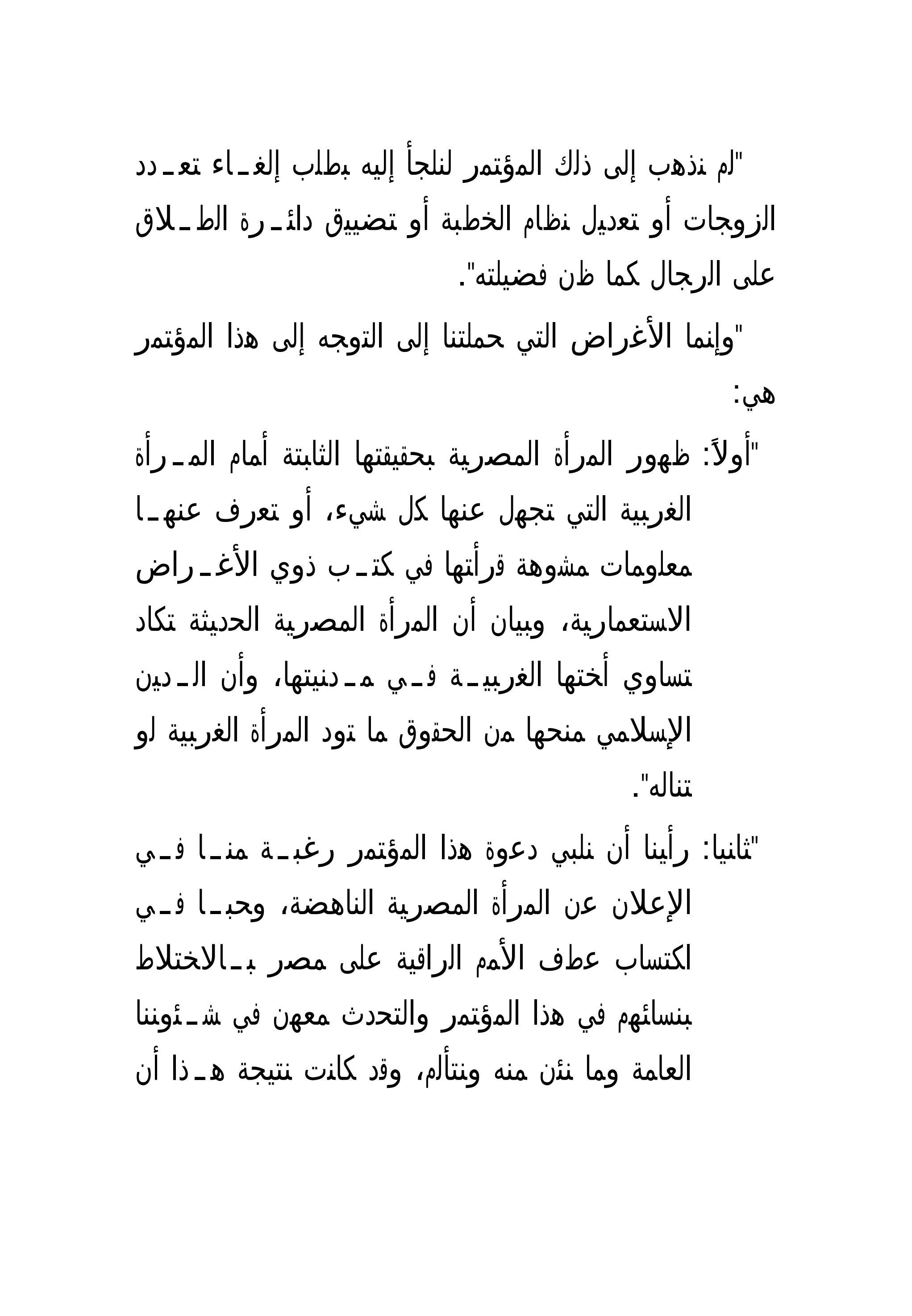


لذلك؛ نرجو أن تعيدوا دولتكم النظر في طلبات الجمعية.. وتقبلوا مسئولية إصلاح حالة المرأة على أيدي وزارتكم، فهي ضرورة مستعجلة تدعو إليها حاجة الإصلاح والحرية والمساواة".

حقوق المرأة في الإسلام

ولقد كان ذهابنا إلى المؤتمر الدولي الذي عقد في روما، فرصة للحديث عن حقوق المرأة، وأصبحت هناك أقلام كثيرة تناقش هذه القضية، وكان من ذلك ما كتبه الشيخ عبد العزيز جاويش في جريدة الأخبار، وقد علقت على هذا المقال في العدد الصادر في ١٧ يونيو ١٩٢٣، بالخطاب التالي:

"اطلعت بجريدتكم الغراء على كتاب الأستاذ الجليل الشيخ عبد العزيز جاويش تحت عنوان: "حقوق المرأة في الإسلام"، فشكرت له حسن عنايته وعظيم اهتمامه بالنهضة النسائية، ولكني مع هذا الشكر والإقرار بالجميل للأستاذ، ألاحظ أن ما تضمنته هذه الرسالة غير متفق مع الخدمات التي أديناها بمؤتمر روما.

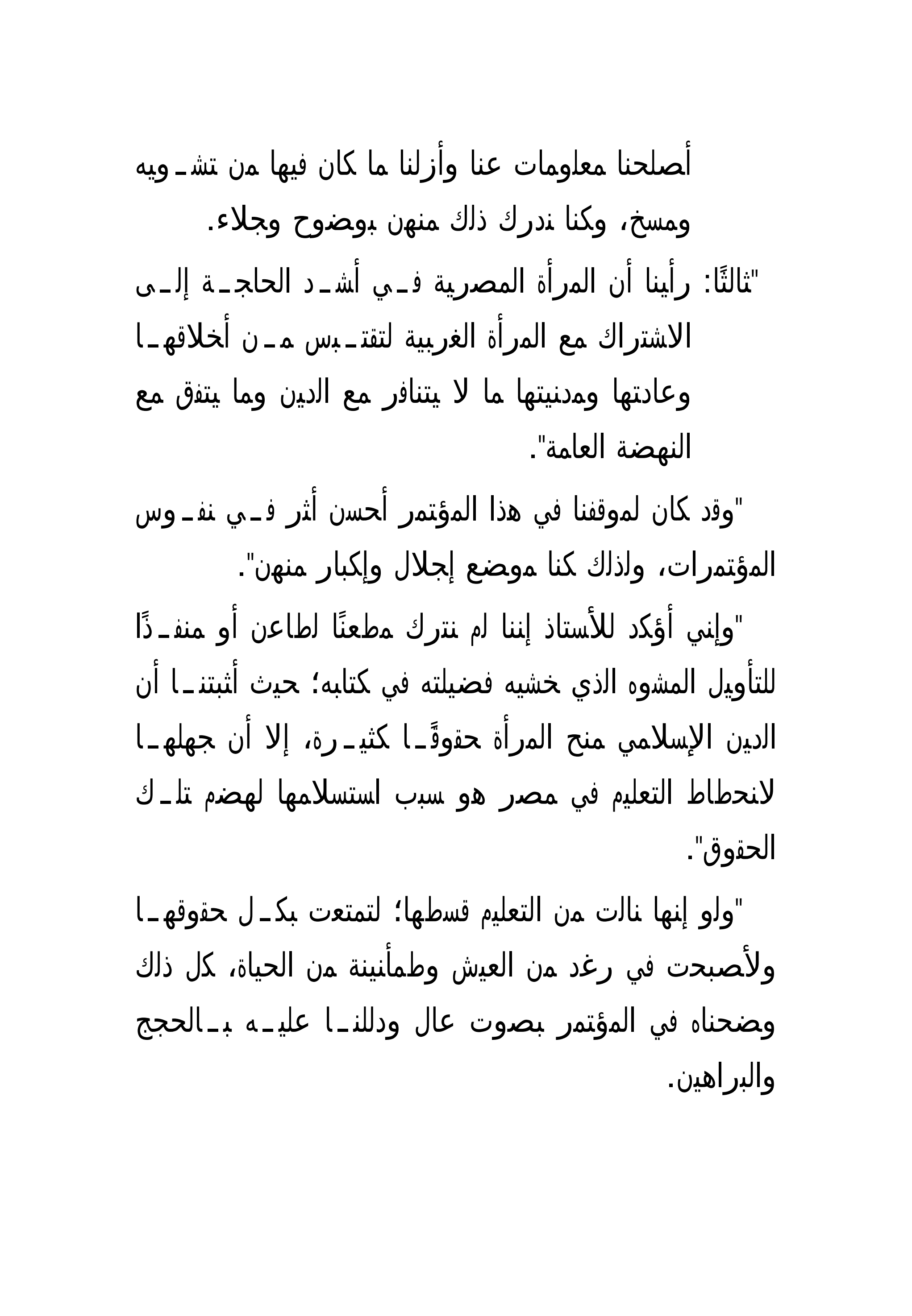


"لم نذهب إلى ذلك المؤتمر لنلجأ إليه بطلب إلغاء تعدد الزوجات أو تعديل نظام الخطبة أو تضييق دائرة الطلاق على الرجال كما ظن فضيلته".

"وإنما الأغراض التي حملتنا إلى التوجه إلى هذا المؤتمر هي:

"أولاً: ظهور المرأة المصرية بحقيقتها الثابتة أمام المرأة الغربية التي تجهل عنها كل شيء، أو تعرف عنها معلومات مشوهة قرأتها في كتب ذوي الأغراض الاستعمارية، وبيان أن المرأة المصرية الحديثة تكاد تساوي أختها الغربية في مدنيتها، وأن الدين الإسلامي منحها من الحقوق ما تود المرأة الغربية لو تناله".

"ثانيا: رأينا أن نلبي دعوة هذا المؤتمر رغبة منا في الإعلان عن المرأة المصرية الناهضة، وحبا في اكتساب عطف الأمم الراقية على مصر بالاختلاط بنسائهم في هذا المؤتمر والتحدث معهن في شئوننا العامة وما نئن منه ونتألم، وقد كانت نتيجة هذا أن



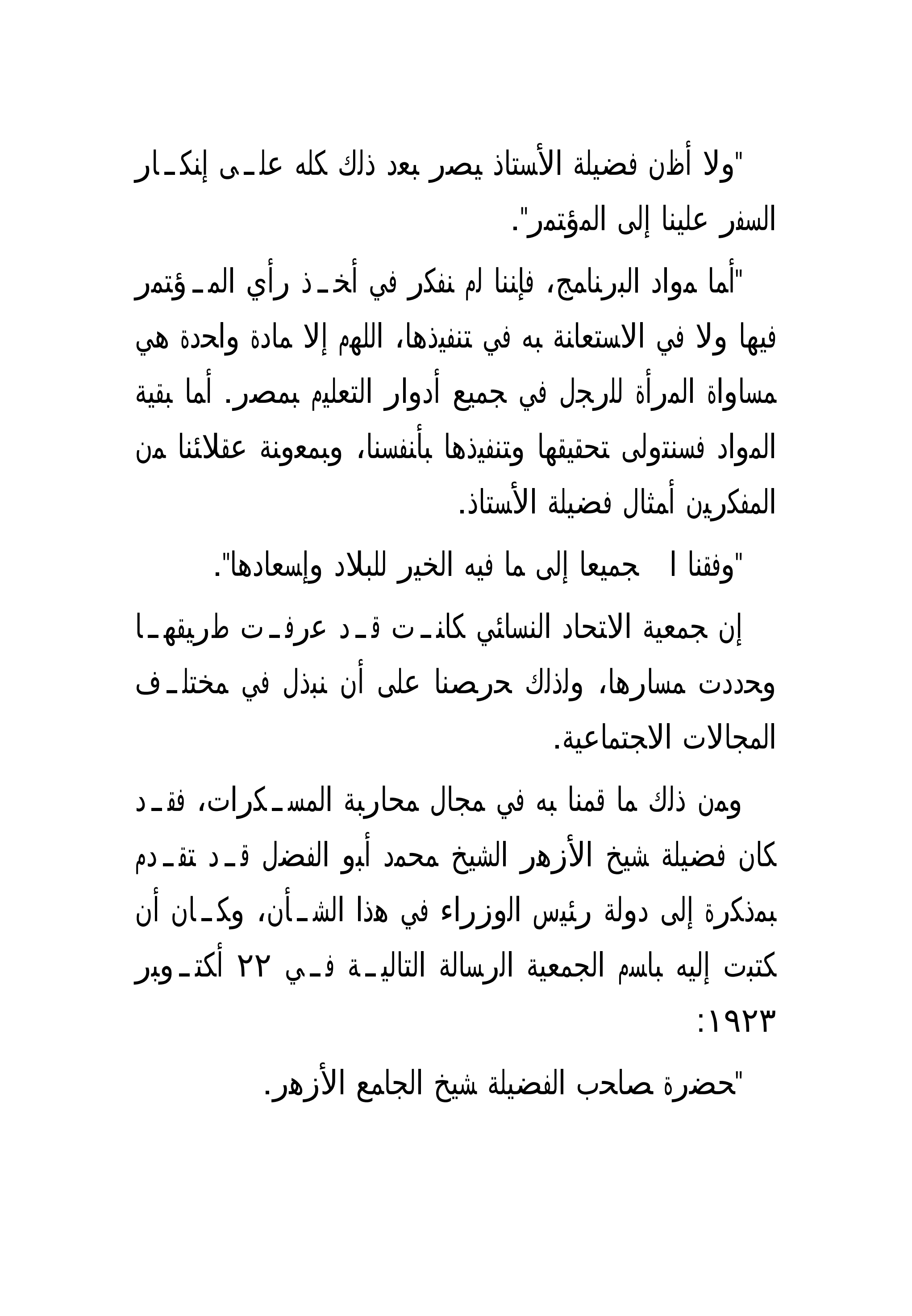
أصلحنا معلومات عنا وأزلنا ما كان فيها من تشويه ومسخ، وكنا ندرك ذلك منهن بوضوح وجلاء.

"ثالثًا: رأينا أن المرأة المصرية في أشد الحاجة إلى الاشتراك مع المرأة الغربية لتقتبس من أخلاقها وعادتها ومدنيتها ما لا يتنافر مع الدين وما يتفق مع النهضة العامة".

"وقد كان لموقفنا في هذا المؤتمر أحسن أثر في نفوس المؤتمرات، ولذلك كنا موضع إجلال وإكبار منهن".

"وإني أؤكد للأستاذ إننا لم نترك مطعنًا لطاعن أو منفذًا للتأويل المشوه الذي خشيه فضيلته في كتابه؛ حيث أثبتنا أن الدين الإسلامي منح المرأة حقوقًا كثيرة، إلا أن جهلها لانحطاط التعليم في مصر هو سبب استسلامها لهضم تلك الحقوق".

"ولو إنها نالت من التعليم قسطها؛ لتمتعت بكل حقوقها ولأصبحت في رغد من العيش وطمأنينة من الحياة، كل ذلك وضحناه في المؤتمر بصوت عال ودللنا عليه بالحجج والبراهين.



"ولا أظن فضيلة الأستاذ يصر بعد ذلك كله على إنكار السفر علينا إلى المؤتمر".

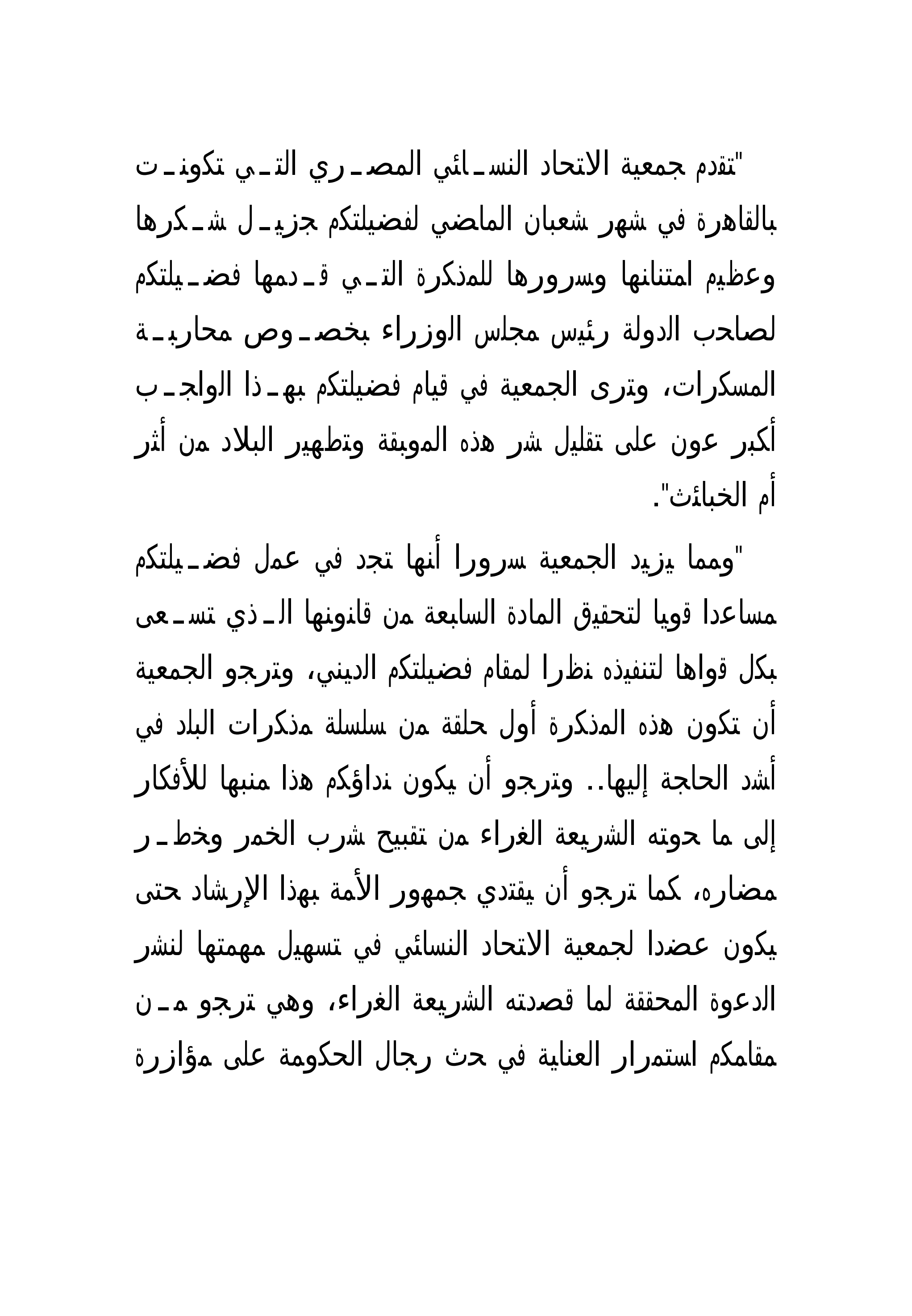
"أما مواد البرنامج، فإننا لم نفكر في أخذ رأي المؤتمر فيها ولا في الاستعانة به في تنفيذها، اللهم إلا مادة واحدة هي مساواة المرأة للرجل في جميع أدوار التعليم بمصر. أما بقية المواد فسنتولى تحقيقها وتنفيذها بأنفسنا، وبمعونة عقلائنا من المفكرين أمثال فضيلة الأستاذ.

"وفقنا ا جميعا إلى ما فيه الخير للبلاد وإسعادها".

إن جمعية الاتحاد النسائي كانت قد عرفت طريقها وحددت مسارها، ولذلك حرصنا على أن نبذل في مختلف المجالات الاجتماعية.

ومن ذلك ما قمنا به في مجال محاربة المسكرات، فقد كان فضيلة شيخ الأزهر الشيخ محمد أبو الفضل قد تقدم بمذكرة إلى دولة رئيس الوزراء في هذا الشأن، وكان أن كتبت إليه باسم الجمعية الرسالة التالية في ٢٢ أكتوبر ١٩٢٣:

"حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر.



"تتقدم جمعية الاتحاد النسائي المصري التي تكونت بالقاهرة في شهر شعبان الماضي لفضيلتكم جزيل شكرها وعظيم امتنانها وسرورها للمذكرة التي قدمها فضيلتكم لصاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء بخصوص محاربة المسكرات، وترى الجمعية في قيام فضيلتكم بهذا الواجب أكبر عون على تقليل شر هذه الموبقة وتطهير البلاد من أثر أم الخبائث".

"ومما يزيد الجمعية سرورا أنها تجد في عمل فضيلتكم مساعدا قويا لتحقيق المادة السابعة من قانونها الذي تسعى بكل قواها لتنفيذه نظرا لمقام فضيلتكم الديني، وترجو الجمعية أن تكون هذه المذكرة أول حلقة من سلسلة مذكرات البلاد في أشد الحاجة إليها.. وترجو أن يكون نداؤكم هذا منبها للأفكار إلى ما حوته الشريعة الغراء من تقبيح شرب الخمر وخطر مضاره، كما ترجو أن يقتدي جمهور الأمة بهذا الإرشاد حتى يكون عضدا لجمعية الاتحاد النسائي في تسهيل مهمتها لنشر الدعوة المحققة لما قصدته الشريعة الغراء، وهي ترجو من مقامكم استمرار العناية في حث رجال الحكومة على مؤازرة

الفضيلة، وفي حملها على إصدار قانون يحرم استعمال هـذه المسكرات.

"والجمعية ترجو من فضيلتكم أن تضيفوا إلى ما يستحق عنايتكم لفت نظر الحكومة إلى محلات الفسق التي انتشرت في البلاد بشكل أصبح خطرا على الأخلاق والفضيلة، ففي الاعتراف بها والتصريح بوجودها أكبر عار على حكومة إسلامية تنص في دستورها أن دين الدولة الإسلام".

"وللجمعية كبير الأمل في تعضيد فضيلتكم لكل من يعمل بما يعود على البلاد بالخير والإصلاح، ونتشرف بأن نهدي لفضيلتكم نسخة من قانون الجمعية راجية أن ينال من فضيلتكم عطفًا وقبولاً".

هدى شعراوي

وفي ٣٠ أكتوبر، تلقيت خطابا من فضيلة شيخ الأزهر ردا على خطابي إليه، وقد نشرته الصحف في اليوم التالي. وهذا نص الخطاب:

"إلى صاحبة العصمة السيدة هدى شعراوي رئيسة جمعية الاتحاد النسائي المصري.

"تلقينا بمزيد من السرور كتاب عصمتك الكريم المـؤرخ في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٢٣، الذي تفضلت فيه بإبلاغنا شكر الجمعية على المذكرة التي قدمناها لحضرة صاحب الدولـة رئيس مجلس الوزراء ببيان ما في المسكرات من الضـرر العقلي والبدني والمالي، والتماسا بلسان الشرع الشريف منع تعاطي المسكرات واقتنائها وإدخالها المملكة المصرية حافظًا للأمة وعملاً بما يقتضيه الدين الحنيف.

"ولقد علمنا من قدر هذه الجمعية الشريفة الأمـور حـق قدرها وسعيها في نشر الفضائل ومحاربة الرذائـل. إن فـي مصر الآن من فضليات السيدات من لا تقل شأنًا عمن لهـم أثر صالح من الرجال في الهيئة الاجتماعية.. ونسأل ا جل شأنه أن يكثر من السيدات المتمسكات بـالآداب الشـرعية، الداعيات إليها، لتنال الأسرة المصرية سعادتها الكاملة.

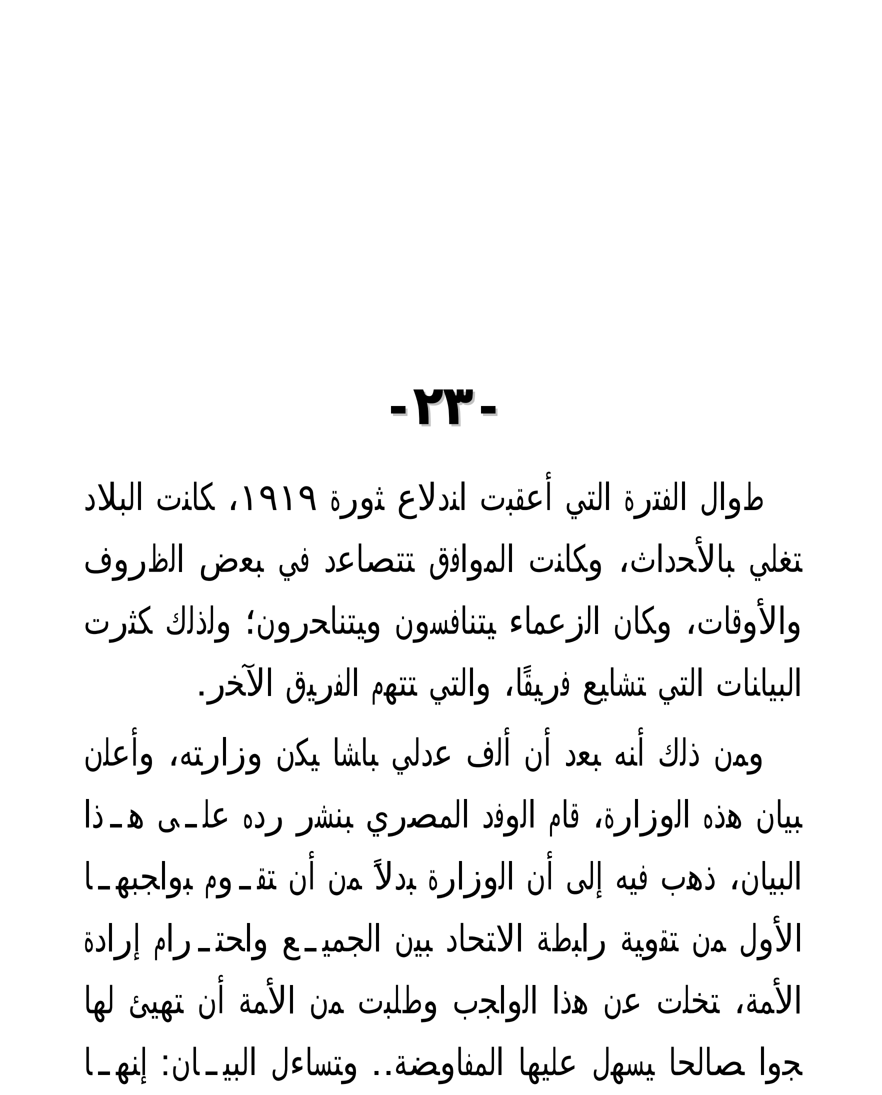
"ومما عنينا به ولا يزال نصب أعيننا ما أشـارت إليـه الجمعية من الكلام في تطهير البلاد المصرية مـن محـلات الفسق التي هي خطر عظيم على الأخلاق الدينية.

وإنّا لنثني على الجمعية الثناء المستطاب لتفكيرها في هذا الأمر أيضا، ونشكر لها تفضلها بإرسالها إلينا نسـخة مـن قانونها الذي سننظر فيه من الوجهة الشرعية.

ونسأل ا لها المعونة والتوفيق إلـى مـا فيـه الخيـر ولعصمتك وللجمعية منا التحية والسلام".

شيخ الأزهر

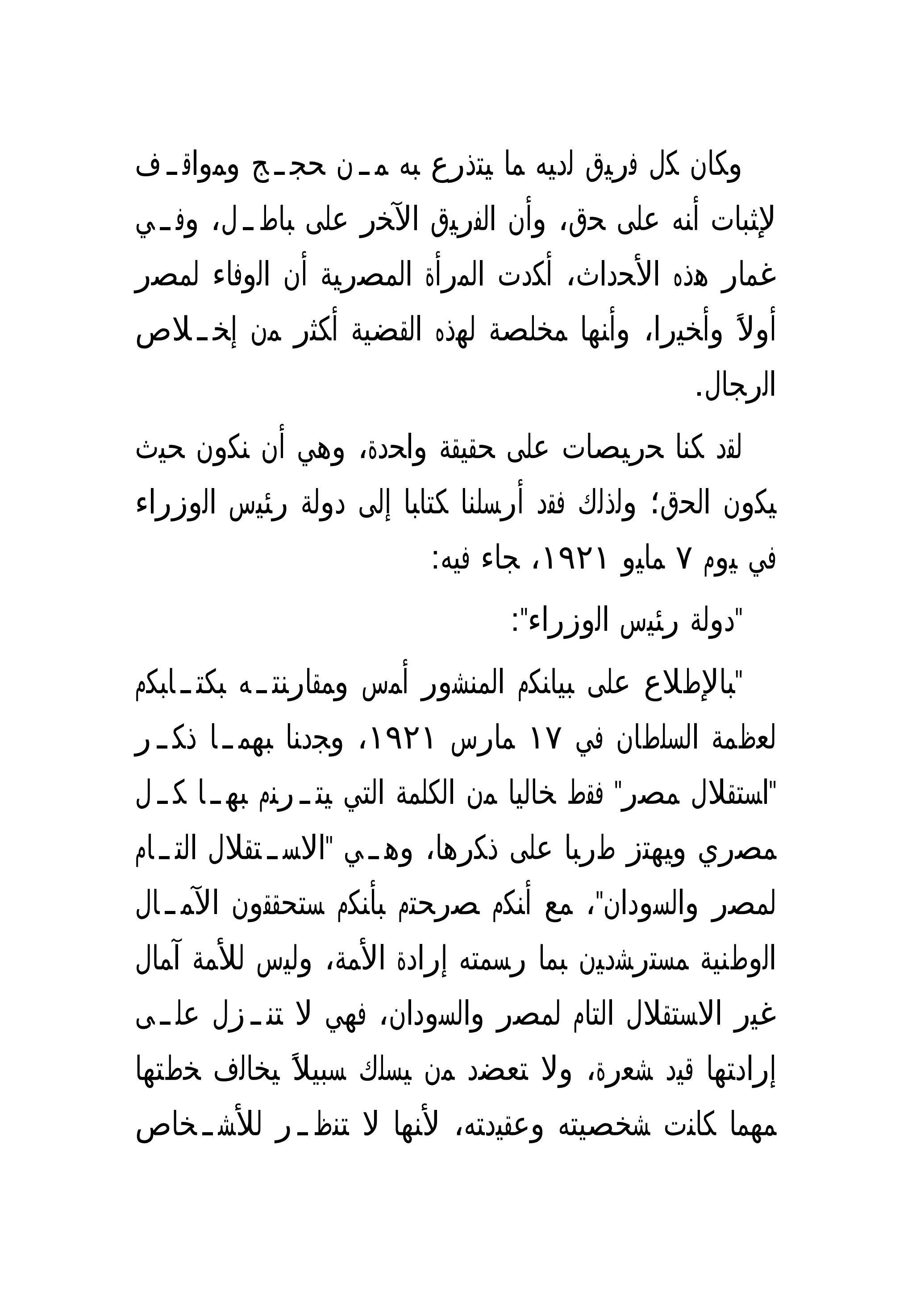
محمد أبو الفضل



-٢٣-

طوال الفترة التي أعقبت اندلاع ثورة ١٩١٩، كانت البلاد تغلي بالأحداث، وكانت المواقف تتصاعد في بعض الظروف والأوقات، وكان الزعماء يتنافسون ويتناحرون؛ ولذلك كثرت البيانات التي تشايع فريقًا، والتي تتهم الفريق الآخر.

ومن ذلك أنه بعد أن ألف عدلي باشا يكن وزارته، وأعلن بيان هذه الوزارة، قام الوفد المصري بنشر رده علـى هـذا البيان، ذهب فيه إلى أن الوزارة بدلاً من أن تقـوم بواجبهـا الأول من تقوية رابطة الاتحاد بين الجميـع واحتـرام إرادة الأمة، تخلت عن هذا الواجب وطلبت من الأمة أن تهيئ لها جوا صالحا يسهل عليها المفاوضة.. وتساءل البيـان: إنهـا فقدت نفوذها في الأمة، فكيف تلاقي الأجنبي وعلى أي قـوة تعتمد أمامه؟



وكان كل فريق لديه ما يتذرع به من حجج ومواقف لإثبات أنه على حق، وأن الفريق الآخر على باطل، وفي غمار هذه الأحداث، أكدت المرأة المصرية أن الوفاء لمصر أولاً وأخيرا، وأنها مخلصة لهذه القضية أكثر من إخلاص الرجال.

لقد كنا حريصات على حقيقة واحدة، وهي أن نكون حيث يكون الحق؛ ولذلك فقد أرسلنا كتابا إلى دولة رئيس الوزراء في يوم ٧ مايو ١٩٢١، جاء فيه:

"دولة رئيس الوزراء":

"بالإطلاع على بيانكم المنشور أمس ومقارنته بكتابكم لعظمة السلطان في ١٧ مارس ١٩٢١، وجدنا بهما ذكر "استقلال مصر" فقط خاليا من الكلمة التي يترنم بها كل مصري ويهتز طربا على ذكرها، وهي "الاستقلال التام لمصر والسودان"، مع أنكم صرحتم بأنكم ستحققون الآمال الوطنية مسترشدين بما رسمته إرادة الأمة، وليس للأمة آمال غير الاستقلال التام لمصر والسودان، فهي لا تتنزل على إرادتها قيد شعرة، ولا تعضد من يسلك سبيلاً يخالف خطتها مهما كانت شخصيته وعقيدته، لأنها لا تنظر للأشخاص

ولا تغتر بالظواهر والتمويهـات، ولكنهـا تنظـر للمبـادئ والأعمال، ولذلك فإن لجنة الوفد المركزية للسيدات قـررت بجلستها المنعقدة اليوم عدم تعضيد الوزارة للأسباب الآتية:

١- عدم برها بوعدها إلى الآن من رفع الأحكام العرفية والرقابة الصحفية، بل على العكس شـددتها بـدليل إصدار قرار جديد يمنع التجمهر وعدم نشر ما يرسل إلى الجرائد من القرارات، وهذا ينافي تصـريحاتها، وأيضا حوادث طنطا المؤلمة.

٢- عدم اتباعها برنامج الأمة وهو المطالبة بـالاعتراف باستقلال مصر والسودان.

٣- الاستعداد لانتخاب وفد رسمي بدون وكيل الأمة الذي تثق به وثوقًا تاما.

واقبلوا ما يليق بمقامكم من الاحترام".

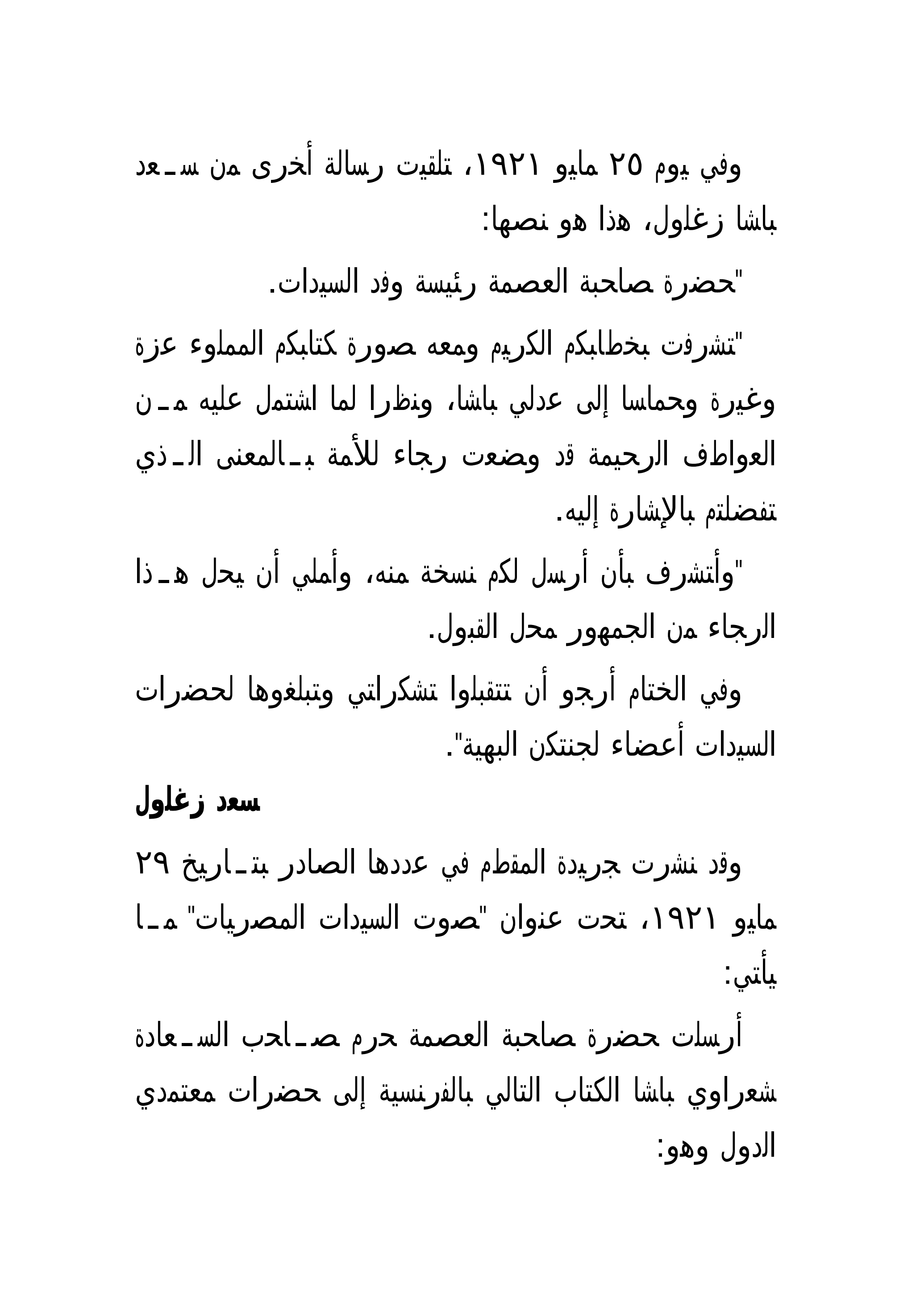
وكانت اللجنة قد أصدرت قبل ذلك بيانًا بتاريخ ٤ مـايو ١٩٢١، وكان أيضا موجها إلى رئيس الوزراء، بشأن حادثة طنطا المحزنة المؤلمة، وصدور الأمر بإعادة تنفيـذ قـانون التجمهر، علاوة على بقاء الأحكام العرفية والرقابة الصحفية.

وقد تلقيت خطابا من سعد باشا زغلول بتاريخ ٩ مايو ١٩٢١، تعليقًا على موقف اللجنة والبيانين اللذين أصدرتهما. وكان نص الخطاب كالتالي:

"حضرة صاحبة العصمة رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات.

"اطلعت على صورة الكتابين اللذين أرسلتهما لجنتكن لرئيس الوزراء ومنعت الحكومة نشرها بالجرائد، ويظهر أن الوزارة عاملة جهدها الآن في منع نشر كل ما من شأنه أن ينمي روح الوطنية في صدور الوطنيين والوطنيات ويشد عزائمهم، ويظهر بمظهر المطالبين للحق الغاضبين لإنكاره، ولكن الظلم لا يدوم، والضغط على الحرية لا يضرها بل يقيدها، وإنني أعجب لوطنية السيدات عموما ووطنيتهن خصوصا، وأعتقد تمام الاعتقاد أنه ما دام هذا الشعور الحي موجودا في صدور الأمة، فلابد أن تصل إلى مطلوبها مهما وضع أمامها من العقبات، وأرجو تبليغ تشكراتي إلى أعضاء لجنتكن البهية ووافر احتراماتي، وأهديكن تهنئاتي بحلول شهر الصوم المبارك، وأدعو ا أن يعيده علينا جميعا ببركات الاستقلال التام".

سعد زغلول



وفي يوم ٢٥ مايو ١٩٢١، تلقيت رسالة أخرى من سعد باشا زغلول، هذا هو نصها:

"حضرة صاحبة العصمة رئيسة وفد السيدات.

"تشرفت بخطابكم الكريم ومعه صورة كتابكم المملوء عزة وغيرة وحماسا إلى عدلي باشا، ونظرا لما اشتمل عليه من العواطف الرحيمة قد وضعت رجاء للأمة بالمعنى الذي تفضلتم بالإشارة إليه.

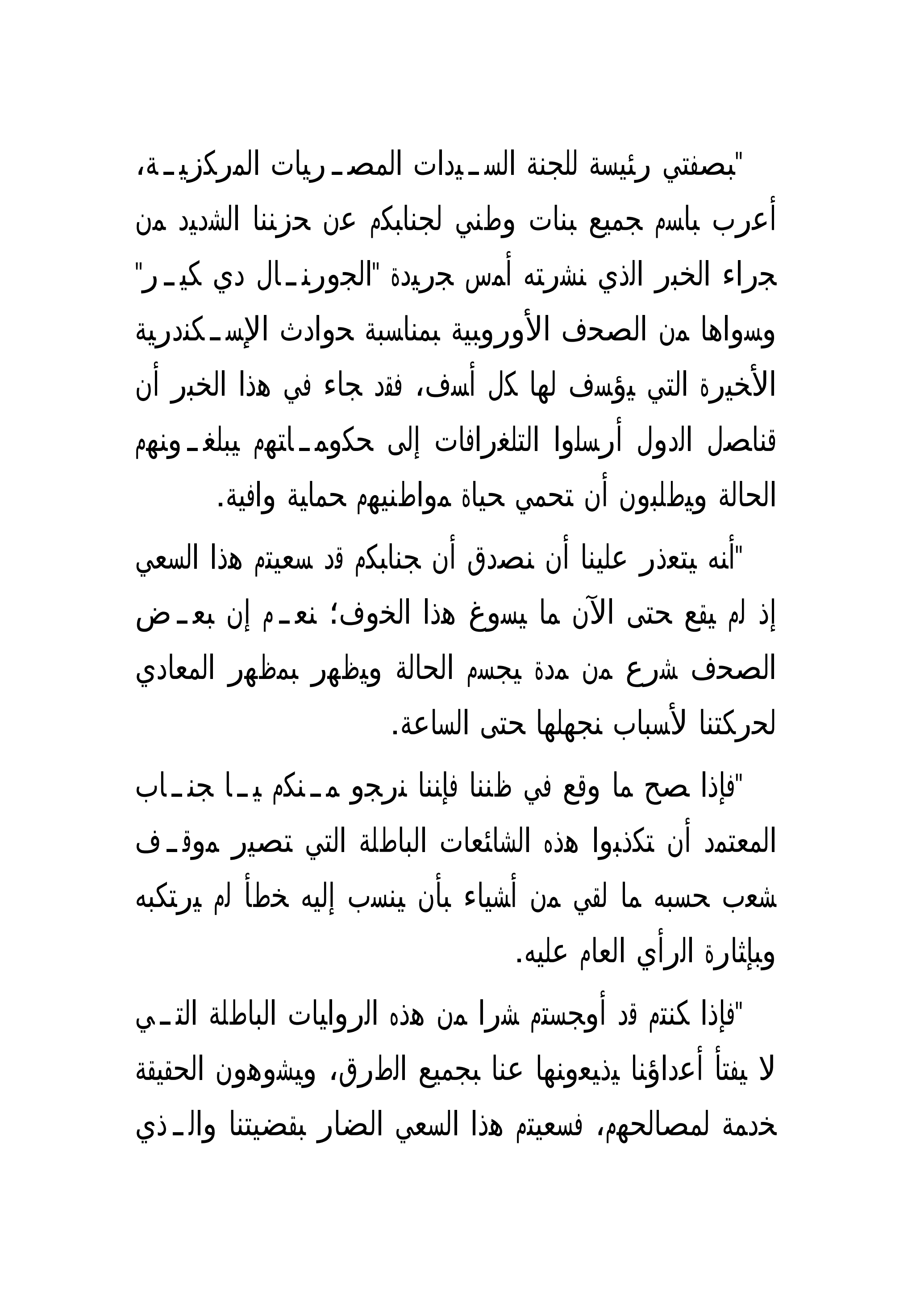
"وأتشرف بأن أرسل لكم نسخة منه، وأملي أن يحل هذا الرجاء من الجمهور محل القبول.

وفي الختام أرجو أن تتقبلوا تشكراتي وتبلغوها لحضرات السيدات أعضاء لجنتكن البهية".

سعد زغلول

وقد نشرت جريدة المقطم في عددها الصادر بتاريخ ٢٩ مايو ١٩٢١، تحت عنوان "صوت السيدات المصريات" ما يأتي:

أرسلت حضرة صاحبة العصمة حرم صاحب السعادة شعراوي باشا الكتاب التالي بالفرنسية إلى حضرات معتمدي الدول وهو:

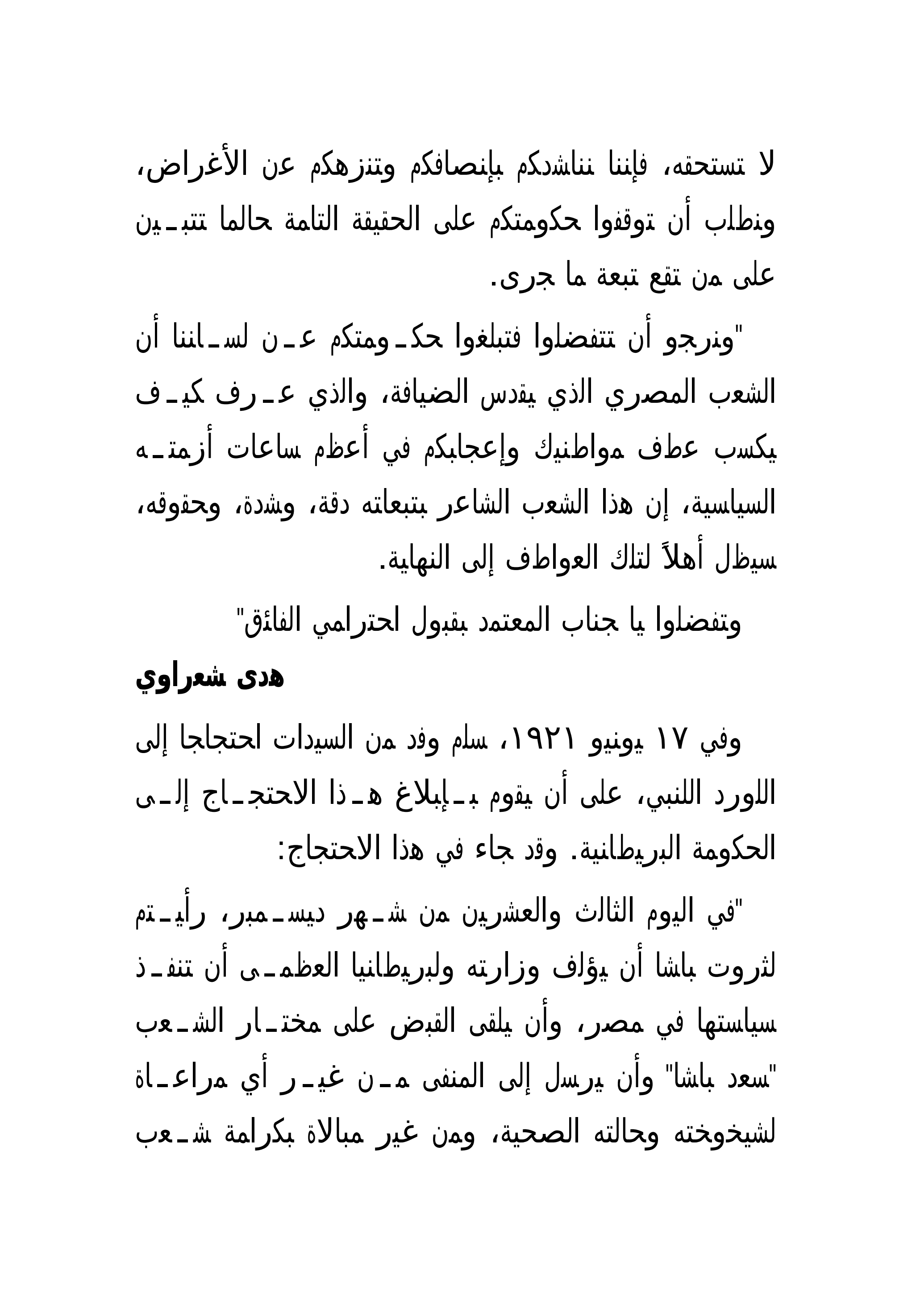


"بصفتي رئيسة للجنة السيدات المصريات المركزية، أعرب باسم جميع بنات وطني لجنابكم عن حزننا الشديد من جراء الخبر الذي نشرته أمس جريدة "الجورنال دي كير" وسواها من الصحف الأوروبية بمناسبة حوادث الإسكندرية الأخيرة التي يؤسف لها كل أسف، فقد جاء في هذا الخبر أن قناصل الدول أرسلوا التلغرافات إلى حكوماتهم يبلغونهم الحالة ويطلبون أن تحمي حياة مواطنيهم حماية وافية.

"أنه يتعذر علينا أن نصدق أن جنابكم قد سعيتم هذا السعي إذ لم يقع حتى الآن ما يسوغ هذا الخوف؛ نعم إن بعض الصحف شرع من مدة يجسم الحالة ويظهر بمظهر المعادي لحركتنا لأسباب نجهلها حتى الساعة.

"فإذا صح ما وقع في ظننا فإننا نرجو منكم يا جناب المعتمد أن تكذبوا هذه الشائعات الباطلة التي تصير موقف شعب حسبه ما لقي من أشياء بأن ينسب إليه خطأ لم يرتكبه وبإثارة الرأي العام عليه.

"فإذا كنتم قد أوجستم شرا من هذه الروايات الباطلة التي لا يفتأ أعداؤنا يذيعونها عنا بجميع الطرق، ويشوهون الحقيقة خدمة لمصالحهم، فسعيتم هذا السعي الضار بقضيتنا والذي



لا تستحقه، فإننا نناشدكم بإنصافكم وتنزهكم عن الأغراض، ونطلب أن توقفوا حكومتكم على الحقيقة التامة حالما تتبين على من تقع تبعة ما جرى.

"ونرجو أن تتفضلوا فتبلغوا حكومتكم عن لساننا أن الشعب المصري الذي يقدس الضيافة، والذي عرف كيف يكسب عطف مواطنيك وإعجابكم في أعظم ساعات أزمته السياسية، إن هذا الشعب الشاعر بتبعاته دقة، وشدة، وحقوقه، سيظل أهلاً لتلك العواطف إلى النهاية.

وتفضلوا يا جناب المعتمد بقبول احترامي الفائق"

هدى شعراوي

وفي ١٧ يونيو ١٩٢١، سلم وفد من السيدات احتجاجا إلى اللورد اللنبي، على أن يقوم بإبلاغ هذا الاحتجاج إلى الحكومة البريطانية. وقد جاء في هذا الاحتجاج:

"في اليوم الثالث والعشرين من شهر ديسمبر، رأيتم لثروت باشا أن يؤلف وزارته ولبريطانيا العظمى أن تنفذ سياستها في مصر، وأن يلقى القبض على مختار الشعب "سعد باشا" وأن يرسل إلى المنفى من غير أي مراعاة لشيخوخته وحالته الصحية، ومن غير مبالاة بكرامة شعب

هو زعيمه ورمز أمانيه، واحتقارا للعدالة وكل قانون بـدون أي سؤال أو محاكمة أو حكم، أخذ سعد إلى عدن ومنها إلـى جزيرة سيشل.

"وارتفعت على إثر ذلك الاحتجاجات من كل ناحية تطالب لسعد إصلاح الظلم الذي ارتكب، وتطالب للأمة غسل الإهانة التي لحقت بشرفها، ولكن هذه الاحتجاجات الصـادرة مـن شعب بأسره وصوت العدالة الصارخ وصوت الشرف المثلوم لم يستطع أن يحرك أولئك الذين لم يريـدوا أن يصـغوا إلا لصوت الشهوة والمصلحة.

"والآن وقد ظهر تقرير رسمي بأن سعد باشـا مـريض، وأن جماعة من خيار الإنجليز قد طالبوا بإطلاق سراح هـذا المنفي العظيم، فها نحن أولاء: سيدات مصر ننتظر بفـارغ الصبر جواب الحكومة البريطانية.

"أتراها ستفهم أن شرفها ومصلحتها يحتمان عليها إطلاق سراحه فورا، أم تراها ستضيف إلى جنايات ارتكبت غلطة لا تمحى على مر الدهور؟

"أتراها ستجدد فينا روح الثقة وتخلق فينا شعور الصداقة، أم تراها تفضل استفزاز قضيتنا وإثارة الحقد والكراهية في صدورنا؟

إن آتون "رواية" قد جعل من راعية صغيرة أعظم رمز لأطهر وطنية، وإن أسر "سان هيلانة" قد أكسب نابليون من المجد ما لم تكسبه مئة نصر.

وسيشل قد جعلت من سعد زغلول رجلاً مقدسًا، وإن اعتقاله بها لو طال سيجعل منا شعب أبطال وشهداء".

هدى شعراوي

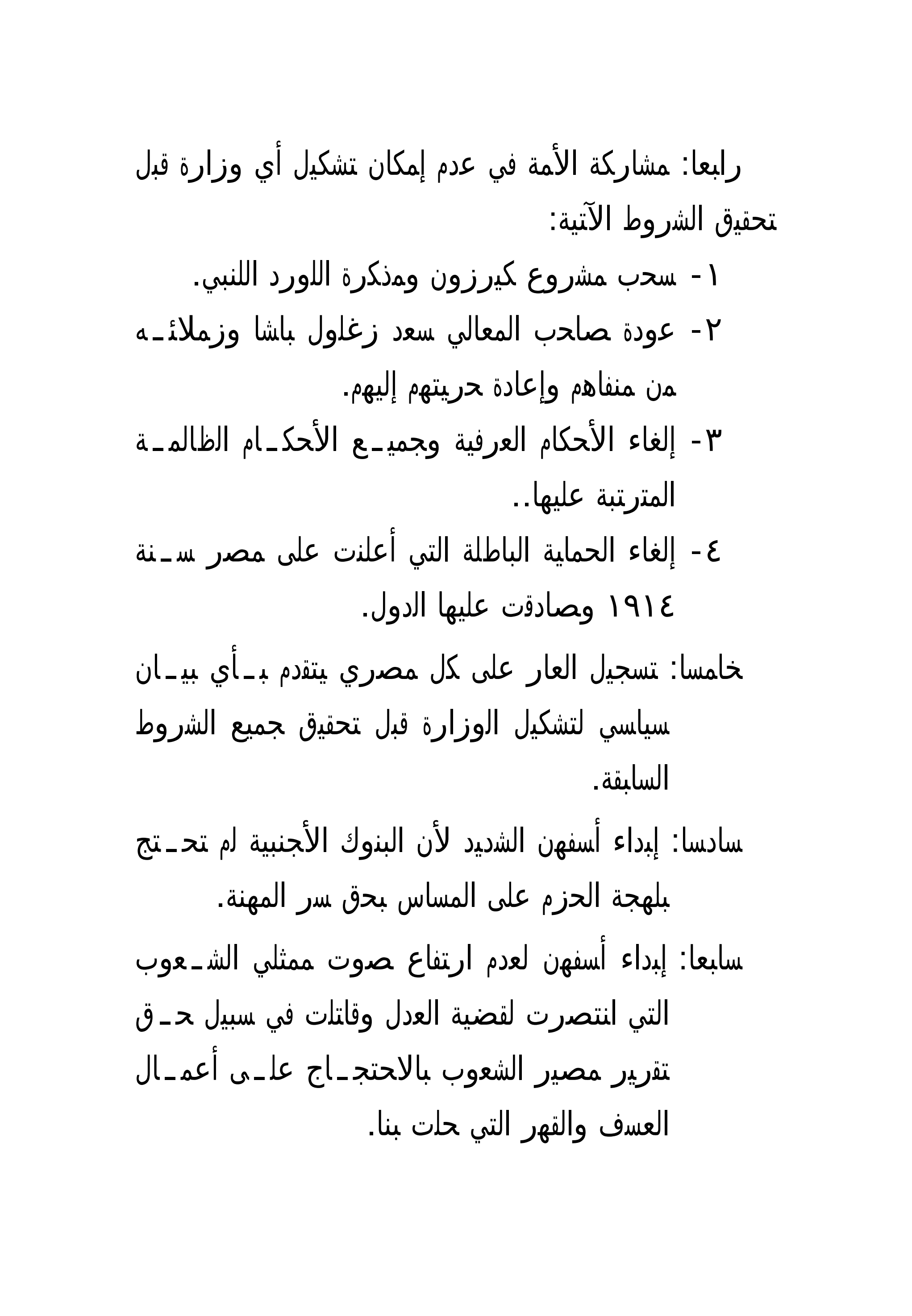
قرار:

وفي ٢٠ يناير ١٩٢٢ اجتمعت السيدات المصريات في جلسة فوق العادة، وقررن ما يأتي:

أولاً: إعلان إيمانهن القوي في مستقبل بلادهن.

ثانيا: تقديم أسمى عبارات الاحترام إلى زعيم الأمة وإهداء تحياتهن إلى رفاقه في المنفى.

ثالثًا: المعارضة بكل ما لديهن من قوة لفكرة تشكيل وزارة في الظروف الحاضرة.



رابعا: مشاركة الأمة في عدم إمكان تشكيل أي وزارة قبل تحقيق الشروط الآتية:

١- سحب مشروع كيرزون ومذكرة اللورد اللنبي.

٢- عودة صاحب المعالي سعد زغلول باشا وزملائه من منفاهم وإعادة حريتهم إليهم.

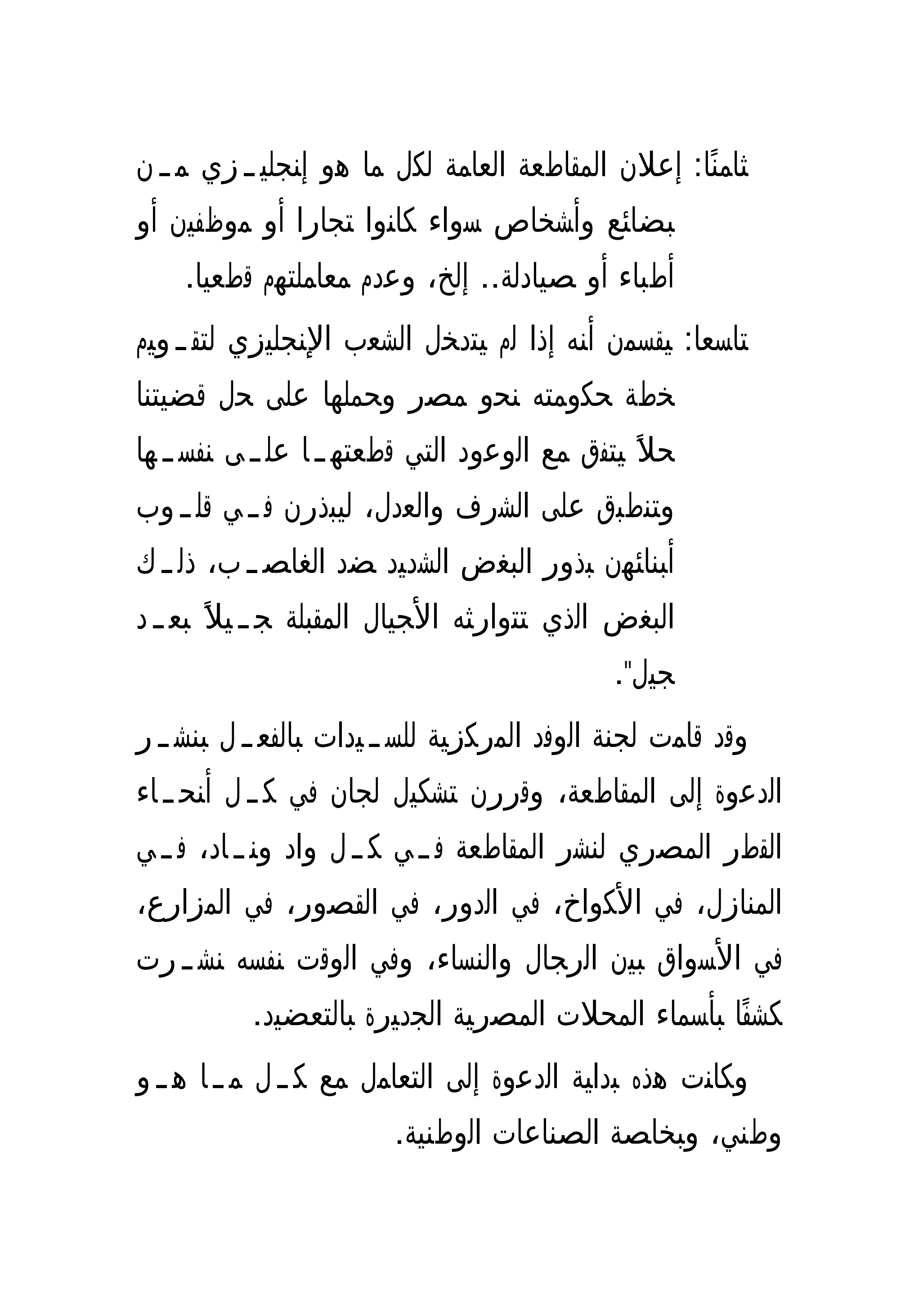
٣- إلغاء الأحكام العرفية وجميع الأحكام الظالمة المترتبة عليها..

٤- إلغاء الحماية الباطلة التي أعلنت على مصر سنة ١٩١٤ وصادقت عليها الدول.

خامسا: تسجيل العار على كل مصري يتقدم بأي بيان سياسي لتشكيل الوزارة قبل تحقيق جميع الشروط السابقة.

سادسا: إبداء أسفهن الشديد لأن البنوك الأجنبية لم تحتج بلهجة الحزم على المساس بحق سر المهنة.

سابعا: إبداء أسفهن لعدم ارتفاع صوت ممثلي الشعوب التي انتصرت لقضية العدل وقاتلت في سبيل حق تقرير مصير الشعوب بالاحتجاج على أعمال العسف والقهر التي حلت بنا.

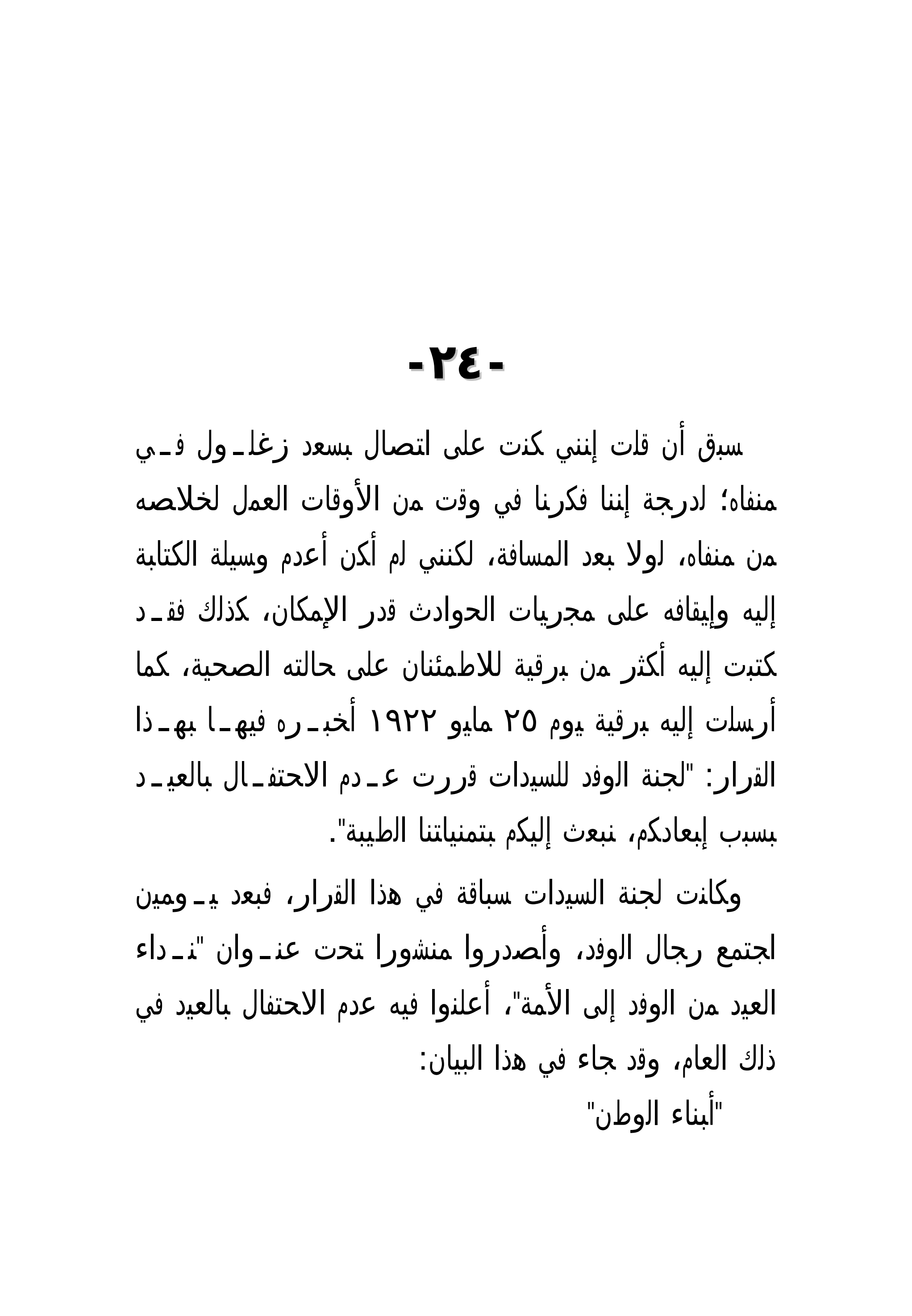


ثامنًا: إعلان المقاطعة العامة لكل ما هو إنجليزي من بضائع وأشخاص سواء كانوا تجارا أو موظفين أو أطباء أو صيادلة.. إلخ، وعدم معاملتهم قطعيا.

تاسعا: يقسمن أنه إذا لم يتدخل الشعب الإنجليزي لتقويم خطة حكومته نحو مصر وحملها على حل قضيتنا حلاً يتفق مع الوعود التي قطعتها على نفسها وتنطبق على الشرف والعدل، ليبذرن في قلوب أبنائهن بذور البغض الشديد ضد الغاصب، ذلك البغض الذي تتوارثه الأجيال المقبلة جيلاً بعد جيل".

وقد قامت لجنة الوفد المركزية للسيدات بالفعل بنشر الدعوة إلى المقاطعة، وقررن تشكيل لجان في كل أنحاء القطر المصري لنشر المقاطعة في كل واد وناد، في المنازل، في الأكواخ، في الدور، في القصور، في المزارع، في الأسواق بين الرجال والنساء، وفي الوقت نفسه نشرت كشفًا بأسماء المحلات المصرية الجديرة بالتعضيد.

وكانت هذه بداية الدعوة إلى التعامل مع كل ما هو وطني، وبخاصة الصناعات الوطنية.

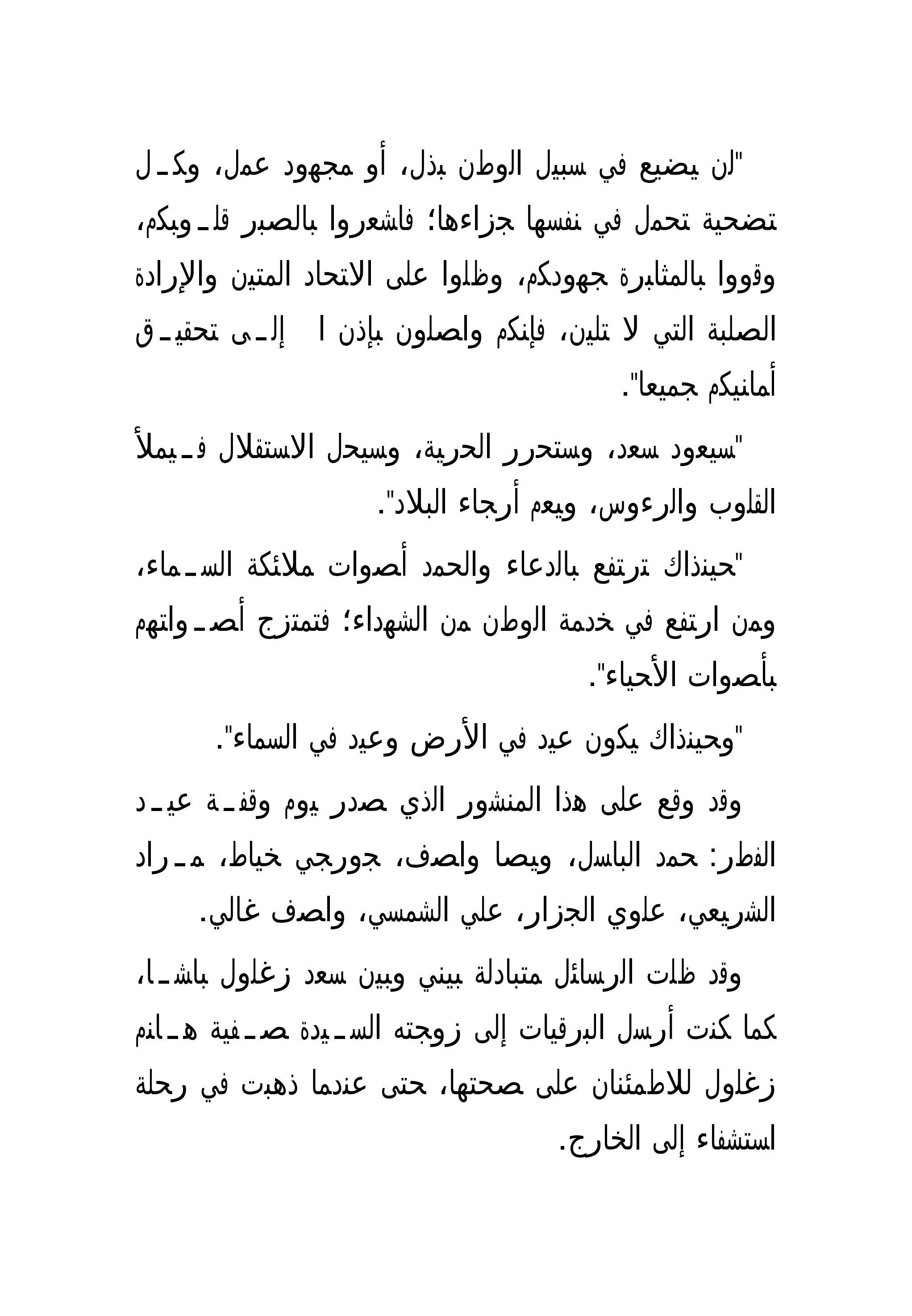


-٢٤-

سبق أن قلت إنني كنت على اتصال بسعد زغلول في منفاه؛ لدرجة إننا فكرنا في وقت من الأوقات العمل لخلاصه من منفاه، لولا بعد المسافة، لكنني لم أكن أعدم وسيلة الكتابة إليه وإيقافه على مجريات الحوادث قدر الإمكان، كذلك فقد كتبت إليه أكثر من برقية للاطمئنان على حالته الصحية، كما أرسلت إليه برقية يوم ٢٥ مايو ١٩٢٢ أخبره فيها بهذا القرار: "لجنة الوفد للسيدات قررت عدم الاحتفال بالعيد بسبب إبعادكم، نبعث إليكم بتمنياتنا الطيبة".

وكانت لجنة السيدات سباقة في هذا القرار، فبعد يومين اجتمع رجال الوفد، وأصدروا منشورا تحت عنوان "نداء العيد من الوفد إلى الأمة"، أعلنوا فيه عدم الاحتفال بالعيد في ذلك العام، وقد جاء في هذا البيان:

"أبناء الوطن"



"لن يضيع في سبيل الوطن بذل، أو مجهود عمل، وكـل تضحية تحمل في نفسها جزاءها؛ فاشعروا بالصبر قلـوبكم، وقووا بالمثابرة جهودكم، وظلوا على الاتحاد المتين والإرادة الصلبة التي لا تلين، فإنكم واصلون بإذن ا إلـى تحقيـق أمانيكم جميعا".

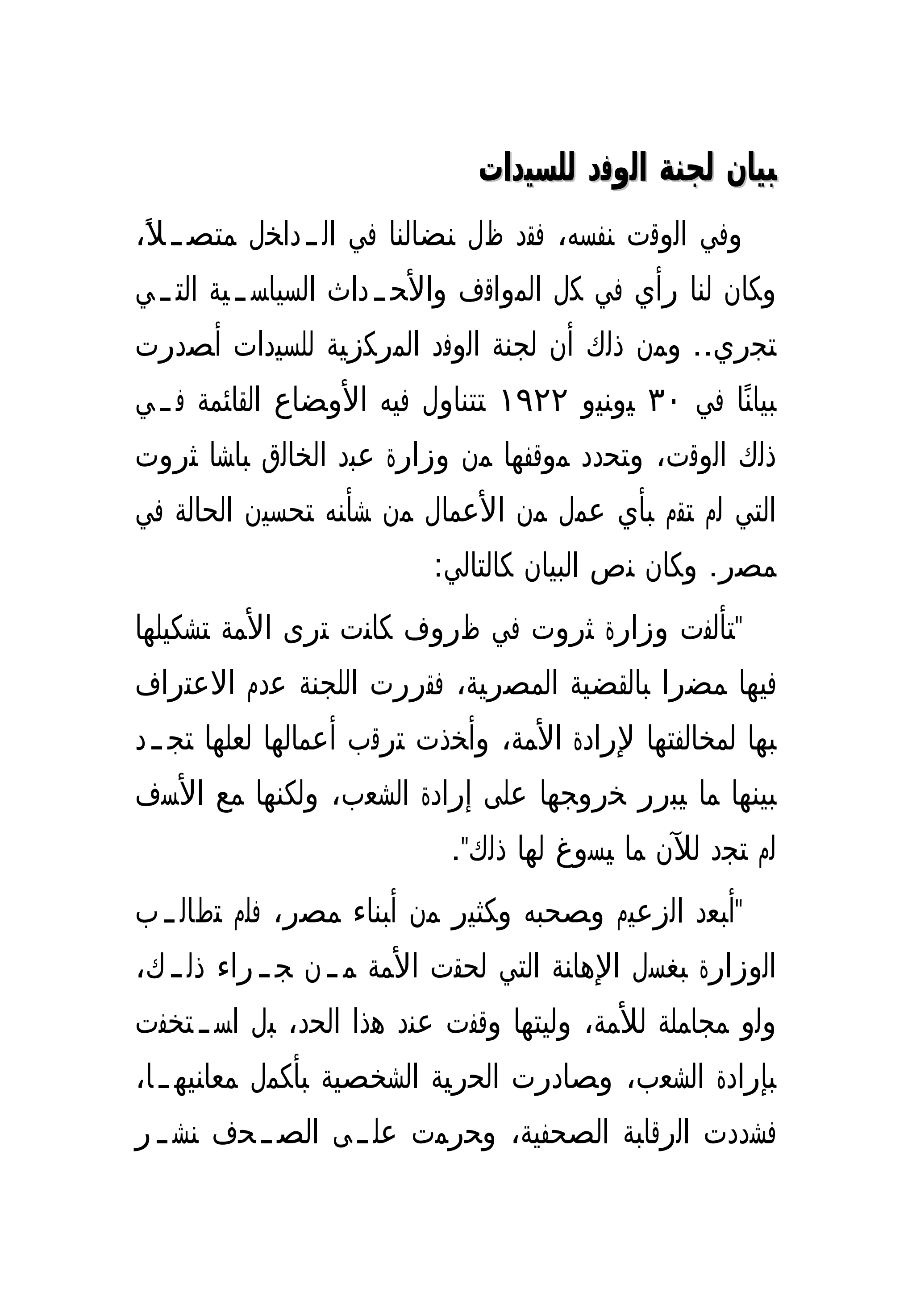
"سيعود سعد، وستحرر الحرية، وسيحل الاستقلال فـيملأ القلوب والرءوس، ويعم أرجاء البلاد".

"حينذاك ترتفع بالدعاء والحمد أصوات ملائكة السـماء، ومن ارتفع في خدمة الوطن من الشهداء؛ فتمتزج أصـواتهم بأصوات الأحياء".

"وحينذاك يكون عيد في الأرض وعيد في السماء".

وقد وقع على هذا المنشور الذي صدر يوم وقفـة عيـد الفطر: حمد الباسل، ويصا واصف، جورجي خياط، مـراد الشريعي، علوي الجزار، علي الشمسي، واصف غالي.

وقد ظلت الرسائل متبادلة بيني وبين سعد زغلول باشـا، كما كنت أرسل البرقيات إلى زوجته السـيدة صـفية هـانم زغلول للاطمئنان على صحتها، حتى عندما ذهبت في رحلة استشفاء إلى الخارج.



بيان لجنة الوفد للسيدات

وفي الوقت نفسه، فقد ظل نضالنا في الداخل متصلاً، وكان لنا رأي في كل المواقف والأحداث السياسية التي تجري.. ومن ذلك أن لجنة الوفد المركزية للسيدات أصدرت بيانًا في ٣٠ يونيو ١٩٢٢ تتناول فيه الأوضاع القائمة في ذلك الوقت، وتحدد موقفها من وزارة عبد الخالق باشا ثروت التي لم تقم بأي عمل من الأعمال من شأنه تحسين الحالة في مصر. وكان نص البيان كالتالي:

"تألفت وزارة ثروت في ظروف كانت ترى الأمة تشكيلها فيها مضرا بالقضية المصرية، فقررت اللجنة عدم الاعتراف بها لمخالفتها لإرادة الأمة، وأخذت ترقب أعمالها لعلها تجد بينها ما يبرر خروجها على إرادة الشعب، ولكنها مع الأسف لم تجد للآن ما يسوغ لها ذلك".

"أبعد الزعيم وصحبه وكثير من أبناء مصر، فلم تطالب الوزارة بغسل الإهانة التي لحقت الأمة من جراء ذلك، ولو مجاملة للأمة، وليتها وقفت عند هذا الحد، بل استخفت بإرادة الشعب، وصادرت الحرية الشخصية بأكمل معانيها، فشددت الرقابة الصحفية، وحرمت على الصحف نشر

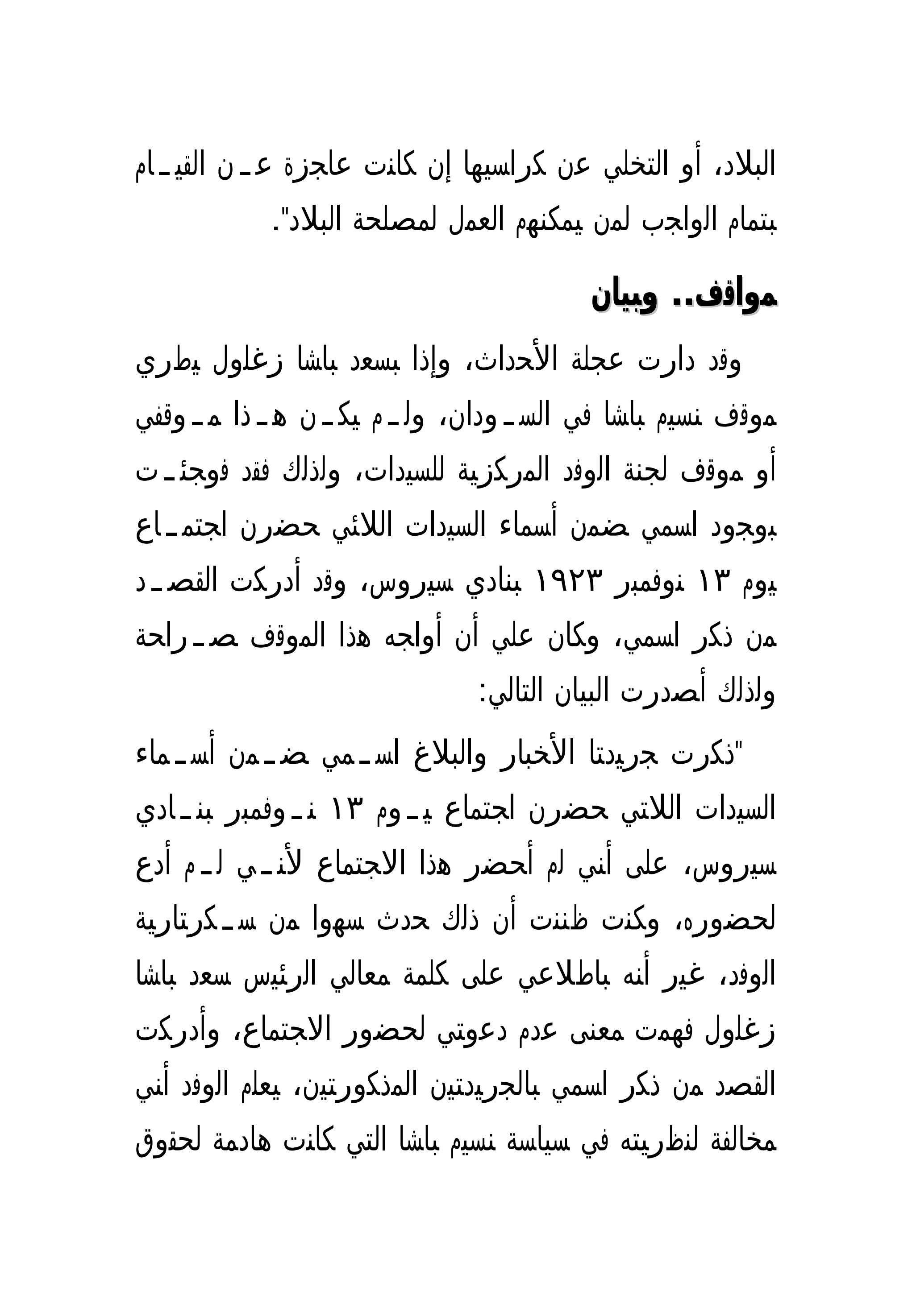
الاحتجاجات وكل ما يتعلق بالزعيم وحرمه وصـحبه حتـى ذكر أسمائهم، ما جعل محلاً للشك بأنها راضية عن إبعادهم، ومنعت الاجتماعات السلمية حتى لا يظهر معـارض لهـا، وتعدت على حقوق الأمة بتشكيل لجنـة الدسـتور، والأمـة تطالب جمعية وطنية أتت وزارة الاستقلال بكل ذلك، وانتهت بتعطيل لجنة الدستور عن العمل رغم إرادة أعضائها لأسباب ربما كانت عمل حضرات الأعضاء لصالح الأمة.

"كل ذلك والأمة صابرة صامتة تعلل نفسها بالآمال قائلـة "لعل لها عذرا وأنت تلوم"، وأما الآن وقد ظهر سـوء نيـة الإنجليز وصاروا يعملون علنًا على سلبنا حريتنـا وإذلالنـا وأخذ أموالنا وبلادنـا تـدريجيا منـا، مخـالفين عهـودهم وتصريحاتهم المتكررة؛ فهم يعملون الآن على سلخ السودان من مصر، وهو لها بمثابة الروح للجسد، واعتبار السودانيين رعايا بريطانيين رغما عنهم وعن شدة تمسـكهم بمصـر، والمصريين أجانب بالنسبة للسودانيين كما جاء في تصـريح الحاكم العام للسودان، وصادقوا على عمـل قـرض لتتمـيم خزان مكوار، مع أن العمل كان قد وقف لحين البـت فـي المسألة المصرية.

"ويضيقون على التجار المصريين في الســودان بفــرض الضرائب الباهظة عليهم ويعاملون الموظفين المصريين فــي السودان معاملة سيئة حتى يحملوهم على ترك السودان لهم. ويحاكمون المــوظفين الملكيــين والعســكريين الســودانيين لإخلاصهم لمصر، ويمنعون المحامين المصريين من الدفاع عنهم.

"يقتل رجالهم العسكريون المصريين بدون ذنــب جنــوه، وحادثة بائع البطيخ بشارع الشيخ حمزة أعظم شاهد لــذلك، وكثيرا أمثالها من الحوادث التي لم ولن تعلم".

"يعملون على منح الموظفين الإنجليز بمصر بدل اغتراب مع ضيق ميزانية الحكومة المصرية، ويطلبون فرض مبالــغ كبير بصفة تعويض على الخزينة المصرية لكــل إنجليــزي يقتل بأي سبب من الأسباب، واعتبار أسباب القتل سياسية مع أنه لا توجد قرائن للآن تدل على أن القاتل مصــري، ولــم تعارض الحكومة في أي أمر من الأمور السابقة، ولم تقــف موقف الدفاع عن حقوق مصر وأبنائها كما يجب، فلا يسعنا إلا مصارحتها القول ومطالبتها بالسهر والعمــل لمصــلحة



البلاد، أو التخلي عن كراسيها إن كانت عاجزة عن القيام بتمام الواجب لمن يمكنهم العمل لمصلحة البلاد".

مواقف.. وبيان

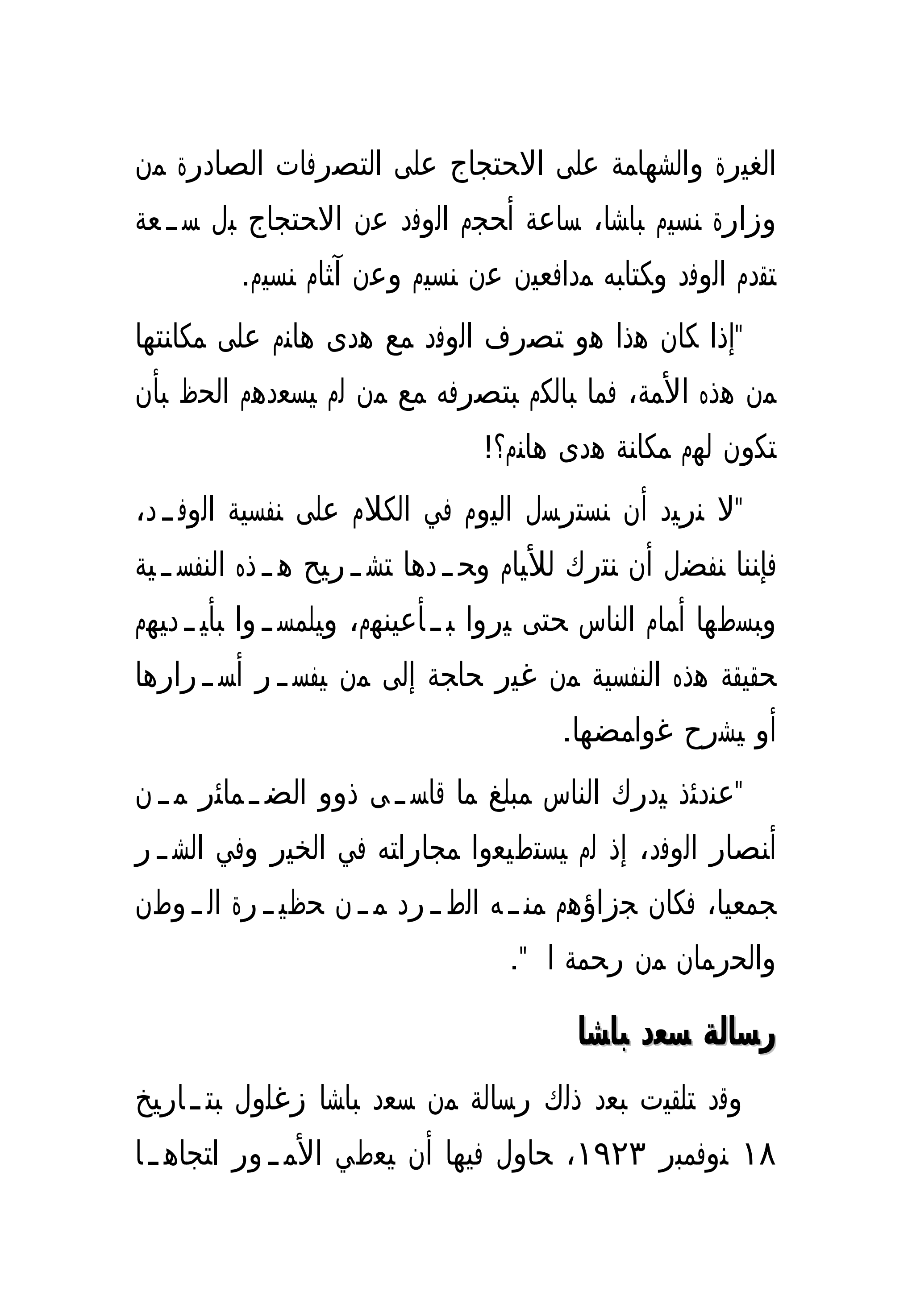
وقد دارت عجلة الأحداث، وإذا بسعد باشا زغلول يطري موقف نسيم باشا في السودان، ولم يكن هذا موقفي أو موقف لجنة الوفد المركزية للسيدات، ولذلك فقد فوجئت بوجود اسمي ضمن أسماء السيدات اللائي حضرن اجتماع يوم ١٣ نوفمبر ١٩٢٣ بنادي سيروس، وقد أدركت القصد من ذكر اسمي، وكان علي أن أواجه هذا الموقف صراحة ولذلك أصدرت البيان التالي:

"ذكرت جريدتا الأخبار والبلاغ اسمي ضمن أسماء السيدات اللاتي حضرن اجتماع يوم ١٣ نوفمبر بنادي سيروس، على أني لم أحضر هذا الاجتماع لأني لم أدع لحضوره، وكنت ظننت أن ذلك حدث سهوا من سكرتارية الوفد، غير أنه باطلاعي على كلمة معالي الرئيس سعد باشا زغلول فهمت معنى عدم دعوتي لحضور الاجتماع، وأدركت القصد من ذكر اسمي بالجريدتين المذكورتين، يعلم الوفد أني مخالفة لنظريته في سياسة نسيم باشا التي كانت هادمة لحقوق

البلاد، ولذلك لم يدعني لتلك الحفلة مكتفيا بذكر اسمي بين أسماء الحاضرات، ولما كنت أخشى إذا لزمت الصمت أن يستنتج الشعب المصري الكريم من صمتي، موافقتي على نظرية معالي الرئيس والوفد في أعمال نسيم باشا وتمجيدها لحفلته التي احتجت عليها لجنتنا في حينه، فإني مع احترامي لمعالي الرئيس أرى من واجبي في الظروف الحرجة التي تجتازها البلاد أن أجاهر برأيي ورأي اللجنة، مجددة احتجاجنا على أعمال نسيم باشا وما نتج عنها من تفريط في حقوق البلاد، وأسأل ا أن يرشدنا جميعا إلى الطريق السوي بمنه وكرمه".

هدى شعراوي

وأذكر أن إحدى الصحف قد علقت على هذا البيان فقالت: "إنا لنرى في هذا البيان الموجز معاني كبيرة تدعو إلى التبصر والتفكير. ليس في مصر من أقصاها لأقصاها من ينكر على هدى هانم وطنيتها العالية وإخلاصها الذي لا تشوبه شائبة. وليس في مصر من ينكر ما للسيدة هدى هانم من اليد البيضاء على الوفد المصري نفسه. وليس في مصر من ينكر عليها وعلى أعضاء لجنتها ما أبدين من



الغيرة والشهامة على الاحتجاج على التصرفات الصادرة من وزارة نسيم باشا، ساعة أحجم الوفد عن الاحتجاج بل سعة تقدم الوفد وكتابه مدافعين عن نسيم وعن آثام نسيم.

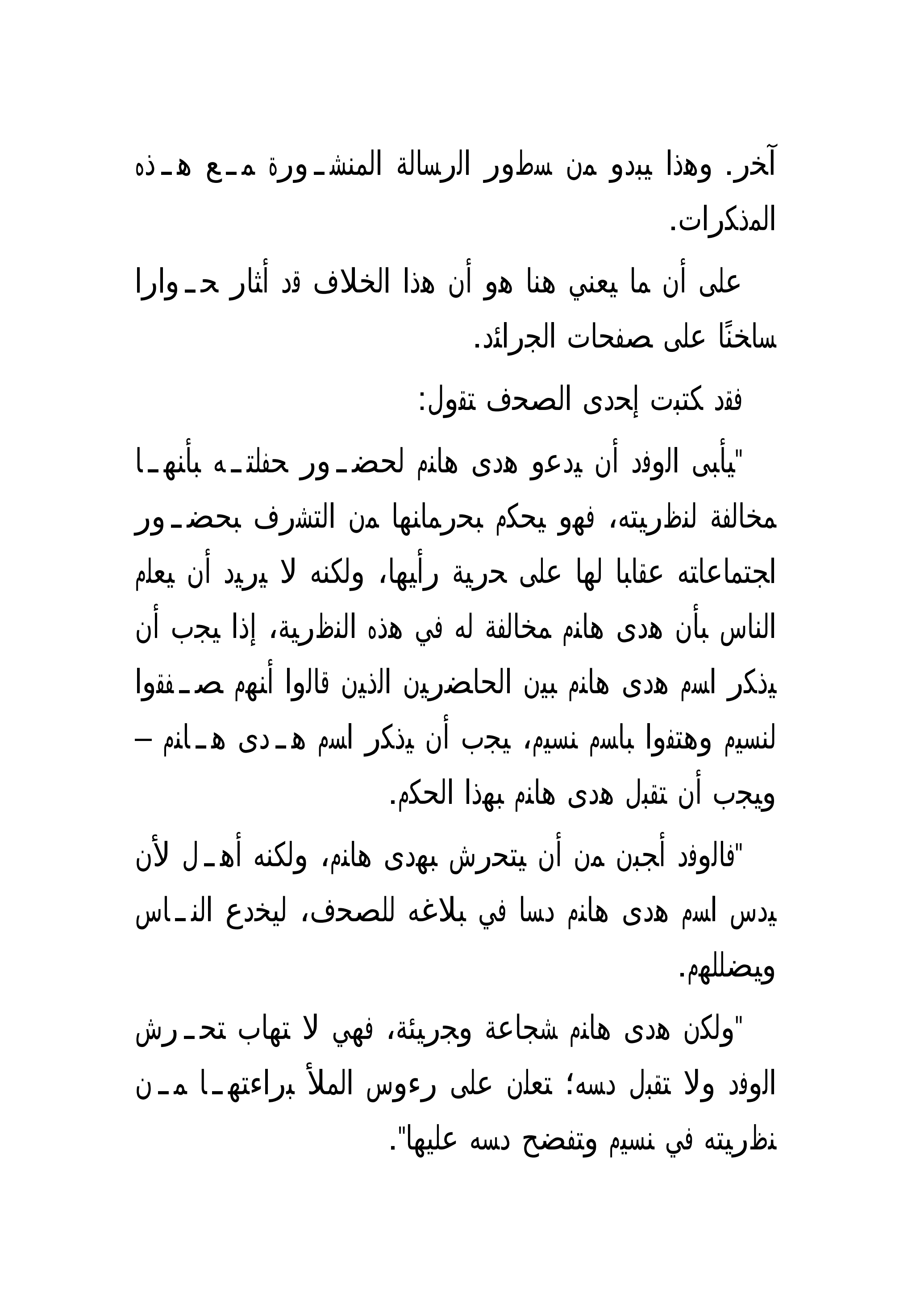
"إذا كان هذا هو تصرف الوفد مع هدى هانم على مكانتها من هذه الأمة، فما بالكم بتصرفه مع من لم يسعدهم الحظ بأن تكون لهم مكانة هدى هانم؟!

"لا نريد أن نسترسل اليوم في الكلام على نفسية الوفد، فإننا نفضل أن نترك للأيام وحدها تشريح هذه النفسية وبسطها أمام الناس حتى يروا بأعينهم، ويلمسوا بأيديهم حقيقة هذه النفسية من غير حاجة إلى من يفسر أسرارها أو يشرح غوامضها.

"عندئذ يدرك الناس مبلغ ما قاسى ذوو الضمائر من أنصار الوفد، إذ لم يستطيعوا مجاراته في الخير وفي الشر جمعيا، فكان جزاؤهم منه الطرد من حظيرة الوطن والحرمان من رحمة ا ".

رسالة سعد باشا

وقد تلقيت بعد ذلك رسالة من سعد باشا زغلول بتاريخ ١٨ نوفمبر ١٩٢٣، حاول فيها أن يعطي الأمور اتجاها



آخر. وهذا يبدو من سطور الرسالة المنشورة مع هذه المذكرات.

على أن ما يعني هنا هو أن هذا الخلاف قد أثار حوارا ساخنًا على صفحات الجرائد.

فقد كتبت إحدى الصحف تقول:

"يأبى الوفد أن يدعو هدى هانم لحضور حفلته بأنها مخالفة لنظريته، فهو يحكم بحرمانها من التشرف بحضور اجتماعاته عقابا لها على حرية رأيها، ولكنه لا يريد أن يعلم الناس بأن هدى هانم مخالفة له في هذه النظرية، إذا يجب أن يذكر اسم هدى هانم بين الحاضرين الذين قالوا أنهم صفقوا لنسيم وهتفوا باسم نسيم، يجب أن يذكر اسم هدى هانم – ويجب أن تقبل هدى هانم بهذا الحكم.

"فالوفد أجبن من أن يتحرش بهدى هانم، ولكنه أهل لأن يدس اسم هدى هانم دسا في بلاغه للصحف، ليخدع الناس ويضللهم.

"ولكن هدى هانم شجاعة وجريئة، فهي لا تهاب تحرش الوفد ولا تقبل دسه؛ تعلن على رءوس الملأ براءتها من نظريته في نسيم وتفضح دسه عليها".

وردت صحيفة أخرى على ما نشرته صحيفة "الليبرتية"، فقالت: يتعرض ذلك الكاتب السفيه في الليبرتية لهدى هـانم، فيصف كلمتها للصحف بأنها باعثة على السخرية والضحك، لا يستحي هؤلاء المتطفلون على مصر أن يرموا أبر أبنـاء مصر بسفاهاتهم ووقاحتهم.. ولكن ماذا يضير كتاب الليبرتية أن يطعنوا في كبار مصر وكبيراتها؟

"يظهر هؤلاء الكُتاب التحمس لسعد ولنسيم لأن مال سعد وفير، ولأن نسيما أغدق عليهم النعم فـي وزارتـه، وسـعد ونسيم لا يهمهما إلا أن يطعن كل إنسان يحـاول أن يحـتفظ بكرامته وحرية رأيه فكيف إذًا تجرؤ هدى هانم على تبرئـة نفسها من أي مخالفة لرأي أريد إلصاقه بها غصبا؟!".

ولست أريد أن أستطرد في ذكر تفاصيل كل ما حدث في ذلك الوقت، ولكنني فقط أردت أن أبين أبعاد الموقف الـذي حدث في احتفال ١٣ نوفمبر ١٩٢٣، وهو الموقـف الـذي ترتب على حوار سابق دار بيني وبين سعد باشا زغلول أثناء عودته إلى مصر من منفاه، فقد حدث إنني كنت في أوربا في ذلك الوقت، وشاءت الأقدار أن أعود على الباخرة نفسها التي عاد عليها سعد، وتطرق الحديث أثناء رحلـة العـودة إلـى

مسائل شتى، إلى أن انتهى عند موقفي من وزارة نسيم باشا بسبب التفريط في السودان.

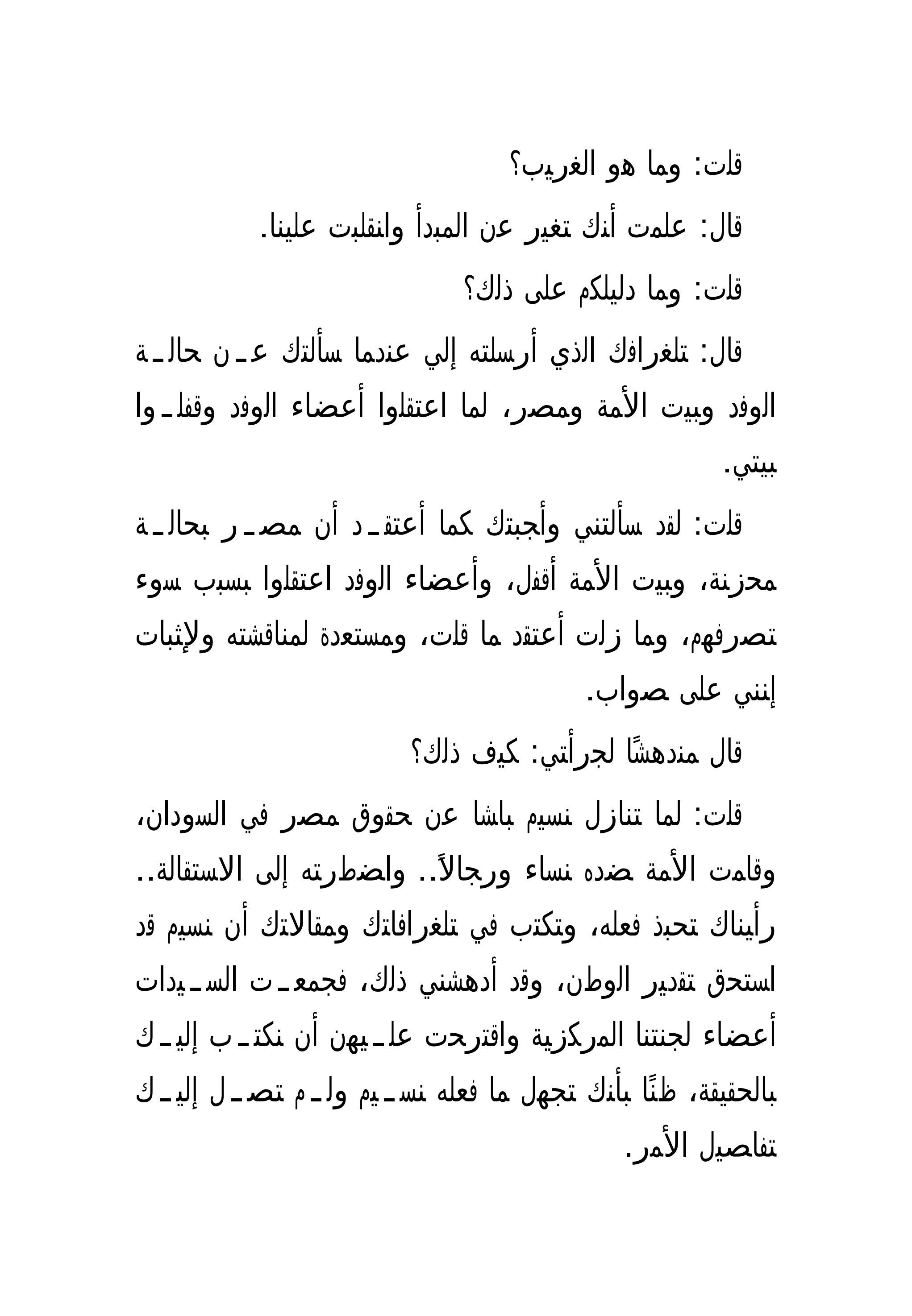
ورغم إنني ذهبت إلى بيت الأمة مهنئة بعد عـودة سـعد باشا إلى البلاد، فإنه ظل على موقفه مني، وبدا ذلك بوضوح في احتفال ١٣ نوفمبر ١٩٢٣، وإن كان قد حاول أن يغلـف هذا الموقف بدواع وتفسيرات أخرى، أراد بلباقته أن يردهـا إلى موقف لجنة الاحتفال، وليس إلى موقف الوفد نفسه.

أما ماذا دار بيننا من حوار العودة، فهذه هي القصة على ظهر الباخرة أثناء رحلته، وهي قصة نشرت في ذلك الحين، وكان نشرها هو الذي دفع سعد باشا إلى كتابة رسالته.

-٢٥-

كان الغرض من هذا البيان هو ألا يظن الناس إنني كنت أشارك سعد باشا زغلول آراءه في إطراء نسيم باشا الذي تناول عن حق مصر في السودان، فقد اعتبر سعد باشا أن تخلي نسيم باشا عن الحكم بعد فعلته، جعله يستحق تقدير الوطن، وكان هذا الاختلاف في وجهات النظر موضع مناقشة حادة قامت بيني وبين سعد باشا بشأن هذا الموضوع، عندما تقابلنا على باخرة واحدة في رحلة العودة من أوربا؛ حيث كان هو إذ ذاك عائدا من منفاه.

رست الباخرة في "برنديزي"؛ حيث كنت في انتظارها للعودة إلى مصر، ولما ركبت الباخرة، علمت أن سعد باشا عائد على ظهرها من جبل طارق، فبادرت بزيارته، وهنأته على إطلاق سراحه وعودته إلى وطنه المحبوب، وبعد أن شكرني، قال وهو مطرق: غريب جدا!.



قلت: وما هو الغريب؟

قال: علمت أنك تغير عن المبدأ وانقلبت علينا.

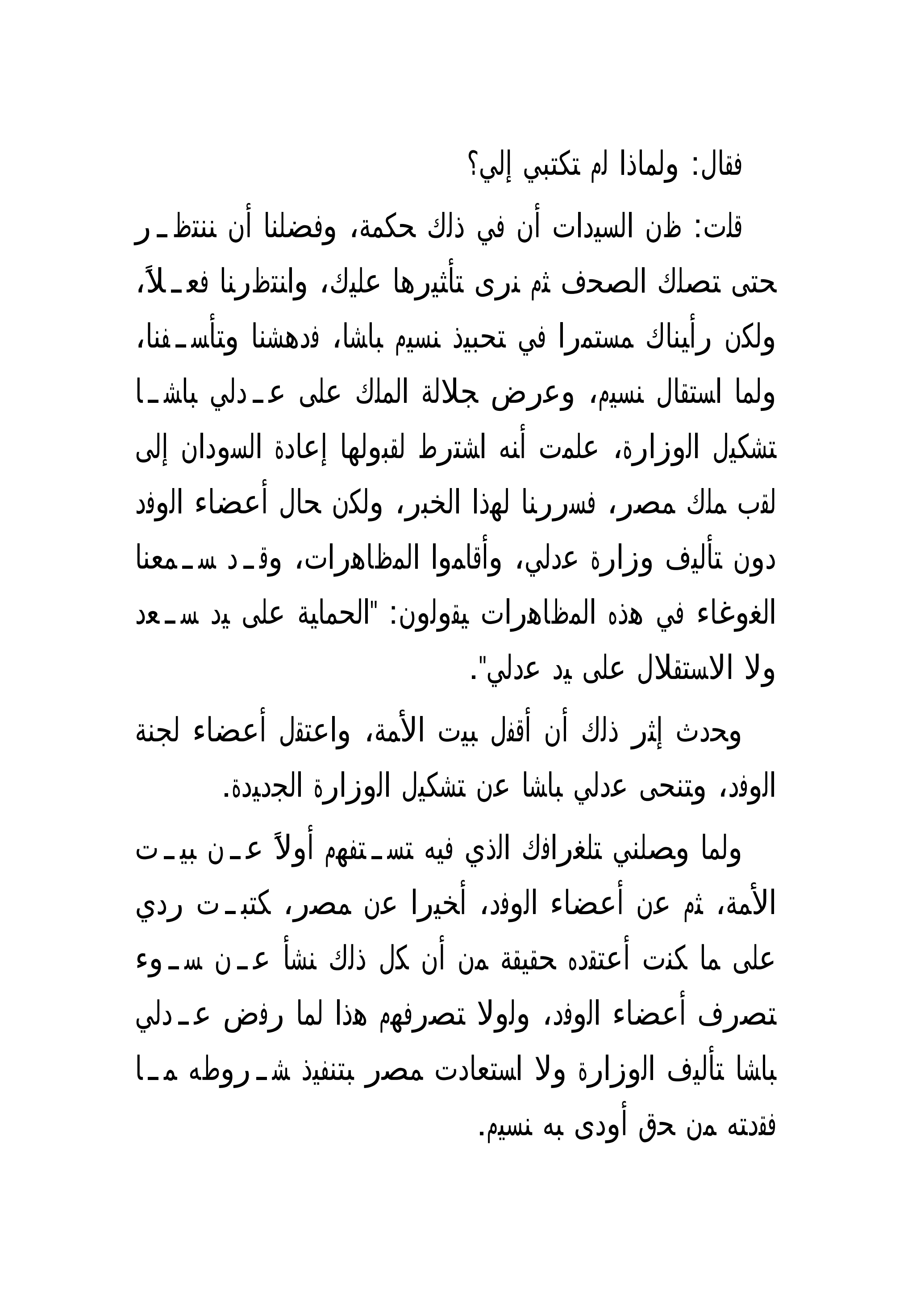
قلت: وما دليلكم على ذلك؟

قال: تلغرافك الذي أرسلته إلي عندما سألتك عـن حالـة الوفد وبيت الأمة ومصر، لما اعتقلوا أعضاء الوفد وقفلـوا بيتي.

قلت: لقد سألتني وأجبتك كما أعتقـد أن مصـر بحالـة محزنة، وبيت الأمة أقفل، وأعضاء الوفد اعتقلوا بسبب سوء تصرفهم، وما زلت أعتقد ما قلت، ومستعدة لمناقشته ولإثبات إنني على صواب.

قال مندهشًا لجرأتي: كيف ذلك؟

قلت: لما تنازل نسيم باشا عن حقوق مصر في السودان، وقامت الأمة ضده نساء ورجالاً.. واضطرته إلى الاستقالة.. رأيناك تحبذ فعله، وتكتب في تلغرافاتك ومقالاتك أن نسيم قد استحق تقدير الوطن، وقد أدهشني ذلك، فجمعـت السـيدات أعضاء لجنتنا المركزية واقترحت علـيهن أن نكتـب إليـك بالحقيقة، ظنًا بأنك تجهل ما فعله نسـيم ولـم تصـل إليـك تفاصيل الأمر.



فقال: ولماذا لم تكتبي إلي؟

قلت: ظن السيدات أن في ذلك حكمة، وفضلنا أن ننتظر حتى تصلك الصحف ثم نرى تأثيرها عليك، وانتظرنا فعلاً، ولكن رأيناك مستمرا في تحبيذ نسيم باشا، فدهشنا وتأسفنا، ولما استقال نسيم، وعرض جلالة الملك على عدلي باشا تشكيل الوزارة، علمت أنه اشترط لقبولها إعادة السودان إلى لقب ملك مصر، فسررنا لهذا الخبر، ولكن حال أعضاء الوفد دون تأليف وزارة عدلي، وأقاموا المظاهرات، وقد سمعنا الغوغاء في هذه المظاهرات يقولون: "الحماية على يد سعد ولا الاستقلال على يد عدلي".

وحدث إثر ذلك أن أقفل بيت الأمة، واعتقل أعضاء لجنة الوفد، وتنحى عدلي باشا عن تشكيل الوزارة الجديدة.

ولما وصلني تلغرافك الذي فيه تستفهم أولاً عن بيت الأمة، ثم عن أعضاء الوفد، أخيرا عن مصر، كتبت ردي على ما كنت أعتقده حقيقة من أن كل ذلك نشأ عن سوء تصرف أعضاء الوفد، ولولا تصرفهم هذا لما رفض عدلي باشا تأليف الوزارة ولا استعادت مصر بتنفيذ شروطه ما فقدته من حق أودى به نسيم.

فقال في ارتباك: أنا لا أحب نسيم، ولكني أعتقد أنه أحرج وتورط، وأنه أدى خدمة باستقالته.. ألم تقرئي ما نشره في الجرائد بعد ذلك؟

فقلت له: أني أدهش يا باشا من أنك ما زلت تجد في استقالة نسيم بعد تسليمه، شيئًا من الشجاعة والوطنية، لقد كان في إمكانه أن يستقيل قبل أن يفرط في حقوق البلاد.

فقال: ليس هذا ذنبه، لقد قدم استقالته، ولكن جلالة الملك لم يقبلها وجميع الوزراء في حضرته، وقال لهم إن في إصرارهم هذا خطرا على العرش.. وبكى واستبكاهم، فلم يسع نسيم إلا النزول على رغبة الملك، فإذًا هو معذور.

قلت له في دهشة كبرى: هل كنت تفعل هذا لو كنت محل نسيم باشا؟ تبيع البلد لأجل دموع الملك؟

فقال: لا.. لا..

قلت: لماذا إذا تحبذ ما لا تفعله؟

فسكت دون أن يظهر أي غضب، فظننت أنه اقتنع.

الحجاب الشرعي

وبعد ذلك دار الحديث في موضوعات أخرى، وقـد بـدأ يهنئني على توفيقي في الوصول إلى رفع الحجـاب وكيفيـة عمل الحجاب الشرعي الذي أرتديه، وقال إنه قد سر عنـدما رأى صورتي بهذا الزي الجديد في منفاه، ثم طلب من السيدة حرمه أن تقلدني، فوعدت بذلك.

وصرنا في وفاق وائتناس، وسعد باشا في تواضع غريب حتى اقتربنا من الإسكندرية، وبينما كنت جالسة مع صـفية هانم على ظهر الباخرة، أقبل سعد باشا متهللاً بيده برقيـة، وقال: صفية.. أتدرين ممن هذه البرقية؟

قالت: لا..

قال: هي من إسماعيل باشا أباظة..

وقرأ علينا ما معناه: "أكتب إليك هذا وأنا على حافة القبر، ولا أنتظر من الحياة شيئًا وليس لي مطمح فيها، راجيـا أن تزيل كل خلاف بينك وبين خصومك في خدمة الـبلاد، وأن توحد صفوف الأمة لخدمة الوطن.

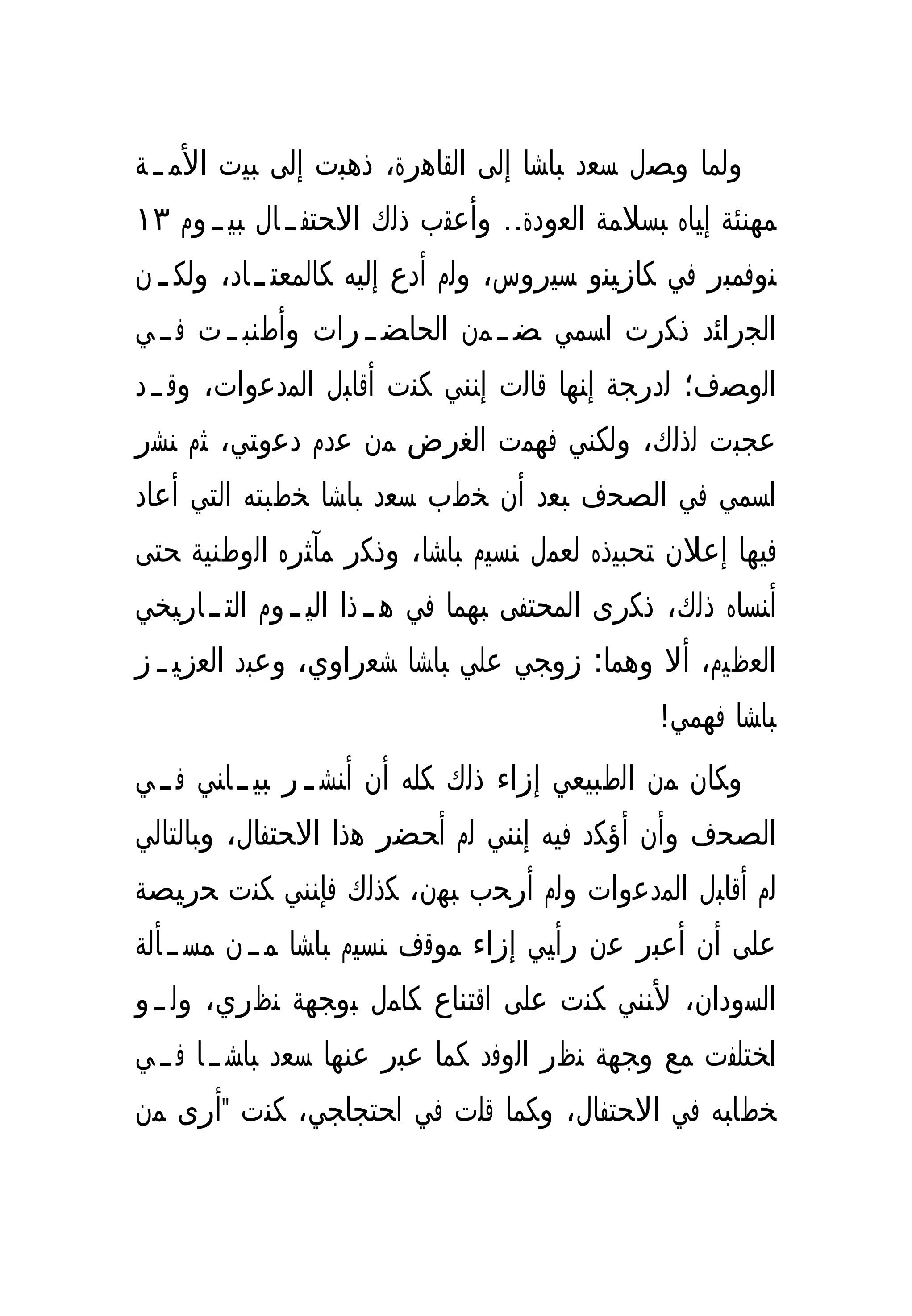
فقالت له صفية هانم: وهل ستجيب عليها؟

فقال: أنا؟

وسكت..

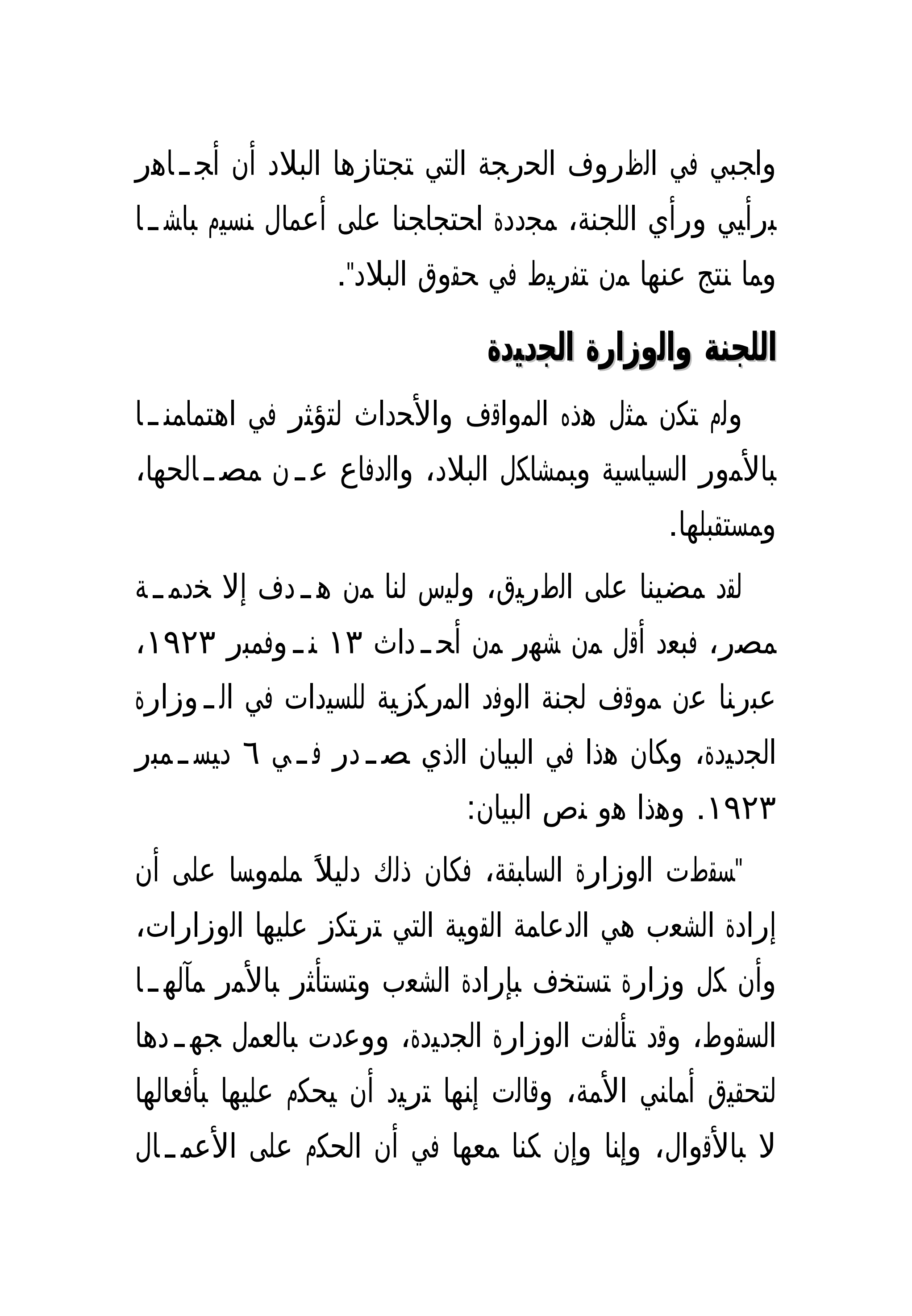
وقد قلت في نفسي: لقد عادت له عظمته لما فهم من هذه البرقية أن الأمة المصرية ما زالت تؤيده، وما كان ذلك التواضع الغريب الذي لاحظته إلا لظنه أنه فقد شيئًا من ثقة الأمة بتحبيذه لموقف نسيم باشا الذي أغضبها، ولكنه فهم من برقية إسماعيل أباظة باشا أن مركزه ما زال محفوظًا، وإلا لما تنازل أباظة بكتابة هذه البرقية إليه، وقد زاد في اطمئنانه ذلك الاستقبال العظيم الذي ظهرت بوادره عند دخول السفينة البوغاز، فقد التفت حولها القوارب المليئة بالجماهير الهاتفة باسمه.

صعدت إلى ظهر الباخرة للنزول، وإذ بصفية هانم تقابلني ببرقعها وملاءتها. فقلت لها: "أين وعدك لسعد باشا بارتداء الإزار الشرعي؟" فقالت: "أنا ليس لي زوج واحد.. واصف باشا غالي استحسن ألا أغير زيي حتى لا أحدث تأثيرا سيئًا في المستقبلين".. فعجبت من ذلك، وصافحتها، ونزلت إلى اللنش الذي كان في انتظاري.



ولما وصل سعد باشا إلى القاهرة، ذهبت إلى بيت الأمة مهنئة إياه بسلامة العودة.. وأعقب ذلك الاحتفال بيوم ١٣ نوفمبر في كازينو سيروس، ولم أدع إليه كالمعتاد، ولكن الجرائد ذكرت اسمي ضمن الحاضرات وأطنبت في الوصف؛ لدرجة إنها قالت إنني كنت أقابل المدعوات، وقد عجبت لذلك، ولكني فهمت الغرض من عدم دعوتي، ثم نشر اسمي في الصحف بعد أن خطب سعد باشا خطبته التي أعاد فيها إعلان تحبيذه لعمل نسيم باشا، وذكر مآثره الوطنية حتى أنساه ذلك، ذكرى المحتفى بهما في هذا اليوم التاريخي العظيم، ألا وهما: زوجي علي باشا شعراوي، وعبد العزيز باشا فهمي!

وكان من الطبيعي إزاء ذلك كله أن أنشر بياني في الصحف وأن أؤكد فيه إنني لم أحضر هذا الاحتفال، وبالتالي لم أقابل المدعوات ولم أرحب بهن، كذلك فإنني كنت حريصة على أن أعبر عن رأيي إزاء موقف نسيم باشا من مسألة السودان، لأنني كنت على اقتناع كامل بوجهة نظري، ولو اختلفت مع وجهة نظر الوفد كما عبر عنها سعد باشا في خطابه في الاحتفال، وكما قلت في احتجاجي، كنت "أرى من



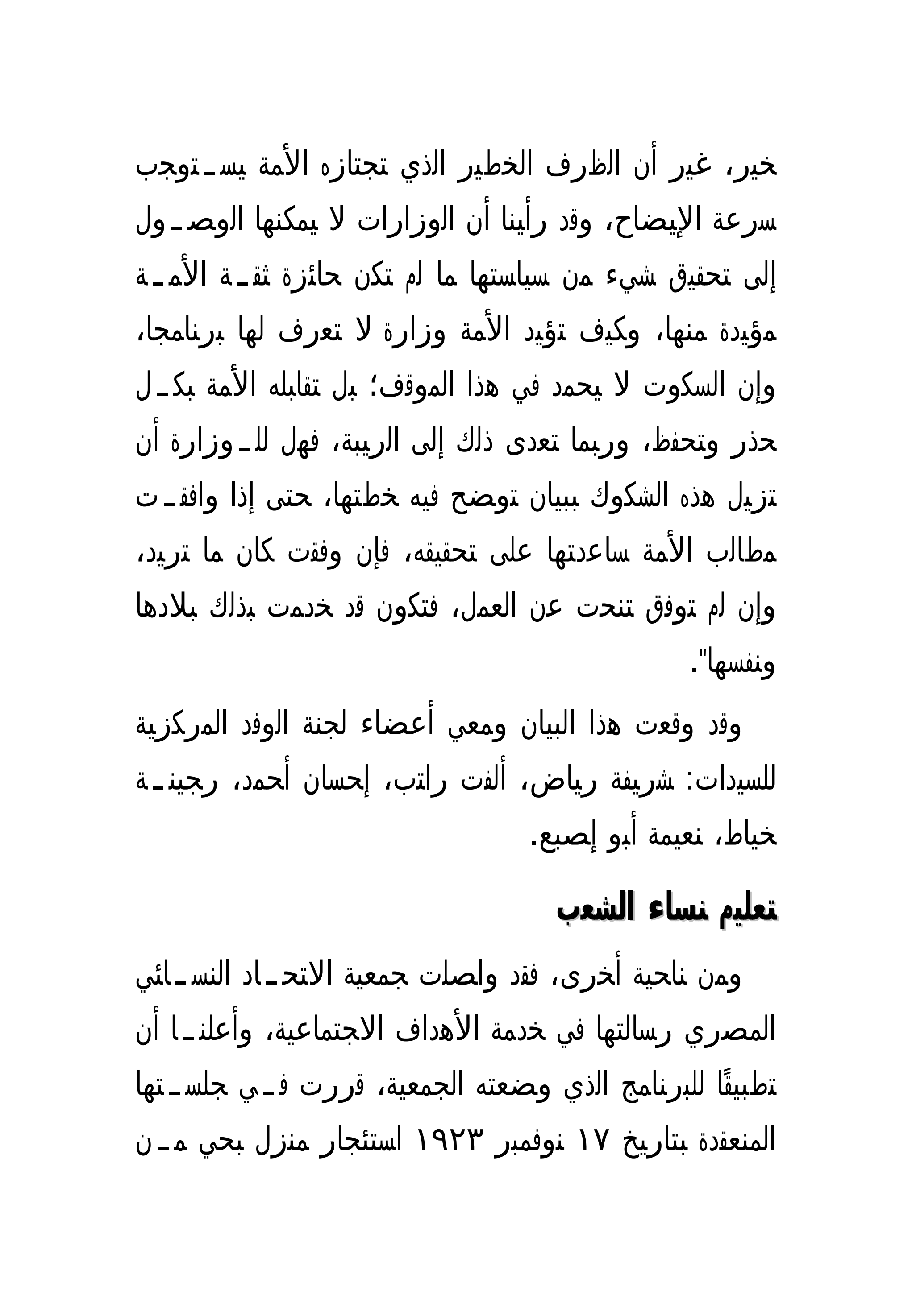
واجبي في الظروف الحرجة التي تجتازها البلاد أن أجاهر برأيي ورأي اللجنة، مجددة احتجاجنا على أعمال نسيم باشا وما نتج عنها من تفريط في حقوق البلاد".

اللجنة والوزارة الجديدة

ولم تكن مثل هذه المواقف والأحداث لتؤثر في اهتمامنا بالأمور السياسية وبمشاكل البلاد، والدفاع عن مصالحها، ومستقبلها.

لقد مضينا على الطريق، وليس لنا من هدف إلا خدمة مصر، فبعد أقل من شهر من أحداث ١٣ نوفمبر ١٩٢٣، عبرنا عن موقف لجنة الوفد المركزية للسيدات في الوزارة الجديدة، وكان هذا في البيان الذي صدر في ٦ ديسمبر ١٩٢٣. وهذا هو نص البيان:

"سقطت الوزارة السابقة، فكان ذلك دليلاً ملموسا على أن إرادة الشعب هي الدعامة القوية التي ترتكز عليها الوزارات، وأن كل وزارة تستخف بإرادة الشعب وتستأثر بالأمر مآلها السقوط، وقد تألفت الوزارة الجديدة، ووعدت بالعمل جهدها لتحقيق أماني الأمة، وقالت إنها تريد أن يحكم عليها بأفعالها لا بالأقوال، وإنا وإن كنا معها في أن الحكم على الأعمال



خير، غير أن الظرف الخطير الذي تجتازه الأمة يستوجب سرعة الإيضاح، وقد رأينا أن الوزارات لا يمكنها الوصول إلى تحقيق شيء من سياستها ما لم تكن حائزة ثقة الأمة مؤيدة منها، وكيف تؤيد الأمة وزارة لا تعرف لها برنامجا، وإن السكوت لا يحمد في هذا الموقف؛ بل تقابله الأمة بكل حذر وتحفظ، وربما تعدى ذلك إلى الريبة، فهل للوزارة أن تزيل هذه الشكوك ببيان توضح فيه خطتها، حتى إذا وافقت مطالب الأمة ساعدتها على تحقيقه، فإن وفقت كان ما تريد، وإن لم توفق تنحت عن العمل، فتكون قد خدمت بذلك بلادها ونفسها".

وقد وقعت هذا البيان ومعي أعضاء لجنة الوفد المركزية للسيدات: شريفة رياض، ألفت راتب، إحسان أحمد، رجينة خياط، نعيمة أبو إصبع.

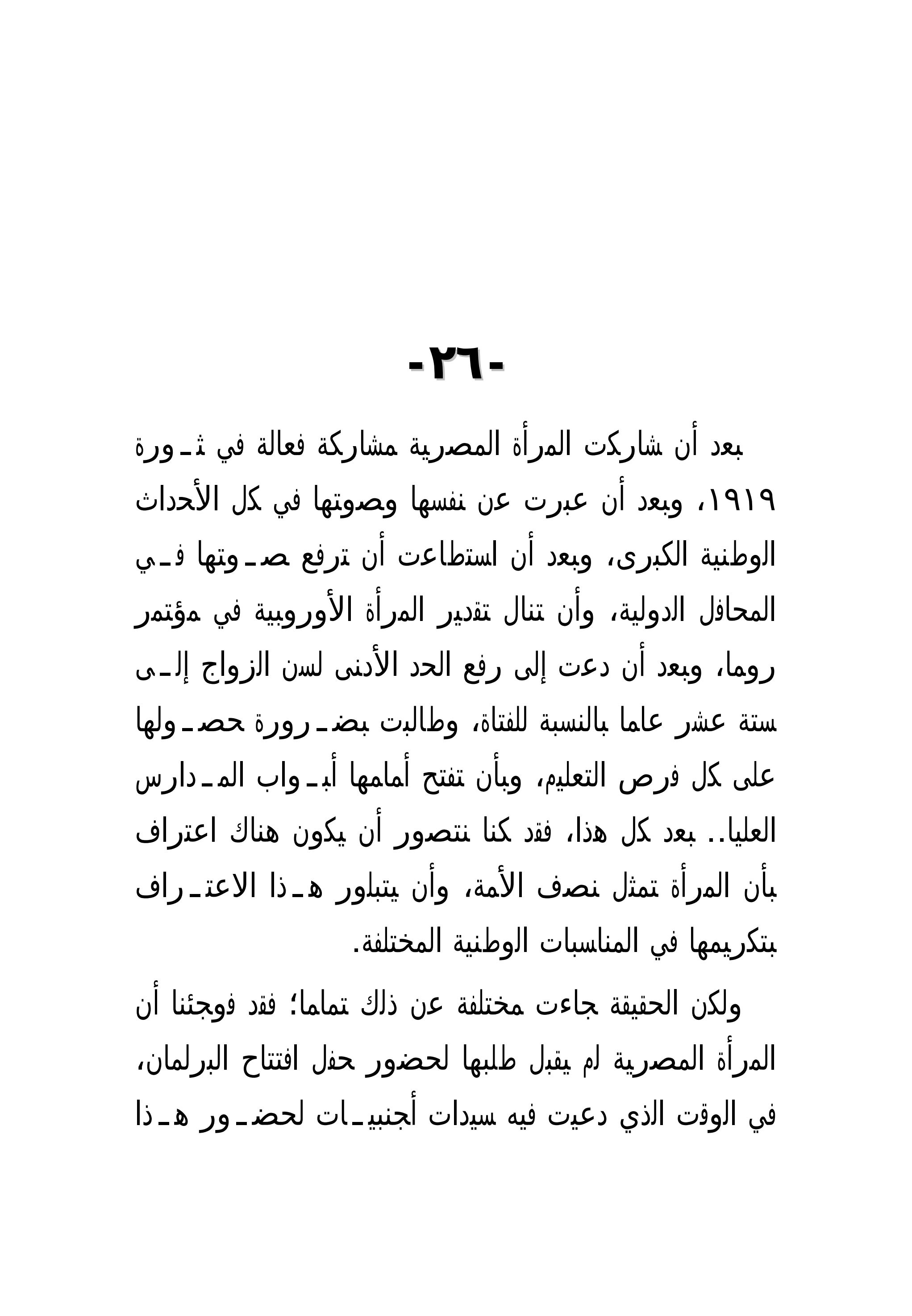
تعليم نساء الشعب

ومن ناحية أخرى، فقد واصلت جمعية الاتحاد النسائي المصري رسالتها في خدمة الأهداف الاجتماعية، وأعلنا أن تطبيقًا للبرنامج الذي وضعته الجمعية، قررت في جلستها المنعقدة بتاريخ ١٧ نوفمبر ١٩٢٣ استئجار منزل بحي من

الأحياء الوطنية يكون كمدرسة متنقلة لتعليم نساء الشعب مبادئ علم الصحة والتمريض وبعض الصناعات اليدوية، ومحاربة البدع والخرافات، ومعالجة المرضى منهن ومن أطفالهن مجانًا، حتى إذا أتمت مهمتها في ذلك الحي، انتقلت إلى حي غيره، وهكذا دواليك حتى يتسنى لأولئك النساء الإلمام بما يقوم نفوسهن.. وينير عقولهن، ويقي أطفالهن شر الأمراض تلافيا لكثرة الوفيات المنتشرة بينهم، وحتى تجد المعوزة منهن طريقًا شريفًا للكسب.

وقد استأجرت الجمعية دارا لهذا الغرض بشارع يحيى بن زيد رقم ٤٥ بالبغالة قسم السيدة زينب، سمتها "دار التعاون الإصلاحي".

وأعلنت الجمعية أن أعضاءها قد تطوعن لتعليم أولئك النساء، وهي في الوقت نفسه تقبل مع الشكر والسرور كل مساعدة من حضرات الأطباء وأصحاب المحلات التجارية والصيدليات ما يلزم للمعالجة ومساعدة الفقيرات، كما تقبل بكل ارتياح كل سيدة تتطوع لمعاونتها عمليا أو ماديا في القيام بهذا الواجب الإنساني.



-٢٦-

بعد أن شاركت المرأة المصرية مشاركة فعالة في ثورة ١٩١٩، وبعد أن عبرت عن نفسها وصوتها في كل الأحداث الوطنية الكبرى، وبعد أن استطاعت أن ترفع صوتها في المحافل الدولية، وأن تنال تقدير المرأة الأوروبية في مؤتمر روما، وبعد أن دعت إلى رفع الحد الأدنى لسن الزواج إلى ستة عشر عاما بالنسبة للفتاة، وطالبت بضرورة حصولها على كل فرص التعليم، وبأن تفتح أمامها أبواب المدارس العليا.. بعد كل هذا، فقد كنا نتصور أن يكون هناك اعتراف بأن المرأة تمثل نصف الأمة، وأن يتبلور هذا الاعتراف بتكريمها في المناسبات الوطنية المختلفة.

ولكن الحقيقة جاءت مختلفة عن ذلك تماما؛ فقد فوجئنا أن المرأة المصرية لم يقبل طلبها لحضور حفل افتتاح البرلمان، في الوقت الذي دعيت فيه سيدات أجنبيات لحضور هذا

الحفل، وكان أن أصدرنا في ١٦ مارس ١٩٢٤ بيان احتجاج على النحو التالي:

"لجنة الوفد المركزية للسيدات تحتج بشدة بصفتها هيئـة تمثل الأمة التي اشتركت في الجهاد والتضـحية لاسـتقلال بلادها، على رفض طلبها لحضور حفلة افتتـاح البرلمـان، وترى في إغفال وزارة الشعب دعوتها في وقت دعت فيـه سيدات أجنبيات عملاً لا يليق بالكرامة.

وفي يوم الجمعة ٣١ مارس ١٩٢٤، اجتمعت لجنة الوفد المركزية للسيدات بدار جمعية المـرأة الجديـدة، وقـررت بالإجماع توجيه ما يأتي لمجلس النواب والشـيوخ بمناسـبة خطاب العرش.

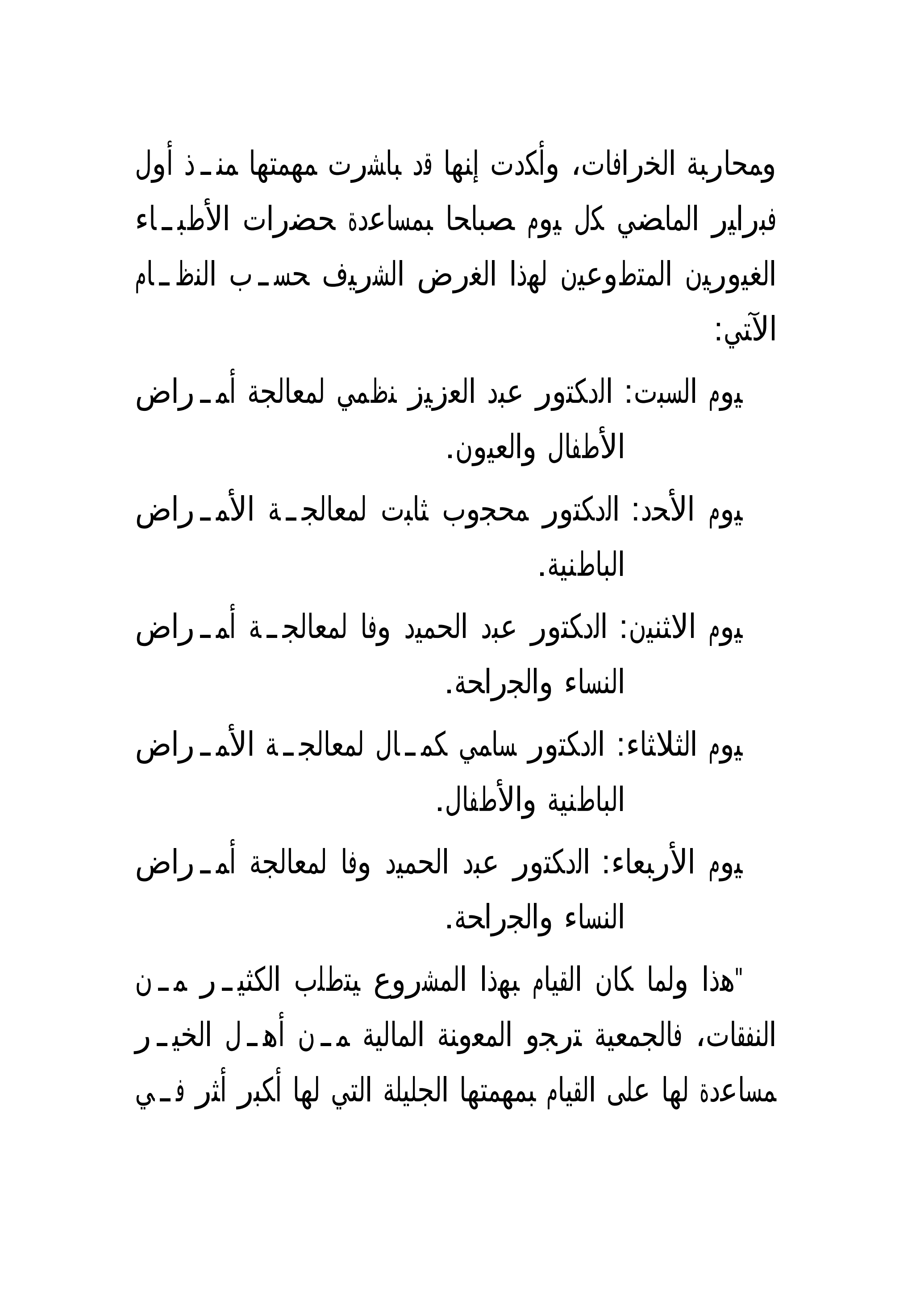
"مع ثقة أعضاء اللجنة بالوزارة، ترى أن خطبة العـرش غير وافية، وفيها من الغموض ما يمكن أن يؤوله الخصم في مصلحته؛ لذلك تعتمد اللجنة علـى حضـرات النـواب أن يتداركوا بحكمتهم إدخال التعديلات الآتية على خطبة العرش:

١- النص على تعديل الدستور حتى يكون طبق الدسـاتير الحديثة، وأن تذكر فيه حدود الدولة المصرية مع النص على أن السودان جزء منها لا يتجزأ.

٢- النص على إصلاح القوانين الخاصة بحرية الاجتماعات والصحافة.
٣- النص على تعديل مواد الدستور الخاصـة بالمسـئولية الوزارية تعديلاً يجعل الأمة صاحبة الحق فـي حكـم البلاد.
٤- النص على تقوية الجيش المصري والقـوى الحربيـة الأخرى ما يكفل المحافظة على سلامة الدولة".

توقيعات: هدى شعراوي، نعيمة أبو إصـبع، روجينـة خياط، نعمت حجازي، استر ويصا، فايقة رفيق، ألفت راتب، عزيزة فوزي، إحسان أحمد، فكرية حسني.

وكما قلت من قبل، فإننا في الوقت الذي كنا نشارك فيـه ونتابع الأحداث السياسية وتطوراتها، كنا أيضـا وبالحماسـة نفسها نبذل في ميدان الخدمة الاجتماعية، وهكذا فإنـه فـي شهر إبريل ١٩٢٤، أعلنت جمعية الاتحاد النسائي المصري الجمهور إنها فتحت أبواب دار التعـاون الإصـلاحي التـي أنشأتها بشارع يحيى بن زيد رقـم ٤٥ بالبغالـة لمعالجـة الفقيرات وأطفالهن، وصرف الدواء لهن مجانًـا، وتعلـيمهن بعض الأعمال اليدوية ومبادئ الـدين والمبـادئ الصـحية



ومحاربة الخرافات، وأكدت إنها قد باشرت مهمتها منذ أول فبراير الماضي كل يوم صباحا بمساعدة حضرات الأطباء الغيورين المتطوعين لهذا الغرض الشريف حسب النظام الآتي:

يوم السبت: الدكتور عبد العزيز نظمي لمعالجة أمراض الأطفال والعيون.

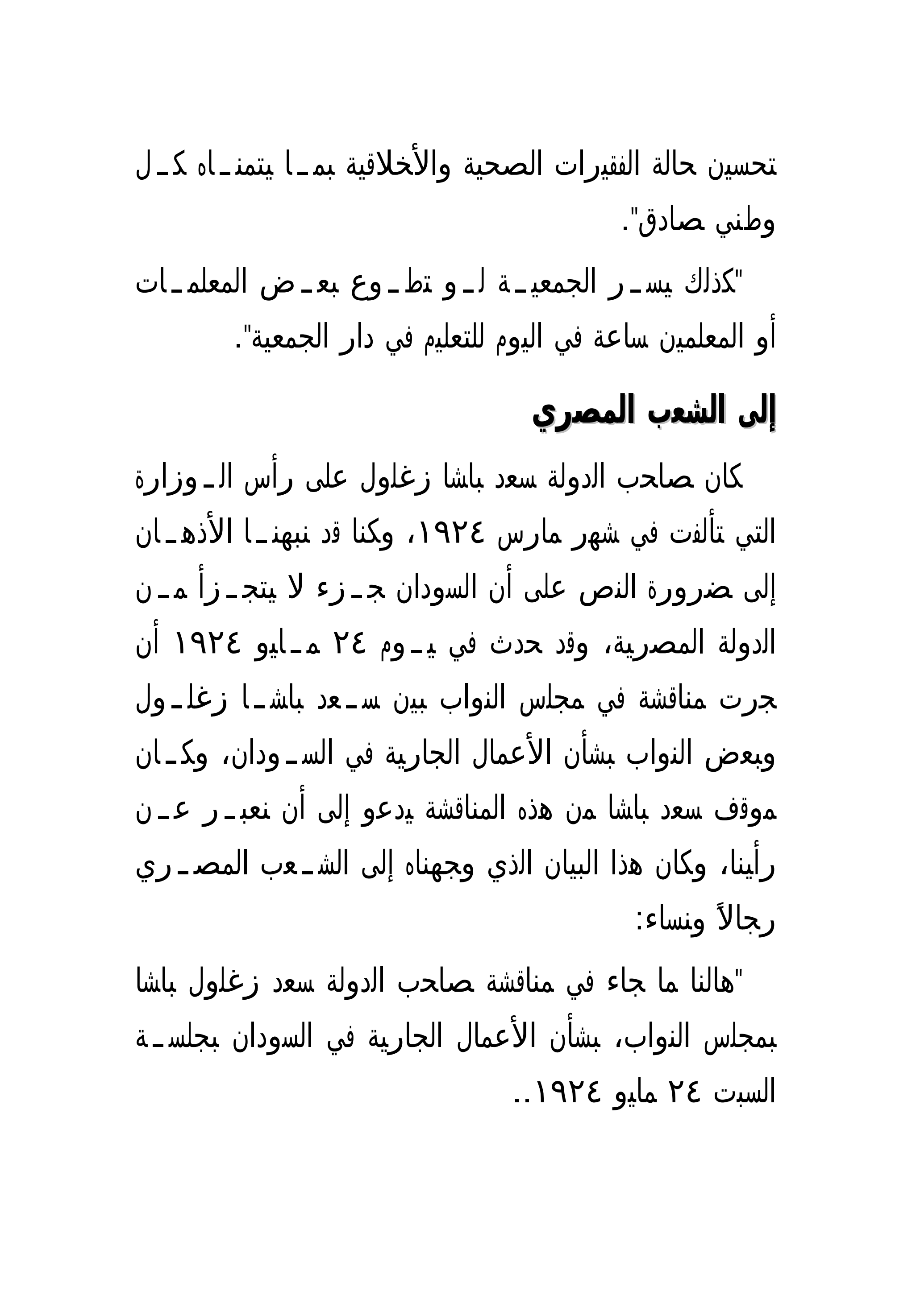
يوم الأحد: الدكتور محجوب ثابت لمعالجة الأمراض الباطنية.

يوم الاثنين: الدكتور عبد الحميد وفا لمعالجة أمراض النساء والجراحة.

يوم الثلاثاء: الدكتور سامي كمال لمعالجة الأمراض الباطنية والأطفال.

يوم الأربعاء: الدكتور عبد الحميد وفا لمعالجة أمراض النساء والجراحة.

"هذا ولما كان القيام بهذا المشروع يتطلب الكثير من النفقات، فالجمعية ترجو المعونة المالية من أهل الخير مساعدة لها على القيام بمهمتها الجليلة التي لها أكبر أثر في



تحسين حالة الفقيرات الصحية والأخلاقية بما يتمناه كل وطني صادق".

"كذلك يسر الجمعية لو تطوع بعض المعلمات أو المعلمين ساعة في اليوم للتعليم في دار الجمعية".

إلى الشعب المصري

كان صاحب الدولة سعد باشا زغلول على رأس الوزارة التي تألفت في شهر مارس ١٩٢٤، وكنا قد نبهنا الأذهان إلى ضرورة النص على أن السودان جزء لا يتجزأ من الدولة المصرية، وقد حدث في يوم ٢٤ مايو ١٩٢٤ أن جرت مناقشة في مجلس النواب بين سعد باشا زغلول وبعض النواب بشأن الأعمال الجارية في السودان، وكان موقف سعد باشا من هذه المناقشة يدعو إلى أن نعبر عن رأينا، وكان هذا البيان الذي وجهناه إلى الشعب المصري رجالاً ونساء:

"هالنا ما جاء في مناقشة صاحب الدولة سعد زغلول باشا بمجلس النواب، بشأن الأعمال الجارية في السودان بجلسة السبت ٢٤ مايو ١٩٢٤..

- هالنا أن يوجه دولته إلى حضرة النائب المحترم عبـد الرحمن بك الرافعي، العبارة الآتية (نريـد أن نعـرف الطريقة التي نملك بها السودان والمشروعات ونحـن ليس في إمكاننا منع ما هو حاصل).
- تقبلنا البرنامج الذي وضعه دولته عند تشكيل وزارتـه بالرضا، واعتبرناه عهدا وميثاقًا على وزارتـه أمـام الأمة، فلم يكن أحد يشك في أنه أعد مع من اختـارهم من زملائه الوسائل والطرق التـي توصـله لتحقيـق مطالـب الأمـة (فـي الاسـتقلال الحقيقـي لمصـر والسودان)، خصوصا عندما رأيناه راغبا كل الرغبـة في تبوء منصة الحكم رغم نداء طبقة كبيرة من الأمـة على رأسها صاحب السمو الأمير عمر طوسون بعـدم قبولها. انتظرنا من عهد توليته الحكم أن يعمـل علـى تحقيق برنامجه، وقد مرت عدة حوادث كان من شأنها أن توجب الريبة والشكوى من تصرف الوزارة مثـل تنفيذ قانوني التعويضات والتضمينات، ومثل رفضـها إجراء أي تعديل وتوضيح لخطبة العرش. فاحتطنا هذه التصرفات كلها انتظارا لما عسـى أن تؤديـه وزارة

الأمة من تحقيق مطالبها الحيويـة الخاصـة بمصـر والسودان. فإذا بدولة سعد باشا رئيس الوزارة ورئيس الوفد وواضع ذلك البرنامج ينادي في جلسـة مجلـس النواب بأنه في حاجة لمن يرشده إلى الطريقة العمليـة التي تنال بها مصر حقها في السودان، وإذا به كـذلك يقول أيضا مخاطبا نواب الأمة (إذا كان فـي إمكـانكم عمل تجريدة أو عندكم قوة لمنع الإنجليز وأخذ السودان من أيديهم، فتفضلوا ودلوني عليها).

- إلا أن وضع هذا السؤال بهذه الكيفية – وسعد باشا يعلم كما يعلم غيره أن مصر لا طاقة لها على تعبئة تجريدة عسكرية تقوى على إخراج إنجلترا من السودان – هو اعتراف بالعجز وتصريح لا يقبل الإبهام بأن دولته لم يعد يعتمد على ذلك السلاح الذي كان يعتمد عليه قبـل توليته الحكم، أي وهو سلاح الحق الذي تسـتمد منـه الأمة قوتها ثقة أنه أعظم أثرا من القوة الماديـة التـي يملكها خصمها.
- في هذه الحالة، يعلن الشعب المصري الكـريم رجـالاً ونساء أنه لا يوجد خطر على القضية المصرية أكبـر



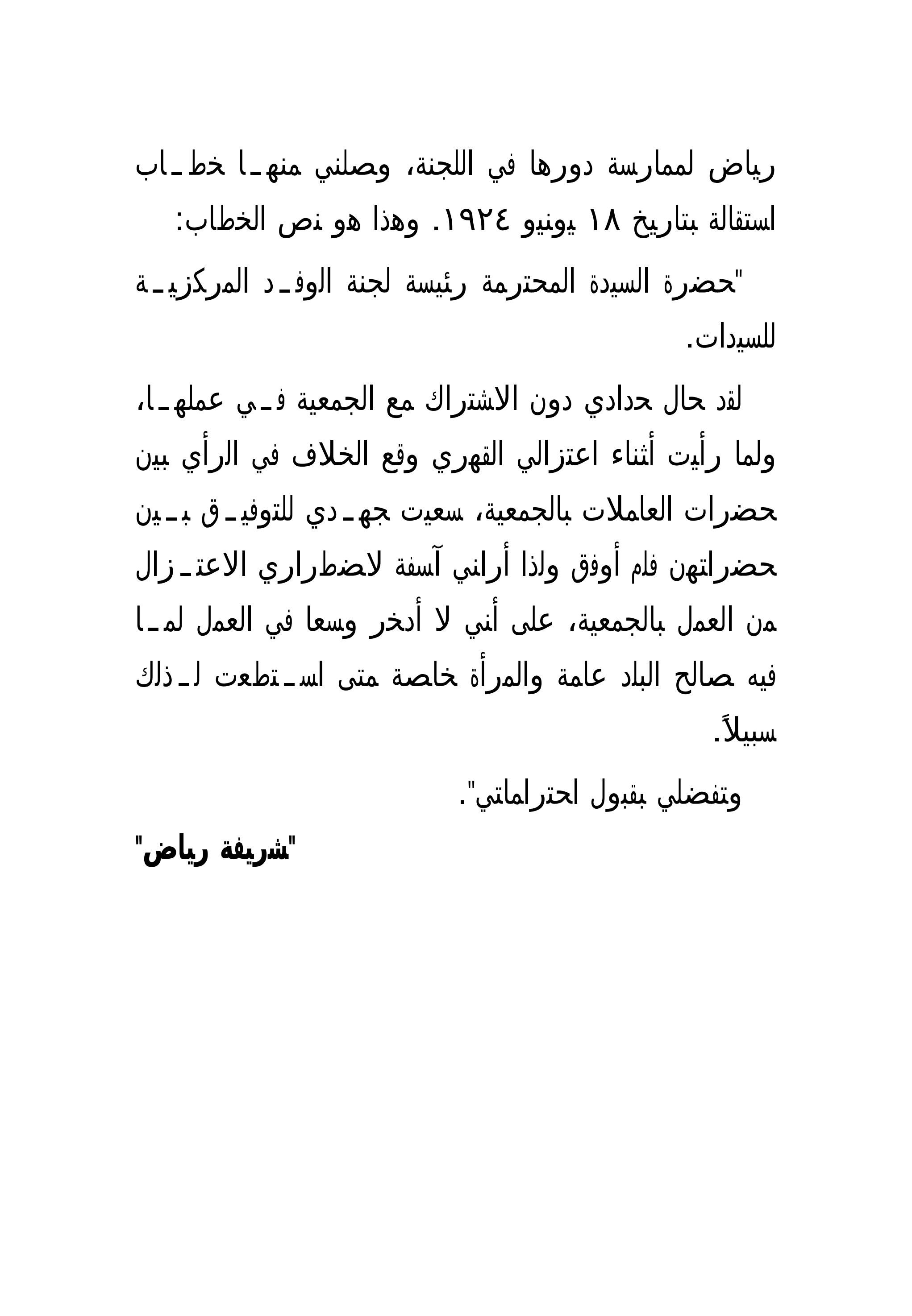
من أن يتولى المفاوضات مع انجلترا رجل يعترف علانية أمام هيئة رسمية نيابية، بأنه عاجز عن تنفيذ ما عاهد به الأمة قبل وعند توليه الحكم، ولعل سعد باشا يكون أول من شعر بعظم المسئولية ويهيئ لأمته مخرجا من هذا الضيق".

هدى شعراوي

استقالة شريفة هانم رياض

كانت السيدة شريفة هانم رياض من أبرز الشخصيات في لجنة الوفد المركزية للسيدات وأكثرهن نشاطًا، وقد شاركتني في كثير من المواقف منذ بدأنا التفكير في إنشاء لجنة السيدات إثر اندلاع ثورة ١٩١٩.

وخلال الفترة الأخيرة، كانت قد اعتكفت بسبب ظروف الحداد، ولذلك فإنها لم توقع معنا على البيان الذي أصدرناه بمناسبة خطبة العرش في ٢١ مارس ١٩٢٤، ولقد كانت الموافقة على هذا البيان بالإجماع، ولكن إزاء تطور الأحداث والمواقف، وقعت بعض الخلافات نتيجة اختلاف وجهات النظر، وفي الوقت الذي كنت أترقب فيه عودة شريفة هانم



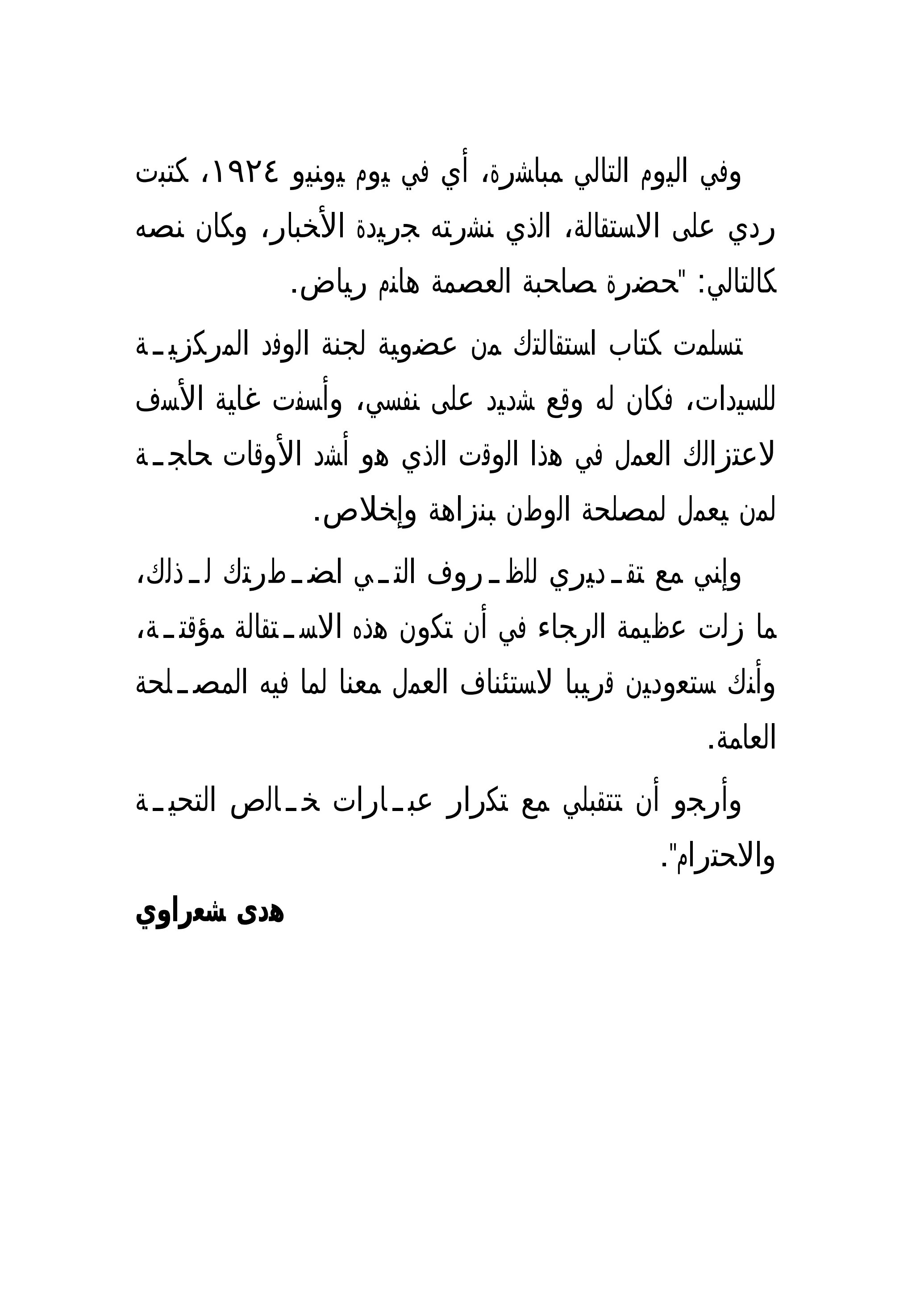
رياض لممارسة دورها في اللجنة، وصلني منها خطاب استقالة بتاريخ ١٨ يونيو ١٩٢٤. وهذا هو نص الخطاب:

"حضرة السيدة المحترمة رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات.

لقد حال حدادي دون الاشتراك مع الجمعية في عملها، ولما رأيت أثناء اعتزالي القهري وقع الخلاف في الرأي بين حضرات العاملات بالجمعية، سعيت جهدي للتوفيق بين حضراتهن فلم أوفق ولذا أراني آسفة لاضطراري الاعتزال من العمل بالجمعية، على أني لا أدخر وسعا في العمل لما فيه صالح البلاد عامة والمرأة خاصة متى استطعت لذلك سبيلاً.

وتفضلي بقبول احتراماتي".

"شريفة رياض"



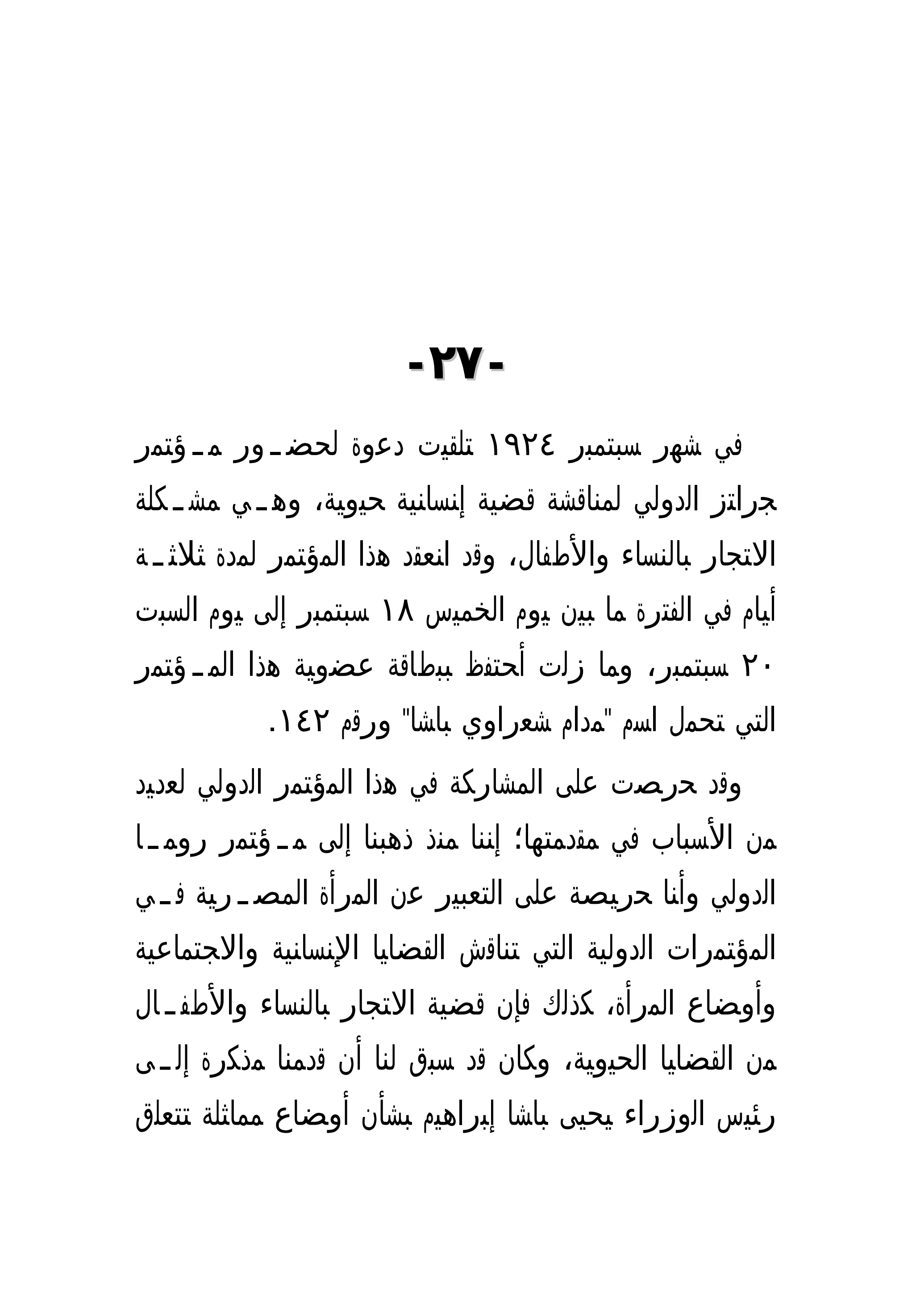
وفي اليوم التالي مباشرة، أي في يوم يونيو ١٩٢٤، كتبت ردي على الاستقالة، الذي نشرته جريدة الأخبار، وكان نصه كالتالي: "حضرة صاحبة العصمة هانم رياض.

تسلمت كتاب استقالتك من عضوية لجنة الوفد المركزية للسيدات، فكان له وقع شديد على نفسي، وأسفت غاية الأسف لاعتزالك العمل في هذا الوقت الذي هو أشد الأوقات حاجة لمن يعمل لمصلحة الوطن بنزاهة وإخلاص.

وإني مع تقديري للظروف التي اضطرتك لذاك، ما زلت عظيمة الرجاء في أن تكون هذه الاستقالة مؤقتة، وأنك ستعودين قريبا لاستئناف العمل معنا لما فيه المصلحة العامة.

وأرجو أن تتقبلي مع تكرار عبارات خالص التحية والاحترام".

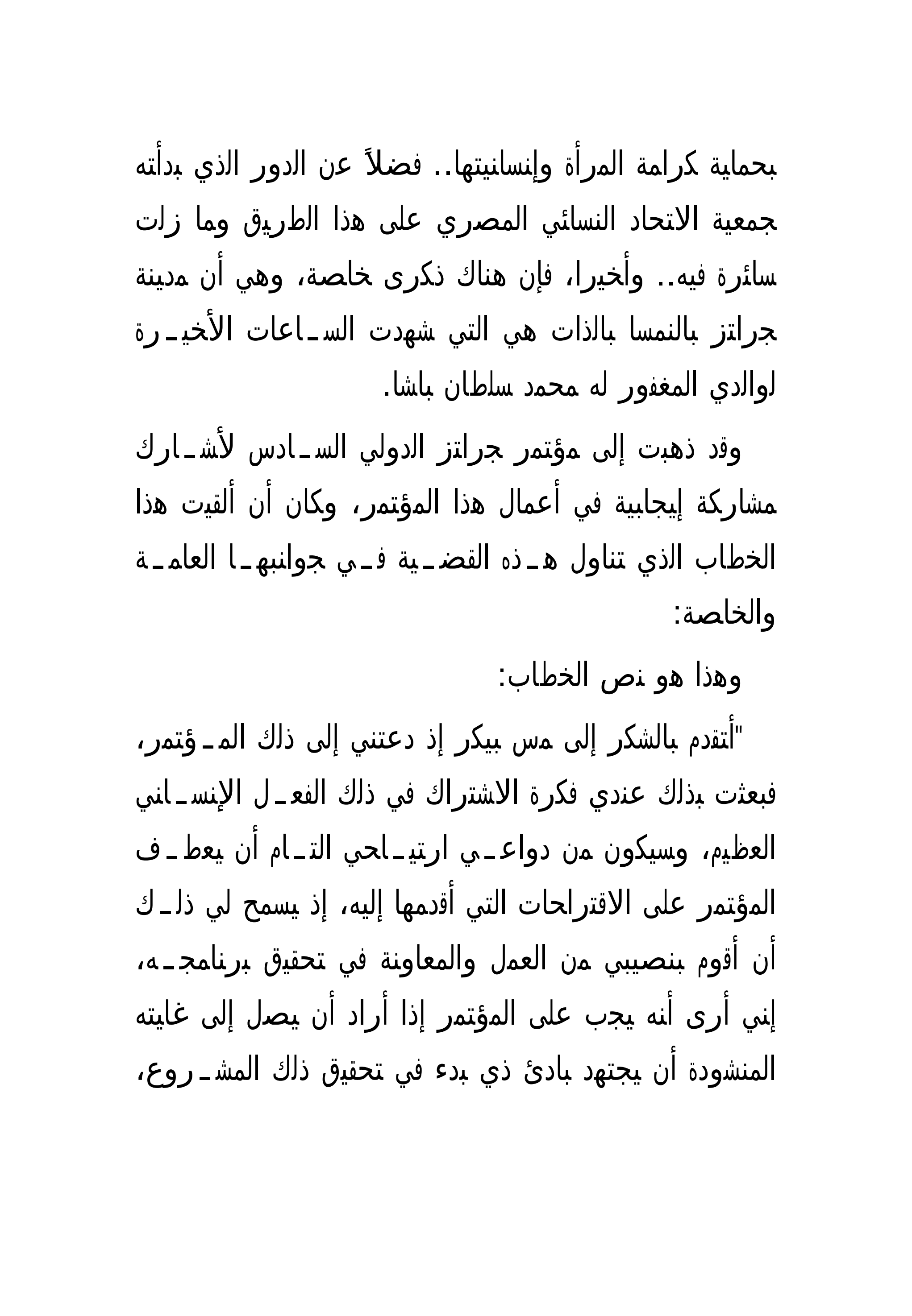
هدى شعراوي



-٢٧-

في شهر سبتمبر ١٩٢٤ تلقيت دعوة لحضـور مـؤتمر جراتز الدولي لمناقشة قضية إنسانية حيوية، وهـي مشـكلة الاتجار بالنساء والأطفال، وقد انعقد هذا المؤتمر لمدة ثلاثـة أيام في الفترة ما بين يوم الخميس ١٨ سبتمبر إلى يوم السبت ٢٠ سبتمبر، وما زلت أحتفظ ببطاقة عضوية هذا المـؤتمر التي تحمل اسم "مدام شعراوي باشا" ورقم ١٤٢.

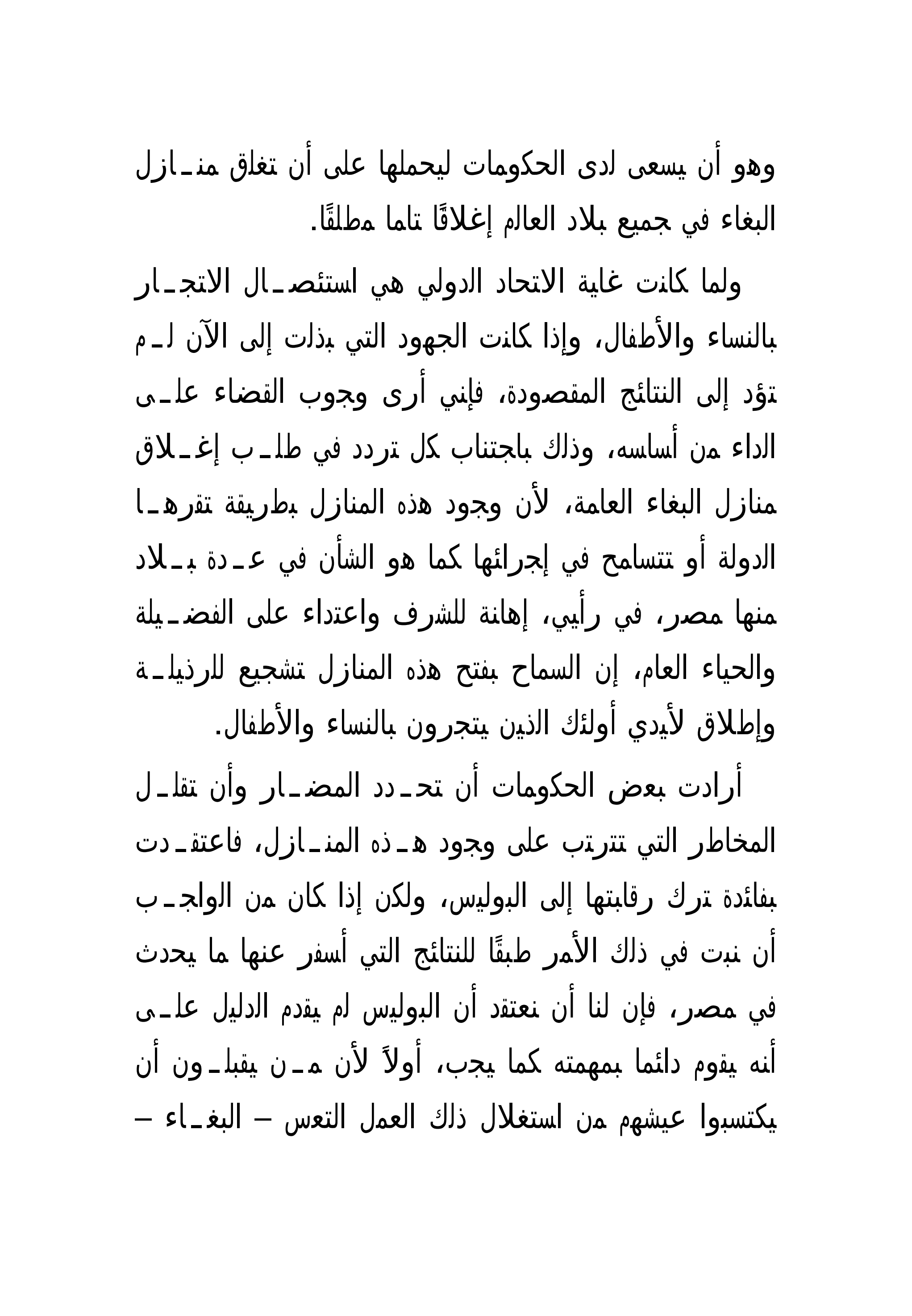
وقد حرصت على المشاركة في هذا المؤتمر الدولي لعديد من الأسباب في مقدمتها؛ إننا منذ ذهبنا إلى مـؤتمر رومـا الدولي وأنا حريصة على التعبير عن المرأة المصـرية فـي المؤتمرات الدولية التي تناقش القضايا الإنسانية والاجتماعية وأوضاع المرأة، كذلك فإن قضية الاتجار بالنساء والأطفـال من القضايا الحيوية، وكان قد سبق لنا أن قدمنا مذكرة إلـى رئيس الوزراء يحيى باشا إبراهيم بشأن أوضاع مماثلة تتعلق


بحماية كرامة المرأة وإنسانيتها.. فضلاً عن الدور الذي بدأته جمعية الاتحاد النسائي المصري على هذا الطريق وما زلت سائرة فيه.. وأخيرا، فإن هناك ذكرى خاصة، وهي أن مدينة جراتز بالنمسا بالذات هي التي شهدت الساعات الأخيرة لوالدي المغفور له محمد سلطان باشا.

وقد ذهبت إلى مؤتمر جراتز الدولي السادس لأشارك مشاركة إيجابية في أعمال هذا المؤتمر، وكان أن ألقيت هذا الخطاب الذي تناول هذه القضية في جوانبها العامة والخاصة:

وهذا هو نص الخطاب:

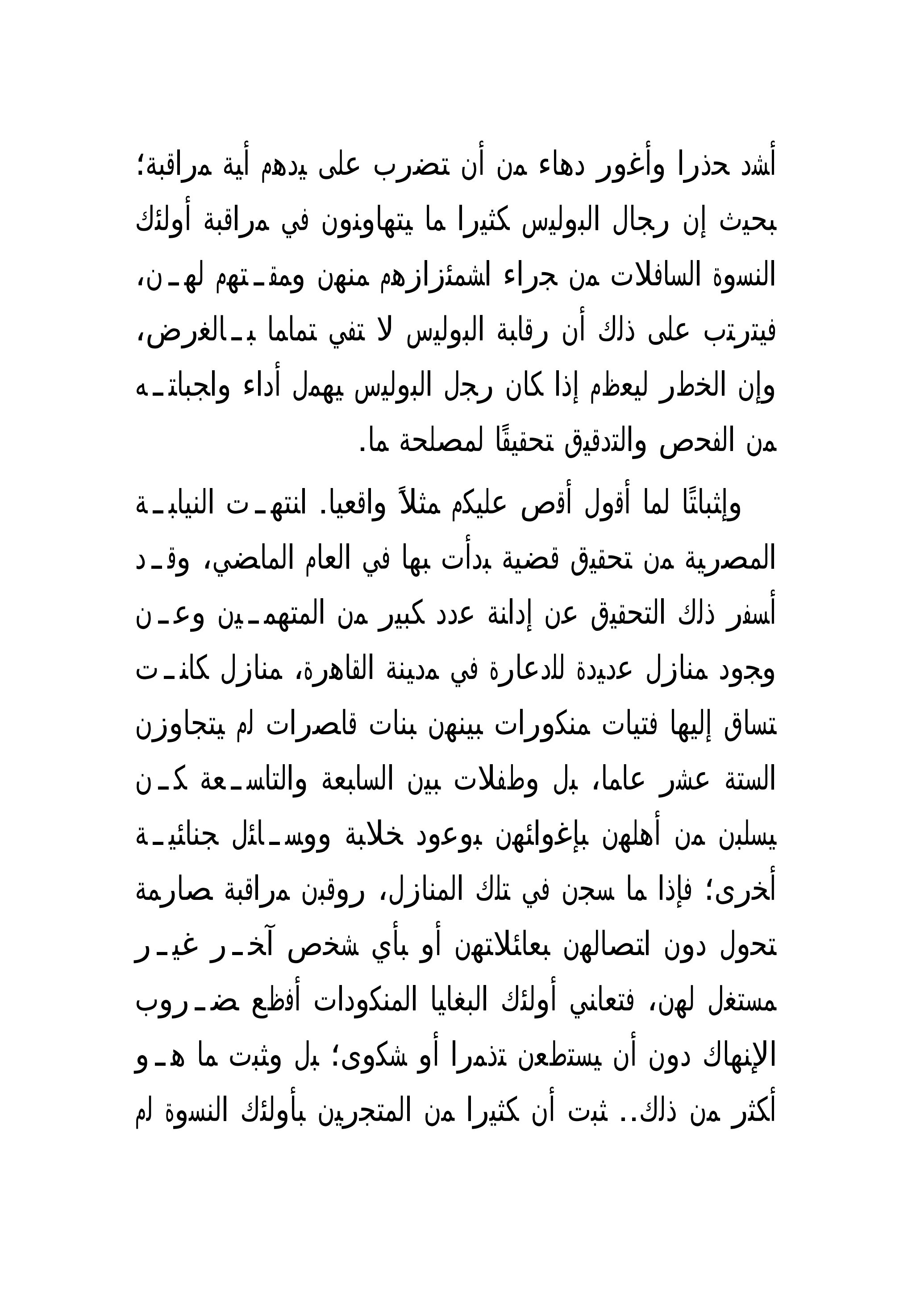
"أتقدم بالشكر إلى مس بيكر إذ دعتني إلى ذلك المؤتمر، فبعثت بذلك عندي فكرة الاشتراك في ذلك الفعل الإنساني العظيم، وسيكون من دواعي ارتياحي التام أن يعطف المؤتمر على الاقتراحات التي أقدمها إليه، إذ يسمح لي ذلك أن أقوم بنصيبي من العمل والمعاونة في تحقيق برنامجه، إني أرى أنه يجب على المؤتمر إذا أراد أن يصل إلى غايته المنشودة أن يجتهد بادئ ذي بدء في تحقيق ذلك المشروع،



وهو أن يسعى لدى الحكومات ليحملها على أن تغلق منـازل البغاء في جميع بلاد العالم إغلاقًا تاما مطلقًا.

ولما كانت غاية الاتحاد الدولي هي استئصـال الاتجـار بالنساء والأطفال، وإذا كانت الجهود التي بذلت إلى الآن لـم تؤد إلى النتائج المقصودة، فإني أرى وجوب القضاء علـى الداء من أساسه، وذلك باجتناب كل تردد في طلـب إغـلاق منازل البغاء العامة، لأن وجود هذه المنازل بطريقة تقرهـا الدولة أو تتسامح في إجرائها كما هو الشأن في عـدة بـلاد منها مصر، في رأيي، إهانة للشرف واعتداء على الفضـيلة والحياء العام، إن السماح بفتح هذه المنازل تشجيع للرذيلـة وإطلاق لأيدي أولئك الذين يتجرون بالنساء والأطفال.

أرادت بعض الحكومات أن تحـدد المضـار وأن تقلـل المخاطر التي تترتب على وجود هـذه المنـازل، فاعتقـدت بفائدة ترك رقابتها إلى البوليس، ولكن إذا كان من الواجـب أن نبت في ذلك الأمر طبقًا للنتائج التي أسفر عنها ما يحدث في مصر، فإن لنا أن نعتقد أن البوليس لم يقدم الدليل علـى أنه يقوم دائما بمهمته كما يجب، أولاً لأن مـن يقبلـون أن يكتسبوا عيشهم من استغلال ذلك العمل التعس – البغـاء –



أشد حذرا وأغور دهاء من أن تضرب على يدهم أية مراقبة؛ بحيث إن رجال البوليس كثيرا ما يتهاونون في مراقبة أولئك النسوة السافلات من جراء اشمئزازهم منهن ومقتهم لهن، فيترتب على ذلك أن رقابة البوليس لا تفي تماما بالغرض، وإن الخطر ليعظم إذا كان رجل البوليس يهمل أداء واجباته من الفحص والتدقيق تحقيقًا لمصلحة ما.

وإثباتًا لما أقول أقص عليكم مثلاً واقعيا. انتهت النيابة المصرية من تحقيق قضية بدأت بها في العام الماضي، وقد أسفر ذلك التحقيق عن إدانة عدد كبير من المتهمين وعن وجود منازل عديدة للدعارة في مدينة القاهرة، منازل كانت تساق إليها فتيات منكورات بينهن بنات قاصرات لم يتجاوزن الستة عشر عاما، بل وطفلات بين السابعة والتاسعة كن يسلبن من أهلهن بإغوائهن بوعود خلابة ووسائل جنائية أخرى؛ فإذا ما سجن في تلك المنازل، روقبن مراقبة صارمة تحول دون اتصالهن بعائلاتهن أو بأي شخص آخر غير مستغل لهن، فتعاني أولئك البغايا المنكودات أفظع ضروب الإنهاك دون أن يستطعن تذمرا أو شكوى؛ بل وثبت ما هو أكثر من ذلك.. ثبت أن كثيرا من المتجرين بأولئك النسوة لم

يكونوا يقنعون بالاتجار بهن في منازلهم؛ بل كانوا يبيعونهن أيضا إلى أقرانهم في المنازل الأخرى بثمن من المال كأنهن سلعة يجوز الاتجار فيها أو تعتبر مصدرا للكسب، وذلك دون أن يصيب الفريسة نصيب من الغنم، وثبت أيضا أن كثيـرا من أولئك الفتيات كن يقضين نحبهن بسبب الأمراض الفتاكة وإهمال وسائل الصحة والعـلاج، وأن الأطبـاء المكلفـين بالعناية بهن يغفلون أداء مهمتهم كما يجب؛ وذلـك للسـبب نفسه الذي أبديته عند كلامي عن البوليس.

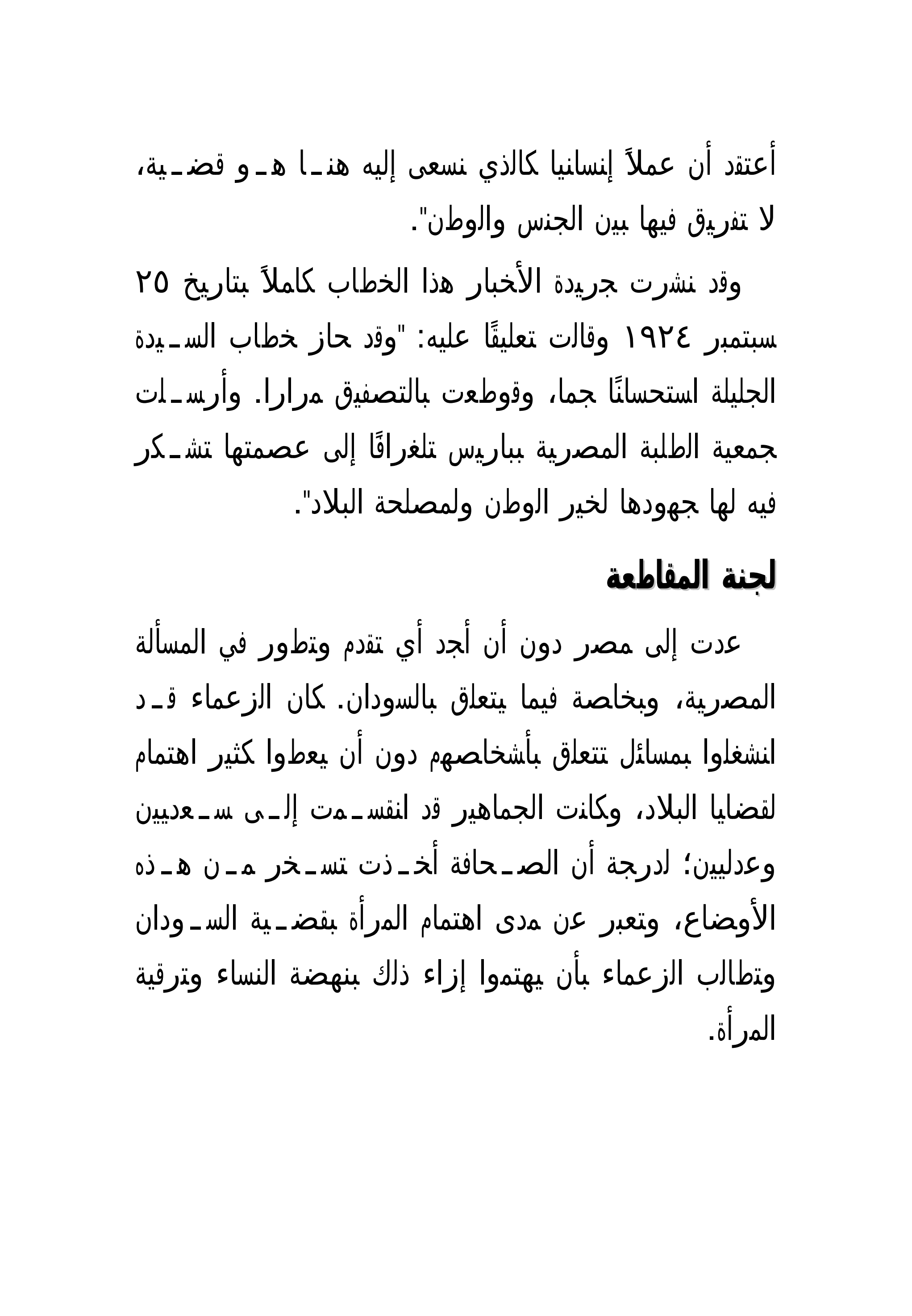
وكان من نكد الطالع أن أسفر التحقيق في هـذه القضـية أيضا عن أن عددا من ضـباط البـوليس، معظمهـم مـن الأوروبيين، كانوا يمالئون أصحاب هـذه المنـازل بإهمـال مراقبتها المطلوبة إهمالاً مقصودا، مما أدى إلى استكشـاف عدد عديد من الرخص سلم إلى بنـات دون العاشـرة، وإذ كانت هذه الرخص خلوا من صور حاملاتها خلافًا لما تقضي به اللوائح، فقد كانت تتداول من يد إلى أخرى دون أية رقابة أو مسئولية.

وقد ثبت أيضا أن معظم هذه المنازل السافلة تزاول تلك الأعمال الشائنة منذ أكثر من عشرين سنة تحت بصر البوليس وسمعه.

وفي الختام لا يسعني إلا أن أبدي شكري للحكومة المصرية الحاضرة لأنها اهتمت بتلك القضية، ولم تدخر وسعا في محاكمة المتهمين الأصليين وإحالة الضباط الذين اشتركوا في تلك الفظائع وأهملوا في تطبيق القانون عمدا على مجلس التأديب، إذ كان تصرفهم سببا في ذيوع الدعارة في عاصمة الديار المصرية إلى درجة سريعة. لست أستطيع أن أتصور كيف أن الحكومات التي عهد إليها بالسهر على الأمن العام والأخلاق العامة؛ تسمح بوجود هذه المنازل العامة، في حين أن الأزمة الحاضرة التي نجتازها عقب فقد الملايين الكثيرة من الفتيان الذين سقطوا في ميدان الشرف أثناء الحرب الكبرى، تتطلب التشجيع على الزواج؛ لتكثير عدد السكان الذي تحول دون كثرته هذه المنازل، وإنا لنرجو أن تحتذي حكومات العالم كله ببريطانيا العظمة وسويسرا فتحظر وجود هذه المنازل.

وإني لأرجو المؤتمر أن يتنـاول تلـك المسـألة بعـين الاعتبار، وأن يضعها في مقدمة المسائل، وأن يسعى السعي اللازم لدى الحكومات ليفوز بمحو تلك البؤر الخبيثة. أما في مصر فإن وجود الامتيازات الأجنبيـة يحـول دون تشـريع يقضي بمحو هذه المنازل إذا كان أصحابها مـن الأجانـب، ولذلك فإني أطلب إلى المؤتمر أن يتدخل لـدى الحكومـات صاحبات الامتياز وأن يطلب إلى الدول أن تسمح للحكومـة المصرية بأن تغلق هذه المنازل.

وإني أختم كلمتي بأن أرجو المـؤتمر أن يغضـي عـن صراحتي فيما لاحظت إذ كنت أكثر مما يجب، فإني معتمدة على الاعتقاد الجازم والنزاهة الصـادقة اللتـين تخالجـان المؤتمر للسعي إلى غايته. لم أتردد فـي أن أصـرح فيمـا صرحت، ولو أني الشرقية الوحيدة التي حظيت بالمثول فـي تلك الجمعية الموقرة، فأنا مصرية ومن بلد تحميها حضارتها وتدفعها عواطفها الإنسانية الجمة الفياضة دائما إلى أن تعني بالصالح العام قبل صالحها الخاص. ولكم في ذلك المثل قناة السويس التي هي اليوم بالنسبة لمصر مصدر للشـقاء. إنـي



أعتقد أن عملاً إنسانيا كالذي نسعى إليه هنا هو قضية، لا تفريق فيها بين الجنس والوطن".

وقد نشرت جريدة الأخبار هذا الخطاب كاملاً بتاريخ ٢٥ سبتمبر ١٩٢٤ وقالت تعليقًا عليه: "وقد حاز خطاب السيدة الجليلة استحسانًا جما، وقوطعت بالتصفيق مرارا. وأرسلت جمعية الطلبة المصرية بباريس تلغرافًا إلى عصمتها تشكر فيه لها جهودها لخير الوطن ولمصلحة البلاد".

لجنة المقاطعة

عدت إلى مصر دون أن أجد أي تقدم وتطور في المسألة المصرية، وبخاصة فيما يتعلق بالسودان. كان الزعماء قد انشغلوا بمسائل تتعلق بأشخاصهم دون أن يعطوا كثير اهتمام لقضايا البلاد، وكانت الجماهير قد انقسمت إلى سعديين وعدليين؛ لدرجة أن الصحافة أخذت تسخر من هذه الأوضاع، وتعبر عن مدى اهتمام المرأة بقضية السودان وتطالب الزعماء بأن يهتموا إزاء ذلك بنهضة النساء وترقية المرأة.

وقد دعوت النساء المصريات إلى اجتماع في منزلي يوم الخميس ٣٠ أكتوبر ١٩٢٤. وقررنا في هذا الاجتماع ما يلي:

١- الاحتجاج على الحكومة الإنجليزية بشأن تصرفها الأخير في المسألة المصرية وبالأخص مسألة السودان، وأن يبلغ هذا الاحتجاج إلى الحكومتين المصرية والإنجليزية.

٢- المقاطعة العامة لكل ما هو إنجليزي داخل مصر وخارجها، ومطالبة الحكومة المصرية بمشاركة الشعب في هذه المقاطعة، ويكون ذلك:

(أ) سحب الودائع والأموال التي لها في البنك الأهلي.

(ب) سحب مكتب الحكومة المعين في إنجلترا لمباشرة مشترواتها وإلحاقه أو نقله لمملكة أخرى.

(ج) منع سفر العمال المصريين إلى السودان واستدعاء الموجود منهم في عمل الخزانات هناك، ومن كان منهم مرتبطًا بعقد لمدة معينة

فيؤمر بالعودة عند انتهاء تلك المدة لكيلا تساعد مصر بأيدي أبنائها على إقامة تلك الخزانات التي في إتمامها خطر على مصالح مصر.

٣- طلب الإفراج عن جميع المقبوض عليهم في السودان بسبب الحوادث السياسية الأخيرة التي لا يعاقب عليها قانون العقوبات المصري والعمل على عدم تنفيذ الأحكام الصادرة عليهم.

٤- فتح كلية الخرطوم وإعادة التدريس فيها.

٥- أن تطالب حكومة مصر بحقها في إدارة السودان حتى يتم لها الاختصاص بالسلطة بكل الوسائل، والأمة مستعدة لتأييدها فيها.

٦- طلب رفع الراية المصرية الحالية على جميع محلات الحكومة عسكرية كانت أو ملكية في جميع مديريات السودان.

٧- تشكيل لجنة من السيدات تسمى لجنة المقاطعة، وكذلك تشكيل لجنة أخرى من الرجال تعمل كلتاهما لتنفيذ قرارات هذه الجمعية.

تحيتي للجنس اللطيف

وحتى تبدو أبعاد الصورة واضحة في ذلك الوقت، فـإنني أسجل هنا تلك التحية التي وجهها الأستاذ فكري أباظة إلـى الجنس اللطيف في شخصي وقد نشرت في جريدة "السياسة" في نوفمبر ١٩٢٤.

يقول الأستاذ فكري أباظة:

"سيدتي هدى شعراوي"

"أحييك ثم أهنئك: أما "التحية" فلجمالك الوطني، وجلالـك القومي، وأما "التهنئة" فلأن "دولة الرجال" في عـالم الجهـاد قد دالت وقامت على أنقاضها "دولة النساء".

كنت خصما "للجنس اللطيف" لما كان الجـنس اللطيـف لا يفكر إلا في الأزياء الجديدة والألوان العددية، وأما اليـوم وقد تظاهر للسودان قبل أن يتظاهر الرجال، وأما اليوم وقـد احتج على بلاغ السودان قبل أن يحتج الرجال، وأما اليـوم وقد استأنف الجهاد بعد الفشل، والرجال غرقى فـي بحـار الفشل.. فقد حق علي أن أعتذر، وقد حق علي أن أسـتغفر وأن أتوب.

سيدتي..

كان الجنس اللطيف فيما مضى مختصا بتدبير المنزل في الداخل، وكان علينا نحن الرجال تدبير الأمر في الخارج. أما اليوم يا سيدتي فسنعكس الموقف.

اهتمي أنت وجنسك اللطيف بالسودان وبـلاغ السـودان وتصريحات ماكدونالد عن السـودان وتحقيقـات السـودان ومحاكمات السودان ومظالم السـودان وسـجون السـودان، اتركي لنا – نحن الرجال- "تدبير المنزل"، فعلينا "الغسـيل" و"العجين" و "ترضيع الأطفال" و "مسح السلالم" و "توضـيب الأولاد" و "تخزين السمن". وعلى العمـوم سـندير المنـزل ونحن جلوس "على الشلت" حتى إذا عاد الجنس اللطيف مـن جهاده مع العدو الغاصب، قابلناه "بالزغاريد" ووجد كل شيء على أحسن حال؟!

سيدتي هدى..

لا وا   ما قصرنا.. وإنما نحن هذه الأيـام مشـغولون، عندنا أمام محكمـة الجنايـات قضـايا الالـواء والسياسـة والكشكول، وعندنا في دوائر الحكومات تعيينـات وترقيـات لأولادنا وأحبابنا وأبنائنا، وتشـفيات وانتقامـات ورفتيـات وإحالات لأعدائنا وأشباه أعدائنا، وعندنا "النـادي السـعدي"

نسع في إعداده وتأثيثه قبل انعقاد البرلمان. والنادي السعدي مشغولية كبيرة: فأودة الاستقبال القطيفة المشجرة لا نجد للآن لها "بساطًا" أو "سجادة عجمي" توافقها، وأودة "اللعب" لا يزال عليها نزال ونضال.. وأودة السكرتارية ينقصها ضرب الحيطان بالزيت.. والبوفيه لم ترد إليه الأصناف بعد من "اسكتلندا" و "ملقا" و "ألمانيا".. ألسنا معذورين إذا تأخرنا قليلاً في مسألة السودان وبلاغ السودان و "بلادي" السودان!!

سيدتي هدى.

فتح "الوفد" باب الاكتتاب لضحايا السودان من نصف عام، فجمع حتى الآن مئة جنيه وكسورا، وفتح في الوقت نفسه باب الاكتتاب "لنادي سعد" فجمع في "لحظة" لنادي سعد ثمانية عشر ألفًا من الجنيهات، ولو عملنا النسبة الحسابية لكانت النتيجة ما يأتي:

نادي سعد ١٨٠٠ جنيه

السودان ١٠٠ جنيه

إذن النادي أهم من السودان ١٨٠ مرة؟!!

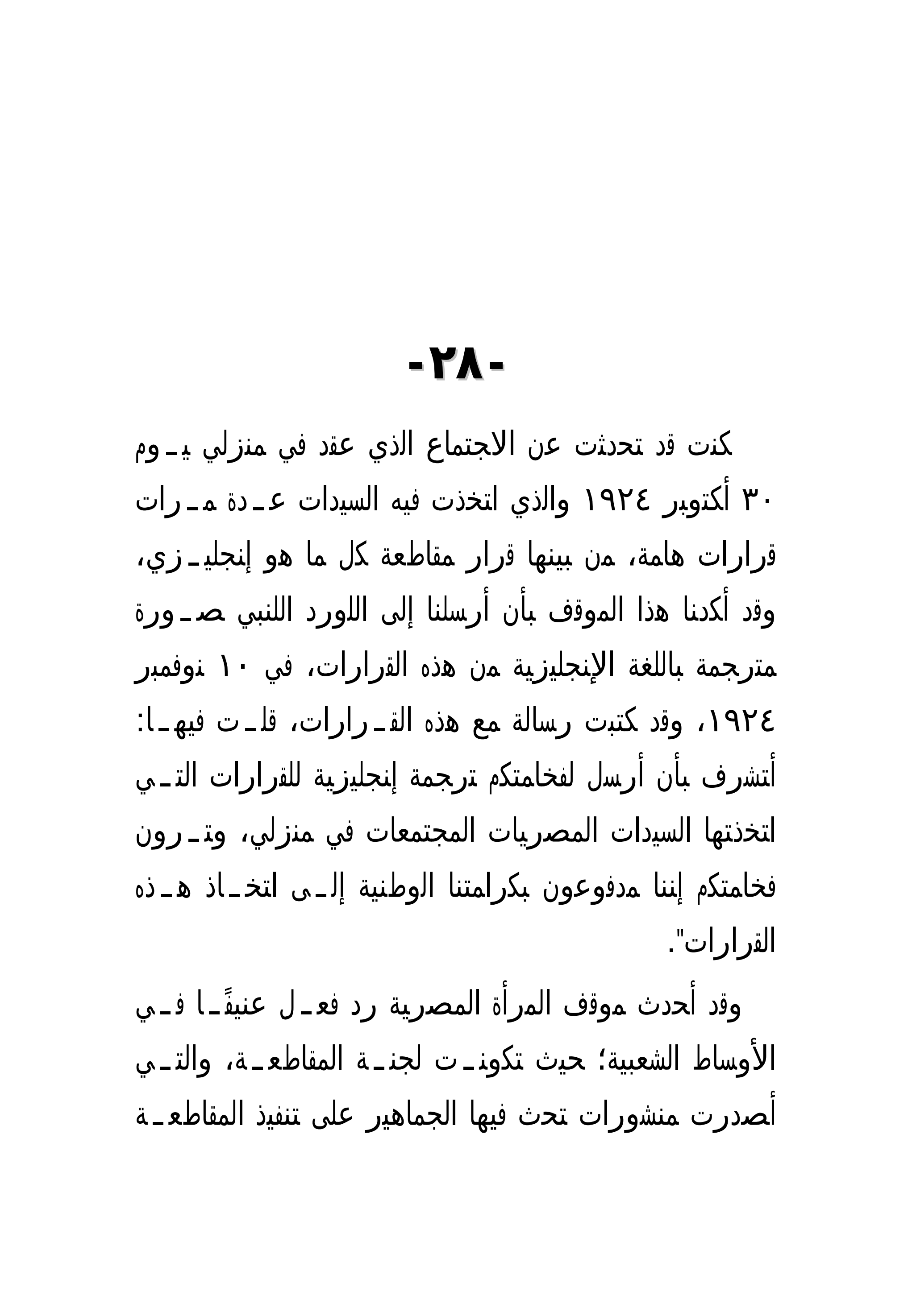
إذن لن يهتم الوفد بالسودان حتى "ينتهي" نادي سعد!

وعندما "ينتهي" نادي سعد، يكون السودان قد انتهى..

سيدتي هدى..

أحييك ثم أهنئك.. أما "التحية" فلجمالك الوطني، وجلالـك القومي.. أما "التهنئة" فلأن "دولة الرجال" في عـالم الجهـاد قد دالت.. وقامت على أنقاضها "دولة النساء"!!

فكري أباظة المحامي



-٢٨-

كنت قد تحدثت عن الاجتماع الذي عقد في منزلي يوم ٣٠ أكتوبر ١٩٢٤ والذي اتخذت فيه السيدات عدة مرات قرارات هامة، من بينها قرار مقاطعة كل ما هو إنجليزي، وقد أكدنا هذا الموقف بأن أرسلنا إلى اللورد اللنبي صورة مترجمة باللغة الإنجليزية من هذه القرارات، في ١٠ نوفمبر ١٩٢٤، وقد كتبت رسالة مع هذه القرارات، قلت فيها: أتشرف بأن أرسل لفخامتكم ترجمة إنجليزية للقرارات التي اتخذتها السيدات المصريات المجتمعات في منزلي، وترون فخامتكم إننا مدفوعون بكرامتنا الوطنية إلى اتخاذ هذه القرارات".

وقد أحدث موقف المرأة المصرية رد فعل عنيفًا في الأوساط الشعبية؛ حيث تكونت لجنة المقاطعة، والتي أصدرت منشورات تحث فيها الجماهير على تنفيذ المقاطعة

والاقتداء بموقف المرأة المصرية، لتحقيق المقاطعة الكاملة التي تعبر عن استياء الأمة وغضبها من موقف إنجلترا بالنسبة للسودان.

وكان من بين ما جاء في نداء لجنة المقاطعة ما يلي:

"ها هو فريق من بنات الوطن قام يرفع صوته بالاحتجاج على تصرفات إنجلترا الضارة بحقوق الأمة والماسة بكرامتها.

فاجتمعت طائفة كبيرة منهن تربطها بكم صلة الوطن الذي مست كرامته، وقررت مقاطعة التجارة والصناعة الإنجليزية إعلانًا لاستياء الأمة وغضبها.

وها قد شكلت لجنة منهن لتنفيذ ما أقرته جمعيتهن، وهي عاملة على اختيار لجنة من الرجال للتعاون بأفكاره ونفوذها على تعميم هذه المقاطعة بقدر المستطاع، ولا شك في أن السيدات اللاتي اعتزمن القيام بهذا الواجب لم يقدمن عليه إلا وهن معتمدات على أن هذا النداء يصادف من نفوسكم قبولاً، ومن وطنيتكم تشجيعا.

أبناء مصر، ها أنتم أولاء قرأتم الكتاب الأبيض الإنجليزي ينعي إليكم فصل السودان عن مصر، ويقر لكم حكم الإعدام عليكم بهذا الفصل.

وها أنتم علمتم ما أصاب إخوانكم بالسودان من السـجن والإرهاب والطرد، لا لذنب جنوه سوى إظهار شعورهم نحو مصر والتمسك بها.

وما أنتم إزاء هذه التصرفات إلا بين أمـرين: فإمـا أن تستسلموا لحياة تعسة وذل أبدي، وإما أن تبرهنوا على إبائكم وأنفتكم.

ليس لكم سلاح تشهرون، ولا أسطول تخوضون به غمار البحار، ليس لكم حول ولا قوة أمام حولهم وقوتهم، ولكن لكم سلاح أمضى ومدفع أبعد مدى، ذلك هـو الإضـراب عـن معونة الإنجليز في جميع الأعمـال الاقتصـادية والتجاريـة والصناعية، فلا تشتروا بضائعهم، ولا تستأجروا مـزارعهم، ولا تؤجروهم منازلكم، ولا تودعوا نقودا فـي مصـارفهم، وطنوا أنفسكم على ذلك غيرة على حياتكم وشرفكم.

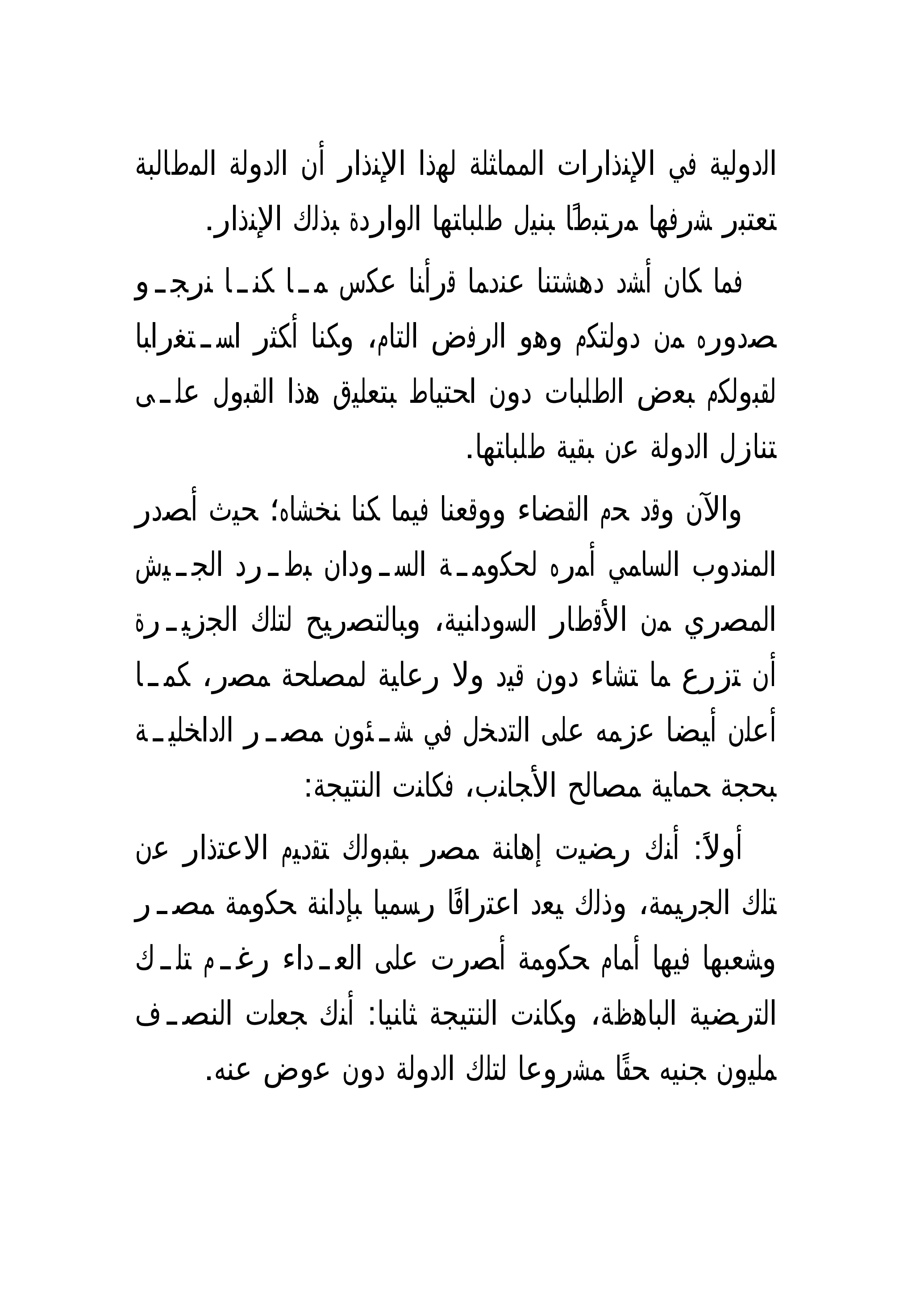
إنهم يريدون التحكم في مواردنا، ومنهل إسعادنا وإن شعبنا يريد بكم ذلك احتقارا لشأنكم، لخليق بأن تقطعوا كل صلة معاملة بينكم وبينه".

نداء الأمة

كنت قد أرسلت برقية إلى سعد باشا زغلول بشأن موقف الحكومة المصرية من قضية اغتيال السير لي ستاك، وكانت الصحف قد نشرت نص هذه البرقية تحت عنوان "نصيحة رشيدة لم يأخذ بها سعد باشا"؛ حيث طلبت إليه فيها أن يرفض كل طلبات إنجلترا.

وفي يوم ٢٣ نوفمبر ١٩٢٤، وجهت كتابا مفتوحا، لصاحب الدولة سعد زغلول باشا، وقد نشرته الصحف أيضا، وهذا هو نص الكتاب المفتوح:

"قبل أن نطلع على ردكم لطلبات إنجلترا التي وجهتها للحكومة المصرية لمناسبة الاعتداء على حياة السير لي ستاك باشا، بادرت عن لجنة المقاطعة بإرسال تلغراف لدولتكم بما رأته اللجنة أقرب لمصلحة مصر، وهو أن تجيبوا على تلك الطلبات برفضها جميعا، لأن ما هو معروف عن التقاليد



الدولية في الإنذارات المماثلة لهذا الإنذار أن الدولة المطالبة تعتبر شرفها مرتبطًا بنيل طلباتها الواردة بذلك الإنذار.

فما كان أشد دهشتنا عندما قرأنا عكس ما كنا نرجو صدوره من دولتكم وهو الرفض التام، وكنا أكثر استغرابا لقبولكم بعض الطلبات دون احتياط بتعليق هذا القبول على تنازل الدولة عن بقية طلباتها.

والآن وقد حم القضاء ووقعنا فيما كنا نخشاه؛ حيث أصدر المندوب السامي أمره لحكومة السودان بطرد الجيش المصري من الأقطار السودانية، وبالتصريح لتلك الجزيرة أن تزرع ما تشاء دون قيد ولا رعاية لمصلحة مصر، كما أعلن أيضا عزمه على التدخل في شئون مصر الداخلية بحجة حماية مصالح الأجانب، فكانت النتيجة:

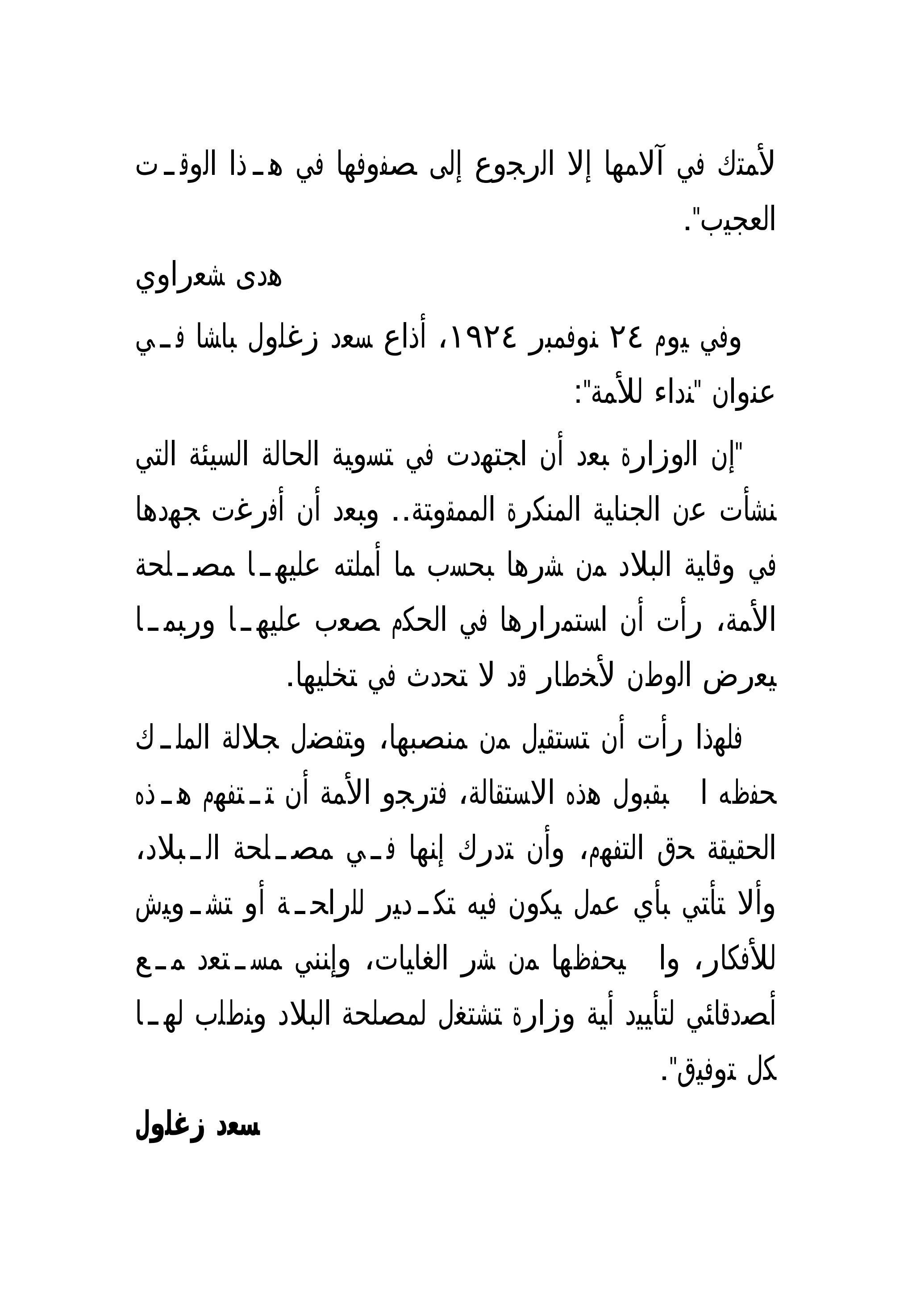
أولاً: أنك رضيت إهانة مصر بقبولك تقديم الاعتذار عن تلك الجريمة، وذلك يعد اعترافًا رسميا بإدانة حكومة مصر وشعبها فيها أمام حكومة أصرت على العداء رغم تلك الترضية الباهظة، وكانت النتيجة ثانيا: أنك جعلت النصف مليون جنيه حقًا مشروعا لتلك الدولة دون عوض عنه.

وكانت النتيجة ثالثًا: أنك حرمت علـى الشـعب إظهـار شعوره بالمظاهر العلنية مهما كانت سليمة، مخالفًا في ذلـك الدستور، ولم تق البلاد من خطر تنفيذ ما بقي من الطلبـات التي رفضتها بعدم احتياطك.

يا دولة الرئيس..

تمسكت بك البلاد، وعهدت إليك بالحكم رجاء أن تفي بما وعدتها من تحقيق استقلالها التام في مصر والسودان، وهـا أنت ترى أنه كلما طال العهد على ولايتك الحكم، بعدت الأمة عن نيل هذه المطالب، وها أنت ترى أن ختامها اليـوم، مـا وقع من فصل السودان وطرد المصريين منه وتدخل الإنجليز في شئون مصر الداخلية نفسها.

لذلك ألتمس منك ما دمت لم توفق وأنت في الحكم بتحقيق عهدك بعمل إيجابي، ألا تكون على الأقل حجرة عثرة فـي سبيل جهاد أمتك للتخلص من الحالة الحرجة التـي وصـلت إليها (لا أقول بسبب سياستك بل يكفي أن أقول أثناء حكمك)، وذلك بعمل سلبي هو التخلي عن الحكم، فلـم يبـق سـبيل لإظهار استيائك واحتجاجك على هذه التعديات ومشـاركتك



لأمتك في آلامها إلا الرجوع إلى صفوفها في هذا الوقت العجيب".

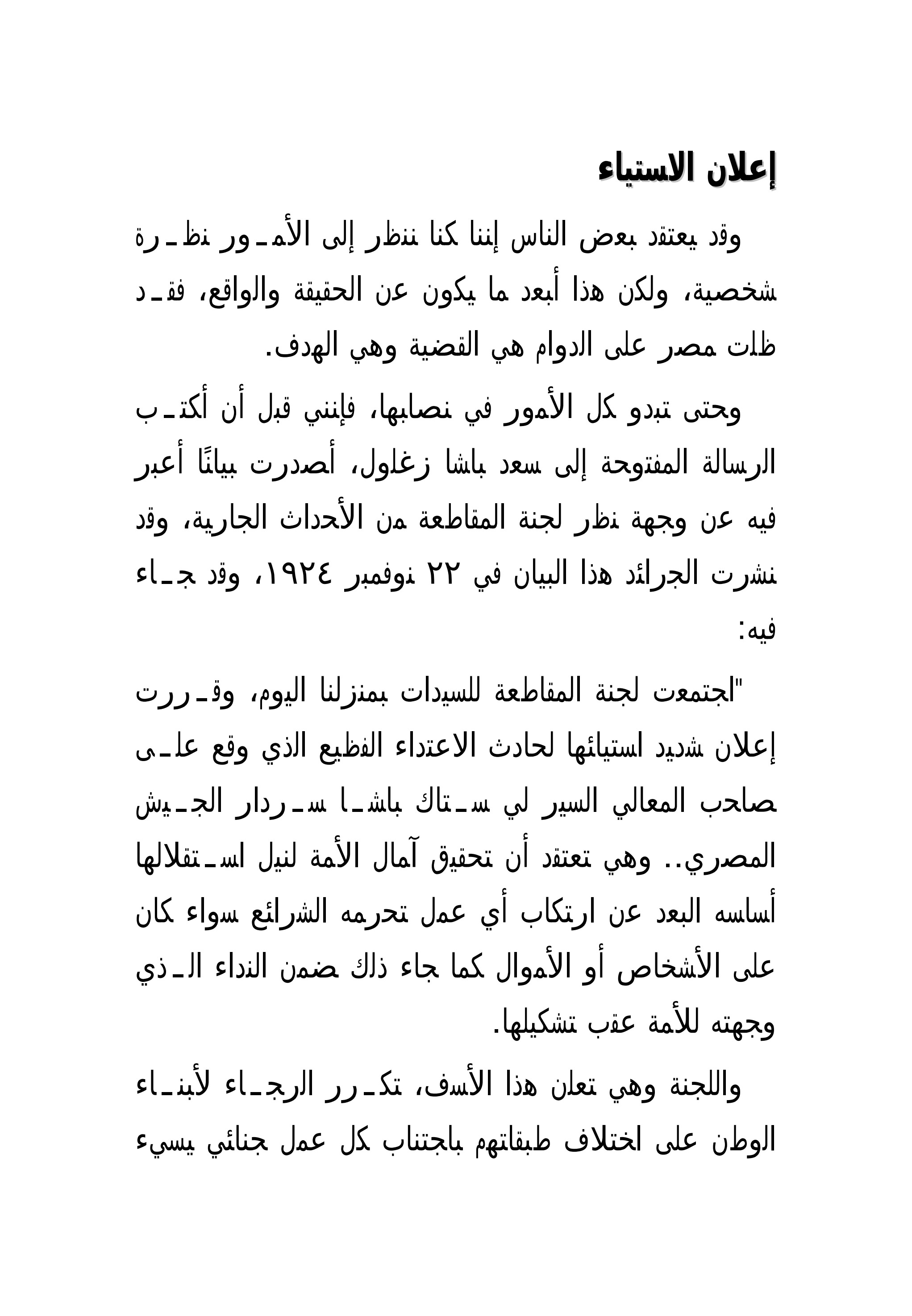
هدى شعراوي

وفي يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٢٤، أذاع سعد زغلول باشا في عنوان "نداء للأمة":

"إن الوزارة بعد أن اجتهدت في تسوية الحالة السيئة التي نشأت عن الجناية المنكرة الممقوتة.. وبعد أن أفرغت جهدها في وقاية البلاد من شرها بحسب ما أملته عليها مصلحة الأمة، رأت أن استمرارها في الحكم صعب عليها وربما يعرض الوطن لأخطار قد لا تحدث في تخليها.

فلهذا رأت أن تستقيل من منصبها، وتفضل جلالة الملك حفظه ا بقبول هذه الاستقالة، فترجو الأمة أن تتفهم هذه الحقيقة حق التفهم، وأن تدرك إنها في مصلحة البلاد، وألا تأتي بأي عمل يكون فيه تكدير للراحة أو تشويش للأفكار، وا يحفظها من شر الغايات، وإنني مستعد مع أصدقائي لتأييد أية وزارة تشتغل لمصلحة البلاد ونطلب لها كل توفيق".

سعد زغلول



إعلان الاستياء

وقد يعتقد بعض الناس إننا كنا ننظر إلى الأمـور نظـرة شخصية، ولكن هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة والواقع، فقـد ظلت مصر على الدوام هي القضية وهي الهدف.

وحتى تبدو كل الأمور في نصابها، فإنني قبل أن أكتـب الرسالة المفتوحة إلى سعد باشا زغلول، أصدرت بيانًا أعبر فيه عن وجهة نظر لجنة المقاطعة من الأحداث الجارية، وقد نشرت الجرائد هذا البيان في ٢٢ نوفمبر ١٩٢٤، وقد جـاء فيه:

"اجتمعت لجنة المقاطعة للسيدات بمنزلنا اليوم، وقـررت إعلان شديد استيائها لحادث الاعتداء الفظيع الذي وقع علـى صاحب المعالي السير لي سـتاك باشـا سـردار الجـيش المصري.. وهي تعتقد أن تحقيق آمال الأمة لنيل اسـتقلالها أساسه البعد عن ارتكاب أي عمل تحرمه الشرائع سواء كان على الأشخاص أو الأموال كما جاء ذلك ضمن النداء الـذي وجهته للأمة عقب تشكيلها.

واللجنة وهي تعلن هذا الأسف، تكـرر الرجـاء لأبنـاء الوطن على اختلاف طبقاتهم باجتناب كل عمل جنائي يسيء

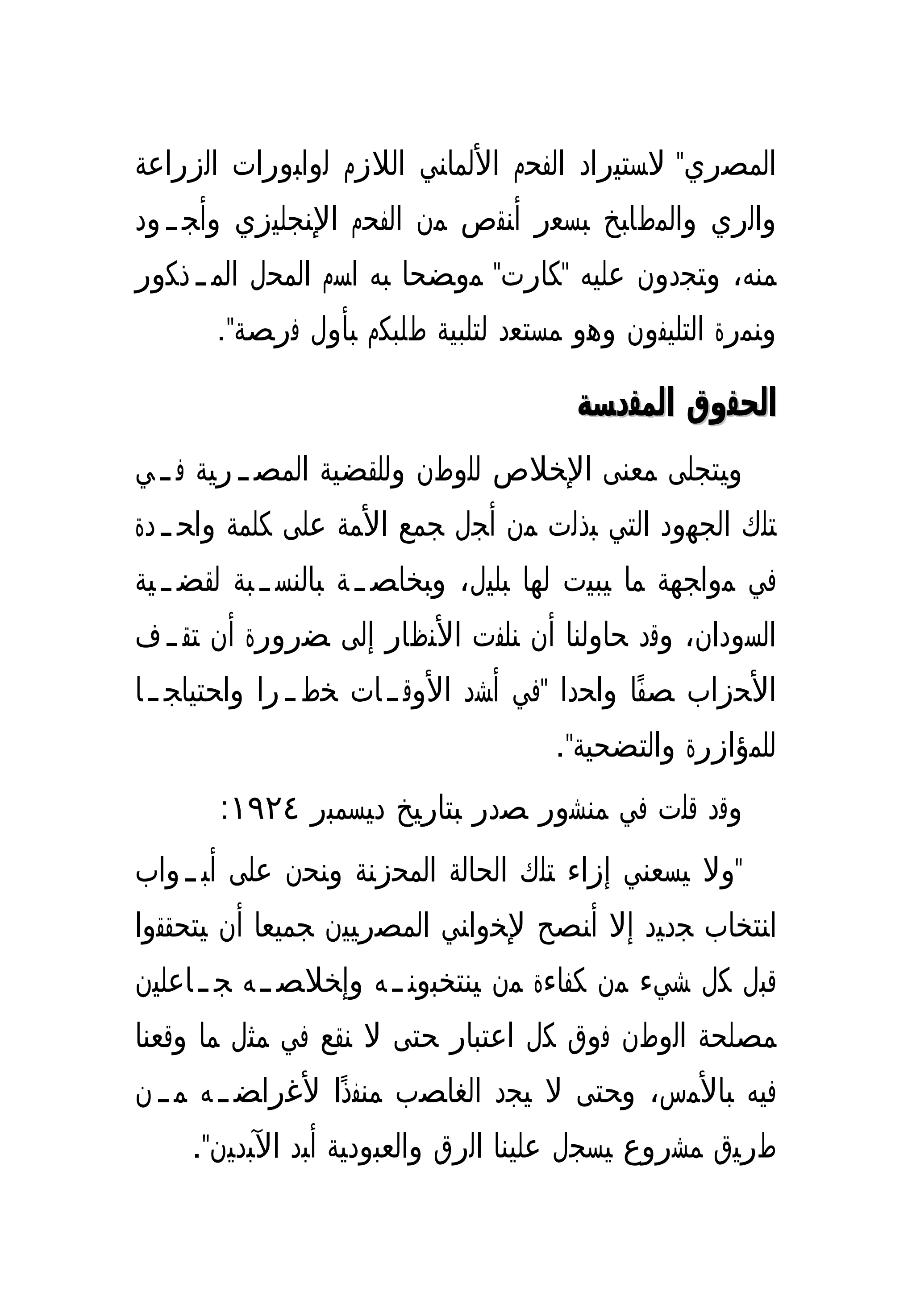
إلى سمعة مصر، ويكون من نتائجه الضرر علـى قضـيتها الكبرى، وهي في الوقت نفسه تأمل أن تسـاعدها الجرائـد الإنجليزية على تحقيق هذا الرجاء بتخفيف لهجتها عند الكلام على هذه الحادثة وعدم إلباسها ثوبا يشف عن غرض لا يتفق وما ترجوه مصر وإنجلترا من عدم زيادة الهوة ومن تقريب حسن التفاهم بين الشعبين".

الرئيسة: هدى شعراوي.

ومن ناحية أخرى، فقد اهتمت لجنة المقاطعة بأن تعطـي جهودها لخطوات إيجابية على هذا الطريق، واسـتطاعت أن تسهم في حل المشاكل التي كانت تعترض فكرة المقاطعـة، ومن ذلك المنشور الذي أصدرته في ١٩٢٤ بشـأن مشـكلة الفحم، والذي جاء فيه:

"اجتمعت لجنة المقاطعة يوم الجمعة ٢١ الجاري، وقررت لنجاح مشروعها أن تلجأ إلى وطنيتكم خدمة للقضية الكبرى راجية قبول دعوتها بمقاطعة المتاجر والمصانع الإنجليزية.

ولما كان صنف الفحم من الحاجات الضـرورية، وكـان يخشى صعوبة الحصول عليه من غير الإنجليز، فقد وفقـت اللجنة لمعاملة محل مصـري هـو "الكونتـوار التجـاري



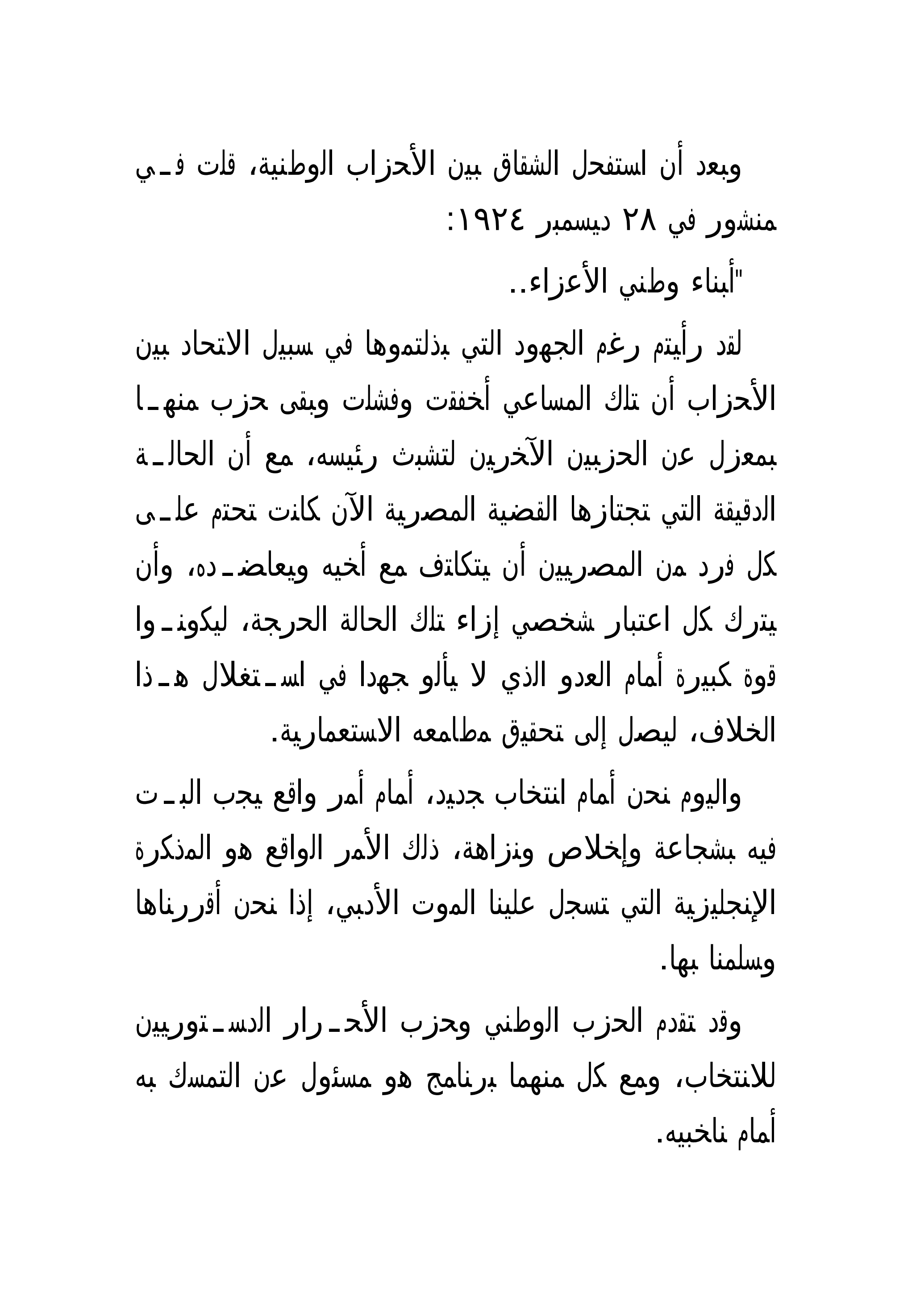
المصري" لاستيراد الفحم الألماني اللازم لوابورات الزراعة والري والمطابخ بسعر أنقص من الفحم الإنجليزي وأجود منه، وتجدون عليه "كارت" موضحا به اسم المحل المذكور ونمرة التليفون وهو مستعد لتلبية طلبكم بأول فرصة".

الحقوق المقدسة

ويتجلى معنى الإخلاص للوطن وللقضية المصرية في تلك الجهود التي بذلت من أجل جمع الأمة على كلمة واحدة في مواجهة ما يبيت لها بليل، وبخاصة بالنسبة لقضية السودان، وقد حاولنا أن نلفت الأنظار إلى ضرورة أن تقف الأحزاب صفًا واحدا "في أشد الأوقات خطرا واحتياجا للمؤازرة والتضحية".

وقد قلت في منشور صدر بتاريخ ديسمبر ١٩٢٤:

"ولا يسعني إزاء تلك الحالة المحزنة ونحن على أبواب انتخاب جديد إلا أنصح لإخواني المصريين جميعا أن يتحققوا قبل كل شيء من كفاءة من ينتخبونه وإخلاصه جاعلين مصلحة الوطن فوق كل اعتبار حتى لا نقع في مثل ما وقعنا فيه بالأمس، وحتى لا يجد الغاصب منفذًا لأغراضه من طريق مشروع يسجل علينا الرق والعبودية أبد الآبدين".



وبعد أن استفحل الشقاق بين الأحزاب الوطنية، قلت في منشور في ٢٨ ديسمبر ١٩٢٤:

"أبناء وطني الأعزاء..

لقد رأيتم رغم الجهود التي بذلتموها في سبيل الاتحاد بين الأحزاب أن تلك المساعي أخفقت وفشلت وبقى حزب منها بمعزل عن الحزبين الآخرين لتشبث رئيسه، مع أن الحالة الدقيقة التي تجتازها القضية المصرية الآن كانت تحتم على كل فرد من المصريين أن يتكاتف مع أخيه ويعاضده، وأن يترك كل اعتبار شخصي إزاء تلك الحالة الحرجة، ليكونوا قوة كبيرة أمام العدو الذي لا يألو جهدا في استغلال هذا الخلاف، ليصل إلى تحقيق مطامعه الاستعمارية.

واليوم نحن أمام انتخاب جديد، أمام أمر واقع يجب البت فيه بشجاعة وإخلاص ونزاهة، ذلك الأمر الواقع هو المذكرة الإنجليزية التي تسجل علينا الموت الأدبي، إذا نحن أقررناها وسلمنا بها.

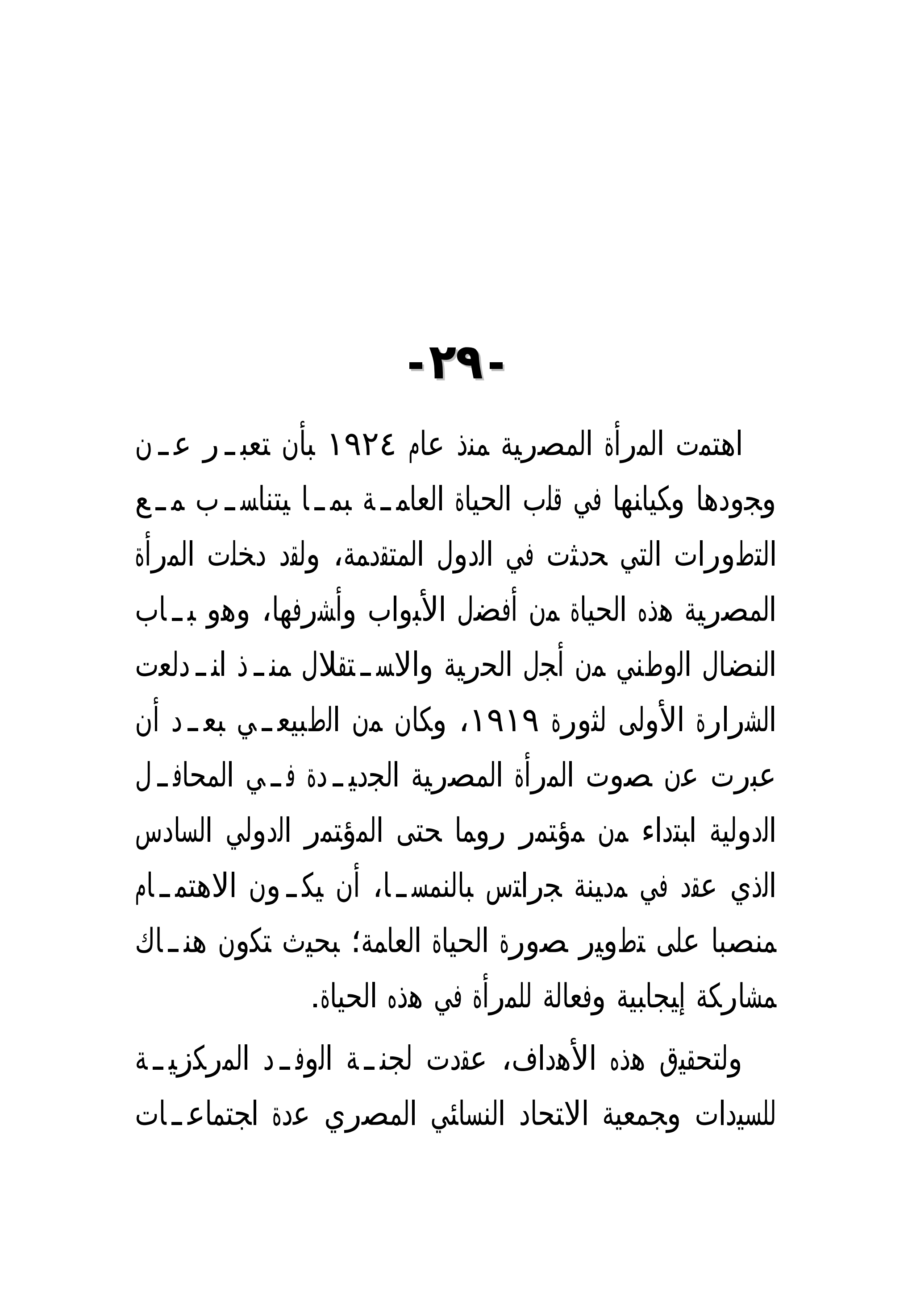
وقد تقدم الحزب الوطني وحزب الأحرار الدستوريين للانتخاب، ومع كل منهما برنامج هو مسئول عن التمسك به أمام ناخبيه.

أما الحزب السعدي، فلم يعلن إلى الآن برنامجا يرتبط به أمام الأمـة، مـع أن الحالـة الراهنـة تتطلـب صـراحة ولا تحتمل غموضا أو مغالاة في الثقة لما فـي ذلـك مـن الخطر.

فإذا تقدم الحزب السعدي للانتخـاب (وسـيتقدم طبعـا)، فواجب عليكم أن تطلبوا منه قبل كل شيء إعلان برنامجـه، ليكون حجة عليه أمام ناخبيه، وهذه سنة متبعة فـي جميـع الأمم المتمدينة، فإذا طلبتم ذلك فلم تطلبوا بدعة وإنما تطلبون حقًا لكم يجب أن يؤدي إليكم، وبذلك تبرهنون للعـالم إننـا لا ننقاد انقياد الأعمى لإنسان مهما كانت قيمته ومكانته بـين الأمة – وإنما ننقاد للمبادئ الحقة.

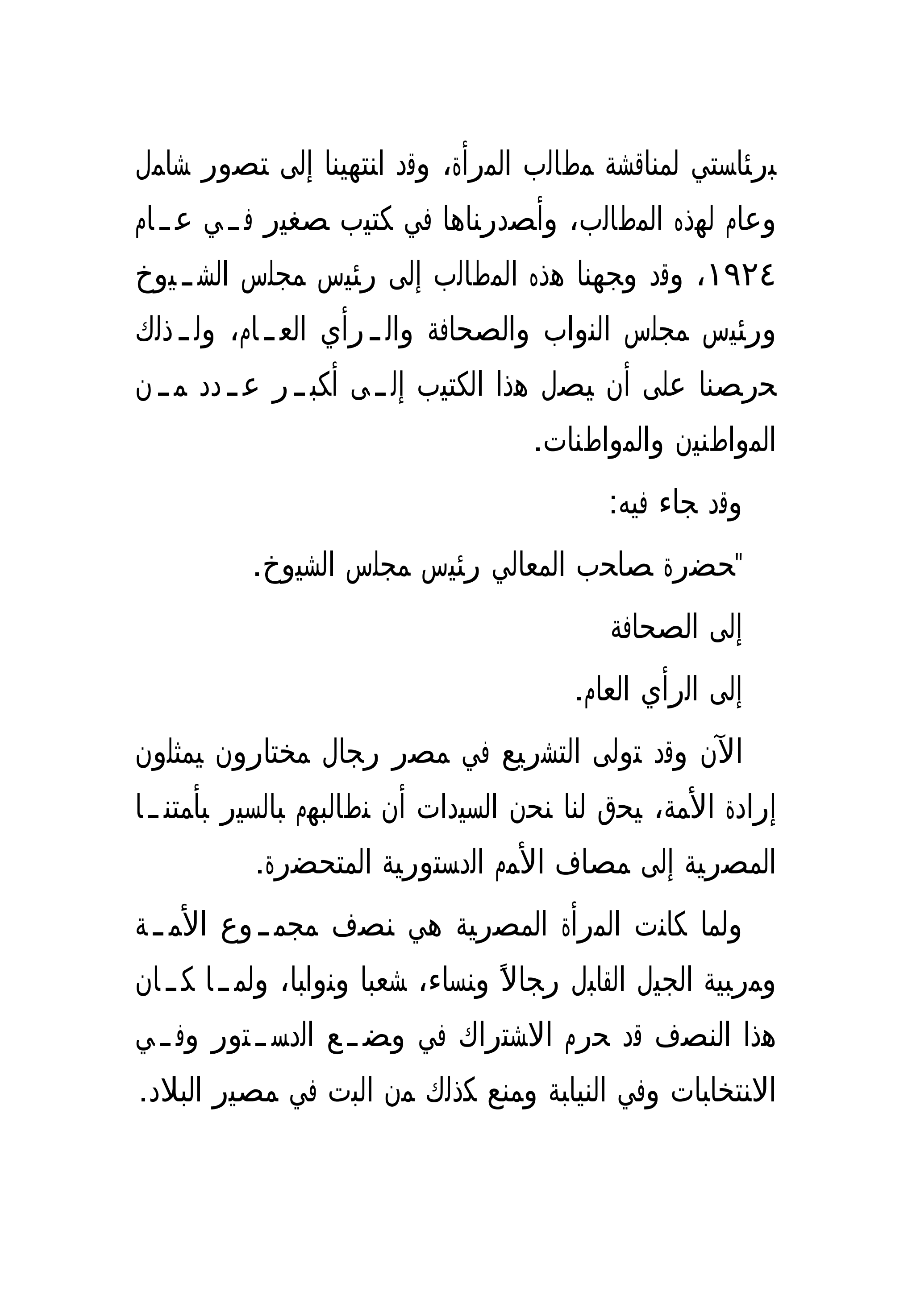
هذه نصيحتي أسديها إليكم بإخلاص غير متحيزة لفريـق دون آخر، وغير واضعة نصب عينـي إلا حقـوق الـبلاد المقدسة".

هدى شعراوي



اهتمت المرأة المصرية منذ عام ١٩٢٤ بأن تعبر عن وجودها وكيانها في قلب الحياة العامة بما يتناسب مع التطورات التي حدثت في الدول المتقدمة، ولقد دخلت المرأة المصرية هذه الحياة من أفضل الأبواب وأشرفها، وهو باب النضال الوطني من أجل الحرية والاستقلال منذ اندلعت الشرارة الأولى لثورة ١٩١٩، وكان من الطبيعي بعد أن عبرت عن صوت المرأة المصرية الجديدة في المحافل الدولية ابتداء من مؤتمر روما حتى المؤتمر الدولي السادس الذي عقد في مدينة جراتس بالنمسا، أن يكون الاهتمام منصبا على تطوير صورة الحياة العامة؛ بحيث تكون هناك مشاركة إيجابية وفعالة للمرأة في هذه الحياة.

ولتحقيق هذه الأهداف، عقدت لجنة الوفد المركزية للسيدات وجمعية الاتحاد النسائي المصري عدة اجتماعات



برئاستي لمناقشة مطالب المرأة، وقد انتهينا إلى تصور شامل وعام لهذه المطالب، وأصدرناها في كتيب صغير في عام ١٩٢٤، وقد وجهنا هذه المطالب إلى رئيس مجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب والصحافة والرأي العام، ولذلك حرصنا على أن يصل هذا الكتيب إلى أكبر عدد من المواطنين والمواطنات.

وقد جاء فيه:

"حضرة صاحب المعالي رئيس مجلس الشيوخ.

إلى الصحافة

إلى الرأي العام.

الآن وقد تولى التشريع في مصر رجال مختارون يمثلون إرادة الأمة، يحق لنا نحن السيدات أن نطالبهم بالسير بأمتنا المصرية إلى مصاف الأمم الدستورية المتحضرة.

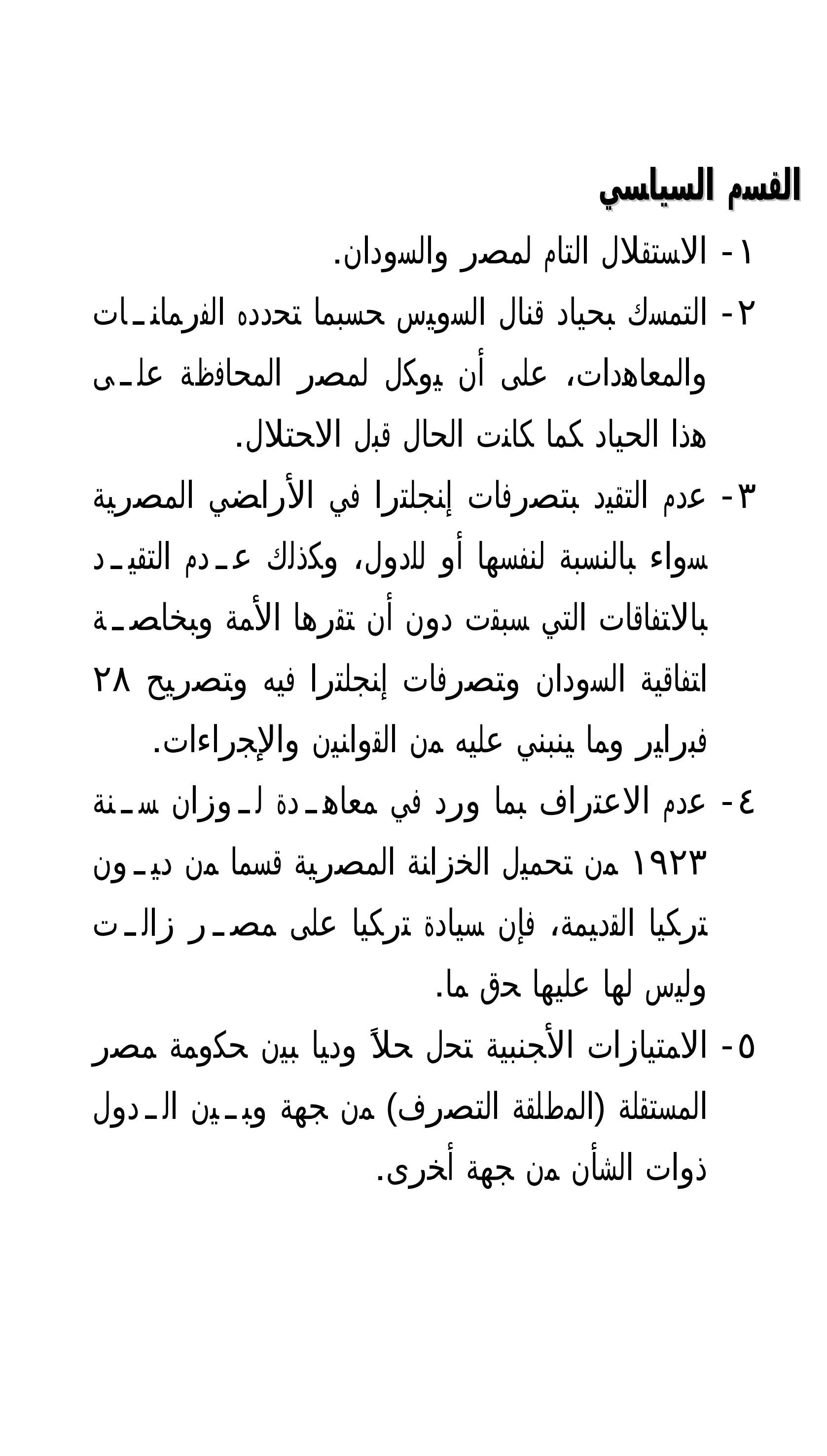
ولما كانت المرأة المصرية هي نصف مجموع الأمة ومربية الجيل القابل رجالاً ونساء، شعبا ونوابا، ولما كان هذا النصف قد حرم الاشتراك في وضع الدستور وفي الانتخابات وفي النيابة ومنع كذلك من البت في مصير البلاد.

رأت لجنة الوفد المركزية التي مثلت نساء القطـر منـذ ثورة سنة ١٩١٩ منضمة إليها جمعيـة الاتحـاد النسـائي المصري التي قامت بكثير من الأعمال الاجتماعية والنسوية لصالح هذا البلد، أن تدلي إلى الأمة بآرائها ومطالبها بالنيابة عن نساء هذا القطـر فـي الأمـور السياسـية والنسـوية والاجتماعية، راجية أن يفحصها المحترمـون بأقصـى مـا تستحق من همة وعناية وما يؤمل فيهم من شجاعة ووطنية.

وستسعى اللجنة من جهتها لتحقيق هـذه المطالـب بكـل الوسائل المشروعة.

على إننا لا نجهل أن هذه الإصلاحات كثيـرة متنوعـة. تستلزم مجهودات هائلة ونفقات عظيمة، غير أنا نلفت النظر إليها حتى تدرس من الآن ويبت فيها ثم تنفـذ علـى قاعـدة تفضيل الأهم على المهم، وعندنا أن أهـم مـا يعنينـا بعـد المحافظة على كيان القطر وسلامته واستقلاله هـي أمـور التعليم والصحة.

ونرجو من الجرائد والرأي العام السهر على درس هـذه المسائل وتشجيع الحكومة والبرلمان حتى يكـون المجهـود مضاعفًا، فتبني الأمة جميعها على أساس الاستقلال الحقيقي.



القسم السياسي

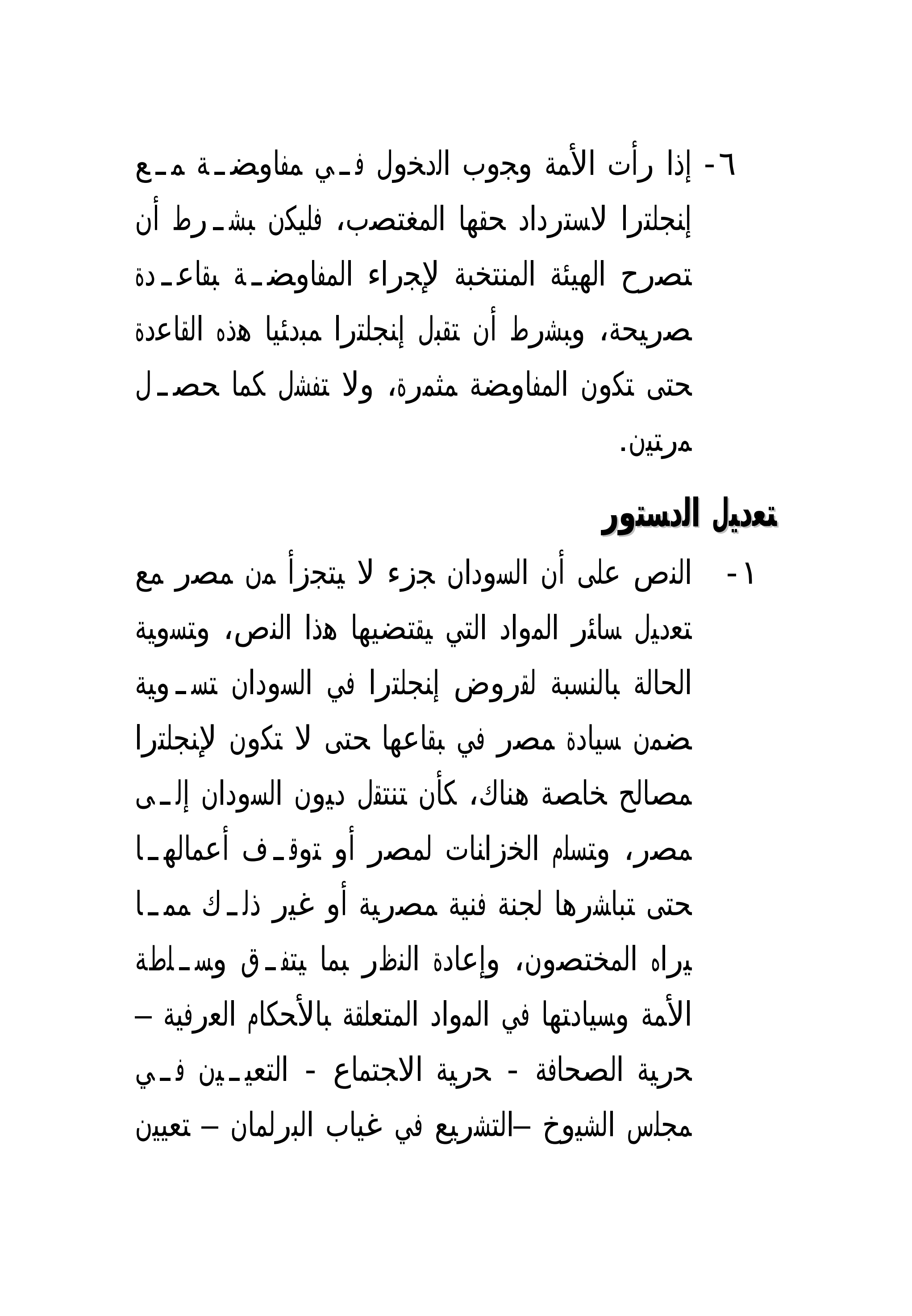
١- الاستقلال التام لمصر والسودان.

٢- التمسك بحياد قنال السويس حسبما تحدده الفرمانات والمعاهدات، على أن يوكل لمصر المحافظة على هذا الحياد كما كانت الحال قبل الاحتلال.

٣- عدم التقيد بتصرفات إنجلترا في الأراضي المصرية سواء بالنسبة لنفسها أو للدول، وكذلك عدم التقيد بالاتفاقات التي سبقت دون أن تقرها الأمة وبخاصة اتفاقية السودان وتصرفات إنجلترا فيه وتصريح ٢٨ فبراير وما ينبني عليه من القوانين والإجراءات.

٤- عدم الاعتراف بما ورد في معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ من تحميل الخزانة المصرية قسما من ديون تركيا القديمة، فإن سيادة تركيا على مصر زالت وليس لها عليها حق ما.

٥- الامتيازات الأجنبية تحل حلاً وديا بين حكومة مصر المستقلة (المطلقة التصرف) من جهة وبين الدول ذوات الشأن من جهة أخرى.



٦- إذا رأت الأمة وجوب الدخول في مفاوضة مع إنجلترا لاسترداد حقها المغتصب، فليكن بشرط أن تصرح الهيئة المنتخبة لإجراء المفاوضة بقاعدة صريحة، وبشرط أن تقبل إنجلترا مبدئيا هذه القاعدة حتى تكون المفاوضة مثمرة، ولا تفشل كما حصل مرتين.

تعديل الدستور

١- النص على أن السودان جزء لا يتجزأ من مصر مع تعديل سائر المواد التي يقتضيها هذا النص، وتسوية الحالة بالنسبة لقروض إنجلترا في السودان تسوية ضمن سيادة مصر في بقاعها حتى لا تكون لإنجلترا مصالح خاصة هناك، كأن تنتقل ديون السودان إلى مصر، وتسلم الخزانات لمصر أو توقف أعمالها حتى تباشرها لجنة فنية مصرية أو غير ذلك مما يراه المختصون، وإعادة النظر بما يتفق وسلطة الأمة وسيادتها في المواد المتعلقة بالأحكام العرفية – حرية الصحافة - حرية الاجتماع - التعيين في مجلس الشيوخ –التشريع في غياب البرلمان – تعيين

الضباط وعزلهم – صيغة يمين الملك (أن يقسم يمين الأمانة للملك الدستوري) – استجواب الوزراء، وغير ذلك مما يرى تعديله.

٢- تعديل قوانين الانتخاب بما يلائم لوائح البلاد المتمدينة لا سيما جعل الانتخاب درجة واحدة.

٣- إلغاء القوانين الاستثنائية والرجعية وتعديلها:

(أ) سواء ما صدر منها قبل الحرب: قانون المطبوعات – إحالة الصحفيين على محكمة الجنايات – قانون التجمهر – النفي الإداري- المحاكم المخصوصة.

(ب) أو ما صدر منها بعد الحرب: قانون الأحكام العرفية – قانون الاجتماعات.

(ج) مراجعة التعديلات التي أدخلت على قانون العقوبات بشكل يتلاءم وروح العصر.

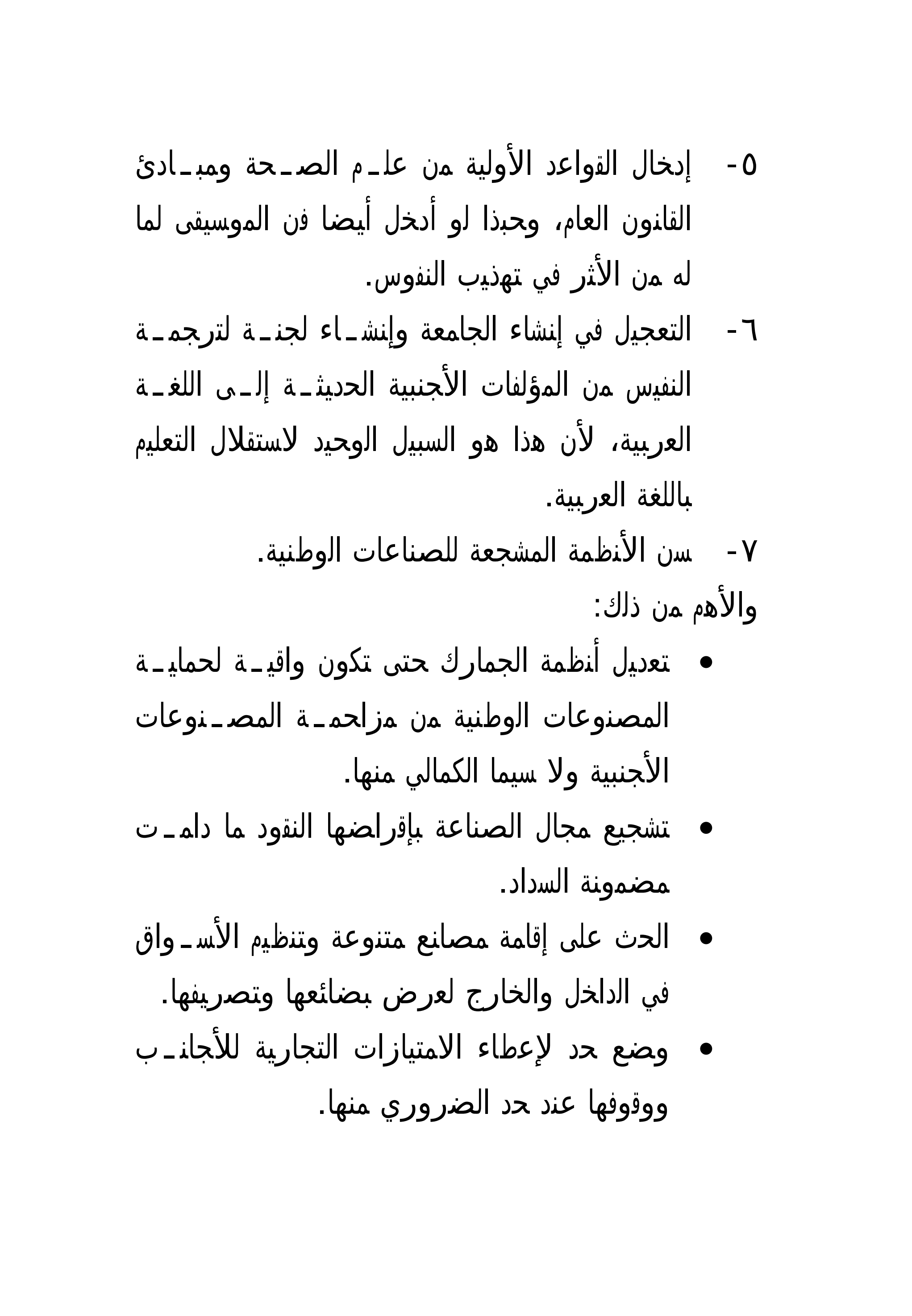
(د) استدراك ما عسى يمكن استدراكه من قانون التضمنيات.

٤- الدفاع:

١- وضع أساس شامل للبدء في تنظيم الجيش والبحرية والطيران بقدر ما تقتضيه سلامة البلاد.
٢- تنظيم وسائل النقل والمواصلات البرية والنهرية والجوية والتلغرافية والتليفونية، وتوزيع الإرساليات المصرية على هذه الأسلحة إلى أقصى حد تسمح به الميزانية من كل عام.
٣- التدرج في إلقاء مقاليد هذه الأمور إلى أيد مصرية عند نهاية مادة محدودة.

القسم الاجتماعي

١- المبادرة في تنفيذ حكم الدستور الخاص بنشر التعليم الابتدائي في جميع أنحاء القطر بصفة إلزامية.
٢- إدخال التعليم الديني والخلقي في عموم المدارس.
٣- الإكثار من البعثات العلمية وخصها بالعناية التي هي في أشد الحاجة إليها الآن وانتقاء المشرفين عليها من رجال التعليم الوطنيين الأكفاء.
٤- جعل التعليم الثانوي والعالي غير مقيد بأية سن، مساعدة على نشر العلم.



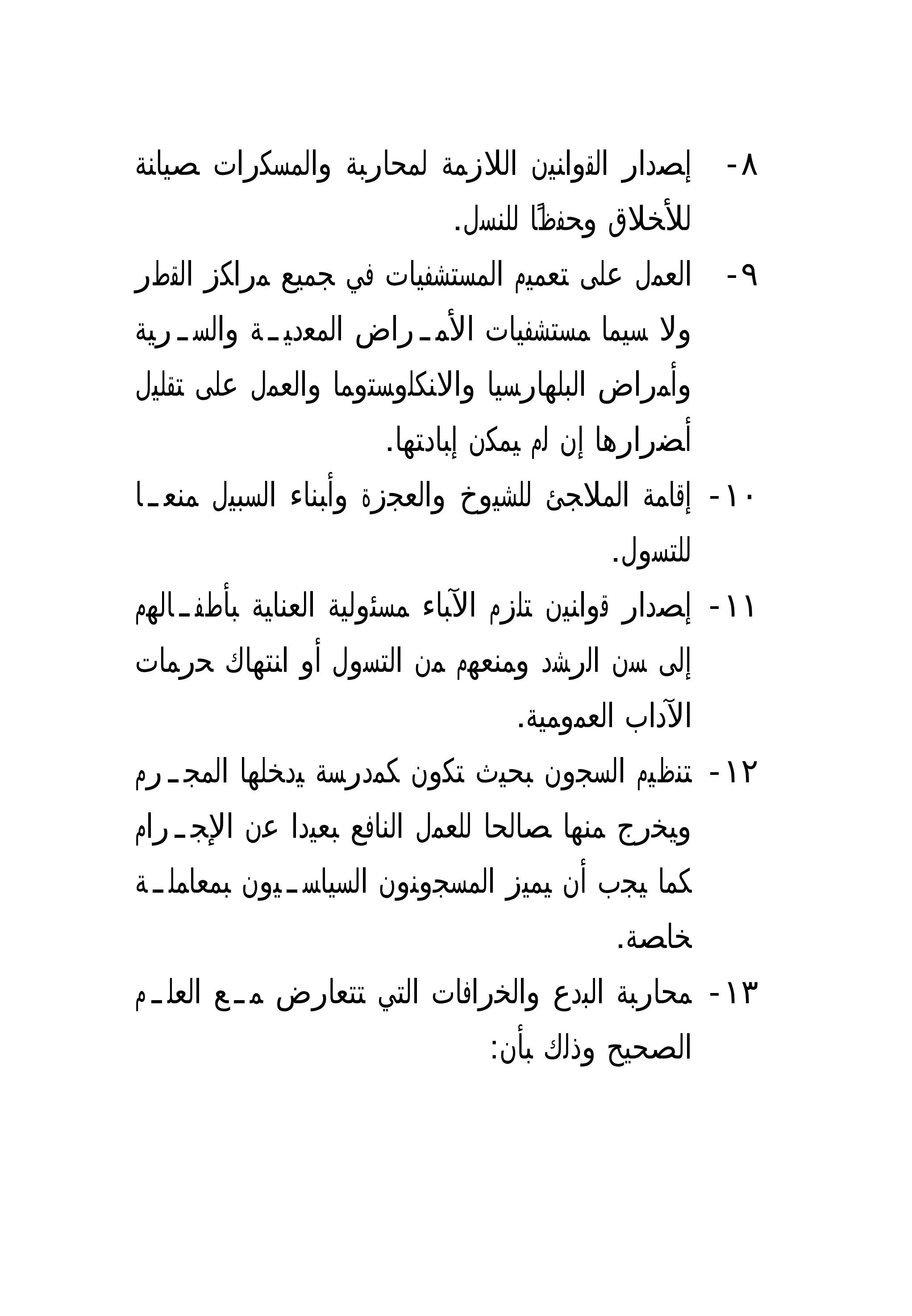
٥- إدخال القواعد الأولية من علم الصحة ومبادئ القانون العام، وحبذا لو أدخل أيضا فن الموسيقى لما له من الأثر في تهذيب النفوس.

٦- التعجيل في إنشاء الجامعة وإنشاء لجنة لترجمة النفيس من المؤلفات الأجنبية الحديثة إلى اللغة العربية، لأن هذا هو السبيل الوحيد لاستقلال التعليم باللغة العربية.

٧- سن الأنظمة المشجعة للصناعات الوطنية.

والأهم من ذلك:

- تعديل أنظمة الجمارك حتى تكون واقية لحماية المصنوعات الوطنية من مزاحمة المصنوعات الأجنبية ولا سيما الكمالي منها.
- تشجيع مجال الصناعة بإقراضها النقود ما دامت مضمونة السداد.
- الحث على إقامة مصانع متنوعة وتنظيم الأسواق في الداخل والخارج لعرض بضائعها وتصريفها.
- وضع حد لإعطاء الامتيازات التجارية للأجانب ووقوفها عند حد الضروري منها.



٨- إصدار القوانين اللازمة لمحاربة والمسكرات صيانة للأخلاق وحفظًا للنسل.

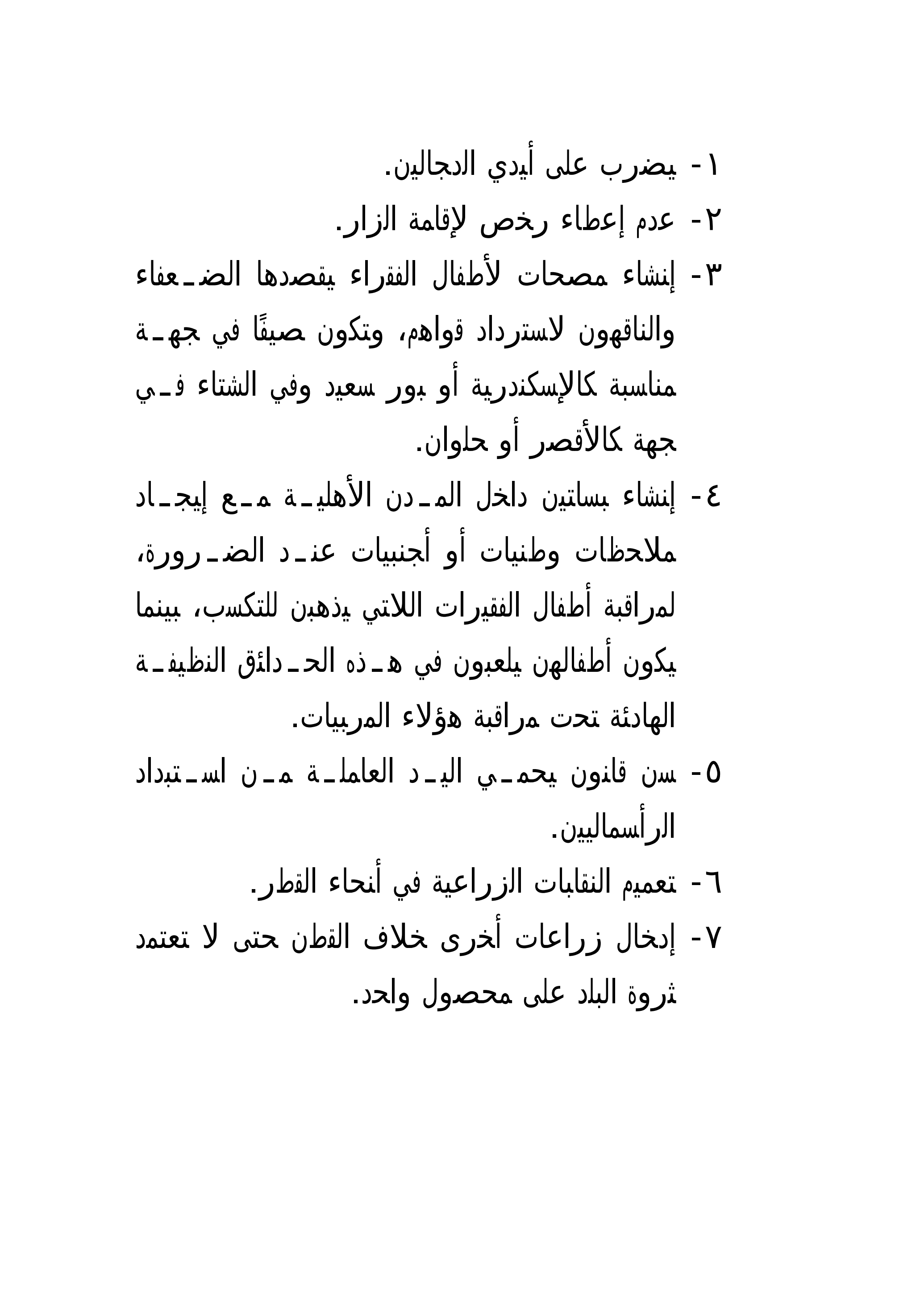
٩- العمل على تعميم المستشفيات في جميع مراكز القطر ولا سيما مستشفيات الأمراض المعدية والسرية وأمراض البلهارسيا والانكلوستوما والعمل على تقليل أضرارها إن لم يمكن إبادتها.

١٠- إقامة الملاجئ للشيوخ والعجزة وأبناء السبيل منعا للتسول.

١١- إصدار قوانين تلزم الآباء مسئولية العناية بأطفالهم إلى سن الرشد ومنعهم من التسول أو انتهاك حرمات الآداب العمومية.

١٢- تنظيم السجون بحيث تكون كمدرسة يدخلها المجرم ويخرج منها صالحا للعمل النافع بعيدا عن الإجرام كما يجب أن يميز المسجونون السياسيون بمعاملة خاصة.

١٣- محاربة البدع والخرافات التي تتعارض مع العلم الصحيح وذلك بأن:



١- يضرب على أيدي الدجالين.
٢- عدم إعطاء رخص لإقامة الزار.
٣- إنشاء مصحات لأطفال الفقراء يقصدها الضعفاء والناقهون لاسترداد قواهم، وتكون صيفًا في جهة مناسبة كالإسكندرية أو بور سعيد وفي الشتاء في جهة كالأقصر أو حلوان.
٤- إنشاء بساتين داخل المدن الأهلية مع إيجاد ملاحظات وطنيات أو أجنبيات عند الضرورة، لمراقبة أطفال الفقيرات اللاتي يذهبن للتكسب، بينما يكون أطفالهن يلعبون في هذه الحدائق النظيفة الهادئة تحت مراقبة هؤلاء المربيات.
٥- سن قانون يحمي اليد العاملة من استبداد الرأسماليين.
٦- تعميم النقابات الزراعية في أنحاء القطر.
٧- إدخال زراعات أخرى خلاف القطن حتى لا تعتمد ثروة البلد على محصول واحد.

القسم النسوي

لا حاجة للتدليل على أن أعمال النساء اللاتي هن نصف مجموع الأمة تمثل حركة تقدمها جميعا، ولا حاجة للاستشهاد بالتاريخ في مواطن عدة على أن رقي الأمم مرتبط طردا وعكسا برقي النساء فيها، فنحن إذا طالبنا بإصلاح النساء خاصة، فلسنا نؤثر أنفسنا على غيرنا من عناصر الأمة، ولكننا نعرف أن في إصلاح المرأة إصلاح المجموع.

ولا ريب أن خير وجوه الإصلاح، العلم والتهذيب لأنهما العامل الحقيقي في إعداد كل فرد للقيام بواجبه على الوجه الأكمل مما ينهض بالبلاد نهوضا حقيقيا.

ولما كان الدين الإسلامي يأمر بتسوية الجنسين في أمور شتى (لا شك في أن التعليم أحدها) فلهذه الأسباب نلح على الحكومة والبرلمان والصحافة وطلاب الإصلاح الحقيقي أن يؤازرونا في هذا الباب الذي هو أولى الإصلاحات بالبدء.

ولا يمنعنا صرف همنا إلى التعليم من المطالبة بحقوق المرأة المهضومة، ولسنا بذلك نطالب ببدعة، ولكنا نطالب بالحقوق التي اعترف لنا بها الدين والحق.

١- مساواة الجنسين في التعليم وفتح أبواب التعليم العالي وامتحاناته لمن يهمها ذلك من الفتيات تشجيعا لنبوغ من لها مواهب خاصة. (ولا يفوتنا ذكر مدام كوري مكتشفة الراديوم استشهادا على نبوغ المرأة)، وتسهيلاً للتكسب لمن تحتاج منهن، ورفعا لمستوى العقلية العامة في البلاد.

٢- الإكثار من المدارس الثانوية للبنات، ويبدأ بعواصم المديريات ثم بالمراكز وهكذا.

٣- فصل إدارة تعليم البنات عن تعليم البنين (كما فصلت مراقبة التعليم الابتدائي عن التعليم الأولي على ما بينهما من الشبه).

٤- إحلال الخبيرات بشئون التعليم من النساء محل الرجال في كل فروع التعليم النسوي ومراقبته تدريجيا؛ بحيث لا يبقى فيها أحد من الرجال في نهاية مدة معينة، لأنهن أدرى بحاجة الفتاة وأكثر عناية بالسهر عليها.

٥- تعديل قانون الانتخابات بإشراك النساء مع الرجال في حق الانتخاب ولو بقيود في الدور القادم،

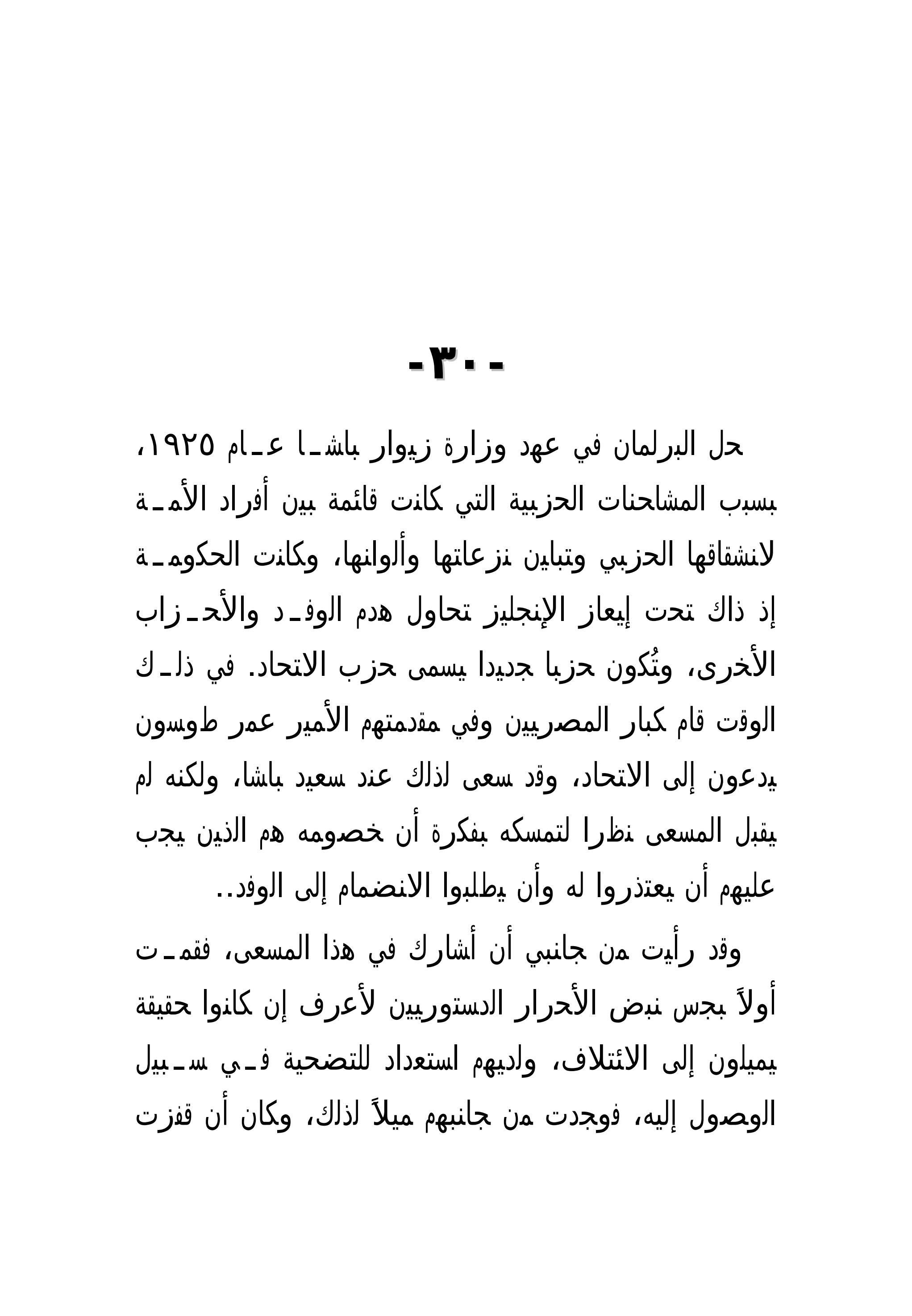
كاشتراط التعليم أو دفعها نصابا معينًا على ما لها من الملك. ولا يكون من الإنصاف الاعتـراض علـى إشراك هذه الطبقة من النساء ولا سـيما أن قـانون الانتخابات يجعل للرجل الأمي والخالي مـن الملـك حقًا في أن ينتخب وينتخب. وليس من المعقـول ولا من العدل وأغلبية الرجال كذلك أن تحرم المرأة مـع الشروط المتقدمة من المساواة بمثل هذا الجمهور من الرجال، كما أنه ليس من العدل أن تخضـع النسـاء للتشريع ويتجـرعن آثـاره وهـن نصـف الهيئـة الاجتماعية دون أن يكون لهن رأي في وضعه.

٦- إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجيـة وجعلهـا منطبقة على ما أرادته روح الدين من الأسر وإحكام الرابطة العائلية وذلك بأن:

١- يسن قانون يمنع تعدد الزوجات إلا لضرورة كـأن تكون الزوجة عقيما أو مريضة بمرض يمنعها من أداء وظيفتها الزوجية وفي هذه الحالات يجـب أن يثبت ذلك الطبيب الشرعي.

٢- سن قانون يلزم المطلّق إلا يطلق زوجه إلا أمام القاضي الشرعي، والقاضي عليه معالجة التوفيق بحضور حكم من أهله وحكم من أهلها قبل الحكم بالطلاق طبقًا لنص الشرع الشريف.

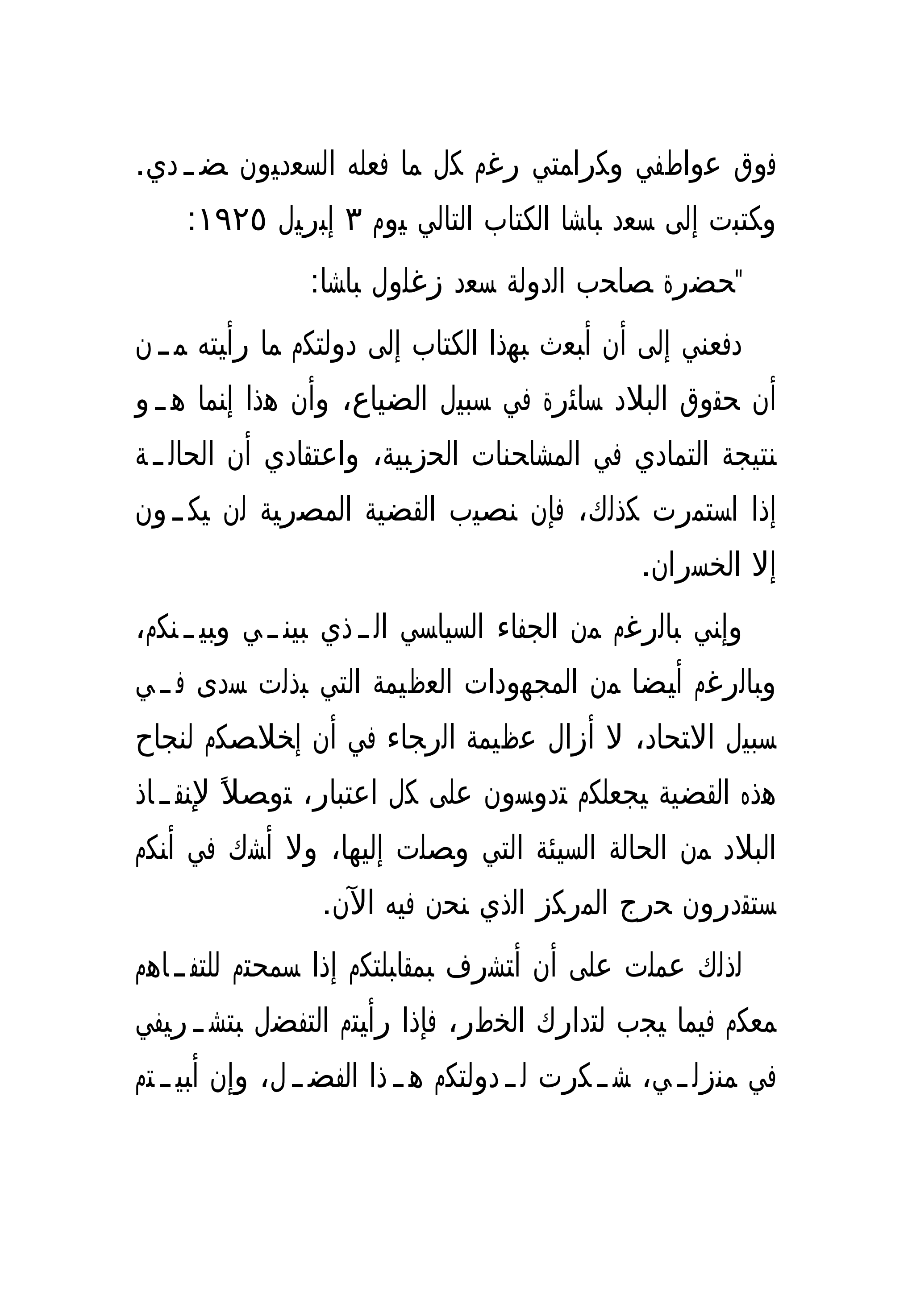
٣- العمل مع الدول الأجنبية على نيل رضاها، باعتبارها الأحكام الشرعية التي تصدر بالنفقة واجبة التنفيذ أينما وجد المحكوم عليه ولو في أرض أجنبية.



-٣٠-

حل البرلمان في عهد وزارة زيوار باشا عام ١٩٢٥، بسبب المشاحنات الحزبية التي كانت قائمة بين أفراد الأمة لانشقاقها الحزبي وتباين نزعاتها وألوانها، وكانت الحكومة إذ ذاك تحت إيعاز الإنجليز تحاول هدم الوفد والأحزاب الأخرى، وتُكون حزبا جديدا يسمى حزب الاتحاد. في ذلك الوقت قام كبار المصريين وفي مقدمتهم الأمير عمر طوسون يدعون إلى الاتحاد، وقد سعى لذلك عند سعيد باشا، ولكنه لم يقبل المسعى نظرا لتمسكه بفكرة أن خصومه هم الذين يجب عليهم أن يعتذروا له وأن يطلبوا الانضمام إلى الوفد..

وقد رأيت من جانبي أن أشارك في هذا المسعى، فقمت أولاً بجس نبض الأحرار الدستوريين لأعرف إن كانوا حقيقة يميلون إلى الائتلاف، ولديهم استعداد للتضحية في سبيل الوصول إليه، فوجدت من جانبهم ميلاً لذلك، وكان أن قفزت



فوق عواطفي وكرامتي رغم كل ما فعله السعديون ضدي.

وكتبت إلى سعد باشا الكتاب التالي يوم ٣ إبريل ١٩٢٥:

"حضرة صاحب الدولة سعد زغلول باشا:

دفعني إلى أن أبعث بهذا الكتاب إلى دولتكم ما رأيته من أن حقوق البلاد سائرة في سبيل الضياع، وأن هذا إنما هو نتيجة التمادي في المشاحنات الحزبية، واعتقادي أن الحالة إذا استمرت كذلك، فإن نصيب القضية المصرية لن يكون إلا الخسران.

وإني بالرغم من الجفاء السياسي الذي بيني وبينكم، وبالرغم أيضا من المجهودات العظيمة التي بذلت سدى في سبيل الاتحاد، لا أزال عظيمة الرجاء في أن إخلاصكم لنجاح هذه القضية يجعلكم تدوسون على كل اعتبار، توصلاً لإنقاذ البلاد من الحالة السيئة التي وصلت إليها، ولا أشك في أنكم ستقدرون حرج المركز الذي نحن فيه الآن.

لذلك عملت على أن أتشرف بمقابلتكم إذا سمحتم للتفاهم معكم فيما يجب لتدارك الخطر، فإذا رأيتم التفضل بتشريفي في منزلي، شكرت لدولتكم هذا الفضل، وإن أبيتم

إلا حرماني من ذلك التفضيل، فإني مستعدة للقائكم في الزمان والمكان اللذين تحددونهما".

هدى شعراوي

وقد رد دولته في اليوم التالي، أي يوم ٤ إبريل ١٩٢٥، بالكتاب التالي:

"حضرة السيدة الجليلة هدى شعراوي:

تشرفت بكتابكم الكريم، وأشعر القصد الجميل الذي دعاكم إلى كتابته، ويسرني أن أقابلكم عندي في اليوم الذي تختارونه صباحا من الساعة العاشرة أو مساء من الساعة الخامسة. ولحضرتكم فائق احترامي".

سعد زغلول

وفي حوالي الساعة العاشرة من صباح يوم ٥ إبريل، طلبت منزل سعد باشا تليفونيا، فرد خادمه بغلاظة: من يريد محادثة الرئيس؟ قلت: منزل شعراوي باشا. قال: ولكن من أنت؟ قلت: أبلغ الباشا ذلك وهو يفهم. قال: هو لا يعرف ولا يكلم من لا يبوح باسمه، فقولي من أنت وماذا تريدين، أو انتظري إلى أن يحضر السكرتير في الساعة العاشرة.

اللقاء العاصف

وفي حوالي الحادية عشرة كلفت سـكرتيري أن يطلـب سكرتير سعد باشا الخاص، وذهب ليطلب المقابلة، ثم عـاد ليقول: لتتفضل السيدة، فذهبت على الفور.. وعندما وصـلت استقبلني الخادم على باب الحريم، وفتح لي، وكانت خادمـة إفرنجية تنتظرني من جهة الباب الثانية من الداخل، فمشـت أمامي إلى الصالون، وبعد أن استقر بي المقام، قالـت لـي بصوت مضطرب: "سيدي يعتذر لمرضه عن النزول، فـإذا كنت تنوين مقابلته ولا يصعب عليك الصعود إلـى الطـابق الأعلى فتفضلي لمقابلته". فقلت لها: "أستطيع الصعود.. فقط أخبريه بحضوري"، فذهب وعـادت بعـد قليـل تـدعوني للصعود.. وعندما دخلت، وجدت سعد باشـا جالسـا علـى كرسي بمسندين، ولما رآني هم قائما ببطء وقال: "اعـذريني إذا كنت قد كلفت خاطرك وأتعبتك بالصعود للدور العلـوي، ولكنني أشعر بتعب في صدري إثر النزلـة الشـعبية التـي اعترتني في الشتاء المنصرم، كنت قد تحسـنت فـي مينـا هاوس إلا أن المرض عاودني من مدة، فلم أخرج منذ أربعة أيام تقريبا". فقلت له: "لا بأس عليك يا دولة الباشا". وسألني

عن صحتي وعن أولادي، فشكرته. وبعد ذلك سكت. قلـت له: "يا دولة الباشا أوضحت لكم في كتابي السـبب الباعـث لطلبي هذه المقابلة، وبالرغم من أني لم أجد في ردكـم مـا يشجعني على الحضور، إلا أنني أتيت لأتبين مـا إذا كنـت مخطئة في ظني أو كنت محقة". فقال: "ألـم أشـكرك فـي جوابي على القصد الجميل الذي دعاك إلى كتابتـه؟" قلـت: "نعم. إن هذا ما تستوجبه المجاملة، ولكنـه لا يفيـد بـأنكم توافقون على هذا المسعى".

قال: "هذا شيء آخر يجب أن نتناقش فيه".. قلـت: "قبـل المناقشة، أريد أن أعرف إذا كنـتم توافقـون مبـدئيا علـى الغرض الذي أتيت من أجله".. قال: "يجب أن نتناقش أولاً".. قلت: "الموضوع واضح، فإما أنك تشعر مثلي بـأن الحالـة السيئة التي نحن فيهـا الآن تحـتم الاتحـاد.. وإمـا أنـك لا تشاركني هذا الرأي، وفي هـذه الحالـة لا فائـدة مـن المناقشة".. قال: "سبحان ا ، كيف دون مناقشة يمكننـي أن أقول شيئًا؟ من يكره الاتحاد؟ لا أحد يميل للاتحـاد مثلـي، ولكني أريد أن أعرف مع من سيكون هذا الاتحاد؟ وعلى أي قاعدة ولأي غرض؟" قلت: "أما السؤال الأول، فالاتحاد يكون

مع خصومك، وعلى القاعدة التي تضعونها بعد التفاهم.. وأما الغرض فهو واضح كالشمس.. إخراج البلد من المأزق الذي هي فيه الآن بسبب الانقسام، ومنعها من السقوط في الهـوة السحيقة التي ستسقط فيها إن لم تتحد الأحزاب وتعمل كلهـا يدا واحدة لمقاومة عدو الجميع.. العـدو الخـارجي". قـال: "أتريدين أن أتحد مع من هدموا الدستور؟" قلت: "ومن هـدم الدستور؟ كيف يكون وراءك أربعة عشر مليونًا من الأنفـس ثم يأتي زيوار باشا إلى البرلمان بمفرده ويخرجه منـه ثـم لماذا لم تقل له عندما طلب منك الخروج وقفل مجلس النواب ما قلته عندما طلب الإنجليز نفيك.. أنـا هنـا بقـوة الأمـة ولا أخرج إلا برغبتها؟". قال متأثرا: "لم يكن هنـاك وقـت للتفكير".. قلت: "سبحان ا . هل في مثل هذه الظروف ينطق القلب أم العقل؟ كان يجب أن تخرج هذه الكلمة مـن قلبـك، فالوطنية الصادقة تنطق بما يوافق الظروف".

لماذا تحاسبينني وحدي

فأطرق ساكنًا ثم رفع رأسه وقال: "لماذا تؤاخذينني علـى كل ذنب ولا تفعلي ذلك مع غيري؟". قلت: "غيرك مسـئول عن نفسه ولا تؤيده الأمة.. فإذا أخطأ فلنفسه، أما أنت فتتكلم

عن أربعة عشر مليونًا، فإن أخطأت، أخطأت الأمة معـك.. ولذلك أحاسبك على كل ما فعل". فقال: "ومن أنـت؟ ومـن تكونين حتى تعطي لنفسك هذا الحق؟". قلت: "أنـا مصـرية واحدة من الأربعة عشر مليونًا الذين تتكلم بلسانهم، ولـذلك أجد نفسي الحق في أن أحاسبك على ما تفعل، وفضلاً عـن ذلك فإنك لا يمكنك أن تنكر من أنا، ولا ما قمـت بـه مـن خدمات لوطني، ولا ما لبيتي وأسرتي من الفضل والمساهمة في هذه القضية". قال: "هل نسيت كل ما فعلته في؟".. قلـت: "ليس هذا مجال عتاب". قال: "لا بل يجب أن نتعاتب، أتظنين أنه كان من السهل علي أن أوافق على مقابلتك بعد كل مـا فعلت بي؟" فأجبته على الفور: كنت أظن أنك ستفرح وتفخر اليوم بأني نسيت كل أعمالك وأني دست على كرامتي بعد ما فعلته صحفك في، وكنت أظن أنك سـتقدر وطنيتـي هـذه وتعرف أن ما دفعني إلى ذلك هو حبي لوطني وثقتي بأنـك ركن متين في بناء النهضة، فلما رأيت كل المعـاول تعمـل لهدمك، جئت لأقدم لك مساعدتي ناسية كل شيء.. وما دمت لم تقدر هذا كله.. فنهارك سعيد".

إذًا فالمسألة شخصية

وقمت خارجة، فقام خلفي، وأمسك بيدي وقال: "أعذريني.. لقد تعديت حدود اللياقة، فلا تغضبي"، وأجبرني على الدخول ثانية والجلوس واستئناف المناقشة بعد عتاب تناول بعض الموضوعات الشخصية، مثل عدم سؤالي عنه وهو مريض.. فأعطيته الحق فيما هو محق فيه وأعطيت نفسي الحق فيما لا حق له فيه، وعند استئناف الحديث قال: "من يقول إن سعدا يكره الاتحاد؟ ألست أنا الذي بذلت كل جهدي لكي أمنع الانقسام والخلاف وأنا في أوربا؟ ثم بعد أن عدت إلى مصر، ألم أذهب بنفسي لزيارة خصومي في بيوتهم؟ (ويقصد بذلك زوجي) واجتهدت أن ألم شعثهم".

قلت: "هذا صحيح، ولكنك بعد ذلك قمت فورا تنشر الانقسام، هل نسيت خطبتك التي ألقيتها في شبرا وغيرها؟ لماذا لم تترك عدلي يسافر؟ وما الذي صنعه عدلي؟ إنه لم يفرط في شيء، بل رفض مشروع كيرزون ورجع مرفوع الرأس موفور الكرامة، فهل كان يستحق المقابلة التي قوبل بها ولا سيما بعد أن أذن له الإنجليز بمبلغ ٣٠٠ جنيه شهريا؟". قلت: "لهذه المناسبة، هل لك أن تقول لي ما هي

الخيانة التي ارتكبها ثروت حتى اقتنع بأنه خائن؟ وهل لك أن تبرز ما عندك من الأدلة على خيانته، فقد داخلني في الرجل الشك وقتًا ما لما رميته بالخيانة، وكنت أنتظـر منـك عنـد تسلمك مقاليد الحكم بعده أن تقيم الأدلة على خيانتـه". قـال: "نعم.. كيف لم يرتكب أكبر خيانة؟ أنه انتهك حرمة منزلـي في غيابي وأمر بتفتيش أشياء من زوجتي". وهنا لم أتمكـن من منع نفسي من مقاطعته قائلة: "هل هذا كل مـا اقترفـه ثروت؟ إذًا فالمسألة شخصية لا تمس حقوق البلد في شيء.. وإن كنت ترى في عمل ثروت هذا خيانته للبلد، فاسمح لـي أن أخلفك في هذا التقدير"، فرد بحدة قائلاً: "لماذا تقاطعينني.. دعيني أتكلم كيف ترين هذا قليلاً وقد أقدم عليه موعزا مـن الإنجليز؟". قلت: "وما الذي يثبت لك ذلك؟ هل وجدت عندما وليت الحكم وتسلمت أوراق الوزارة ما يثبت هذا الظـن؟". قال: مرة ثانية: "ألم تقرئي الكتاب الأبيض؟" قلـت: "ومـاذا يقول ذلك الكتاب الأبيض؟". قال: "إذا كنت لم تقرئيه، فكيف تقولين إنك تشتغلين بالسياسة؟". قلت: "لقد قرأته، ولكـن لـم أجد فيه شيئًا مما تقول". قال: "ألم تقرئي فـي الفقـرة التـي كتبت فيه لمناسبة قفل بيت الأمة والاعتـداء علـى أشـياء

زوجتي بتفتيشها أن بعض رجال الدوائر الحكومية قد ارتاحوا لهذا العمل؟".. قلت: "وهل هذا دليل أن ثروت كان ذلك المرتاح؟ ربما كان غيره. ولو فرضنا أنه ارتاح لهذا العمل، فله بعض العذر، فثروت ليس ملاكًا يتغاضى عن كل المساوئ ولقد أسأت إليه كثيرا، فهو إنسان وعنده نفس، إذًا فله العذر إن كان قد تشفى فيك، إن خصومك يا سعد خونة كانوا أو غير خونة، أنكرتهم أم لم تنكرهم، هم موجودون ولهم حيثية ولهم أولاد وأصهار وأنساب وأحساب وأتباع. ولهم في البلاد مصالح. وهم من كبار البلاد وذوي العقول الناضجة فيها، فلا يمكنك أن تبيدهم عن آخرهم، إذا رأيت في ذلك تطهيرا للبلاد منهم ووقاية لها من شرهم، ولكن إذا أردت ذلك، فلا يكون إلا عن طريق واحد وهو تحويل هذه العقول وتلك الهمم إلى ما فيه صالح الوطن وخيره وإزالة الخلاف الذي بينكم، وبذلك تنتفع البلاد بالتفافهم حولك بدلاً من أن تخسر كما هو جار الآن من جراء انشقاقكم. ولا يمكن أن يكون هذا صعبا عليك أنت الذي أمكنك أن تجتذب قلوب الأربعة عشر مليونًا من المصريين، تضللهم إذا شئت وتهديهم بإشارة منك". قال: "أتريدين أن أتحد مع عبد العزيز

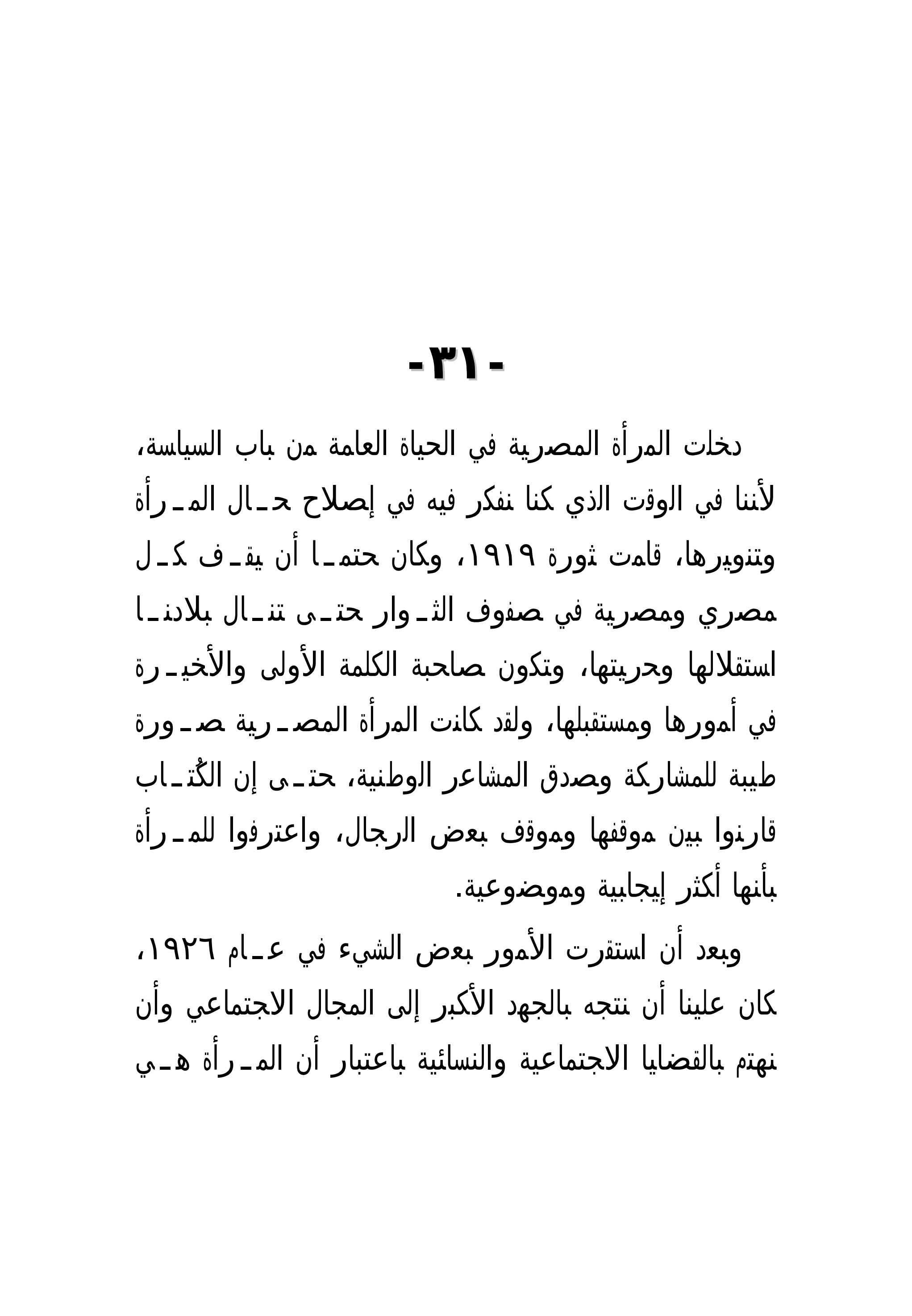
فهمي الذي قال إن الشعب المصري غبـي وجاهـل؟ هـل أعجبك منه هذا القول؟". قلت: "لا، أنا لـم تعجبنـي بعـض تصريحاته وما كان يليق به وهـو وزيـر أن يتفـوه بتلـك التصريحات يجاهر بجهل المصري حتى ولـو كـان ذلـك صحيحا". فقال بلهجة خطابية: "هل الأمة المصـرية غبيـة لأنها جاهلة؟ لا. وأنا أفضل الجاهل المخلص على المـتعلم". قلت: "كيف تفضل الجاهل على المتعلم العاقل؟.. وهل يقـود الأمم إلا نخبتها أم تقودها العامة والجهلة؟ إن الأمـة التـي تخضع للعامة تسودها الفوضى".

فقال: "إن الشعب الذي يقوم كما قام الشعب المصري لهو جدير بكل تبجيل، وأنه لشعب نبيل". قلت: "نعم، ولكنه لم يقم من تلقاء نفسه.. وأنت مثلي تعلم كيف هـب ومـن الـذين ساعدوه على هذا القيام.. وما هم إلا هؤلاء الرجـال الـذين تسميهم خصومك.. وحرام يا سعد أن تحرم الأمة الانتفـاع بهذه العقول النيرة وتلك الكفاءات". قال: "ولماذا لا ينضمون إلى الوفد؟". قلت: "كيف ينضمون للوفد وليس للوفد برنـامج ولهم برنامجهم؟" قال: "كيف؟.. لنا برنامج". قلـت: "وأيـن برنامجكم؟". قال: "ألا تعرفين أن برنامجنا هو الوصول إلـى

الاستقلال التام لمصر والسودان؟". قلت: "هذه غاية الجميـع، وهم وضعوا لتحقيقها برنامجا يوضح طريقة الوصول إلـى ذلك الاستقلال. لذلك نريد أن تتحدوا لتتفقوا على تنفيذ هـذه الوصية".

قال: "إذًا فليأتوا إلي ليعتذروا أولاً، ثم بعد ذلك نتباحـث". قلت: "لا يمكنني أن أطلب منهم ذلك بعد كل الشتائم والـتهم التي وجهتها إليهم لأن لكل واحد كرامته وعزة نفسه". قـال: "أتريدين أن أذهب أنا إليهم؟". قلت: "لا.. هناك طريقة تسهل عليكم هذا الأمر، يمكنكم أن تشرفوني وتحددوا موعدا لهـذا التشريف، وأنا أدعوهم للحضور والاجتماع بكم في أي وقت تريدون، وإن كنت لا تود أن يعرف أحد أن هذا الاجتماع قد انعقد عندي أو إنني قد نلت هذا الشرف، فلك ألا يعرف أحد ذلك حتى أهل منزلي.. ويمكنك أن تنسب ذلك إلـى مسـعى الأمير عمر طوسون باشا الذي كان له الفضـل الأول فـي السعي لهذا الاتحاد". قال: "لا.. لا يمكنني أن أتنـازل عـن رأيي وهو وجوب انضمامهم إلى الوفد إذا كـانوا يريـدون الاتحاد".. وهنا رأيت أن لا فائدة من الإلحاح.. لا سيما وقـد استغرقت المقابلة أكثر من ثلاث سـاعات، وقمـت متأهبـة

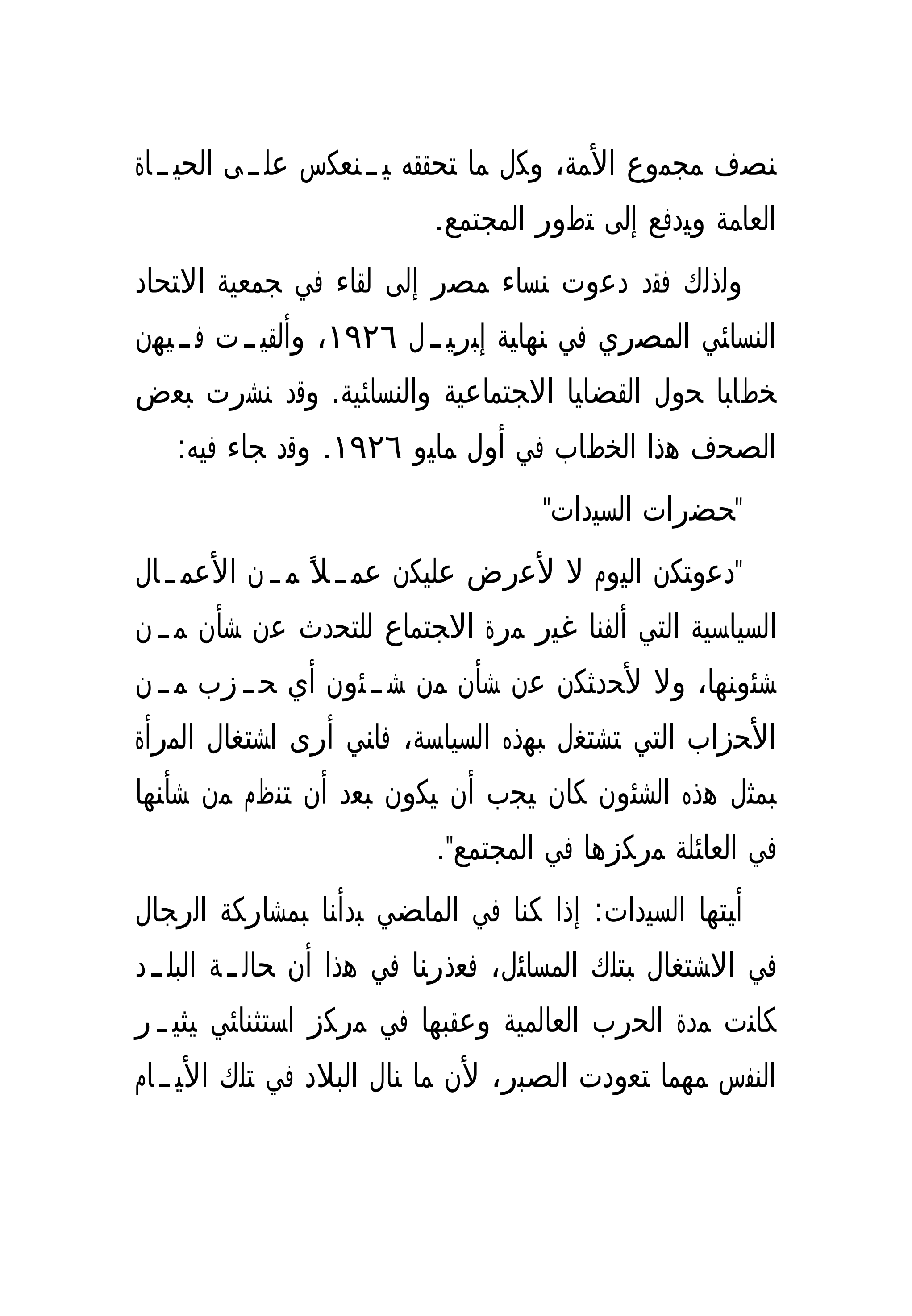
للخروج، فأوصلني حتى السلم، وهناك وضع يده على كتفي وقال: "لماذا لا تشتغلين معي؟".. قلت: "لا، أنا مـع الحـق". فقال محتدا: "وهل أنا الباطل؟". فقلت "لا أعلم". قـال: "غـدا ترين ما يحل بك!".. قلت: "أنا لا أخشى شيئًا لأننـي واثقـة بأنني لا أعمل لأي غرض إلا لخدمة بلادي، وإن يـدك يـا سعد لن تصل إلي ولو فرضنا أنك ستحرض علـى صـبيان الوفد ليرموا منزلي بالحجارة أو ليقتلني أحدهم، فهذا كل مـا أتمناه، وهو أقل تضحية في سبيل خدمة بلادي".



- ٣١ -

دخلت المرأة المصرية في الحياة العامة من باب السياسة، لأننا في الوقت الذي كنا نفكر فيه في إصلاح حال المرأة وتنويرها، قامت ثورة ١٩١٩، وكان حتما أن يقف كل مصري ومصرية في صفوف الثوار حتى تنال بلادنا استقلالها وحريتها، وتكون صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة في أمورها ومستقبلها، ولقد كانت المرأة المصرية صورة طيبة للمشاركة وصدق المشاعر الوطنية، حتى إن الكُتاب قارنوا بين موقفها وموقف بعض الرجال، واعترفوا للمرأة بأنها أكثر إيجابية وموضوعية.

وبعد أن استقرت الأمور بعض الشيء في عام ١٩٢٦، كان علينا أن نتجه بالجهد الأكبر إلى المجال الاجتماعي وأن نهتم بالقضايا الاجتماعية والنسائية باعتبار أن المرأة هي



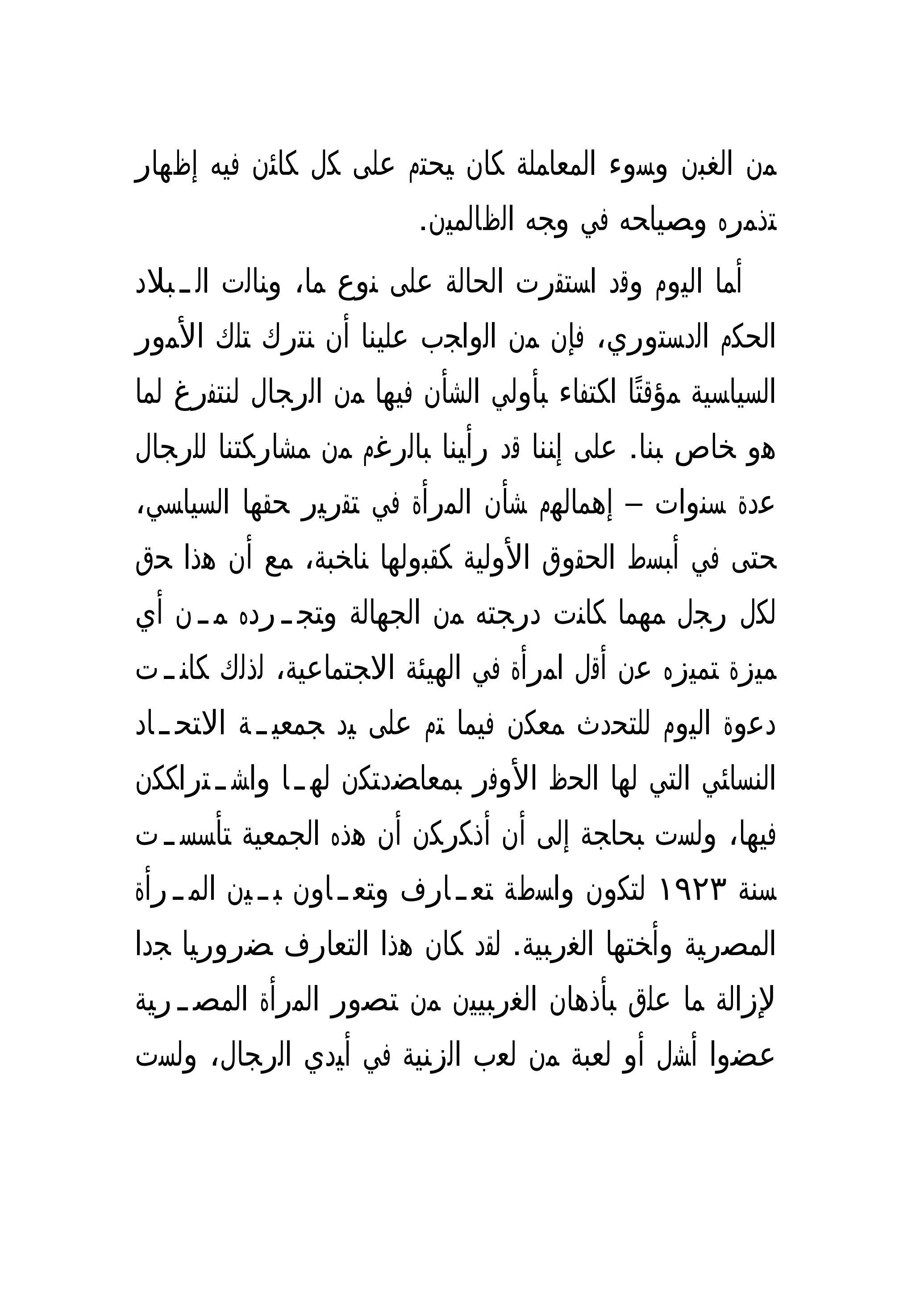
نصف مجموع الأمة، وكل ما تحققه ينعكس على الحياة العامة ويدفع إلى تطور المجتمع.

ولذلك فقد دعوت نساء مصر إلى لقاء في جمعية الاتحاد النسائي المصري في نهاية إبريل ١٩٢٦، وألقيت فيهن خطابا حول القضايا الاجتماعية والنسائية. وقد نشرت بعض الصحف هذا الخطاب في أول مايو ١٩٢٦. وقد جاء فيه:

"حضرات السيدات"

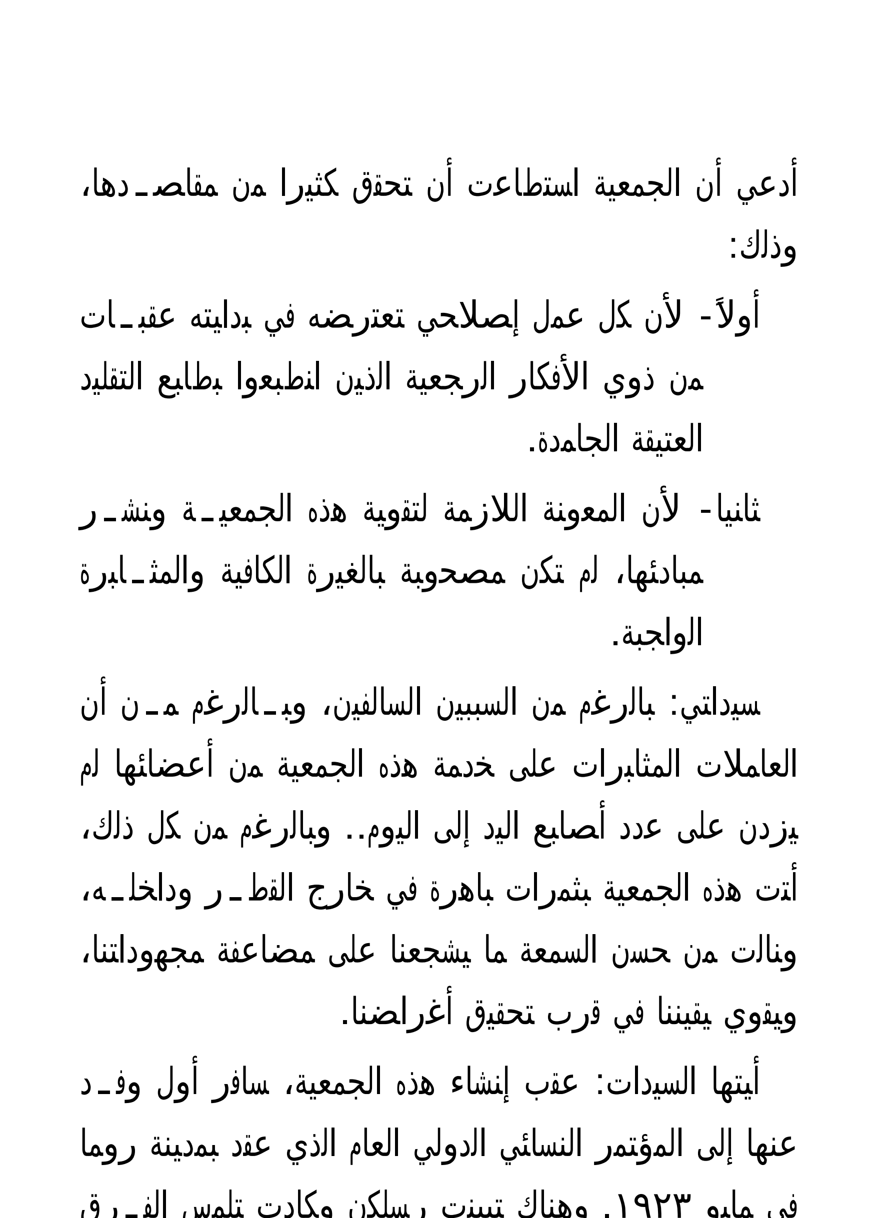
"دعوتكن اليوم لا لأعرض عليكن عملاً من الأعمال السياسية التي ألفنا غير مرة الاجتماع للتحدث عن شأن من شئونها، ولا لأحدثكن عن شأن من شئون أي حزب من الأحزاب التي تشتغل بهذه السياسة، فاني أرى اشتغال المرأة بمثل هذه الشئون كان يجب أن يكون بعد أن تنظم من شأنها في العائلة مركزها في المجتمع".

أيتها السيدات: إذا كنا في الماضي بدأنا بمشاركة الرجال في الاشتغال بتلك المسائل، فعذرنا في هذا أن حالة البلد كانت مدة الحرب العالمية وعقبها في مركز استثنائي يثير النفس مهما تعودت الصبر، لأن ما نال البلاد في تلك الأيام



من الغبن وسوء المعاملة كان يحتم على كل كائن فيه إظهار تذمره وصياحه في وجه الظالمين.

أما اليوم وقد استقرت الحالة على نوع ما، ونالت الـبلاد الحكم الدستوري، فإن من الواجب علينا أن نترك تلك الأمور السياسية مؤقتًا اكتفاء بأولي الشأن فيها من الرجال لنتفرغ لما هو خاص بنا. على إننا قد رأينا بالرغم من مشاركتنا للرجال عدة سنوات – إهمالهم شأن المرأة في تقرير حقها السياسي، حتى في أبسط الحقوق الأولية كقبولها ناخبة، مع أن هذا حق لكل رجل مهما كانت درجته من الجهالة وتجـرده مـن أي ميزة تميزه عن أقل امرأة في الهيئة الاجتماعية، لذلك كانـت دعوة اليوم للتحدث معكن فيما تم على يد جمعيـة الاتحـاد النسائي التي لها الحظ الأوفر بمعاضدتكن لهـا واشـتراككن فيها، ولست بحاجة إلى أن أذكركن أن هذه الجمعية تأسسـت سنة ١٩٢٣ لتكون واسطة تعـارف وتعـاون بـين المـرأة المصرية وأختها الغربية. لقد كان هذا التعارف ضروريا جدا لإزالة ما علق بأذهان الغربيين من تصور المرأة المصـرية عضوا أشل أو لعبة من لعب الزينة في أيدي الرجال، ولست



أدعي أن الجمعية استطاعت أن تحقق كثيرا من مقاصدها، وذلك:

أولاً- لأن كل عمل إصلاحي تعترضه في بدايته عقبات من ذوي الأفكار الرجعية الذين انطبعوا بطابع التقليد العتيقة الجامدة.

ثانيا- لأن المعونة اللازمة لتقوية هذه الجمعية ونشر مبادئها، لم تكن مصحوبة بالغيرة الكافية والمثابرة الواجبة.

سيداتي: بالرغم من السببين السالفين، وبالرغم من أن العاملات المثابرات على خدمة هذه الجمعية من أعضائها لم يزدن على عدد أصابع اليد إلى اليوم.. وبالرغم من كل ذلك، أتت هذه الجمعية بثمرات باهرة في خارج القطر وداخله، ونالت من حسن السمعة ما يشجعنا على مضاعفة مجهوداتنا، ويقوي يقيننا في قرب تحقيق أغراضنا.

أيتها السيدات: عقب إنشاء هذه الجمعية، سافر أول وفد عنها إلى المؤتمر النسائي الدولي العام الذي عقد بمدينة روما في مايو ١٩٢٣. وهناك تبينت رسلكن وكادت تلمس الفرق العظيم بين حياة المرأة الغربية ومركزها في الهيئة

الاجتماعية وبين زميلتها في الشرق، وقد كان هذا الدرس أول قبس اتخذ أساسا لوضع قواعد الإصلاح الواجبة للمرأة عندنا، لذلك فكرنا فيما يجب أن نبدأ به، لذلك فكرنا في الإصلاح وتنظيم حالة العائلة.

ولما كان الزواج أول مرحلة من مراحل تأسيس العائلة، كان الاشتغال بتنظيمه الحجر الأول في بناء الإصلاح، ولما كان الزواج المبكر عندنا هو أول عقبة تحول بين الفتاة وبين تكوينها تكوينًا صحيحا ينهض بها في معترك الحياة، وكان هذا النوع من الزواج شائعا بطريقة مفزعة في أنحاء القطر ولا سيما في القرى والريف: رأينا أن نبدأ عملنا بطلب تشريع يعصم الفتاة من الزواج قبل بلوغها السادسة عشرة من عمرها، ليكون لديها من الوقت ما يسمح لجسمها بالتكوين ولعقلها بالتهذيب والتثقيف.

وقد كان نظام التعليم لذلك الوقت يحول بين الفتاة وبين أمانيها في التعليم الثانوي، فطلبنا أيضا إلى الحكومة أن تذلل هذه العقبة وتساوي بين الولد والبنت في جميع درجات التعليم.

سيداتي: تذكرن أن وفدا منكن ذهب بتقرير أقرتـه هـذه الجمعية إلى رئيس الوزارة يومئذ صاحب الدولة يحيى باشـا إبراهيم، ومما يستحق أن يخلد بجميل الذكر ما نالتـه هـذه الطلبات من عناية دولته؛ إذ قبل انقضاء سنة ١٩٢٣ صـدر المرسوم بمنع مأذوني عقود الزواج عن تحريـر أي عقـد إلا بعد التثبت من بلوغ البنت السادسة عشرة مـن عمرهـا والولد الثامنة عشرة.

وفيما يتعلق بطلب المساواة في التعليم بين الجنسين، قـد تلقت الجمعية من صاحب المعالي زكي باشا أبـو السـعود وزير المعارف في ذلك الوقت كتابا أنه أخذ في درس هـذا الطلب ويعد تحقيقه وإجابته قريبا، وها قد تحقق أمر المساواة في التعليم من أوائل سنة ١٩٢٤.

إذا ذكرنا هذا – ونحن نغتبط بما صادفناه من النجـاح - فلا يسعنا أن نمر بدون إظهار أسفنا واستيائنا مما تلا مرسوم الزواج الصريح من صدور منشـور سـنة ١٩٢٤ يفسـره تفسيرا لا يتفق والروح التشريعية التي صدر مـن أجلهـا، إذ إن الحكمة في هذا التشريع صيانة البنـت مـن تصـرف والديها تصرفًا ضارا بتزويجها تزويجا مبكرا قبل بلوغ تلك

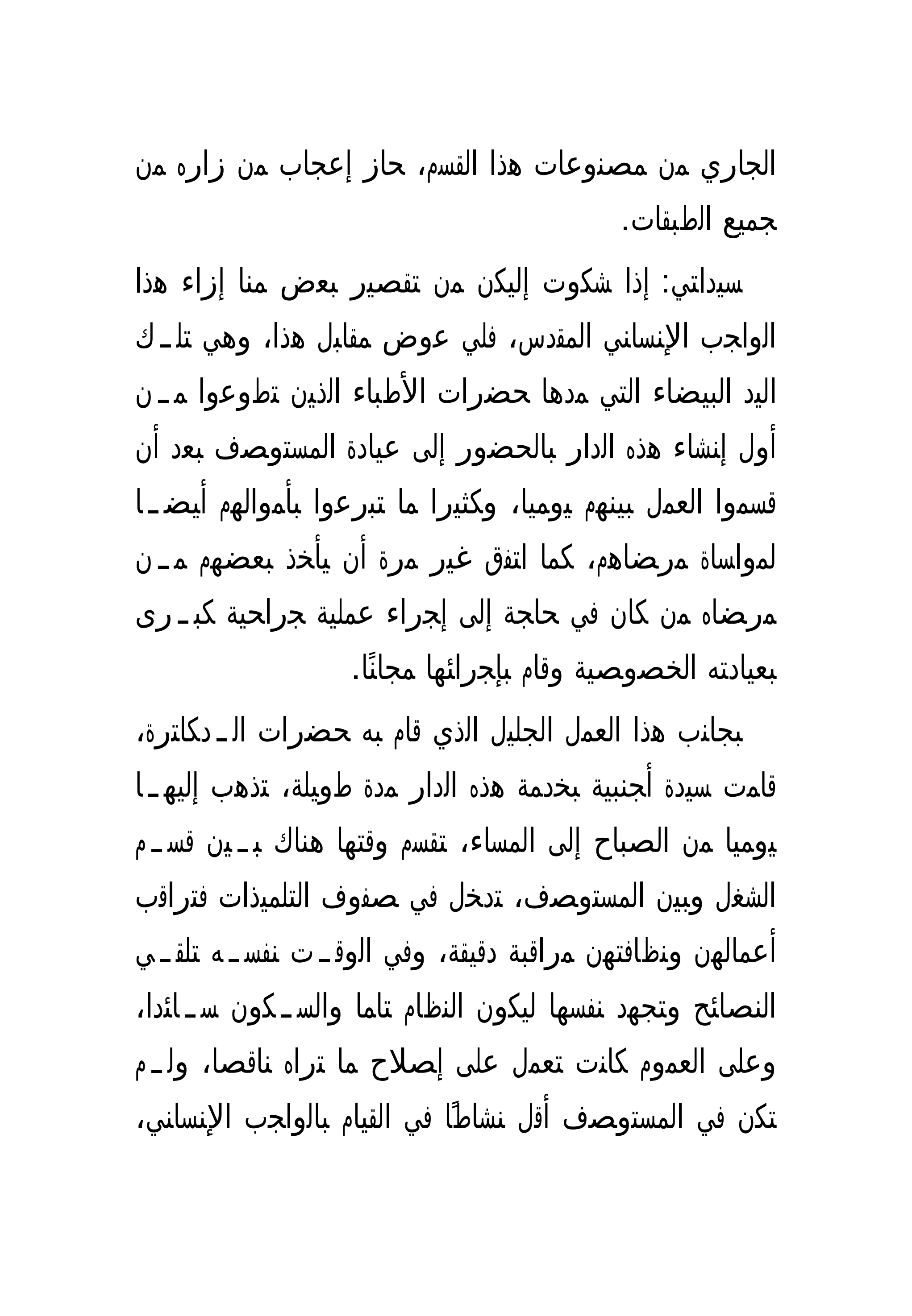
السن، فوزير الحقانية أجاز للقضاة في تفسيره أن يقبلوا زواج أية فتاة مما كانت سنها إذا شهد أبواها أو أحد من أولياء أمرها أنها بلغت السادسة عشرة دون أن يقدموا مع هذه الشهادة ما يؤيدها كورقة الميلاد أو أي وثيقة أخرى رسمية، فكأنه في ذلك اعتبر الخصم حكما، وبهذا أضاع المصلحة وساعد الأولياء على تأدية شهادة قد لا تكون في كثير من الأحوال متفقة مع الواقع.

وإنني في هذا المقام مضطرة لأن أطلب من الجمعية الاحتجاج على هذا المنشور، وأن يطلب من معالي وزير الحقانية الحالي إلغاؤه.

أيتها السيدات: إن نجاح الجمعية في فتح طريق التعليم للفتاة إلى آخر مدى، جعلنا نفكر فيما عسى أن يكون من مركز الأم الجاهلة أمام ابنتها المتعلمة؛ إذ كما بعدت الثقة بينهما في قوة الإدراك والحكم على الأشياء ضعف نفوذ الأم وكرامتها في نفس ابنتها، فرأينا علاجا لهذه الحالة أن نصرف همنا أيضا لإصلاح الأم وترقيتها بقدر الإمكان، فأنشأنا دارا سميت "دار التعاون الإصلاحي" لتدريب الأمهات على المسائل الأولية المنزلية وتعليمها مبادئ القراءة والكتابة

والحساب وبعض الصنائع اليدوية، وجعلنا بهذه الدار قسـما آخر لمعالجة من يؤمه من المرضـى الفقيـرات وصـرف الأدوية مجانًا وتقديم النصائح في كيفيـة تنظيـف أولادهـن وتمريضهن وإلقاء محاضرات في قانون الصحة. وكان لنـا رجاء أن تنال هذه الدار إقبالاً مـن الأمهـات والزوجـات الفقيرات معاضدة من السيدات بتطوع فريق منهن لإلقاء هذه المحاضرات والنصائح الصحية بالتناوب بينهن من يوم لآخر وبالمساعدة المالية التي تمكن الجمعية من إنشاء دور أخرى على هذا النمط في أنحاء متعددة من المدينة، ولكن بقيت هذه الدار وحيدة إلى اليوم، ومما يؤسف له أن السيدات القلـيلات اللاتي تطوعن في بداية الأمر لإلقاء النصائح على الأمهات، حينما انقطعن عن العمل لأسباب مختلفة، لم يتقدم من يخلفهن في القيام بهذا الواجب الإنساني، وصار القسم الصحي عيادة عادية كالعيادات الأخرى المخصصة للفقراء.

أما القسم الخاص بتعليم القراءة والأشغال، فقد علمتن مـا وصل إليه من الرقي والنجاح في مـدة قصـيرة، وأن مـا عرض بنادي الاتحاد النسائي بقصر الدوبارة في أوائل الشهر


الجاري من مصنوعات هذا القسم، حاز إعجاب من زاره من جميع الطبقات.

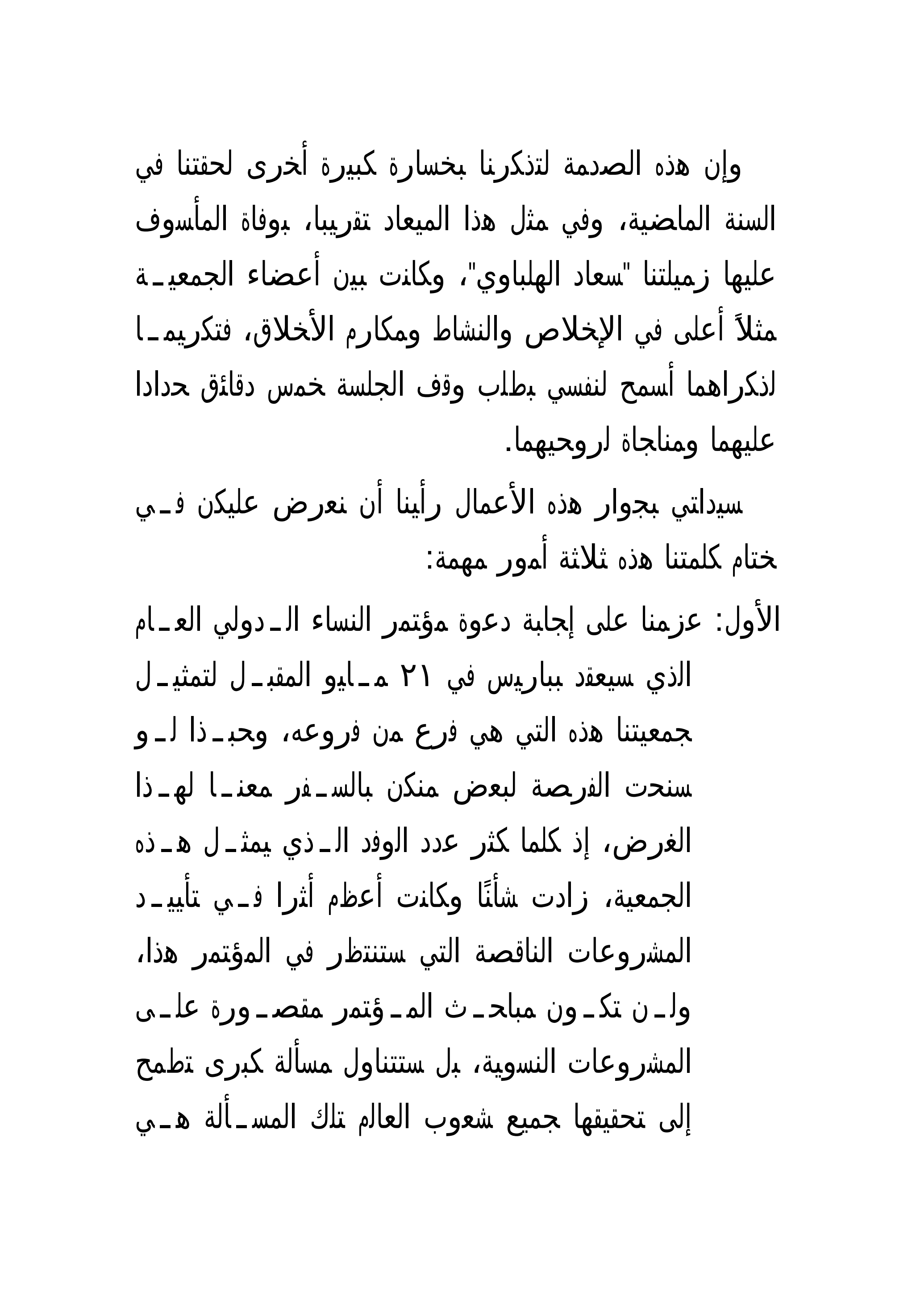
سيداتي: إذا شكوت إليكن من تقصير بعض منا إزاء هذا الواجب الإنساني المقدس، فلي عوض مقابل هذا، وهي تلك اليد البيضاء التي مدها حضرات الأطباء الذين تطوعوا من أول إنشاء هذه الدار بالحضور إلى عيادة المستوصف بعد أن قسموا العمل بينهم يوميا، وكثيرا ما تبرعوا بأموالهم أيضا لمواساة مرضاهم، كما اتفق غير مرة أن يأخذ بعضهم من مرضاه من كان في حاجة إلى إجراء عملية جراحية كبرى بعيادته الخصوصية وقام بإجرائها مجانًا.

بجانب هذا العمل الجليل الذي قام به حضرات الدكاترة، قامت سيدة أجنبية بخدمة هذه الدار مدة طويلة، تذهب إليها يوميا من الصباح إلى المساء، تقسم وقتها هناك بين قسم الشغل وبين المستوصف، تدخل في صفوف التلميذات فتراقب أعمالهن ونظافتهن مراقبة دقيقة، وفي الوقت نفسه تلقي النصائح وتجهد نفسها ليكون النظام تاما والسكون سائدا، وعلى العموم كانت تعمل على إصلاح ما تراه ناقصا، ولم تكن في المستوصف أقل نشاطًا في القيام بالواجب الإنساني،

وطالما ذهبت إلى بيوت المرضى لتتحقق من حالها الصحية وما تحتاج إليه، وما كانت تطرق هذه المنازل كزائرة عادية ولكن كناصحة ومرشدة للخير.

تلك السيدة اليابانية حرم المرحوم أحمد بك فضلي، وفي الواقع كانت اليد اليمنى لإدارة هذه الدار، وكل ما رأيته من تقدم ونجاح، فإنما هو ثمرات مجهودات هذه السيدة الفاضلة. وأنه ليحزنني جدا أن أخبركن أن هذه السيدة بارحت القطر في أوائل هذا الشهر، وقد دعتها إلى السفر ضرورات شخصية، فشيعت منا ومن كل من يعرفها بالعبرات والحسرات.

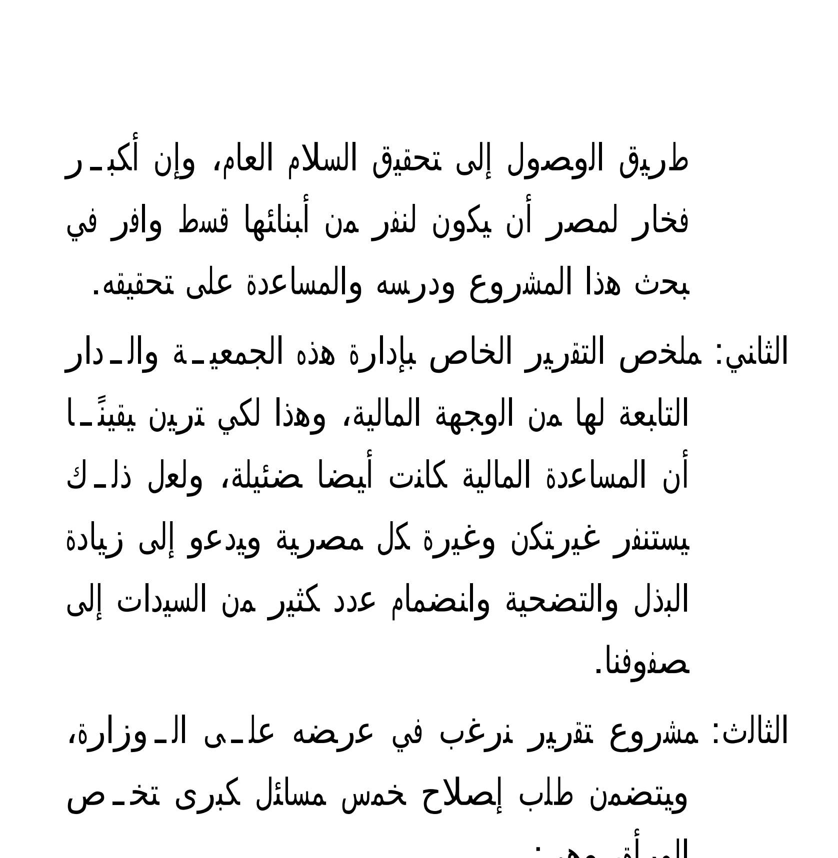
بعد هذا فوجئنا بصدمة أخرى لوفاة عضو عامل كفؤ في جمعيتنا، تلك هي صغرى أخواتنا الناهضات العاملات الآنسة "فكرية الصلح" وافتها المنية في الأسبوع الماضي وهي في الثالثة والعشرين من عمرها في السن التي لا تفكر فيها مثيلاتها إلا في ملابسهن وزينتهن، كانت كرفيقتها مدام فضلي بك تمضي أيامها في دار الإصلاح دون أن تضن بوقتها ومجهوداتها.



وإن هذه الصدمة لتذكرنا بخسارة كبيرة أخرى لحقتنا في السنة الماضية، وفي مثل هذا الميعاد تقريبا، بوفاة المأسوف عليها زميلتنا "سعاد الهلباوي"، وكانت بين أعضاء الجمعية مثلاً أعلى في الإخلاص والنشاط ومكارم الأخلاق، فتكريما لذكراهما أسمح لنفسي بطلب وقف الجلسة خمس دقائق حدادا عليهما ومناجاة لروحيهما.

سيداتي بجوار هذه الأعمال رأينا أن نعرض عليكن في ختام كلمتنا هذه ثلاثة أمور مهمة:

الأول: عزمنا على إجابة دعوة مؤتمر النساء الدولي العام الذي سيعقد بباريس في ٢١ مايو المقبل لتمثيل جمعيتنا هذه التي هي فرع من فروعه، وحبذا لو سنحت الفرصة لبعض منكن بالسفر معنا لهذا الغرض، إذ كلما كثر عدد الوفد الذي يمثل هذه الجمعية، زادت شأنًا وكانت أعظم أثرا في تأييد المشروعات الناقصة التي ستنتظر في المؤتمر هذا، ولن تكون مباحث المؤتمر مقصورة على المشروعات النسوية، بل ستتناول مسألة كبرى تطمح إلى تحقيقها جميع شعوب العالم تلك المسألة هي



طريق الوصول إلى تحقيق السلام العام، وإن أكبر فخار لمصر أن يكون لنفر من أبنائها قسط وافر في بحث هذا المشروع ودرسه والمساعدة على تحقيقه.

الثاني: ملخص التقرير الخاص بإدارة هذه الجمعية والدار التابعة لها من الوجهة المالية، وهذا لكي ترين يقيناً أن المساعدة المالية كانت أيضا ضئيلة، ولعل ذلك يستنفر غيرتكن وغيرة كل مصرية ويدعو إلى زيادة البذل والتضحية وانضمام عدد كثير من السيدات إلى صفوفنا.

الثالث: مشروع تقرير نرغب في عرضه على الوزارة، ويتضمن طلب إصلاح خمس مسائل كبرى تخص المرأة، وهي:

١- وضع حد لتعدد الزوجات.

٢- وضع حد لفوضى الطلاق الحاصل الآن.

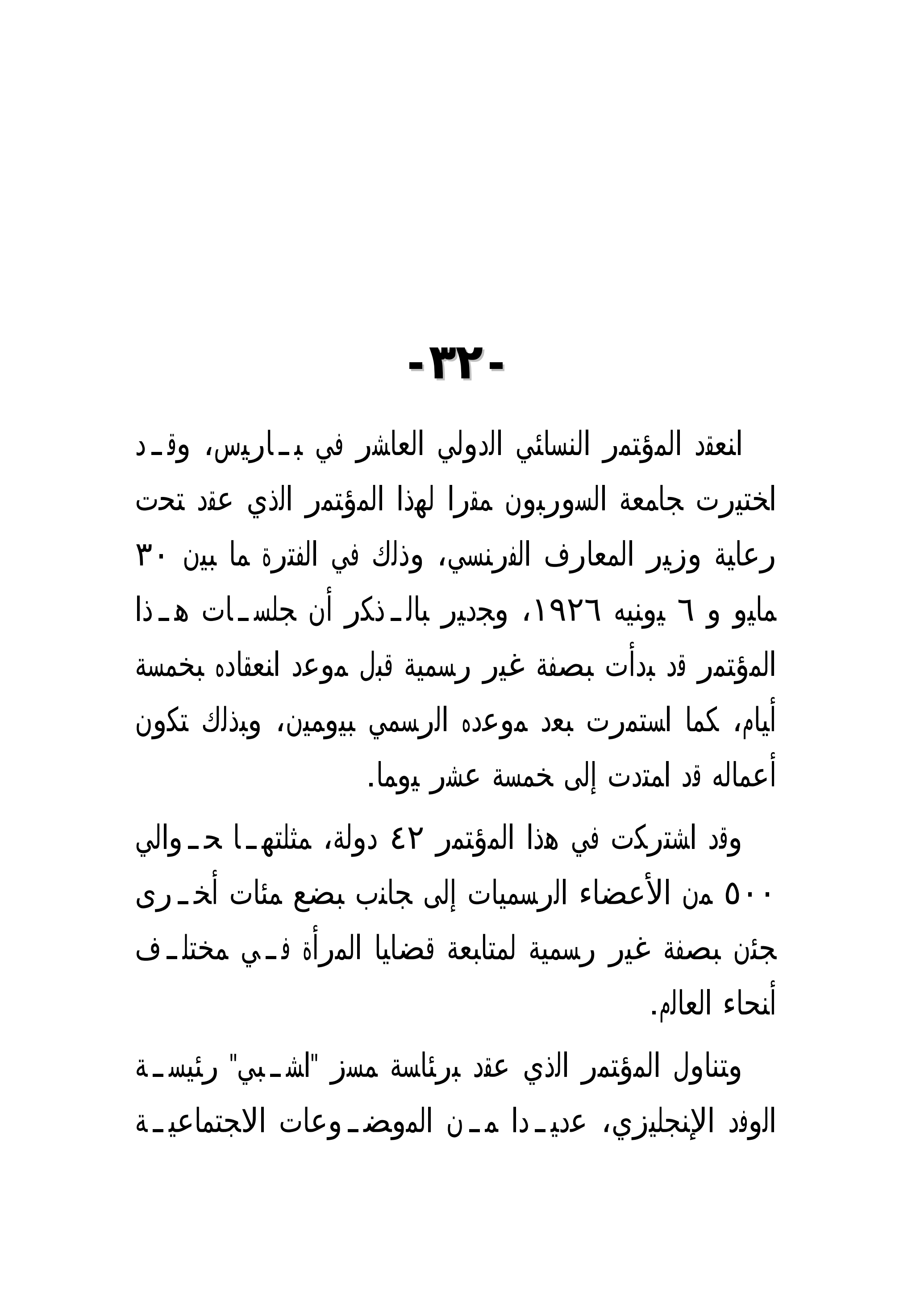
٣- إصلاح القوانين الخاصة بما يسمى دار الطاعة.

٤- حق الأم في حضانة أولادها.

٥- إلغاء منشور سنة ١٩٢٤ المعطل لقانون تحديد سن الزواج.

وإني لا أشك في أنكن ترين المصلحة العظيمة في إقرارنا على هذه المطالب، فأرجو إذا صح ظني هذا أن تنتخبن بعد الموافقة لجنة لتقوم بتقديمه إلى صاحب الدولة رئيس الوزراء وصاحب المعالي وزير الحقانية.

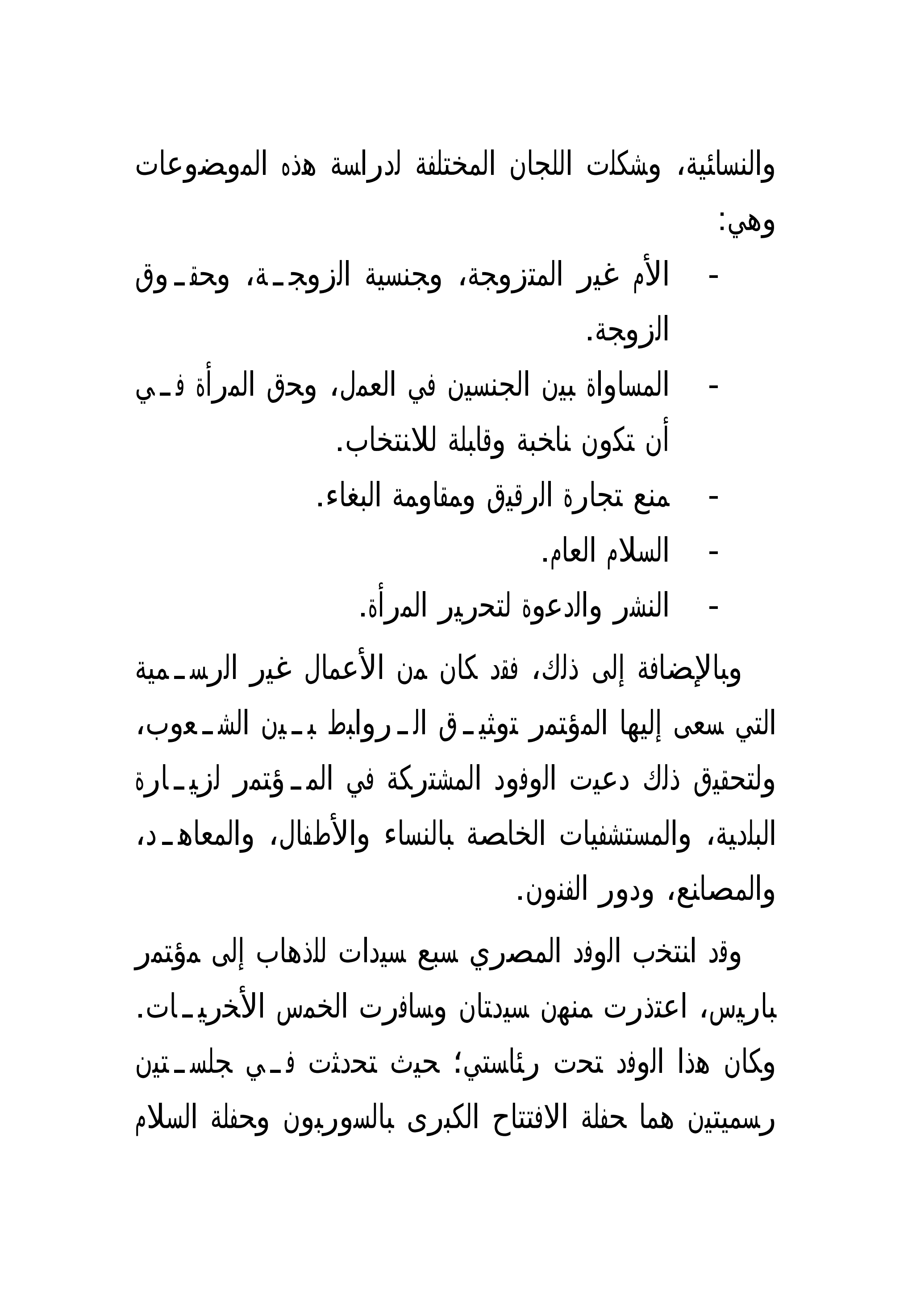
هذا ما أردت بيانه اليوم، وأسأل ا أن يوفقنا جميعا إلـى النجاح.



انعقد المؤتمر النسائي الدولي العاشر في باريس، وقد اختيرت جامعة السوربون مقرا لهذا المؤتمر الذي عقد تحت رعاية وزير المعارف الفرنسي، وذلك في الفترة ما بين ٣٠ مايو و ٦ يونيه ١٩٢٦، وجدير بالذكر أن جلسات هذا المؤتمر قد بدأت بصفة غير رسمية قبل موعد انعقاده بخمسة أيام، كما استمرت بعد موعده الرسمي بيومين، وبذلك تكون أعماله قد امتدت إلى خمسة عشر يوما.

وقد اشتركت في هذا المؤتمر ٤٢ دولة، مثلتها حوالي ٥٠٠ من الأعضاء الرسميات إلى جانب بضع مئات أخرى جئن بصفة غير رسمية لمتابعة قضايا المرأة في مختلف أنحاء العالم.

وتناول المؤتمر الذي عقد برئاسة مسز "اشبي" رئيسة الوفد الإنجليزي، عديدا من الموضوعات الاجتماعية



والنسائية، وشكلت اللجان المختلفة لدراسة هذه الموضوعات وهي:

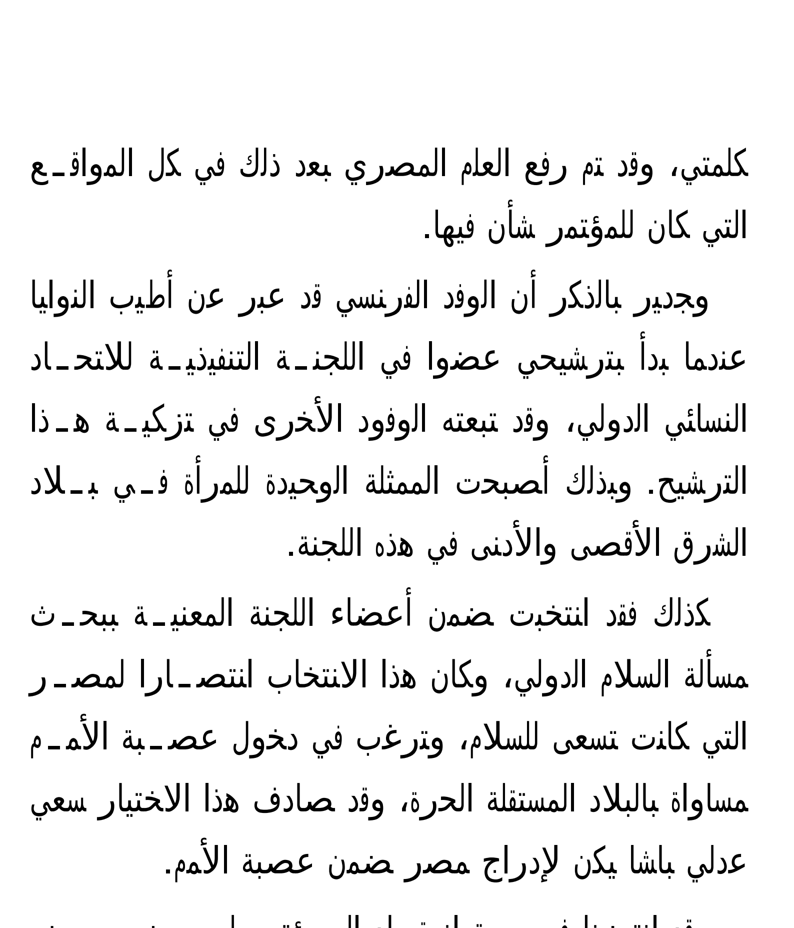
- الأم غير المتزوجة، وجنسية الزوجة، وحقوق الزوجة.
- المساواة بين الجنسين في العمل، وحق المرأة في أن تكون ناخبة وقابلة للانتخاب.
- منع تجارة الرقيق ومقاومة البغاء.
- السلام العام.
- النشر والدعوة لتحرير المرأة.

وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان من الأعمال غير الرسمية التي سعى إليها المؤتمر توثيق الروابط بين الشعوب، ولتحقيق ذلك دعيت الوفود المشتركة في المؤتمر لزيارة البلدية، والمستشفيات الخاصة بالنساء والأطفال، والمعاهد، والمصانع، ودور الفنون.

وقد انتخب الوفد المصري سبع سيدات للذهاب إلى مؤتمر باريس، اعتذرت منهن سيدتان وسافرت الخمس الأخريات. وكان هذا الوفد تحت رئاستي؛ حيث تحدثت في جلستين رسميتين هما حفلة الافتتاح الكبرى بالسوربون وحفلة السلام

في تروكاديرو، وتحدثت السكرتيرة الآنسة سيزا نبراوي في حفلة ممثلات الشعوب في مركز الجمعيات البلدية، وتحـدثت السيدة استر فهمي ويصا بالإنجليزية عن رأيها في عصـبة الأمم.

وقد وقعت حادثة صغيرة في جلسة الافتتاح، فقد كنت قـد سلمت العلم المصري إلى سكرتارية المؤتمر لترفعـه بـين الأعلام الأخرى في انفتياترو السوربون، ولكن حدث سـهو أدى إلى عدم رفعه وعندما جاء دور مصر في إلقاء كلمتها، بدأت خطبتي بإعلان الأسف إذ لم يكن العلم مرفوعـا بـين الأعلام الأخرى، رغم أن مصر كانت ولا تزال مهد السلام والاعتراف بحقوق المرأة، وهما الأمـران اللـذان اجتمـع المؤتمر للدفاع عنهما. وقد اعتذرت رئيسة المـؤتمر لهـذا النسيان، كما اعتذر وزير المعارف الفرنسي الذي كان يرأس جلسة الافتتاح وأضاف أن مصـر التـي هـي أول مناهـل الحضارة والتي لا تزال تتصل وفرنسا بروابط ود لا تُنسـى لا يمكن أن يحصل إزاءها هذا النقص قصدا بدليل العطـف والتقدير اللذين أظهرهما جمهور الفرنسيين عند قيامي بإلقاء



كلمتي، وقد تم رفع العلم المصري بعد ذلك في كل المواقـع التي كان للمؤتمر شأن فيها.

وجدير بالذكر أن الوفد الفرنسي قد عبر عن أطيب النوايا عندما بدأ بترشيحي عضوا في اللجنـة التنفيذيـة للاتحـاد النسائي الدولي، وقد تبعته الوفود الأخرى في تزكيـة هـذا الترشيح. وبذلك أصبحت الممثلة الوحيدة للمرأة فـي بـلاد الشرق الأقصى والأدنى في هذه اللجنة.

كذلك فقد انتخبت ضمن أعضاء اللجنة المعنيـة ببحـث مسألة السلام الدولي، وكان هذا الانتخاب انتصـارا لمصـر التي كانت تسعى للسلام، وترغب في دخول عصـبة الأمـم مساواة بالبلاد المستقلة الحرة، وقد صادف هذا الاختيار سعي عدلي باشا يكن لإدراج مصر ضمن عصبة الأمم.

وقد انتهزنا فرصـة انعقـاد المـؤتمر لعـرض بعـض المصنوعات المصرية الدقيقة إلى جانب معروضات الـبلاد الأخرى، وقد لقيت مصنوعاتنا إقبالاً ونجاحا كبيرين، وكانت وسيلة طيبة للدعاية لمصر ولقضيتها.

وأذكر أن رئيسة المؤتمر "مسز كوريت اشبي" قد هنأتني على نجاح مجلة "المصرية" واعتبرتها من عوامـل نهضـة

المرأة في مصر والشرق، وترجمانًا عن هذه النهضة في بلاد الغرب؛ حيث كانت تصدر باللغة الفرنسية، وقالت إنها من أرقى المجلات النسوية في العالم.

الحركة النسوية في مصر

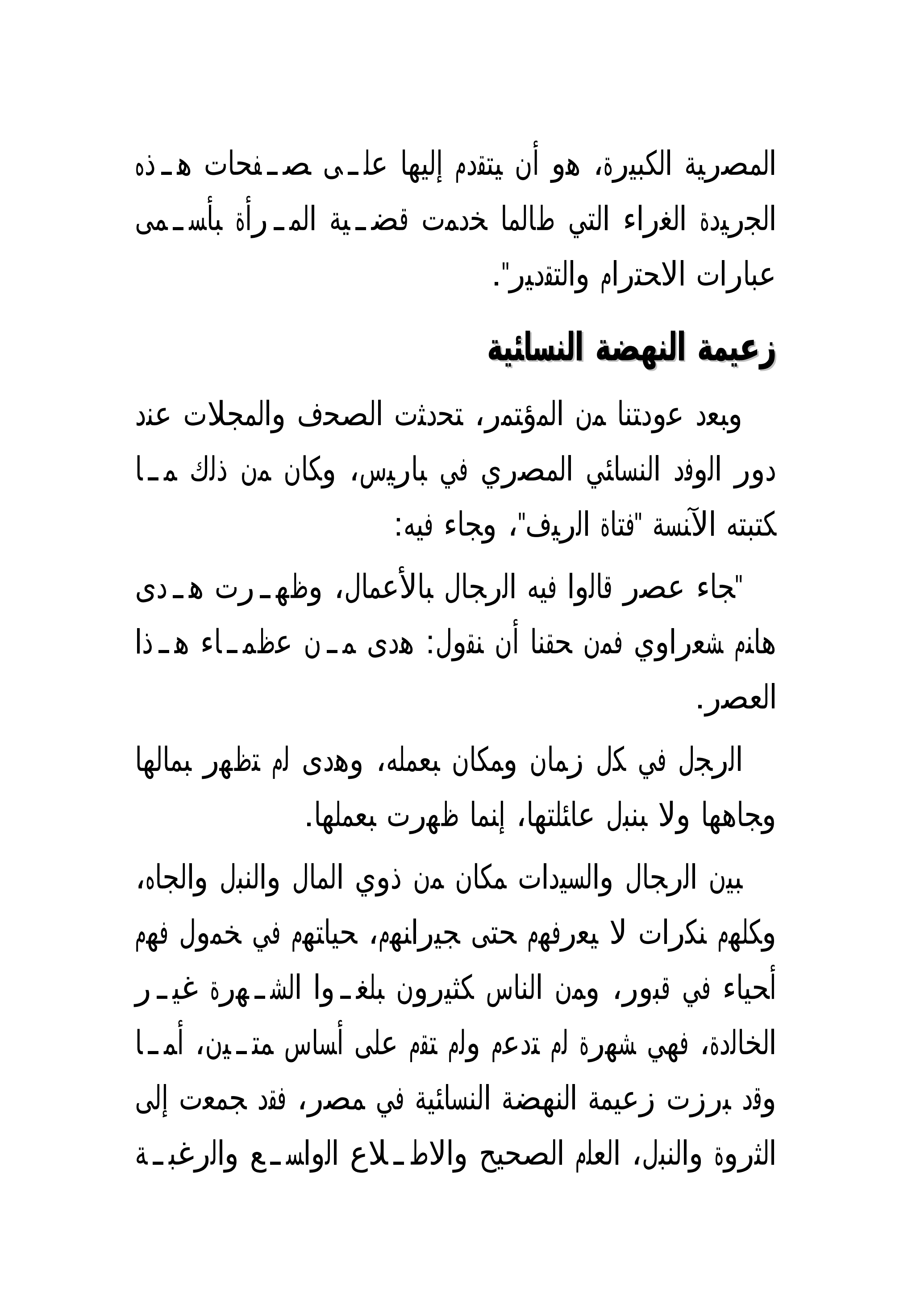
ولقد شهد مندوب جريدة السياسة هذا المؤتمر، وكتب إلى جريدته في أول يوليو ١٩٢٦ يتحدث عن المؤتمر فقال: "لقد ساعدني الحظ في شهود هذا المؤتمر فرأيت كيف تتضافر سيدات العالم في النضال عن حقوقهن وعن حقوق الإنسانية جمعاء، وعجبت كيف لا يزال بين المتعلمين النابهين من يمعن في الأثرة على حساب المرأة، وهي كما جاء في مطالب الاتحاد النسوي المصري نصف المجموع ومربية الجيل القابل جميعه، رجالاً ونساء، شعبا ونوابا. وشهدت المؤتمر وتتبعت آثاره في الإصلاح والنهوض والمعاونة، فازددت يقينًا على يقيني بأحقية المرأة في ضرورة فتح باب المساواة المطلقة يدخل منه كل من يستطيع بمقتضى الأحقية لا بمقتضى النوعية، لأن التمييز النوعي لا يفيد التفوق في الكفاءة.

"على أنـه لا محـل للصـخب ولا للأخـذ والـرد الآن ولا تزال مطالب المرأة المصرية محـدودة ضـمن دائـرة صغيرة لا تكاد تتعدى إصـلاح العائلـة، كتحديـد الـزواج والطلاق، وحماية المطلقة والطفـل، ومقاومـة الأمـراض الضارة بالنسل، وتعميم التعليم الأولي بين الفتيات، وفتح باب التعليم العالي لمن تريد منهن.

وعندي أن وزارة عدلي باشا في غنى عمن يقنعها بأحقية هذه المطالب في العصر الحاضر، وأظن أن ثروت باشا كان قد شكل لجنة في الحقانية لإنصاف المـرأة حسـبما يوافـق الشرع وروح العصر.

وبمناسبة هذا المؤتمر، أقول إن هـدى هـانم شـعراوي رئيسة الاتحاد النسائي ومؤسسته في مصر ورئيسـة الوفـد المصري النسائي خارج القطر؛ بذلت من الجهد سـابقًا فـي روما وجراتز وواشنطن وفيينا، ولاحقًا في باريس، ما جعل مصر مرفوعة الرأس موفورة الكرامة.

إن هذه الجهود العظيمة على تواضعها، الشـاملة علـى نزاهة مقصدها، الهادئة على ما فيها من تضحية، لتسـتحق التقدير، وكل ما يستطيع مثلي لا يملك إلا قلـيلاً إزاء هـذه



المصرية الكبيرة، هو أن يتقدم إليها على صفحات هذه الجريدة الغراء التي طالما خدمت قضية المرأة بأسمى عبارات الاحترام والتقدير".

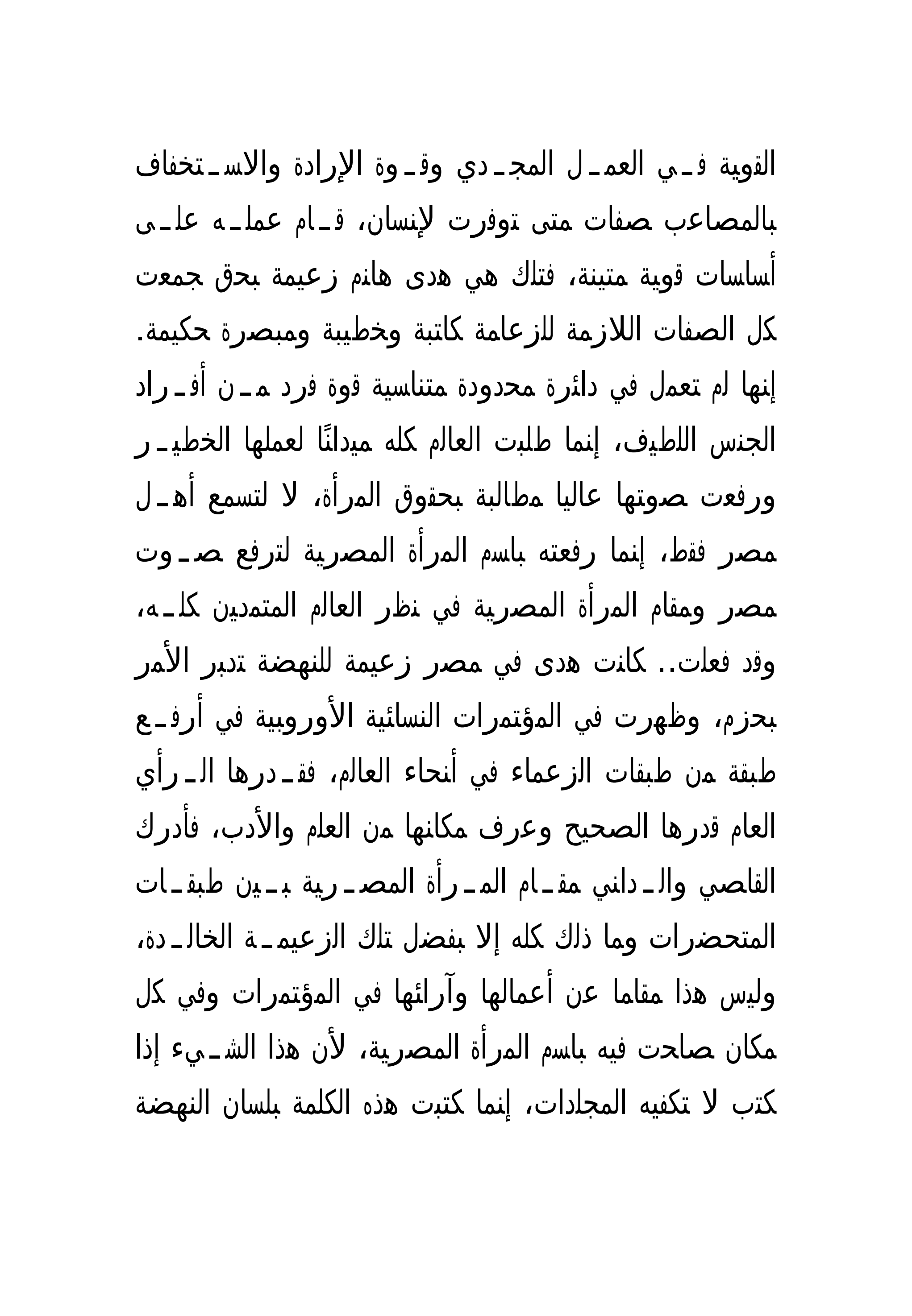
زعيمة النهضة النسائية

وبعد عودتنا من المؤتمر، تحدثت الصحف والمجلات عند دور الوفد النسائي المصري في باريس، وكان من ذلك ما كتبته الآنسة "فتاة الريف"، وجاء فيه:

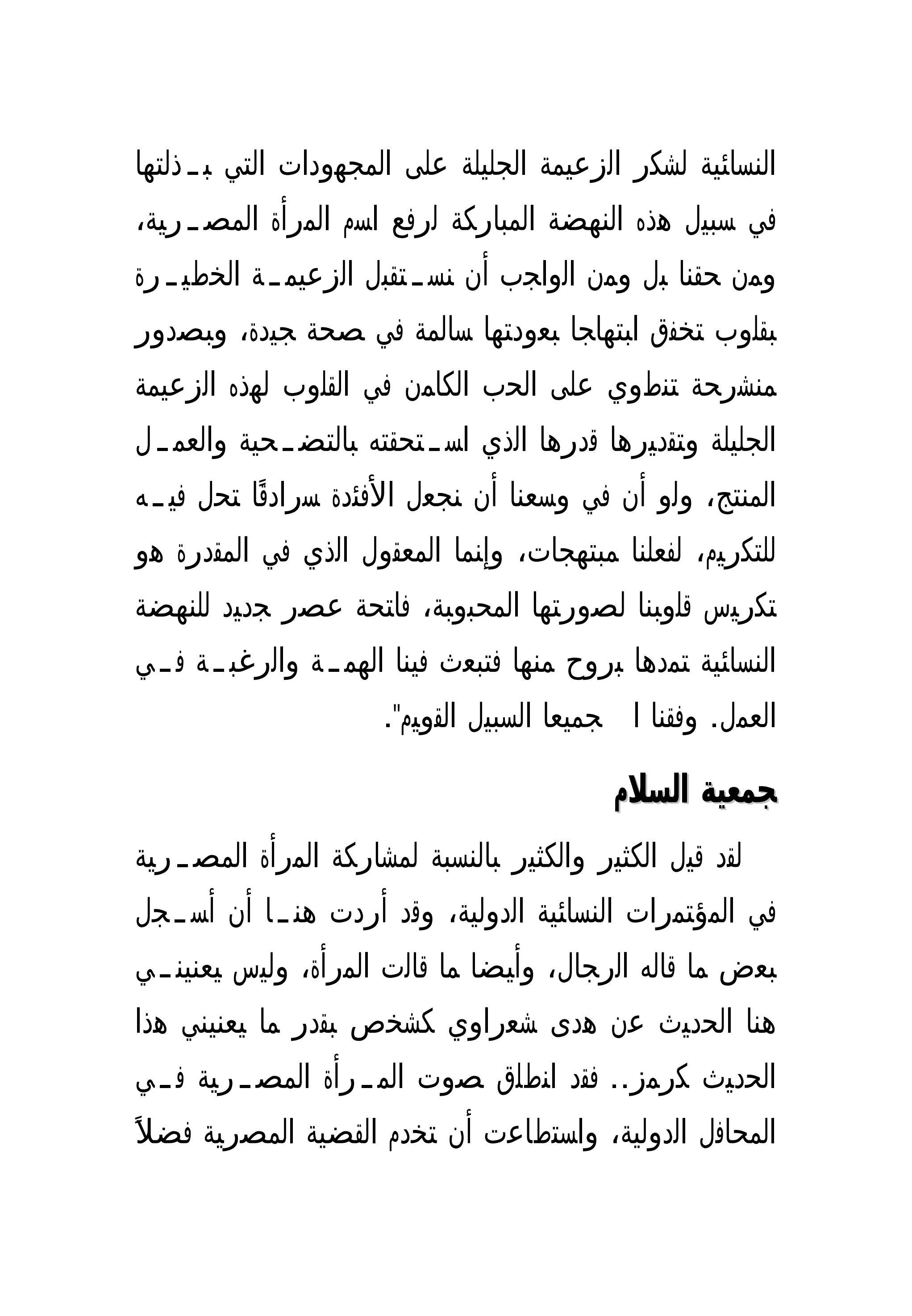
"جاء عصر قالوا فيه الرجال بالأعمال، وظهرت هدى هانم شعراوي فمن حقنا أن نقول: هدى من عظماء هذا العصر.

الرجل في كل زمان ومكان بعمله، وهدى لم تظهر بمالها وجاهها ولا بنبل عائلتها، إنما ظهرت بعملها.

بين الرجال والسيدات مكان من ذوي المال والنبل والجاه، وكلهم نكرات لا يعرفهم حتى جيرانهم، حياتهم في خمول فهم أحياء في قبور، ومن الناس كثيرون بلغوا الشهرة غير الخالدة، فهي شهرة لم تدعم ولم تقم على أساس متين، أما وقد برزت زعيمة النهضة النسائية في مصر، فقد جمعت إلى الثروة والنبل، العلم الصحيح والاطلاع الواسع والرغبة



القوية في العمل المجدي وقوة الإرادة والاستخفاف بالمصاعب صفات متى توفرت لإنسان، قام عمله على أساسات قوية متينة، فتلك هي هدى هانم زعيمة بحق جمعت كل الصفات اللازمة للزعامة كاتبة وخطيبة ومبصرة حكيمة. إنها لم تعمل في دائرة محدودة متناسية قوة فرد من أفراد الجنس اللطيف، إنما طلبت العالم كله ميدانًا لعملها الخطير ورفعت صوتها عاليا مطالبة بحقوق المرأة، لا لتسمع أهل مصر فقط، إنما رفعته باسم المرأة المصرية لترفع صوت مصر ومقام المرأة المصرية في نظر العالم المتمدين كله، وقد فعلت.. كانت هدى في مصر زعيمة للنهضة تدبر الأمر بحزم، وظهرت في المؤتمرات النسائية الأوروبية في أرفع طبقة من طبقات الزعماء في أنحاء العالم، فقدرها الرأي العام قدرها الصحيح وعرف مكانها من العلم والأدب، فأدرك القاصي والداني مقام المرأة المصرية بين طبقات المتحضرات وما ذلك كله إلا بفضل تلك الزعيمة الخالدة، وليس هذا مقاما عن أعمالها وآرائها في المؤتمرات وفي كل مكان صاحت فيه باسم المرأة المصرية، لأن هذا الشيء إذا كتب لا تكفيه المجلدات، إنما كتبت هذه الكلمة بلسان النهضة



النسائية لشكر الزعيمة الجليلة على المجهودات التي بذلتها في سبيل هذه النهضة المباركة لرفع اسم المرأة المصرية، ومن حقنا بل ومن الواجب أن نستقبل الزعيمة الخطيرة بقلوب تخفق ابتهاجا بعودتها سالمة في صحة جيدة، وبصدور منشرحة تنطوي على الحب الكامن في القلوب لهذه الزعيمة الجليلة وتقديرها قدرها الذي استحقته بالتضحية والعمل المنتج، ولو أن في وسعنا أن نجعل الأفئدة سرادقًا تحل فيه للتكريم، لفعلنا مبتهجات، وإنما المعقول الذي في المقدرة هو تكريس قلوبنا لصورتها المحبوبة، فاتحة عصر جديد للنهضة النسائية تمدها بروح منها فتبعث فينا الهمة والرغبة في العمل. وفقنا ا جميعا السبيل القويم".

جمعية السلام

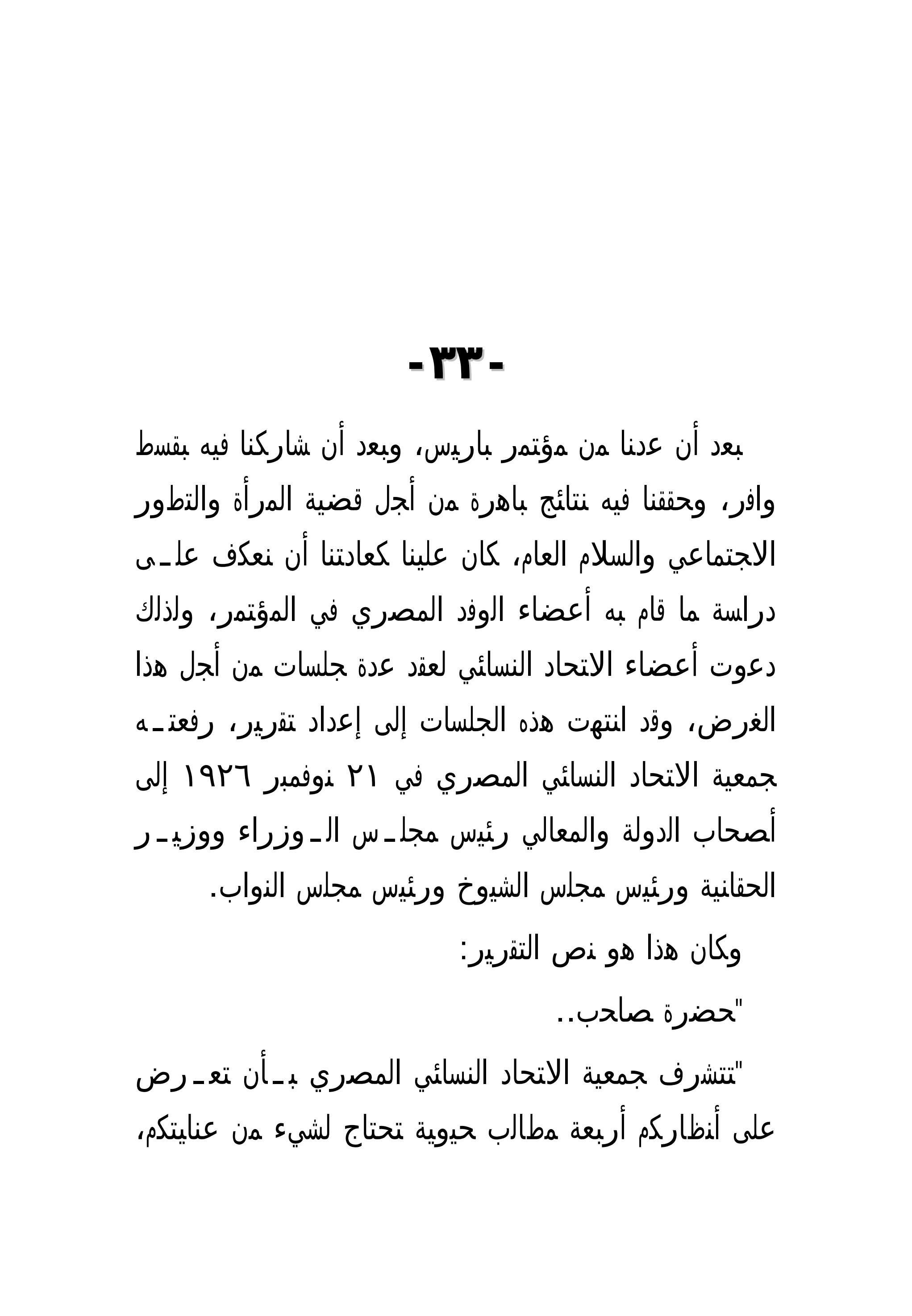
لقد قيل الكثير والكثير بالنسبة لمشاركة المرأة المصرية في المؤتمرات النسائية الدولية، وقد أردت هنا أن أسجل بعض ما قاله الرجال، وأيضا ما قالت المرأة، وليس يعنيني هنا الحديث عن هدى شعراوي كشخص بقدر ما يعنيني هذا الحديث كرمز.. فقد انطلق صوت المرأة المصرية في المحافل الدولية، واستطاعت أن تخدم القضية المصرية فضلاً

عن خدمة القضايا النسوية والاجتماعية.

لقد كتبت الصحف تقول: "خطبت السيدة هدى شعراوي وهي لابسة الثوب الوطني عن النساء المصريات، وكان الاستحسان العظيم الذي قوبلت به خطبتها بمثابة أعظم "بروباجندا" لمصر في الصحف العديدة والأوساط الكثيرة، وقد أذيعت الخطبة باللاسلكي".

ومن هذه السطور، يبرز معنى إننا كنا نحمل رسالة مصر إلى كل مكان، ونعبر عن وجه مصر في كل مؤتمر، ونتحدث باسم مصر في كل موقع.

ومن أجل هذا الهدف أيضا ذهبت إلى جنيف في سبتمبر من العام نفسه تلبية لدعوة من المكتب الدولي لجمعية السلام، باعتباري عضوا فيه، لحضور الاجتماعات والمناقشات الخاصة بتقرير أفضل الوسائل لاشتراك النساء في خدمة السلام العام، وقد انتهزت فرصة هذه الاجتماعات لكي أتحدث عن التطور العقلي للحركة النسائية المصرية، وأذكر أن أعضاء المكتب قد قابلن حديثي بإعجاب وتقدير، وكان هذا تعبيرا عن نظرة مصر إلى السلام، وعن جهادها من أجله، وعن دفاعها عن حق الشعوب في أن تعيش حرة كريمة في ظل السلام.

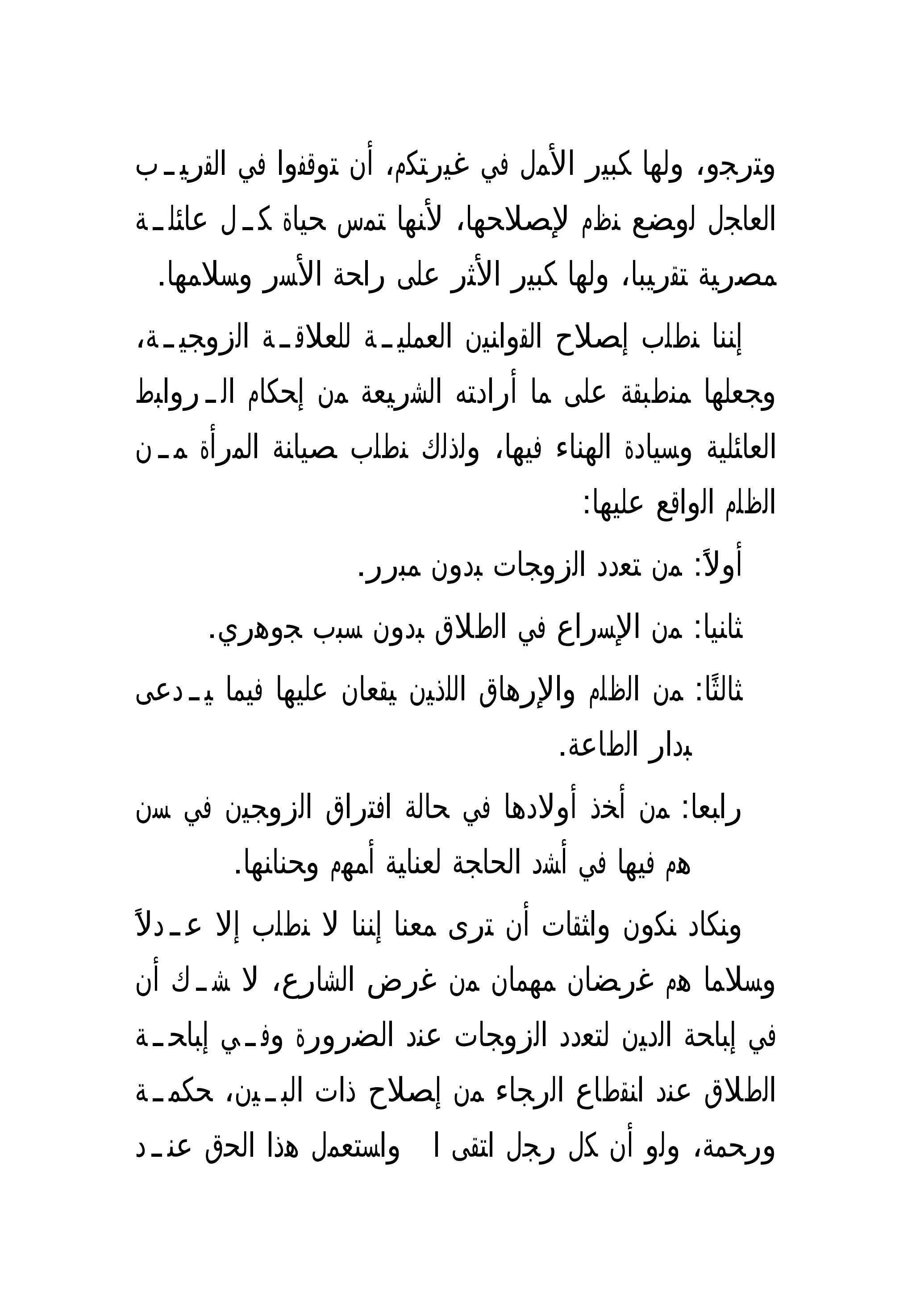


بعد أن عدنا من مؤتمر باريس، وبعد أن شاركنا فيه بقسط وافر، وحققنا فيه نتائج باهرة من أجل قضية المرأة والتطور الاجتماعي والسلام العام، كان علينا كعادتنا أن نعكف علـى دراسة ما قام به أعضاء الوفد المصري في المؤتمر، ولذلك دعوت أعضاء الاتحاد النسائي لعقد عدة جلسات من أجل هذا الغرض، وقد انتهت هذه الجلسات إلى إعداد تقرير، رفعتـه جمعية الاتحاد النسائي المصري في ٢١ نوفمبر ١٩٢٦ إلى أصحاب الدولة والمعالي رئيس مجلـس الـوزراء ووزيـر الحقانية ورئيس مجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب.

وكان هذا هو نص التقرير:

"حضرة صاحب..

"تتشرف جمعية الاتحاد النسائي المصري بـأن تعـرض على أنظاركم أربعة مطالب حيوية تحتاج لشيء من عنايتكم،



وترجو، ولها كبير الأمل في غيرتكم، أن توقفوا في القريب العاجل لوضع نظم لإصلاحها، لأنها تمس حياة كل عائلة مصرية تقريبا، ولها كبير الأثر على راحة الأسر وسلامها.

إننا نطلب إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية، وجعلها منطبقة على ما أرادته الشريعة من إحكام الروابط العائلية وسيادة الهناء فيها، ولذلك نطلب صيانة المرأة من الظلم الواقع عليها:

أولاً: من تعدد الزوجات بدون مبرر.

ثانيا: من الإسراع في الطلاق بدون سبب جوهري.

ثالثًا: من الظلم والإرهاق اللذين يقعان عليها فيما يدعى بدار الطاعة.

رابعا: من أخذ أولادها في حالة افتراق الزوجين في سن هم فيها في أشد الحاجة لعناية أمهم وحنانها.

ونكاد نكون واثقات أن ترى معنا إننا لا نطلب إلا عدلاً وسلاما هم غرضان مهمان من غرض الشارع، لا شك أن في إباحة الدين لتعدد الزوجات عند الضرورة وفي إباحة الطلاق عند انقطاع الرجاء من إصلاح ذات البين، حكمة ورحمة، ولو أن كل رجل اتقى ا واستعمل هذا الحق عند

الضرورات التي شرع لها، لما كان هناك محـل للشـكوى، غير أن هذين السلاحين اللذين أوجدهما الشارع ليكونا نعمـة ورحمة عند الضرورة، أسيء ويساء استعمالهما خصوصـا من الجمهور الجاهل وهو الأغلبية الساحقة في هذه الـبلاد، وأصبحنا.. وهذا السلاحان سيفا نقمة مسلولان يهددان هنـاء العائلات وسلامها، ومن أدرى سواكم بعدد ضـحايا الظلـم والجهل.

فإذا نحن طالبنا بسـن قـانون يمنـع تعـدد الزوجـات إلا لضرورة، كأن تكون الزوجة عقيما أو مريضة بمـرض يمنعها من أداء وظيفتها الزوجية (وفي هذه الحالات يجب أن يثبت ذلك الطبيب). وإذا نحن طالبنا بسن قانون يلزم المطلق إلا يطلق زوجه إلا أمام القاضي الشرعي الذي عليه معالجة التوفيق بحضور حكم من أهله وحكم من أهلها قبـل الحكـم بالطلاق، فلأن هذه القوانين تزيل الفوضـى الحاصـلة فـي مسائل الزواج والطلاق، وبالتالي تزيل التعس والشقاء اللذين يرزح تحتهما الألوف من النساء بسبب سوء تصرف الرجال في ذلك الحق، فكم من نساء يطلقن لأوهى الأسـباب، وفـي لحظة تنحل الرابطة العائلية المقدسة، وكم من نساء يتـزوج

أزواجهن بغيرهن لغير سبب إلا أنانية الرجل ناهيك بما يصيب الأولاد في الحالتين من جراء قطع الصلة بين والديهم، مما لا يحتاج إلى شرح.

أخطر من السجن!

"أما المسألة الثالثة، أي إكراه الزوجة على الذهاب إلى ما يدعى دار الطاعة، فتتطلب النظر في تحديد الحقوق المقررة في باب ولاية الزوج وما يدعيه من الحقوق على زوجته، لأن المسألة من الأهمية بمكان وأصبحت سلاحا يستعمله الرجل حينما تخرج زوجته من دار الزوجية لسوء معاملته أو تعذر العيش معه بهدوء وراحة. تخرج فيتركها تخرج لأي وقت شاءت، وقد يجد سعادة في هذا الفراق. فإن حدثتها نفسها بطلب الإنفاق عليها (وقد يكون الباعث لها على هذا الرغبة هو الطلاق من الزوج)، تراه يطلب من القاضي الشرعي الحكم عليها، لا رغبة في معاشرتها، وإنما هو سلاح يريد إكراهها به (إن كانت موسرة) على إعطائه مبلغًا مقابل الطلاق، وإن كانت معسرة فلإكراهها على إبراء ذمته من نفقة وغيرها.

إن دار الطاعة هي أخطر من دور السجن المعدة لإيـواء الأشقياء والمحكوم عليهم بارتكاب الجرائم والمنكـرات، لأن المسجونين تحت إشراف أناس محدودة سلطتهم في القـانون وليس بينهم وبين المحكوم عليهم عداء أو خصومة تستفزهم إلى التنكيل والتعدي على حدود السلطة التي لهم قانونًا، أمـا الزوج (وهو الخصم والحارس على المرأة التعيسة المقضـي عليها بالدخول تحت طاعته) فلا سلطان لأحد عليه أمام هذه المسكينة. وهو يملك كما يقول بعض الفقهاء إغـلاق البـاب عليها ومنع كل إنسان من الدخول عليها إلا بإذن، كما يملـك الادعاء عليها وهي في السجن أنها خالفت أمـرا، ويتعـدى عليها بالسب والضرب، والمحاكم الشرعية لا تعتبر كل هذا خروجا من الزوج على الحدود التي له شرعا على زوجته.

أيكون للحكومة تشريع عام يعاقب أي شخص يعتدي على حرية الغير بالحبس طال الوقت أم قصر. ويعاقب أي شخص اعتدى على كرامة الغير بالسـب أو بالشـتم، ويعاقـب أي شخص أذى غيره مهما كان الإيذاء خفيفًا. كل هذا التشـريع يتمتع به جميع أفراد الأمة إلا هذه الزوجة المسكينة إذا كـان المعتدي عليها زوجها، يحبسها ولا عقوبة عليه.. ويسبها ولا

عقوبة عليه.. ويضربها ولا عقوبة عليه.. كل هذه الجرائم ترتكب باسم الدين، ونحن نعتقد ببراءة الدين من كل ذلك، بدليل قوله تعالى: ﴿ **ولاَ تُمسِكُوهن ضِرارا لتَعتَدوا**﴾ وقوله أيضا: ﴿ **فَأَمسِكُوهن بِمعروفٍ أَو سرحوهن بِمعروفٍ**﴾.

المسألة الرابعة، وهي رعاية الطفل وتقرير من له حق الولاية عليه عند اختلاف الأبوين أو موت أحدهما، من المسائل التي تستدعي النظر في إصلاحها، لأننا نرى أن الجاري عليه العمل في القضاء الشرعي ليس وافيا دائما بوضع الطفل تحت مراقبة صحيحة عطوفة ويد باردة تعني بتربيته تربية صحيحة جسميا وأخلاقيا، وأسوأ الحالات وأبعدها عن الإنصاف حالة وجود أم للطفل مطلقة وغير متزوجة، أي متفرغة للسهر على مصلحة أولادها، ينزع ولدها من حضانتها في سن السبع إن كان ذكرا والتسع إن كانت أنثى، ينتزعون منها وهم في سن أحوج ما يكونون فيها لرعايتها وعنايتها، ينزعون منها وهي أحق الناس برعايتهم وأحن عليهم من أي إنسان، تقضي المحاكم الشرعية بحرمان الأم من أولادها في السن المذكورة مع أنه بمقتضى حكم الشريعة يبقى الولد في حضانة أمه حتى يستغني عن النساء،

والبنت حتى تحيض، والإمام مالك نص على أن يبقى الصبي في حضانة أمه حتى يحتلم والبنت حتى تتزوج. فهل يصح، وهذا نص الشريعة ورأي إمام مشهور، أن تكـون السـابعة أو التاسعة سن الاستغناء عن النساء، وإن صح ذلك محتمـل يوم أن كانت الحياة أقل تعقيدا وأقرب إلى البداوة منها اليوم، فهل يصح في العصر الذي نعيش فيه وقد تضاعفت الحاجات وتعددت وسائل التربية وطرق الوقاية الصحيحة؟ المشاهد أنه لا يمكن الاستغناء عن معونة الأم ونصائحها قبل السادسـة عشرة، والدليل على ذلك أن الحكومة نفسها جرت على هذه القاعدة وقررت حديثًا اعتبار سن الرشد مبتدئًا من الحاديـة والعشرين.

الإصلاح الاجتماعي:

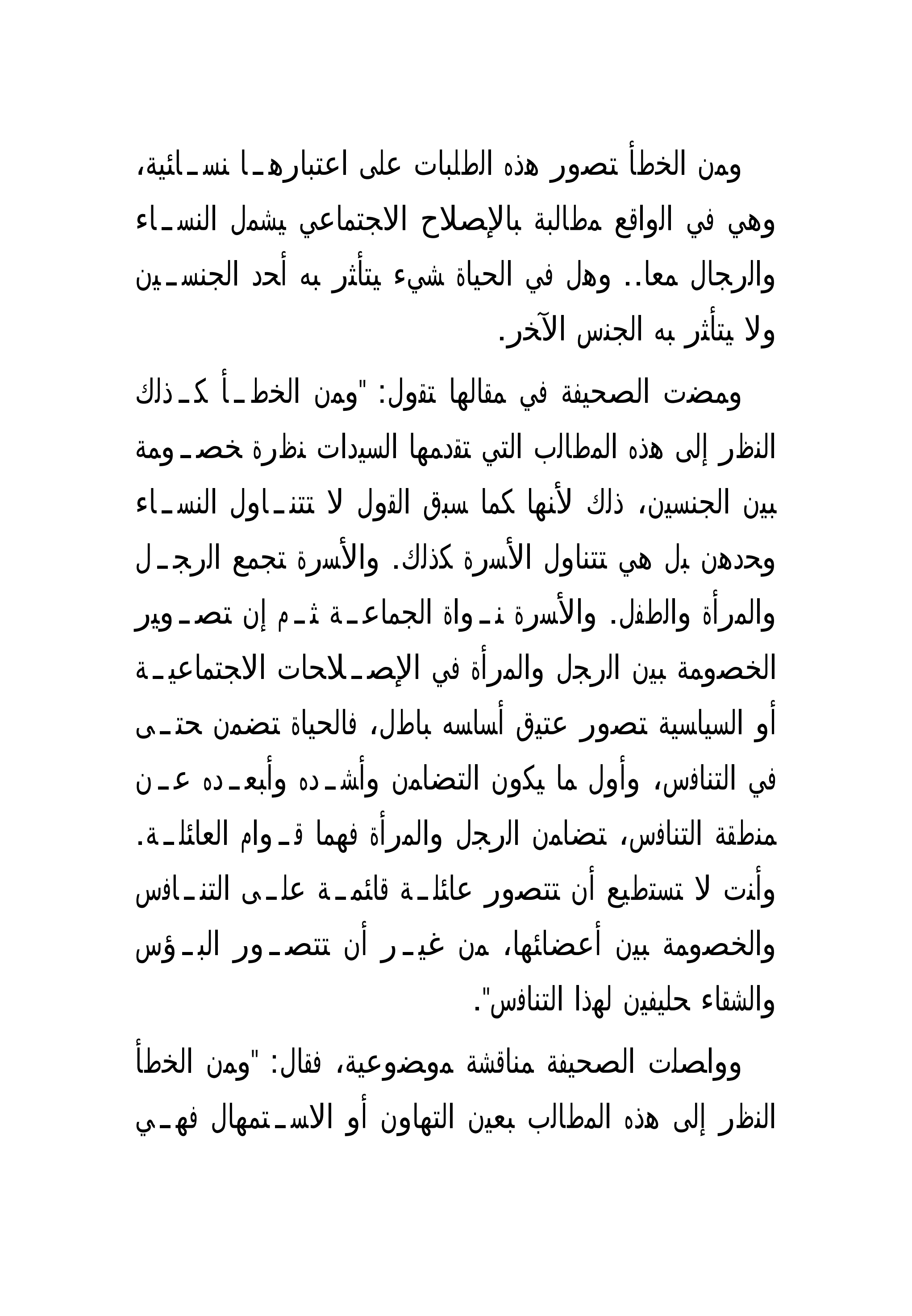
ولقد كان ما ينادي به الاتحاد النسائي المصري موضـع تقدير الرأي العام. وكانت الصحافة تؤيد المطالب التي ننادي بها، ليس باعتبارها مطالب نسائية وإنما باعتبارها في الواقع مطالبة بالإصلاح الاجتماعي.

وقد كتبت جريدة السياسة اليومية فـي عـددها الصـادر بتاريخ ٥ ديسمبر ١٩٢٦ تحت عنـوان "الاتحـاد النسـائي المصري ومطالبه في سبيل الإصلاح الاجتماعي" تقول:

"يقوم الاتحاد النسائي المصري برئاسة السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي إلى جانب نشاطه السياسي بنشـاط اجتمـاعي بعيد المدى في حياة الأسرة المصرية.

"ولم يقف نشاط الاتحاد النسـائي عنـد السـعي لتطـور العادات القديمة تطورا يكفل سير المرأة في السبيل الصـالح ويحول دون الطفرة المفسدة" بل أضاف إلى ما قام به في هذه الناحية والسعي لتطور التشريع في الأحوال الشخصية تطورا يجعله دائما في حدود الشريعة الإسلامية السمحة علـى مـا أقرها أكابر الفقهاء عليهم رضوان ا مع اتفاقه وحاجات هذا العصر الذي نعيش فيه.

والقراء يذكرون ما تقدم به الاتحاد النسائي في شأن تحديد سن الزواج وما لقيه من نجاح. كما يذكرون مطالبه في شأن الطلاق وتعدد الزوجات وسائر الإصلاحات التي طالب بهـا ملحا في تحقيقها.



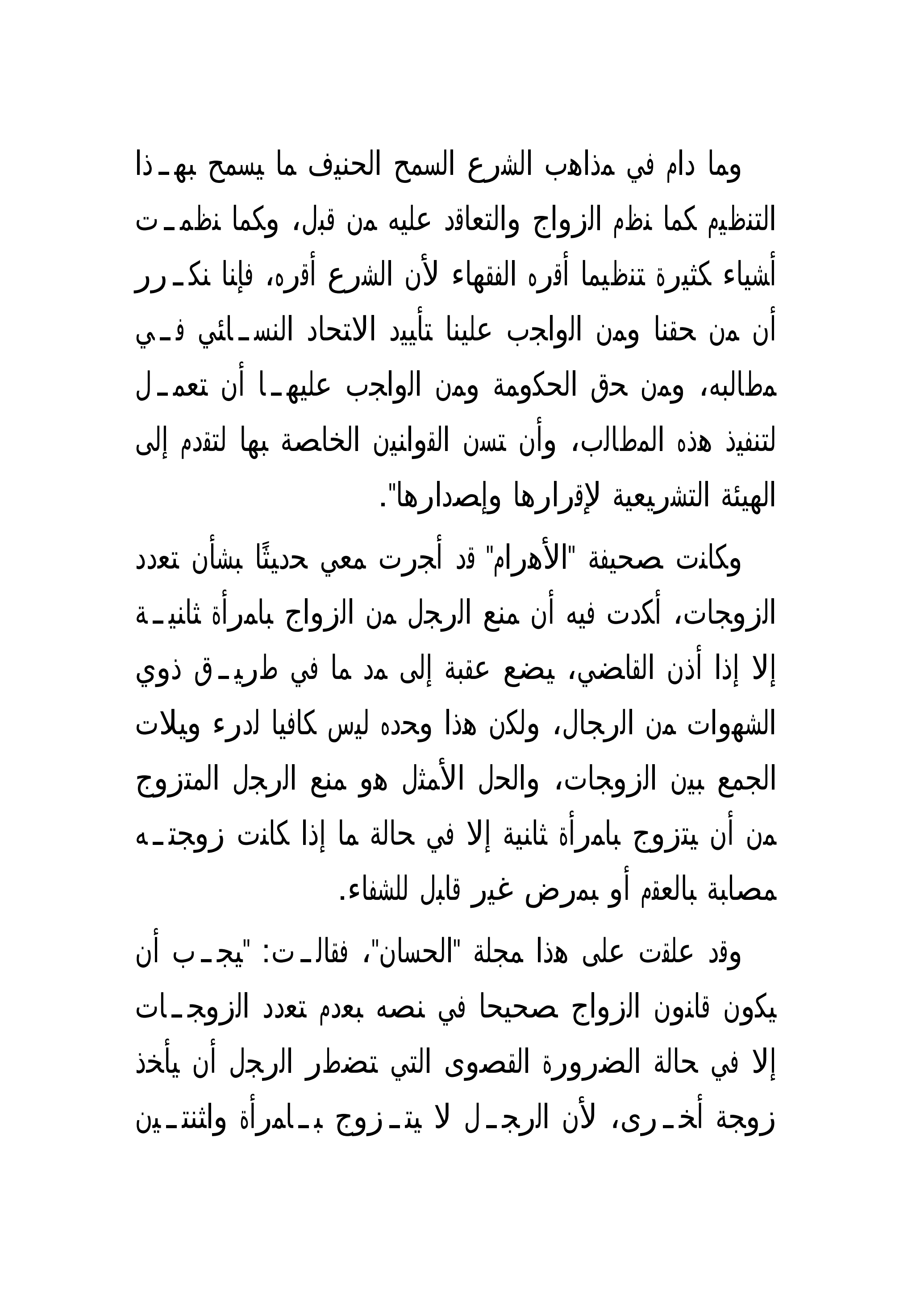
ومن الخطأ تصور هذه الطلبات على اعتبارها نسائية، وهي في الواقع مطالبة بالإصلاح الاجتماعي يشمل النساء والرجال معا.. وهل في الحياة شيء يتأثر به أحد الجنسين ولا يتأثر به الجنس الآخر.

ومضت الصحيفة في مقالها تقول: "ومن الخطأ كذلك النظر إلى هذه المطالب التي تقدمها السيدات نظرة خصومة بين الجنسين، ذلك لأنها كما سبق القول لا تتناول النساء وحدهن بل هي تتناول الأسرة كذلك. والأسرة تجمع الرجل والمرأة والطفل. والأسرة نواة الجماعة ثم إن تصوير الخصومة بين الرجل والمرأة في الإصلاحات الاجتماعية أو السياسية تصور عتيق أساسه باطل، فالحياة تضمن حتى في التنافس، وأول ما يكون التضامن وأشده وأبعده عن منطقة التنافس، تضامن الرجل والمرأة فهما قوام العائلة. وأنت لا تستطيع أن تتصور عائلة قائمة على التنافس والخصومة بين أعضائها، من غير أن تتصور البؤس والشقاء حليفين لهذا التنافس".

وواصلت الصحيفة مناقشة موضوعية، فقال: "ومن الخطأ النظر إلى هذه المطالب بعين التهاون أو الاستمهال فهي

ليست بنت اليوم بل هي بنت سنة ١٨٩٩ حـين تقـدم بهـا المرحوم قاسم أمين في كتابه تحرير المرأة، بل هي أقدم من ذلك عهدا، فقد كان الناس في كل زمان ومكـان يطـالبون بإصلاح نظام الأسرة وبالعمل لإزالة كل ما يقوم عائقًا فـي سبيل هناءتها وتمكينها مـن القيـام بالواجـب الاجتمـاعي والسياسي العظيم الملقى على عاتق كل فرد مـن أفرادهـا. ومهما كانت بنت اليوم، فهي لن تكون كذلك أقـل خطـورة واستعداء للعناية والاهتمام فليس من ينكر أن لحالة العائلة في مصر اليوم تـأثيرا مباشـرا علـى كثيـر مـن أمراضـنا الاجتماعية، وأن إصلاح هذه الحال يترتب على شفاء هـذه الأمراض".

وانتهت الصحيفة إلى القول: "ومسألة الطلاق ليست أقـل من مسألة تعدد الزوجات خطرا. ونحن في غنى عن وصف الشقاء والبؤس المترتب على إلقاء حبل الرجال على غاربهم في هاتين المسألتين، وفي غنى عن القول إن الشقاء والبؤس لا يتناول النساء والأطفال وحدهم بل يتناول الرجال معهـم. وهم إذا لم يحسوا به أول ارتكاب هذه الآثام فإنهم يحسون به فيما بعد.

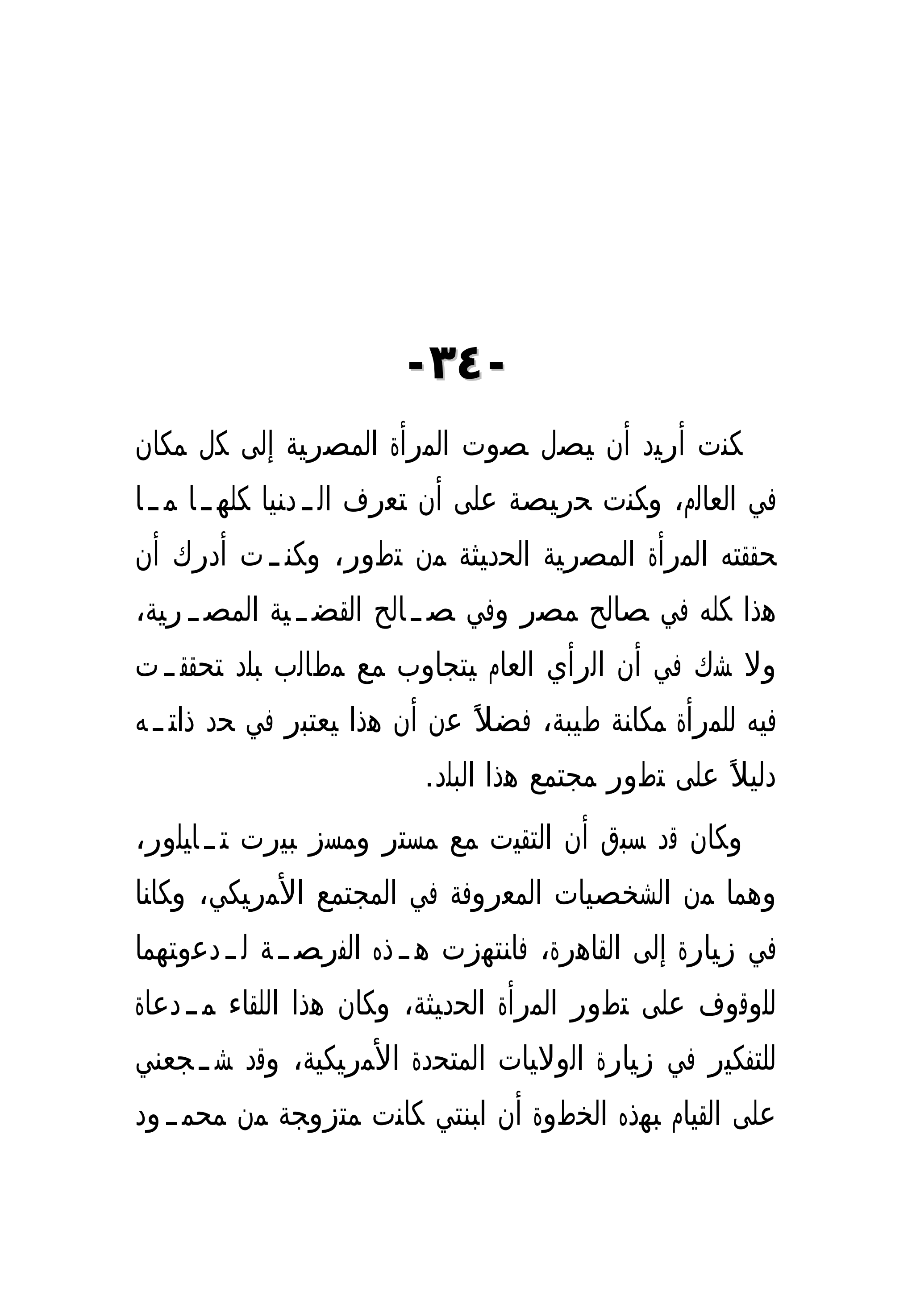


وما دام في مذاهب الشرع السمح الحنيف ما يسمح بهذا التنظيم كما نظم الزواج والتعاقد عليه من قبل، وكما نظمت أشياء كثيرة تنظيما أقره الفقهاء لأن الشرع أقره، فإنا نكرر أن من حقنا ومن الواجب علينا تأييد الاتحاد النسائي في مطالبه، ومن حق الحكومة ومن الواجب عليها أن تعمل لتنفيذ هذه المطالب، وأن تسن القوانين الخاصة بها لتقدم إلى الهيئة التشريعية لإقرارها وإصدارها".

وكانت صحيفة "الأهرام" قد أجرت معي حديثًا بشأن تعدد الزوجات، أكدت فيه أن منع الرجل من الزواج بامرأة ثانية إلا إذا أذن القاضي، يضع عقبة إلى حد ما في طريق ذوي الشهوات من الرجال، ولكن هذا وحده ليس كافيا لدرء ويلات الجمع بين الزوجات، والحل الأمثل هو منع الرجل المتزوج من أن يتزوج بامرأة ثانية إلا في حالة ما إذا كانت زوجته مصابة بالعقم أو بمرض غير قابل للشفاء.

وقد علقت على هذا مجلة "الحسان"، فقالت: "يجب أن يكون قانون الزواج صحيحا في نصه بعدم تعدد الزوجات إلا في حالة الضرورة القصوى التي تضطر الرجل أن يأخذ زوجة أخرى، لأن الرجل لا يتزوج بامرأة واثنتين

إلا لشهوته ومطامعه البهيمية، وبذلك أصبحت المـرأة فـي نظره مثل الثياب تتغير مـع الموضـات ويجـددها بتغيـر الفصول"!!



-٣٤-

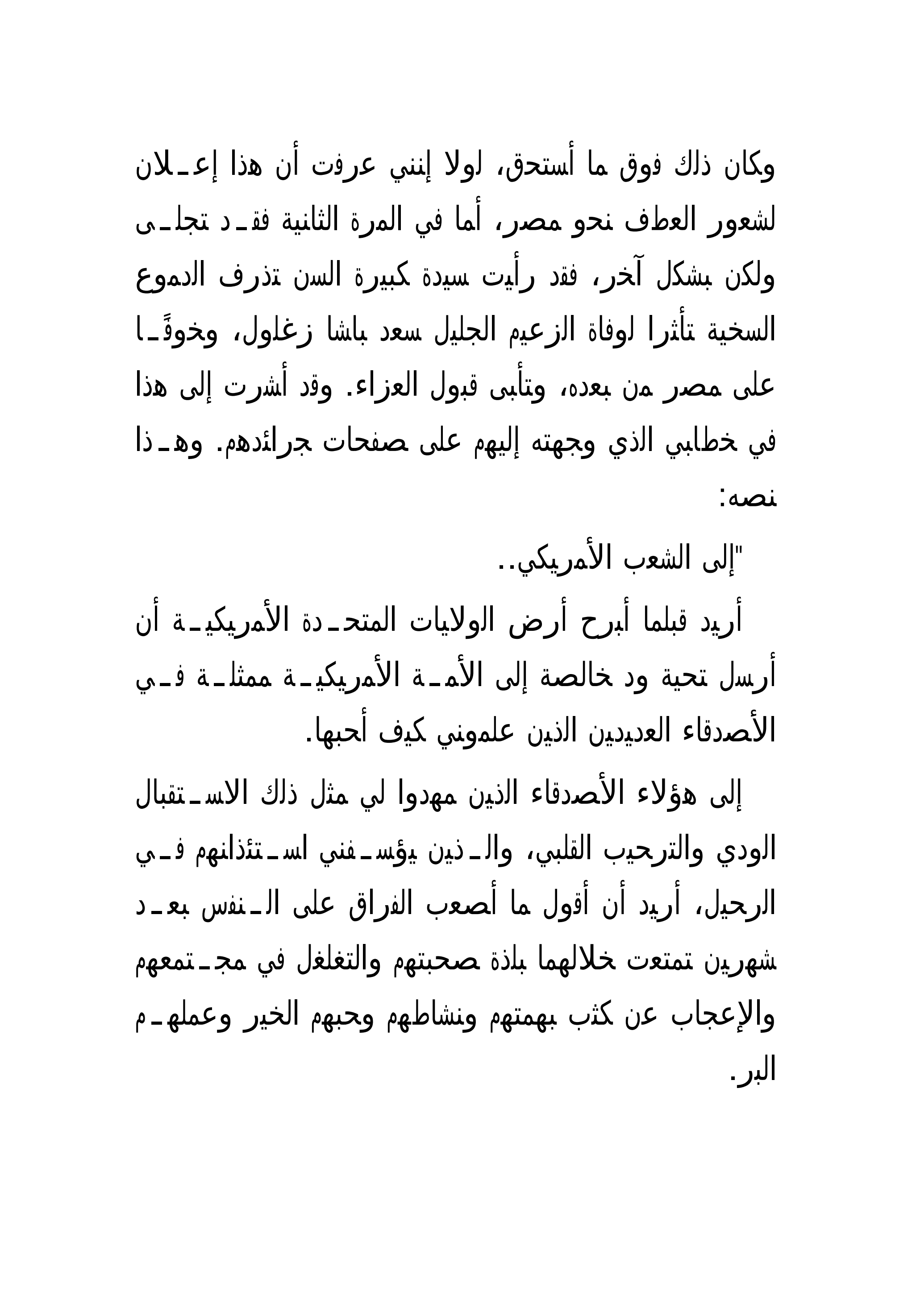
كنت أريد أن يصل صوت المرأة المصرية إلى كل مكان في العالم، وكنت حريصة على أن تعرف الدنيا كلها ما حققته المرأة المصرية الحديثة من تطور، وكنت أدرك أن هذا كله في صالح مصر وفي صالح القضية المصرية، ولا شك في أن الرأي العام يتجاوب مع مطالب بلد تحققت فيه للمرأة مكانة طيبة، فضلاً عن أن هذا يعتبر في حد ذاته دليلاً على تطور مجتمع هذا البلد.

وكان قد سبق أن التقيت مع مستر ومسز بيرت تايلور، وهما من الشخصيات المعروفة في المجتمع الأمريكي، وكانا في زيارة إلى القاهرة، فانتهزت هذه الفرصة لدعوتهما للوقوف على تطور المرأة الحديثة، وكان هذا اللقاء مدعاة للتفكير في زيارة الولايات المتحدة الأمريكية، وقد شجعني على القيام بهذه الخطوة أن ابنتي كانت متزوجة من محمود

سامي باشا، الذي كان يشغل منصب وزير مصر المفـوض في واشنطن في ذلك الوقت.

وقد وصلت إلى أمريكا يوم ٢٧ يوليو ١٩٢٧، وكنت قـد أعددت للقاءات واجتماعات في هذه الرحلة، أكشف فيها عن حقيقة الأوضاع تخلفها عن الركب الحضاري، ولكن قبل أن أبدأ نشاطي هناك، استقبلني منـدوبو الصـحف الأمريكيـة ليسألوني عن قضية تعدد الزوجات.. وقد قلت لهم إن تعـدد الزوجات أمر شرعي في مصر، ولكنه غيـر مـألوف الآن إذ إن أغلب الناس لا يمكنهم تحمل نفقات أكثر مـن امـرأة واحدة، وأضفت أيضا بأن مصر تحاول الآن سن قانون لمنع تعدد الزوجات، وإن وزير الحقانية قدم مشروعا بذلك إلـى البرلمان المصري. كذلك فقد تحدثت إلى مندوبي الصـحف عن أهمية التعليم بالنسبة للمرأة، وقلت إنه أكثر أهميـة مـن المطالبة بحقوقهن الانتخابية، وإن كان هذا لا يمنعنـي مـن المطالبة بحق المرأة في التصويت في الانتخابات النيابية.

وقد تمثل لي شعور الأمريكيين نحو المصريين في حادثين مختلفين كل الاختلاف. فقد أكرموني الإكرام كله وأحسـنوا استقبالي في نيويورك وواشنطن وبخاصة فـي ديترويـت،

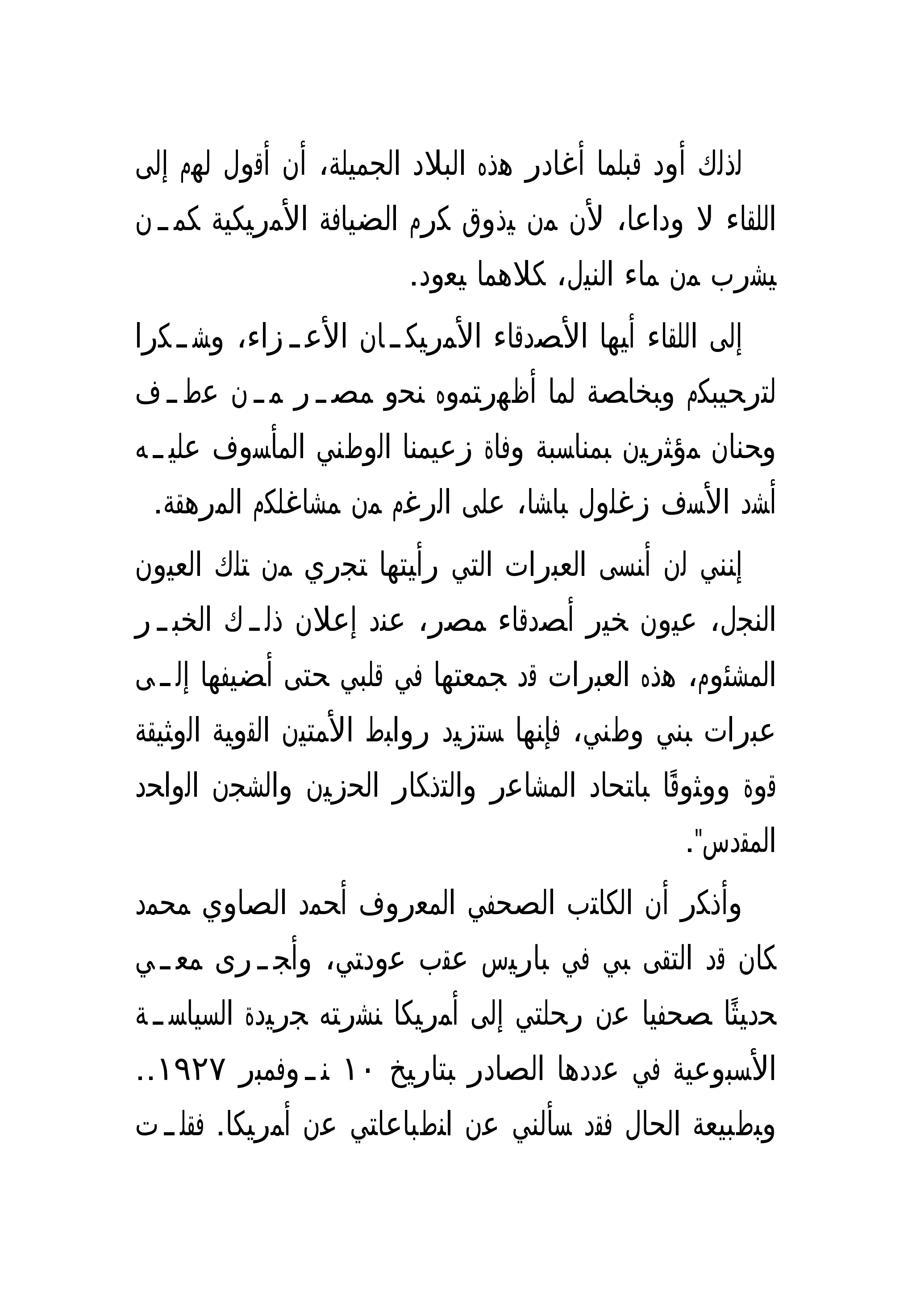


وكان ذلك فوق ما أستحق، لولا إنني عرفت أن هذا إعلان لشعور العطف نحو مصر، أما في المرة الثانية فقد تجلى ولكن بشكل آخر، فقد رأيت سيدة كبيرة السن تذرف الدموع السخية تأثرا لوفاة الزعيم الجليل سعد باشا زغلول، وخوفًا على مصر من بعده، وتأبى قبول العزاء. وقد أشرت إلى هذا في خطابي الذي وجهته إليهم على صفحات جرائدهم. وهذا نصه:

"إلى الشعب الأمريكي..

أريد قبلما أبرح أرض الولايات المتحدة الأمريكية أن أرسل تحية ود خالصة إلى الأمة الأمريكية ممثلة في الأصدقاء العديدين الذين علموني كيف أحبها.

إلى هؤلاء الأصدقاء الذين مهدوا لي مثل ذلك الاستقبال الودي والترحيب القلبي، والذين يؤسفني استئذانهم في الرحيل، أريد أن أقول ما أصعب الفراق على النفس بعد شهرين تمتعت خلالهما بلذة صحبتهم والتغلغل في مجتمعهم والإعجاب عن كثب بهمتهم ونشاطهم وحبهم الخير وعملهم البر.



لذلك أود قبلما أغادر هذه البلاد الجميلة، أن أقول لهم إلى اللقاء لا وداعا، لأن من يذوق كرم الضيافة الأمريكية كمـن يشرب من ماء النيل، كلاهما يعود.

إلى اللقاء أيها الأصدقاء الأمريكـان الأعـزاء، وشـكرا لترحيبكم وبخاصة لما أظهرتموه نحو مصـر مـن عطـف وحنان مؤثرين بمناسبة وفاة زعيمنا الوطني المأسوف عليـه أشد الأسف زغلول باشا، على الرغم من مشاغلكم المرهقة.

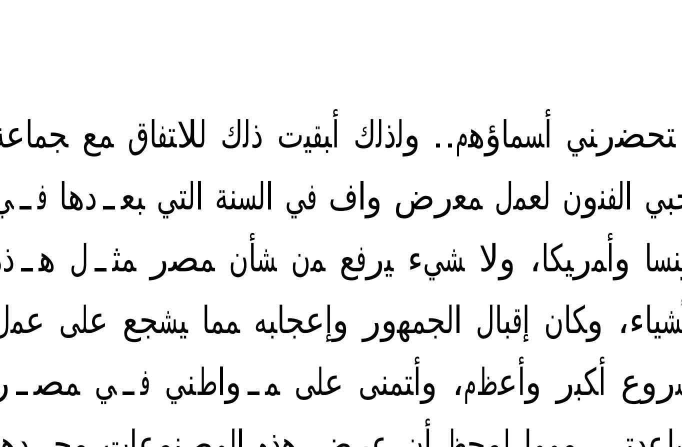
إنني لن أنسى العبرات التي رأيتها تجري من تلك العيون النجل، عيون خير أصدقاء مصر، عند إعلان ذلـك الخبـر المشئوم، هذه العبرات قد جمعتها في قلبي حتى أضيفها إلـى عبرات بني وطني، فإنها ستزيد روابط الأمتين القوية الوثيقة قوة ووثوقًا باتحاد المشاعر والتذكار الحزين والشجن الواحد المقدس".

وأذكر أن الكاتب الصحفي المعروف أحمد الصاوي محمد كان قد التقى بي في باريس عقب عودتي، وأجـرى معـي حديثًا صحفيا عن رحلتي إلى أمريكا نشرته جريدة السياسـة الأسبوعية في عددها الصادر بتاريخ ١٠ نـوفمبر ١٩٢٧.. وبطبيعة الحال فقد سألني عن انطباعاتي عن أمريكا. فقلـت

له: لقد أردت أن أدرس حركة المرأة فقط، ولكن الحياة الاجتماعية الأمريكية شاقتني، فقد رأيتهم ذوي حيوية نادرة ونشاط خارق، وأمكنني بمساعدة مدام تايلور التي كانت ضيفتنا في مصر في العام الماضي وأرادت ضيافتي هذا العام، أن أزور مستشفيات ومعاهد للأطفال وبيوتًا لتعليم الفقراء، أخذت عنها مذكرات أظنها تنفع البلد، وسأعرضها عند عودتي على أولي الشأن لتطبيقها بقدر الإمكان.

أما بالنسبة لمعرض الخزف، فقد استحسنت عرض هذه المصنوعات المصرية في أرض مصرية، ولذلك رفضت عروض بيوت المعارض في نيويورك، واخترت عرضها في المفوضية المصرية بواشنطن. وكانت محل إعجاب كل من رآها وبخاصة من الشرقيين كسفراء اليابان والصين والهند وغيرهم من رجال السياسة.

ومما جعلني لا أعرضها في "جاليري" هو عدم وجود صور زيتية أو تماثيل ودمى لأنهم يعتقدون أن الفن الجميل قد مات في مصر، فأبيت أن تثبت هذه الفكرة، ولو بطريق غير مباشر، فعدلت عن المعرض. وعندنا مختار ويوسف كامل وعياد وناجي وأحمد يوسف وهدايت وغيرهم ممن



لا تحضرني أسماؤهم.. ولذلك أبقيت ذلك للاتفاق مع جماعة محبي الفنون لعمل معرض واف في السنة التي بعدها في فرنسا وأمريكا، ولا شيء يرفع من شأن مصر مثل هذه الأشياء، وكان إقبال الجمهور وإعجابه مما يشجع على عمل مشروع أكبر وأعظم، وأتمنى على مواطني في مصر مساعدتي، ومما لوحظ أن عرض هذه المصنوعات وحدها غير كاف، بل يجب أن يكون مكتوبا "صنع في مصر" على كل قطعة، فهذه وحدها لها قيمتها الكبرى.

وقد سألني الأستاذ الصاوي: وما حكاية المؤتمرات التي تتنازع فخر وجودك فيها؟

فقلت له: لقد وصلتني وأنا في أمريكا دعوة من مؤتمر التدبير المنزلي بروما، فأرسلت تلغرافًا بالاعتذار لبعدي عن المكان، وأرسلت إلى الحكومة المصرية تعرض علي رئاسة وفدها، وهي ثقة أقدرها وأشكرها عليها، ولكنني اعتذرت لأنني مضطرة لحضور مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي العام الذي أنا عضو في مكتبه الرئيسي. وسيعقد في ٢١ الجاري في أمستردام.. وكنت قد رجوت وزارة المعارف الاشتراك في مؤتمر روما، لأن الاطلاع على ما يعمل في البلاد

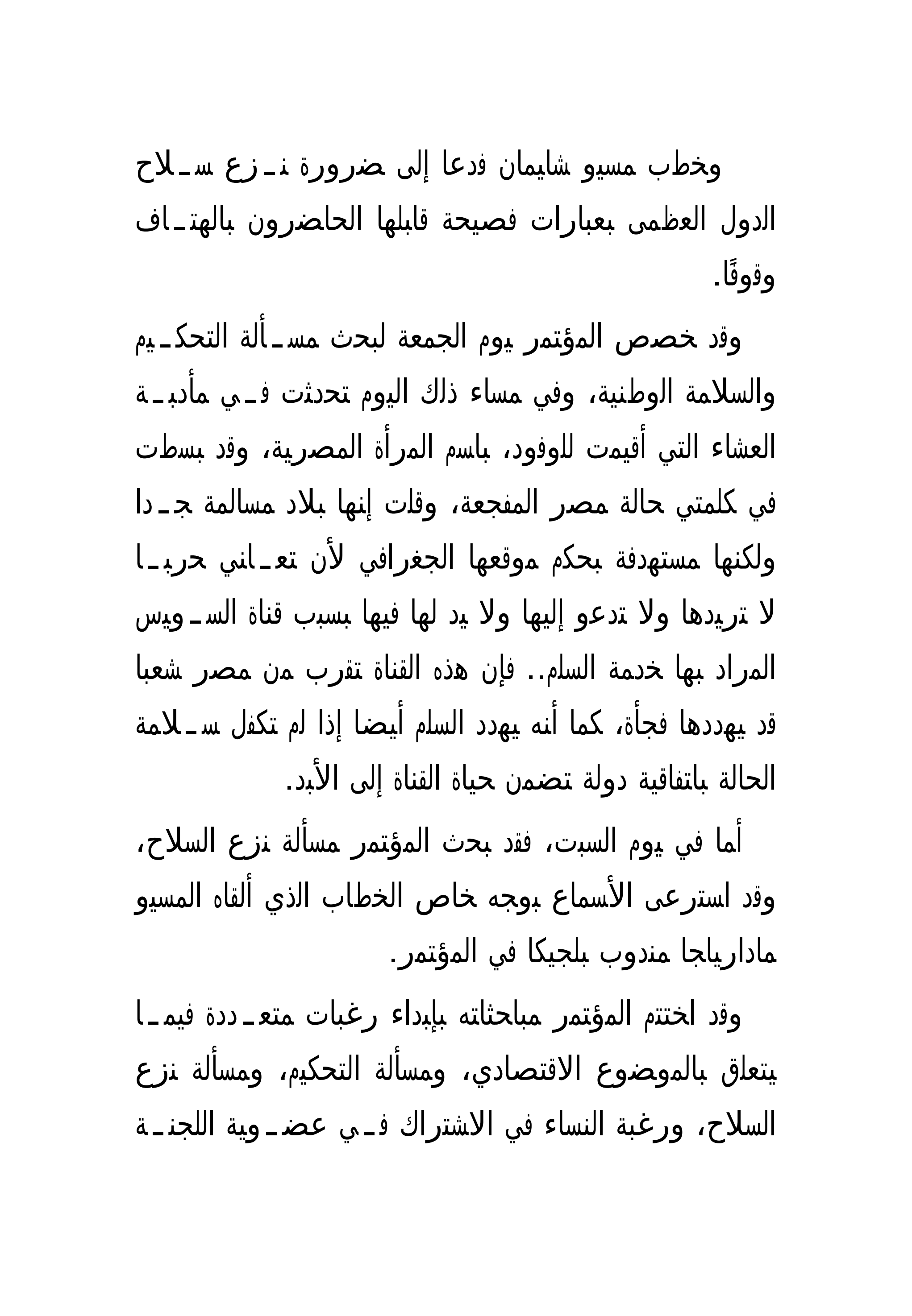
المتمدنة يهم بناتنا، ولأنني أحب أن تكون مصر ممثلة فـي جميع بلاد العالم لأننا في صف الأمم الممتازة، والاحتكـاك بالغربيين له نفع جزيل.

مؤتمر أمستردام

عقد المؤتمر النسائي الدولي بأمستردام في موعده، أي في ١٢ نوفمبر ١٩٢٧، وقد بدأ المؤتمر يوم الخمـيس واختـتم أعماله يوم الأحد التالي، وجدير بالذكر أن هذا المؤتمر لـم يقتصر على بحث المطالب والرغبات النسائية، ولكنه كـان ذات أهمية عامة بما لأعضائه وعضـواته مـن الشخصـية والصفات الفردية، وبما كان للموضوعات التي طرحت على بساط البحث من الصبغة السياسية الدولية.

فقد تحدث المسيو مرييت في أسباب الحروب، وأكـد أن العامل الاقتصادي له تأثير كبير في هذه الأسـباب، واختـتم حديثه بالدعوة إلى تشييد نظم الدول على قاعـدة اقتصـادية عامة تقاوم الروح الاقتصادية التي تسودها الوطنية.

وتكلمت مدام مالاتير، وهي فرنسية، فقالـت إن التعـاون الدولي يتم بحركة تطور وتحول كالحركة التي أدت إلى إفهام الناس أن الوطنية والحماسة لا تعنيان بغض الأجنبي.



وخطب مسيو شايمان فدعا إلى ضرورة نزع سلاح الدول العظمى بعبارات فصيحة قابلها الحاضرون بالهتاف وقوفًا.

وقد خصص المؤتمر يوم الجمعة لبحث مسألة التحكيم والسلامة الوطنية، وفي مساء ذلك اليوم تحدثت في مأدبة العشاء التي أقيمت للوفود، باسم المرأة المصرية، وقد بسطت في كلمتي حالة مصر المفجعة، وقلت إنها بلاد مسالمة جدا ولكنها مستهدفة بحكم موقعها الجغرافي لأن تعاني حربا لا تريدها ولا تدعو إليها ولا يد لها فيها بسبب قناة السويس المراد بها خدمة السلم.. فإن هذه القناة تقرب من مصر شعبا قد يهددها فجأة، كما أنه يهدد السلم أيضا إذا لم تكفل سلامة الحالة باتفاقية دولة تضمن حياة القناة إلى الأبد.

أما في يوم السبت، فقد بحث المؤتمر مسألة نزع السلاح، وقد استرعى الأسماع بوجه خاص الخطاب الذي ألقاه المسيو مادارياجا مندوب بلجيكا في المؤتمر.

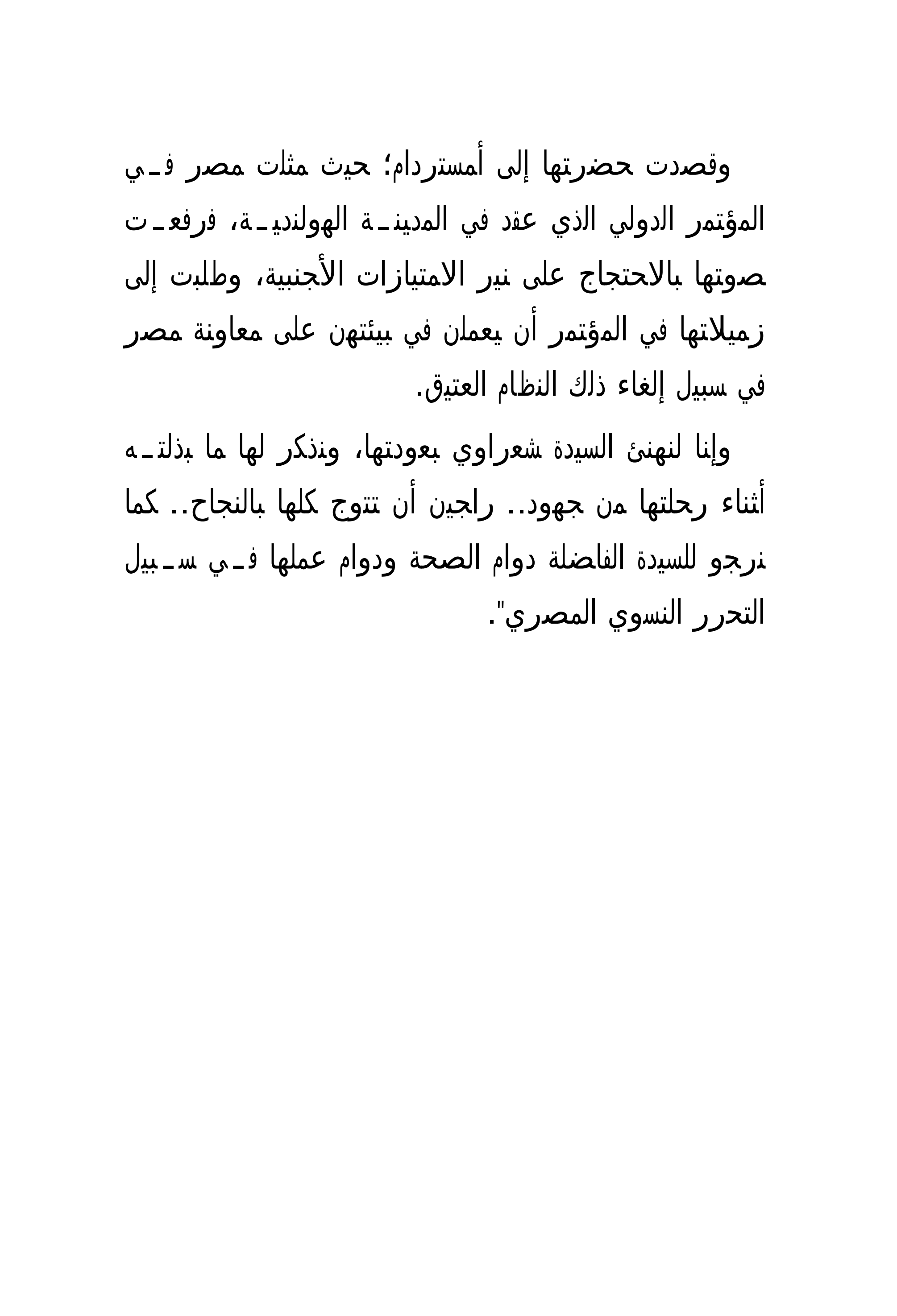
وقد اختتم المؤتمر مباحثاته بإبداء رغبات متعددة فيما يتعلق بالموضوع الاقتصادي، ومسألة التحكيم، ومسألة نزع السلاح، ورغبة النساء في الاشتراك في عضوية اللجنة

الاستشارية الاقتصادية المؤلفة في جنيف، وقد انتهزت هـذه الفرصة لأعبر للمؤتمر عـن رغبـة خاصـة فـي إلغـاء الامتيازات الأجنبية في مصر، وقد أحيلت هذه الرغبة إلـى لجنة البحث، ومن ناحية أخرى فقط طلبت إلى زميلاتي فـي المؤتمر أن يعملان على معاونة مصر في سبيل إلغـاء هـذا النظام العتيق.

وبعد انتهاء المؤتمر، عدت إلى مصر يـوم ٣ ديسـمبر ١٩٢٧، وفي اليوم التالي نشرت جريدة السياسة هذا التعليق على رحلتي إلى أمريكا ثم هولندا:

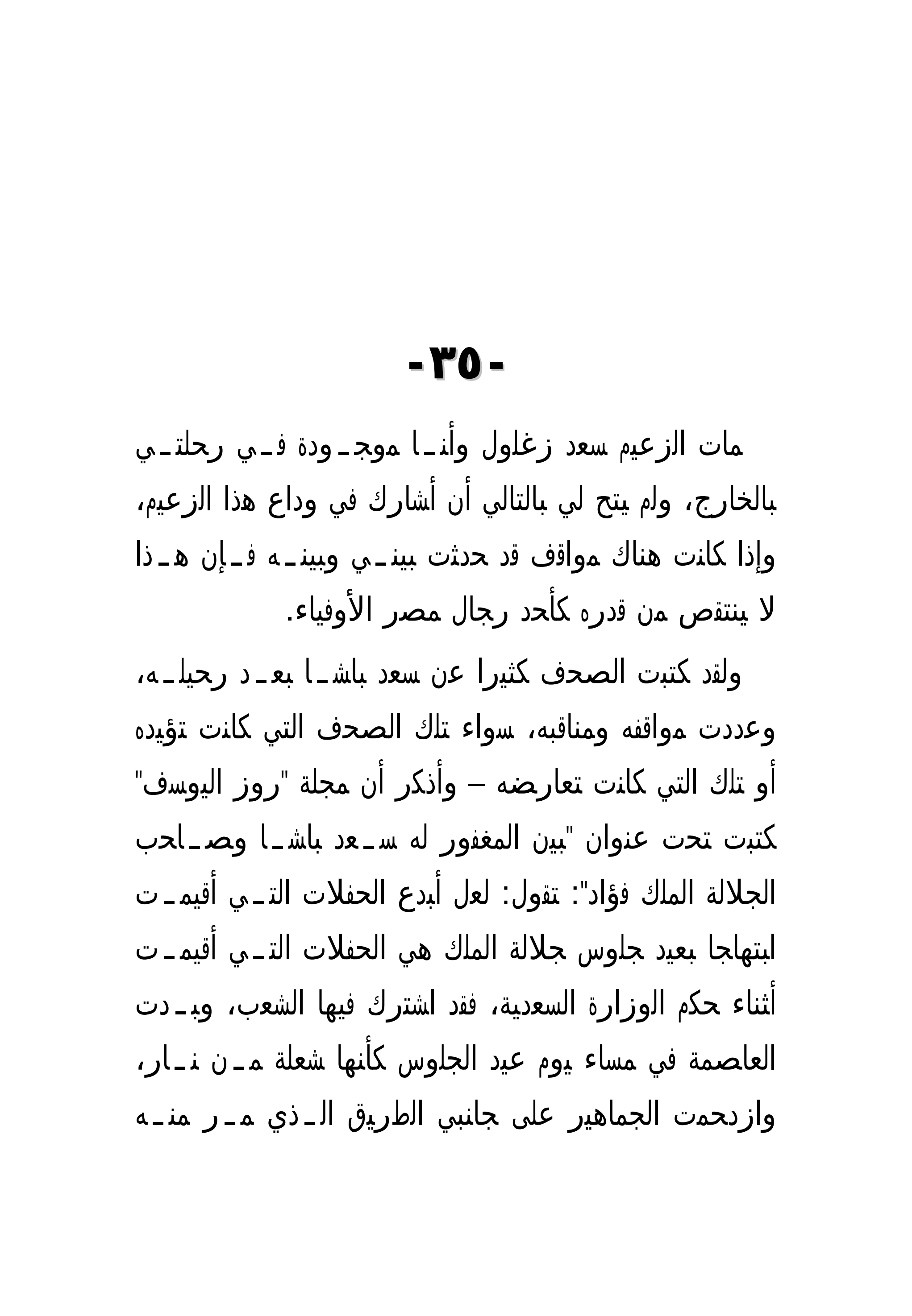
"وصلت في منتصف الساعة الحادية عشرة مـن مسـاء أمس صاحبة العصمة السيدة الفاضلة هدى هانم شـعراوي، عائدة من رحلتها الطويلة التي تنقلت فيها بين أوربا وأمريكا، باذلة جهودها في سبيل رفع اسـم مصـر وإعـلاء شـأن المصريات.

فقد أقامت حضرتها في المفوضية المصـرية بواشـنطن معرضا للمنتجات المصرية النسوية، كان له أحسن الأثر في نفوس الأمريكيات والأمريكيين الذين لـم يكونـوا يعرفـون مصر إلا من خلال الأقاصيص التي تروى لهم.



وقصدت حضرتها إلى أمستردام؛ حيث مثلت مصر فـي المؤتمر الدولي الذي عقد في المدينـة الهولنديـة، فرفعـت صوتها بالاحتجاج على نير الامتيازات الأجنبية، وطلبت إلى زميلاتها في المؤتمر أن يعملن في بيئتهن على معاونة مصر في سبيل إلغاء ذلك النظام العتيق.

وإنا لنهنئ السيدة شعراوي بعودتها، ونذكر لها ما بذلتـه أثناء رحلتها من جهود.. راجين أن تتوج كلها بالنجاح.. كما نرجو للسيدة الفاضلة دوام الصحة ودوام عملها فـي سـبيل التحرر النسوي المصري".



-٣٥-

مات الزعيم سعد زغلول وأنا موجودة في رحلتي بالخارج، ولم يتح لي بالتالي أن أشارك في وداع هذا الزعيم، وإذا كانت هناك مواقف قد حدثت بيني وبينه فإن هذا لا ينتقص من قدره كأحد رجال مصر الأوفياء.

ولقد كتبت الصحف كثيرا عن سعد باشا بعد رحيله، وعددت مواقفه ومناقبه، سواء تلك الصحف التي كانت تؤيده أو تلك التي كانت تعارضه – وأذكر أن مجلة "روز اليوسف" كتبت تحت عنوان "بين المغفور له سعد باشا وصاحب الجلالة الملك فؤاد": تقول: لعل أبدع الحفلات التي أقيمت ابتهاجا بعيد جلوس جلالة الملك هي الحفلات التي أقيمت أثناء حكم الوزارة السعدية، فقد اشترك فيها الشعب، وبدت العاصمة في مساء يوم عيد الجلوس كأنها شعلة من نار، وازدحمت الجماهير على جانبي الطريق الذي مر منه

الموكب الملكي إلى ميدان باب الحديد؛ حيث أقامـت لجنـة الاحتفال سرادقًا فخما شرفه جلالة الملك بزيارته، ازدحمـت الجماهير تحيي الركب الملكي بالتصفيق وهتافها العالي يشق عنان السماء: سعد.. سعد.. ويعيش الملك.

ومرت بين الجموع المتراصة سيارة جلالة الملك، وقـد ركب المغفور له سعد باشا إلى يسار جلالته، ولما توسـطت العربة ميدان الأوبرا، وكان الزحام هنا على أشده، والهتـاف يعلو ويتجمع ثم يتدافع، التفت سعد باشا إلى جلالـة الملـك وقال: "إنهم يهتفون لجلالتكم". فأجابه صاحب الجلالة علـى الفور وهو يبتسم: "هل أنت متأكد؟!"

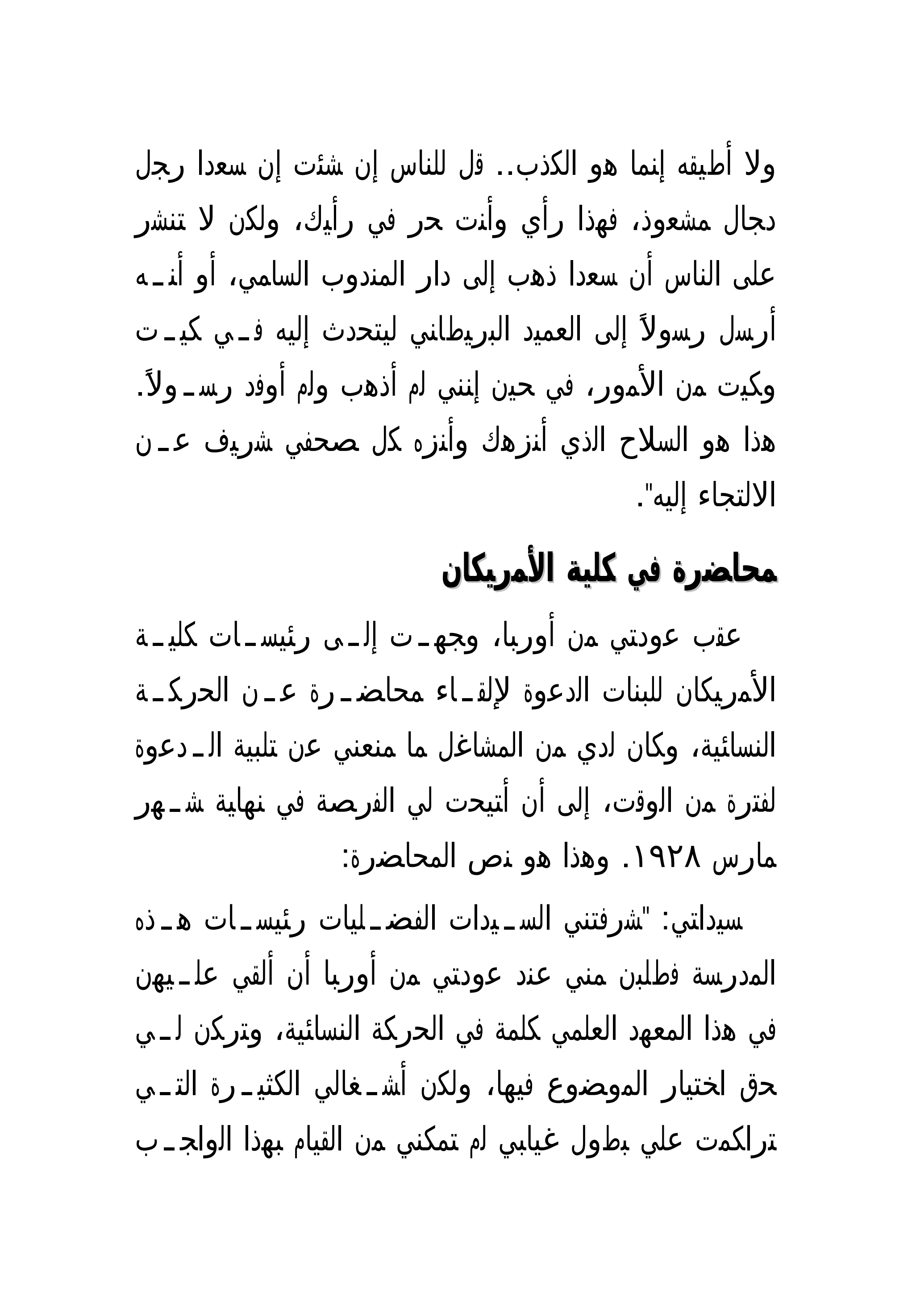
وكانت حادثة السـردار المشـئومة، واسـتقالة الـوزارة السعدية، وطلب السلطة البريطانية إلى سعد باشا أن يتـرك القاهرة ويقيم إلى حين في فندق مينا هاوس.

وزاره ذات يوم في الفندق المذكور نفـر مـن النـواب والعيان ودار الحديث حول الحادثة المشئومة ودسائس بعض رجال السراي، والشائعات التي كانت تتناقلها الأفواه في تلك الأيام العصيبة عن البرلمان والدسـتور والـدس للدسـتور، ورأى سعد باشا أن الحديث يتطور، وأن بعض الألسن بدأت

تتكلم بغير ما يجب، فأسكتهم قائلاً: "أنا لا أصدق أن جلالـة الملك يرضى عن هذه الأفعال، أو يشـجع بسـكوته علـى الاستمرار فيها. لقد رأيت من جلالته في أكثر مـن مناسـبة واحدة أنه حريص كل الحرص على صـونه، وأن جلالتـه يعتبر الدستور شجرة من غرس يديه".

وأضاف قائلاً: "وإذا كان في ظواهر الأحوال ما يدعو إلى التأمل أو يدخل على النفس شيئًا من سوء الظن، فمن الواجب ألا ينطق اللسان مع الهوى، وأخيرا يحسن بنا أن نقول مـع من قال "لعل له عذرا وأنت تلوم"!.

وزاره رحمه ا بعد ائتلاف الأحزاب الأسـتاذ سـليمان أفندي فوزي صاحب جريدة الكشكول، وكان متهيبا من مقابلة الفقيد العظيم، ولاحظ سعد باشا على زائره أنـه مضـطرب قليلاً، فقابله ببشر وحفاوة وأخذ يؤانسه حتى ذهب روعه، ثم قال له: "شوف يا سليمان أفندي.. أنا رجل أقدس النقد وحرية الرأي، أنا لا أطلب من أحد أن ينظر إلـى أعمـالي بغيـر عينيه، أو يحكم عليها بغير عقله أو ينزل ضميره على غيـر ما يرضى. لك أن تقول في إعمالي ما تشاء، وأن تبدي فيها رأيا سواء كان لي أو علي، ولكن الـذي أبغضـه وأمقتـه



ولا أطيقه إنما هو الكذب.. قل للناس إن شئت إن سعدا رجل دجال مشعوذ، فهذا رأي وأنت حر في رأيك، ولكن لا تنشر على الناس أن سعدا ذهب إلى دار المندوب السامي، أو أنه أرسل رسولاً إلى العميد البريطاني ليتحدث إليه في كيت وكيت من الأمور، في حين إنني لم أذهب ولم أوفد رسولاً. هذا هو السلاح الذي أنزهك وأنزه كل صحفي شريف عن الالتجاء إليه".

محاضرة في كلية الأمريكان

عقب عودتي من أوربا، وجهت إلى رئيسات كلية الأمريكان للبنات الدعوة لإلقاء محاضرة عن الحركة النسائية، وكان لدي من المشاغل ما منعني عن تلبية الدعوة لفترة من الوقت، إلى أن أتيحت لي الفرصة في نهاية شهر مارس ١٩٢٨. وهذا هو نص المحاضرة:

سيداتي: "شرفتني السيدات الفضليات رئيسات هذه المدرسة فطلبن مني عند عودتي من أوربا أن ألقي عليهن في هذا المعهد العلمي كلمة في الحركة النسائية، وتركن لي حق اختيار الموضوع فيها، ولكن أشغالي الكثيرة التي تراكمت علي بطول غيابي لم تمكني من القيام بهذا الواجب

في حينهن فأرجو قبول معذرتي.. وأشكر السـيدات اللاتـي منحنني هذا الشرف وتلك الثقة الغالية بـالرغم مـن أنهـن وضعنني في مركز حرج، وهو الوقوف أمام سيدات أمثالكن، نلن من العلوم والمعارف وسعة الإطلاع ما لهن فيـه غنـى عن سماع كلمتي.

وقد توخيت أن يكون حديثي اليوم في موضوع المقارنـة بين المرأة المصرية وأختها الغربية في الحركـة النسـائية، إذ إنني صرفت وقتًا طويلاً في معالجة هذا الموضوع.

سيداتي: بالرغم من العقبات التي تعترض المرأة في سبيل رقيها من فريق المتشائمين بحركتها والمستخفين بكفاءتهـا، تسير المرأة في طريق نهضتها للوصول إلى تحقيق غرضها، إلا وهو إسعاد الأسرة البشرية وذلك منذ أدركت أن سـعادة هذه الأسرة مرتبطة بسعادتها هي، وأن بيدها وحدها مقاليـد الأمور لما لها من السلطان على الرجل في كل أدوار حياته، فهي مربيته طفلاً، وعونه زوجا، وممرضته أيـام مرضـه وشيخوخته وهي مدبرة البيت وقوام نظامه.

أيتها السيدات: بينما الرجل يحترف حرفة واحـدة، تقـوم المرأة الضعيفة (كما يزعمون) بأعمال شتى تندمج فيها كثير

من الوظائف الرئيسة فلها شأن كبير في التربية والتدابير الاقتصادية والصحية والسياسية، فهي تجمع في وظيفتها كل ما له اتصال بالحياة، لأجل هذا وجب عليها أن تتهيأ لهذه الوظائف، ولا يتسنى لها القيام بها إلا إذا نالت قسطًا وفيرا من الحرية والحقوق التي تمكنها من أداء الواجب عليها.

ولما كانت الأنظمة في بلاد الغرب أكثر إجحافًا بحقوق المرأة منها في بلاد الشرق، المرأة الغربية أول من صاح بالمطالبة برفع هذا الغبن عنها، ونالها من العنف والاضطهاد بالسجن والتعذيب ما نالها حتى وصلت في بعض البلاد إلى ما تصبو إليه من المساواة بالرجل وحتى وقفت معه جنبا إلى جنب في جميع الوظائف.

وفي بعض ولايات أمريكا اتسع المجال أمام المرأة حتى صارت تشترك مع الرجل في جميع الحرف الحرة والمراكز العمومية، وذلك بعد أن تقررت لها الحقوق السياسية كالرجل سواء بسواء، ويوجد الآن في تلك البلاد عدد عظيم من النساء أعضاء في المجالس البلدية ومجالس الأقاليم والمجالس النيابية، وفي كثير من المحاكم الابتدائية والاستئنافية عدد غير قليل منهن بين قاضية ونائبة ومحامية، كما يوجد في

القارة الأوروبية كثير من الممالك التي نالت فيها المرأة مثل هذه الحقوق. وقد أظهرت المرأة في وظائف القضاء بجلادها وصبرها وحكمتها وعلمها بنفسية الأحداث مقـدرة قـلّ أن تجاري فيها، فإن الإحصاءات والمشاهدات دلـت علـى أن كثيرا من الأحداث يثوبون إلى الرشد ويصـبحون أعضـاء نافعة صحيحة بفضل تأثير النصائح التي تسدى إلـيهم مـن القضاة النساء.

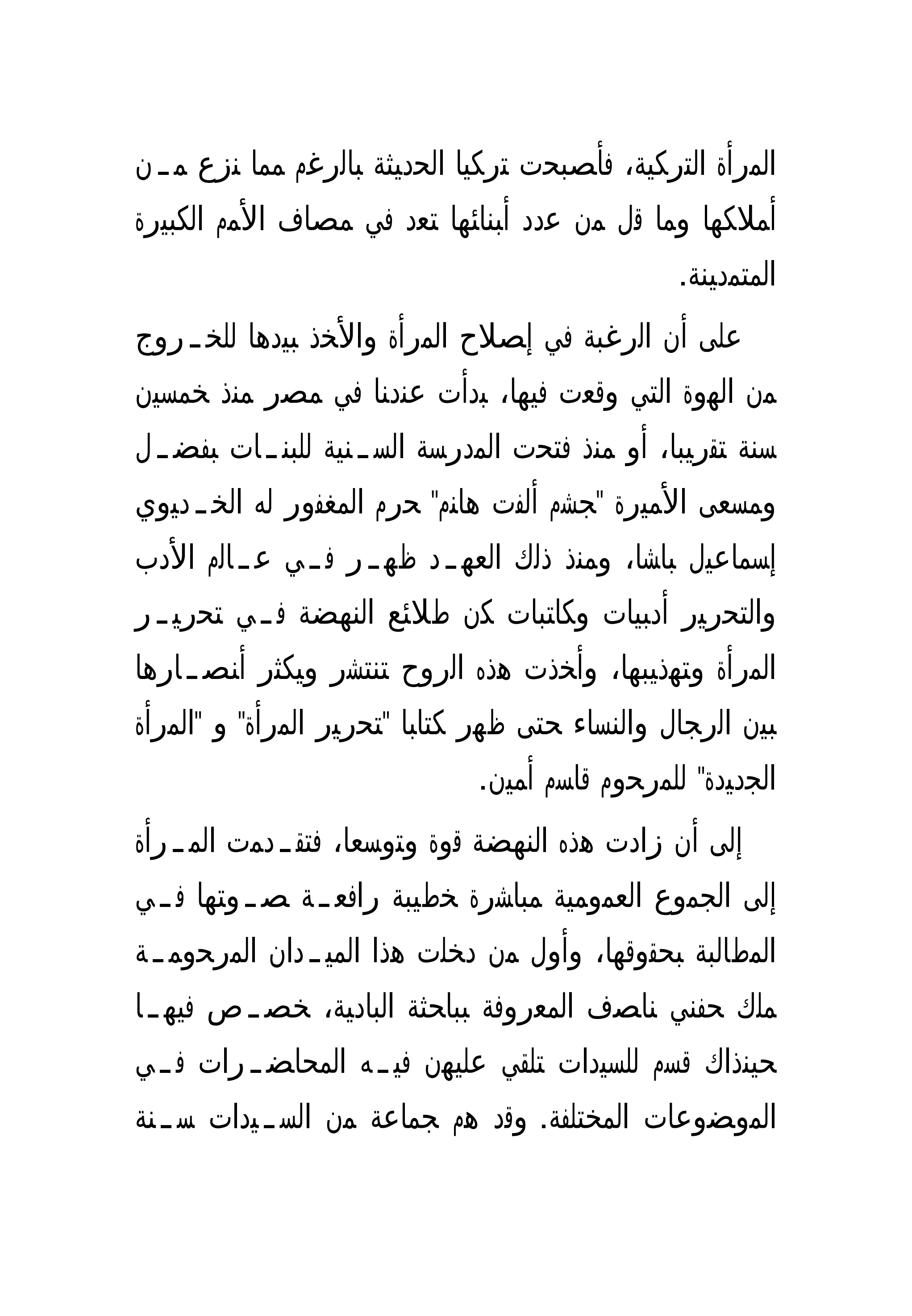
سيداتي: أتظنن أن المرأة الغربية التـي جاهـدت لنيـل حقوقها، انتهت معركتها منذ تربعها على منصة الحكم بجانب الرجل؟ كلا. إنها لم تجاهد طمعا فـي المناصـب الرفيعـة أو حبا في مساواتها بالرجل فقط، بل إنها أرادت مـن وراء ذلك غرضا أسمى ومقصدا نبيلاً هو تهذيب الهيئة البشـرية وتقليل الشرور فيها والسمو بها إلى الكمال، فقامت الآن تنشد السلام في العالم وتستعد لمكافحة أسباب الحرب التي هي آفة الإنسانية، وويلاتها.

ولتحقيق هذا الغرض الجليل، يجـب أن تتضـافر نسـاء العالم، ولا أخال الطبقات المتعلمة من نساء مصر يحجمـن عن مد يد العون وشرف الاشتراك في تحقيق هـذه الغايـة

السامية، وها هو ذا باب الاتحاد النسائي المصـري مفتـوح على مصراعيه لمن تهزه نخوة الإنسانية للاشتراك في هـذه الخدمة المقدسة.

سيداتي: حقًا لقد أعجبت بما كانت تبذله السيدات أعضـاء الاتحاد النسائي الدولي في درس هذه المسائل العظيمة الشأن في المحاضرات التي ألقيت في اجتماع أمستردام، وكم تمنيت لو أن عددا من السيدات المصريات حضرن هذا الاجتمـاع ليشاهدن ما كانت تبذله المؤتمرات من الجهد في دراسة هذه المسألة الكبرى من جميع وجوهها.

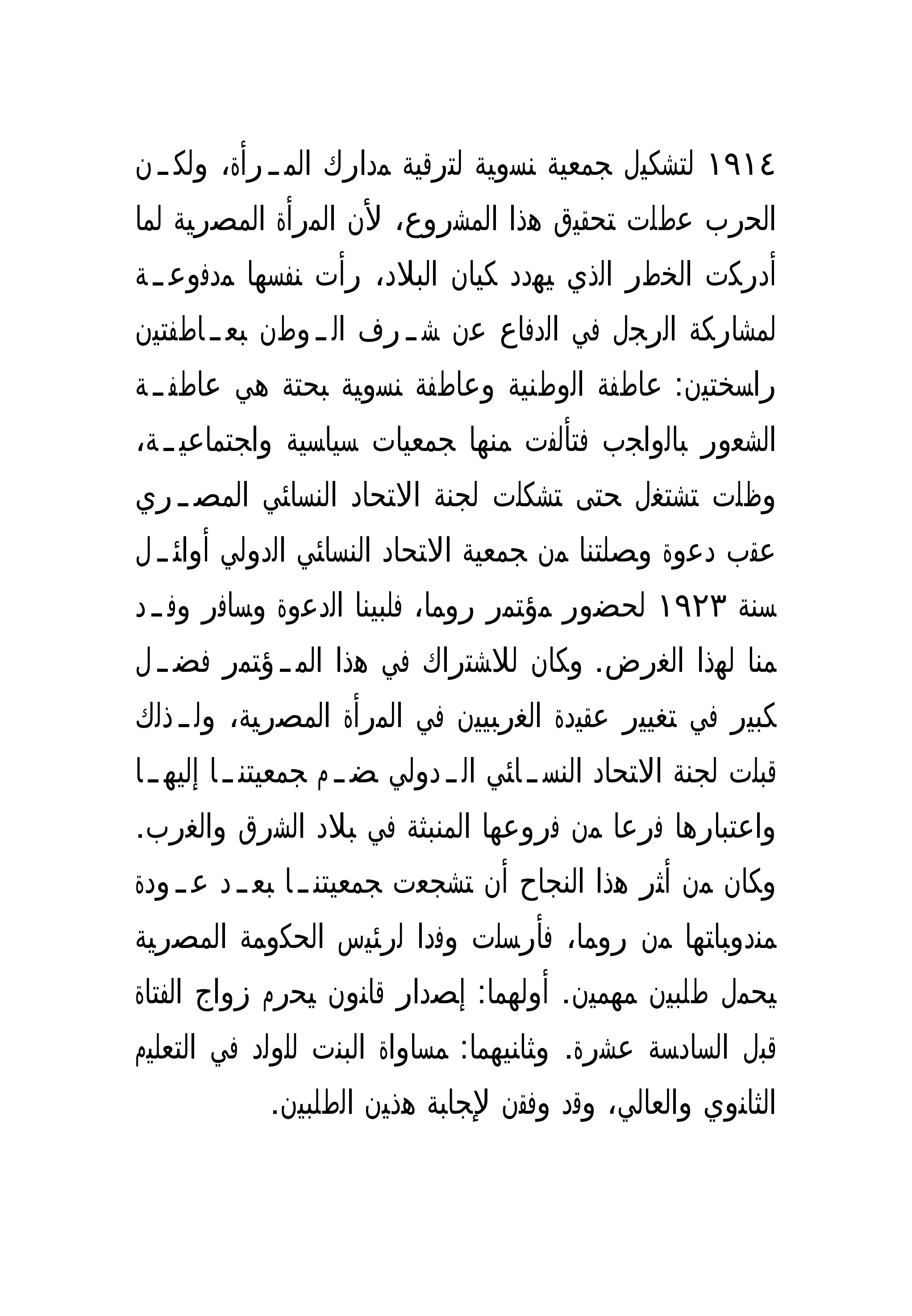
أما المرأة الشرقية التي منحتها الشريعة السمحاء حقوقًـا تكاد تساوي حقوق الرجل بل تفوقها في بعض المواطن، فمن الأسف إنها لم تخط خطوات تذكر. وقد يعترض على قـولي هذا بأن المرأة التركية وثبت وثبة واسعة المـدى فـي مـدة وجيزة، وهذا صحيح، غير إنها لم تصل إلى ما وصلت إليه بمحض مجهوداتها، بل يظهر أن الأمة التي تريد رقيا كاملاً تشعر أن ذلك لا يتم إلا برقي الجنسـين معـا، أدرك ذلـك مصطفى كمال مؤسس تركيا الفتاة؛ فحث المرأة فـي بـلاده على الاشتراك مع الرجل في القيام بالواجب. وبفضله ارتقت



المرأة التركية، فأصبحت تركيا الحديثة بالرغم مما نزع من أملاكها وما قل من عدد أبنائها تعد في مصاف الأمم الكبيرة المتمدينة.

على أن الرغبة في إصلاح المرأة والأخذ بيدها للخروج من الهوة التي وقعت فيها، بدأت عندنا في مصر منذ خمسين سنة تقريبا، أو منذ فتحت المدرسة السنية للبنات بفضل ومسعى الأميرة "جشم ألفت هانم" حرم المغفور له الخديوي إسماعيل باشا، ومنذ ذلك العهد ظهر في عالم الأدب والتحرير أديبات وكاتبات كن طلائع النهضة في تحرير المرأة وتهذيبها، وأخذت هذه الروح تنتشر ويكثر أنصارها بين الرجال والنساء حتى ظهر كتابا "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" للمرحوم قاسم أمين.

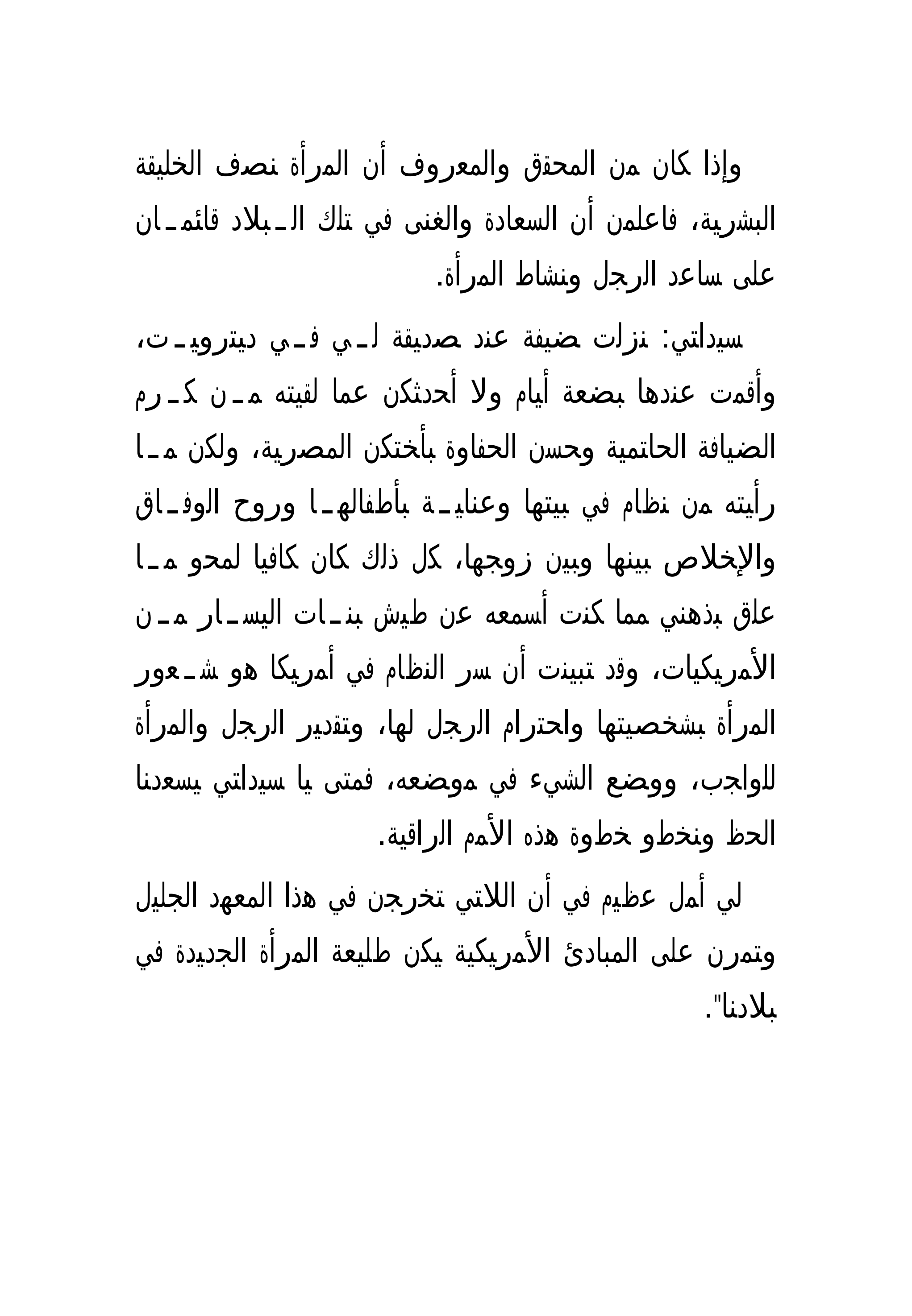
إلى أن زادت هذه النهضة قوة وتوسعا، فتقدمت المرأة إلى الجموع العمومية مباشرة خطيبة رافعة صوتها في المطالبة بحقوقها، وأول من دخلت هذا الميدان المرحومة ملك حفني ناصف المعروفة بباحثة البادية، خصص فيها حينذاك قسم للسيدات تلقي عليهن فيه المحاضرات في الموضوعات المختلفة. وقد هم جماعة من السيدات سنة



١٩١٤ لتشكيل جمعية نسوية لترقية مدارك المرأة، ولكن الحرب عطلت تحقيق هذا المشروع، لأن المرأة المصرية لما أدركت الخطر الذي يهدد كيان البلاد، رأت نفسها مدفوعة لمشاركة الرجل في الدفاع عن شرف الوطن بعاطفتين راسختين: عاطفة الوطنية وعاطفة نسوية بحتة هي عاطفة الشعور بالواجب فتألفت منها جمعيات سياسية واجتماعية، وظلت تشتغل حتى تشكلت لجنة الاتحاد النسائي المصري عقب دعوة وصلتنا من جمعية الاتحاد النسائي الدولي أوائل سنة ١٩٢٣ لحضور مؤتمر روما، فلبينا الدعوة وسافر وفد منا لهذا الغرض. وكان للاشتراك في هذا المؤتمر فضل كبير في تغيير عقيدة الغربيين في المرأة المصرية، ولذلك قبلت لجنة الاتحاد النسائي الدولي ضم جمعيتنا إليها واعتبارها فرعا من فروعها المنبثة في بلاد الشرق والغرب. وكان من أثر هذا النجاح أن تشجعت جمعيتنا بعد عودة مندوباتها من روما، فأرسلت وفدا لرئيس الحكومة المصرية يحمل طلبين مهمين. أولهما: إصدار قانون يحرم زواج الفتاة قبل السادسة عشرة. وثانيهما: مساواة البنت للولد في التعليم الثانوي والعالي، وقد وفقن لإجابة هذين الطلبين.

بعد هذا أخذت جمعية الاتحاد النسائي تتدرج في معالجة المسائل الخاصة بإصلاح المرأة سواء كانت من جهة التشريع أو من جهة التربية العقلية والجسمية بإنشائها مشغل ومستوصف دار الاتحاد أوائل سنة ١٩٢٤، أما من جهة الإصلاح التشريعي فقد قدمت للحكومة مشروعا مطولاً بطلب إصلاح قانون الأحوال الشخصية، وهي تعتقد أن جميع النقط التي طلبت إصلاحها ضرورية لتحسين حال العائلة لا المرأة وحدها، لذلك لنا أمل عظيم في أن الحكومة المصرية التي تمثل إرادة الشعب وتسهر على راحته وسعادته ستحقق هذا المشروع الحيوي المفيد.

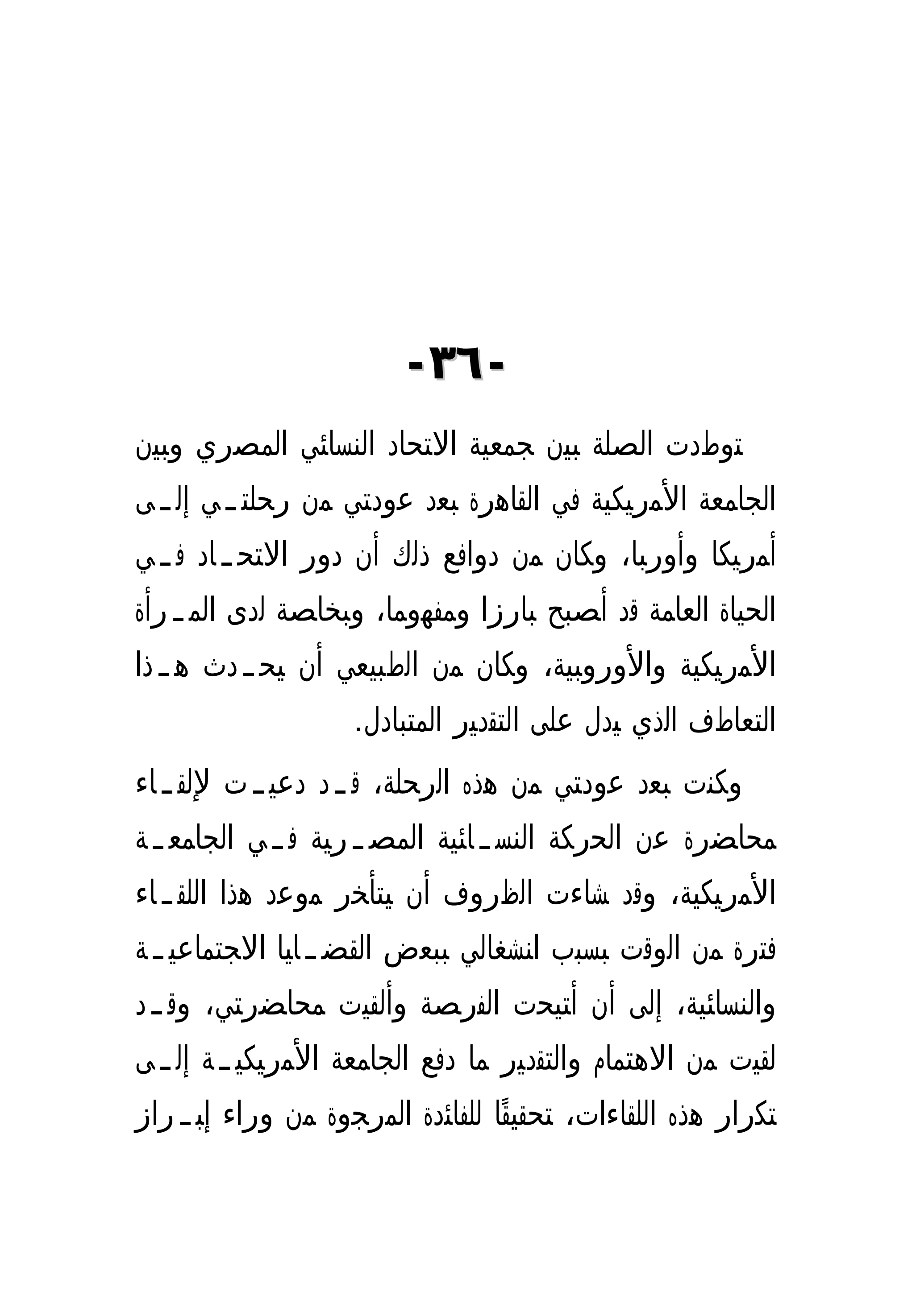
سيداتي: طالما كنت فخورة بما أحرزته المرأة المصرية منا لتقدم في هذه المدة القصيرة، ولكني كلما اتصلت بالمرأة الغربية وعلى الأخص الأمريكية ضعف ما كنت أشعر به من الارتياح لحركتنا لأني إذا قست خطواتنا بخطوات المرأة هناك، مع مراعاة أقدميتها في الحركة النسوية أو الاجتماعية أجد ما تتقدم إليه الغربية في عام قد لا نصل إلى مثله في جيل.



وإذا كان من المحقق والمعروف أن المرأة نصف الخليقة البشرية، فاعلمن أن السعادة والغنى في تلك البلاد قائمان على ساعد الرجل ونشاط المرأة.

سيداتي: نزلت ضيفة عند صديقة لي في ديترويت، وأقمت عندها بضعة أيام ولا أحدثكن عما لقيته من كرم الضيافة الحاتمية وحسن الحفاوة بأختكن المصرية، ولكن ما رأيته من نظام في بيتها وعناية بأطفالها وروح الوفاق والإخلاص بينها وبين زوجها، كل ذلك كان كافيا لمحو ما علق بذهني مما كنت أسمعه عن طيش بنات اليسار من الأمريكيات، وقد تبينت أن سر النظام في أمريكا هو شعور المرأة بشخصيتها واحترام الرجل لها، وتقدير الرجل والمرأة للواجب، ووضع الشيء في موضعه، فمتى يا سيداتي يسعدنا الحظ ونخطو خطوة هذه الأمم الراقية.

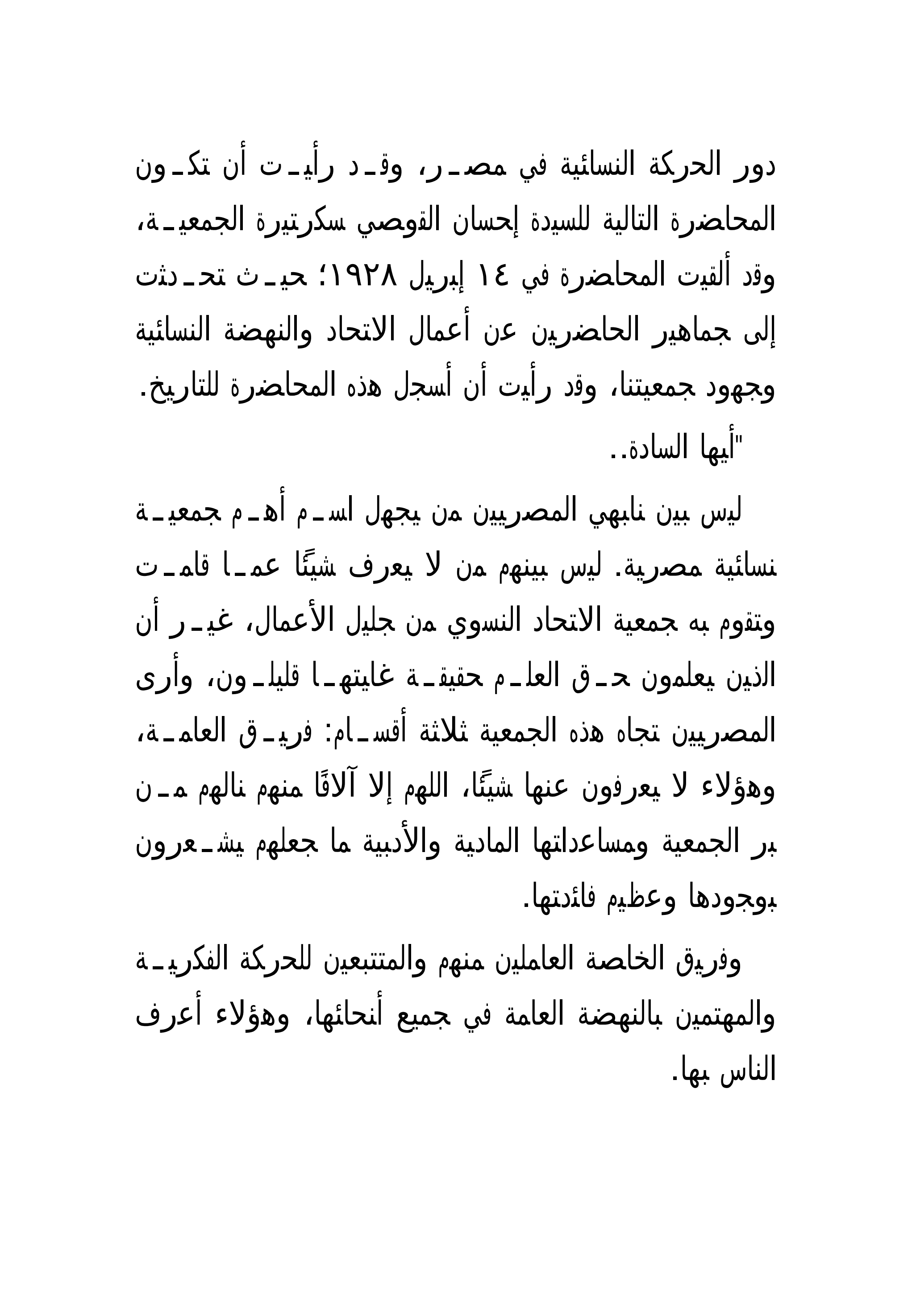
لي أمل عظيم في أن اللاتي تخرجن في هذا المعهد الجليل وتمرن على المبادئ الأمريكية يكن طليعة المرأة الجديدة في بلادنا".



-٣٦-

توطدت الصلة بين جمعية الاتحاد النسائي المصري وبين الجامعة الأمريكية في القاهرة بعد عودتي من رحلتي إلى أمريكا وأوربا، وكان من دوافع ذلك أن دور الاتحاد في الحياة العامة قد أصبح بارزا ومفهوما، وبخاصة لدى المرأة الأمريكية والأوروبية، وكان من الطبيعي أن يحدث هذا التعاطف الذي يدل على التقدير المتبادل.

وكنت بعد عودتي من هذه الرحلة، قد دعيت لإلقاء محاضرة عن الحركة النسائية المصرية في الجامعة الأمريكية، وقد شاءت الظروف أن يتأخر موعد هذا اللقاء فترة من الوقت بسبب انشغالي ببعض القضايا الاجتماعية والنسائية، إلى أن أتيحت الفرصة وألقيت محاضرتي، وقد لقيت من الاهتمام والتقدير ما دفع الجامعة الأمريكية إلى تكرار هذه اللقاءات، تحقيقًا للفائدة المرجوة من وراء إبراز

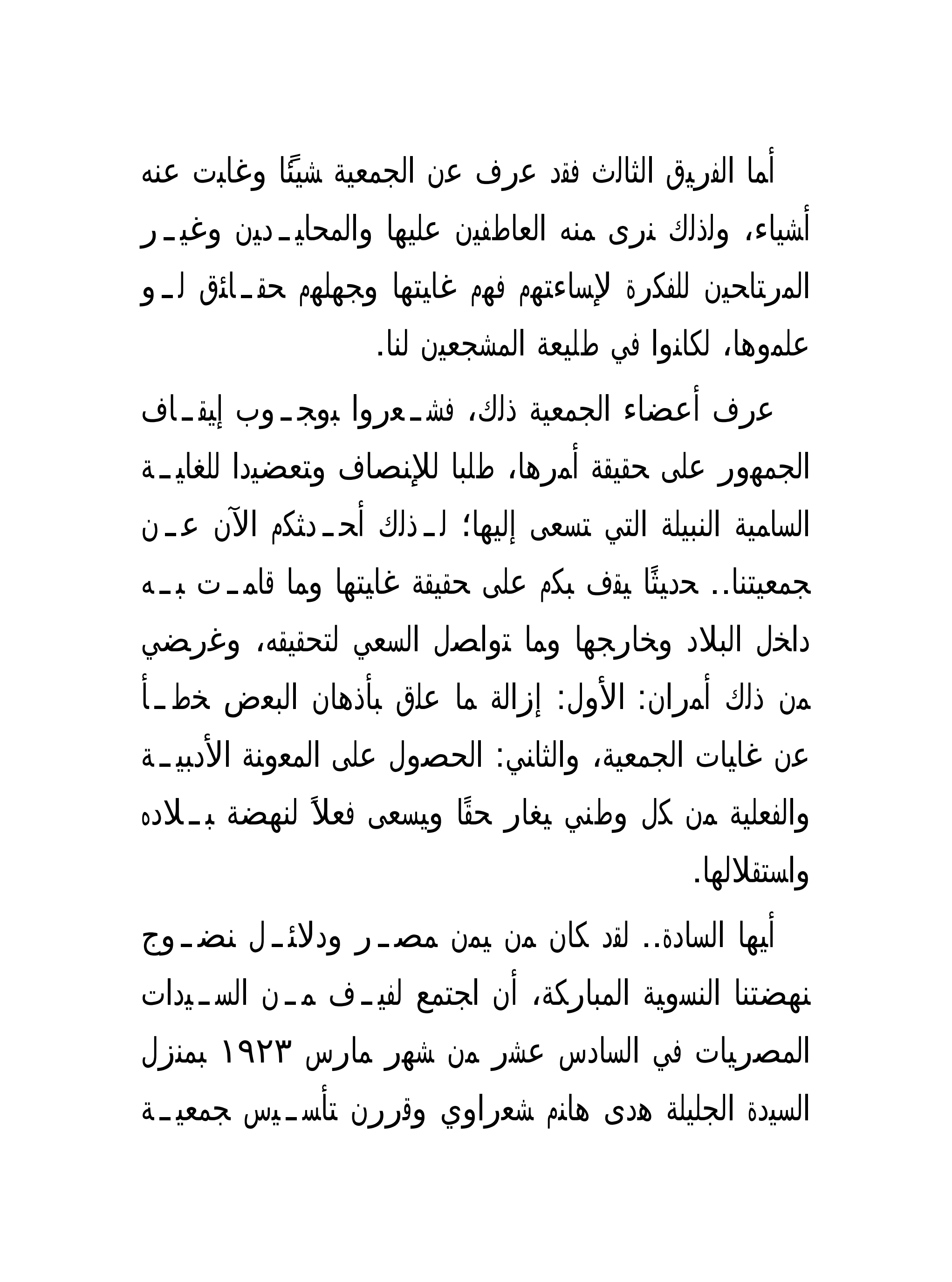


دور الحركة النسائية في مصر، وقد رأيت أن تكون المحاضرة التالية للسيدة إحسان القوصي سكرتيرة الجمعية، وقد ألقيت المحاضرة في ١٤ إبريل ١٩٢٨؛ حيث تحدثت إلى جماهير الحاضرين عن أعمال الاتحاد والنهضة النسائية وجهود جمعيتنا، وقد رأيت أن أسجل هذه المحاضرة للتاريخ.

"أيها السادة..

ليس بين نابهي المصريين من يجهل اسم أهم جمعية نسائية مصرية. ليس بينهم من لا يعرف شيئًا عما قامت وتقوم به جمعية الاتحاد النسوي من جليل الأعمال، غير أن الذين يعلمون حق العلم حقيقة غايتها قليلون، وأرى المصريين تجاه هذه الجمعية ثلاثة أقسام: فريق العامة، وهؤلاء لا يعرفون عنها شيئًا، اللهم إلا آلافًا منهم نالهم من بر الجمعية ومساعداتها المادية والأدبية ما جعلهم يشعرون بوجودها وعظيم فائدتها.

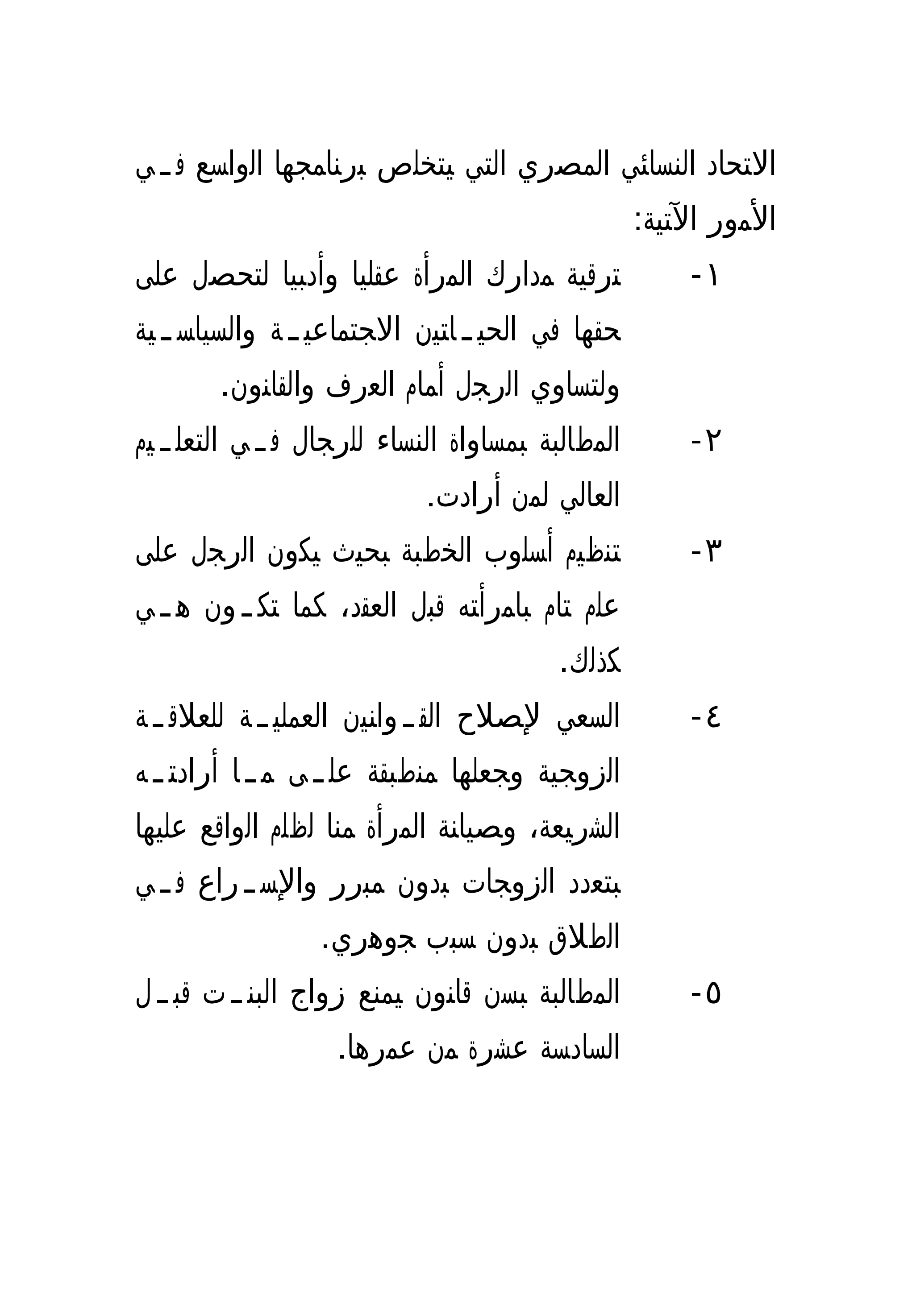
وفريق الخاصة العاملين منهم والمتتبعين للحركة الفكرية والمهتمين بالنهضة العامة في جميع أنحائها، وهؤلاء أعرف الناس بها.



أما الفريق الثالث فقد عرف عن الجمعية شيئًا وغابت عنه أشياء، ولذلك نرى منه العاطفين عليها والمحايدين وغير المرتاحين للفكرة لإساءتهم فهم غايتها وجهلهم حقائق لو علموها، لكانوا في طليعة المشجعين لنا.

عرف أعضاء الجمعية ذلك، فشعروا بوجوب إيقاف الجمهور على حقيقة أمرها، طلبا للإنصاف وتعضيدا للغاية السامية النبيلة التي تسعى إليها؛ لذلك أحدثكم الآن عن جمعيتنا.. حديثًا يقف بكم على حقيقة غايتها وما قامت به داخل البلاد وخارجها وما تواصل السعي لتحقيقه، وغرضي من ذلك أمران: الأول: إزالة ما علق بأذهان البعض خطأ عن غايات الجمعية، والثاني: الحصول على المعونة الأدبية والفعلية من كل وطني يغار حقًا ويسعى فعلاً لنهضة بلاده واستقلالها.

أيها السادة.. لقد كان من يمن مصر ودلائل نضوج نهضتنا النسوية المباركة، أن اجتمع لفيف من السيدات المصريات في السادس عشر من شهر مارس ١٩٢٣ بمنزل السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي وقررن تأسيس جمعية



الاتحاد النسائي المصري التي يتخاص برنامجها الواسع في الأمور الآتية:

١- ترقية مدارك المرأة عقليا وأدبيا لتحصل على حقها في الحياتين الاجتماعية والسياسية ولتساوي الرجل أمام العرف والقانون.

٢- المطالبة بمساواة النساء للرجال في التعليم العالي لمن أرادت.

٣- تنظيم أسلوب الخطبة بحيث يكون الرجل على علم تام بامرأته قبل العقد، كما تكون هي كذلك.

٤- السعي لإصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية وجعلها منطبقة على ما أرادته الشريعة، وصيانة المرأة منا لظلم الواقع عليها بتعدد الزوجات بدون مبرر والإسراع في الطلاق بدون سبب جوهري.

٥- المطالبة بسن قانون يمنع زواج البنت قبل السادسة عشرة من عمرها.

٦- السعي بمختلف الوسائل لتحسين حالة الشعب الصحية.

٧- السعي لنشر الفضيلة ومحاربة الرذيلة.

٨- محاربة البدع والخرافات التي تتعارض مع العلم الصحيح.

٩- نشر الدعوة بكل الوسائل المشروعة.

وهنا أيها السادة يجدر بي أن أقول كلمة موجزة عن كل مادة من المواد السابقة وما استطعنا الوصول إلى تحقيقه.. تطلب الجمعية في المادة الأولى حق الانتخاب والمساواة مع الرجل اجتماعيا وسياسيا وأمام العرف والقانون، وما أظن منصفًا حتى ولو كان من غلاة الرجعيين ينكر أن المرأة تدفع الضرائب كالرجل سواء بسواء، وأنها مسئولة مثله أمام الشريعة والقانون، وأن الوطن وطنها كما هو وطن الرجل ويهمها من أمره ما يهمه.. فبأي حق يمنعها الرجل من الاهتمام بشئونه ومشاركته في العمل لخيره؟ وبأي حق وهي تدفع من ثروتها ما ينفق على مختلف المرافق العامة تبعد عن الاشتراك في تقرير وجوه صرفه؟ وبأي حق تخضع لتشريع وتتحمل آثاره وليس لها صوت في وضعه؟

هذه الأسباب أيها السادة مضافًا إليها شعور المرأة بشخصيتها وكرامتها، هي التي حدت بنا للاحتجاج على الحكومة سنة ١٩٢٢ لإغفالنا عند وضع الدستور وعدم إعطائنا حق الانتخاب، ذلك الحق الذي يتمتع به الأمي الجاهل ويملكه الخالي من الملك ولا تملكه المرأة ولو كانت متعلمة وتدفع الضرائب.

أما المادة الثانية فتطالب بمساواة النساء للرجال في التعليم العالي لمن أرادت، وهو طلب عادل يقضي به المنطق للأسباب الآتية:

أولاً: نعرف أنه كلما زاد تعليم المرأة أحسنت القيام بالواجب عليها زوجة وأما بيدها صوغ رجال المستقبل.

ثانيا: تسهيلاً لمن تبغي من ورائه الكسب الشريف.

ثالثًا: مساعدة لمن تمتاز بمواهبها على ظهور نبوغها والانتفاع به.

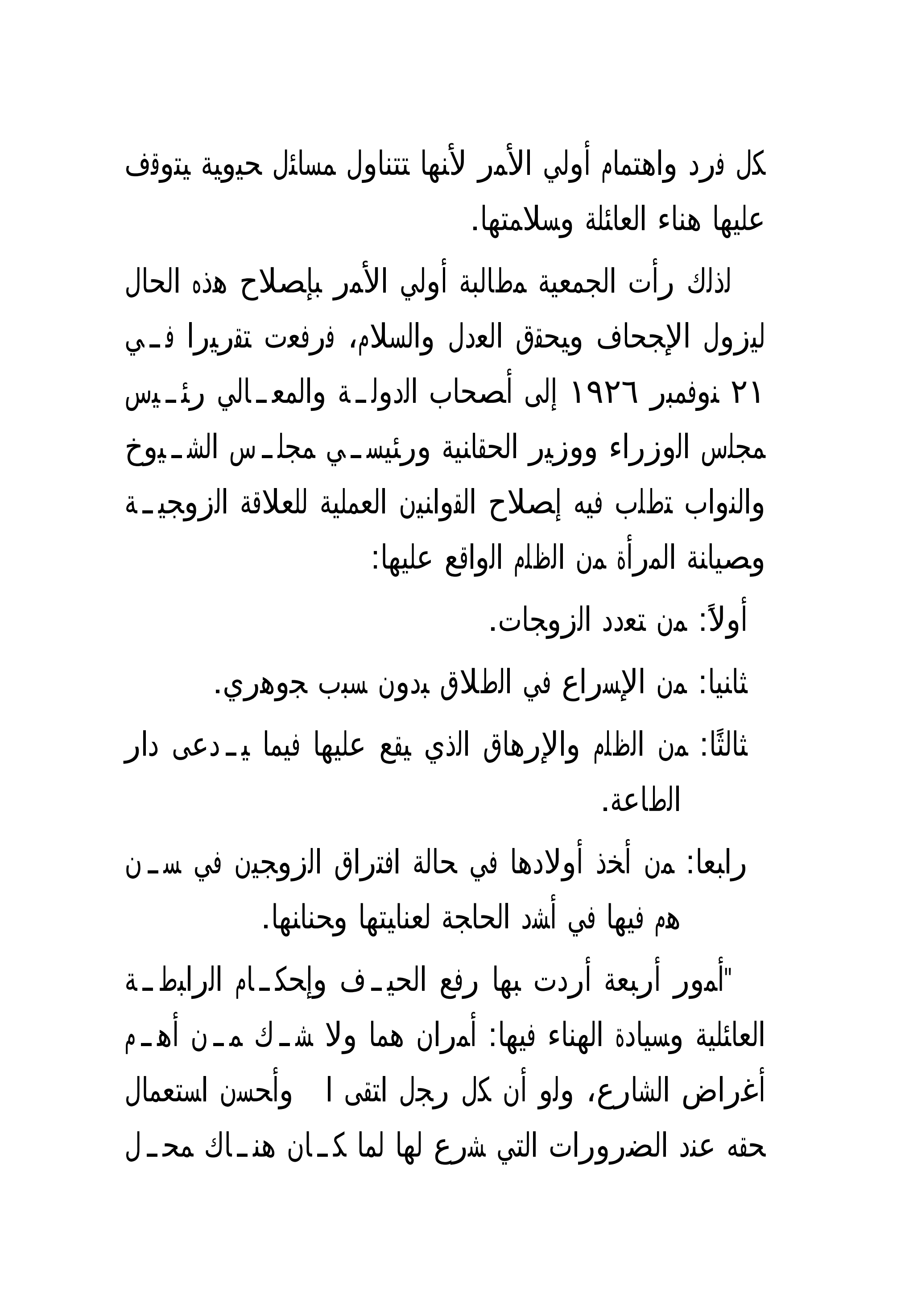
رابعا: رفعا لمستوى العقلية العامة في البلاد.

خامسا: لأن التفاهم أساس السعادة العائلية ولا يكون على أتمه بين زوج متعلم وامرأة لـم تنـل التعلـيم إلا يسيرا.

حقائق لم تغب عن ولاة الأمور، وبذلك أجاب سعادة زكي باشا أبو السعود وزير المعارف في ذلك الوقت بأنه سيدرس الموضوع ووعد بتحقيقه قريبـا، ويسـرنا أن قـد تحققـت المساواة في التعليم في أوائل سنة ١٩٢٤.

أما المادة الثالثة فتقول بتنظيم أسـلوب الخطبـة؛ بحيـث يكون الزوجان بعضهما على علم ببعض قبل العقـد ابتغـاء للسعادة العائلية وتجنبا لما عساه أن يحدث من عدم الوفـاق لاختلاف الأذواق والمشارب بين الأفراد، والجمعية في ذلـك غرضها تحقيق ما تقول به الشـريعة وتتطلـب المصـلحة، ولا تريد بذلك التوسع في مقدمات الزواج كما هو في الـبلاد الغربية.

أما المادة الرابعة التي تنص على السعي لإصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية وجعلها منطبقة علـى مـا أرادتـه الشريعة وصيانة المرأة من الواقع عليها بتعـدد الزوجـات بدون مبرر والطلاق بدون سبب جوهري، فتحتاج إلى عناية



كل فرد واهتمام أولي الأمر لأنها تتناول مسائل حيوية يتوقف عليها هناء العائلة وسلامتها.

لذلك رأت الجمعية مطالبة أولي الأمر بإصلاح هذه الحال ليزول الإجحاف ويحقق العدل والسلام، فرفعت تقريرا في ٢١ نوفمبر ١٩٢٦ إلى أصحاب الدولة والمعالي رئيس مجلس الوزراء ووزير الحقانية ورئيسي مجلس الشيوخ والنواب تطلب فيه إصلاح القوانين العملية للعلاقة الزوجية وصيانة المرأة من الظلم الواقع عليها:

أولاً: من تعدد الزوجات.

ثانيا: من الإسراع في الطلاق بدون سبب جوهري.

ثالثًا: من الظلم والإرهاق الذي يقع عليها فيما يدعى دار الطاعة.

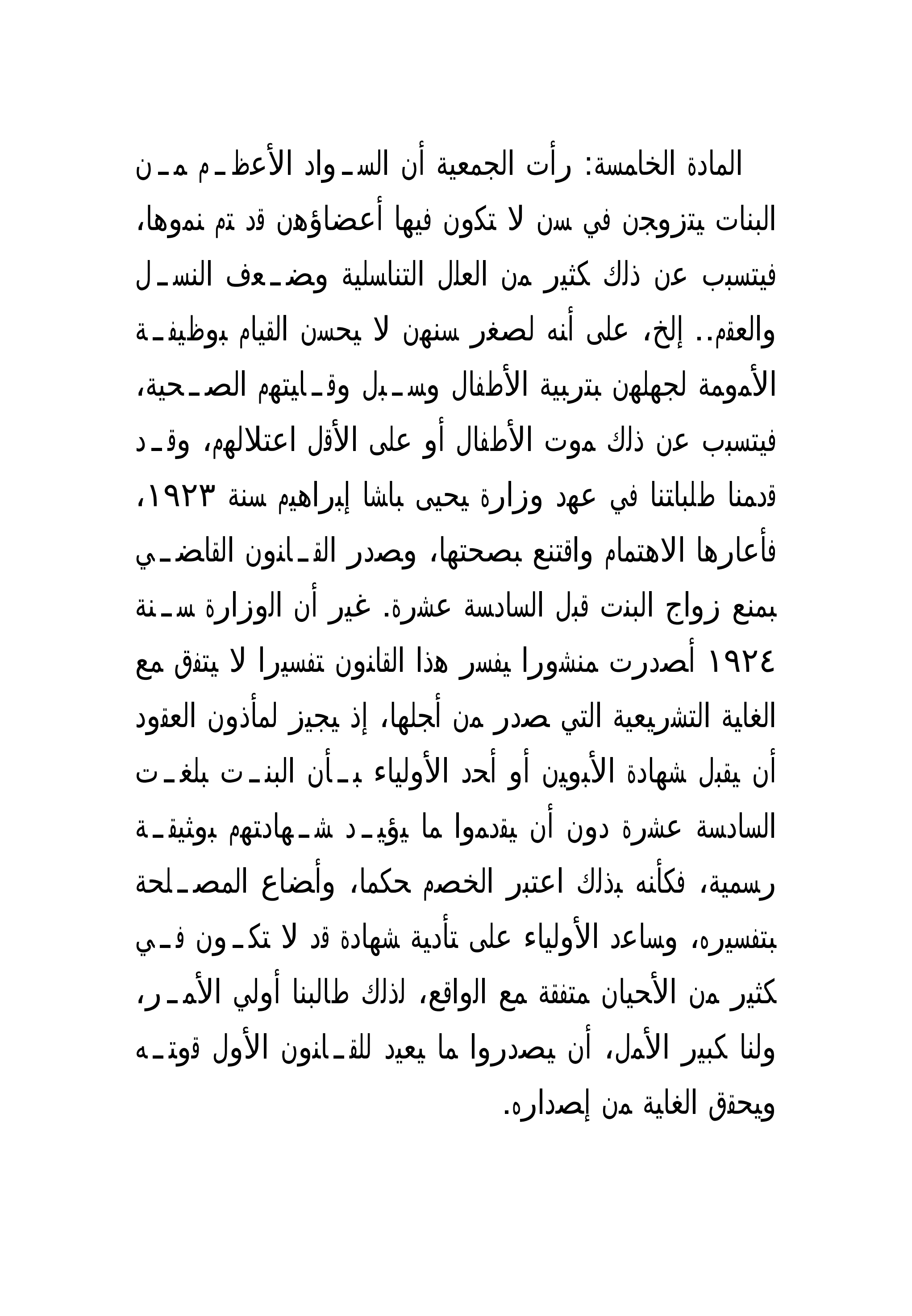
رابعا: من أخذ أولادها في حالة افتراق الزوجين في سن هم فيها في أشد الحاجة لعنايتها وحنانها.

"أمور أربعة أردت بها رفع الحيف وإحكام الرابطة العائلية وسيادة الهناء فيها: أمران هما ولا شك من أهم أغراض الشارع، ولو أن كل رجل اتقى ا وأحسن استعمال حقه عند الضرورات التي شرع لها لما كان هناك محل

لشكوانا، لكن كم من نساء يطلقن لأوهى الأسباب، وكم من نساء يتزوج أزواجهن لغير ما سبب إلا أنانية الرجل وهواه".

"أما مسألة إكراه الزوجة على الذهاب إلى ما يدعى دار الطاعة، فمسألة من الأهمية بمكان لأنها أصبحت سلاحا يستعمله الرجل حينما تخرج زوجته من داره لسوء معاملته أو تعذر العيش معه بهناء وراحة. تخرج فيتركها لأي وقت شاءت وقد يجد سعادة في هذا الفراق، فإن حدثتها نفسها بطلب الإنفاق عليها، وقد يكون الباعث لها على ذلك رغبتها في الطلاق منه، فإنك تراه يطلب من القاضي الشرعي الحكم عليها بالدخول في طاعته، لا رغبة في معاشرتها وإنما يريد إكراهها على إعطائه مبلغًا من المال نظير الطلاق إن كانت موسرة، أو إبراء ذمته من النفقة ومؤخر الصداق إن كانت معسرة".

"بقيت المسألة الرابعة، ألا وهي رعاية الطفل وتقرير من له حق الولاية عليه عند اختلاف الأبوين أو موت أحدهما، وهي تستدعي النظر في إصلاحها لأننا نرى أن الجاري عليه العمل في القضاء الشرعي ليس وافيا دائما بوضع الطفل تحت مراقبة صحية ويد باردة تعني بتربيته.



المادة الخامسة: رأت الجمعية أن السواد الأعظم من البنات يتزوجن في سن لا تكون فيها أعضاؤهن قد تم نموها، فيتسبب عن ذلك كثير من العلل التناسلية وضعف النسل والعقم.. إلخ، على أنه لصغر سنهن لا يحسن القيام بوظيفة الأمومة لجهلهن بتربية الأطفال وسبل وقايتهم الصحية، فيتسبب عن ذلك موت الأطفال أو على الأقل اعتلالهم، وقد قدمنا طلباتنا في عهد وزارة يحيى باشا إبراهيم سنة ١٩٢٣، فأعارها الاهتمام واقتنع بصحتها، وصدر القانون القاضي بمنع زواج البنت قبل السادسة عشرة. غير أن الوزارة سنة ١٩٢٤ أصدرت منشورا يفسر هذا القانون تفسيرا لا يتفق مع الغاية التشريعية التي صدر من أجلها، إذ يجيز لمأذون العقود أن يقبل شهادة الأبوين أو أحد الأولياء بأن البنت بلغت السادسة عشرة دون أن يقدموا ما يؤيد شهادتهم بوثيقة رسمية، فكأنه بذلك اعتبر الخصم حكما، وأضاع المصلحة بتفسيره، وساعد الأولياء على تأدية شهادة قد لا تكون في كثير من الأحيان متفقة مع الواقع، لذلك طالبنا أولي الأمر، ولنا كبير الأمل، أن يصدروا ما يعيد للقانون الأول قوته ويحقق الغاية من إصداره.

المادة السادسة: السعي بمختلف الوسائل لتحسـين حالـة الشعب الصحية، فقد عملت له الجمعيـة أولاً بـأن ضـمنت مطالبها التي قدمتها لنواب الأمة وصـحافتها سـنة ١٩٢٤ متحدة مع لجنة الوفد المركزية للسيدات الأمور الآتية:

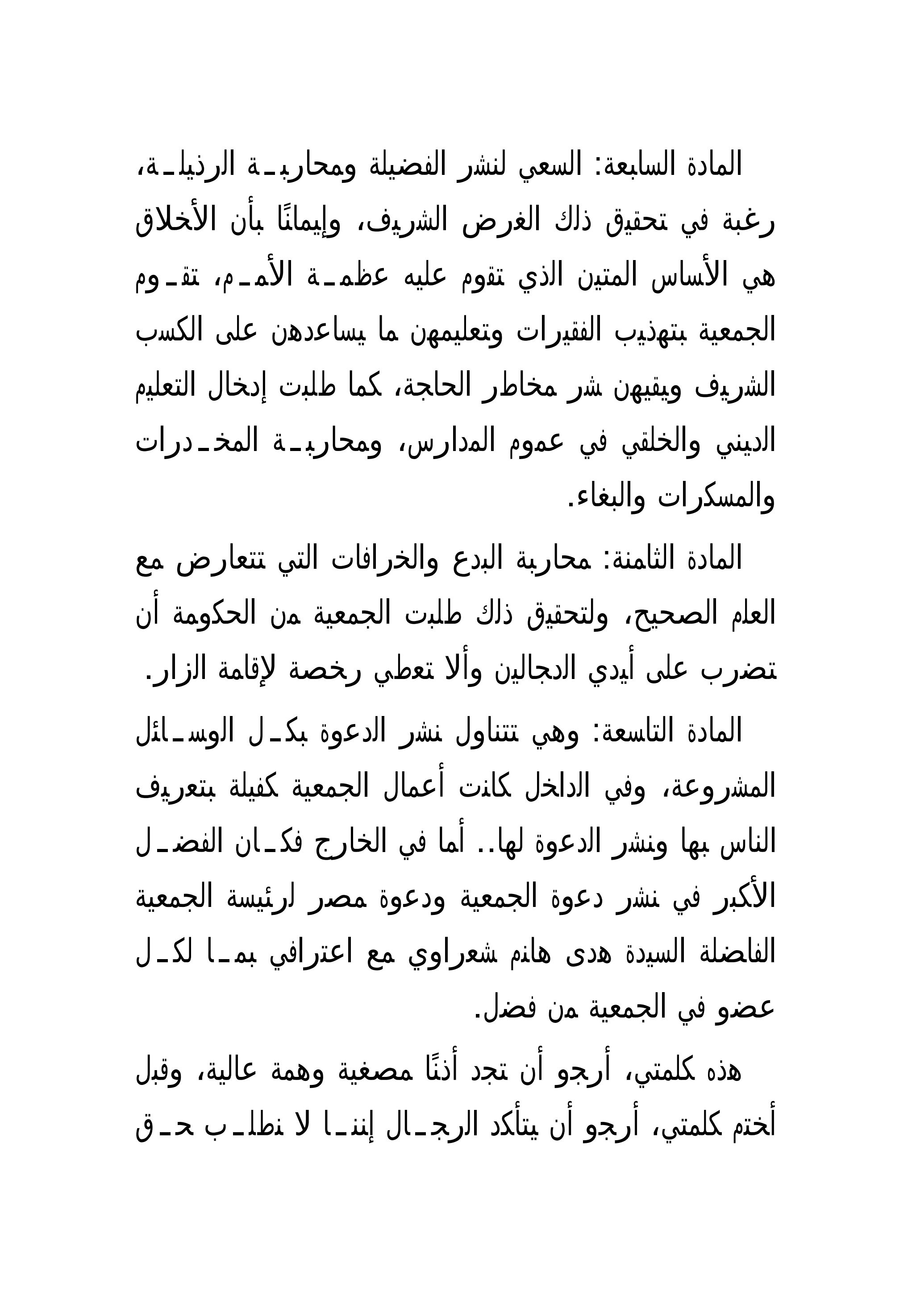
أولاً: إدخال القواعد الأولية من علم الصحة في برنـامج التعليم.

ثانيا: إصدار القـوانين اللازمـة لمحاربـة المخـدرات والمسكرات صيانة للأخلاق وحفظًا للنسل.

ثالثًا: العمل على تعميم المستشفيات في جميـع مراكـز القطر لا سيما مستشفيات الأمراض المعدية والسرية وأمراض البلهارسيا والانكلستوما.

رابعا: إنشاء مصحات لأطفال الفقراء يقصدها الضـعفاء والناقهون لاسترداد قواهم.

خامسا: إنشاء بساتين داخل المدن مع إيجـاد ملاحظـات لمراقبة أطفال الفقيـرات اللاتـي يـذهبن للتكسـب ويتركن أطفالهن يلعبون في هذه الحـدائق الصـحية النظيفة.



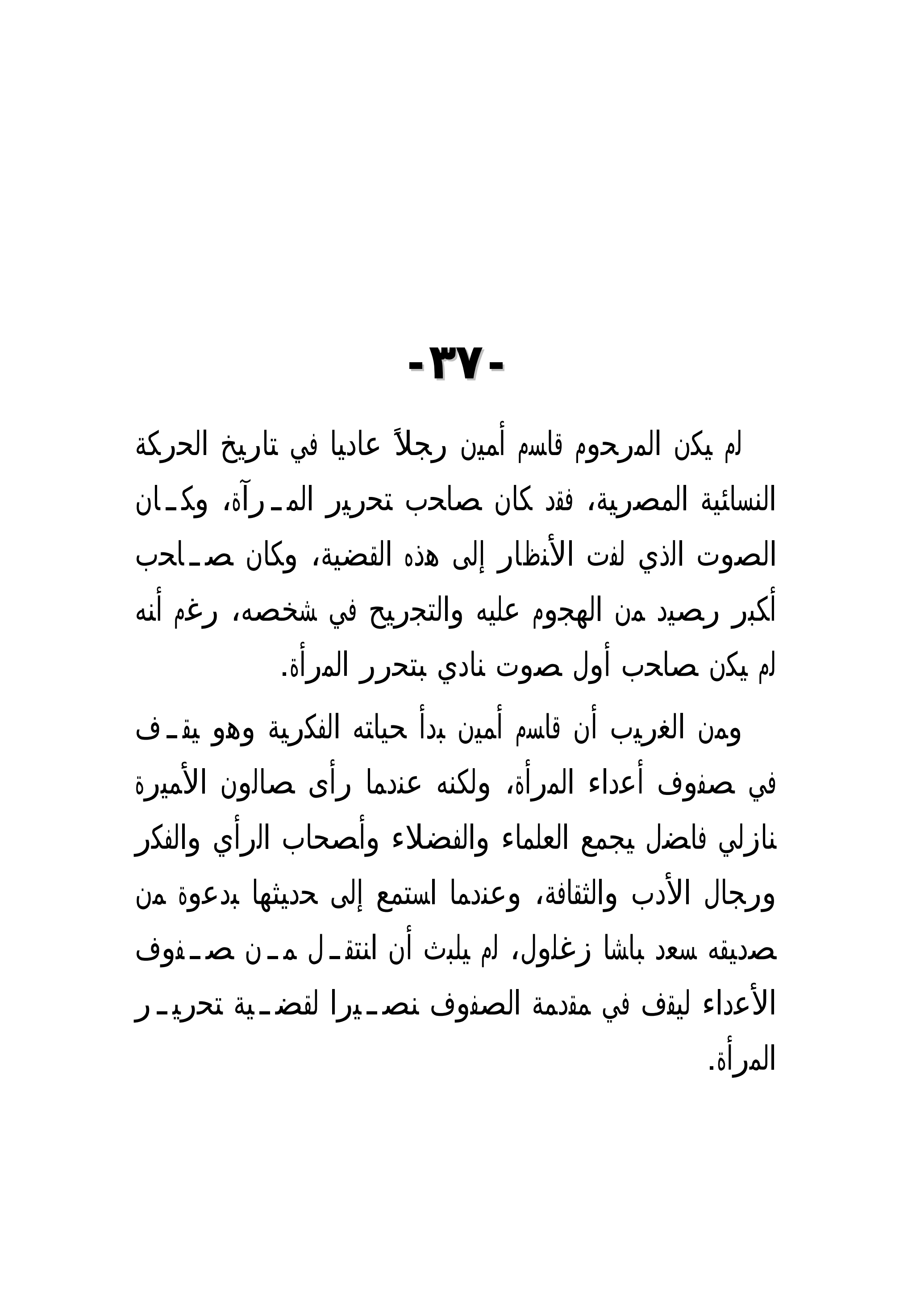
المادة السابعة: السعي لنشر الفضيلة ومحاربـة الرذيلـة، رغبة في تحقيق ذلك الغرض الشريف، وإيمانًا بأن الأخلاق هي الأساس المتين الذي تقوم عليه عظمـة الأمـم، تقـوم الجمعية بتهذيب الفقيرات وتعليمهن ما يساعدهن على الكسب الشريف ويقيهن شر مخاطر الحاجة، كما طلبت إدخال التعليم الديني والخلقي في عموم المدارس، ومحاربـة المخـدرات والمسكرات والبغاء.

المادة الثامنة: محاربة البدع والخرافات التي تتعارض مع العلم الصحيح، ولتحقيق ذلك طلبت الجمعية من الحكومة أن تضرب على أيدي الدجالين وألا تعطي رخصة لإقامة الزار.

المادة التاسعة: وهي تتناول نشر الدعوة بكـل الوسـائل المشروعة، وفي الداخل كانت أعمال الجمعية كفيلة بتعريف الناس بها ونشر الدعوة لها.. أما في الخارج فكـان الفضـل الأكبر في نشر دعوة الجمعية ودعوة مصر لرئيسة الجمعية الفاضلة السيدة هدى هانم شعراوي مع اعترافي بمـا لكـل عضو في الجمعية من فضل.

هذه كلمتي، أرجو أن تجد أذنًا مصغية وهمة عالية، وقبل أختم كلمتي، أرجو أن يتأكد الرجـال إننـا لا نطالـب حـق

المساواة لنزاحمهم وننافسهم، وإنما نطلبه لنتعاون وإياهم على ما فيه خيرنا جميعا وخير مسـتقبل بلادنـا، فمـا الـوطن إلا عائلة كبرى في حاجة لتعاون كل فـرد فيهـا. ولا يـتم التعاون الحقيقي إلا إذا ساد حسن التفاهم المؤسس على الحق والعدل".



-٣٧-

لم يكن المرحوم قاسم أمين رجلاً عاديا في تاريخ الحركة النسائية المصرية، فقد كان صاحب تحرير المرآة، وكان الصوت الذي لفت الأنظار إلى هذه القضية، وكان صاحب أكبر رصيد من الهجوم عليه والتجريح في شخصه، رغم أنه لم يكن صاحب أول صوت نادي بتحرر المرأة.

ومن الغريب أن قاسم أمين بدأ حياته الفكرية وهو يقف في صفوف أعداء المرأة، ولكنه عندما رأى صالون الأميرة نازلي فاضل يجمع العلماء والفضلاء وأصحاب الرأي والفكر ورجال الأدب والثقافة، وعندما استمع إلى حديثها بدعوة من صديقه سعد باشا زغلول، لم يلبث أن انتقل من صفوف الأعداء ليقف في مقدمة الصفوف نصيرا لقضية تحرير المرأة.

وفي مايو ١٩٢٨ انتهزنا فرصة مرور عشرين عاما على رحيل المصلح الاجتماعي قاسم أمين لنقيم احتفـالاً لتكـريم ذكراه، وقد أقيم هذا الاحتفال في دار مسرح حديقة الأزبكية، وضم عديدا من الشخصيات العامة والقيادات النسائية.. وكان مهرجانًا لرد اعتبار الرجل العظيم الذي قضى نحبه حزينًـا محسورا بعد أن تكاثرت عليه سهام الأعداء من كل جانـب، وبعد أن وصل التجريح إلى بيته وأسرته.

وقد كتبت جريدة السياسة في عددها الصادر في ٦ مـايو ١٩٢٨ عن هذا الاحتفال بإفاضة، وكان من بين ما قالته عن هذه المناسبة: "إن الوفاء وعرفان الجميل من أخلاق المـرأة، فالاتحاد النسائي بدعوته إلى الاحتفال بتكريم ذكـرى قاسـم أمين زاد شأن المرأة رفعة، وأرضى روح ذلـك المصـلح العظيم، وبرهن على أن المرأة خليقة بالمقام الرفيـع الـذي تسعى إلى تبوئه بمساعدة أفضل المصلحين من الرجال".

وأضافت الصحيفة قائلة: "وحسبنا أن ندل على مقام الحفلة بذكر الذين حضـروا وفـي مقـدمتهم صـاحبة العصـمة أم المصريين وأصحاب المعالي واصف غالي باشـا وعلـي الشمسي باشا ومحمد صفوت باشا وأحمد طلعت باشا ومحمد

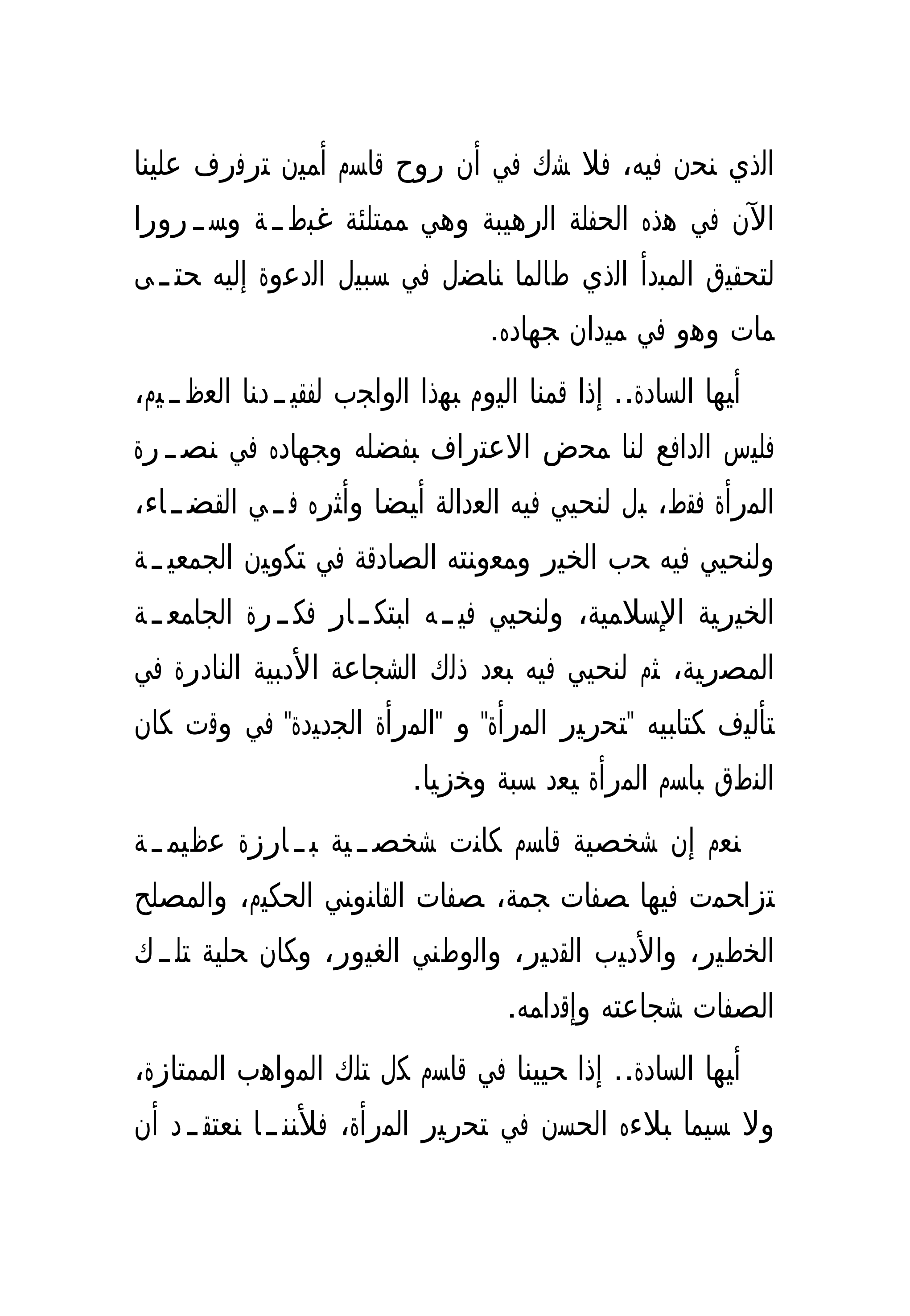
علي باشا وتوفيق دوس باشا وأحمد شفيق باشا ولطفي السيد بك وعلي عمر بك والدكتور طه حسين والدكتور مصـطفى فهمي والأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق وإسماعيل شيرين بك وعدد كبير من السيدات والأوانس".

وقد ألقيت بهذه المناسبة كلمة قلت فيها:

"سادتي وسيداتي..

اسمحوا لي أن أبدأ كلمتي بآخر كلمة نطق بها المرحـوم قاسم بك أمين في حفلة نادي المدارس العليـا وهـو يحيـي الطلبة الرومانيين ليلة وفاته، إذ قال: (كم أكون سـعيدا فـي اليوم الذي أرى فيه سيداتنا يزين مجالسنا كما تزين طاقـات الزهور قاعات الجلوس)، هذه هي آخر جملـة نطـق بهـا المرحوم قاسم قبل أن يلبي دعوة ربه ببرهة وجيزة، وهـي كما ترون تتضمن أمنية غالية لم يمهله الموت حتى يشهدها.

ولما كان من أجلّ مظاهر البر بالموتى والوفاء لهم، القيام بما كان يجلب سرورهم لو أنهم على قيد الحياة، رأت جمعية الاتحاد النسائي أن أقل ما عليها نحو روح الفقيد العظيم إنما هو تحقيق تلك الأمنية بالاشتراك في هذه الحفلـة اشـتراكًا عمليا، فإذا كانت الأرواح في عالمها الأعلى متصلة بعالمنـا



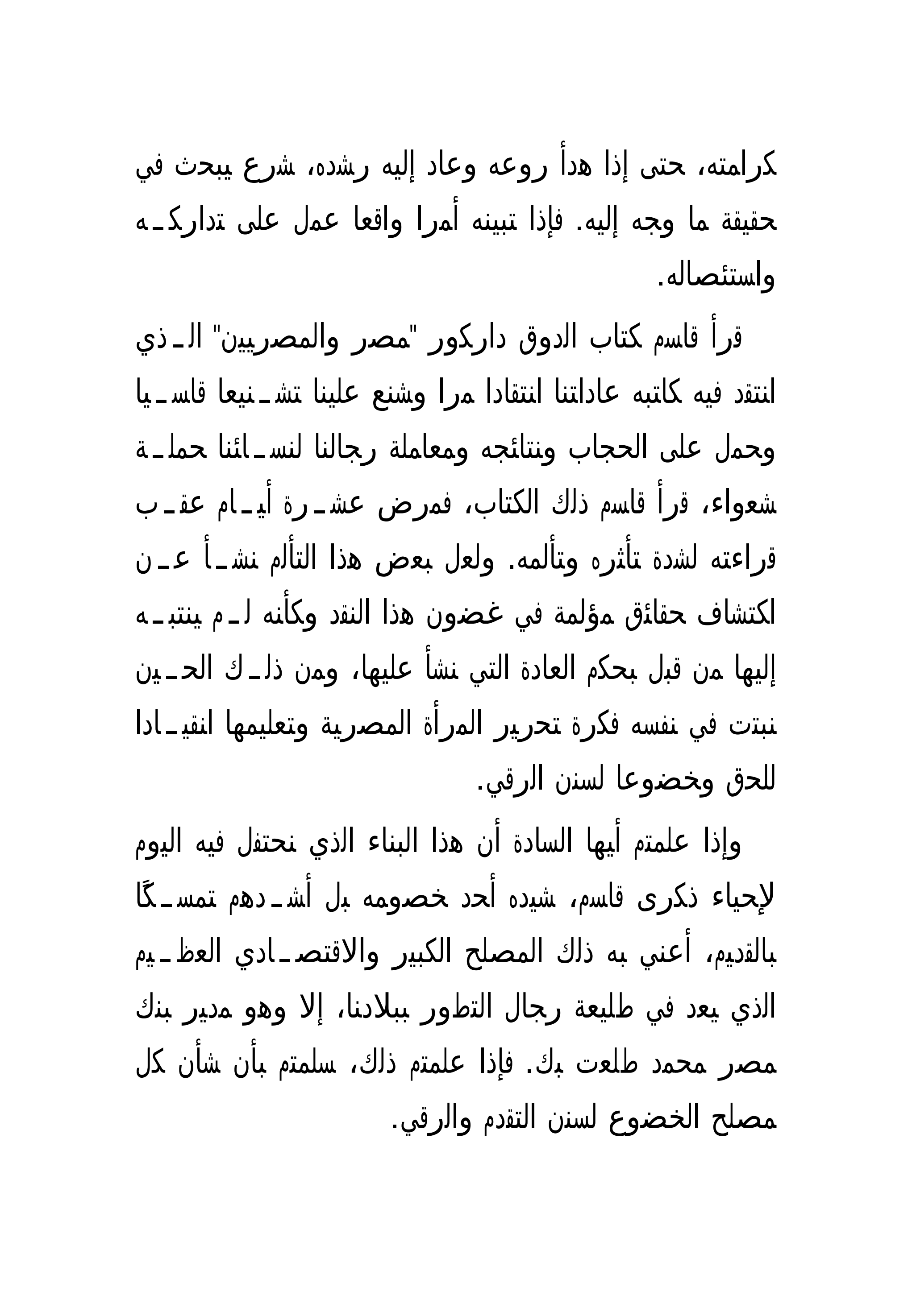
الذي نحن فيه، فلا شك في أن روح قاسم أمين ترفرف علينا الآن في هذه الحفلة الرهيبة وهي ممتلئة غبطة وسرورا لتحقيق المبدأ الذي طالما ناضل في سبيل الدعوة إليه حتى مات وهو في ميدان جهاده.

أيها السادة.. إذا قمنا اليوم بهذا الواجب لفقيدنا العظيم، فليس الدافع لنا محض الاعتراف بفضله وجهاده في نصرة المرأة فقط، بل لنحيي فيه العدالة أيضا وأثره في القضاء، ولنحيي فيه حب الخير ومعونته الصادقة في تكوين الجمعية الخيرية الإسلامية، ولنحيي فيه ابتكار فكرة الجامعة المصرية، ثم لنحيي فيه بعد ذلك الشجاعة الأدبية النادرة في تأليف كتابيه "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" في وقت كان النطق باسم المرأة يعد سبة وخزيا.

نعم إن شخصية قاسم كانت شخصية بارزة عظيمة تزاحمت فيها صفات جمة، صفات القانوني الحكيم، والمصلح الخطير، والأديب القدير، والوطني الغيور، وكان حلية تلك الصفات شجاعته وإقدامه.

أيها السادة.. إذا حيينا في قاسم كل تلك المواهب الممتازة، ولا سيما بلاءه الحسن في تحرير المرأة، فلأننا نعتقد أن

شعوره بواجب تحريرها وقيامه بالدفاع عنها والـدعوة إلـى تعليمها، لم يدفعه إليه مجرد احترامـه للعـدل والإنصـاف فحسب بل وخالص حبه لمصر وتفانيه في رفع شـأنها بـين الأمم الحية، وهذه الغاية هي غايتنا نفسها التي ننشدها نحـن معشر السيدات من وراء نهضتنا النسائية، ولو أمهله الموت وقدره قومه وأنصفه خصومه حينما شرع يطالـب بتحريـر المرأة ليتمم سلسلة إصلاحه، لخطت مصر خطوات واسـعة من عشرين سنة مضت. ولكن القدر أبى علينـا أن نتمتـع بمواهبه السامية، فحاربه خصومه وخذله قومـه وعاجلتـه المنية فكان موته خطبا فادحا، وقد كان من أمضى الأسـلحة التي استعملها خصوم قاسم ضد مبدئه ما توهموه من تناقض بين رده على الدوق داركور وبين كتابيـه تحريـر المـرأة والمرأة الجديدة، إذ أنه في كتابه الأول يدافع عـن عـادات بلاده ويحبذ تقاليدها، وفي كتابه الثاني يطالب بتحرير المرأة وفك قيودها. ولم يفهموا أنه في الحالة الأولى كان مـدفوعا بعوامل الإصلاح والإخلاص لبلاده بعد تفكير عميق وبحـث دقيق فيما يقتضيه النهوض، وكان مثله في رده مثل الرجـل الأبي إذ مس شرفه بكلمة جارحة، دفعه إباؤه للـزود عـن



كرامته، حتى إذا هدأ روعه وعاد إليه رشده، شرع يبحث في حقيقة ما وجه إليه. فإذا تبينه أمرا واقعا عمل على تداركه واستئصاله.

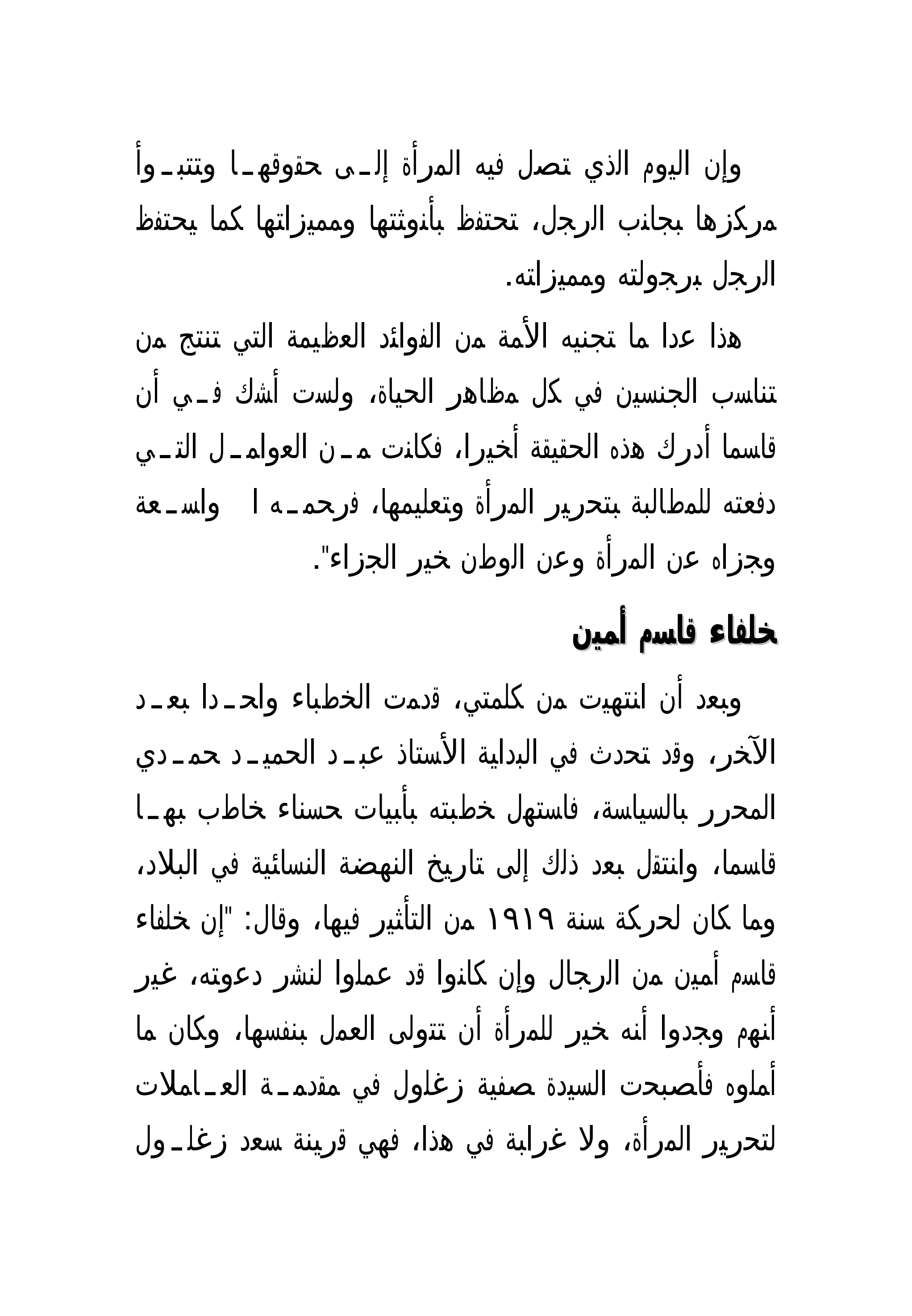
قرأ قاسم كتاب الدوق داركور "مصر والمصريين" الذي انتقد فيه كاتبه عاداتنا انتقادا مرا وشنع علينا تشنيعا قاسيا وحمل على الحجاب ونتائجه ومعاملة رجالنا لنسائنا حملة شعواء، قرأ قاسم ذلك الكتاب، فمرض عشرة أيام عقب قراءته لشدة تأثره وتألمه. ولعل بعض هذا التألم نشأ عن اكتشاف حقائق مؤلمة في غضون هذا النقد وكأنه لم ينتبه إليها من قبل بحكم العادة التي نشأ عليها، ومن ذلك الحين نبتت في نفسه فكرة تحرير المرأة المصرية وتعليمها انقيادا للحق وخضوعا لسنن الرقي.

وإذا علمتم أيها السادة أن هذا البناء الذي نحتفل فيه اليوم لإحياء ذكرى قاسم، شيده أحد خصومه بل أشدهم تمسكًا بالقديم، أعني به ذلك المصلح الكبير والاقتصادي العظيم الذي يعد في طليعة رجال التطور ببلادنا، إلا وهو مدير بنك مصر محمد طلعت بك. فإذا علمتم ذلك، سلمتم بأن شأن كل مصلح الخضوع لسنن التقدم والرقي.

أيها السادة.. إذا تسنى لبني مصـر أن يقيمـوا التماثيـل لأولي الفضل من عظمائهم، وجب عليهم أن يذكروا أن قاسما في طليعة المصلحين المخلصين.

"أيها السادة.. يظن البعض أن تعليم المـرأة وإعطاءهـا حريتها يذهب بشيء من مميزاتها الطبيعيـة ويـدخل فـي طباعها شيئًا من الخشونة والرجولة، وقد وقع قاسم في خطأ ذلك الظن عند رده على الدوق داركور، إذ قال فـي دفاعـه عن موضوع المرأة وهو يقارن بـين الشـرقية والغربيـة المتعلمة: (إن منظر الأم البارة يملـك عـواطفي.. ومنظـر المرأة وهي قائمة بشئون بيتها يسرني، ولكني حينما أشـاهد امرأة تبادرني وكتابها في يدها وتهز يدي بعنـف صـارخ: كيف الحال يا صديقي؟ أشعر نحوها بشـيء لا يبعـد عـن النفور).

وقد تعلمون أيها السادة أن الإنسان ميال بفطرته لتشـبهه بمن هو أرفع منه قدرا، فإذا حاولـت المـرأة المهضـومة الحقوق أن تتشبه بالرجل، فلأنها تراه أرفـع منهـا وأعـز سلطانًا في الهيئة الاجتماعية لتمتعه بكل حقوقه.

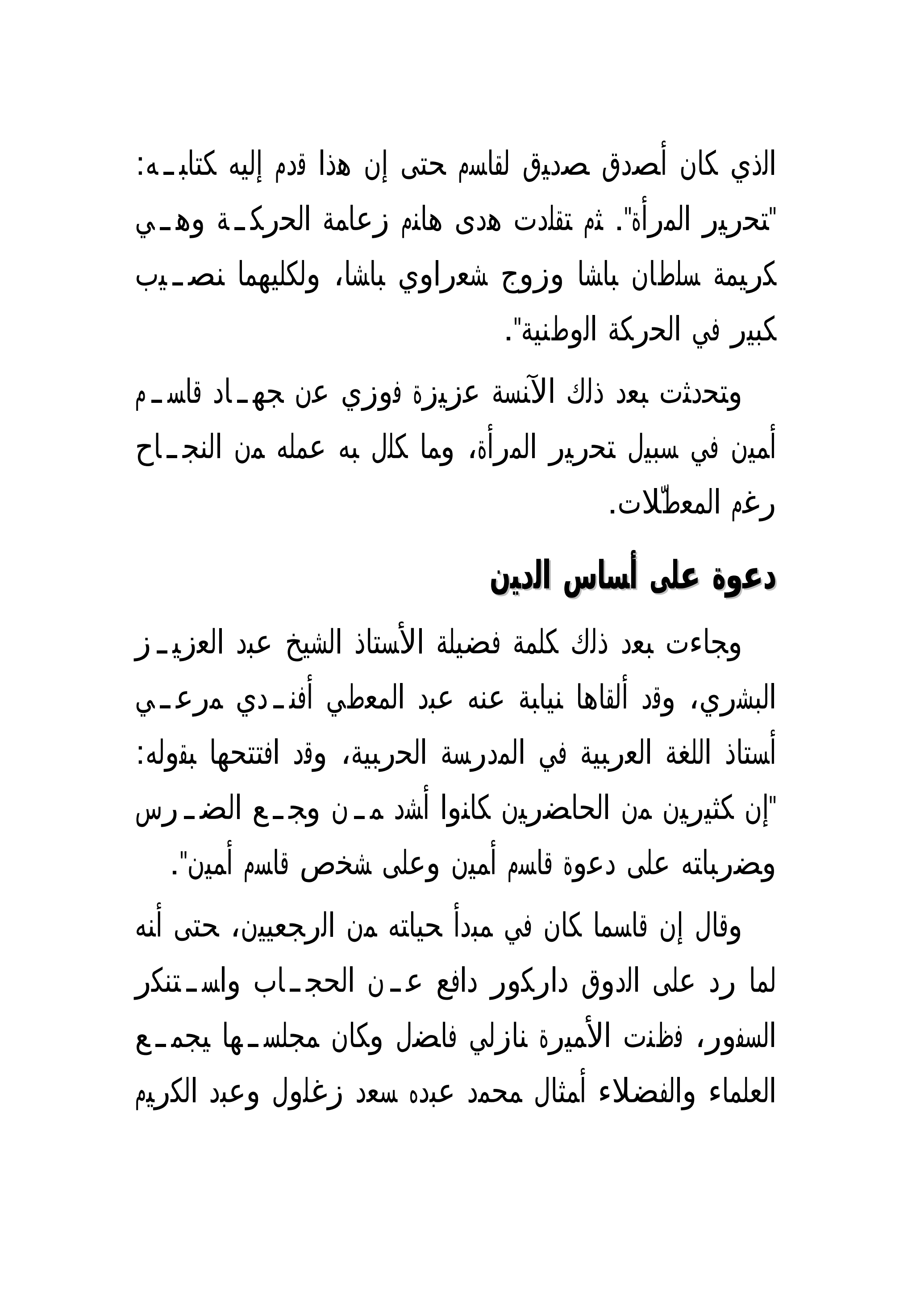


وإن اليوم الذي تصل فيه المرأة إلى حقوقها وتتبوأ مركزها بجانب الرجل، تحتفظ بأنوثتها ومميزاتها كما يحتفظ الرجل برجولته ومميزاته.

هذا عدا ما تجنيه الأمة من الفوائد العظيمة التي تنتج من تناسب الجنسين في كل مظاهر الحياة، ولست أشك في أن قاسما أدرك هذه الحقيقة أخيرا، فكانت من العوامل التي دفعته للمطالبة بتحرير المرأة وتعليمها، فرحمه ا واسعة وجزاه عن المرأة وعن الوطن خير الجزاء".

خلفاء قاسم أمين

وبعد أن انتهيت من كلمتي، قدمت الخطباء واحدا بعد الآخر، وقد تحدث في البداية الأستاذ عبد الحميد حمدي المحرر بالسياسة، فاستهل خطبته بأبيات حسناء خاطب بها قاسما، وانتقل بعد ذلك إلى تاريخ النهضة النسائية في البلاد، وما كان لحركة سنة ١٩١٩ من التأثير فيها، وقال: "إن خلفاء قاسم أمين من الرجال وإن كانوا قد عملوا لنشر دعوته، غير أنهم وجدوا أنه خير للمرأة أن تتولى العمل بنفسها، وكان ما أملوه فأصبحت السيدة صفية زغلول في مقدمة العاملات لتحرير المرأة، ولا غرابة في هذا، فهي قرينة سعد زغلول



الذي كان أصدق صديق لقاسم حتى إن هذا قدم إليه كتابه: "تحرير المرأة". ثم تقلدت هدى هانم زعامة الحركة وهي كريمة سلطان باشا وزوج شعراوي باشا، ولكليهما نصيب كبير في الحركة الوطنية".

وتحدثت بعد ذلك الآنسة عزيزة فوزي عن جهاد قاسم أمين في سبيل تحرير المرأة، وما كلل به عمله من النجاح رغم المعطّلات.

دعوة على أساس الدين

وجاءت بعد ذلك كلمة فضيلة الأستاذ الشيخ عبد العزيز البشري، وقد ألقاها نيابة عنه عبد المعطي أفندي مرعي أستاذ اللغة العربية في المدرسة الحربية، وقد افتتحها بقوله: "إن كثيرين من الحاضرين كانوا أشد من وجع الضرس وضرباته على دعوة قاسم أمين وعلى شخص قاسم أمين".

وقال إن قاسما كان في مبدأ حياته من الرجعيين، حتى أنه لما رد على الدوق داركور دافع عن الحجاب واستنكر السفور، فظنت الأميرة نازلي فاضل وكان مجلسها يجمع العلماء والفضلاء أمثال محمد عبده سعد زغلول وعبد الكريم

سلمان وفارس نمر ويعقوب صروف والمويلحي وابنه، أنـه يقصدها، فغضبت لذلك، ولكن سعدا قدم صديقه إليها.

ولما رأى شدة عقلها ورجاحة حلمها ووثاقة فضلها، انقلب عن رأيه وأخذ يطالب بتحرير المرأة.

وأضاف بأن قاسما لم يكن ملحدا في مطالبتـه بتحريـر المرأة بل بنى دعوته على قواعد الدين، كما أنـه لـم يـرد تحرير المرأة من الرجل، بل أراد تحرير الرجل من المـرأة الجاهلة".

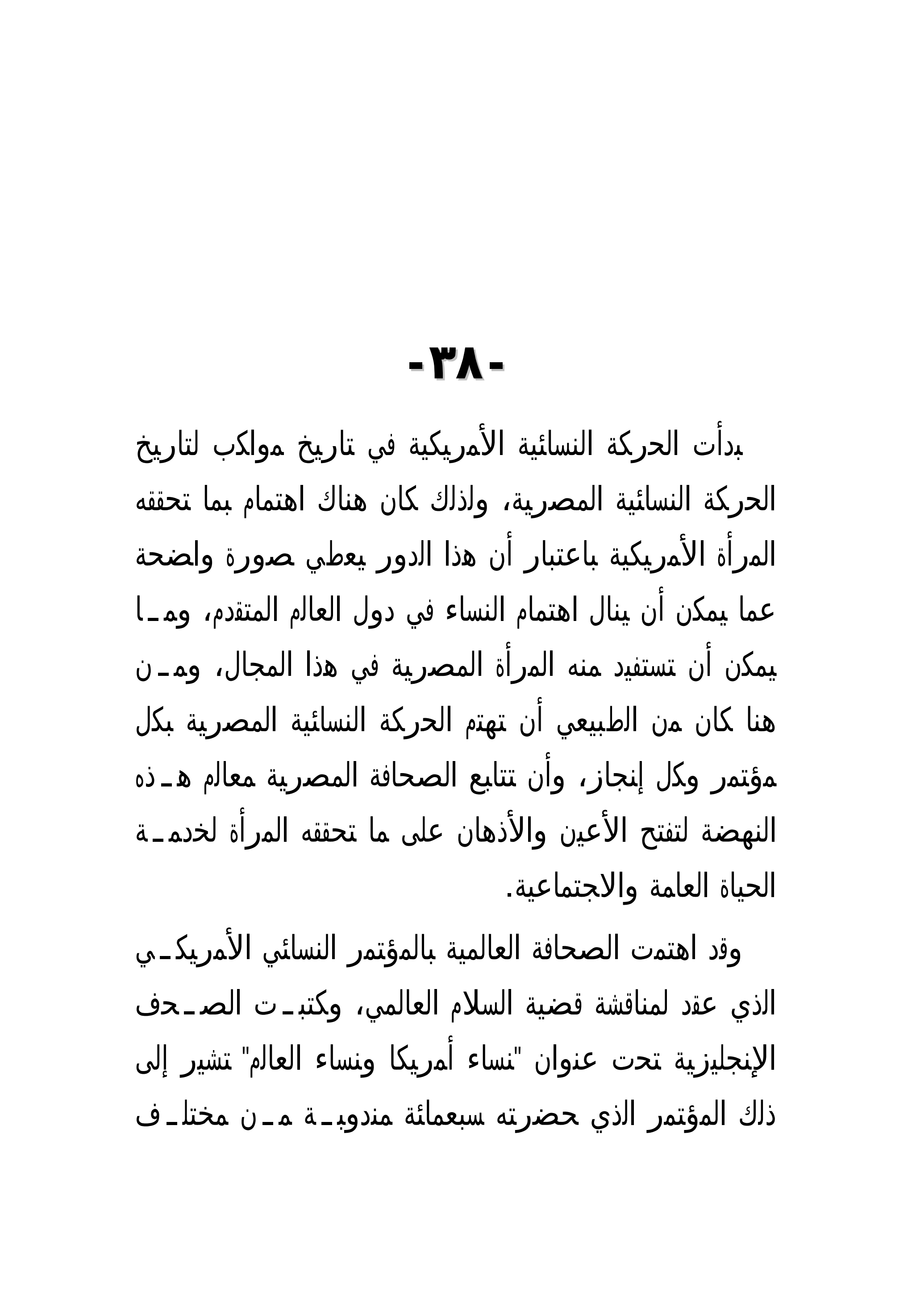
***

وبعد ذلك تحدثت الآنسة درية أحمد شـفيق مـن فتيـات الإسكندرية، وألقت خطبة فرنسية قابلها السامعون بالتصفيق.

وكان أمير الشعراء أحمد شوقي بك قد أعد قصيدة بهـذه المناسبة، وقد ألقاها بصوت جهوري شفيق بك جبـر مـدير مكتب معالي وزير المالية، ولقد كان من آيات نجاح دعـوة قاسم أمين أن أمير الشعراء قد أصبح من مؤيديها بعد أن كان من معارضيها.

وكان من بين المتحدثين في هذا المهرجان، السيدة روفية رمضان ناظرة مدرسة الحلمية الابتدائية والأسـتاذ إبـراهيم الهلباوي بك.

وختم الحفل الشاب قاسم أفندي أمين حفيد المرحوم قاسـم أمين ونجل حضرة توفيق بك رشدي القاضي بمحكمة مصر، فشكر الاتحاد النسائي والخطيبات والخطباء الذين اشـتركوا في حفلة التكريم بكلمات رقيقة، وقال إن والديه سمياه باسـم جده تيمنًا باسم جده بذلك وأملاً في أن ينهج نهجه.



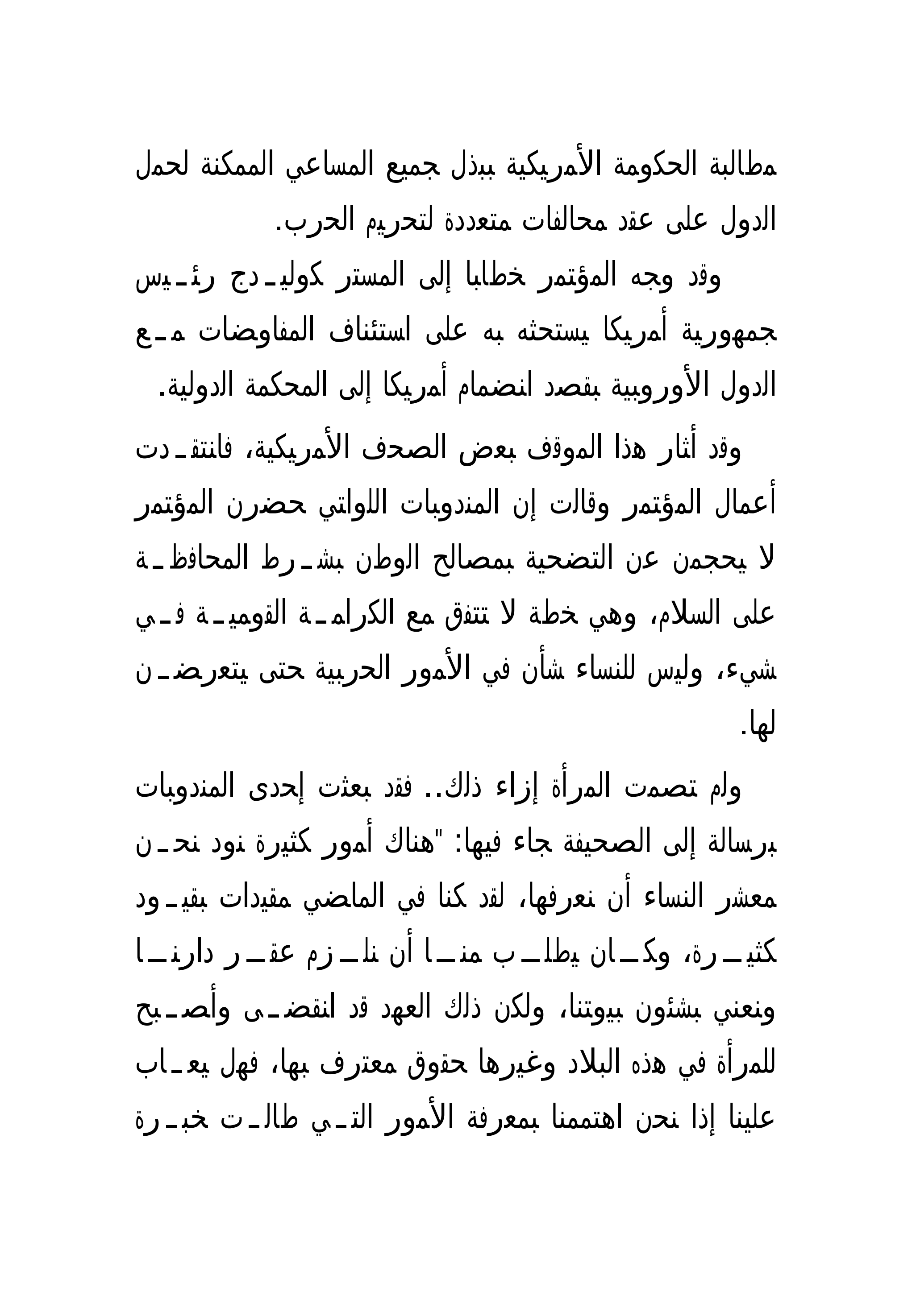
بدأت الحركة النسائية الأمريكية في تاريخ مواكب لتاريخ الحركة النسائية المصرية، ولذلك كان هناك اهتمام بما تحققه المرأة الأمريكية باعتبار أن هذا الدور يعطي صورة واضحة عما يمكن أن ينال اهتمام النساء في دول العالم المتقدم، وما يمكن أن تستفيد منه المرأة المصرية في هذا المجال، ومن هنا كان من الطبيعي أن تهتم الحركة النسائية المصرية بكل مؤتمر وكل إنجاز، وأن تتابع الصحافة المصرية معالم هذه النهضة لتفتح الأعين والأذهان على ما تحققه المرأة لخدمة الحياة العامة والاجتماعية.

وقد اهتمت الصحافة العالمية بالمؤتمر النسائي الأمريكي الذي عقد لمناقشة قضية السلام العالمي، وكتبت الصحف الإنجليزية تحت عنوان "نساء أمريكا ونساء العالم" تشير إلى ذلك المؤتمر الذي حضرته سبعمائة مندوبة من مختلف

الولايات يمثلن عشرة ملايين امرأة في تلك البلاد، وقد بحث هذا المؤتمر موقف الحكومة الأمريكية إزاء دول العالم، وانتقد عزلة أمريكا وعدم تعاونها ومشاركتها في السياسة العالمية، وذهب المؤتمر إلى أن هذا الموقف هو الذي يفرض على الشعب الأمريكي بذل النفقات الطائلة لإنشاء أسطول عظيم يرقب الطوارئ ويدفع الملمات.

ومما يدل على أهمية هذا المؤتمر أنه قد حضره المستر دافيز وزير البحرية الأمريكية والأدميرال سكوفيلد بالنيابة عن الأساطيل، وقد ألقى كلاهما خطبة أيد بها سياسة تعزيز الأسطول الأمريكي لأغراض دفاعية فقط، ولكن المؤتمر النسوي استهجن هذا الأسلوب، وأصدر قرارا بأن الحكومة تسير على خطة من شأنها أن تزيد عوامل القلق وتجعل سلام العالم مهددا بأعظم الأخطار، لأن هذا البرنامج البحري الأمريكي سيزيد المنافسة بين الدول البحرية، وستؤدي الزيادة إلى تعكير جو السلام.

ولعل أهم القرارات التي أصدرها المؤتمر هو تنظيم خطة حملة عامة لتنوير أذهان الشعب الأمريكي وتحريضه على

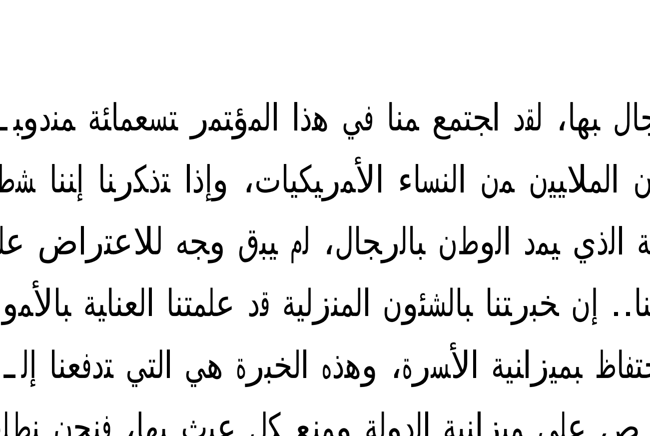


مطالبة الحكومة الأمريكية ببذل جميع المساعي الممكنة لحمل الدول على عقد محالفات متعددة لتحريم الحرب.

وقد وجه المؤتمر خطابا إلى المستر كوليدج رئيس جمهورية أمريكا يستحثه به على استئناف المفاوضات مع الدول الأوروبية بقصد انضمام أمريكا إلى المحكمة الدولية.

وقد أثار هذا الموقف بعض الصحف الأمريكية، فانتقدت أعمال المؤتمر وقالت إن المندوبات اللواتي حضرن المؤتمر لا يحجمن عن التضحية بمصالح الوطن بشرط المحافظة على السلام، وهي خطة لا تتفق مع الكرامة القومية في شيء، وليس للنساء شأن في الأمور الحربية حتى يتعرضن لها.

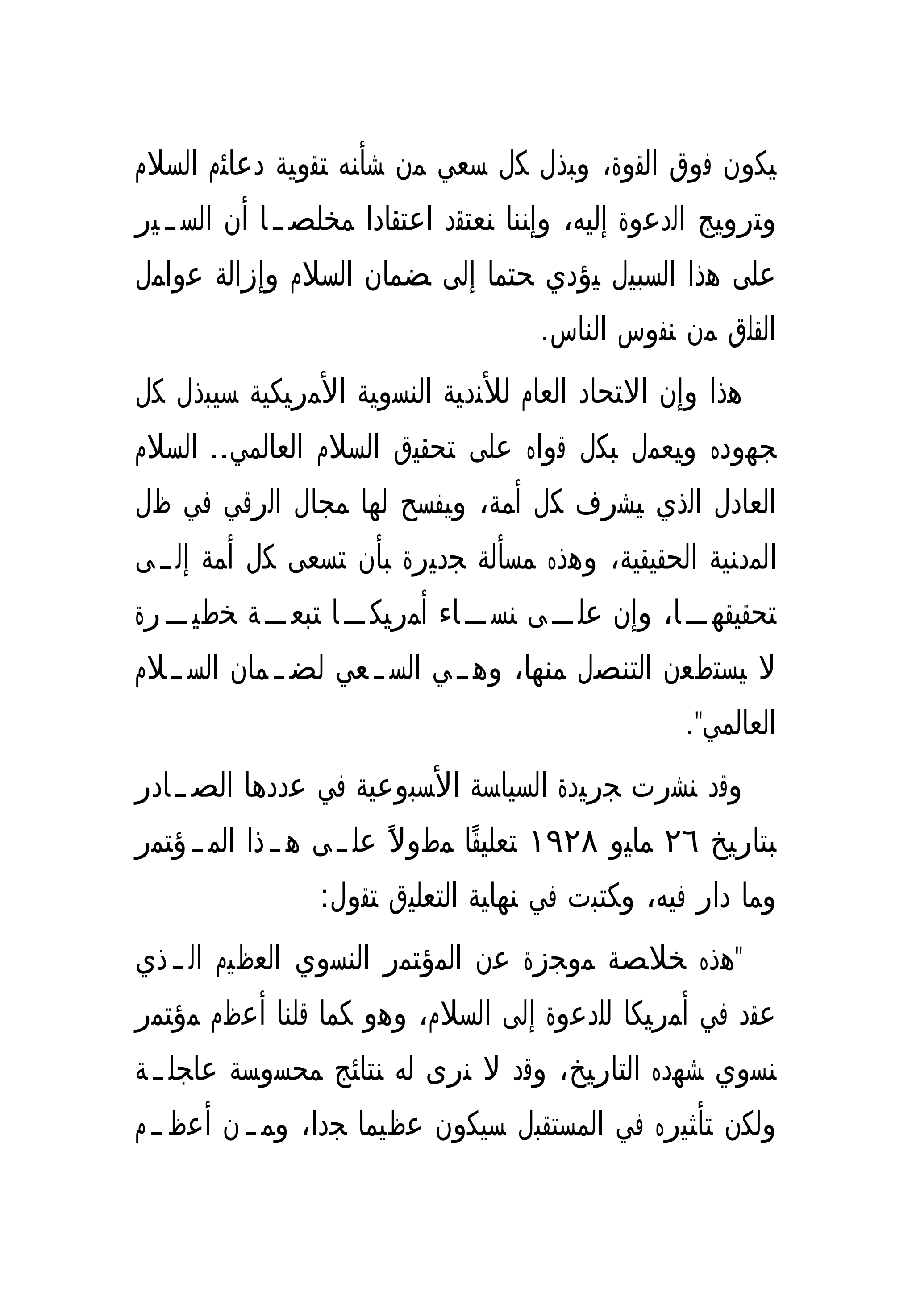
ولم تصمت المرأة إزاء ذلك.. فقد بعثت إحدى المندوبات برسالة إلى الصحيفة جاء فيها: "هناك أمور كثيرة نود نحن معشر النساء أن نعرفها، لقد كنا في الماضي مقيدات بقيود كثيرة، وكان يطلب منا أن نلزم عقر دارنا ونعني بشئون بيوتنا، ولكن ذلك العهد قد انقضى وأصبح للمرأة في هذه البلاد وغيرها حقوق معترف بها، فهل يعاب علينا إذا نحن اهتممنا بمعرفة الأمور التي طالت خبرة



الرجال بها، لقد اجتمع منا في هذا المؤتمر تسعمائة مندوبة يمثلن الملايين من النساء الأمريكيات، وإذا تذكرنا إننا شطر الأمة الذي يمد الوطن بالرجال، لم يبق وجه للاعتراض على علمنا.. إن خبرتنا بالشئون المنزلية قد علمتنا العناية بالأموال للاحتفاظ بميزانية الأسرة، وهذه الخبرة هي التي تدفعنا إلى الحرص على ميزانية الدولة ومنع كل عبث بها، فنحن نطالب أن نعرف – ولنا الحق أن نعرف - كيف تنفق أموال وما هي وجوه ذلك الإنفاق".

طريق السلام

كذلك فقد ألقت المسز شابمان، رئيسة الاتحاد العام للأندية النسوية الأمريكية، خطبة في المؤتمر قالت فيها: "إننا لا نعرف شيئًا يضمن سلام العالم ويقصي شبح الحرب، وإنما نعرف أشياء كثيرة يجب أن نعمل معا إذا أريد تحقيق تلك الغاية، ومن جملة تلك الأشياء إنشاء نظام يضمن السلام ويوجد الطمأنينة في قلوب الدول ولا سيما الصغرى منها، وإيجاد نظام للفصل في المنازعات الدولية، وترسيخ فكرة السلام في عقول الناس وإزالة جميع عوامل القلق من النفوس، وتعويد الناس هذه الفكرة وهي أن القانون يجب أن

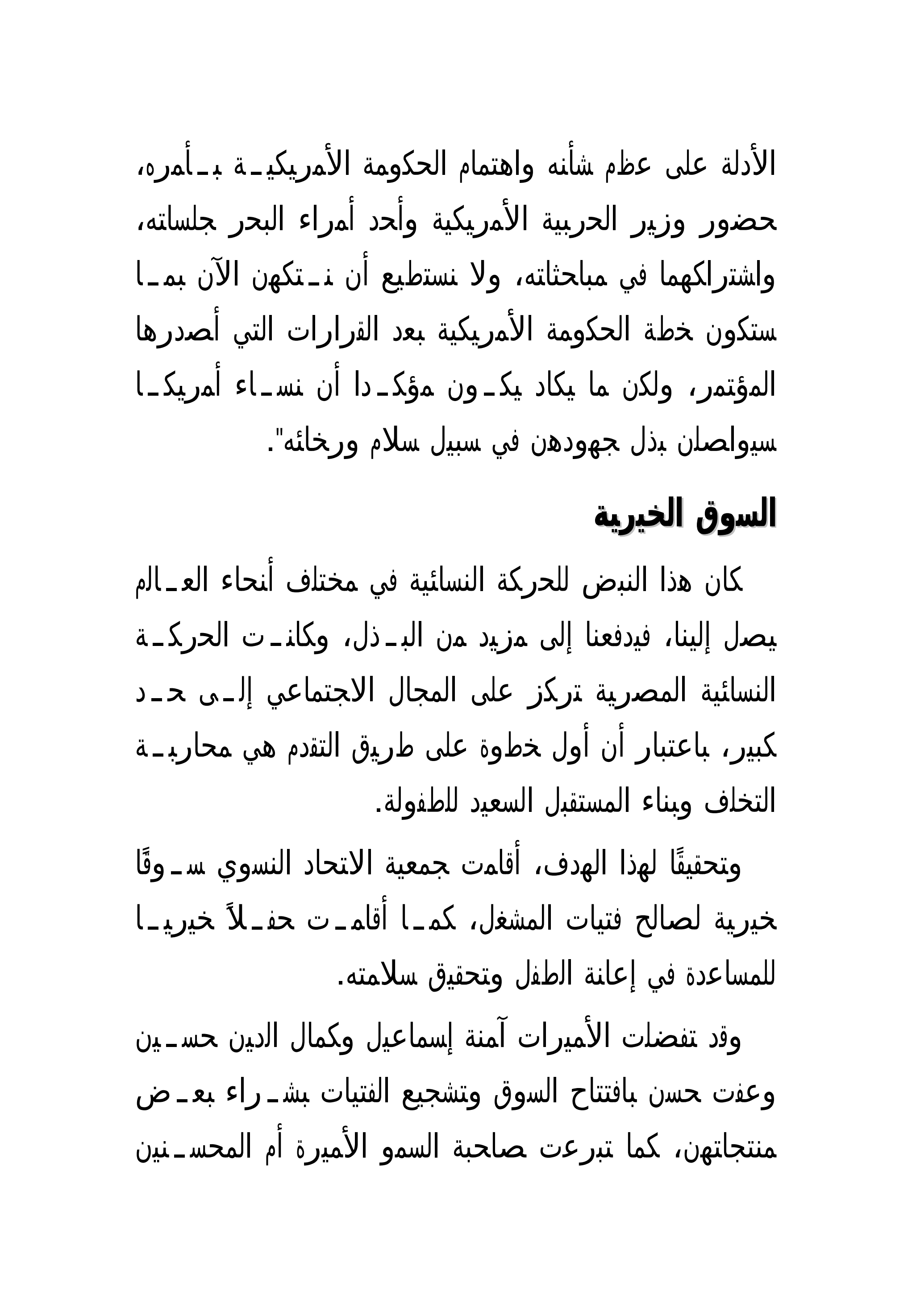


يكون فوق القوة، وبذل كل سعي من شأنه تقوية دعائم السلام وترويج الدعوة إليه، وإننا نعتقد اعتقادا مخلصا أن السير على هذا السبيل يؤدي حتما إلى ضمان السلام وإزالة عوامل القلق من نفوس الناس.

هذا وإن الاتحاد العام للأندية النسوية الأمريكية سيبذل كل جهوده ويعمل بكل قواه على تحقيق السلام العالمي.. السلام العادل الذي يشرف كل أمة، ويفسح لها مجال الرقي في ظل المدنية الحقيقية، وهذه مسألة جديرة بأن تسعى كل أمة إلى تحقيقها، وإن على نساء أمريكا تبعة خطيرة لا يستطعن التنصل منها، وهي السعي لضمان السلام العالمي".

وقد نشرت جريدة السياسة الأسبوعية في عددها الصادر بتاريخ ٢٦ مايو ١٩٢٨ تعليقًا مطولاً على هذا المؤتمر وما دار فيه، وكتبت في نهاية التعليق تقول:

"هذه خلاصة موجزة عن المؤتمر النسوي العظيم الذي عقد في أمريكا للدعوة إلى السلام، وهو كما قلنا أعظم مؤتمر نسوي شهده التاريخ، وقد لا نرى له نتائج محسوسة عاجلة ولكن تأثيره في المستقبل سيكون عظيما جدا، ومن أعظم



الأدلة على عظم شأنه واهتمام الحكومة الأمريكية بأمره، حضور وزير الحربية الأمريكية وأحد أمراء البحر جلساته، واشتراكهما في مباحثاته، ولا نستطيع أن نتكهن الآن بما ستكون خطة الحكومة الأمريكية بعد القرارات التي أصدرها المؤتمر، ولكن ما يكاد يكون مؤكدا أن نساء أمريكا سيواصلن بذل جهودهن في سبيل سلام ورخائه".

السوق الخيرية

كان هذا النبض للحركة النسائية في مختلف أنحاء العالم يصل إلينا، فيدفعنا إلى مزيد من البذل، وكانت الحركة النسائية المصرية تركز على المجال الاجتماعي إلى حد كبير، باعتبار أن أول خطوة على طريق التقدم هي محاربة التخلف وبناء المستقبل السعيد للطفولة.

وتحقيقًا لهذا الهدف، أقامت جمعية الاتحاد النسوي سوقًا خيرية لصالح فتيات المشغل، كما أقامت حفلاً خيريا للمساعدة في إعانة الطفل وتحقيق سلامته.

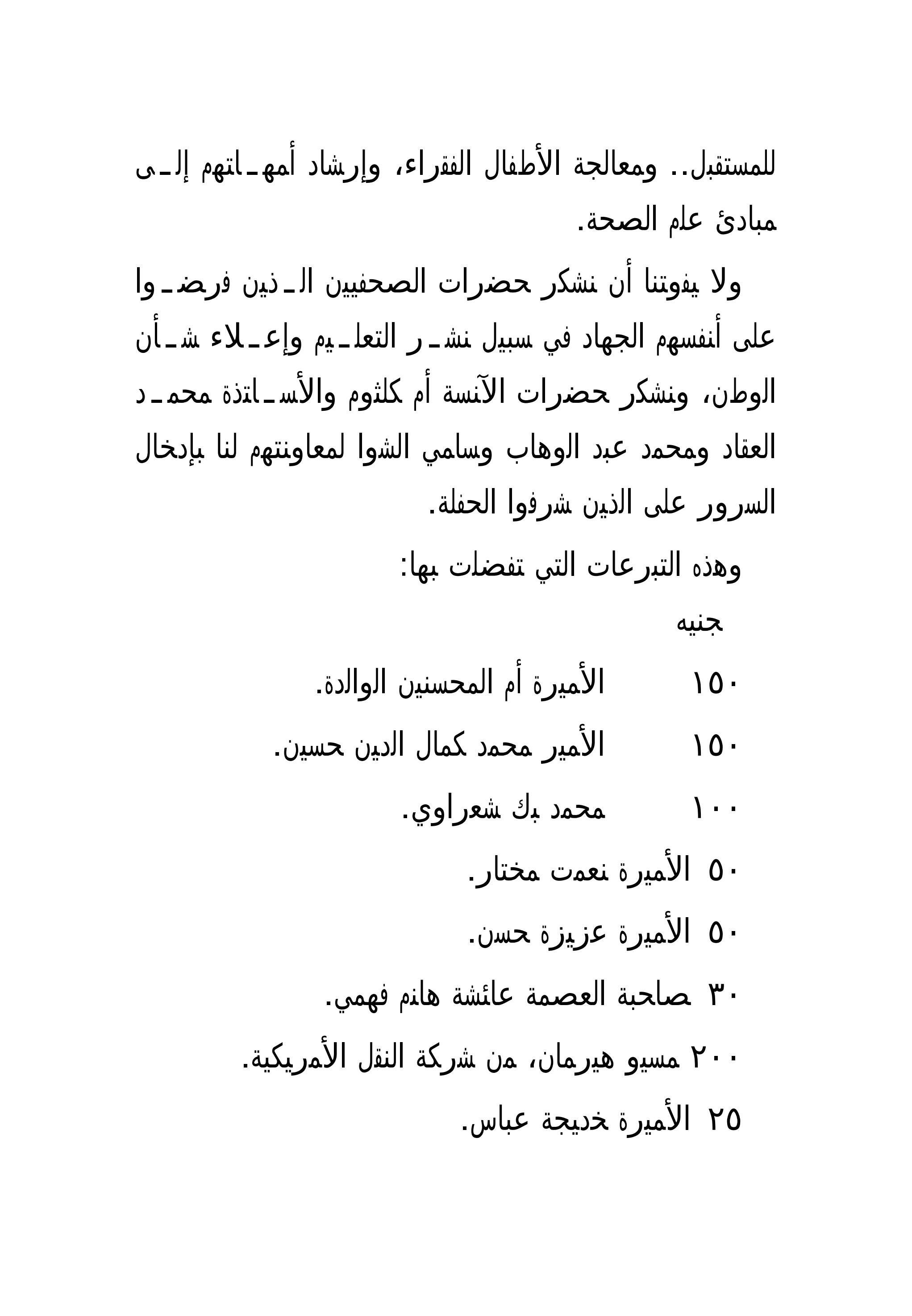
وقد تفضلت الأميرات آمنة إسماعيل وكمال الدين حسين وعفت حسن بافتتاح السوق وتشجيع الفتيات بشراء بعض منتجاتهن، كما تبرعت صاحبة السمو الأميرة أم المحسنين

الوالدة ببعض الأموال للجمعية، فضلاً عن مكافأة أربع عشرة فتاة من أوائل الناجحات بأسوار وأقراط ذهبية جميلة، كذلك فقد وضع الأمراء آل لطف الله كازينة الجزيرة تحت تصرف الجمعية لإقامة حفلتها الخيرية.

وجدير بالذكر أن كرائم العقائل والآنسات قد تطوعن للظهور في المناظر الحية "التمثيل"، فكان لعلمهن نصيب في نجاح الحفلة وجمال تنسيقها.

وقد اجتمعت جمعية الاتحاد النسوي برئاستي لتقديم الشكر لكل من أسهم في هذا العمل الخيري، وقلنا في البيان الذي أصدرناه بهذه المناسبة:

"إن إقبال حضرات الأميرات الكريمات على افتتاح السوق، والمساعدة في إعانة الطفل وسلامته، وحماية الفتاة والعناية بأمرها، يبعث في نفوسنا الأمل، ويقوي في صدورنا العزم، وإن هذا التشجيع الذي تلقاه جمعيتنا من أولي البر والإحسان يشد أزرنا ويدفعنا إلى مضاعفة الجهاد، فنحمد لهن جميعا سعيهن الجميل، وسنبدأ متى تهيأت لنا الأسباب في تشييد بناء مشغل ومكتب دار الاتحاد النسوي ومستوصفه، ليتسنى لنا توسيع دائرة عملنا في إعداد أمهات كاملات



للمستقبل.. ومعالجة الأطفال الفقراء، وإرشاد أمهاتهم إلى مبادئ علم الصحة.

ولا يفوتنا أن نشكر حضرات الصحفيين الذين فرضوا على أنفسهم الجهاد في سبيل نشر التعليم وإعلاء شأن الوطن، ونشكر حضرات الآنسة أم كلثوم والأساتذة محمد العقاد ومحمد عبد الوهاب وسامي الشوا لمعاونتهم لنا بإدخال السرور على الذين شرفوا الحفلة.

وهذه التبرعات التي تفضلت بها:

جنيه

١٥٠ الأميرة أم المحسنين الوالدة.

١٥٠ الأمير محمد كمال الدين حسين.

١٠٠ محمد بك شعراوي.

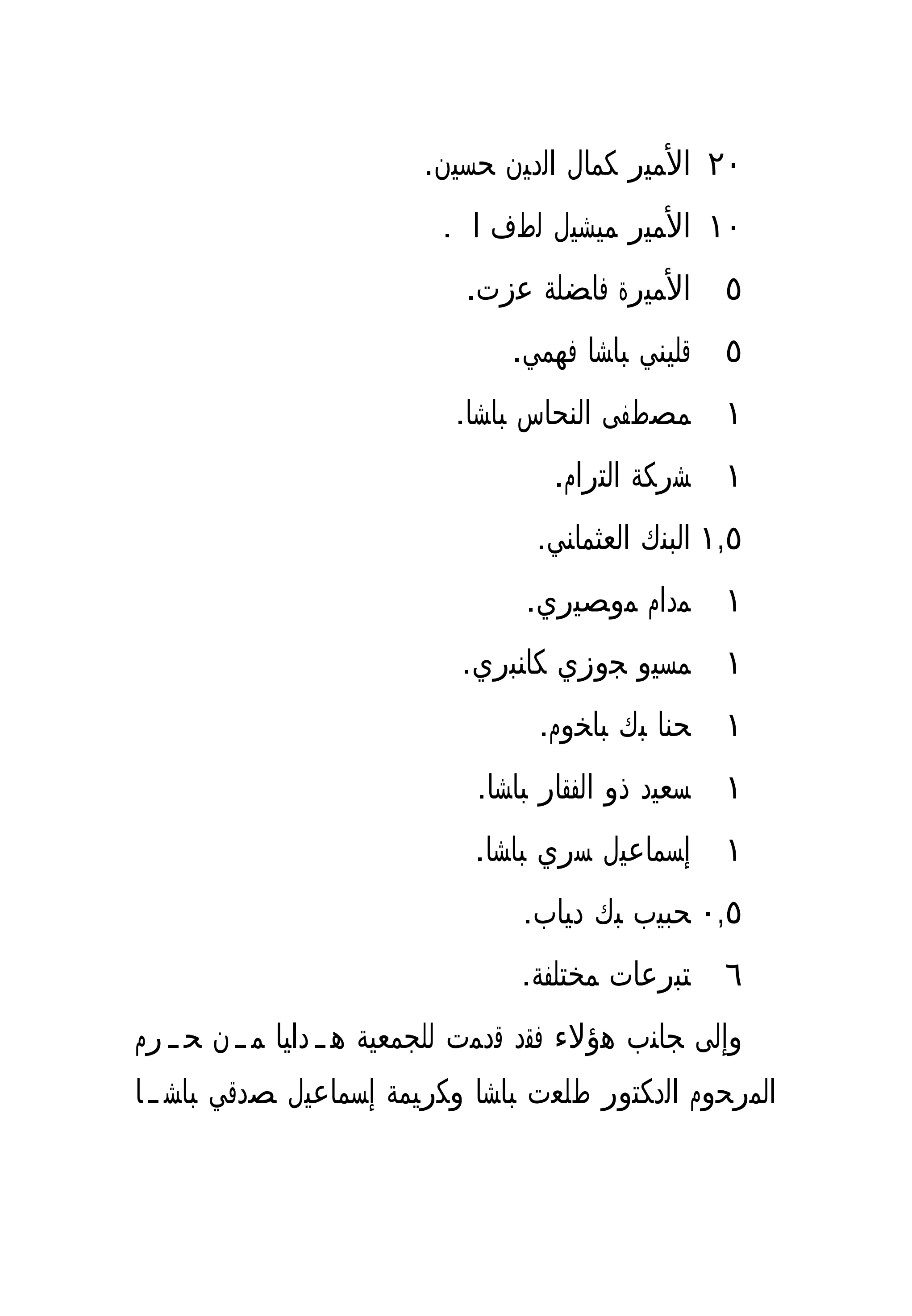
٥٠ الأميرة نعمت مختار.

٥٠ الأميرة عزيزة حسن.

٣٠ صاحبة العصمة عائشة هانم فهمي.

٢٠٠ مسيو هيرمان، من شركة النقل الأمريكية.

٢٥ الأميرة خديجة عباس.



٢٠ الأمير كمال الدين حسين.

١٠ الأمير ميشيل لطف ا .

٥ الأميرة فاضلة عزت.

٥ قليني باشا فهمي.

١ مصطفى النحاس باشا.

١ شركة الترام.

١,٥ البنك العثماني.

١ مدام موصيري.

١ مسيو جوزي كانبري.

١ حنا بك باخوم.

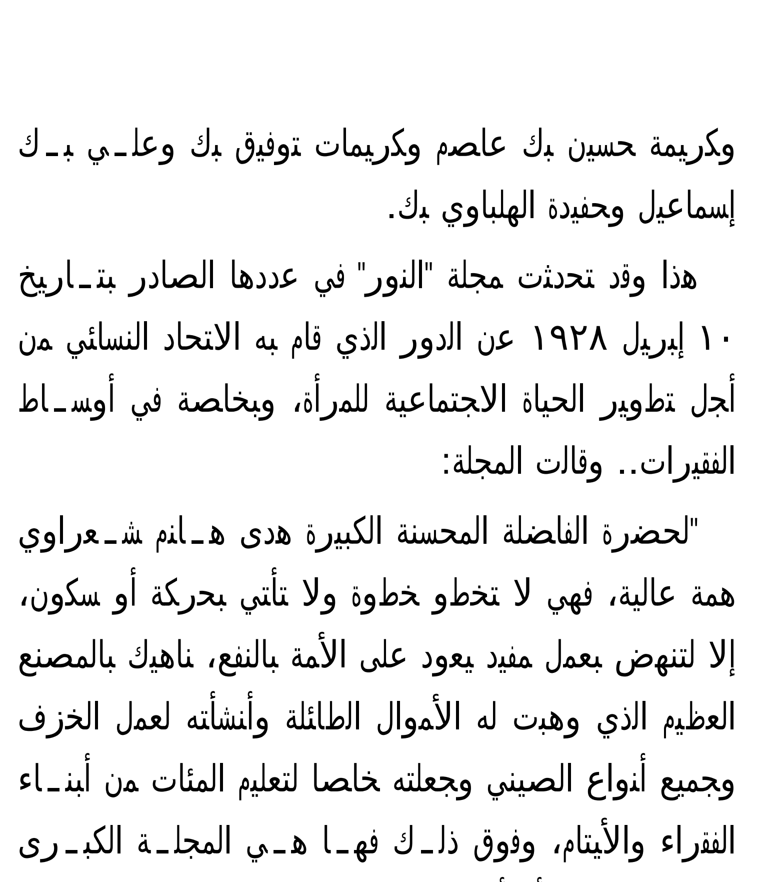
١ سعيد ذو الفقار باشا.

١ إسماعيل سري باشا.

٠,٥ حبيب بك دياب.

٦ تبرعات مختلفة.

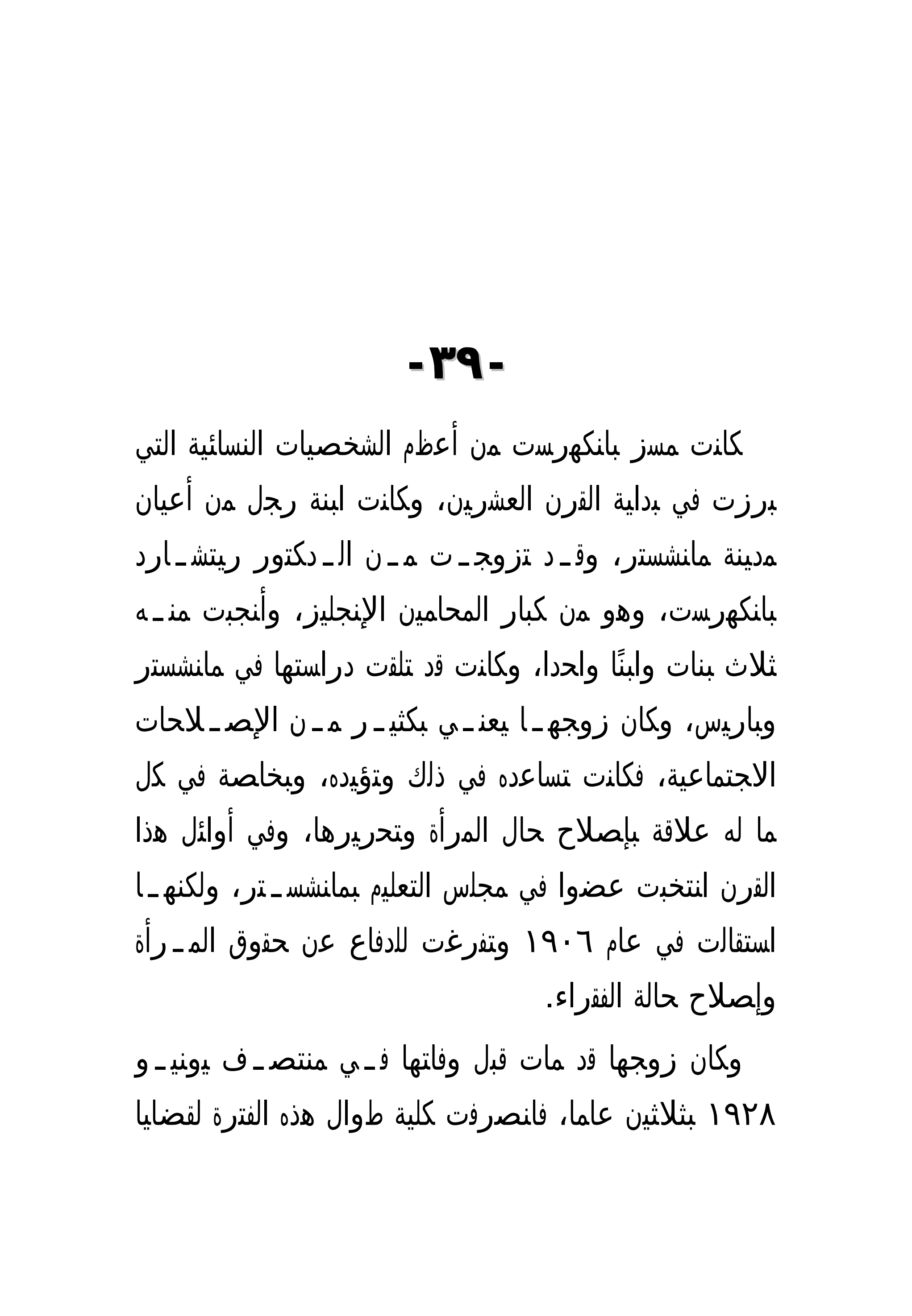
وإلى جانب هؤلاء فقد قدمت للجمعية هـدايا مـن حـرم المرحوم الدكتور طلعت باشا وكريمة إسماعيل صدقي باشـا



وكريمة حسين بك عاصم وكريمات توفيق بك وعلي بك إسماعيل وحفيدة الهلباوي بك.

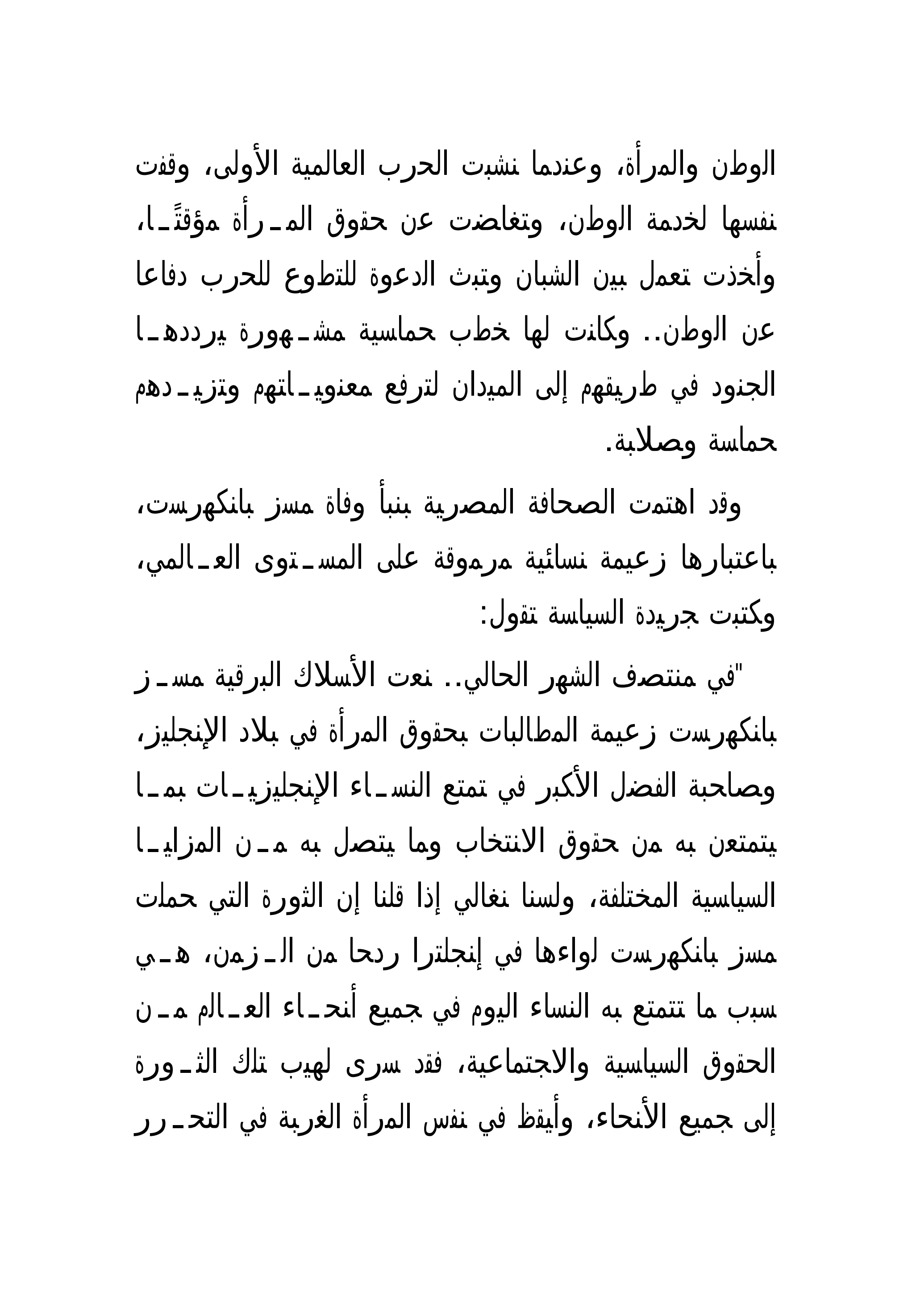
هذا وقد تحدثت مجلة "النور" في عددها الصادر بتاريخ ١٠ إبريل ١٩٢٨ عن الدور الذي قام به الاتحاد النسائي من أجل تطوير الحياة الاجتماعية للمرأة، وبخاصة في أوساط الفقيرات.. وقالت المجلة:

"لحضرة الفاضلة المحسنة الكبيرة هدى هانم شعراوي همة عالية، فهي لا تخطو خطوة ولا تأتي بحركة أو سكون، إلا لتنهض بعمل مفيد يعود على الأمة بالنفع، ناهيك بالمصنع العظيم الذي وهبت له الأموال الطائلة وأنشأته لعمل الخزف وجميع أنواع الصيني وجعلته خاصا لتعليم المئات من أبناء الفقراء والأيتام، وفوق ذلك فها هي المجلة الكبرى "المصرية" التي أنشأتها في مصر باللغة الفرنسية للدفاع عن كرامة السيدات المصريات تبرهن على سمو أفكارها، وكم لحضرتها رحلات في عواصم أوربا وفي أمريكا ولأعظم مؤتمرات السيدات في الغرب، كانت فيها خير مثال لتشريف اسم السيدة المصرية".



كانت مسز بانكهرست من أعظم الشخصيات النسائية التي برزت في بداية القرن العشرين، وكانت ابنة رجل من أعيان مدينة مانشستر، وقد تزوجت من الدكتور ريتشارد بانكهرست، وهو من كبار المحامين الإنجليز، وأنجبت منه ثلاث بنات وابنًا واحدا، وكانت قد تلقت دراستها في مانشستر وباريس، وكان زوجها يعني بكثير من الإصلاحات الاجتماعية، فكانت تساعده في ذلك وتؤيده، وبخاصة في كل ما له علاقة بإصلاح حال المرأة وتحريرها، وفي أوائل هذا القرن انتخبت عضوا في مجلس التعليم بمانشستر، ولكنها استقالت في عام ١٩٠٦ وتفرغت للدفاع عن حقوق المرأة وإصلاح حالة الفقراء.

وكان زوجها قد مات قبل وفاتها في منتصف يونيو ١٩٢٨ بثلاثين عاما، فانصرفت كلية طوال هذه الفترة لقضايا



الوطن والمرأة، وعندما نشبت الحرب العالمية الأولى، وقفت نفسها لخدمة الوطن، وتغاضت عن حقوق المرأة مؤقتًا، وأخذت تعمل بين الشبان وتبث الدعوة للتطوع للحرب دفاعا عن الوطن.. وكانت لها خطب حماسية مشهورة يرددها الجنود في طريقهم إلى الميدان لترفع معنوياتهم وتزيدهم حماسة وصلابة.

وقد اهتمت الصحافة المصرية بنبأ وفاة مسز بانكهرست، باعتبارها زعيمة نسائية مرموقة على المستوى العالمي، وكتبت جريدة السياسة تقول:

"في منتصف الشهر الحالي.. نعت الأسلاك البرقية مسز بانكهرست زعيمة المطالبات بحقوق المرأة في بلاد الإنجليز، وصاحبة الفضل الأكبر في تمتع النساء الإنجليزيات بما يتمتعن به من حقوق الانتخاب وما يتصل به من المزايا السياسية المختلفة، ولسنا نغالي إذا قلنا إن الثورة التي حملت مسز بانكهرست لواءها في إنجلترا ردحا من الزمن، هي سبب ما تتمتع به النساء اليوم في جميع أنحاء العالم من الحقوق السياسية والاجتماعية، فقد سرى لهيب تلك الثورة إلى جميع الأنحاء، وأيقظ في نفس المرأة الغربية في التحرر

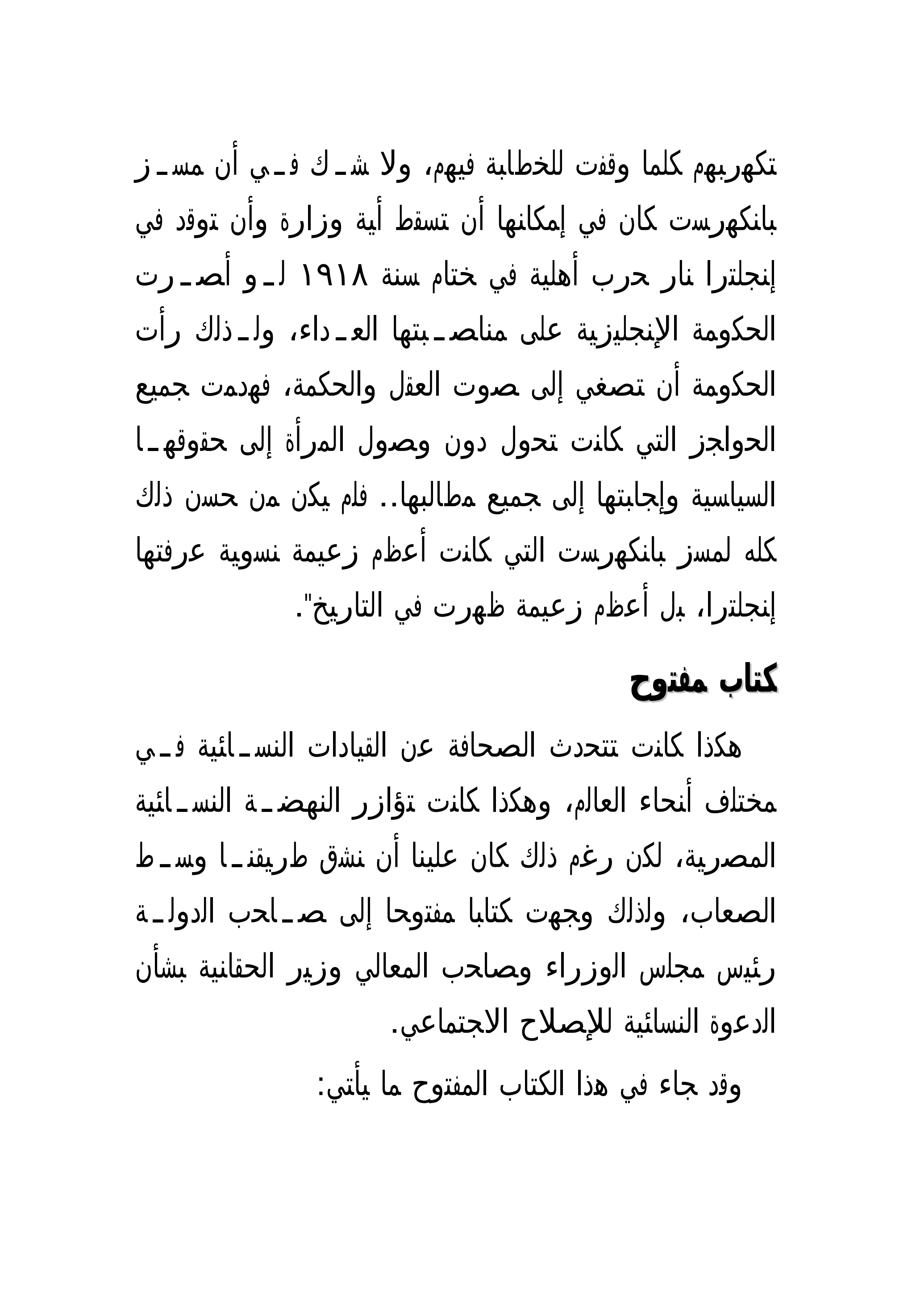
من أصفاد الرق التي كانت ترسف بها منذ العصور المظلمة".

واستطردت الصحيفة تتحدث عن جوانب شخصية مسز بانكهرست، فقالت:

"ولم تكن زعامة النهضة النسوية السياسية لتلهي مسز بانكهرست عن السعي لرفع مستوى تعليم المرأة والعناية بالعمال والعاملات وإصلاح شئونهم، وقد وقفت على ذلك قواها العقلية والجسدية.. ولحسن حظها كان زوجها يؤيدها في جميع مساعيها.. فكانت تزور المراكز التي تكثر فيها النساء العاملات فتدرس أحوالهن وتقف على جميع مطالبهن، ولم تكن حالة المرأة الإنجليزية يومئذ أحسن بكثير من حالة المرأة في العصور المتوسطة، ومع أن مسز بانكهرست رفعت صوتها بالشكوى من تلك الحالة مرارا.. إلا أن عظماء السياسة من الرجال وجميع الذين كان بيدهم مقاليد الأمور كانوا يسخرون بمطالبها ويصمون أذانهم عن سماع صوتها ضاحكين هازئين، ولم يكن عنادهم يزيدها إلا عنادا، فأخذت من سنة ١٩٠٦ تجمع الأموال اللازمة لها لبث دعوتها.. وقد نجحت في هذا نجاحا غير منتظر حتى قيل إنه

ما من نهضة في إنجلترا جمعت لها الأموال التي جمعتها مسز بانكهرست لنشر دعوتها وإصلاح حالة المرأة الإنجليزية.

وما كادت الحرب تنشب في سنة ١٩١٤ حتى تناست مسز بانكهرست وجميع نساء إنجلترا قضيتهن، فسكتن عن المطالبة بحقوقهن مؤقتًا وأخذن يوجهن كل جهودهن لخدمة الوطن وبث الدعوة بين الرجال لكي يتطوعوا للحرب، وفي مدة الحرب كله لم يسمع أحد في إنجلترا بقضية حقوق المرأة، ولكن لما وضعت الحرب أوزارها وعاد الرجال إلى أعمالهم، عادت مسز بانكهرست وأترابها إلى النضال والكفاح، وكانت نفسيات الرجال في إنجلترا قد تغيرت إذ ذاك، فأصبح القوم أكثر عطفًا على مطالب المرأة لما أدته لهم من الخدمات الجليلة في الحرب، وفي الواقع إن تلك الخدمات عادت على قضية المرأة الإنجليزية بأحسن النتائج؛ فقد شعرت الحكومة الإنجليزية بعد الحرب بأن الجنود العائدين من ميادين القتال، قد أصبحوا من أكبر مؤيدي المرأة العاطفين على مطالبها، فلم يكن من حسن السياسة الاستخفاف بعواطف الجنود وبدعوة مسز بانهرست التي



تكهربهم كلما وقفت للخطابة فيهم، ولا شك في أن مسز بانكهرست كان في إمكانها أن تسقط أية وزارة وأن توقد في إنجلترا نار حرب أهلية في ختام سنة ١٩١٨ لو أصرت الحكومة الإنجليزية على مناصبتها العداء، ولذلك رأت الحكومة أن تصغي إلى صوت العقل والحكمة، فهدمت جميع الحواجز التي كانت تحول دون وصول المرأة إلى حقوقها السياسية وإجابتها إلى جميع مطالبها.. فلم يكن من حسن ذلك كله لمسز بانكهرست التي كانت أعظم زعيمة نسوية عرفتها إنجلترا، بل أعظم زعيمة ظهرت في التاريخ".

كتاب مفتوح

هكذا كانت تتحدث الصحافة عن القيادات النسائية في مختلف أنحاء العالم، وهكذا كانت تؤازر النهضة النسائية المصرية، لكن رغم ذلك كان علينا أن نشق طريقنا وسط الصعاب، ولذلك وجهت كتابا مفتوحا إلى صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء وصاحب المعالي وزير الحقانية بشأن الدعوة النسائية للإصلاح الاجتماعي.

وقد جاء في هذا الكتاب المفتوح ما يأتي:

"في شهر يونيو ١٩٢٣ أوفدت جمعية الاتحاد النسائي التي لي شرف رئاستها وفدا من أعضائها لرئيس مجلس الوزراء يرفع إليه طلبين مهمين: تحديد سن زواج البنت، ومساواتها بالبنين في التعليم الثانوي والعالي، فرحبت وزارة صاحب الدولة يحيى إبراهيم باشا بهذين الطلبين مقتنعين بعدالتهما، وعملت فعلاً على تنفيذهما.

امتلأنا غبطة وسرورا لإنصاف حكومتنا وحبها في الإصلاح، فشجعنا ذلك على تقديم مطالب أخرى حيوية تكفل سعادة الأسرة المصرية لما فيها من عدل وإنصاف يتفقان مع مقتضيات العصر الحاضر وروح الشريعة السمحاء.

رفعنا تلك المطالب في شهر نوفمبر ١٩٢٦ في عهد وزارة صاحب الدولة عدلي باشا يكن إلى صاحب المعالي أبي السعود باشا وزير الحقانية إذ ذاك، فأعارها من الاهتمام ما هو معهود فيه من حب الإصلاح، ثم رفعناها أيضا إلى مجلس الشيوخ والنواب فصادفت ارتياحا من قبل الحكومة ونواب الأمة، فأحيلت على لجنة مكونة من نخبة من رجال الدين والقانون لدرسها درسا دقيقًا، فرأت هذه اللجنة (اتقاء التصادم بأفكار الرجعيين) إدخال تعديلات كادت تذهب

بمزاياها، وبعد الانتهاء من تعديلها، عرضها علـى مجلـس النواب للتصديق عليها، فلم تسمح الظروف بنظرها، وتأجلت من جلسة لأخرى لاشتغال المجلس بغيرهـا مـن الأمـور المستعجلة.

والآن وقد عطلت الحيـاة النيابيـة، وأخـذت الحكومـة الحاضرة على عاتقها القيام بتحقيق كل إصلاح تـرى فيـه سعادة الأمة المصرية بأسرها، رجالهـا ونسـائها أغنيائهـا وفقرائها، كنا نأمل أن تعير مشروع الأحوال الشخصية مـا يستحقه من العناية والاعتبار، غير متأثرة بعامل من العوامل إلا حب الإصلاح.

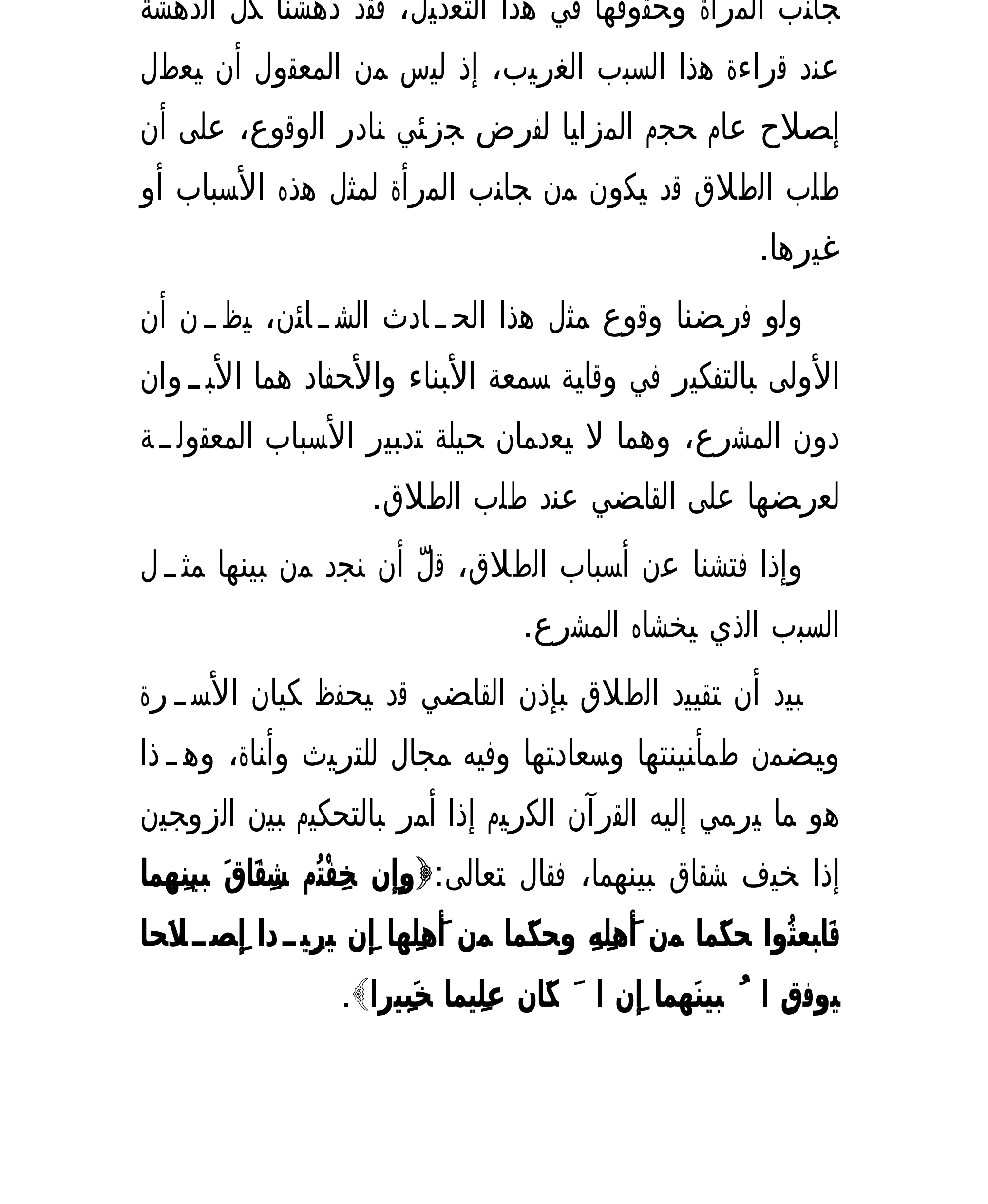
ولما كانت هذه عقيدتنا في الوزارة الحاضرة، هالنـا مـا قرأناه في جريدة المقطم مما يفهم منه أن الحكومة شارعة في إهمال مسألتي تعدد الزوجات وفوضى الطلاق أو تعـديلهما تعديلاً يذهب بالبقية الباقية من مزاياهمـا، بحجـة أن تعـدد الزوجات أخذ في التلاشي بسبب كثرة النفقات ولانتشار العلم والمعرفة، ولأن وقوع الطلاق على يد القاضي بعـد ذكـر أسبابه قد لا يكون في مصلحة الزوجين إذا فـرض وكـان لرجل ولزوجته ابنة في الثامنة عشرة من عمرها مثلاً، وقـد

أتت الزوجة عملاً منكرا يستحق الطلاق، فيكون في ذلك من التشويه بسمعة البنت ما يضر بمستقبلها ويقف حجر عثرة في طريق زواجها.

فهل هذه هي الأسباب الخطيرة التي من أجلها ترى الوزارة إهمال النظر في المسألتين السابقتين الحيويتين؟

لا نظن أن وزير الحقانية على ما نعهده فيه من الحكمة وسداد الرأي، يبدي مثل هذه الأسباب التافهة إذا أراد إهمال النظر في هاتين المسألتين.

أما عن المسألة الأولى، فإذا كنا نسلم بأن تعدد الزوجات قد أخذ في التلاشي، فقد يكون ذلك منحصرا في الطبقة الراقية من الأغنياء؟ لأننا لا نزال نرى بمزيد من الأسف كثيرا من المتعلمين يتزوجون بغير واحدة لا لسبب سوى إرضاء شهواتهم، كما نرى تعدد الزوجات شائعا بين الطبقتين المتوسطة والفقيرة، بالرغم من غلاء المعيشة، حتى إن بعض الفقراء إذا ادخر شيئًا ولو قليلاً من أجره اليومي، سارع إلى الزواج بزوجة أخرى بدلاً من إنفاق ما ادخره في حاجات بيته الضرورية والعناية بأولاده وذويه.



أما المسألة الثانية، فإننا فضلاً عن استيائنا لإهمال الوزارة جانب المرأة وحقوقها في هذا التعديل، فقد دهشنا كل الدهشة عند قراءة هذا السبب الغريب، إذ ليس من المعقول أن يعطل إصلاح عام حجم المزايا لفرض جزئي نادر الوقوع، على أن طلب الطلاق قد يكون من جانب المرأة لمثل هذه الأسباب أو غيرها.

ولو فرضنا وقوع مثل هذا الحادث الشائن، يظن أن الأولى بالتفكير في وقاية سمعة الأبناء والأحفاد هما الأبوان دون المشرع، وهما لا يعدمان حيلة تدبير الأسباب المعقولة لعرضها على القاضي عند طلب الطلاق.

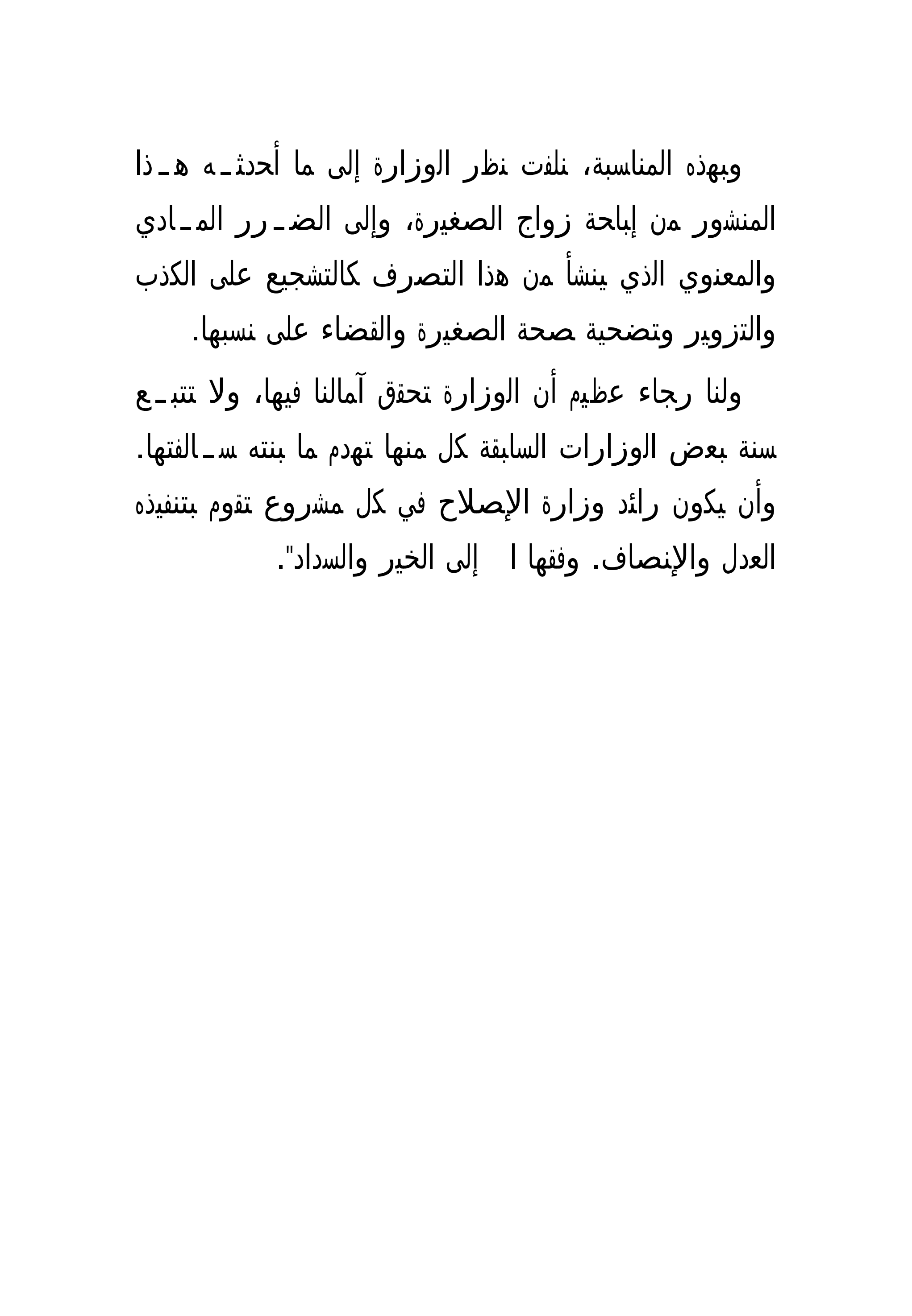
وإذا فتشنا عن أسباب الطلاق، قلّ أن نجد من بينها مثل السبب الذي يخشاه المشرع.

بيد أن تقييد الطلاق بإذن القاضي قد يحفظ كيان الأسرة ويضمن طمأنينتها وسعادتها وفيه مجال للتريث وأناة، وهذا هو ما يرمي إليه القرآن الكريم إذا أمر بالتحكيم بين الزوجين إذا خيف شقاق بينهما، فقال تعالى:﴿**وإن خِفْتُم شِقَاقَ بينِهما فَابعثُوا حكما من أَهلِهِ وحكما من أَهلِها إِن يريدا إِصلاحا يوفق ا ُ بينَهما إِن ا َ كان علِيما خَبِيرا**﴾.

فنرجو الوزارة باسم العدالة والحق أن تعير هذا المشروع ما يستحقه من العناية والرعاية، واضعة نصـب أعينهـا أن سعادة الأسرة مرتكزة على سعادة المرأة، وأن امرأة اليـوم ليست هي امرأة الأمس، وأنها لن تستطيع صبرا على هضم حقوقها إرضاء لشهوة الرجل.

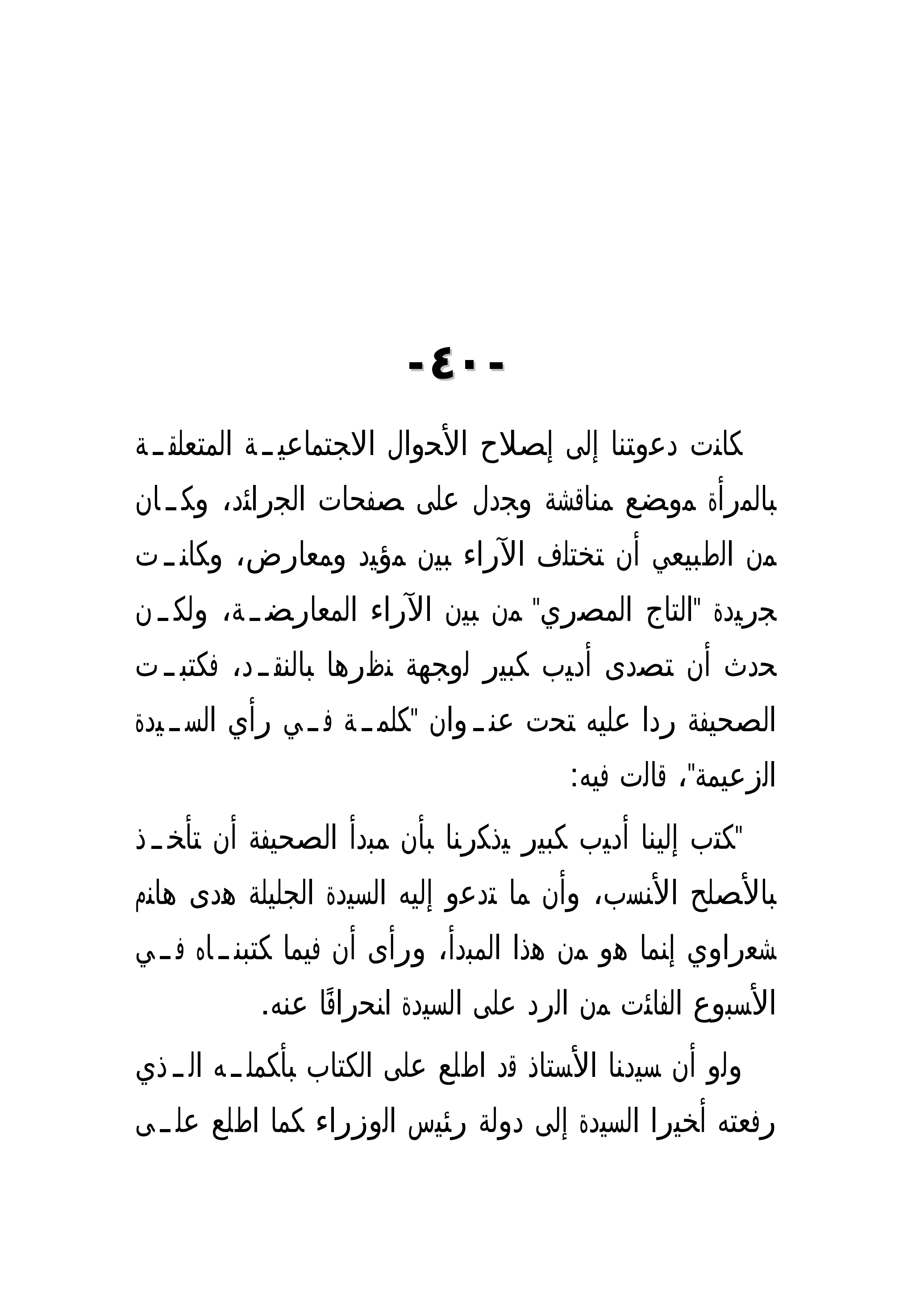
ولنا أمل عظيم أن الوزارة تقدر الموقف، وتتـدارك مـا عسى أن يكون من ثورة نفس المرأة ونتائجها، فـلا يكـون نصيب هذا المشروع الحيوي المفيد في عهد وزارة الإصلاح الحاضرة نصيب قانون سـن الـزواج الـذي سـنته وزارة صاحب الدولة يحيى إبراهيم باشا، فجاءت وزارة المرحـوم سعد باشا وأردفته بمنشور جرده من كـل مزايـاه وذهـب بالفائدة التي كانت مرجوة منه، إذ أباح لمـوثقي العقـود أن يكتفوا بشهادة الآباء والأولياء في تحديد السن دون أن يقدموا وثيقة رسمية بشهادة الميلاد أو شهادة طبيـب تثبـت السـن الحقيقية.

وكان الغرض من سن هذا القانون، وقايـة البنـت مـن الزواج المبكر وحمايتها من تحكـم آبائهـا وأوليائهـا فـي زواجها.



وبهذه المناسبة، نلفت نظر الوزارة إلى ما أحدثه هذا المنشور من إباحة زواج الصغيرة، وإلى الضرر المادي والمعنوي الذي ينشأ من هذا التصرف كالتشجيع على الكذب والتزوير وتضحية صحة الصغيرة والقضاء على نسبها.

ولنا رجاء عظيم أن الوزارة تحقق آمالنا فيها، ولا تتبع سنة بعض الوزارات السابقة كل منها تهدم ما بنته سالفتها. وأن يكون رائد وزارة الإصلاح في كل مشروع تقوم بتنفيذه العدل والإنصاف. وفقها ا إلى الخير والسداد".



-٤٠-

كانت دعوتنا إلى إصلاح الأحوال الاجتماعية المتعلقة بالمرأة موضع مناقشة وجدل على صفحات الجرائد، وكان من الطبيعي أن تختلف الآراء بين مؤيد ومعارض، وكانت جريدة "التاج المصري" من بين الآراء المعارضة، ولكن حدث أن تصدى أديب كبير لوجهة نظرها بالنقد، فكتبت الصحيفة ردا عليه تحت عنوان "كلمة في رأي السيدة الزعيمة"، قالت فيه:

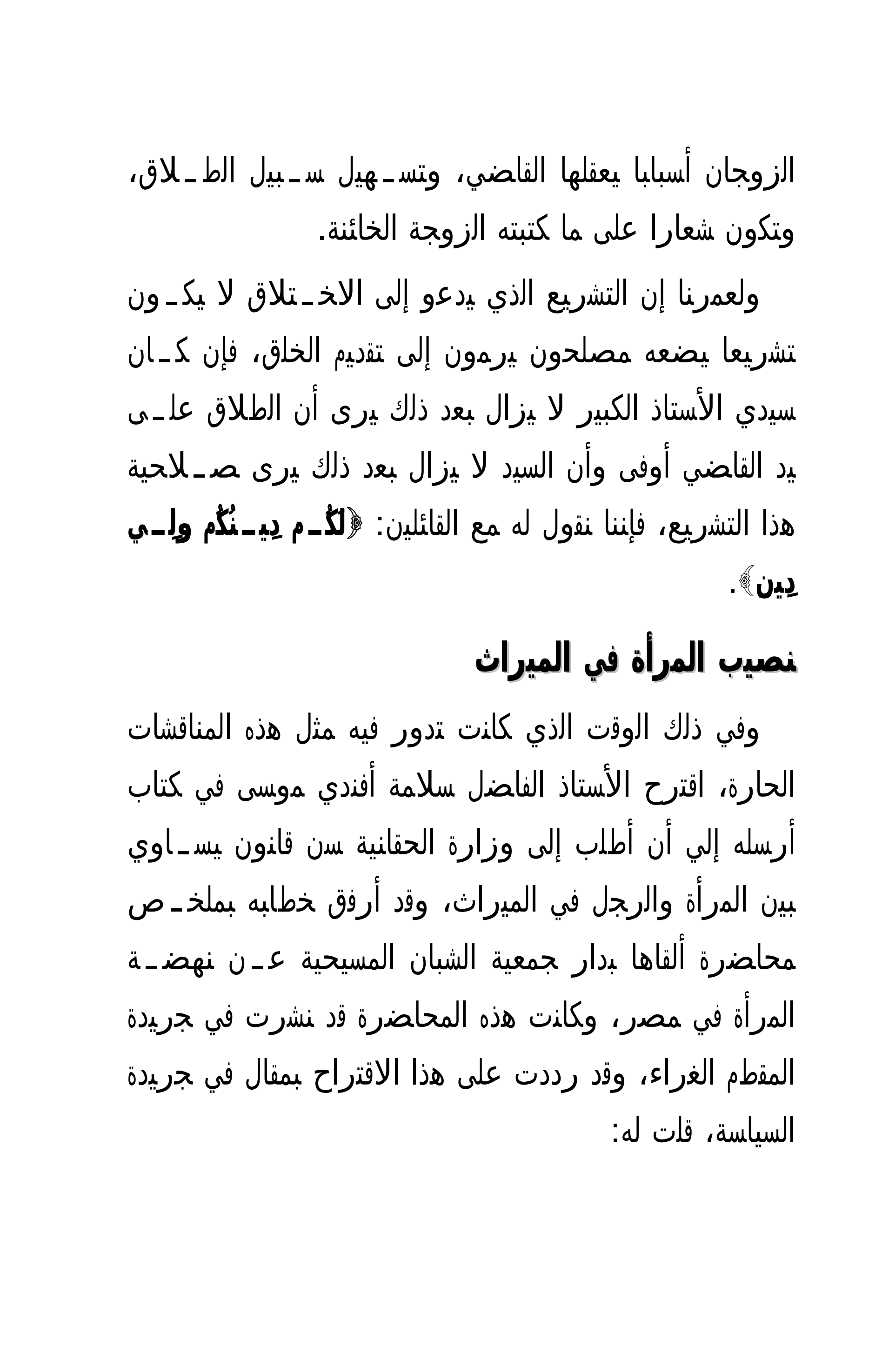
"كتب إلينا أديب كبير يذكرنا بأن مبدأ الصحيفة أن تأخذ بالأصلح الأنسب، وأن ما تدعو إليه السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي إنما هو من هذا المبدأ، ورأى أن فيما كتبناه في الأسبوع الفائت من الرد على السيدة انحرافًا عنه.

ولو أن سيدنا الأستاذ قد اطلع على الكتاب بأكمله الذي رفعته أخيرا السيدة إلى دولة رئيس الوزراء كما اطلع على

ما كتبناه، لتأكد إننا في ردنا لم ننحرف عن مبدأ الصحيفة، ذلك لأن السيدة تطلب فيما رفعته أمرين: أولهما: منع تعدد الزوجات، وثانيهما: أن يكون الطلاق على يد القاضي، ونحن لم نرد عليها إلا في الأمر الثاني وتركنا الأول، لأننا نعتقد اعتقادا جازما إنها محقة فيه لأن تعليق تعدد الزوجات على شرط العدل، وإن العدل غير قائم وأنه لفظ لا مدلول له في هذا الأمر، يشعر بأن هذا التعليق ضرب من التحريم، وأن الأولى مع هذا وما يسبب عنه من التعب العائلي واضطراب التربية أن يعدل عنه الراغب فيه.

ولكننا في الأمر الثاني أخذنا في نقده، لأننا نعتقد أن ما تطلبه السيدة ليس بالأصلح ولا بالأنسب وإنما هو إحراج ضرره أكبر من نفعه. وقد أبان معالي وزير الحقانية في حديث له بعض ضرره ومعايبه، ما دعانا إلى أن نعتبره غير صالح وما همنا فوق ذلك مما ذكرته السيدة إلا قولها: "وهما أي الوالدان لا يعدمان حيلة لتدبير الأسباب المعقولة لعرضها على القاضي عند طلب الطلاق".

وواضح في هذه الدعوة التشبث بأن يكون الطلاق على يد القاضي، وأنه في حال وقوع ما يشين الزوجة يختلق



الزوجان أسبابا يعقلها القاضي، وتسهيل سبيل الطلاق، وتكون شعارا على ما كتبته الزوجة الخائنة.

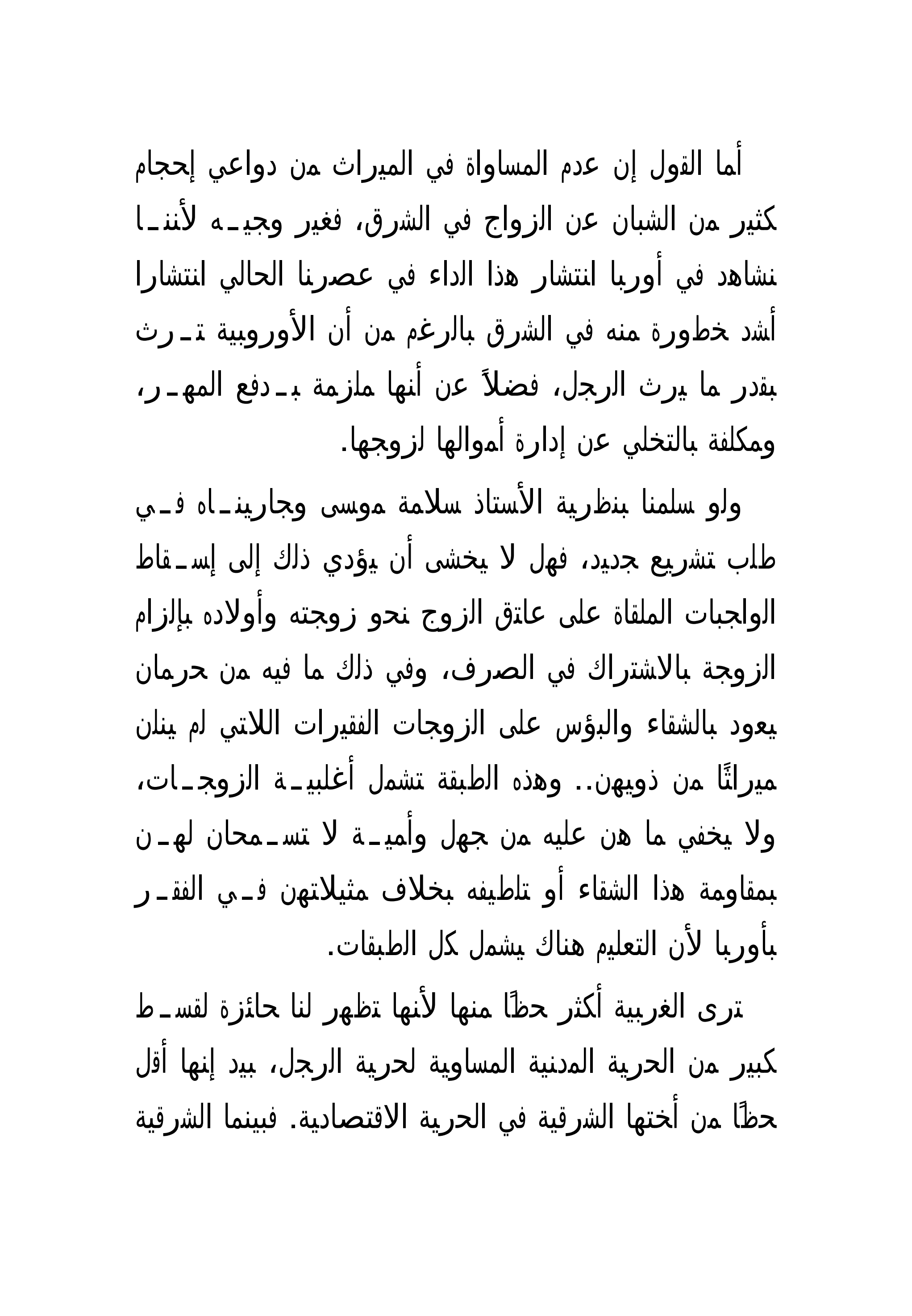
ولعمرنا إن التشريع الذي يدعو إلى الاختلاق لا يكون تشريعا يضعه مصلحون يرمون إلى تقديم الخلق، فإن كان سيدي الأستاذ الكبير لا يزال بعد ذلك يرى أن الطلاق على يد القاضي أوفى وأن السيد لا يزال بعد ذلك يرى صلاحية هذا التشريع، فإننا نقول له مع القائلين: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾.

نصيب المرأة في الميراث

وفي ذلك الوقت الذي كانت تدور فيه مثل هذه المناقشات الحارة، اقترح الأستاذ الفاضل سلامة أفندي موسى في كتاب أرسله إلي أن أطلب إلى وزارة الحقانية سن قانون يساوي بين المرأة والرجل في الميراث، وقد أرفق خطابه بملخص محاضرة ألقاها بدار جمعية الشبان المسيحية عن نهضة المرأة في مصر، وكانت هذه المحاضرة قد نشرت في جريدة المقطم الغراء، وقد رددت على هذا الاقتراح بمقال في جريدة السياسة، قلت له:

"يهمني أن أبلغ حضرة الأستاذ ومن حضروا خطبته أني في خدمتي لهذه النهضة أؤدي واجبا معهودا إلى من جمعية الاتحاد النسائي التي شرفتني برئاستها، ولما كان نصيب المرأة في الميراث ليس من المسائل الداخلة في هذا الموضوع، لا بإقرار الحالة الحاضرة ولا بتعديلها.

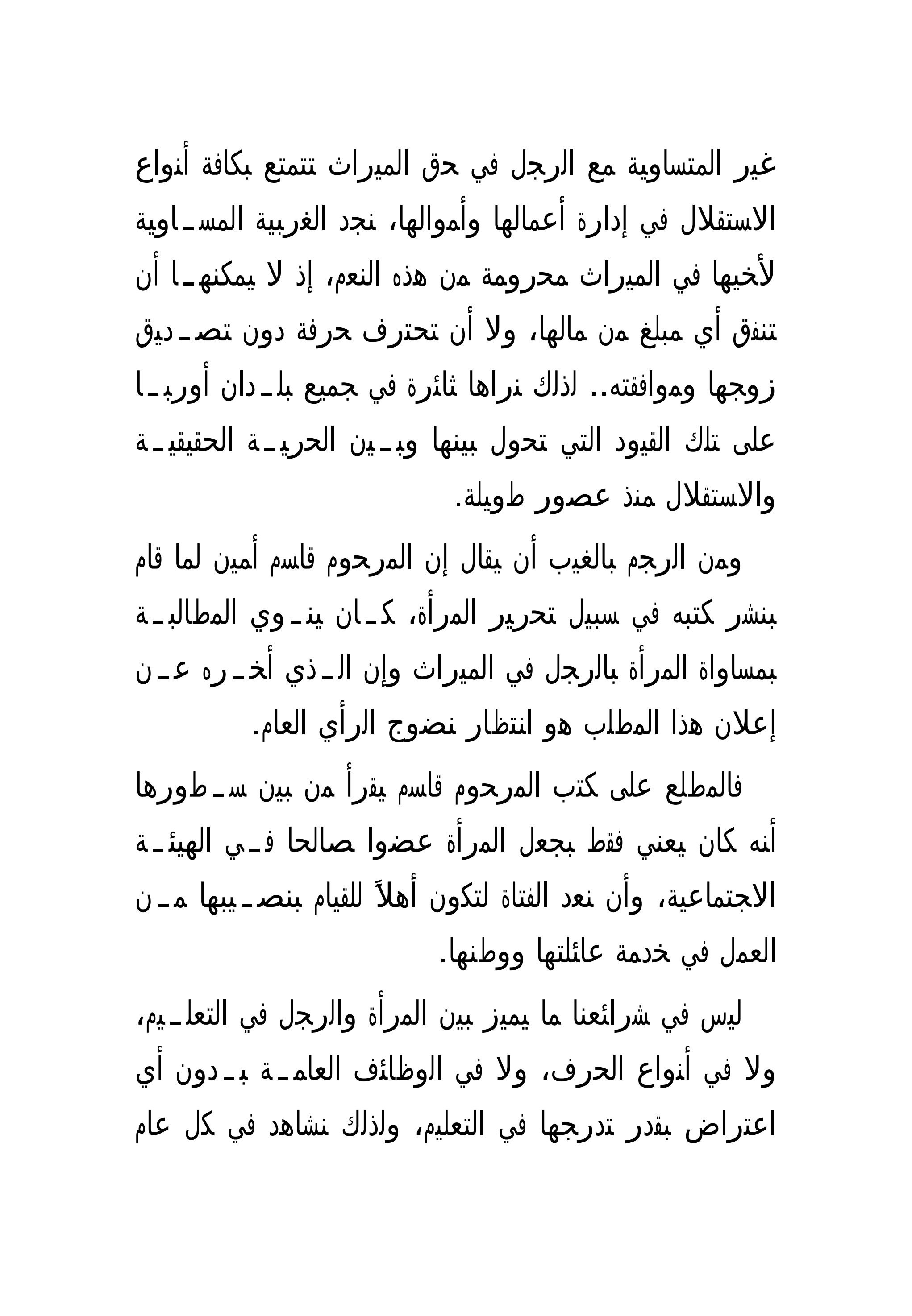
وإن كان لابد من إبداء رأيي في هذا الموضوع، فأقول بصفتي الشخصية أني لست من الموافقين على رأي الأستاذ الخطيب فيما يتعلق بتعديل نصيب المرأة في الميراث. ولا أظن أن النهضة النسوية في هذه البلاد لتأثرها بالحركة النسوية بأوربا يجب أن تتبعها في كل مظهر من مظاهرها، وذلك لأن لكل بلد تشريعه وتقاليده وليس كل ما يصلح في بعضها يصلح في البعض الآخر، على إننا لم نلاحظ تذمرا من المرأة أو شكوى من عدم مساواتها لرجل في الميراث، والظاهر أن اقتناعها بما قسم لها من نصيب، ناشئ من أن الشريعة عوضتها مقابل ذلك بتكليف الزوج بالإنفاق عليها وعلى أولادهما، كما منحتها حق استقلال التصرف في أموالها.



أما القول إن عدم المساواة في الميراث من دواعي إحجام كثير من الشبان عن الزواج في الشرق، فغير وجيه لأننا نشاهد في أوربا انتشار هذا الداء في عصرنا الحالي انتشارا أشد خطورة منه في الشرق بالرغم من أن الأوروبية ترث بقدر ما يرث الرجل، فضلاً عن أنها ملزمة بدفع المهر، ومكلفة بالتخلي عن إدارة أموالها لزوجها.

ولو سلمنا بنظرية الأستاذ سلامة موسى وجاريناه في طلب تشريع جديد، فهل لا يخشى أن يؤدي ذلك إلى إسقاط الواجبات الملقاة على عاتق الزوج نحو زوجته وأولاده بإلزام الزوجة بالاشتراك في الصرف، وفي ذلك ما فيه من حرمان يعود بالشقاء والبؤس على الزوجات الفقيرات اللاتي لم ينلن ميراثًا من ذويهن.. وهذه الطبقة تشمل أغلبية الزوجات، ولا يخفي ما هن عليه من جهل وأمية لا تسمحان لهن بمقاومة هذا الشقاء أو تلطيفه بخلاف مثيلاتهن في الفقر بأوربا لأن التعليم هناك يشمل كل الطبقات.

ترى الغربية أكثر حظًا منها لأنها تظهر لنا حائزة لقسط كبير من الحرية المدنية المساوية لحرية الرجل، بيد إنها أقل حظًا من أختها الشرقية في الحرية الاقتصادية. فبينما الشرقية



غير المتساوية مع الرجل في حق الميراث تتمتع بكافة أنواع الاستقلال في إدارة أعمالها وأموالها، نجد الغربية المسـاوية لأخيها في الميراث محرومة من هذه النعم، إذ لا يمكنهـا أن تنفق أي مبلغ من مالها، ولا أن تحترف حرفة دون تصـديق زوجها وموافقته.. لذلك نراها ثائرة في جميع بلـدان أوربـا على تلك القيود التي تحول بينها وبـين الحريـة الحقيقيـة والاستقلال منذ عصور طويلة.

ومن الرجم بالغيب أن يقال إن المرحوم قاسم أمين لما قام بنشر كتبه في سبيل تحرير المرأة، كـان ينـوي المطالبـة بمساواة المرأة بالرجل في الميراث وإن الـذي أخـره عـن إعلان هذا المطلب هو انتظار نضوج الرأي العام.

فالمطلع على كتب المرحوم قاسم يقرأ من بين سـطورها أنه كان يعني فقط بجعل المرأة عضوا صالحا فـي الهيئـة الاجتماعية، وأن نعد الفتاة لتكون أهلاً للقيام بنصـيبها مـن العمل في خدمة عائلتها ووطنها.

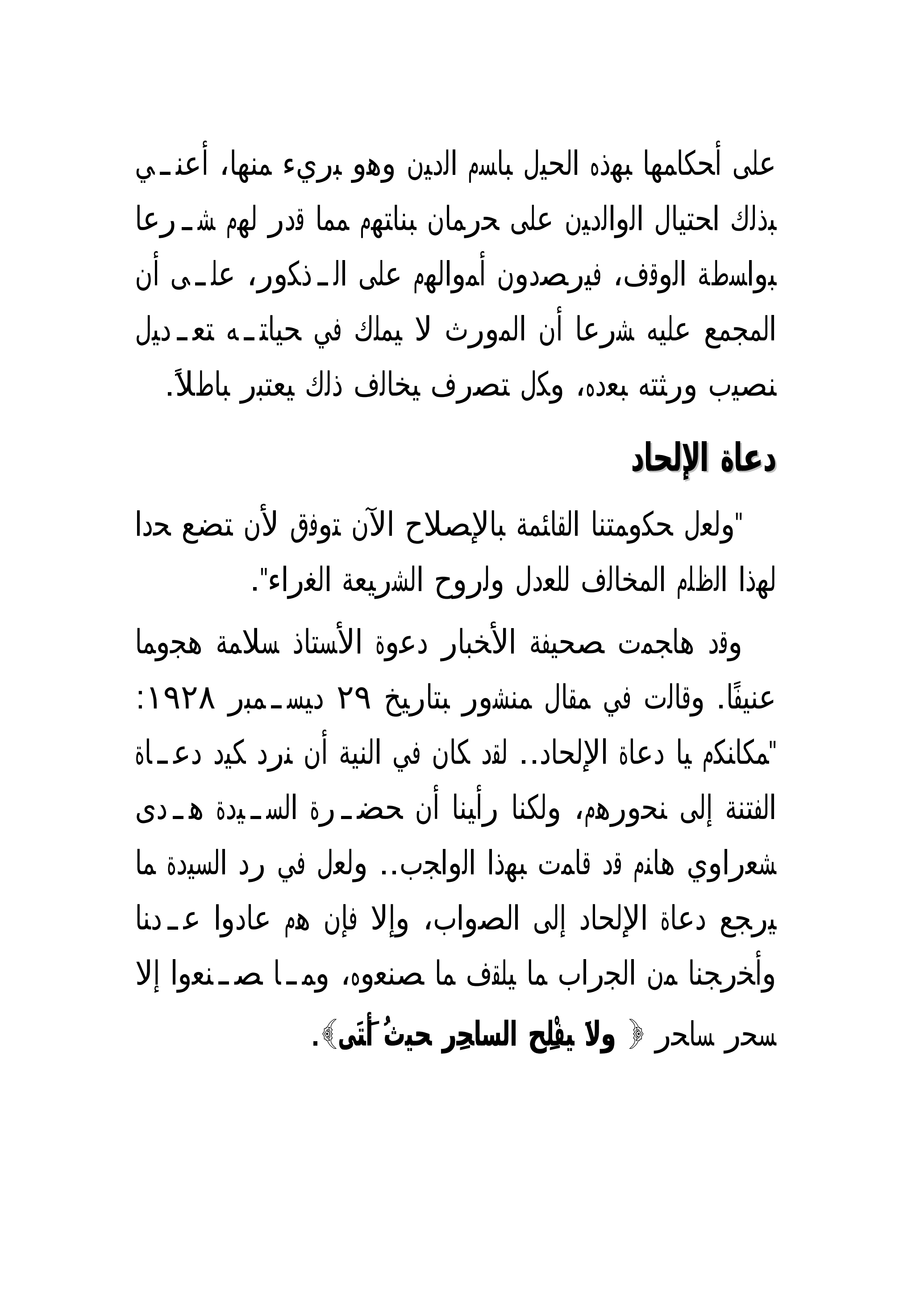
ليس في شرائعنا ما يميز بين المرأة والرجل في التعلـيم، ولا في أنواع الحرف، ولا في الوظائف العامـة بـدون أي اعتراض بقدر تدرجها في التعليم، ولذلك نشاهد في كل عام

ازدياد عدد الموظفات في وظائف التعليم ومصالح التليفونات والطب وغيرها، ولا فرق في الأجر بين الرجـل والمـراة المتساويين في الكفاءة بخلاف ما هو جار في أوربا اليوم.

إن أهم ما يشغلنا اليوم في الوصول بالمرأة إلى المركـز اللائق بها، ليس هو السعي لتغيير القوانين أو قلب الشريعة، فلله الحمد لم نجد في هذه ولا تلك من الأحكام ما يحملنا على التذمر والشكوى.. بل كل ما نسعى إليه هو حسن تطبيق هذه القوانين بما يطابق غرض الشارع وحكمه، وكـل المطالـب التي تقدمنا بها إلى الحكومة ترجع إلى تحقيق هذا الغـرض لتحسين حال العائلة وهنائها.

وما عرضناه تنظيما لمسائل الطلاق والزواج والحضـانة وبيت الطاعة يرجع إلى هذا أيضا، ولا يخرج عـن أحكـام الشريعة الغراء".

فإذا كان هناك من موجب لاستياء المرأة وشكواها، فليس من رجحان نصيب الرجل على نصيبها في الميراث، بل من تصرفات أخرى يتبعها الوالدان، وكثيرا مـا تفضـي إلـى حرمانها من هذا النصيب الضئيل بطريق الوقف. وإذا شكونا منها لا نكون متظلمين من الشريعة نفسها بل من الخـروج



على أحكامها بهذه الحيل باسم الدين وهو بريء منها، أعني بذلك احتيال الوالدين على حرمان بناتهم مما قدر لهم شرعا بواسطة الوقف، فيرصدون أموالهم على الذكور، على أن المجمع عليه شرعا أن المورث لا يملك في حياته تعديل نصيب ورثته بعده، وكل تصرف يخالف ذلك يعتبر باطلاً.

دعاة الإلحاد

"ولعل حكومتنا القائمة بالإصلاح الآن توفق لأن تضع حدا لهذا الظلم المخالف للعدل والروح الشريعة الغراء".

وقد هاجمت صحيفة الأخبار دعوة الأستاذ سلامة هجوما عنيفًا. وقالت في مقال منشور بتاريخ ٢٩ ديسمبر ١٩٢٨: "مكانكم يا دعاة الإلحاد.. لقد كان في النية أن نرد كيد دعاة الفتنة إلى نحورهم، ولكنا رأينا أن حضرة السيدة هدى شعراوي هانم قد قامت بهذا الواجب.. ولعل في رد السيدة ما يرجع دعاة الإلحاد إلى الصواب، وإلا فإن هم عادوا عدنا وأخرجنا من الجراب ما يلقف ما صنعوه، وما صنعوا إلا سحر ساحر ﴿ **ولاَ يفْلِح الساحِر حيثُ أَتَى**﴾.

رسالة الأمير طوسون

وقد تلقيت في أعقاب نشر المقال، رسالة من الأمير عمر طوسون يعلق فيها على موقفي من مسألة الميراث، وقد نشرت الصحف نص هذه الرسالة التي جاء فيها:

"قرأنا المقال الحكيم المنشور في جريدة الأهرام الغراء تحت عنوان "نصيب المرأة في الميراث"، فسرنا أن تكون الحكمة رائد عصمتك فيما توخيته من نهضة المرأة المصرية والعمل على رقيها مع الاحتفاظ بالشرائع الإلهية والصالح من عاداتنا وأخلاقنا ومميزاتنا القومية كأمة لها كيان بمقوماتها ومشخصاتها. فهذه هي طريق الإصلاح النافع وسبيل النهضة الصحيحة.

أما الدعوة إلى إطراح قوميتنا والانفصال شيئًا فشيئًا عن أصول ديانتنا، تلك الدعوة التي يدعو إليها الآن نفر منا رأوا الشقة بيننا وبين الغربيين بعيدة، فأرادوا بحسن قصد فيما نظن أن يعلوا بنا إليهم من طريق الطفرة، وحسبوا من استحكام حلقات التأخر وتغلغله فينا أن ليس لنا نجاة إلا بتحطيم ما نحن عليه من خلق وعادات ودين، فتلك دعوة

خطرة المغبة، سيرون بأعينهم قريبا من عملوا بها قد ضلوا الطريق وأصبحوا حيارى لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.

لذلك كان إعجابنا بمقال عصمتك في وسط هـذه المحـن التي تحدق بالشرق والشرقيين إعجابا لا حد له، وارتياحنـا إليه من هذه الناحية عظيما كبيرا، خصوصا أنك أيدت فيـه جانب الشريعة الإسلامية الغراء، وبينت وجه الحكمة وسـر التشريع في نقص نصيب المرأة عن الرجل في الميـراث.. وإذا كان اللائق في بعض الأحيان يدعو إلى الإغضاء علـى القذى والغض عن الإساءة، فالواجب يحتم أن يقال للمحسـن أحسنت، وهذا هو الذي أردناه من كتابنا هذا إلى عصمتك".

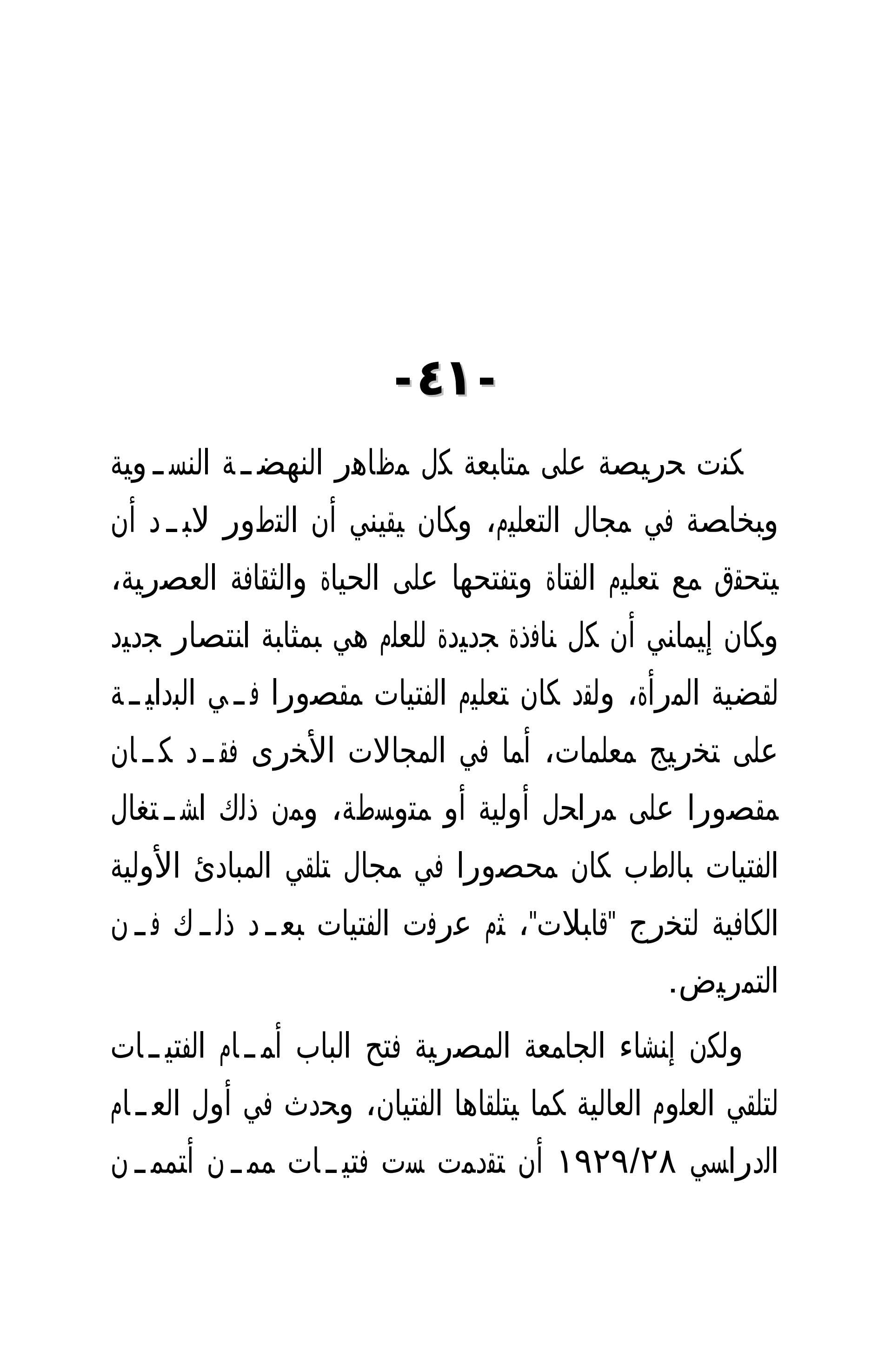
عيد المصرية

وخلال هذه الفترة.. وبالتحديـد فـي يـوم ٢٤ ديسـمبر ١٩٢٨، احتفلنا بالذكرى الثالثة لصـدور مجلـة المصـرية "الاجبسيين"، وهي مجلة كنت أصـدرها باللغـة الفرنسـية للتعريف بأحوال المرأة المصرية وتطوراتها.. وقد أقيم هـذا الاحتفال في منزلي، وشاركت فيه شخصـيات عامـة مـن الرجال والنساء، تقديرا لدور هذه المجلة.

وقد كتبت جريدة المقطم بهذه المناسبة تقول: "اليوم تستقبل مجلة "المصرية" الذكرى الثالثة لظهورها، وإننا لسعداء بـأن نحييها عند بزوغ فجر هذا اليوم سائلين لها عمـرا طـويلاً وجولات صالحة في ميدان الخير العام.

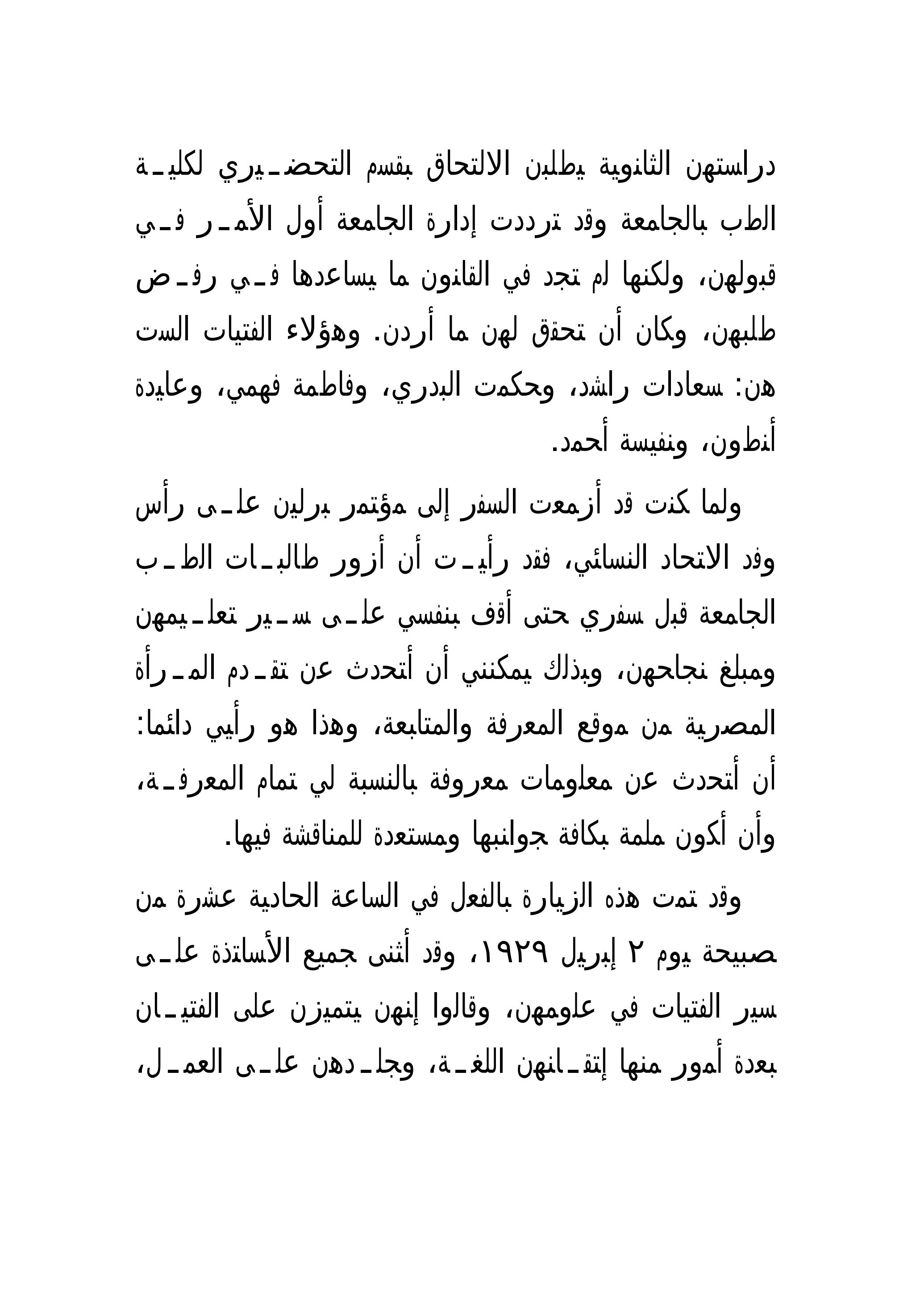
إن مجلة "المصرية" هي مجلة نسوية تنادي بمـا يخـالف مبادئنا وخطتنا في تربية المرأة وفي تحديد حقـوق المـرأة وبيان مهمتها، وفي القرن العشرين، عهد توزيـع الأعمـال والتخصص في فروع كل مهنة، تقـول بمزاحمـة الجـنس اللطيف للجنس الخشن، ولكنها مع ذلك سـدت مـن ناحيـة أعمال البر بالإنسانية وإغاثة الملهوفين وتشـجيع الصـنائع المصرية وبخاصة القديمة منها.

على أن الخلاف في الرأي لا بد منـه فـي أمـة تريـد النهوض.. بل هو بمثابة عنصر في الدواء العـام لمختلـف الأمراض".



كنت حريصة على متابعة كل مظاهر النهضة النسوية وبخاصة في مجال التعليم، وكان يقيني أن التطور لابد أن يتحقق مع تعليم الفتاة وتفتحها على الحياة والثقافة العصرية، وكان إيماني أن كل نافذة جديدة للعلم هي بمثابة انتصار جديد لقضية المرأة، ولقد كان تعليم الفتيات مقصورا في البداية على تخريج معلمات، أما في المجالات الأخرى فقد كان مقصورا على مراحل أولية أو متوسطة، ومن ذلك اشتغال الفتيات بالطب كان محصورا في مجال تلقي المبادئ الأولية الكافية لتخرج "قابلات"، ثم عرفت الفتيات بعد ذلك فن التمريض.

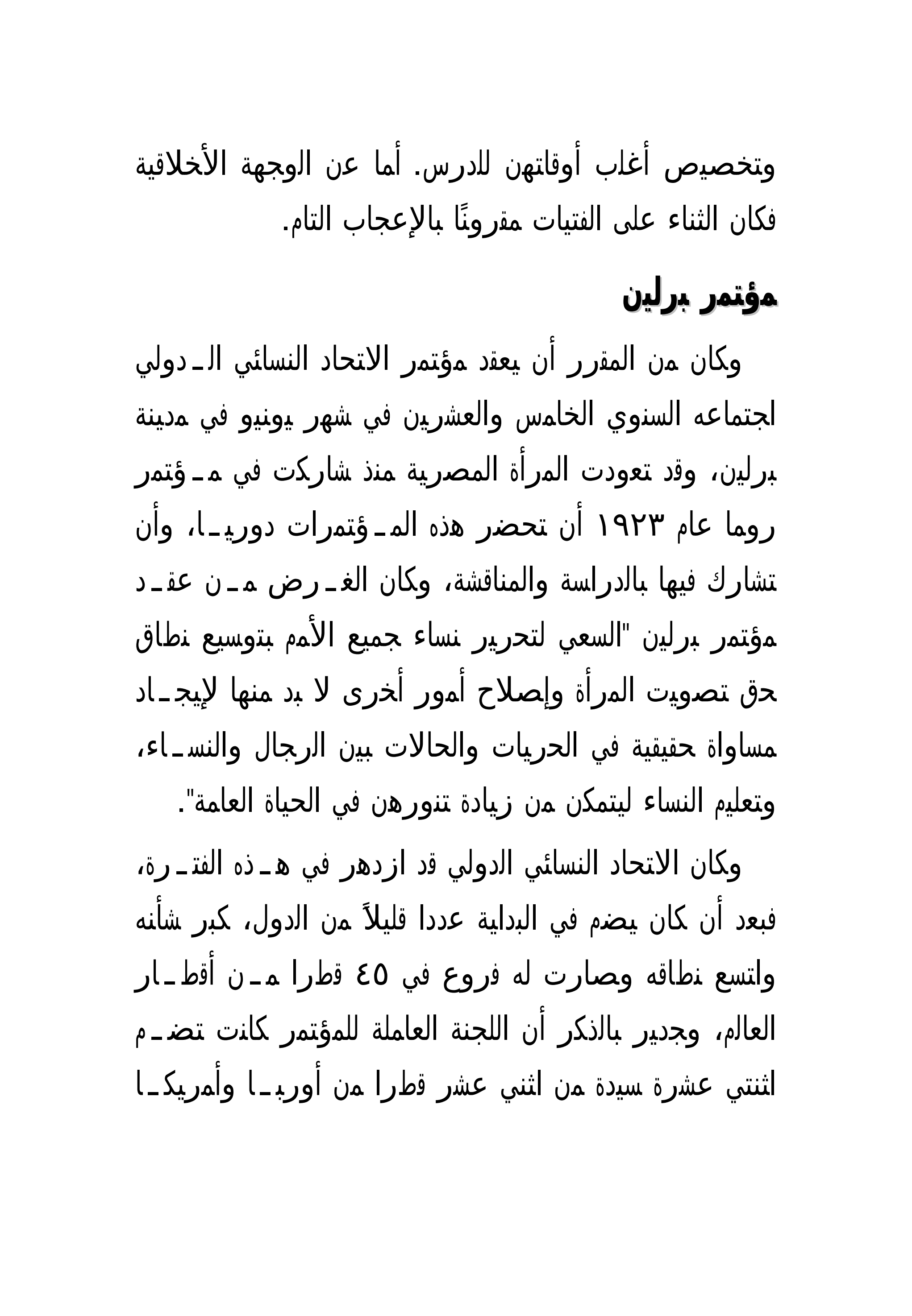
ولكن إنشاء الجامعة المصرية فتح الباب أمام الفتيات لتلقي العلوم العالية كما يتلقاها الفتيان، وحدث في أول العام الدراسي ١٩٢٩/٢٨ أن تقدمت ست فتيات ممن أتممن



دراستهن الثانوية يطلبن الالتحاق بقسم التحضـيري لكليـة الطب بالجامعة وقد ترددت إدارة الجامعة أول الأمـر فـي قبولهن، ولكنها لم تجد في القانون ما يساعدها فـي رفـض طلبهن، وكان أن تحقق لهن ما أردن. وهؤلاء الفتيات الست هن: سعادات راشد، وحكمت البدري، وفاطمة فهمي، وعايدة أنطون، ونفيسة أحمد.

ولما كنت قد أزمعت السفر إلى مؤتمر برلين علـى رأس وفد الاتحاد النسائي، فقد رأيـت أن أزور طالبـات الطـب الجامعة قبل سفري حتى أقف بنفسي علـى سـير تعلـيمهن ومبلغ نجاحهن، وبذلك يمكنني أن أتحدث عن تقـدم المـرأة المصرية من موقع المعرفة والمتابعة، وهذا هو رأيي دائما: أن أتحدث عن معلومات معروفة بالنسبة لي تمام المعرفـة، وأن أكون ملمة بكافة جوانبها ومستعدة للمناقشة فيها.

وقد تمت هذه الزيارة بالفعل في الساعة الحادية عشرة من صبيحة يوم ٢ إبريل ١٩٢٩، وقد أثنى جميع الأساتذة علـى سير الفتيات في علومهن، وقالوا إنهن يتميزن على الفتيـان بعدة أمور منها إتقـانهن اللغـة، وجلـدهن علـى العمـل،



وتخصيص أغلب أوقاتهن للدرس. أما عن الوجهة الأخلاقية فكان الثناء على الفتيات مقرونًا بالإعجاب التام.

مؤتمر برلين

وكان من المقرر أن يعقد مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي اجتماعه السنوي الخامس والعشرين في شهر يونيو في مدينة برلين، وقد تعودت المرأة المصرية منذ شاركت في مؤتمر روما عام ١٩٢٣ أن تحضر هذه المؤتمرات دوريا، وأن تشارك فيها بالدراسة والمناقشة، وكان الغرض من عقد مؤتمر برلين "السعي لتحرير نساء جميع الأمم بتوسيع نطاق حق تصويت المرأة وإصلاح أمور أخرى لا بد منها لإيجاد مساواة حقيقية في الحريات والحالات بين الرجال والنساء، وتعليم النساء ليتمكن من زيادة تنورهن في الحياة العامة".

وكان الاتحاد النسائي الدولي قد ازدهر في هذه الفترة، فبعد أن كان يضم في البداية عددا قليلاً من الدول، كبر شأنه واتسع نطاقه وصارت له فروع في ٤٥ قطرا من أقطار العالم، وجدير بالذكر أن اللجنة العاملة للمؤتمر كانت تضم اثنتي عشرة سيدة من اثني عشر قطرا من أوربا وأمريكا

ومصر، فلم يكن بين هذه الأقطار أي قطر شرقي آخر غير مصر.

وقد عقد المؤتمر في ١٧ يونيو ١٩٢٩، وبلغ عدد أعضائه ٥٠٠ عضو، وكان هناك من بين الدول المشتركة فيه ٢٥ دولة قد منحت النساء حق الانتخاب.

وكان المؤتمر وأعضاؤه موضع عناية تامة من الشعب الألماني والحكومة الألمانية.. وقد اشترك وخطب فيه كبار رجال الدولة من وزراء وحكام وسياسيين. وإذا عرفنا أن ٥٥ في المئة من نساء ألمانيا يشاركن الرجال في الأعمال، فإننا نستطيع أن ندرك من خلال ذلك مدى اهتمام الشعب الألماني بالجمعيات والمؤتمرات النسوية.

وقد ألقى الهر سفرنج وزير الداخلية خطبة الافتتاح، وكان مما جاء فيها: لو كان للنساء حق الانتخاب قبل سنة ١٩١٤ لما اندلعت الحرب وأنزلت الخراب بالعالم، لأن النساء قد يقدرن مخاطر الحرب ويألمن من عواقبها أكثر من الرجال، فبواسطتهن سيتحقق حلم الإنسانية الرامي إلى نشر السلام والإخاء بين الأمم، وعلينا ألا ننسى أن المرأة هي رئة الأمة، منها يدخل الهواء النقي المنعش لسائر أعضاء الجسم.

وقد أتيح لنا أثناء إقامتنا في برلين زيارة المستوصفات وملاجئ الأطفال وجمعيات رعاية الأمهات، وقد درسنا نظام تلك النشاطات الاجتماعية التي تمت وازدهرت في ألمانيا أكثر من سواها، وكان يتولى إرشاد الأعضاء في هذه الزيارة طائفة من سيدات الطبقة الراقية في برلين.

وإذا كان الوفد النسائي المصري قد استطاع أن يحقق فوائد أدبية كثيرة في هذا المؤتمر، فلا جدال في أن فوزه الأكبر كان في حمل المؤتمر على إقرار الاقتراح التالي:

جهودنا لإلغاء الامتيازات

نظرا لأن نظام الامتيازات لا يدع للسلطات المصرية أية سيطرة على منازل البغاء الأجنبية، كما أنه لا يدع لها أية سلطة لمراقبة تجارة المواد المخدرة التي تفتك بالشرق فتكًا ذريعا.

ونظرا لضرورة إلغاء تلك المنازل وهذه التجارة كما تقدمت توصيات بذلك إلى جمعية الأمم.

فإن المؤتمر يطلب من الجمعيات المشتركة فيه أن تسعى كل لدى حكوماتها لتسهيل ما تقوم به السلطات المصرية من أعمال التطهير صحيا وأدبيا".

وقد لقي هذا الاقتراح بعض الاعتراض، وبخاصـة مـن جانب رئيسة الوفد الإنجليزي لعلاقته بنظام الامتيازات مـا يجعل له صفة سياسية. وكان المطلوب هو إرجاء النظر فيه إلى مؤتمر قادم. ولكني حرصت على الاتصـال برئيسـات سائر الوفود بين الجلسات حتى كللت مجهوداتنـا بالنجـاح. ونذكر هنا بالفضل دور رئيسة الوفد الفرنسي مدام كرامـر باك المحامية، فقد حملت على نظام الامتيـازات المجحـف حملة صادقة، فوافق المـؤتمر علـى الاقتـراح المصـري بالإجماع ما عدا الوفد الإنجليزي الذي امتنع عن التصويت.

ومما يذكر أيضا أن المؤتمر قرر قبل انفضاض جلسـاته أن ينتخب مكتبا يسمى "مكتب الاتحاد النسوي العـام" وهـو مؤلف من عشرين عضوا، وقد أعيد انتخاب رئيسـة الوفـد المصري عضوا في هذا المكتب بعد أن رشحتها للعضـوية ممثلات ٢١١ دولة ونالت في الانتخاب العام ١٦١ صـوتًا. فكان هذا إشادة بذكر مصر ورفع اسمها بين الدول.

المرأة المصرية في برلين

وقد كتب الأستاذ كريم ثابـت، وهـو أحـد الصـحفيين المصريين البارزين وابن رئيس تحرير جريدة المقطم، مقالاً

تحت هذا العنوان؛ حيث تصادف وجوده في ألمانيـا أثنـاء انعقاد مؤتمر برلين، قال فيه:

"اتفق وجودي في برلين في الشهر الماضي فـي أثنـاء انعقاد المؤتمر النسائي الذي دعا إليه الاتحاد النسائي الدولي. وقد مثلت مصر فيه السيدة هدى هانم شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي المصري والآنسة حداد والآنسـة سـيزا نبـراوي والآنسة ماري كحيل تمثيلاً لائقًا مشرقًا لهذه البلاد ولسيداتها الناهضات.. وحسبي أن أورد هنا للقراء ما حدث في المأدبة الشائقة التي أقامتها السيدة هدى هانم في فندق "كايزر هوف" ببرلين لجمهور من وزراء الألمان الحاليين والسابقين وكرائم السيدات والأوانس اللواتي ينتمين إلى أكبر البيوت الألمانيـة العريقة في الحسب والنسب.

وقد كان في مقدمة من لبى الدعوة إلى المأدبة المصـرية سعادة الدكتور جرارد وزير الحقانية الألمانية الحالي وسعادة الهر روزن وزير الخارجية الألمانيـة الأسـبق وقرينـاتهم والبارونة كاردورف عقيلة وكيل مجلس الرخستاغ وزعيمـة الحركة النسائية في ألمانيا وغيرهم من الكبراء والعظمـاء. وكان الرجال لابسين ملابـس السـهرة الرسـمية (الفـراك

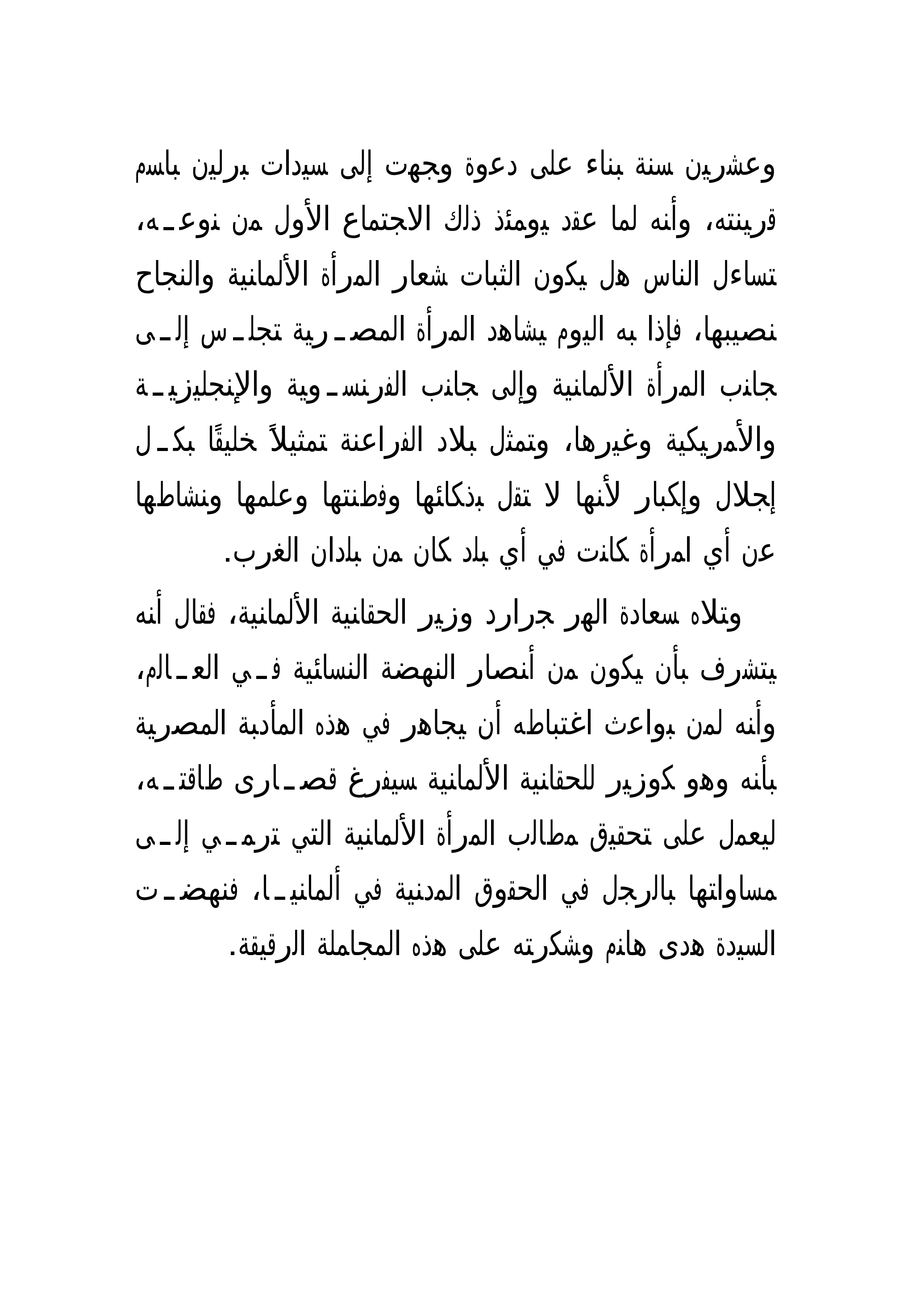
لا السموكنج) ومتقلدين أرفع نياشينهم دلالـة علـى عظمـة تقديرهم للدعوة التي وجهت إليهم وشدة اعتبارهم لها.

وبعد الفراغ من الطعام، نهضت السيدة هدى هام شعراوي وخطبت خطبة بليغة باللغة الفرنسوية، شكرت فيها الألمـان ولا سيما السيدات الألمانيات على ما لقيـه الوفـد النسـائي المصري من حفاوتهن وإكـرامهن، وعلـى مـا صـادفته الاقتراحات المصرية من العطف والتأييد في جلسات المؤتمر وخصوصا ما يتعلق بوجوب تعـديل الامتيـازات الأجنبيـة تعديلاً يشد أزر الحكومة المصرية في الضرب على أيـدي المتاجرين بالمواد المخدرة. وعقبتها الآنسة مـاري كحيـل فخطبت بالألمانية بطلاقة أدهشت سامعيها من أبناء تلك اللغة وبناتها. فبسطت للحاضرين المراحل المتعاقبة التي اجتازتها النهضة النسائية في مصر في السنوات الأخيرة.

ونهضت بعد ذلك البارونة كاردورف، وارتجلت خطبـة ضافية باللغة الألمانية تولت الآنسة ماري كحيل ترجمتها إلى الفرنسوية، ومما قالت زعيمة الحركة النسائية في ألمانيا إنها زارت مصر في الشتاء الماضي للاستشفاء، فانتهزت فرصة إقامتها فيها لتدرس حقيقة النهضة النسائية المصـرية عـن

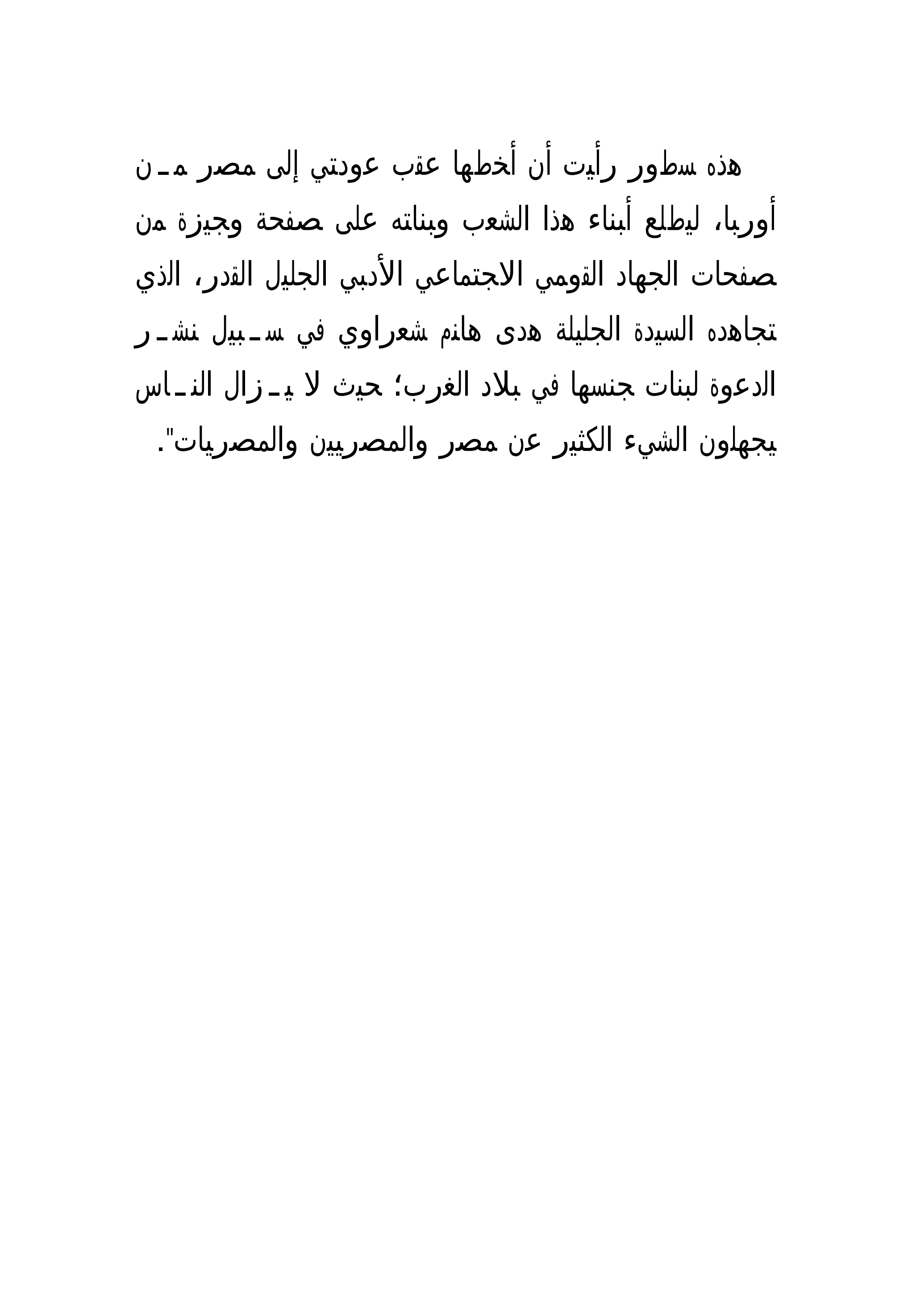
كتب، فخرجت من هذا الـدرس وهـي مطأطئـة احترامـا للمجهود الذي بذلته سيدات مصر في هذا الميـدان، وقالـت "وبلغ من شدة إعجابي بنشاطهن وحماستهن إنني قلـت فـي نفسي لو لم أكن ألمانية لأحببت أن أكـون مصـرية". ثـم استطردت إلى الكلام عن السجون والإصلاحيات والملاجـئ والعيادات النسائية في مصر. فأفاضت في الكلام عما شاهدته من النظام والنظافة وحسن المعاملة في سجن النساء، وتكلمت بعد ذلك عن الملجأ الذي أنشأته السيدة هدى هانم شـعراوي فوصفت أقسامه وما شاهدته من إقبال اليتيمات وغيرهن على الاستفادة من العلوم والصناعات التي يتلقينها فيه. وهنا نوهت الخطيبة بمآثر السيدة هدى هانم ومناقبها وبحسن بلائها فـي سبيل رفع لواء النهضـة النسـائية فـي مصـر، فصـفق الحاضرون وهتفوا لرئيسة الاتحاد النسائي المصري، فسارت البارونة كاردورف إلى حيث كانت السيدة هدى هانم جالسـة وقبلتها بين تصفيق المدعوين الشديد. ثم تكلـم كاتـب هـذه السطور بالفرنسوية.

وعقب سعادة الهر سفرنج.. فقال إن أول اجتماع للنهضة النسائية الألمانية عقد في حديقـة داره مـن نحـو خمـس

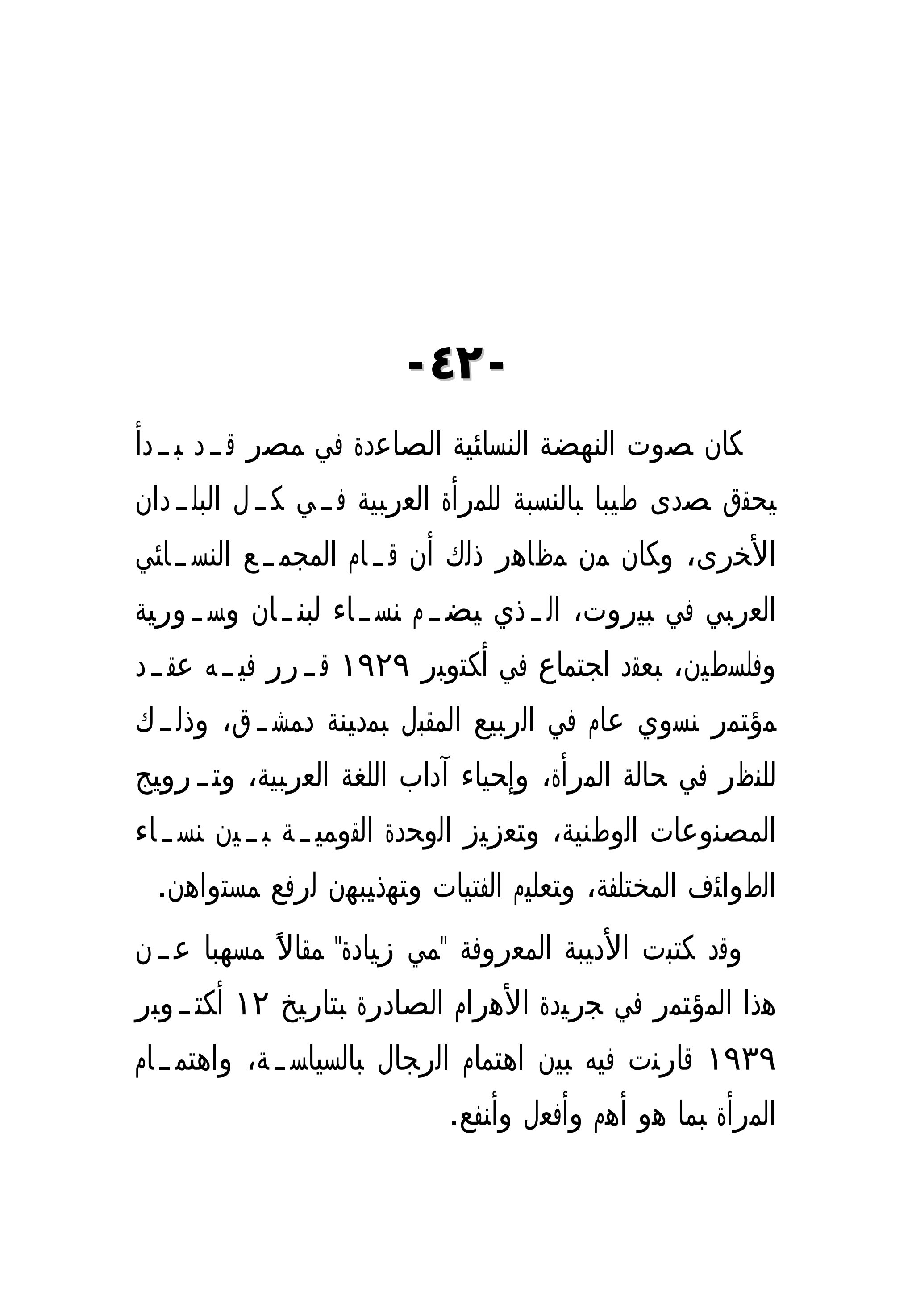


وعشرين سنة بناء على دعوة وجهت إلى سيدات برلين باسم قرينته، وأنه لما عقد يومئذ ذلك الاجتماع الأول من نوعـه، تساءل الناس هل يكون الثبات شعار المرأة الألمانية والنجاح نصيبها، فإذا به اليوم يشاهد المرأة المصـرية تجلـس إلـى جانب المرأة الألمانية وإلى جانب الفرنسـوية والإنجليزيـة والأمريكية وغيرها، وتمثل بلاد الفراعنة تمثيلاً خليقًا بكـل إجلال وإكبار لأنها لا تقل بذكائها وفطنتها وعلمها ونشاطها عن أي امرأة كانت في أي بلد كان من بلدان الغرب.

وتلاه سعادة الهر جرارد وزير الحقانية الألمانية، فقال أنه يتشرف بأن يكون من أنصار النهضة النسائية فـي العـالم، وأنه لمن بواعث اغتباطه أن يجاهر في هذه المأدبة المصرية بأنه وهو كوزير للحقانية الألمانية سيفرغ قصـارى طاقتـه، ليعمل على تحقيق مطالب المرأة الألمانية التي ترمـي إلـى مساواتها بالرجل في الحقوق المدنية في ألمانيـا، فنهضـت السيدة هدى هانم وشكرته على هذه المجاملة الرقيقة.



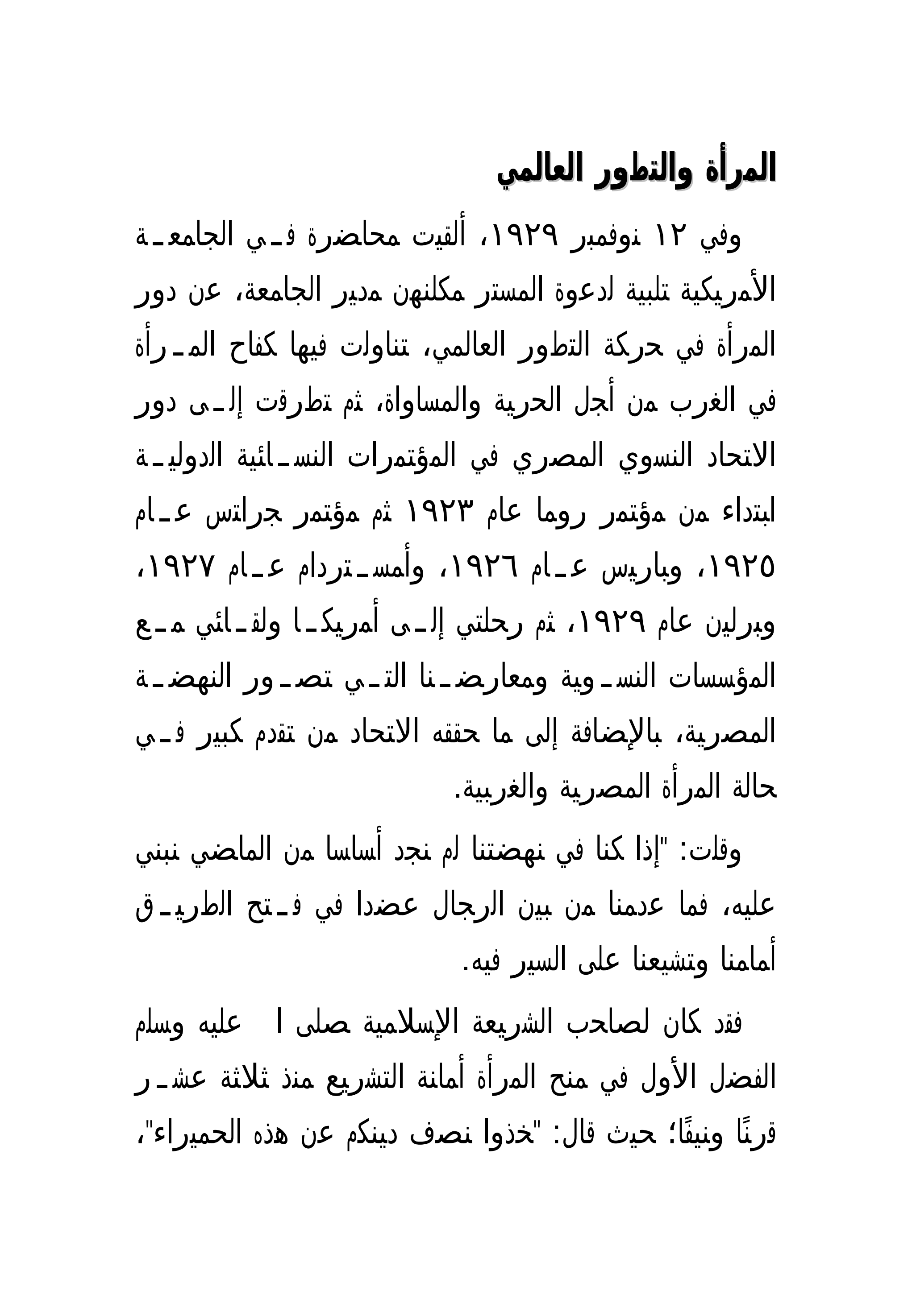
هذه سطور رأيت أن أخطها عقب عودتي إلى مصر من أوربا، ليطلع أبناء هذا الشعب وبناته على صفحة وجيزة من صفحات الجهاد القومي الاجتماعي الأدبي الجليل القدر، الذي تجاهده السيدة الجليلة هدى هانم شعراوي في سبيل نشر الدعوة لبنات جنسها في بلاد الغرب؛ حيث لا يزال الناس يجهلون الشيء الكثير عن مصر والمصريين والمصريات".



-٤٢-

كان صوت النهضة النسائية الصاعدة في مصر قد بدأ يحقق صدى طيبا بالنسبة للمرأة العربية في كل البلدان الأخرى، وكان من مظاهر ذلك أن قام المجمع النسائي العربي في بيروت، الذي يضم نساء لبنان وسورية وفلسطين، بعقد اجتماع في أكتوبر ١٩٢٩ قرر فيه عقد مؤتمر نسوي عام في الربيع المقبل بمدينة دمشق، وذلك للنظر في حالة المرأة، وإحياء آداب اللغة العربية، وترويج المصنوعات الوطنية، وتعزيز الوحدة القومية بين نساء الطوائف المختلفة، وتعليم الفتيات وتهذيبهن لرفع مستواهن.

وقد كتبت الأديبة المعروفة "مي زيادة" مقالاً مسهبا عن هذا المؤتمر في جريدة الأهرام الصادرة بتاريخ ١٢ أكتوبر ١٩٣٩ قارنت فيه بين اهتمام الرجال بالسياسة، واهتمام المرأة بما هو أهم وأفعل وأنفع.

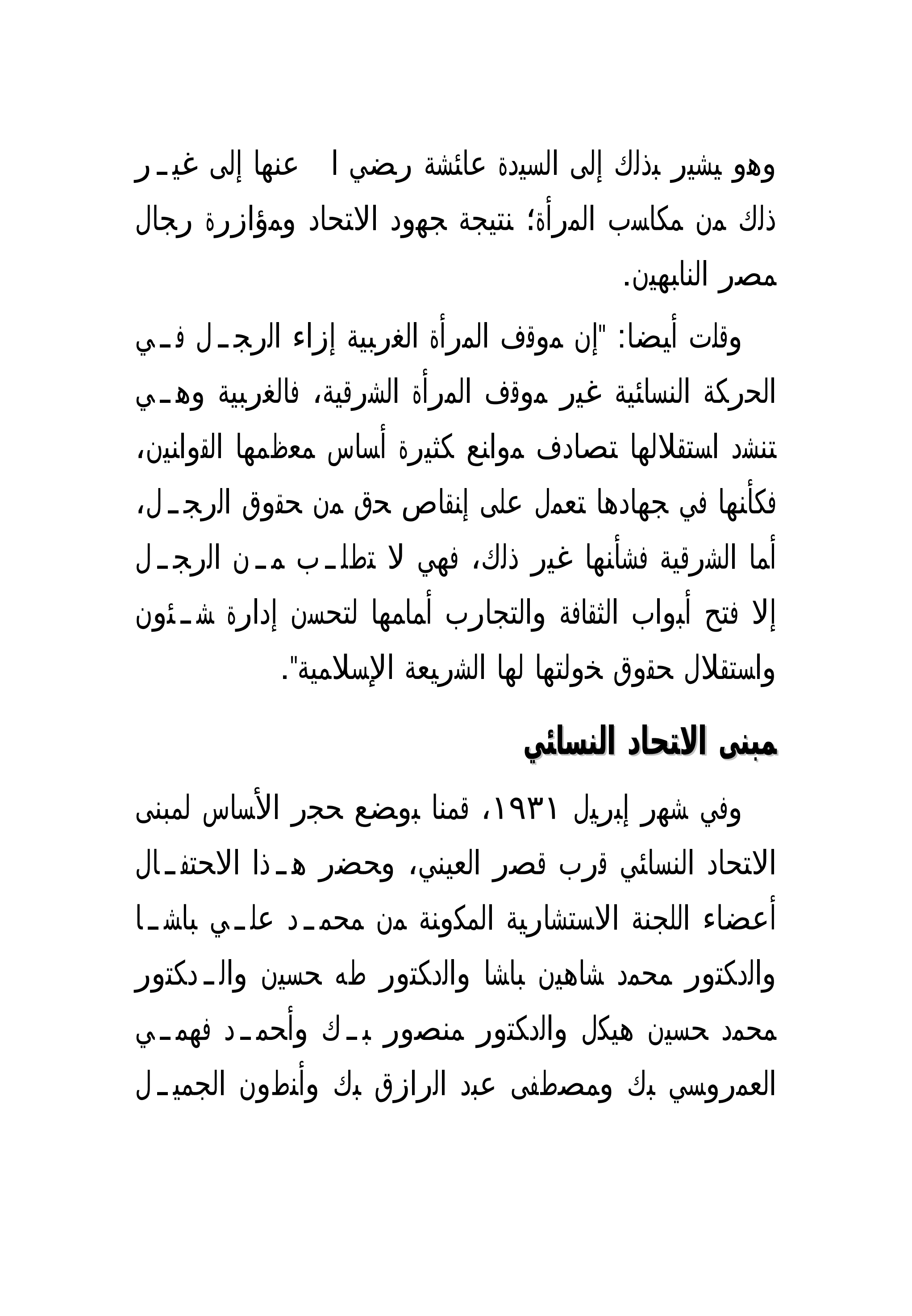


المرأة والتطور العالمي

وفي ١٢ نوفمبر ١٩٢٩، ألقيت محاضرة في الجامعة الأمريكية تلبية لدعوة المستر مكلنهن مدير الجامعة، عن دور المرأة في حركة التطور العالمي، تناولت فيها كفاح المرأة في الغرب من أجل الحرية والمساواة، ثم تطرقت إلى دور الاتحاد النسوي المصري في المؤتمرات النسائية الدولية ابتداء من مؤتمر روما عام ١٩٢٣ ثم مؤتمر جراتس عام ١٩٢٥، وباريس عام ١٩٢٦، وأمستردام عام ١٩٢٧، وبرلين عام ١٩٢٩، ثم رحلتي إلى أمريكا ولقائي مع المؤسسات النسوية ومعارضنا التي تصور النهضة المصرية، بالإضافة إلى ما حققه الاتحاد من تقدم كبير في حالة المرأة المصرية والغربية.

وقلت: "إذا كنا في نهضتنا لم نجد أساسا من الماضي نبني عليه، فما عدمنا من بين الرجال عضدا في فتح الطريق أمامنا وتشيعنا على السير فيه.

فقد كان لصاحب الشريعة الإسلامية صلى ا عليه وسلم الفضل الأول في منح المرأة أمانة التشريع منذ ثلاثة عشر قرنًا ونيفًا؛ حيث قال: "خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء"،

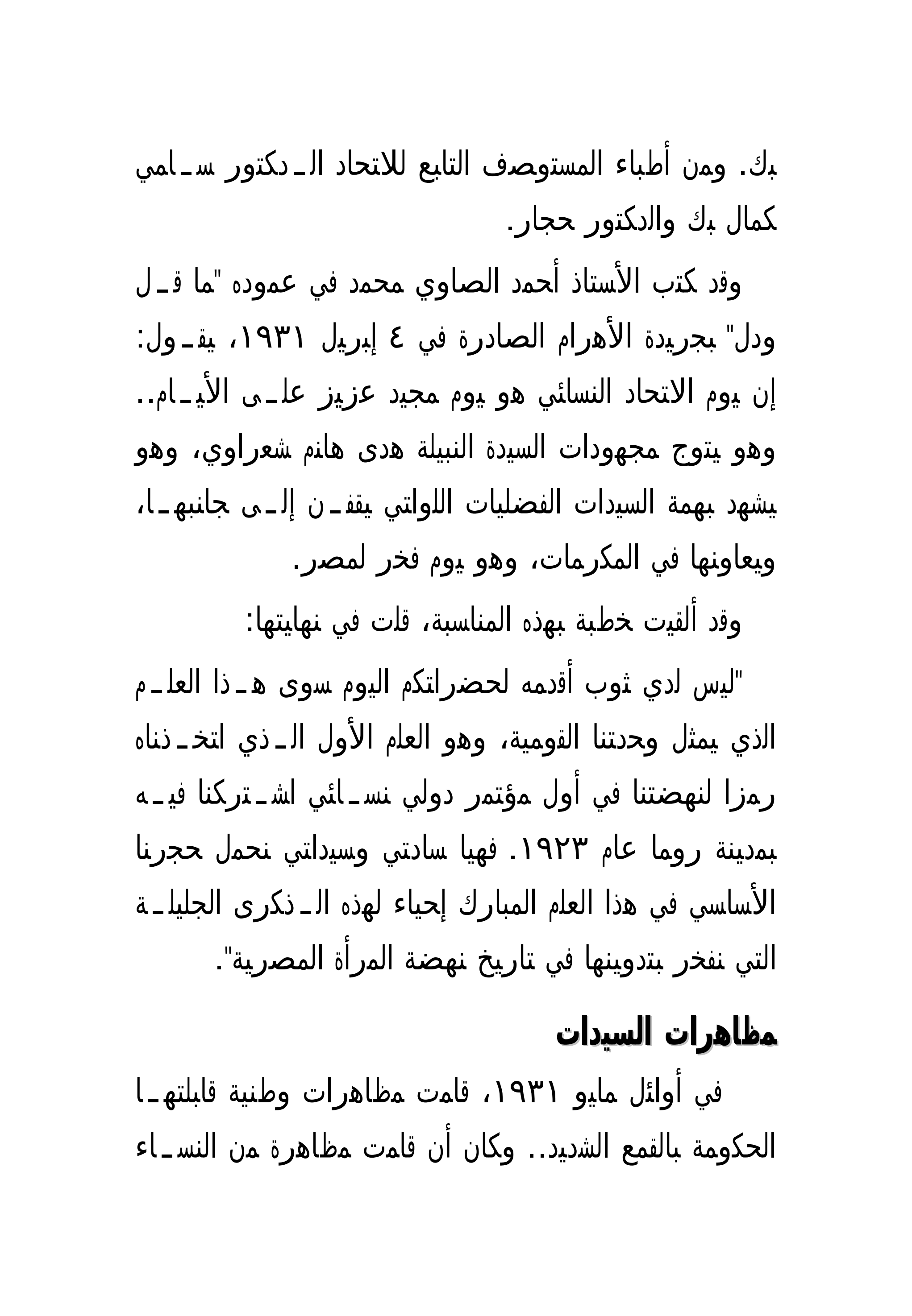


وهو يشير بذلك إلى السيدة عائشة رضي ا عنها إلى غير ذلك من مكاسب المرأة؛ نتيجة جهود الاتحاد ومؤازرة رجال مصر النابهين.

وقلت أيضا: "إن موقف المرأة الغربية إزاء الرجل في الحركة النسائية غير موقف المرأة الشرقية، فالغربية وهي تنشد استقلالها تصادف موانع كثيرة أساس معظمها القوانين، فكأنها في جهادها تعمل على إنقاص حق من حقوق الرجل، أما الشرقية فشأنها غير ذلك، فهي لا تطلب من الرجل إلا فتح أبواب الثقافة والتجارب أمامها لتحسن إدارة شئون واستقلال حقوق خولتها لها الشريعة الإسلامية".

مبنى الاتحاد النسائي

وفي شهر إبريل ١٩٣١، قمنا بوضع حجر الأساس لمبنى الاتحاد النسائي قرب قصر العيني، وحضر هذا الاحتفال أعضاء اللجنة الاستشارية المكونة من محمد علي باشا والدكتور محمد شاهين باشا والدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل والدكتور منصور بك وأحمد فهمي العمروسي بك ومصطفى عبد الرازق بك وأنطون الجميل



بك. ومن أطباء المستوصف التابع للاتحاد الدكتور سامي كمال بك والدكتور حجار.

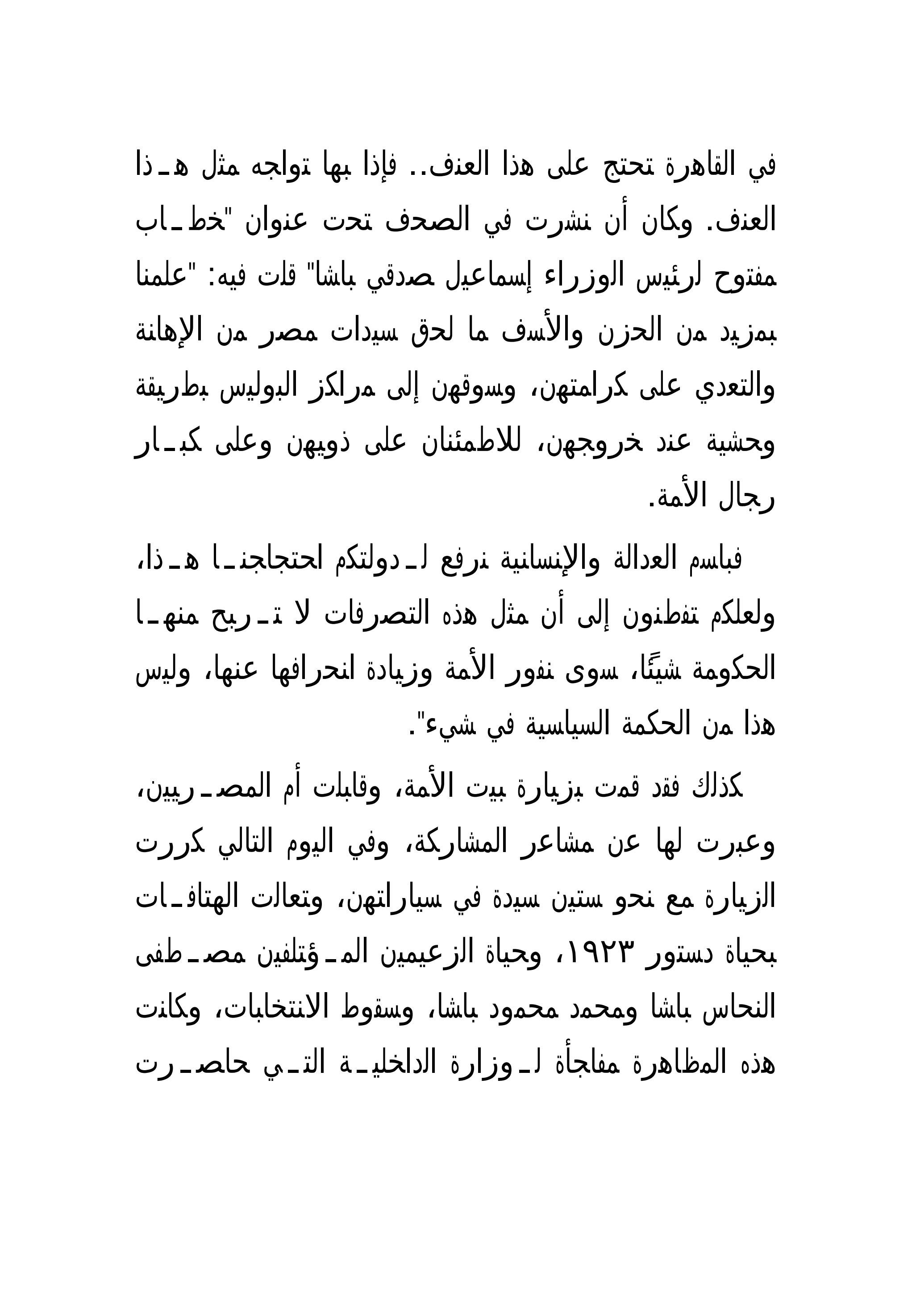
وقد كتب الأستاذ أحمد الصاوي محمد في عموده "ما قل ودل" بجريدة الأهرام الصادرة في ٤ إبريل ١٩٣١، يقول: إن يوم الاتحاد النسائي هو يوم مجيد عزيز على الأيام.. وهو يتوج مجهودات السيدة النبيلة هدى هانم شعراوي، وهو يشهد بهمة السيدات الفضليات اللواتي يقفن إلى جانبها، ويعاونها في المكرمات، وهو يوم فخر لمصر.

وقد ألقيت خطبة بهذه المناسبة، قلت في نهايتها:

"ليس لدي ثوب أقدمه لحضراتكم اليوم سوى هذا العلم الذي يمثل وحدتنا القومية، وهو العلم الأول الذي اتخذناه رمزا لنهضتنا في أول مؤتمر دولي نسائي اشتركنا فيه بمدينة روما عام ١٩٢٣. فهيا سادتي وسيداتي نحمل حجرنا الأساسي في هذا العلم المبارك إحياء لهذه الذكرى الجليلة التي نفخر بتدوينها في تاريخ نهضة المرأة المصرية".

مظاهرات السيدات

في أوائل مايو ١٩٣١، قامت مظاهرات وطنية قابلتها الحكومة بالقمع الشديد.. وكان أن قامت مظاهرة من النساء



في القاهرة تحتج على هذا العنف.. فإذا بها تواجه مثل هذا العنف. وكان أن نشرت في الصحف تحت عنوان "خطاب مفتوح لرئيس الوزراء إسماعيل صدقي باشا" قلت فيه: "علمنا بمزيد من الحزن والأسف ما لحق سيدات مصر من الإهانة والتعدي على كرامتهن، وسوقهن إلى مراكز البوليس بطريقة وحشية عند خروجهن، للاطمئنان على ذويهن وعلى كبار رجال الأمة.

فباسم العدالة والإنسانية نرفع لدولتكم احتجاجنا هذا، ولعلكم تفطنون إلى أن مثل هذه التصرفات لا تربح منها الحكومة شيئًا، سوى نفور الأمة وزيادة انحرافها عنها، وليس هذا من الحكمة السياسية في شيء".

كذلك فقد قمت بزيارة بيت الأمة، وقابلت أم المصريين، وعبرت لها عن مشاعر المشاركة، وفي اليوم التالي كررت الزيارة مع نحو ستين سيدة في سياراتهن، وتعالت الهتافات بحياة دستور ١٩٢٣، وحياة الزعيمين المؤتلفين مصطفى النحاس باشا ومحمد محمود باشا، وسقوط الانتخابات، وكانت هذه المظاهرة مفاجأة لوزارة الداخلية التي حاصرت

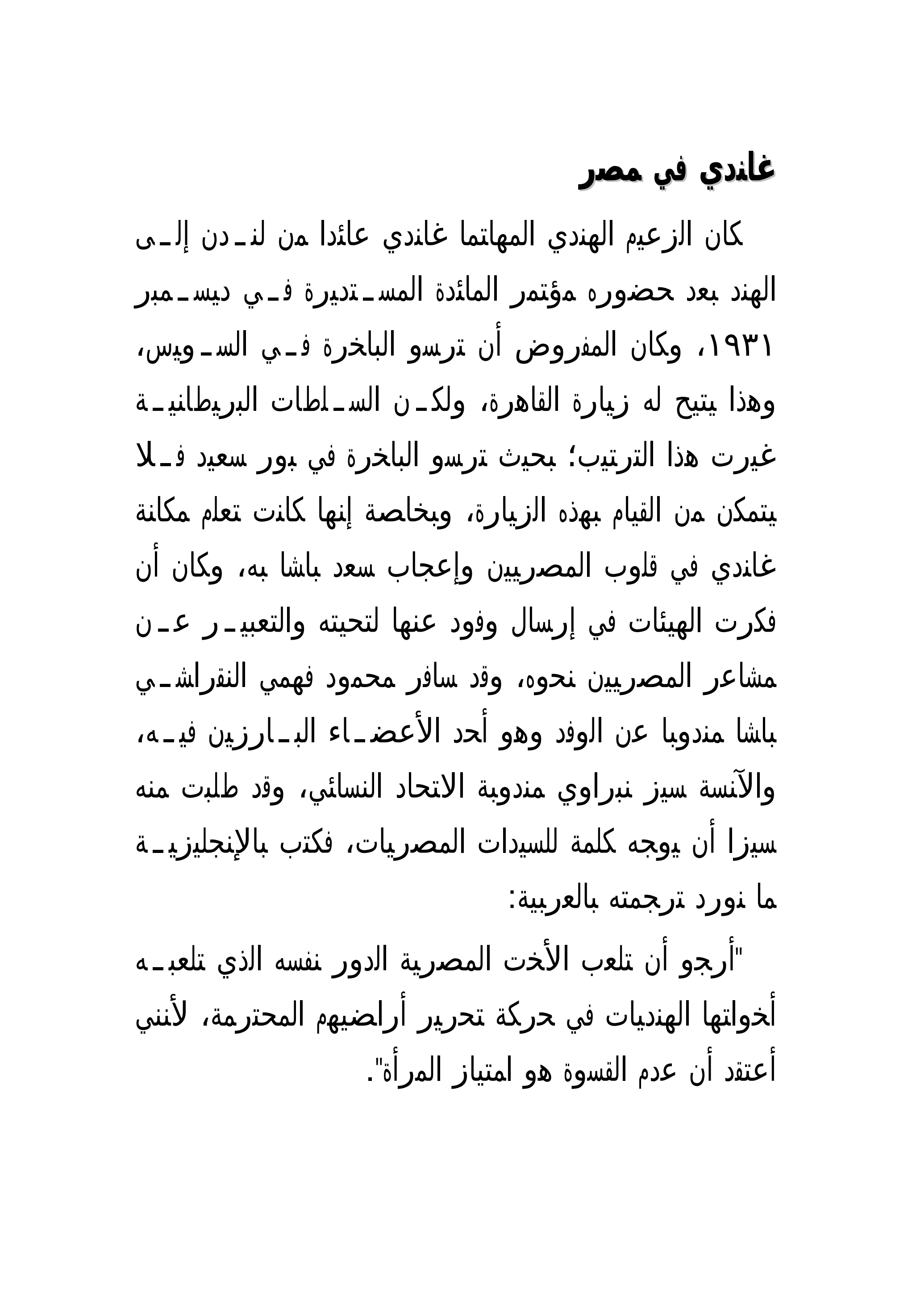
السيارات، ثم أفرجت عنها واحدة بعد الأخرى، على أن تسير كل سيارة في اتجاه مخالف.

رفقًا بالأطفال

وقد هالنا فيما بعد ما اتصل بنا من أخبار تعدي رجال البوليس على الأطفال الصغار الذين تجمعوا في شوارع القاهرة لمشاهدة مواكب السيدات، وأصدرنا احتجاجًا باسم الإنسانية والقانون ضد هذه التصرفات التي لا مبرر لها إلا نشر الرهبة والفزع بين كل طبقات الأمة.

كذلك فقد احتجت الهيئات النسائية في مصر على هدم الدستور، واستمرار وزارة صدقي باشا في نشر سياسة الطغيان والإرهاب في البلاد، وأعلنا مقاطعة الانتخابات.

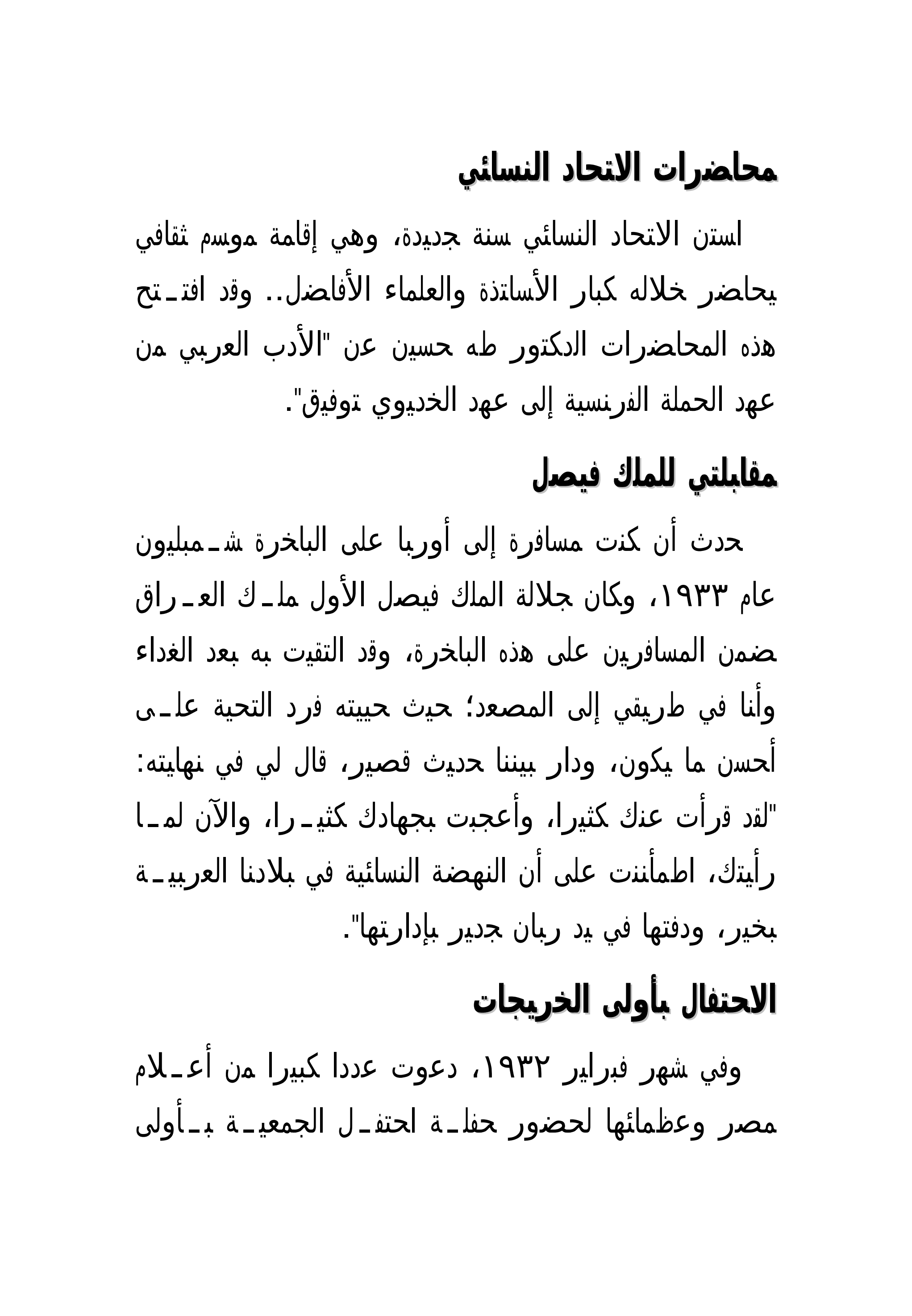
وقد امتدت المظاهرات إلى كل أنحاء البلاد، لدرجة إلقاء القبض على الأطفال في بني سويف، وتصدى البوليس لمظاهرة النساء في بور سعيد، ما أدى إلى جرح ثلاثين عسكريا.



غاندي في مصر

كان الزعيم الهندي المهاتما غاندي عائدا من لندن إلى الهند بعد حضوره مؤتمر المائدة المستديرة في ديسمبر ١٩٣١، وكان المفروض أن ترسو الباخرة في السويس، وهذا يتيح له زيارة القاهرة، ولكن السلطات البريطانية غيرت هذا الترتيب؛ بحيث ترسو الباخرة في بور سعيد فلا يتمكن من القيام بهذه الزيارة، وبخاصة إنها كانت تعلم مكانة غاندي في قلوب المصريين وإعجاب سعد باشا به، وكان أن فكرت الهيئات في إرسال وفود عنها لتحيته والتعبير عن مشاعر المصريين نحوه، وقد سافر محمود فهمي النقراشي باشا مندوبا عن الوفد وهو أحد الأعضاء البارزين فيه، والآنسة سيز نبراوي مندوبة الاتحاد النسائي، وقد طلبت منه سيزا أن يوجه كلمة للسيدات المصريات، فكتب بالإنجليزية ما نورد ترجمته بالعربية:

"أرجو أن تلعب الأخت المصرية الدور نفسه الذي تلعبه أخواتها الهنديات في حركة تحرير أراضيهم المحترمة، لأنني أعتقد أن عدم القسوة هو امتياز المرأة".



محاضرات الاتحاد النسائي

استن الاتحاد النسائي سنة جديدة، وهي إقامة موسم ثقافي يحاضر خلاله كبار الأساتذة والعلماء الأفاضل.. وقد افتتح هذه المحاضرات الدكتور طه حسين عن "الأدب العربي من عهد الحملة الفرنسية إلى عهد الخديوي توفيق".

مقابلتي للملك فيصل

حدث أن كنت مسافرة إلى أوربا على الباخرة شمبليون عام ١٩٣٣، وكان جلالة الملك فيصل الأول ملك العراق ضمن المسافرين على هذه الباخرة، وقد التقيت به بعد الغداء وأنا في طريقي إلى المصعد؛ حيث حييته فرد التحية على أحسن ما يكون، ودار بيننا حديث قصير، قال لي في نهايته: "لقد قرأت عنك كثيرا، وأعجبت بجهادك كثيرا، والآن لما رأيتك، اطمأننت على أن النهضة النسائية في بلادنا العربية بخير، ودفتها في يد ربان جدير بإدارتها".

الاحتفال بأولى الخريجات

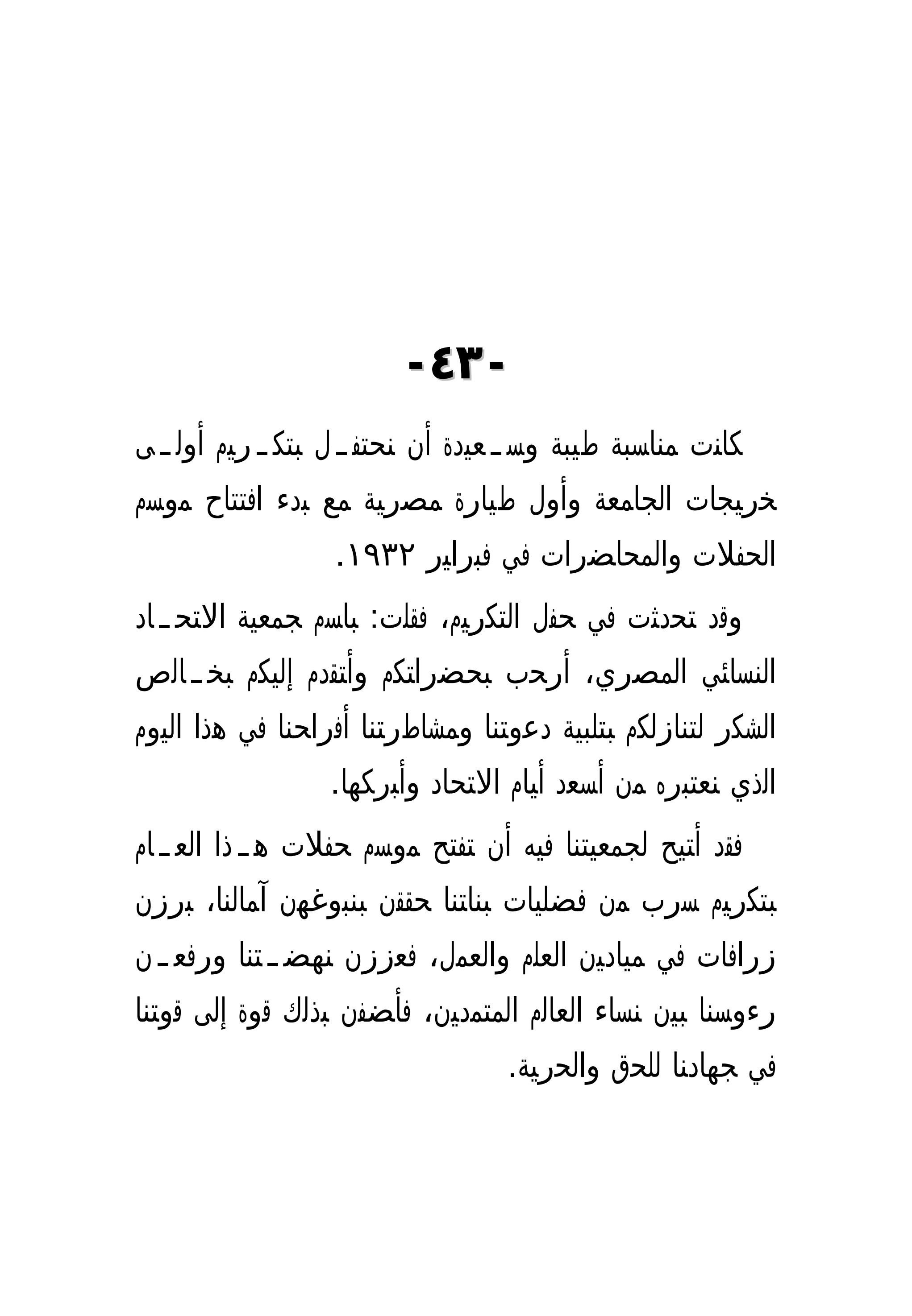
وفي شهر فبراير ١٩٣٢، دعوت عددا كبيرا من أعلام مصر وعظمائها لحضور حفلة احتفل الجمعية بأولى

خريجات الجامعة وأول طيارة مصرية، وقد لبى الدعوة عدد كبير في مقدمتهم الأمير محمد باشا، والدكتور بهي الدين بركات باشا، وأحمد شفيق باشا، ومحمد علي علوبة باشا.

وقد تصدر المنصة الدكتور طه حسين والسيدة قرينته والآنسة الأستاذة نعيمة الأيوبي وخريجات كلية الآداب، الآنسة سهير القلماوي، والآنسة فاطمة فهمي خليل، والآنسة زهيرة عبد العزيز، والآنسة فاطمة سالم، وفي الصفوف الأخرى كان الدكتور سامي كمال وبجانبه الآنسة الدكتورة كوكب حفني ناصف، والأستاذ فؤاد أباظة وبجانبه الآنسة لطيفة النادي، ثم جمعية شقيقات الاتحاد النسائي تتوسطهن الآنسة حواء إدريس، والآنسة أمينة السعيد، والآنسة عظيمة السعيد، ثم الآنسة سيزا نبراوي، وبجانبهن الشاعر الكبير خليل مطران.

وفي كلمتي التي ألقيتها بهذه المناسبة، قلت: "يقولون في الأمثال السائرة (أول الغيث قطرة ثم ينهمر المطر) غير أن الغيث المصري إذ بدأ، انهمر انهمارا، والمصري أزلي في مدنيته، فإذا صادفه جو طيب جنح إلى أصله وتخطى دور الطفولة في نهضته".

وقد قام محمد علي علوبة باشـا بتقـديم الآنسـة نعيمـة الأيوبي، وقام الدكتور طه حسين بتقـديم خريجـات كليـة الآداب، وقام الدكتور سامي كمال – وهو أحد الأطباء الذين تطوعوا لخدمة الإنسانية في مستوصف الاتحاد منذ إنشائه – بتقديم الآنسة الدكتورة كوكب ناصف خريجة لندرة من بعثة مستشفى كتشنر.

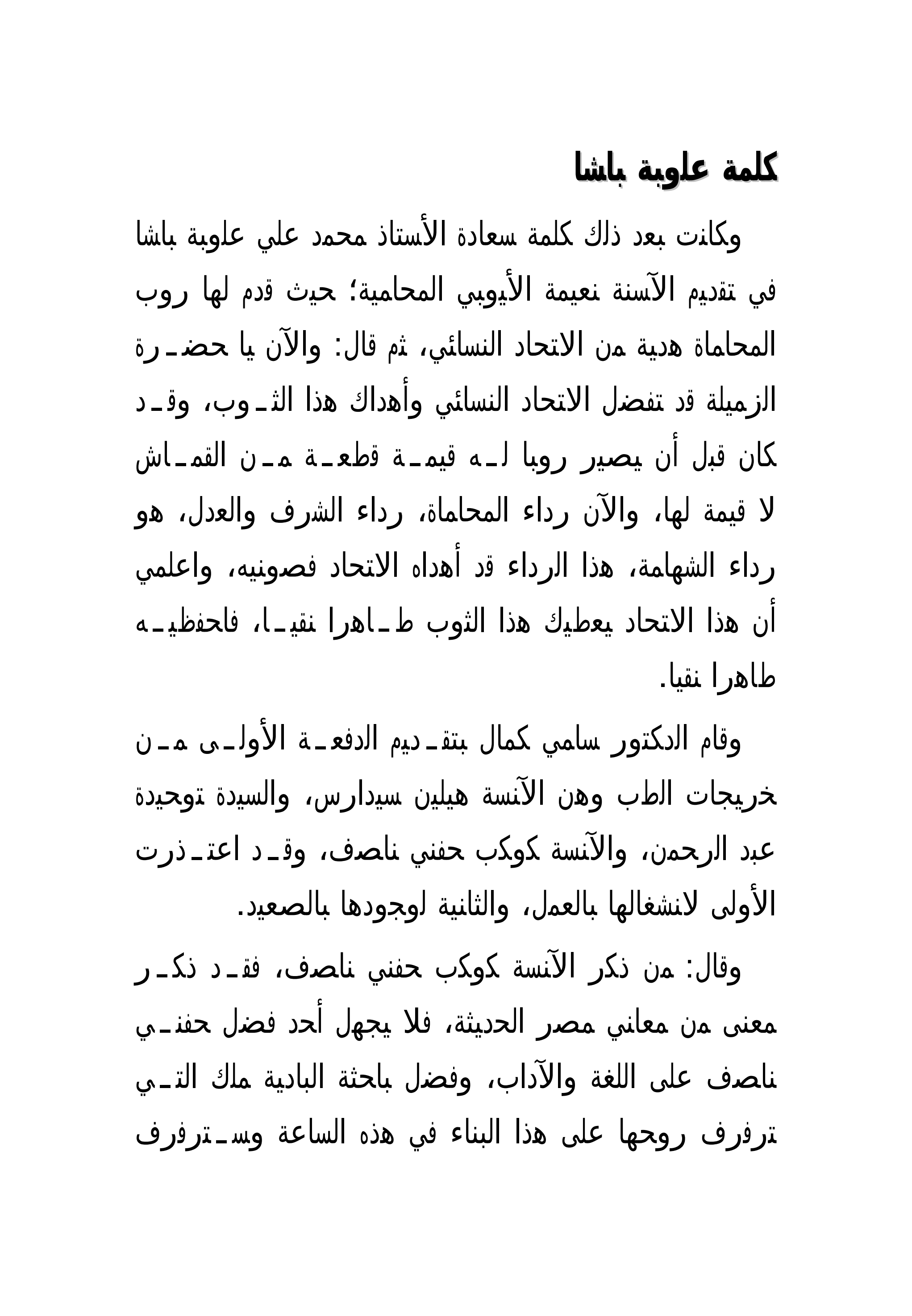


-٤٣-

كانت مناسبة طيبة وسعيدة أن نحتفل بتكريم أولى خريجات الجامعة وأول طيارة مصرية مع بدء افتتاح موسم الحفلات والمحاضرات في فبراير ١٩٣٢.

وقد تحدثت في حفل التكريم، فقلت: باسم جمعية الاتحاد النسائي المصري، أرحب بحضراتكم وأتقدم إليكم بخالص الشكر لتنازلكم بتلبية دعوتنا ومشاطرتنا أفراحنا في هذا اليوم الذي نعتبره من أسعد أيام الاتحاد وأبركها.

فقد أتيح لجمعيتنا فيه أن تفتح موسم حفلات هذا العام بتكريم سرب من فضليات بناتنا حققن بنبوغهن آمالنا، برزن زرافات في ميادين العلم والعمل، فعززن نهضتنا ورفعن رءوسنا بين نساء العالم المتمدين، فأضفن بذلك قوة إلى قوتنا في جهادنا للحق والحرية.



كلمة علوبة باشا

وكانت بعد ذلك كلمة سعادة الأستاذ محمد علي علوبة باشا في تقديم الآنسة نعيمة الأيوبي المحامية؛ حيث قدم لها روب المحاماة هدية من الاتحاد النسائي، ثم قال: والآن يا حضرة الزميلة قد تفضل الاتحاد النسائي وأهداك هذا الثوب، وقد كان قبل أن يصير روبا له قيمة قطعة من القماش لا قيمة لها، والآن رداء المحاماة، رداء الشرف والعدل، هو رداء الشهامة، هذا الرداء قد أهداه الاتحاد فصونيه، واعلمي أن هذا الاتحاد يعطيك هذا الثوب طاهرا نقيا، فاحفظيه طاهرا نقيا.

وقام الدكتور سامي كمال بتقديم الدفعة الأولى من خريجات الطب وهن الآنسة هيلين سيدارس، والسيدة توحيدة عبد الرحمن، والآنسة كوكب حفني ناصف، وقد اعتذرت الأولى لانشغالها بالعمل، والثانية لوجودها بالصعيد.

وقال: من ذكر الآنسة كوكب حفني ناصف، فقد ذكر معنى من معاني مصر الحديثة، فلا يجهل أحد فضل حفني ناصف على اللغة والآداب، وفضل باحثة البادية ملك التي ترفرف روحها على هذا البناء في هذه الساعة وسترفرف

بجناحيها على هذا الوادي كلما فكرت المرأة فـي النهـوض والرقي.

د. طه حسين والمؤامرة

وقدم الدكتور طه حسين تلميذاته خريجات كليـة الآداب: سهير القلماوي وفاطمة فهمي خليل وزهيرة عبـد العزيـز وفاطمة سالم، وقال في كلمته: أظن أن موقفي الآن، ولسـت من الرجال الرسميين، يسمح لي بأن أكشف لحضراتكم عـن مؤامرة خطيرة جدا حدثت منذ أعوام وكان قوامها جماعـة من الجامعيين، فقد ائتمر الجامعيون وقرروا فيما بيـنهم أن يخدعوا الحكومة وأن يختلسوا منها حقًّا اختلاسا لا ينبئونهـا به ولا يشاورونها فيه، وهو الإذن للفتيات بالتعليم العالي في الجامعة المصرية. وأؤكد لكم أيها السـادة أنـه لـولا هـذه المؤامرة التي اشترك فيها الجامعيون وبنوع خـاص أحمـد لطفي السيد باشا وعلي إبراهيم باشا وهذا الذي يتحدث إليكم، لولا هذه المؤامرة التي دبرناها سـرا فـي غرفـة محكمـة الإغلاق لما أتيح لنا ولا للاتحاد النسائي أن أقدم إلـيكم الآن محامية مصرية وأديبات مصريات؛ اتفق هؤلاء الثلاثة فيمـا بينهم أن يضعوا وزارة المعارف أمام الأمر الواقـع، وكـان

القانون الأساسي في الجامعة يبيح دخول المصريين، وهـو وإن كان لفظًا مذكرا ينطبق على المصريين والمصـريات. وعلى ذلك ائتمرنا على أن تقبل الفتيـات إذا تقـدمن إلـى الجامعة، وفعلاً تقدم هؤلاء الفتيات فقبلناهن ولم نحدث أحـدا بذلك، حتى إذا تم الأمر وأصبح لهـن حـق مكتسـب فـي الجامعة، علمت الوزارة أن الفتيات دخلن الجامعة!

كلمة فؤاد أباظة

ثم وقف فؤاد باشا أباظة، فقدم الآنسة لطفية النـادي أول طيارة مصرية، وأشاد بجرأتها وشجاعتها، وعرج على مـا ينتظر الطيران في مصر من مستقبل، ثم قدم للآنسة باقة من الزهور باسم الجمعية.

شقيقات الاتحاد النسائي

لم يكن الدور الذي قام به الاتحاد النسائي المصري مؤثرا في مستقبل الفتاة المصرية التعليمي فقط، بل إنه امتد أيضـا إلى دورها الاجتماعي، ولذلك فقد سعت سعادة عظيمة بتلـك الرسالة التي وصلتني من إحدى الفتيات النابهات وهي الآنسة أمينة السعيد؛ حيث رأيت فيها ثمرة لمبادئ الاتحاد واستجابة

من بنات مصر المثقفات لداعي الوطن، ورغبة مـنهن فـي خدمة البلاد.

وما أن وصلني خطابها حتى عرضته على جمعيتنا التـي وافقت بمنتهى السرور والتقدير على تحقيق رغبتهن، وشكلت جمعية الشقيقات منها ومن الآنسات المثقفات، وقـد أسـهمن بقسط وافر في خدمة الاتحاد منذ شكلت لجنتهن، وانضـممن إلى صفوف الاتحاد فيما بعد، وكانت لهن أدوار هامـة فـي خدمة الوطن.

وهذا هو نص الخطاب الذي بعثت به الآنسة أمينة السعيد في ٢٧ نوفمبر ١٩٣٢:

"حضرة السيدة الجليلة رئيسة الاتحاد النسائي المصري..

أهدي عصمتك تحية الإجلال والاحترام..

في يوم الجمعة ١٨ نوفمبر اجتمع فريـق مـن الفتيـات المصريات، وبعد تشاورهن قررن تأسـيس جمعيـة مـنهن سمينها شقيقات النهضة النسائية، ولما كان الغرض الأكبـر من ذلك هو إيجاد هيئة تتقدم بمجهوداتهـا إلـى عصـمتك كرئيسة للاتحاد النسائي لترفع عنك عبء العمل ولو قلـيلاً، وتضع مجهوداتها وإن كانت ضئيلة بين يديك ورهن إشارتك

في تنفيذ مشروعاتك النسائية، فلا شك في أن عملنا هذا مـا هو إلا تلبية لداعي الوطن واعترافًا بخدماتك الجليلـة التـي بذلت في سبيلها النفس والنفيس، ولم تألي جهدا في سبيل رفع شأن مواطناتك المعترفات بجميلك العظـيم، فضـربت لنـا خاصة ولأمتك عامة المثل الأعلى في الوطنيـة المنزهـة، وجدت بشخصيتك البارزة لقيادة بنات وطنك قيادة يعجز عنها عظماء الرجال، فكنت عزاء لمصر التي هـي فـي حاجـة قصوى لأمثالك ومثيلاتك.

ولسنا نريد تكوين هيئة جديدة، بل كل غايتنا أن نمـدك بجماعة يملؤها نشاط الشباب وحماسه، ينفذن مـا تـأمرين ويعملن ما تشائين، فإن قبلت ما نقدمه لك من مجهود، فقـد أنلتنا شرف العمل تحت قيادتـك وأدخلـت علينـا غبطـة واطمئنانًا على شخصك الجليل الذي نشعر أنه مرهق بكثـرة العمل والإجهاد.

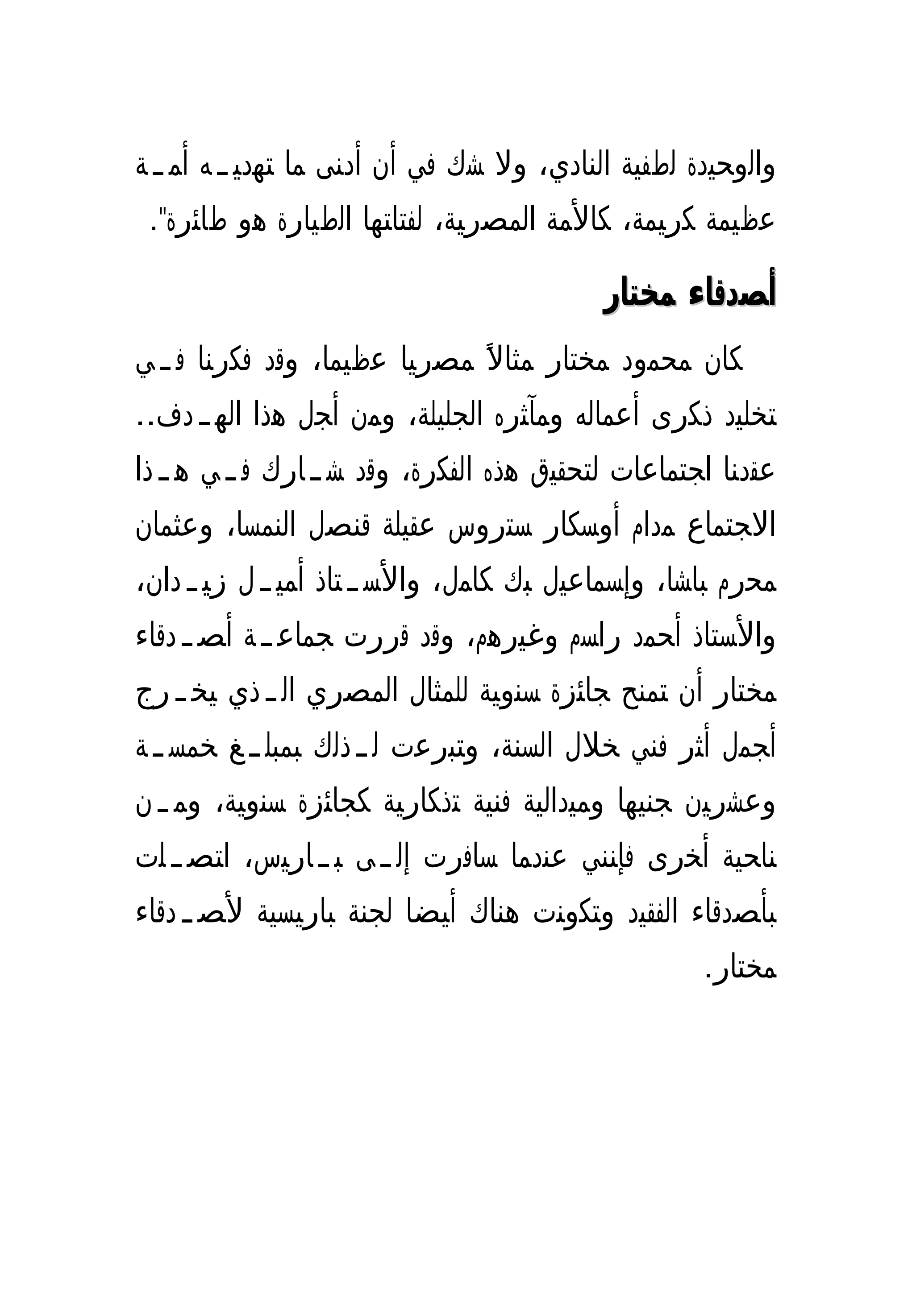
وقبل أن أختم خطابي هذا، أدعو ا أن يمن على شخص العزيز بدوام التوفيق وأن يكلل حسن مسعاك بالنجاح، ومـا زلت أيتها الزعيمة الجليلة مرشدة لأمتك ونصـيرة لبنـات جنسك والسلام".

عن شقيقات الاتحاد النسائي

أمينة السعيد (سكرتيرة)

الاكتتاب لشراء الطائرات

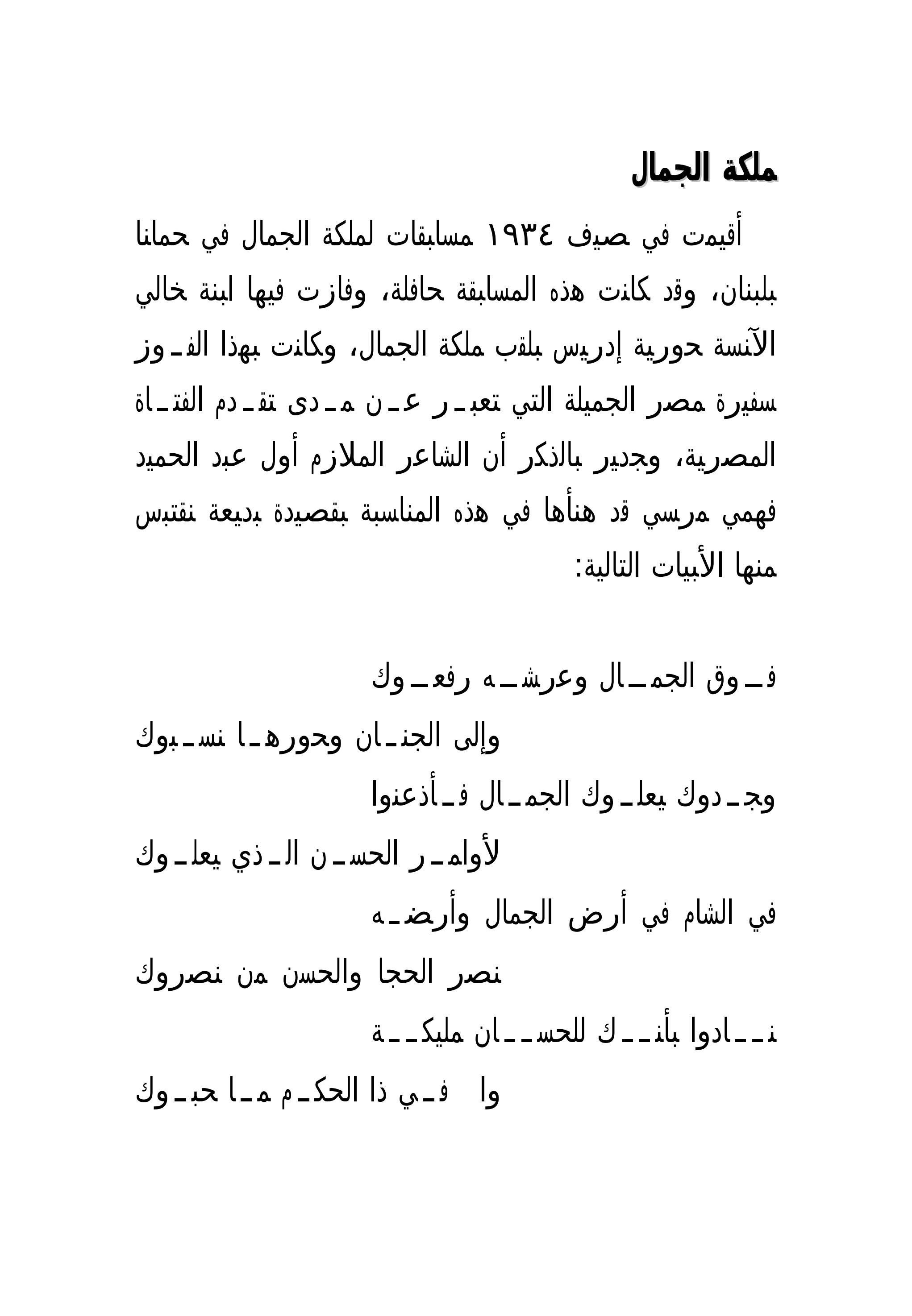
كانت "الآنسة لطفية" النادي موظفـة فـي المطـار، ثـم استطاعت أن تتفوق، وتصبح أول طيارة مصرية، ولذلك فقد دعوت المواطنين المصريين إلى الاكتتاب لشراء طائرة للفتاة المصرية الباسلة والطيارة الأولى "لطفية النادي" وقد اهتمت جريدة الأهرام بهذه الدعوة فكتبت في ٣٠ ديسـمبر ١٩٣٣ تقول: "لقد كان نجاح الطيران مقرونًا بالاكتتابـات الأهليـة، كان ذلك في فرنسا فيما قبل الحرب، وفي تركيا، وفي إيران الجديدة، وفي تركيا الفتاة، وقد اقتصدت معلمات اليابان جزءا من مرتباتهن لشراء طائرتين.. والمصـريون والمصـريات مطالبون جمعيا بالاكتتاب لشراء طائرة لطيـارتهم الأولـى



والوحيدة لطفية النادي، ولا شك في أن أدنى ما تهديه أمة عظيمة كريمة، كالأمة المصرية، لفتاتها الطيارة هو طائرة".

أصدقاء مختار

كان محمود مختار مثالاً مصريا عظيما، وقد فكرنا في تخليد ذكرى أعماله ومآثره الجليلة، ومن أجل هذا الهدف.. عقدنا اجتماعات لتحقيق هذه الفكرة، وقد شارك في هذا الاجتماع مدام أوسكار ستروس عقيلة قنصل النمسا، وعثمان محرم باشا، وإسماعيل بك كامل، والأستاذ أميل زيدان، والأستاذ أحمد راسم وغيرهم، وقد قررت جماعة أصدقاء مختار أن تمنح جائزة سنوية للمثال المصري الذي يخرج أجمل أثر فني خلال السنة، وتبرعت لذلك بمبلغ خمسة وعشرين جنيها وميدالية فنية تذكارية كجائزة سنوية، ومن ناحية أخرى فإنني عندما سافرت إلى باريس، اتصلت بأصدقاء الفقيد وتكونت هناك أيضا لجنة باريسية لأصدقاء مختار.



ملكة الجمال

أقيمت في صيف ١٩٣٤ مسابقات لملكة الجمال في حمانا بلبنان، وقد كانت هذه المسابقة حافلة، وفازت فيها ابنة خالي الآنسة حورية إدريس بلقب ملكة الجمال، وكانت بهذا الفـوز سفيرة مصر الجميلة التي تعبـر عـن مـدى تقـدم الفتـاة المصرية، وجدير بالذكر أن الشاعر الملازم أول عبد الحميد فهمي مرسي قد هنأها في هذه المناسبة بقصيدة بديعة نقتبس منها الأبيات التالية:

فـوق الجمـال وعرشـه رفعـوك

وإلى الجنـان وحورهـا نسـبوك

وجـدوك يعلـوك الجمـال فـأذعنوا

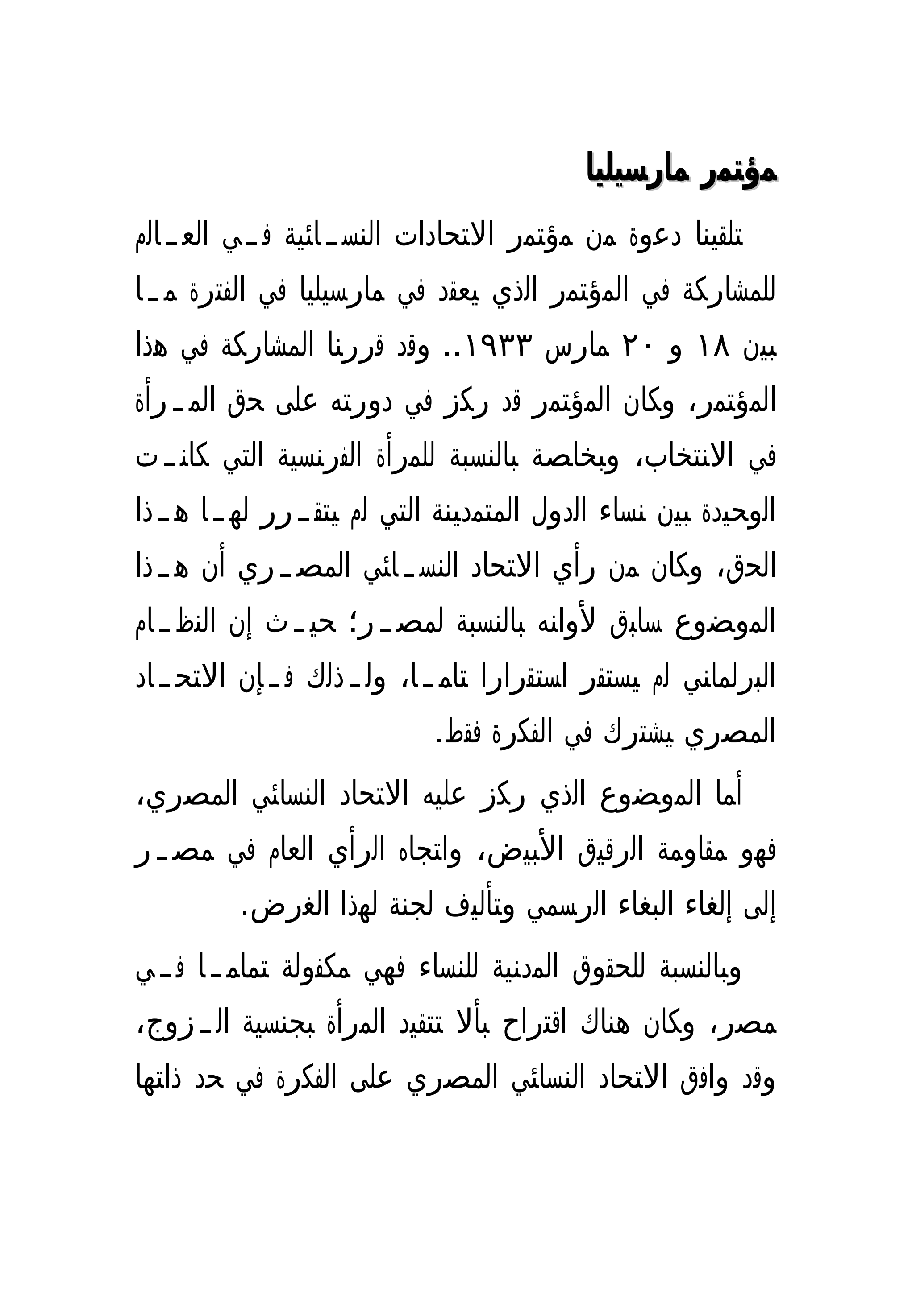
لأوامـر الحسـن الـذي يعلـوك

في الشام في أرض الجمال وأرضـه

نصر الحجا والحسن من نصروك

نـادوا بأنـك للحسـان مليكـة

وا   فـي ذا الحكـم مـا حبـوك



مؤتمر مارسيليا

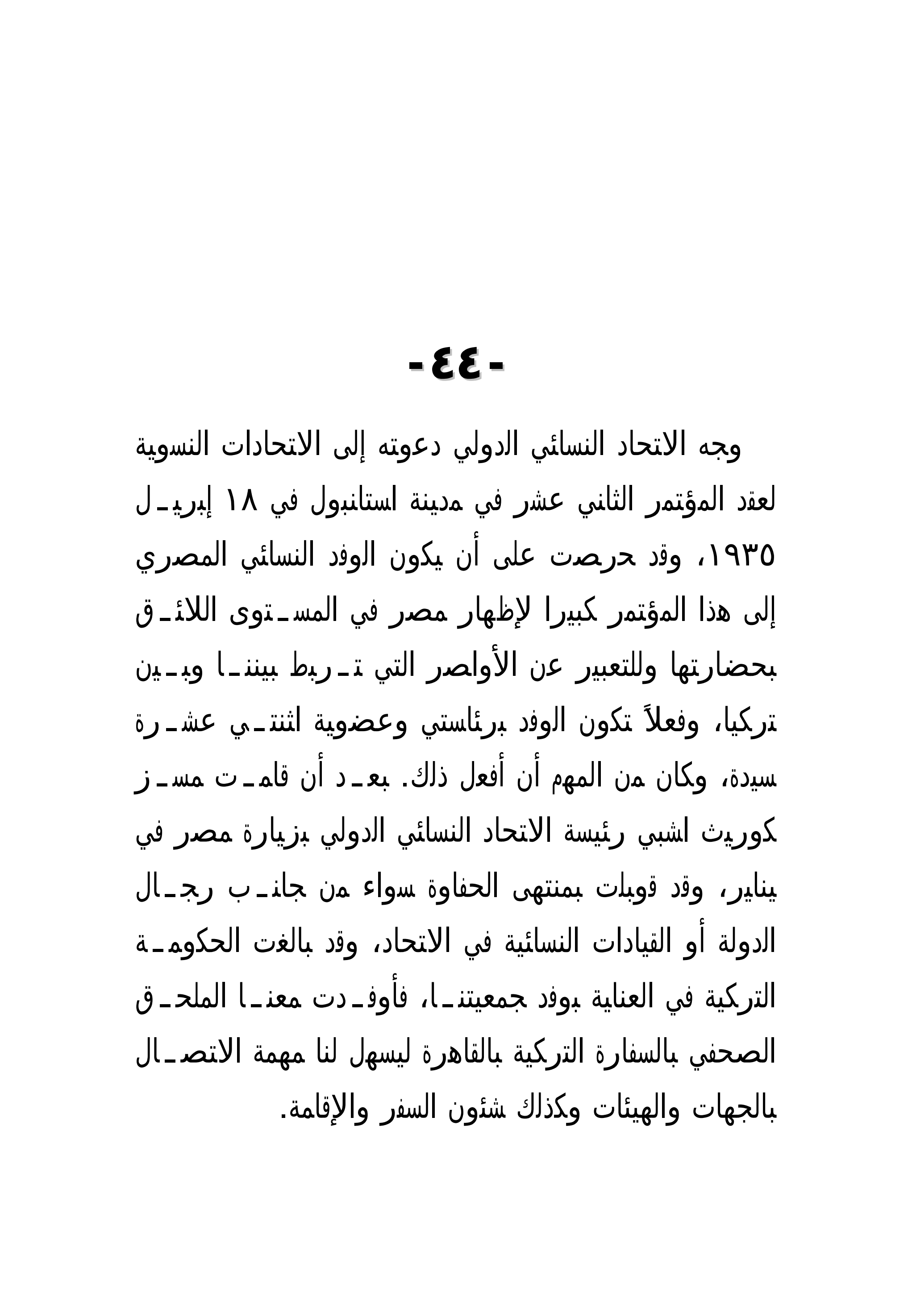
تلقينا دعوة من مؤتمر الاتحادات النسائية في العالم للمشاركة في المؤتمر الذي يعقد في مارسيليا في الفترة ما بين ١٨ و ٢٠ مارس ١٩٣٣.. وقد قررنا المشاركة في هذا المؤتمر، وكان المؤتمر قد ركز في دورته على حق المرأة في الانتخاب، وبخاصة بالنسبة للمرأة الفرنسية التي كانت الوحيدة بين نساء الدول المتمدينة التي لم يتقرر لها هذا الحق، وكان من رأي الاتحاد النسائي المصري أن هذا الموضوع سابق لأوانه بالنسبة لمصر؛ حيث إن النظام البرلماني لم يستقر استقرارا تاما، ولذلك فإن الاتحاد المصري يشترك في الفكرة فقط.

أما الموضوع الذي ركز عليه الاتحاد النسائي المصري، فهو مقاومة الرقيق الأبيض، واتجاه الرأي العام في مصر إلى إلغاء البغاء الرسمي وتأليف لجنة لهذا الغرض.

وبالنسبة للحقوق المدنية للنساء فهي مكفولة تماما في مصر، وكان هناك اقتراح بألا تتقيد المرأة بجنسية الزوج، وقد وافق الاتحاد النسائي المصري على الفكرة في حد ذاتها

مع عدم الاشتراك في تنفيذها ما دامت الامتيازات الأجنبيـة قائمة في مصر.

وجدير بالذكر أن هذا المؤتمر قد جاء في الوقت الذي كان فيه الاتحاد النسائي المصري قد تأسس منذ عشـر سـنوات، ولذلك فقد كان المؤتمر مناسبة طيبة لعرض إنجازاتنا طوال هذه السنوات العشر.



-٤٤-

وجه الاتحاد النسائي الدولي دعوته إلى الاتحادات النسوية لعقد المؤتمر الثاني عشر في مدينة استانبول في ١٨ إبريل ١٩٣٥، وقد حرصت على أن يكون الوفد النسائي المصري إلى هذا المؤتمر كبيرا لإظهار مصر في المستوى اللائق بحضارتها وللتعبير عن الأواصر التي تربط بيننا وبين تركيا، وفعلاً تكون الوفد برئاستي وعضوية اثنتي عشرة سيدة، وكان من المهم أن أفعل ذلك. بعد أن قامت مسز كوريث اشبي رئيسة الاتحاد النسائي الدولي بزيارة مصر في يناير، وقد قوبلت بمنتهى الحفاوة سواء من جانب رجال الدولة أو القيادات النسائية في الاتحاد، وقد بالغت الحكومة التركية في العناية بوفد جمعيتنا، فأوفدت معنا الملحق الصحفي بالسفارة التركية بالقاهرة ليسهل لنا مهمة الاتصال بالجهات والهيئات وكذلك شئون السفر والإقامة.

وقد أبحرنا على الباخرة التركيـة "أزميـر" مـن مينـاء الإسكندرية، وكان معنا الوفد الهندي، ووصلنا إلى أزمير بعد ثلاثة أيام؛ حيث كان الوالي في استقبالنا نيابة عن الحكومة، كما استقبلنا استقبالاً حافلاً من الهيئات الرسمية ومن الشـعب التركي، كذلك فقد وصلتني كثير من رسائل التشجيع والتأييد من مواطنينا ومواطناتنا الأعزاء، ومن بينها برقية من صفية هانم زغلول تتمنى فيها النجاح والتوفيق لأعمالنا.

وفي منتصف إبريل، كان قد اجتمع وفود أربعين دولـة، وكذلك مندوبو الصحف من جميع أنحاء العالم، وقـد نشـط الوفد المصري؛ حيث قام بمجهود مشكور في سبيل الدعايـة لمصر ونهضة المـرأة المصـرية سـواء فـي المحافـل أو الأحاديث والمقابلات الصحفية ما كان له أثر فعـال فـي توجيه الاهتمام بنوع خاص إلـى مصـر وممثلاتهـا فـي المؤتمر.

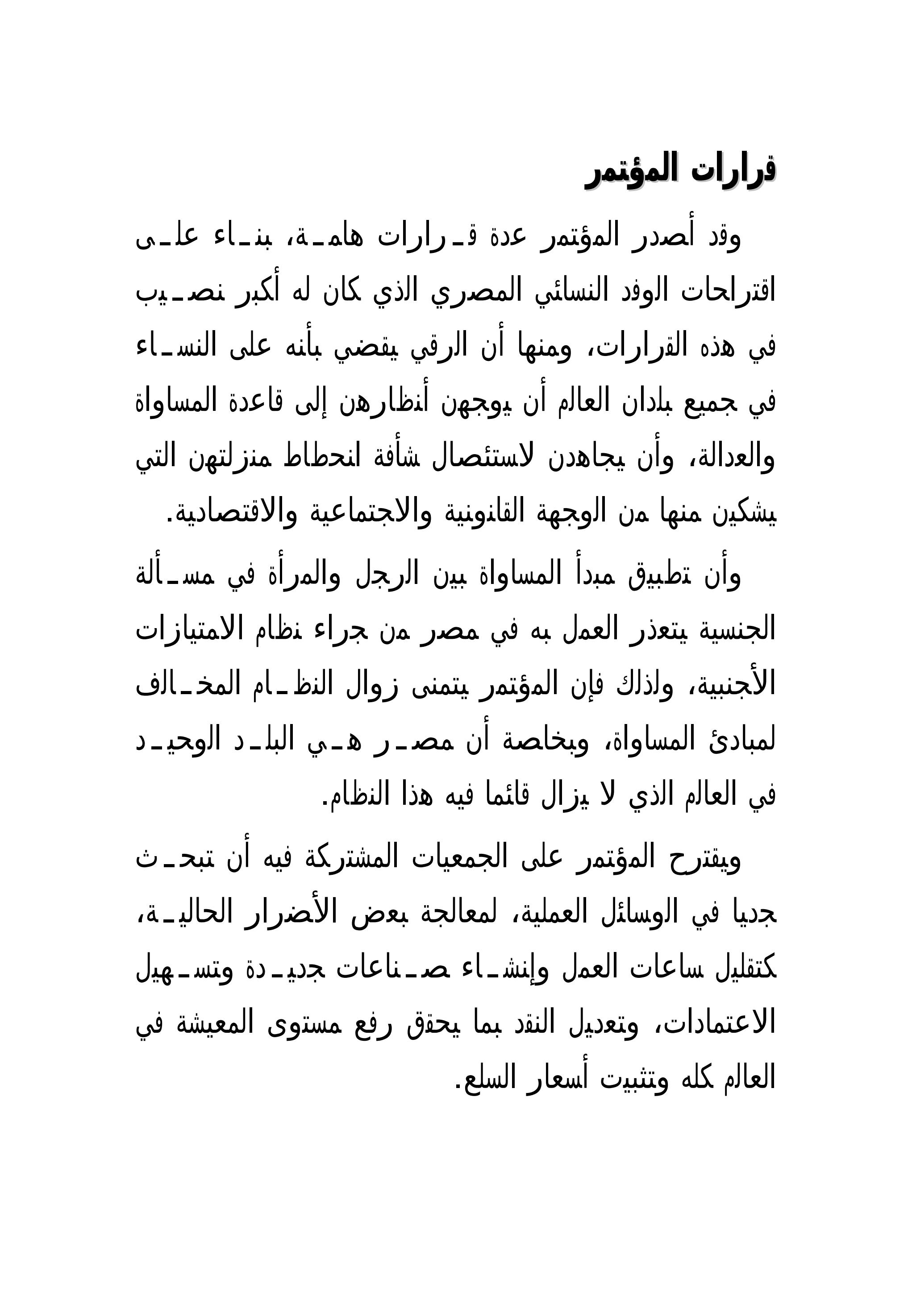
وفي ١٨ إبريل، افتتح المؤتمر رسميا؛ حيـث اجتمعـت مندوبات أربعين دولة يمثلن مائتي مليون من نساء العالم في سراي يلدز. ومن الغريب أن هذه السراي كانت في سـالف

الزمن تؤوي نساء السلطان عبد الحميد، ثم دار الزمن دورته لتملي النساء على العالم رغباتهن من سراي يلدز نفسها!

رسالة السلام

وقد افتتحت المؤتمر مسز كوربث اشبي رئيسة الاتحاد النسائي الدولي؛ حيث ألقت خطابا مؤثرا وبليغًا، دعت فيه الجميع إلى التعاون لتحرير المرأة ونشر السلام العام بين الأمم.

وتكلمت عن الوفد النسائي المصري، ولكننا قبل أن ألقي كلمتي بالفرنسية، ألقيت كلمة باللغة التركية شكرت فيها السلطات التركية والاتحاد النسائي التركي على الحفاوة البالغة التي يلاقيها أعضاء المؤتمر، ثم ألقيت خطبتي عن ضرورة تعاون الشرق والغرب ومقاومة الحروب التي تعدد العالم، وتحدثت عن انضمام الأمم الشرقية إلى الاتحاد النسائي الدولي رغبة في التعاون مع الغرب لنشر السلام العام بين الأمم جميعا، على أن يكون هذا السلام مبنيا على أسس العدل واحترام حقوق الشعوب وإزالة الفوارق الجنسية والدينية وغير ذلك من المسائل الجوهرية.

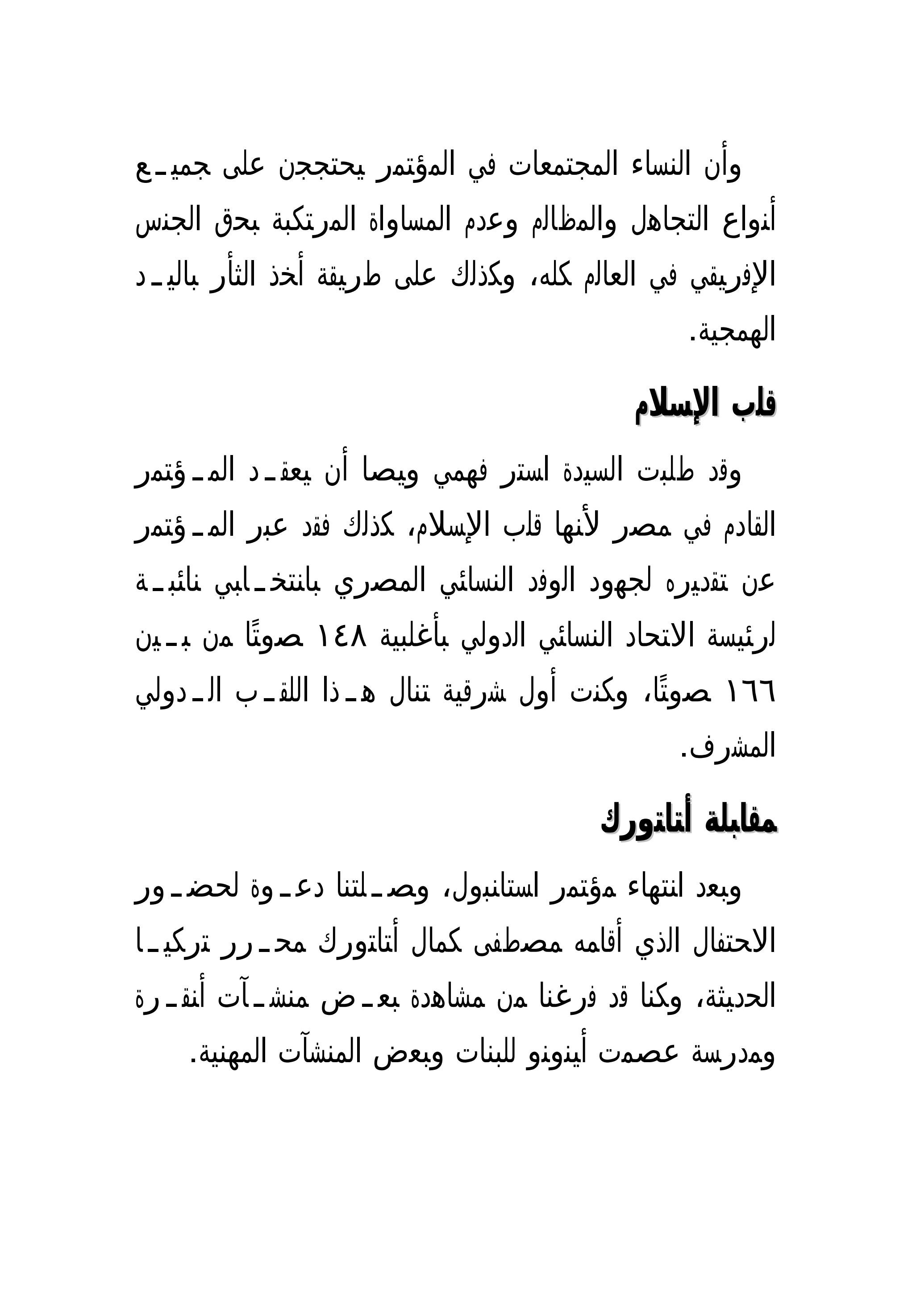


قرارات المؤتمر

وقد أصدر المؤتمر عدة قرارات هامة، بناء على اقتراحات الوفد النسائي المصري الذي كان له أكبر نصيب في هذه القرارات، ومنها أن الرقي يقضي بأنه على النساء في جميع بلدان العالم أن يوجهن أنظارهن إلى قاعدة المساواة والعدالة، وأن يجاهدن لاستئصال شأفة انحطاط منزلتهن التي يشكين منها من الوجهة القانونية والاجتماعية والاقتصادية.

وأن تطبيق مبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في مسألة الجنسية يتعذر العمل به في مصر من جراء نظام الامتيازات الأجنبية، ولذلك فإن المؤتمر يتمنى زوال النظام المخالف لمبادئ المساواة، وبخاصة أن مصر هي البلد الوحيد في العالم الذي لا يزال قائما فيه هذا النظام.

ويقترح المؤتمر على الجمعيات المشتركة فيه أن تبحث جديا في الوسائل العملية، لمعالجة بعض الأضرار الحالية، كتقليل ساعات العمل وإنشاء صناعات جديدة وتسهيل الاعتمادات، وتعديل النقد بما يحقق رفع مستوى المعيشة في العالم كله وتثبيت أسعار السلع.



وأن النساء المجتمعات في المؤتمر يحتججن على جميـع أنواع التجاهل والمظالم وعدم المساواة المرتكبة بحق الجنس الإفريقي في العالم كله، وكذلك على طريقة أخذ الثأر باليـد الهمجية.

قلب الإسلام

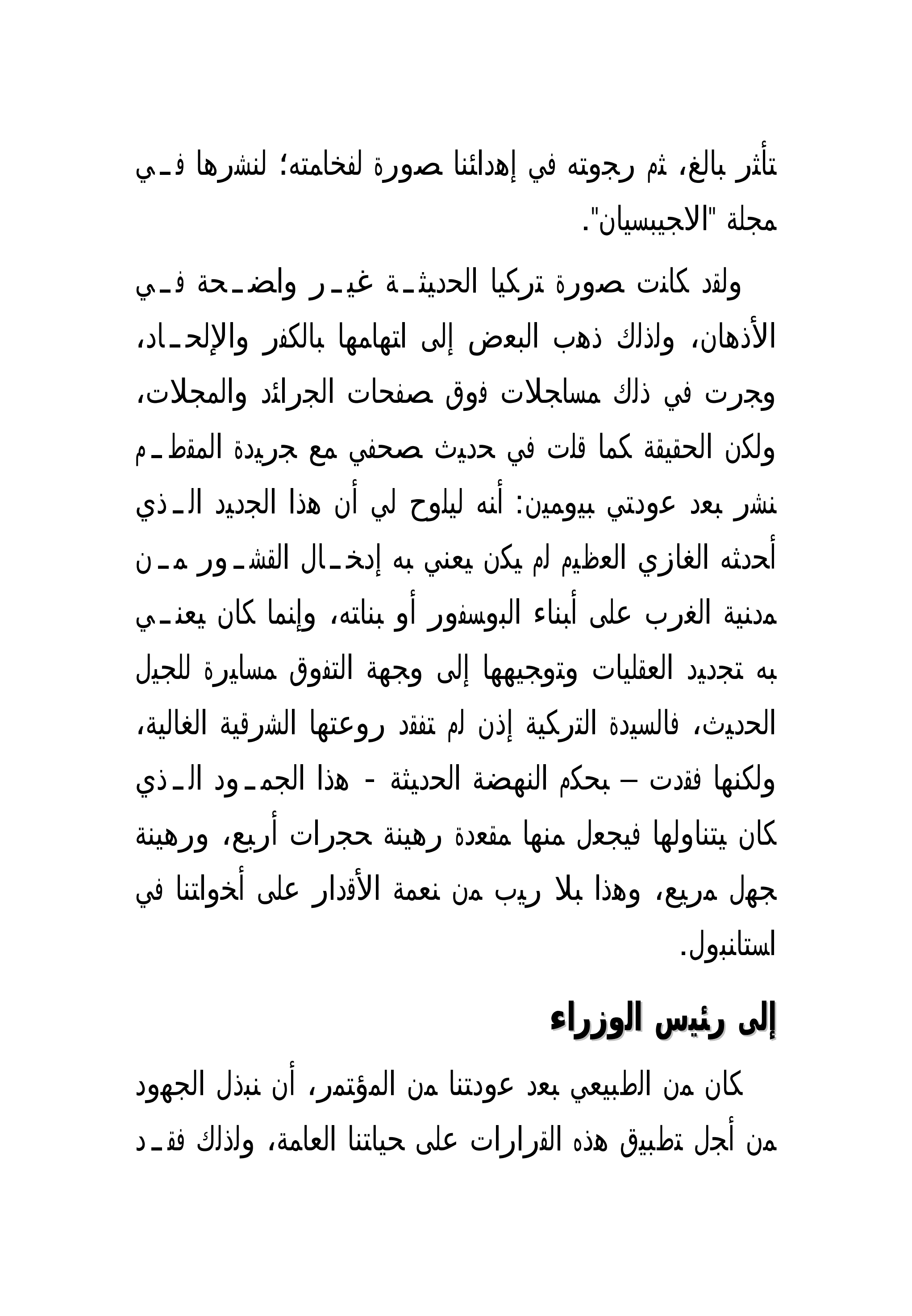
وقد طلبت السيدة استر فهمي ويصا أن يعقـد المـؤتمر القادم في مصر لأنها قلب الإسلام، كذلك فقد عبر المـؤتمر عن تقديره لجهود الوفد النسائي المصري بانتخـابي نائبـة لرئيسة الاتحاد النسائي الدولي بأغلبية ١٤٨ صوتًا من بـين ١٦٦ صوتًا، وكنت أول شرقية تنال هـذا اللقـب الـدولي المشرف.

مقابلة أتاتورك

وبعد انتهاء مؤتمر استانبول، وصـلتنا دعـوة لحضـور الاحتفال الذي أقامه مصطفى كمال أتاتورك محـرر تركيـا الحديثة، وكنا قد فرغنا من مشاهدة بعـض منشـآت أنقـرة ومدرسة عصمت أينونو للبنات وبعض المنشآت المهنية.

وفي الصالون المجاور لمكتبه وقفت المندوبات المدعوات على شكل نصف دائرة، وبعد لحظات قليلة فتح الباب، ودخل أتاتورك تحيطه هالة من الجلال والعظمة. وسـادنا شـعور الهيبة والإجلال؛ لدرجة أن مسز كوريـث اشـبي رئيسـة الاتحاد النسائي الدولي كان يبدو عليها الوجل والتأثر، وهـي تلقي كلمتها نيابة عن أعضاء المؤتمر.

ورد أتاتورك بالتركية، فشكر لها وللسيدات وحيا جهودهن في خدمة بلادهن، بدئ في تقديم رئيسة وفـد كـل دولـة، وعندما جاء دوري تحدثت إليه مباشرة من غيـر ترجمـان، وكان المنظر فريدا أن تقف سيدة شرقية مسلمة وكيلة عـن الهيئة النسائية الدولية، وتلقي كلمة باللغة التركية تعبر فيهـا عن شكر وإعجاب سيدات مصر بحركة التحرير التي قادهـا في تركيا، وقلت إن هذا المثل الأعلى مـن تركيـا الشـقيقة الكبرى للبلاد الإسلامية شجع كل بلاد الشرق على محاولـة التحرر والمطالبة بحقوق المرأة، وقلت إذا كان الأتراك قـد اعتبروك (أتاتورك) فأنا أقول إن هذا لا يكفـي، بـل أنـت بالنسبة لنا "أنا الشرق" فتأثر كثيرا بهذا الكلام الذي انفـردت به، ولم يصدر معناه عن أي رئيسة وفد، وشكرني كثيرا في



تأثر بالغ، ثم رجوته في إهدائنا صورة لفخامته؛ لنشرها في مجلة "الاجيبسيان".

ولقد كانت صورة تركيا الحديثة غير واضحة في الأذهان، ولذلك ذهب البعض إلى اتهامها بالكفر والإلحاد، وجرت في ذلك مساجلات فوق صفحات الجرائد والمجلات، ولكن الحقيقة كما قلت في حديث صحفي مع جريدة المقطم نشر بعد عودتي بيومين: أنه ليلوح لي أن هذا الجديد الذي أحدثه الغازي العظيم لم يكن يعني به إدخال القشور من مدنية الغرب على أبناء البوسفور أو بناته، وإنما كان يعني به تجديد العقليات وتوجيهها إلى وجهة التفوق مسايرة للجيل الحديث، فالسيدة التركية إذن لم تفقد روعتها الشرقية الغالية، ولكنها فقدت – بحكم النهضة الحديثة - هذا الجمود الذي كان يتناولها فيجعل منها مقعدة رهينة حجرات أربع، ورهينة جهل مريع، وهذا بلا ريب من نعمة الأقدار على أخواتنا في استانبول.

إلى رئيس الوزراء

كان من الطبيعي بعد عودتنا من المؤتمر، أن نبذل الجهود من أجل تطبيق هذه القرارات على حياتنا العامة، ولذلك فقد

أرسلت باعتباري رئيسة للاتحاد خطابا إلـى دولـة رئـيس الوزراء، ألفت فيه نظر دولته إلى ما جاء في هذه القـرارات خاصا بمساواة الجنسين من الوجهة الأخلاقية وبمنـع تعـدد الزوجات وبحقوق المرأة السياسية.

وقلت في هذا الخطاب أنه فيما يتعلق بـالقرار الخـاص بالناحية الأخلاقية، فقد علمنا أن الحكومة مهتمة بتنفيذ التقرير الذي قدمته اللجنة الخاصة ببحث مسالة إلغاء البغاء الرسمي في البلاد، وبقاء تعدد الزوجات، فضلاً عن كونه يسيء إلى سمعتنا الأدبية أمام العالم المتمدين، فإن له تأثيره المؤلم فـي الحياة العائلية والاجتماعية، وهو في الحقيقـة يخـالف روح الشريعة التي لم تسمح به إلا تحت شروط يستحيل تحقيقها.

وفيما يختص بحقوق المرأة، فقد سجل المـؤتمر عقيدتـه الراسخة في أنه لا يتحقق أي نظام حكومي بصفة دائمة ما لم يراع فيه هناءة المرأة والطفل، وما لم يعمل على الاسـتفادة من مواهب المرأة.

منشور إلى نواب الأمة

كذلك فقد وجهنا منشورا إلى نواب الأمة تحت هذا الشعار "أنصفوا المرأة تسعد الأمة"، وطالبنا فيـه بتحقيـق مطالـب

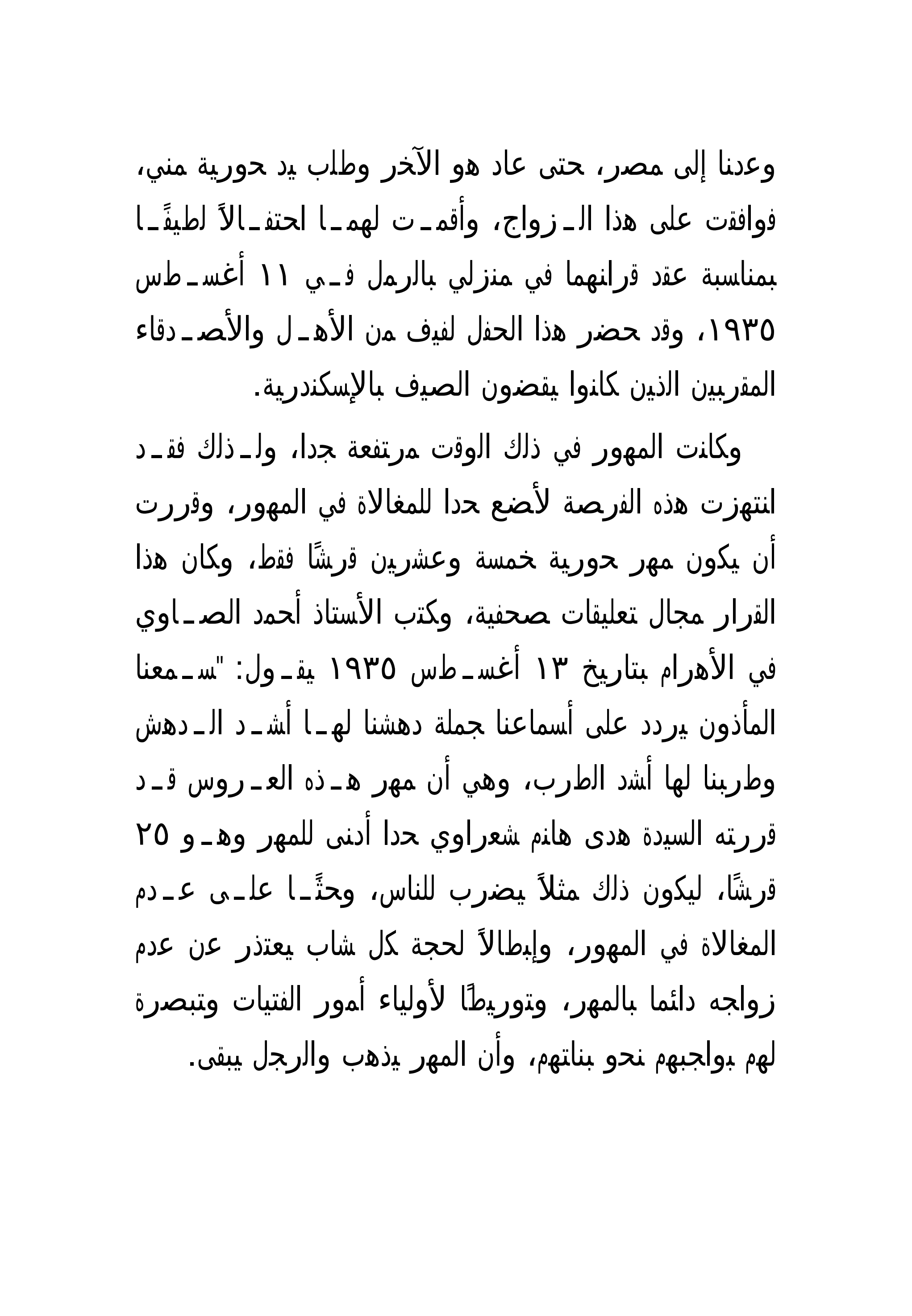
المرأة المشروعة، وهي: منع تعدد الزوجات لغير الضرورة، ومنع فوضى الطلاق، وإلغاء قضايا الطاعة، ومد أجل الحضانة للولد حتى يبلغ وللبنت حتى تتزوج، وتحديد سن الزواج.

زواج حورية إدريس

كانت الآنسة حورية إدريس (ابنة خالي) ضمن أعضاء وفد الاتحاد النسائي المصري الذي اشترك في المؤتمر الدولي الرابع عشر في استانبول، ولم تكن تركيا غريبة بالنسبة لنا، فإن والدتي تنحدر أصلاً منها، وقد تعددت زياراتي لها، كما أسلفت في مستهل هذه المذكرات.

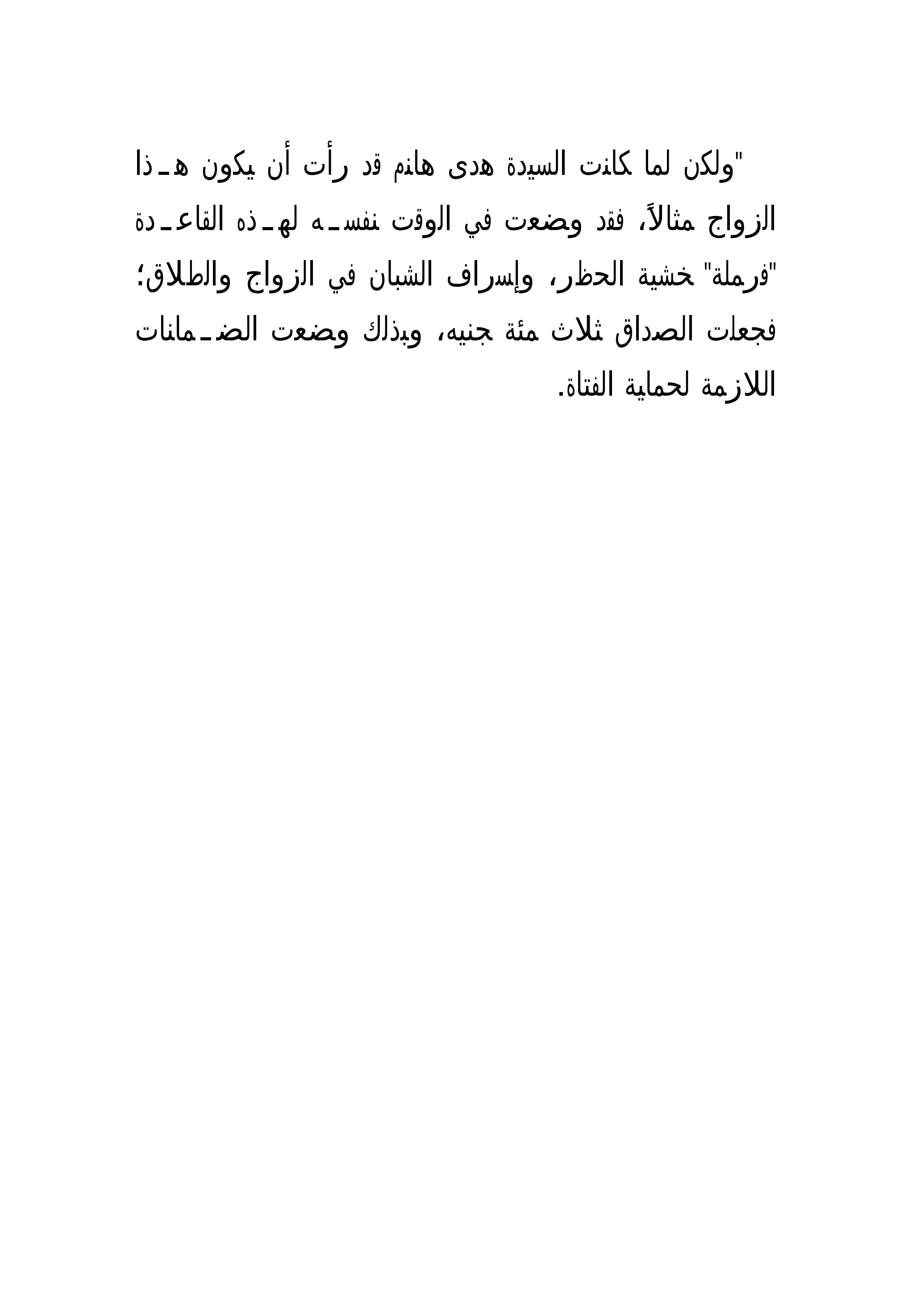
وكان من بين الهيئات التي قامت بتكريمنا هناك سفارتنا المصرية، وكان ضمن أعضاء السفارة سكرتير أول هو الأستاذ "حسن شفيق" ابن أحمد شفيق باشا، الذي كان رئيسا لديوان الخديوي، وهو رجل فاضل خدم وطنه حقبة طويلة من الزمن، وكتب تاريخ مصر في ثلاثة مجلدات سماها "مذكراتي في نصف قرن".

وقد نشأت بين حسن وحورية ألفة خلال الفترة القصيرة التي أمضيناها في استانبول، وما إن انتهينا من المؤتمر



وعدنا إلى مصر، حتى عاد هو الآخر وطلب يد حورية مني، فوافقت على هذا الزواج، وأقمت لهما احتفالاً لطيفًا بمناسبة عقد قرانهما في منزلي بالرمل في ١١ أغسطس ١٩٣٥، وقد حضر هذا الحفل لفيف من الأهل والأصدقاء المقربين الذين كانوا يقضون الصيف بالإسكندرية.

وكانت المهور في ذلك الوقت مرتفعة جدا، ولذلك فقد انتهزت هذه الفرصة لأضع حدا للمغالاة في المهور، وقررت أن يكون مهر حورية خمسة وعشرين قرشًا فقط، وكان هذا القرار مجال تعليقات صحفية، وكتب الأستاذ أحمد الصاوي في الأهرام بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩٣٥ يقول: "سمعنا المأذون يردد على أسماعنا جملة دهشنا لها أشد الدهش وطربنا لها أشد الطرب، وهي أن مهر هذه العروس قد قررته السيدة هدى هانم شعراوي حدا أدنى للمهر وهو ٢٥ قرشًا، ليكون ذلك مثلاً يضرب للناس، وحثًا على عدم المغالاة في المهور، وإبطالاً لحجة كل شاب يعتذر عن عدم زواجه دائما بالمهر، وتوريطًا لأولياء أمور الفتيات وتبصرة لهم بواجبهم نحو بناتهم، وأن المهر يذهب والرجل يبقى.



"ولكن لما كانت السيدة هدى هانم قد رأت أن يكون هـذا الزواج مثالاً، فقد وضعت في الوقت نفسـه لهـذه القاعـدة "فرملة" خشية الحظر، وإسراف الشبان في الزواج والطلاق؛ فجعلت الصداق ثلاث مئة جنيه، وبذلك وضعت الضـمانات اللازمة لحماية الفتاة.